تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد السادس

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم
محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية
الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طَبْعَةٌ جَدِيدَة
بِصَفٍّ وَإخراجٍ جَدِيد

ٱلتَّنفِيذُ ٱلطِّبَاعِي
فِي مَطَابِعِ دَارِ ٱلخَيْر



للمراسلة : دمشق ـ سوريا ـ حلبوني ـ جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب : ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ ـ تلفاكس : ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة : ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت ـ لبنان ـ فردان ـ جنوب سيّار الدرك ـ بناء الشامي
هاتف : ٠١/٨١٠٥٧١ ـ تلفاكس : ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ ـ الرمز البريدي : ١١٠٣/٢٠٦٠



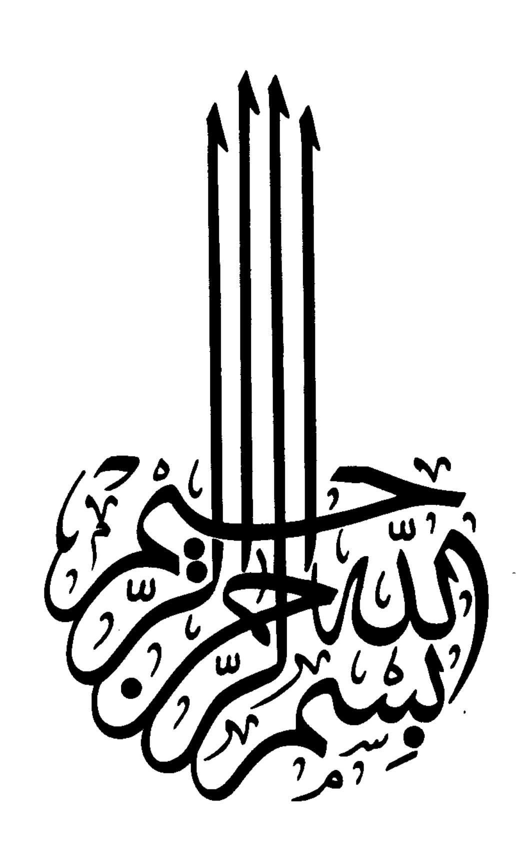
تَفْسِيرُ ابنِ عَطِيَّة

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة مريم

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع، إلاَّ السجدة منها، فقالت فرقة: هي مكيَّة، وقالت فرقة: هي مدنية[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

اختلف الناس في الحروف التي في أوائل السُّور على قولين: فقالت فرقة: هي سرُّ الله تبارك وتعالى في القرآن، لا ينبغي أن يُعرض له، يُؤمن بظاهره ويُترك باطنه. وقال الجمهور: بل ينبغي أن يُتَكَلَّم فيها وتطلب معانيها؛ فإن العرب قد تأتي بالحرف الواحد دالاً على كلمة، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى ما لا يُفهم، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة، ونذكر الآن ما يختص بهذه السُّورة.

قال ابن عباس، وابن جبير، والضحاك: هي حروف دالَّةٌ على أسماءٍ من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، الكافُ من (كبير)، وقال ابن جبير أيضاً: هي من (كافٍ)، وقال أيضاً: هي من (كريم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمقتضى أقواله أنها دالة على كل اسم فيه كافٌ من أسماء الله تبارك وتعالى. قالوا: والهاءُ من (هادٍ)، والياءُ من عليٍّ)، وقيل: من (حكيم)، وقال الربيع بن أنس: هي

---

(١) آية السجدة هي الآية رقم (٥٨).



من: «يا من يُجير ولا يُجارُ عليه». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والعين من (عزيز)، وقيل: من (عليم)، وقيل: من (عدْل)، والصاد من (صادق). وقال قتادة: بل [كَهيعَصَ] بجملته اسم السورة، وقالت فرقة: بل هي اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وروي عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا كَهيعَصَ اغفر لي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا يحتمل أن تكون الجملة اسماً من أسماء الله تعالى، ويحتمل أن يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمَّنها [كَهيعَصَ]، كأنه أراد أن يقول: يا كريم يا هادي يا عليُّ يا عزيز يا صادق اغفر لي، فجمع هذا كله باختصار في قوله: «يا كَهيعَصَ». وقال ابن المستنير وغيره: [كَهيعَصَ] عبارة عن حروف المعجم، ونسبه الزجاج إلى أكثر هذه اللغات، أي: هذه الحروف منها ذكْرُ رحمة ربك عبده زكريًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا يتركب قول من يقول: ارتفع [ذِكْرُ] بأنه خبر عن [كَهيعَصَ]، وهي حروف تهَجٍّ يوقف عليها بالسكون.

وقرأ الجميع: (كَافْ) بإثبات الألف والفاء، وقرأ نافع (الهاءَ والياءَ) بين الكسر والفتح، ولا تدغم الدال في الذال[1]، وقرأ ابن كثير، ونافع أيضاً بفتح الهاء والياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الهاء وفتح الياء، وقد رُوي عنه بضم الياء، ورُوي عنه أنه قرأ: [كافُ] بضم الفاء، قال أبو عمرو الداني: معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب. وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وقرأ عاصم بكسرهما[2]، وقرأت فرقة بإظهار النون من [عَيِينْ]، وهي قراءة حفص عن عاصم، وهو القياس؛ إذ هي حروف منفصلة، وقرأ الجميع: [عَيِين] بإخفاء النون، جعلوها في حكم الاتصال، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من (صاد)، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله: [ذِكْرُ]، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخْليصِ بعضها من بعض.

---

(١) يريد الدال من (صادْ) والذال من (ذكْر).

(٢) قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ بفتح الهاء والياء.



وارتفع قوله: [ذِكْرُ] ـ فيما قالت فرقة ـ بقوله: [كٓهيعٓصٓ]، وقد تقدم وجه ذلك. وقالت فرقة: ارتفع على خبر مبتدإ تقديره: هذا ذكر. وقالت فرقة: ارتفع بالابتداء والخبر مُقدَّر، تقديره: «فيما أُوحي إليك ذِكْرُ». وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن يَعْمَر: «ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ»، بفتح الذال والكاف [المشددة](١) والراء، على معنى: هذا المَتْلُوُّ ذَكَّرَ رحمةَ ربك عبده، ومن قال «في الكلام تقديمٌ وتأخير» فقد تعسَّف. وقرأ الجمهور: [زَكَرِيَّاء] بالمدِّ، وقرأ الأعمش، ويحيى، وطلحة: [زَكَرِيَّا] بالقصر، وهما لغتان، وفيه لغات غيرهما.

وقوله تعالى: [نَادَى] معناه: بالدعاء والرغبة. واختلف في معنى إخفائه هذا النداء ـ فقال ابن جريج: ذلك لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء، ومنه قول النبي ﷺ: (خيرُ الذِّكر الخفيُّ)(٢)، وقال غيره: يستحب الإخفاءُ بين العبد ومولاه في الدعاء الذي هو في معنى القبول والمغفرة، لأنه يدل من الإنسان على أنه خير، فإخفاؤه أبعد من الرياء، وأما دعاءُ زكريا وطلبه فكان في أمر دنيا وهو طلب الولد فإنما أخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك، وليكون على أوَّل أمره، إن أُجيب نال بُغيته، وإن لم يُجَب لم يعرف أحد بذلك. ويقال: وصف بالخفاء لأنه كان في جوف الليل.

و(وَهنَ) معناه: ضَعُف، والوَهَنُ في الشخص والأمر: الضَّعْفُ. وقرأ الأعمش: [وَهِنَ] بكسر الهاء. [وَٱشْتَعَلَ] مستعارٌ للشيب من اشتعال النار، على التشبيه به، و[شَيْباً] نصب على المصدر في قول من رأى [ٱشْتَعَلَ] في معنى شابَ، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك، بل رآه فعلا آخر، فالأمر عنده كقولهم: امتلأتُ غيظاً.

قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ شُكْر لله تعالى على سالف أياديه عنده، معناه: قد أحسَنْت إليَّ فيما سلف، وسعدت بدعائي إيَّاكَ، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾. الآية، اختلف الناسُ في المعنى

---

(١) ما بين العلامتين [. . . . . .] زيادة عن ابن جني في (المحتسب).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن سعد بن أبي وقاص، ولفظه: (خير الذكر الخفيُّ، وخير الرزق ما يكفي)، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير).

الذي من أجله خاف الموالي ـ فقال ابن عامر، ومجاهد، وقتادة، وأبو صالح: خاف أن يَرِثُوا ماله وأن تَرِثَه الكلالة، فأشفق من ذلك، وروى قتادة، والحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه مِمَّن يرث ماله)[١]، وقالت فرقة: إنما كان مواليه مهملين للدِّين، فخاف بموته أن يضيع الدِّين فطلب وليّاً يقوم بالدِّين بعده، حكى هذا القول الزجاج، وفيه أنه لا يجوز أن يسأل زكريا من يرث مالَه إذ الأنبياءُ لا تورث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يؤيده قول النبي ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)[٢]، ويوهنه ذكر العاقِر، والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثة المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث) ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم، فتأمله. والأظهر الأليق بزكريَّا عليه السلام أنه يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة، ألا ترى أنه إنما طلب وليّاً ولم يخصص ولداً فبلَّغه اللهُ أمله على أكمل الوجوه؟ وقال أبو صالح وغيره: قوله: [يَرِثُنِي] يريد المالَ، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به العلم والنبوة، وقال السدي: رغب زكريا في الولد.

و[خِفْتُ] من الخوف، وهي قراءة الجمهور، وعليه هو هذا التفسير، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يَعْمَرَ، وابن جُبَيْر، وعليُّ ابن الحسين، وغيرهم: [خَفَّتِ] بفتح الخاء وفتح الفاء وشدِّها وكسر التاء، وعلى إسناد الفعل إلى [الْمَوَالي]، والمعنى ـ على هذا ـ: انقطع أوليائي وماتوا، وعلى هذه القراءة فإنما طلب وليّاً يقوم بالدِّين. و[الْمَوَالي]: بنو العَمِّ والقرابة الذين يَلُون بالنسب. وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعْدي في الزمن، فهم

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال: نُبُوَّته وعِلْمه، وقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة، ويرحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد). (الدر المنثور).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، عن أبي هريرة، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعد مؤْنَة عاملي ونفقة نسائي صدقة) ورواه البخاري ومسلم بلفظ (إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة)، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.



الوراءُ على ما بيَّناه في سورة الكهف[١]، وقال أبو عبيدة في هذه الآية: أي من بين يديَّ ومِنْ أمامِي، وهذا قِلَّة تحرير. وقرأ ابن كثير: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بالمدِّ والهمز وفتح الياء، وقرأ أيضاً ابن كثير: [من وراي] بالياء المفتوحة مثل (عَصَايَ)، والباقون همزوا ومدُّوا وسكَّنوا الياء.

و«العَاقِرُ» من النساء التي لا تلد من غير كِبَر، وكذلك العاقر من الرجال، ومنه قول عامر بن الطُّفَيْل:

لَبِئْسَ الْفَتَى إنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِراً جباناً فَمَا عُذْري لدَى كُلِّ مَحْضَرِ؟[٢]

وزكريَّا عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب وليّاً، ولم يصرح [بالولد][٣] لِبُعْدِ ذلك بسبب المرأة، ثم وصف الولّي بالصفة التي هي قصده، وهي أن يكون وارثاً، وقالت فرقة: بل طلب الولد، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفُّظاً من أن تقع الإجابة في الولد ثم يُخْتَرم[٤] فلا يتحصل منه الغرض المقصود.

وقرأ الجمهور: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفع الفعلين على معنى الصفة لِلْوَلِّي، وقرأ أبو عمرٍو، والكسائي: [يرثني ويرث] بجزم الفعلين، وهذا على مذهب سيبويه ليس هو جواب [هَبْ]، إنما تقديره: إنْ تَهَبْهُ يَرِثْني، والأول أصوب في المعنى؛ لأنه طلب وارثاً موصوفاً، ويضعف الجزم أنه ليس كلُّ موهوب يرث. وقرأ علي بن أبي طالب،

---

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٩): ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

(٢) البيت في الديوان، وفي الشعر والشعراء، وهو من المفضَّليَّة ١٠٦، وقد فخر فيها بنفسه، وكان فارساً مغواراً، وفي يوم من أيامهم يُسَمَّى (فيف الريح) كان بين بني عامر وبين بني الحارث حدث قتال شديد، وخرج عامر يتفقد أصحابه في المعركة، ويقول: من أبلى شيئاً فليرني سيفه أو رمحه، فخدعه رجل اسمه مُسْهَرٌ، وكان من أعدائه واندسَّ في صفوف قومه، وقال: انظر يا أبا عليٍّ ما فعلت برمحي، فلما أقبل عامر لينظر إلى الرمح وجَأَه به في وجنته ففلقها وانشقَّت عين عامر، وكان النصر مع ذلك لبني عامر، وقال القصيدة، وقبل هذا البيت يقول مشيراً إلى حادثة مُسْهَرٍ هذا:

لَعَمْـرِي ومـا عَمْـرِي عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ لَقَـدْ شَـانَ حُـرَّ الْـوَجْـهِ طَعْنَـةُ مُسْهَـرِ

والرواية في الديوان والمفضليات: (فبئس الفتى)، والشاهد أن الرجل الذي لا يولد له يقال له: عاقر، وفي اللسان: «وَرَجُلٌ عَاقِرٌ وَعَقِيرٌ: لا يولد له».

(٣) زيادة من كتب التفسير لتوضيح المراد.

(٤) اخترمته المَنِيَّةُ: أخذته. وخَرَم الوباءُ القوم واخترمهم: استأصلهم وأفناهم.



وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما: «يَرِثُني وارثٌ من آل يعقوب»، قال أبو الفتح: وهذا معناه التجريد، والتقدير: يَرِثُني منه أَوْ به وارثٌ[1]، وقرأ مجاهد: «يَرِثُني أُوَيْرِثٌ» على التصغير، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ يريد: يرث منهم الحكمة والعلم والنبوة، والميراث في هذا كله استعارة. و«رَضِيٌّ» معناه: مَرْضِيٌّ، فهو فعيل بمعنى مفعول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾.

المعنى: قيل له بأثر دعائه: إنَّا نبشِّرك بغلام يولد لك اسمه يحيى، وقرأ الجمهور: (نُبَشِّرُكَ) بفتح الباء وكسر الشِّين مشددة، وقرأ أصحاب ابن مسعود: [نَبْشُرُكَ] بسكون الباء وضم الشين.

قال قتادة: سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالنبوة والإيمان، وقال بعضهم: سُمِّي لأن الله أحيا به الناس بالتدين، وقوله: [سَمِيّاً] معناه في اللغة: لم نجعل له مشاركاً في هذا الاسم، أيْ: لم يُسَمَّ قبل بيحيى، وهذا قول قتادة، وابن عباس، وابن أسلم، والسدي، وقال مجاهد وغيره: [سَمِيّاً] معناه: مثلاً ونظيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كأنه من المساماة والسمُوِّ، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى عليهما السلام إلاَّ أن يفضل في السؤدد والحصر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لم تلد العواقر مثله.

وقول زكريا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ اختلف الناس فيه فقالت فرقة: إنما طلب الوليِّ

---

(١) قال أبو الفتح: «وهو الوارثُ نفسه، فكأنه جرَّد منه وارثاً، ومثله قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾، فهي نفسها دار الخلد، فكأنه جرَّد من الدَّار داراً».



دون تخصيص وَلَد، فلما بُشِّر بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه، وقالت فرقة: إنما كان طلب الولد وهو بحال يوجد الولد فيها بزواج غير العاقر، أَوْ بُشِّرَ ولم تقع إجابته إلاَّ بعد مُدَّة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له، فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكِبَر والعُتُوِّ فيه، وقالت فرقة: بل طلب الولد فلما بُشِّر به لحين الدعوة استفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك. كيف طريق الوصول إلى هذا؟ وكيف نفذ القدر به؟ لاَ أنه بَعُد عنده هذا في قدرة الله.

والعِتِيُّ والعِسِيُّ: المبالغة في الكِبَر ويبْسُ العود أو شيب الرأس ونحو هذا، وقرأ حمزة، والكسائي[1]: (عِتِيّاً) بكسر العين، والباقون بضمها، وقرأ ابن مسعود: [عَتِيّاً] بفتح العين، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ: «عُسِيّاً» بضم العين وبالسين، وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أدري، أكان رسول الله ﷺ يقرأُ في الظهر والعصر، ولا أدري أكان يقرأُ: [عِتِيّاً] أو [عِسِيّاً] بالسين، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: نادى جبريل زكريَّا «إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيى»، فلقيه الشيطان فقال له: إن ذلك الصوت لم يكن لِمَلك وإنما كان لشيطان، فحينئذ قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ ليتَثَبَّت أن ذلك من عند الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وزكريَّا هو من ذرية هارون عليه السلام، وقال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقيل: ابن سبعين، وقال الزجاج: ابن خمس وستين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقد كان غلب على ظنه ألاَّ يولد له.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، قيل: إن المعنى: قال له المَلَك: كذلك فليكن الوجود، كما قيل لك: قال رَبُّك: خَلْقُ الغُلاَم عليَّ هَيِّنٌ، أيْ: غَيْرُ بِدْعٍ، وكما خلقتك قَبْلُ وأخرجتك من عدم إلى وجودٍ كذلك أفعل الآن. وقال الطبري: معنى قوله: [كَذَٰلِكَ] أي: الأمران اللذان ذكرتَ من المرأة العاقر والكِبَر هو كذلك ولكن قال ربُّك.

---

(١) وكذلك قرأ عاصم كما هو ثابت في المصحف، وابن وثاب كما قال القرطبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى عندي: قال الملك كذلك، أي: على هذه الحال قال ربك هو عليَّ هَيِّنٌ.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [وقد خلقناك]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾، أي: موجوداً. قال زكريَّا: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: علامةً أعرف بها صِحَّة هذا وكونه من عندك، وروي أن زكريَّا عليه السلام لما عَرَفَ ثمَّ طَلَبَ الآية بعد ذلك عاقبه الله بأن أصابه بذلك السكوت عن كلام الناس، وذلك وإن لم يكن عن مرض ـ خرسٍ أو نحوه ـ ففيه على كل حال عقابٌ مَّا، ورُوي عن ابن زَيْدٍ أن زكريا عليه السلام لما حملت زوجُه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، ويذكر الله، فإذا أراد مناداة أحد لم يُطقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل مع هذا أن يكون قوله: ﴿اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ معناه: علامةً أعرف بها أن الحمل قد وقع، وبذلك فسَّر الزجاج.

ومعنى قوله: [سَوِيًّا] فيما قال الجمهور: صحيحاً من غير علَّة ولا خَرَسٍ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ أيضاً: ذلك عائد على الليالي، أراد: كاملاتٍ مستوياتٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكريَّا من محرابه وهو موضع الصلاة، و«المحْرابُ» أرفع المواضع والمباني؛ إذ هي تحارب من ناوأها، ثم خصَّ بهذا الاسم مبنى الصلاة، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه ـ فقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرْب، كأن مُلازِمه يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرَب ـ بفتح الراء ـ، كأن مُلازِمه يلقَى فيه حرباً وتعباً ونصباً، وفي اللفظ بعد هذا نظر.

وقوله: [فَأَوْحَى]، قال قتادة، وابن منبه: كان ذلك بإشارة، وقال مجاهد: بل بأن كتبه في التراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلا القولين وحْيٌ. وقوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾، [أَنْ] مُفَسِّرة، بمعنى أيْ[1]،

---

(١) وهذا أيضاً رأي الزمخشري، وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون بمعنى (أي)، وقال=



و[سَبِّحُوا] قال قتادة: معناه: صلُّوا، والسبحة: الصلاة، وقالت فرقة: بل أمرهم بذكْر الله وقَوْل: سبحان الله، وقرأ طلحة: ﴿أن سبحوه﴾ بضمير، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾.

المعنى: «فَوُلِدَ لَهُ، وقال الله للمولود: يا يَحْيَى». وهذا اختصار ما يدلُّ الكلامُ عليه. و«ٱلْكِتَاب»: التوراة بلا خلاف؛ لأنه وُلد قبل عيسى عليه السلام ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس، وقوله: [بِقُوَّةٍ]، أي: العلم به، والحفظ له، والعملُ به، والالتزام للوازمه.

ثم أخبر الله تعالى فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾﴾، واختلف في «الحكم» ـ فقالت فرقة: الأحكام والمعرفة بها، و[صَبِيّاً] يريد: شاباً لم يبلغ حدَّ الكهولة، وقال الحسن رحمه الله: الحُكْمُ: النُّبوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي لفظة (صَبِيٍّ) ـ على هذا ـ تجوُّز واستصحابُ حال.

وقالت فرقة: الحُكْمُ: الحِكْمَة، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دَعَوْهُ وهو طفل إلى اللعب فقال لهم: إني لم أُخلق للَّعب، فتلك الحِكْمَة التي آتاه الله عزَّ وجلَّ وهو صبي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أُوتي الحُكْمَ صبياً.

وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على قوله: [ٱلْحُكْمَ]، و[زَكَاةً] عطف عليه، أُعمل في جميع ذلك [آتَيْنَا]، ويجوز أن يكون [وَحَنَاناً] عطف على صَبِيّاً]، أي: وبحال حنانٍ مَّا وتزكية له. و«الحَنَانُ»: الرحمة والشفقة والمحبة، قاله جمهور المفسرين، وهو تفسير اللغة، وهو فعل من أفعال النفس، ويقال: حنانك وحنانيك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد، وقيل: حنانيك تثنية الحنان، وقال عطاءُ بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾: تعظيماً من لدنا.

= الحوفي: ﴿أَن سَبِّحُوا﴾، [أنْ] نصب بـ[أَوْحَى].



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح رضي الله عنه: «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتَّخذنَّ فيه حناناً»، وقد روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «والله ما أدري ما الحنان». و«الزَّكاةُ» التَّطهير والتنمية في وجوه الخير والبر، و«التَّقِي» فعيل من تقوى الله عزَّ وجلَّ، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (كلُّ ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ؛ إلاَّ ما كان من يحيى بن زكريَّا صلوات الله عليه[1]، وقال قتادة رحمه الله: «إن يحيى بن زكريَّا عليه السلام لم يعص الله قطُّ بكبيرة ولا صغيرة ولا همَّ بامرأة»، قال قتادة: وكان طعامه صلوات الله عليه العُشب، وكان للدمع في خدِّه مجارٍ ثابتة. ومن الشواهد في الحنان قول امرىء القيس:

ويمْنحهـا بَنـو شَمَجَـى بـنِ جَـرْمٍ ... مَعيـزَهُـمُ، حَنَـانَـكَ ذَا الْحَنَـانِ[2]

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن أبي حاتم، والحاكم، عن عمرو بن العاص. وأخرج نحوه أحمد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج نحوه عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، وبنفس السند عن قتادة رفع الخبر الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك عن قتادة، عن الحسن إلى النبي ﷺ.

(٢) البيت في الديوان، وفي اللسان والتاج (حنن)، ومختار الشعر الجاهلي، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط. وهو واحد من ثلاثة أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الزمان وتقلبه، وفي الشكوى من بني شَمَجَى بن جرم، وكان في غاية الألم منهم والزِّراية عليهم، وقبله يقول:

مُجَـاوِرَةً بَنـي شَمَجَـى بْـنِ جَـرْمٍ ... هَـوَانـاً مـا أُتِيـحَ مِـنَ الْهَـوَانِ

وقوله: (وَيَمْنَحُهَا) هي رواية الأصمعي، أما رواية ابن الأعرابي فهي (وَيَمْنَعُهَا)، والمعنى على رواية الأصمعي: يعطيها، وفسر قوله: (حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ) فقال: رَحْمَتَكَ يا رَحمن، أي: أنزلْ عليهم رحمتكَ ورزْقَك، أما رواية ابن الأعرابي وهي التي في الديوان وفي اللسان والتاج فقد فسرها بقوله: (حَنَانَكَ ذَا الحنَانِ) معناه: رحْمَتَكَ يا رَحمن، فأَغْنِني عنهم، قال صاحبُ اللسان: «فرواية ابن الأعرابي تسخُّطٌ وذَمٌّ، وكذلك تفسيره، ورواية الأصمعيِّ تَشَكُّرٌ وحَمْدٌ ودعاءٌ لهم، وكذلك تفسيره». ونقطع بأن رواية ابن الأعرابي هي الأصح لأنها تتفق في المعنى مع الأبيات السابقة التي جعلت جيرة بني شَمَجَى بن جرم لامرىء القيس وقومه هواناً ما أُتيح من قبل.



وقول النابغة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ[(١)]

وقول الآخر:

فقالت: حنانٌ ما أَتَى بِكَ هَا هُنَا؟ أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفُ؟[(٢)]

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، البَرُّ: الكثير البِرِّ، والجبَّار: المتكبِّر، كأنه يجبر الناس على أخلاقه، والجَبَّارَةُ: النخلة العالية العظيمة، والعَصِيُّ أَصْلُه عَصُويٌ، فعولٌ بمعنى فاعل، وروي أن يحيى عليه السلام لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: أمانٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأشبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه، وهي أقلُّ درجاته، وإنما الشرف في أن سلَّم الله عليه وحيَّاهُ في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله وعظيم الهول.

وذكر الطبري عن الحسن رحمه الله أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريَّا صلوات الله

---

(١) البيت لطرفة بن العبد لا للنابغة، ولعل الخطأ من النساخ، وهو في الديوان واحد من ثمانية أبيات نسبت إلى طرفة، وقيل إنه أنشدها وهو في السجن يخاطب عمرو بن هند، والبيت أيضاً في (مجاز القرآن)، و(الكتاب)، و(الكامل)، و(الطبري)، و(الجمهرة)، و(القرطبي)، و(الشنتمري)، و(البحر المحيط)، وفي اللسان، والتاج (حَنَنَ)، وفي (الهَمْع) و(ابن يعيش)، ويستشهد به النحويون على أن (حَنَانَيْكَ) نصبت على المصدر النائب عن الفعل، وقد ثني (حنانيك) لإرادة التكثير؛ لأن التثنية أول مراتب التكثير، وأبو مُنْذر هو عمرو بن هند، وقد اشتهرت قصة طرفة مع هذا الملك، والنصف الثاني من البيت مثل يضرب عند ظهور شَرَّيْن أحدهما أقْسَى من الثاني.

(٢) البيت للمنذر بن درهم الكلبي، قال ذلك في خزانة الأدب وفي معجم البلدان، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب على أن (حنانٌ) رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أَمْرُنَا حنان، قال: «لم تُرِدْ: تَحَنَّنْ، ولكنها قالت: أَمْرُنَا حَنانٌ، أو ما يُصيبنا حنانٌ»، والحنان: الرحمة والتَّحَنُّن بالعطف والمودة والرقَّة. والبيت في اللسان، والتاج (حَنَنَ) وفي (الكامل)، و(ابن يعيش)، وهي تسأله عن سبب مجيئه، هلْ جاء لأن له قرابة أم لأنه يعرف الحيَّ وأهله؟ وقد قالت ذلك حين فاجأها فأنكرته أو تظاهرت بأنها لا تعرفه.

عليهما التقيا، وهما أبناءُ الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادْعُ لي فأَنت خير منِّي، فقال له عيسى: بل أنت ادْع لي فأنت خيرمنِّي، سلَّمَ الله عليك وأنا سلَّمت على نفسي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال لي أبي رحمه الله: انتزع بعضُ العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال: إدْلالُه في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يُسَلَّم عليه. ولكُلٍّ وَجْهٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ قصة ليست من الأولى، والخطاب لمحمد ﷺ. و«ٱلْكِتَاب»: القرآن، و«مريم» ابنة عمران أُمُّ عيسى أُخْتُ أُمِّ يحيى. واختلف الناس، لم انتُبَذَت، والانتباذ: التَّنَحِّي ـ فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض، وقال غيره: لتعبد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أحسن؛ وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت عن الناس لذلك، وقوله: ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ يريد جهةَ الشرق من مساكن أهلها، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يُعَظِّمُون جهة الشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيءٍ أفضل من سواها، حكاه الطبري رحمه الله.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إني لأَعْلَم الناس لِمَ اتَّخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾، فاتخذوا ميلاد عيسى قِبلة. وقال بعض الناس: الحجابُ هي اتَّخذته لِتَسْتَتِرَ به عن الناس لعبادتها، وقال السدي: كان من جُذْران، وقيل: من ثياب، وقال بعض المفسرين: اتخذت المكان بشرقي المحراب.

و«الرُّوحُ»: جبريل عليه السلام، وقيل: عيسى، حَكَى الزجاج القولين، فمن قال



إنه جبريل قدَّر الكلام: فتمثل هو لها، ومن قال إنه عيسى قدَّر الكلام: فتمثَّل لها المَلَك. قال النقاش: ومن قرأ: «روحَنَّا» بتشديد النون جعله اسمَ مَلَك من الملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم أر هذه القراءة لغيره.

واختلف الناس في نُبُوَّة مريم ـ فقيل: كانت نَبيَّةً بهذا الإرسال وبالمحاورة مع الملك، وقيل: لم تكن نبيَّةً، وإنما كلَّمها مِثَالُ بَشَرٍ، ورُؤْيتها للمَلَك كما رُئي جبريل في صفة دحية، وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام، والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾، المعنى: قالت مريم للملك الذي تمثَّل لها بشراً لمَّا رأتهُ قد خرق الحجاب الذي اتخذته فأساءَتْ به الظن، قالت: إنِّي أعوذ بالرحمن منك إن كُنْتَ ذا تُقَى، قال أبووائل: علمت أن التَّقِيَّ ذو نُهْية، وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: تعني اسم رجل فاجر كان في ذلك الزمان في قومها، فلما رأته مُتَسَوِّراً عليها ظنته إياه فاستعاذت بالرحمن منه، حَكَى هذا مكيٌّ رحمه الله وغيره. وهو ضعيف ذاهب مع التَّخرص. قال لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾، جعل الْهِبَةَ من قِبَله لمَّا كان الإعلام بها من قبله.

وقرأ الجمهور: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كما تقدم، وقرأ نافع، وأبو عمرو: [ليهب لك] بالياء، أي: لِيَهَبَ لَكِ الله، واختلف عن نافع رحمه الله، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لِيَهَبَ ٱللهُ لَكِ».

فلما سمعت مريم بذلك واستشعرت ما طرأ عليها، استفهمت عن طريقه، وهي لم يمسسها بشَر بنكاح ولم تك زانية. و«الْبَغِيُّ»: المجاهرة المشتهرة في الزِّنى، فهي طالبة له، أصله بَغُوي على وزن فعُول كَبتُولٍ، ولو كانت فعيلاً لقويَ أن تلحقها هاءُ التأنيث فيقال: بَغِيَّة[1].

---

(١) الذي قال بأن الأصل في بَغِيٍّ: (بَغُوي) هو المبرد، قال: اجتمعت الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأُدغمت الياءُ في الياء، وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي. وقال ابن جني: هي فعيلٌ، ولو كانت فعولا لقيل: بَغُوٌّ، كما قيل: فلانٌ نَهُوٌّ عن المنكر، وقيل: لمَّا كان هذا اللفظ خاصّاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة تأنيث، فصار مثل حائض وطالق، والرَّجل يقال له: باغٍ، وقيل: (بَغِيٌّ فعيل بمعنى: مفعول، كما قيل: عينٌ كَحِيلٌ بمعنى: مكحولٌ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال لها المَلَك: كذلك هو كما وصَفْتِ، ولكن قال ربُّك، ويحتمل أن يريد: على هذه الحال قال ربُّك، والمعنى متقارب، و«الآيَةُ»: العِبْرة المعرضة للنظر، والضمير في قوله: [وَلِنَجْعَلَهُ] للغلام، ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾، أي: طريق هُدًى لعالم كثير، فينالون الرحمة بذلك. ثم أعلمها بأن الأمر قد قُضي وانتجز، و«الأمر» هنا واحدُ الأُمور، وليس بمصدر: أَمَرَ يَأْمُرُ، وروي أن جبريل عليه السلام ـ حين قال لها هذه المقالة ـ نفخ في جيب دِرْعها، فَسَرَت النفخة بإذن الله تعالى حتَّى حملتْ منها، قاله وهب بن منبه وغيره. وقال ابن جُرَيْج: نفخ في جيب دِرْعها وكفِّها، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: دخل الرُّوحُ المنفوخ من فمها، فذلك قوله: [فَحَمَلَتْهُ]، أي: فحملت الغلام.

ويُذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلمَّا أحسَّت بذلك وخافت تعنيف الناس وأن يُظَنَّ بها الشر انتبذت به، أي: تنَحَّت مكاناً بعيداً حياءً وفِراراً على وجهها، وروي في هذا أنها فرَّت إلى بلاد مصر ونحوها، قاله وهب بن منبه، ويُروى أيضاً أنها خرجت إلى موضع يعرف ببيت لَحْم، بينه وبين إيلياء أربعة أميالٍ.

و[أَجَاءَهَا] معناه: اضطرها، و(أَجَاءَ) هو تعدية (جاءَ) بالهمزة، وقرأ شُبيْلُ بنُ عَزْرَةَ[1] ـ ورويت عن عاصم ـ: [فَاجَأَهَا]، من المفاجأة، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: «فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ»، وقال زهير:

(١) في الأصل: شِبْلُ بن عزْرَة، والتصويب عن كتب القراءات، قال في تقريب التهذيب: «شُبَيْل ـ بالتصغير ـ ابن عَزْرَةَ ـ بفتح المهملة بعدها زايٌ ساكنة ثم راءٌ ـ الضُّبَعِيُّ، أبو عمرو البصري النحوي، صدوق، من الخامسة»، وفي الأصول أن القراءة [فَاجاهَا] بفاءٍ فألف ممدودة بدون همز، ولكن قال أبو الفتح ابن جنِّي في المحتَسَب: «[فَاجَأَهَا] مثل فَأَلْجَأَهَا، ورواها ابن مجاهد أيضاً أنها من المفاجأة، إلا أن ترك همزها إنما هو بدلٌ لا تخفيف قياسي، وقد يجوز أن تكون القراءة على التخفيف القياسي، إلاَّ أنه لطفت لضعف الهمزة بعد الألف، فظنها القراءُ ألفاً ساكنةً مَدَّةً، إلاَّ أن قوله: مثل (ألجأها) يشهد لقراءة الجماعة (فَأَجاءَهَا) وقد يمكن أن يكون المراد: مثل أجاءها إذا أُبدلت همزته ألفاً، فيكون التشبيه لفظياً لا معنويا».



وجَـــارٍ سَـــارَ مُعْتَمِـــداً إلَيْكُـــمْ   أَجَـاءَتْـهُ الْمَخَـافَـةُ والـرَّجَـاءُ[(١)]

وقرأ الجمهور: [ٱلْمَخَاضُ] بفتح الميم، وقرأ ابن كثير فيما رُوي عنه ـ بكسرها، وهو الطَّلْقُ وشدَّةُ الولادة وأوجاعها، وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بالٍ يابسٌ في أصله مدود بقرة على جرية ماءٍ، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته ـ لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وَجْه ـ: يا ليتني متُّ ولم يجْر عليَّ هذا القَدَر.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم[(٢)]، وأبو عمرو، وجماعة: [مُتُّ] بضم الميم، وقرأ الأعرج، وطلحة، ويحيى، والأعمش بكسرها، واختلف عن نافع. وتمنت مريم الموت من جهة الدِّين؛ إذ خافت أن يُظن بها الشَّرُّ في دينها، وتُعَيَّر فيفتنها ذلك، وعلى هذا الحدِّ تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين، ونَهْيُ النبي ﷺ عن تمني الموْتِ إنما هو لِضُرٍّ نزل بالبدن[(٣)]، وقد أباحه ﷺ في قوله:

---

(١) البيت من قصيدة له معروفة، قالها في هجاء (آل حِصْن)، ومنها بيته المشهور:

وَمَـــا أَدْري وَسَـــوْفَ إِخَـــالُ أَدْرِي   أَقَـــوْمٌ آلُ حِصْـــنٍ أَمْ نِسَـــاءُ؟

وسببها أنهم أجاروا رجلا يحب القمار، فنهوه عنه ولكنه خالفهم ثلاث مرات، فتركوه لشأنه دون جوار بعد أن خسر زوجته وابنه في الرهان، فخرج عنهم وشكاهم إلى زهير، فقال هذه القصيدة، ثم لما علم الحقيقة ندم على هجائه، وقال: ما خرجتُ في ليلة ظلماء إلاّ خفتُ أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم، وفي هذا البيت يتحدث عن هذا الجار الذي سارَ إليهم معتمداً عليهم بعد أن ألجأته إليهم المخافة والرجاءُ. والشاهد هنا أن (أجاءَتْهُ) بمعنى: ألجأته واضطرته.

(٢) في رواية أبي بكر، أمَّا قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ فهي [مِتُّ] بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف.

(٣) نهى النبي ﷺ عن تمني الموت في حديث أخرجه البخاري في المرضى، والدعوات، والتمني، ومسلم في الذكر، وأبو داود والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه في البخاري كما جاء في كتاب التمني، باب ما يُكْرَهُ من التمني، قال أنس رضي الله عنه: لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تَتَمَنَّوُا المَوْتَ) لتَمَنَّيْت، وفي رواية عن سعد بن عبيد مولى عبد الرحمن بن أزهر أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَتَمَنَّى أحدكم الموتَ، إمَّا محسناً فلعله أن يزداد، وإمَّا مُسيئاً فلعلَّه يستعتب)، وعن خالد بن قيس قال: أتينا خبَّاب ابن الأرَتِّ نعوده وقد اكتوى سبعاً فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به.



(يأتي على الناس زمان يمرُّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه)(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأنه زمن فتَن تتصل بالدِّين.

وقالت: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾، أي: شيئاً متروكاً محتقراً، والنِّسْيُ في كلام العرب: الشيءُ الحقير الذي من شأنه أن يُنْسى فلا يُتَألَّم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه، يقال: نَسْيٌ ونِسْيٌ بفتح النون وكسرها، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ حمزة وحده بالفتح، واختلف عن عاصم، وكقراءة حمزة قرأ طلحة، والأعمش، ويحيى، وقرأ محمد بن كعب القُرظي: [نِسْئاً] بالهمز وكسر النون، وقرأ نوف البكالي: [نَسْئاً] بفتح النون، وحكاه أبو الفتح، وأبو عمرو الداني عن محمد بن كعب القُرظي، وقرأ بكر بن حبيب: [نَسّاً] بشد السِّين وفتح النون دون همز، وقال الشَّنْفَرَى:

كـأَنَّ لهـا فـي الأَرْض نِسْيـاً تَقُصُّـهُ ... إذا ما غَدَتْ وإنْ تُحَدِّثْك تَبْلَتِ(٢)

وحكى الطبري رحمه الله في قصصها أنها لمَّا حملت بعيسى حملتْ أيضاً أُختها بيحيى، فجاءتها أُختها زائرة فقالت: يا مريم، أشعرت أني حملتُ؟ فقالت لها مريم: أشعرتِ أنتِ أني حملتُ؟ قالت لها: وأَنِّي أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك أنه رُوي أنها أحسَّت جنينها يخرُّ برأسه إلى ناحية بطن مريم، قال السُّدِّي: فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن.

(٢) والبيت للشَّنْفَرى الأزدي، ومعنى الشَّنْفَرَى: عظيم الشَّفة، وهو ابن أُخت تأبَّط شرّاً، والبيت من المفضلية العشرين، قالها حين علم أن القوم الذين تربَّى فيهم وهم بنو سلامان ابن مفرج قد قتلوا أباه وأخذوه أسيراً، فتوعدهم بقتل مائة منهم، وفي القصيدة تحدث عن شدة بأسه وقوته، وفخر باستهانته بالحياة ومجازاته الخير والشَّرَّ بمثلهما. والبيت أيضاً في اللسان (نسى)، والنِّسْيُ: الشيءُ المنسيُّ الذي لا يُذكر، وقال الأخفش: النسْي: ما أُغفل من شيءٍ حقير ونُسي، وقال الزجاج: النَّسْي: الشيء المطروح الذي لا يُؤْبَه له، تقصُّه: تَتَبَعها، من القَصِّ وهو اتباع الأثر، والرواية في المفضليات: (عَلَى أَمِّهَا، وإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ) والأمُّ بفتح الهمزة: الشيءُ المقصود الذي تريده. وتَبْلت: تنقطع في كلامها فلا تطيل الحديث، يقول: كأنها من شدة حيائها إذا مَشَتْ تطلب شيئاً ضاع منها خفضت رأسها فلا ترفعها ولا تلتفت، وإن حدثتها فإنها لا تستطيع أن تجاريك أو تجاوبك من شدة الخجل.

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (آل عمران).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كلِّه ضعف، فتأمله. وكذلك ذكر الطبري في قصصها أنها خرجت فارَّة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد، وطوَّل الطبري في ذلك فاختصرته لضعفه، وهذه القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر، واستحيت من ذلك وفرَّت بسببه وهي حامل، وهو قول جمهور المتأولين، وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس إلاَّ أن حملت فوضعت في ساعة واحدة، والله أعلم.

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ يقتضي أنها كانت على عرف النساء، وتظاهرت الروايات أنها ولدته لثمانية أشهر؛ ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام، وقيل: ولدته لسبعة أشهر، وقيل: لِستَّة أشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو، وعاصم(١)، وابن عامر، وابن عباسٍ، والحسن، وزرُّ بن حبيش، ومجاهد، والجحدري، وجماعة: ﴿فَنَادَىٰهَا مَن تَحْتَهَآ﴾ على أن [مَنْ] فاعلٌ بـ[نَادَى]، والمراد بـ[مَنْ] عيسى، أي: ناداها المولود، قاله مجاهد، والحسن، وابن جُبَيْر، وأُبَيُّ بن كعب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد جبريل عليه السلام، ولم يتكلم عيسى حتَّى أتت به قومها، وقال علقمة والضحاك، وقتادة: ففي هذه آية لها وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مرادٌ عظيم، لا سيَّما والمنادي عيسى، فإنه يتبين به عذر مريم، ولا تبقى به استرابة، فلذلك كان النداءُ ألاَّ يقع حُزْن.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والبراءُ بن عازب، والضحاك، وعمرو بن ميمون، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، وعبد الله بن عباس ـ

(١) أي في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فبكسر الميم من [مِنْ].



رضي الله عنهما ـ أيضاً، والحسن: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ بكسر الميم على أنها لابتداء الغاية، واختلفوا ـ فقال بعضهم: هو عيسى عليه السلام، وقالت فرقة: المراد جبريل المجاور لها قَبْلُ، قالوا: وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أظهر، وعليه كان الحسن بن أبي الحسن يقسم.

وقرأ علقمة، وزِرٌّ بن حبيش: ﴿فَخَاطَبَهَا من تحتها﴾[1]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «فَنَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا».

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير للنداء، فـ[أَنْ] مفسِّرة بمعنى: أيْ، و«السَّرِيُّ» من الرجال: العظيمُ الخصال السَّيِّدُ، و«السَّرِيُّ» أيضاً: الجدولُ من الماء، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية ـ فقال قتادة، وابن زيد: أراد: جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأن، وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع النخلة، ورُوي أن الحسن فسَّر الآية فقال: أجل، لقد جعله الله سريّاً كريماً، فقال حميد بن عبد الرحمن الحميري: يا أبا سعيد، إنما نعني بالسَّري الجدولَ، فقال: لهذه وأشباهِها أُحبُّ قربك، ولكن غلبتنا عليك الأمراءُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن الشاهد في السَّرِيِّ قول لبيد:

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وصَدَّعَا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاَّمُهَا[2]

ثم أمرها بهزِّ الجذع اليابس لترى آية أُخرى في إحياء موات الجذع، فقالت فرقة:

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وينبغي أن يكون ذلك تفسيراً لا قراءة؛ لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه».

(٢) البيت من معلقة لبيد، والضمير في (فتوسَّطَا) يعود على العَيْر والأتان اللتين سبق الحديث عنهما، ويُرْوى: (فرمى بها عُرض السَّرِيِّ) وعليه فالضمير يعود على ناقته، والعُرْضُ: النَّاحية، ورُوي (عَرْضَ) بفتح العين، والسَّرِيُّ: جدول الماء، وصدَّعَا: شَقَّقَا وحطَّمَا النبت الذي على الماء، والمسجورة: المملوءة، والقُلاَّمُ: نَبْتٌ يَنْبُتُ على الأنهار وجداول الماء، وقيل: هو نوع من الحمض، وقُلاَّمُها فاعل مُتَجَاوِراً، ، مُتَجاوِراً نعتٌ لمسجورةٍ لأنه يراد بها العين المملوءة. والشاهد في قوله: (السَّرِيّ)، إذْ أنه النهر الصغير، أو جدول الماء.

كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً، وأُجري تحتها النهر لحينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلِّمُ لها، وأن الجذع كان يابساً، وعلى هذا تكون آية تُسَلِّيها وتسْكُن إليها، والباءُ في قوله: [بِجِذْعِ] زائدة مؤكدة، قال أبو علي: كما يقال: أَلْقَى بيده، أي: أَلْقَى يَدَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المثال نظر، وأنشد الطبري رحمه الله:

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ صَدْرُهُ ... وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ والشَّبَهَانِ[1]

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور من الناس: [تَسَّاقطْ] بفتح التاء وشدِّ السين، يريد النخلَة، وقرأ البراءُ بن عازب رضي الله عنه، والأعمش رحمه الله: [يَسَّاقَطْ] يريد الجذع، وقرأ حمزة وحده: [تَسَاقط] بفتح التاء وتخفيف السين، وهي قراءة مسروق، ويحيى بن وثاب، وطلحة ابن مصرف، وأبي عمرٍو ـ بخلاف ـ وقرأت فرقة: [يُسَاقِطْ] بالياء على ما تقدم من إرادة النخلة أو الجذع، وقرأ عاصم ـ في رواية حفص ـ: [تُسَاقِطْ] بضم التاء وفتح السين وتخفيفها، وقرأ أبو حيوة: [يُسْقِطْ] بضم الياء، وحكى أبو علي في الحجة أنه قرىء: [يَتَسَاقَطْ] بياءٍ وتاءٍ، وروي عن مسروق: [تُسْقِطْ] بضم التاء وكسر القاف، وكذلك عن أبي حيوة، وقرأ أبو حيوة أيضاً: [يَسْقُطْ] بفتح الياء وضم القاف ﴿رُطَبٌ جنيٌّ﴾.

---

(١) البيت في التاج واللسان (شبه)، وقد نقلا عن ابن دريد أنه لرجل من عبد القيس، ونقلا عن ابن بري أن أبا عبيدة قال: «البيت للأحْول اليشكري، واسمه يَعْلَى». أما السِّدْر فهو شجر النَّبْق، والمفرد: سِدْرة، والمَرْخ: شجر سريعُ الوَرْي كثيرُه، والشَّبَهان ـ ويقال أيضاً الشُّبُهان بضم الشين والباء ـ: نَبْت يشبه الثُّمَام، أو هو الثُّمام ـ والثُّمَام: عُشْب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة، والنَّوْرة سُنْبلةٌ مُدَلاَّة، ومنه الثُّمام السنبلي وهو الدُّخن كما يسمَّى في السودان ـ يقول الشاعر: إن هذا الوادي ينبت الأصناف الثلاثة: السِّدْرَ، والمَرْخَ، والشَّبَهان، لكن السِّدْر ينبت في أعلاهُ، أما المرخُ والشَّبَهان فينبتان في أسفله. والشاهد في البيت أن الباء في (بالمرخ) زائدة، والتقدير: ويُنْبتُ أسْفَلُه المرخَ. وقال في اللسان: «وإن شئتَ قدَّرته: وينبُتُ أسْفَلُه بالمرْخ، فتكون الباء للتعدية لمَّا قدَّرتَ الفعل ثلاثياً». هذا وقد قال ابن بري وحكاه في اللسان: «إن الشَّبَه كالسَّمُرِ كثير الشوك».

ونصب [رُطَباً] يختلف بحسب معاني القراءات المذكورة، فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهزّ، ومرة إلى النخلة، و[جَنِيّاً] معناه: قد طابَ وصلح[١] للاجتناءِ، وهو من جنيتُ الثمرةَ، وقرأ طلحة بن سليمان[٢]: [جِنِيّاً] بكسر الجيم، وقال عمرو بن ميمون: ما من شيءٍ خير للنُّفَسَاءِ من التمر والرطب، وقال محمد بن كعب: [رُطَباً]: عجوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعيٍ مَا فيه؛ لأنه أمر مريم بهَزِّ الجذع لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهزَّ.

وحكى الطبريُّ عن ابن زيد أنه قال لها عيسى: «لا تَحْزَنِي»، فقالت: وكيف لا أحزنُ وأنت معي، لا ذات زوج [فأَقول من زوج، ولا مملوكة فأقول من سيدي، أيُّ شيءٍ عذري عند الناس؟ ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾، فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام][٣].

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ الآية. قرأ الجمهور: (وَقَرِّي) بفتح القاف، وحكى الطبري قراءة [وَقِرِّي] بكسر القاف، وقُرَّة العين مأخوذة من القَرِّ، وذلك أنه يحكى أن دمع الفرح بارد ودمع الحزن سخن، وضعَّفت فرقة هذا وقالت: الدمع كله سخن، وإنما معنى قُرة العين أن البكاء الذي يسخن ارتفع، أيْ: لا حُزْن من الأمر الذي قرت به العين، وقال الشيباني: ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ معناه: نامي، حضَّها على الأكل والشرب والنوم، وقوله: [عيْناً] نصب على التمييز، والفعل في الحقيقة إنما هو للعين، فنقل ذلك إلى ذي العين، وينصب الذي كان فاعلا في الحقيقة على التفسير، ومثله: طبتُ نفساً، وتفقَّأْتُ شحماً، وتصبَّبْتُ عرقاً، وهذا كثير.

---

(١) في الأصل: «قد طابت وصلحت للاجتناء».

(٢) في الأصل: «وقرأ طلحة ابن سليم»، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات.

(٣) ما بين العلامتين [.....] هو تتمة الخبر، وقد أخذناه عن المصدر الأصلي الذي ذكره المؤلف وهو الطبري.

وقرأ الجمهور: [تَرَيِنَّ]، وأَصْلُه: (تَرْأَيينَ)(١)، حذفت النون للجزم، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان، الألف [المنقلبة عن الياء](٢)، والياءُ، فحذفت الألف فصار (تَرَيْ)، وعلى هذا النحو قول الأفوه:

إمَّـا تَـرَيْ رَأْسِـي أَزْرَى بِـهِ البيـت. . . . .(٣)

ثم دخلت النون الثقيلة، وكسرت الياءُ لاجتماع ساكنين منها ومن النون، وإنما دخلت النون هنا توطئة، كما توطىء لدخولها أيضاً لام القسم. وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [تَرَئِنَّ] بالهمزة(٤). وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة: [تَرَيْنَ] بسكون الياء وفتح النون خفيفة، قال أبو الفتح: «وهي شاذة»(٥)

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها ـ على لسان جبريل أو ابنها عليهما السلام،

---

(١) أي قبل دخول الجازم والتأكيد بالنون.

(٢) زيادة لتوضيح المراد، أما الياء التي التقت مع هذه الألف فهي ياء التأنيث.

(٣) هذا صدر بيت للأفوه الأودي، والبيت بتمامه:

إمَّـا تَـرَيْ رَأْسِـي أَزْرَى بِـهِ مَـأْسُ زمـانٍ ذِي انْتِكـاسٍ مَئُـوسِ

وأزرَى به إزراءً: قصَّرَ به وحقَّرَه وهوَّنه، وفي اللسان: «وقد مَسَأَ ومَأَس ـ كمنع وفرح ـ بينهم يَمْأَسُ: أَفْسَدَ. . . ورجُلٌ ماِئسٌ ومَئُوسٌ ومِمْأَسٌ: نمَّامٌ، وقيل: هو الذي يسعى بين الناس بالفساد». يقول: إنَّ رأسي قد قصَّر به وحقَّره وهَوَّنَ من شأنِه هذا الزمان الفاسد، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (تَرَى) فيه كانت (ترأَيِينَ) ثم بالحذف والإعلال صارت كما هي، ومثل هذا أيضاً (تَرَيْ) في قول الشاعر:

إمـا تَـرَيْ رَأسِـي حـاكَـى لَـوْنُـهُ طُـرَّة صُبْـح تَحْـتَ أَذْيَـالَ الـدُّجَـى

والأفوه الأودي هو صلاءَةُ بن عمرو، من مذحج، ويكنى أبا ربيعة، وهو القائل للبيت المشهور:

لاَ يَصْلـح النَّـاسُ فَـوْضَـى لاَ سَـرَاةَ لهُـم وَلاَ سَـرَاة إذَا جُهَّـالُهُـمْ سَـادُوا

(٤) قال ابن جنِّي في (المحتسَب): «الهمز هنا ضعيف؛ وذلك لأن الياء مفتوح ما قبلها، والكسرة فيها لالتقاء الساكنين، فليست محتسبة أصلاً، ولا يكثر مُسْتَثْقَلُه، وعليه قراءة الجماعة [تَرَيِنَّ] بالياءِ.

(٥) وقال في بقية كلامه: «ولستُ أقول إنها لحنٌ لثبات عَلَم الرفع، وهو النون في حالة الجزم، ولكن تلك لغةٌ أن تثبت هذه النون في الجزم، وأنشد أبو الحسن:

لَـوْلا فَـوَارِسُ مِـنْ ذُهْـلٍ وَأُسْـرَتِهِـمْ يَـوْمَ الصُّلَيْفَـاءِ لَـمْ يُـوفُـونَ بِـالْجَـارِ

هكذا بالنون، وقد يكون على تشبيه (لم) بـ(لا).



على الخلاف المتقدم ـ بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتُحيل على ابنها في ذلك، ليرتفع عنها خجلها وتَتَبَيَّنَ الآية فيقوم عُذرها، وظاهر الآية أنها أُبيح لها أن تقول هذه الكلمات التي في الآية، وهو قول الجمهور، وقالت فرقة: معنى [قُولي] بالإشارة لا بالكلام، وإلاَّ كان التناقض بيِّنا في أمرها.

وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك: «إنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ وصُمْتُ»[1]، وقال قومٌ: معناه: صوماً عن الكلام؛ إذْ أصل الصيام الإمساكُ، ومنه قول الشاعر:

خَيْـــــلٌ صِيَـــــامٌ. . . . .[2]

وقال ابن زيد، والسدي: كانت سُنَّة الصيام عندهم الإمساكُ عن الأكل والكلام، وقرأت فرقة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد صوماً، ولقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق والكلام، وقالت فرقة: أُمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى الاحتجاج.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي أن مريم عليها السلام لمَّا اطمأَنت بما رأت من الآية، وعلمت أن الله تعالى سيبيِّن عذرها، أتت به تحمله من المكان القَصِي الذي انتبذت فيه، وروي أن قومها

(١) الذي في كتب التفسير يختلف عن ذلك، وأوْضحهُ وأصحُه مافي القرطبي، ونصُّه: «﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك»، ونعتقد أن صحة العبارة: وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك: «إنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً وَصَمْتاً»، قال القرطبي: واختلاف اللفظين ـ الصوم والصوت ـ يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قراءة. وكلام الطبري يؤكد أن ذلك كان قولا من ابن عباس ومن أنس رضي الله عنهما، وليس قراءة.

(٢) هذا جزءٌ من بيت للنابغة الذبْياني، وهو من ميميَّته المشهورة: (بانتْ سعادُ وأمسى حَبْلُهَا انصَرَمَا)، وهو في اللسان (صوم)، قال: «وصام الفرسُ صوماً أي قام على غير اعتلاف، وقيل: الصائم من الخيل: القائم الساكن الذي لا يطعم شيئاً، قال النابغة الذبياني:

خَيْـــلٌ صِيَـــامٌ وَخَيْـــلٌ غَيْـــرُ صَـــائِمَـــةٍ ... تَحْتَ العَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

والعجاج: الغُبَارُ ودخان المعركة، وتَعْلُكُ اللُّجُمَا: تلوكُها وتُحرِّكها في فيها.



خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة. و«الفَرِيُّ»: العظيم الشَّنيع، قاله مجاهد والسدي، وافتراه: اختلقه، وهو من الفِرْيَة، وفَرَاه يفْرِيه: شَقَّه وأَفْسَدَه، وأَفْراهُ: أصلحه، من قولهم: فريت الأديم: قطعته على جهة الإصلاح، وأما قولهم في المثل: «فلان يَفري الْفَرِيَّ» فمعناه: جاء بعمل عظيم، في قول أو فعل أو قصد ضرب المثل له، وهو مستعمل فيما يختلق ويفعل، والفَرِيُّ من الأسقية الجديد، وقرأ أبو حيوة: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ بسكون الراء.

واختلف المفسرون في معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أخت هارون﴾ فقالت فرقة: كان لها أخٌ اسمه هارون؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسم هارون أخي موسى عليهما السلام، وروى المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أرسله إلى نجران في أمر من الأمور، فقالوا: إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون، وبينهما في المدة ستمائة سنة، قال المغيرة: فلم أدر ما أقول فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فقال: (ألم يعلموا أنهم كانوا يُسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين)؟[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالمعنى أنه اسمٌ وافق اسماً، وقال السدي وغيره: بل نسبوها إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من نسله، وهو كما تقول لرجل من قبيلة: يا أخا فلانة، ومنه قول النبي ﷺ: (إن أخا صداءٍ أذَّن، ومن أذَّن فهو يقيم)[٢]، وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: «لَيْسَت بأُخت هارون أخي موسى»، فقالت عائشة: كذبت، فقال لها: يا أُمَّ المؤمنين، إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو أصدق وأخبر، وإلاَّ

---

(١) حديث المغيرة بن شعبة أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، وابن ماجه في الأذان، وأحمد في مسنده (٤ـ١٦٩)، ولفظه كما في مُسْند أحمد، عن زياد بن الحارث الصدائي أنه أذَّن، فأراد بلال أن يقيم، فقال النبي ﷺ: (يا أخا صداءٍ، إن الذي أذَّن فهو يقيم)، وفي رواية أخرى ذكرها أيضاً الإمام أحمد، عن زياد بن الحارث الصدائي قال: قال رسول الله ﷺ: (أذِّن يا أخا صداءٍ)، قال: فأذَّنت، وذلك حين أضاء الفجر، قال: فلما توضأ رسول الله ﷺ قام إلى الصلاة، فأراد بلالٌ أن يقيم، فقال رسول الله ﷺ: (يُقيم أخو صداءٍ، فإن من أذَّن فهو يقيم).



فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة، قال: فسكتت[(١)]، وقال قتادة: كان في ذلك الزَّمَن في بني إسرائيل رجلٌ عابد منقطع إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمى هارون، فنسبوها إلى أُخُوَّته من حيث كانت على طريقته، قيل: إذْ كانت موقوفة على خدمة البِيَع، أي: يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما أتيت به، وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزَّمن فاجر اسمه هارون، فنسبوها إليه على جهة التَّعْيير والتوبيخ، ذكره الطبري ولم يُسَمِّ قائله، والمعنى: ما كان أبوك ولا أُمُّك أهلاً لهذه الفعلة، فكيف جئت بها أنتِ؟ و«البَغِيُّ»: التي تبغي الزِّنى، أيْ تطلبه، أَصْلُها: بغوي، فعول، وقد تقدم ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

الْتَزَمَت مريم عليها السلام ما أُمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا﴾، وإنما ورد أنها أشارت، فيقوى بهذا قولُ من قال: إن أمْرها في [فقُولي] إنما أُريد به الإشارة، ويُرْوى أنهم ـ لمَّا أشارت إلى الطفل ـ قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من زناها، ثم قالوا لها ـ على جهة التقرير ـ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟

و[كَانَ] هنا ليس يرادُ بها المضيُّ[(٢)]؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبيّاً، وإنما هي في معنى: هو [الآن][(٣)]، ويحتمل أن تكون الناقصة، والأظهر أنها التَّامة، وقد قال أبو عبيدة: [كَانَ] هنا لغوٌ[(٤)]. وقال الزَّجّاج والفراءُ: [مَنْ] شرطية في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

(٢) في بعض النسخ: «ليس يُراد بها الماضي».

(٣) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة لتوضيح المعنى، إذ المرادُ أن المعنى: «كيف نُكَلِّم من هو الآن صَبيٌّ في مهده»؟.

(٤) أي: زائدة، والمعنى على ذلك: «كيف نُكلِّم صَبِيّاً في المهد»؟ وهي في هذا كقول الشاعر:

فَكَيْــفَ إذا رَأَيْــتَ دِيَــارَ قَــوْمٍ ... وَجِيــرَانٍ لَنَــا كَــانُــوا كِــرَامِ؟

(٥) يقولان: إن [مَنْ] شرطية، و[كَانَ] بمعنى يَكُنْ، والتَّقدير: «من يكُنْ في المهد صَبِيّاً فكيف نُكلِّمه»؟ قال=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونظير «كان» هذه قول رؤبة:

والرَّأْسُ قَدْ كَانَ لَهُ قَتِيرُ(١)

و[صَبِيّاً] إمَّا خبر [كَانَ] على تجوُّز وتخيل في كونها ناقصة، وإمَّا حالٌ [إذَا قُدِّرَت زائدةً أو تامَّةً](٢) لاستقرار المقدر في الكلام(٣).

ورُوي أن المَهْدَ يُرادُ به حِجْر أُمِّه، قال لهم عيسى من مرقده: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الآية، ورُوي أنه قام متَّكئاً على يساره، وأشار إليهم بِسَبَّابته اليمنى. و[ٱلْكِتَابَ]: التوراة، ويحتمل التوراة والإنجيل، و[آتَانِيَ] معناه: قضى بذلك وأنفذه في سابق حكمه، وهذا نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أتى أمر الله﴾(٤) وغير هذا، وأمال الكسائي [آتَانِي] و[أَوْصَانِي]، والباقون لا يُميلون، قال أبو علي: الإمالةُ في [آتَانِيَ] أحسن لا في [أَوْصَانِي]. و[مُبَارَكاً] قال مجاهد: معناه: نفَّاعاً، وقال سفيان الثوري: معناه: معلم خَير(٥)،

= ابن الأنباري: وهذا كما تقول: كيف أُعطي من كان لا يقبل عَطِيَّةً؟ أي: من يكن لا يقبل العطية؟، والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: إن يشأ يجعل، وتقول: مَنْ كَانَ إليَّ منه إحسانٌ كان إليه مني مثلُه، أي: من يكن منه إليَّ إحسانٌ يَكُنْ إليه مِنِّي مثلُه.

(١) هذا البيت من الشعر المنسوب إلى رؤبة، وقد وجدته في ديوانه المسمَّى «مجموع أشعار العرب» المشتمل على ديوان رؤبة، وهو ضمن أبيات مفردة منسوبة إلى رؤبة بن العجاج. والقَتِيرُ: الشيبُ، وقيل: هو أوَّل ما يظهر منه، وفي الحديث أن رجلا سأل النبي ﷺ عن امرأة أراد نكاحها، قال: وبقَدْر أيِّ النساء هي؟ قال: قد رأت القَتِير، قال: دعها، والقتير: المشيب، وأصله رؤوس مسامير حَلَق الدروع تلوح فيها، شُبِّه بها الشيب إذا نقَب في سواد الشعر. (راجع اللسان ـ قتر)، و(كان) في البيت بمعنى وقع وحدث، وابن عطية يرى أنها في الآية الكريمة بهذا المعنى. وبهذا يتضح أن في [كان] أربعة أقوال ـ (١) أن تكون زائدة. (٢) أن تكون بمعنى: وقع وحدث. (٣) أن تكون بمعنى المضارع، على أن [مَنْ] شرطية. (٤) أن تكون ناقصة بمعنى: (صار)، وهذا الأخير قاله قُطْرب. وقال ابن الأنباري: «لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت [صَبِيّاً]، ولا أن يقال إن [كَانَ] بمعنى حديث ووقع؛ لأنها لو كانت كذلك لاستغني عن الخبر، تقول: كان الحرُّ، وتكتفي بذلك». ا.هـ بتصرف، وقد ناقشه أبو حيان في ذلك.

(٢) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة للتوضيح قالها أبو حيان في البحر.

(٣) أي أن العامل في الحال هو الاستقرار المقدر في الكلام.

(٤) من الآية (١) من سورة (النحل).

(٥) في بعض النسخ: «معلم غيره».



وقيل: آمِراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، قال رجلٌ لبعض العلماء: ما الذي أُعْلِنُ من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دِين الله الذي بعث به أنبياءَه، وأسند النقاشُ عن الضحاك أنه قال: [مُبَارَكاً] معناه: قضَّاءً للحوائج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: [مُبَارَكاً] يعُمُّ هذه الوجوه وغيرها.

و«الصَّلاةُ والزَّكاةُ» قيل: هما المشروعتان في البَدَن والمال، وقيل: زكاة البدن[1] في الفِطْر، وقيل: الصلاةُ الدعاءُ، والزكاةُ التَّطهر من كل عيب وتقصير ومعصية. وقرأ [دُمْتُ] بضم الدالِ عاصمٌ وجماعة، وقرأ [دِمْتُ] بكسرها أهلُ المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وجماعة.

وقرأ الجمهور (وَبَرًّا) بفتح الباء ـ وهو الكثير البِرِّ ـ ونصبه عطفاً على قوله: [مُبَارَكاً]، وقرأ أبو نهيك، وأبو مجلز، وجماعة [وَبِرًّا] بكسر الباءِ، فقال بعضهم: نصبه على العطف على قوله: [مُبَارَكاً]، كأنه قال: ذا بِرٍّ، فاتصف بالمصدر كَعْدلٍ ونحوه، وقال بعضهم: نصبه بقوله: [وَأَوْصَانِي]، أي: وأَوْصَاني بِرًّا بوالدتي، حذف الجار، يريد: وأوصاني بِبِرٍّ والدتي[2]، وحكى الزهراوي في هذه القراءة [وَبِرٍّ] بالخفض عطفاً على [ٱلزَّكَاةِ]، وقوله: [بِوَالِدَتِي] بيانٌ لأنه لا والِد لَهُ، وبهذا القول برَّأَها قومها.

و«ٱلجَبَّارُ»: المتعظم، وهي خلق مقرونة بالشقاء لأنها مناقضة لجميع الناس فلا يلقى صاحبها من أحد إلاَّ مكروهاً، وكان عيسى صلوات الله عليه في غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشَّعْر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جنه الليل إذْ لا مسْكَنَ له، قال قتادة: وكان عيسى عليه السلام يقول: سلُوني فإني ليِّن القلب صغير في نفسي، وقد تقدم ذكر تسليمه على نفسه وإدلاله في ذلك، وذَكَر المواطن التي خصَّها لأنها أوقات حاجة الإنسان إلى رحمة الله.

---

(١) في بعض النسخ: «زكاة الرُّؤوس في الفطر».

(٢) ومثل هذا قول لبيد:

فَـإنْ لَـمْ تَجِـدْ مِـنْ دُونِ عَـدْنَـانَ وَالِـداً ... وَدُونَ مَعَـدٍّ فَلْتَـزَعْـكَ الْعَـوَاذِلُ

فقد عطف (دُون) الثانية على موضع (من دون) الأولى.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر، أخبر عيسى بما قضي من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، وفي قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى وهو في المهد أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمرٌ عظيم، ورُوي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال حتى نشأ على عادة البشر، وقالت فرقة: إن عيسى عليه السلام كان أُوتي ذلك الكتاب وهو في ذلك السن، وكان يصلي ويصوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا في غاية الضعف، مُصَرِّح بجهالة قائله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

المعنى: قلْ يا محمد لمعاصريك من اليهود والنصارى: ذلك الذي هذه قصته عيسى بن مريم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما قدَّرنا في الكلام «قُلْ» لأنه يجيءُ في الآية بعْدُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، وهذه مقالة بشر، وليس يقتضي ظاهر الآية قائلاً من البشر سوى محمد ﷺ، وقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾ إلى قوله: [فَيَكُونُ] إخباراً لمحمد ﷺ واعتراضاً أثناء كلام عيسى، ويكون قوله: [وَأَنَّ] بفتح الألف عطفاً على قوله: [ٱلْكِتَابَ]، وقال وهب بن منبه: عهد عيسى عليه السلام إليهم أنَّ الله ربِّي وربكم، ومن كسر الألف عطف على قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وعامة الناس: [قولُ الحق][1]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وابن أبي إسحق: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بنصب «القول» على

---

(١) أي: بالرفع، قال الكسائي: ﴿قولُ ٱلْحَقِّ﴾ نعت لعيسى، أي: ذلك عيسى بن مريم قولُ الحق، سُمِّي [قولُ الحق] كما سُمِّي [كلمةُ الله]، والحقُّ هو الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو حاتم: المعنى: هُو قولُ الحق. وقيل: التقدير: هذا الكلامُ قولُ الحق.

المصدر[١]، وقال أبو عبد الرحمن المقري[٢]: كان يجالسني ضرير ثقة، فقال: رأيت النبي ﷺ في النوم يقرأ: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصباً، قال أبو عبد الرحمن: وكنت أقرأ بالرفع فحسب، فصرتُ أقرأ بها جميعاً، وقرأ عبد الله ابن مسعود: «قالُ اللهِ»[٣] بمعنى: كلمةُ اللهِ، وقرأ عيسى: «قالُ ٱلْحَقِّ»[٤].

وقرأ نافع والجمهور: (يَمْتَرُونَ) بالياء على الكناية عنهم، وقرأ نافع أيضاً وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، وداود بن أبي هند: [تَمْتَرُونَ] بالتاء على الخطاب لهم، والمعنى: تختلفون أيها اليهود والنصارى، فيقول بعضهم: هو لِزَنْيَة ونحو هذا، ويقول بعضهم: هو ابن الله تعالى، فهذا هو امتراؤُهم، وسيأتي شرح ذلك من بعد هذا.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ معناه النفي وهذا هو معنى هذه الألفاظ حيث وقعت، ثم يضاف إلى ذلك بحسب المذكور فيها، إمَّا زجرٌ ونهي كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾[٥]، وإمَّا تعجيزٌ كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[٦]، وإمَّا تبرئة كهذه الآية، وقوله: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ دخلت [مِنْ] مؤكدة للجَحْد، لينفي الواحد فما فوقه مما يحتمله نظير هذه العبارة إذا لم تدخل (مِنْ)، وقوله: [أَمْرًا] أيْ: واحداً من الأمور، وليس بمصدر «أَمَرَ يأْمُرُ»، فمعنى قَضَى أوجد وأخرج من العدم وهذه التصاريف في هذه الأفعال من

(١) فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، أي: هذه الأخبارُ عن عسى بأنه ابن مريم أمرٌ ثابت صدق، أي: أقولُ الحقَّ، فيكون «الحق» هنا هو الصدق، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: القول الحق، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾، أي: الوعد الصدق.

(٢) اسمه عبد الله بن يزيد. قاله ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب.

(٣) أي: بالألف مع رفع اللام، وفي القرطبي أن قراءة عبد الله بن مسعود هي: «قالُ ٱلْحَقِّ»، وهي التي ذكرها ابن عطية هنا منسوبة إلى عيسى.

(٤) هكذا ضبطت في الأصول، وفي البحر المحيط قال أبو حيان: «وقرأ طلحة والأعمش ـ في رواية زائدة ـ: [قَالَ] بألف، جعله فعلاً ماضياً [ٱلْحَقُّ] برفع القاف على الفاعلية، والمعنى: قال الحقُّ ـ وهو الله ـ: ذلك الناطق الموصوف بتلك الصفات هو عيسى بن مريم». ولسنا ندري: هل هذه القراءة هي المنسوبة هنا إلى عيسى أم هي قراءة أخرى لم يذكرها ابن عطية؟.

(٥) من الآية (١٢٠) من سورة (التوبة).

(٦) من الآية (٦٠) من سورة (النمل).



مُضيٍّ واستقبال هي بحسب تجوُّز العرب واتِّساعها، وقد تقدم القول في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[1].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وأنَّ الله﴾ بفتح الألف، وذلك عطف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ كذلك، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر الألف، وذلك بيِّنٌ على الاستئناف، وقرأ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف دون واو.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، وقف ثم ابتدأ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، أي: ما أعلمتكم به عن الله تعالى من وحدانية، ونَفْي الولد عنه، وغير ذلك مما يتنزه عنه، طريقٌ واضح مُفْضٍ إلى النجاة ورحمة الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ابتداءُ خبر من الله عزَّ وجلَّ لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي: فِرَقاً، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ معناه أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا المختلفين، وروي في هذا عن قتادة أن بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعة أحبار غاية في المكانة والجلالة عندهم، وطالبوهم بأن يُبيِّنُوا أمر عيسى عليه السلام، فقال أحدهم: عيسى هو الله نزل إلى الأرض فأحيا من أحْيا وأمات من أمات ثم صعد، فقال له الثلاثة: كذَبْتَ، واتَّبعه اليعقوبية، ثم قيل للثلاثة، فقال أحدهم: عيسى هو ابن الله، فقال له الإثنان: كذبْتَ، واتَّبعه النسطورية، ثم قيل للاثنين، فقال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة، عيسى إله، ومريم إله، والله إله، فقال له الرابع: كَذَبْتَ، واتَّبعه الإسرائيلية، فقيل للرابع، فقال: عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فاتَّبع كلَّ واحد من الأربعة فريق من بني إسرائيل، ثم اقتتلوا فغُلب المؤمنون وقُتلوا، وظهرت اليعقوبية على الجميع.

---

(١) تكررت في أكثر من آية، فهي في الآيات: (١١٧) من سورة (البقرة)، و(٤٧) و(٥٩) من سورة (آل عمران)، و(٧٣) من سورة (الأنعام)، و(٤٠) من سورة (النحل)، و(٨٢) من سورة (يس)، و(٦٨) من سورة (غافر)، وهي في آيتنا هذه من سورة (مريم).



وروي أن في ذلك نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[1].

و«الْوَيْلُ»: الحُزْن والثُّبور، وقيل: الْوَيْلُ وادٍ في جهنم. ومَشْهَد اليوم العظيم هو مشهد يوم القيامة، ويحتمل أن يريد بـ﴿مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب، وقد أشار إلى هذا المعنى قتادة رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب، فإنَّ إعراضهم حينئذ يزول، ويقبلون على الحقيقة حيث لا ينفعهم الإقبال عَلَيْها وهم في الدنيا صمٌّ عُمْيٌ؛ إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم، ثم قال: لكنهم اليوم في الدنيا في ضلال، وهو جهل المسلك، و«الْمُبِينُ»: البَيِّن في نفسه وإنْ لم يَتَبَيَّن لهم، وحكى الطبريُّ عن أبي العالية أنه قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ بمعنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: أَسْمع الناسَ اليوم وأبصرهم بهم وبحديثهم، ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أَتَوْا محشورين مغلولين.

واختلف في ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ فقال الجمهور: هو يوم ذبح الموت، وفي هذا حديث صحيح وقع في البخاري وغيره أن الموت يجاءُ به في صورة كبش أملح، وقال عبيد بن عمير: كأنه دابَّة، فيذبح على الصراط بين الجنة والنار، وينادى: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت. ويروى أن أهل النار يشرئبون إليه رجاء أن يُخرجوا مما هم فيه، وأن أهل الجنة يشرئبون خوفاً على ما هم فيه[2]، و«الأمر المقضي» هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت، وهذا عند حذاق العلماء كما يقال:

---

(١) الآية (٢١) من سورة (آل عمران).

(٢) حديث ذبح الموت أخرجه البخاري، عن ابن عمر، ومسلم عن أبي سعيد الخدري، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، والترمذي عن أبي سعيد يرفعه، وقال فيه: حديث حسنٌ صحيح، ولفظه كما في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنةِ الجنَّةَ وأهل النارِ النَّارَ يجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ـ أيْ نقيُّ البياض، أو بياضه أكثر من سواده ـ فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت ـ قال ـ ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيُذْبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.



تدفن الغوائل ويجعل التراب تحت القدم ونحو ذلك، وعند ذلك تصيب أهل النار حسرةٌ لا حسرة مثلها.

وقال ابن زيد وغيره: يومُ الحسرة هو يوم القيامة، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته، فهم في حال حسرة، والأمر المقضي ـ على هذا ـ هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يومُ الحسرة حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون يومُ الحسرة اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عِدَّة، ومنها يوم القيامة، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ يريد: في الدنيا الآن وهم لا يؤمنون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ تجوُّزٌ وعبارةٌ عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق، فكأنها وراثة، وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، والحسن، والأعمش: (يُرْجَعُونَ) بالياء، وقرأ الأعرج [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن، وابن أبي إسحق، وعيسى: [يَرْجِعُونَ] بالياء مفتوحة وكسر الجيم، وحكى عنهم أبو عمرو: [تَرْجِعُونَ] بالتاء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ معناه: واتْلُ وَبَلِّغْ، لأن الله تعالى هو الذاكر، و«الكِتَابُ» هو القرآن، وهذا ما أشبهه من لسان الصدق الذي ألقاه الله عليهم، و«الصِّدِّيق» فِعِّيل، بناءُ مبالغة من الصدق، وقرأ أبو البَرَهْسَمِ[1]: ﴿إنه كان صادقا﴾، والصِّدْق عُرفه في

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذا الاسم، ففي بعضها: البرهسيم»، وفي بعضها: «أبو إبراهيم»، واخترنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط. وأبو البرهسم هو عمران بن عثمان الزبيدي الشامي صاحب =



اللسان، وهو مُطَّردٌ في الأفعال والخُلُق إلاَّ أنَّه يُسْتعار لما لا يعقل، يقال: صدقني الطعام كذا وكذا قفيزاً[١]، ويقال: «عُودٌ صَدْقٌ» للصلْب الجيِّد.

فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصِّدْق على العموم في أقواله وأفعاله، وبذلك يفترق صدق اللسان الذي يضاد الكذب، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه وُصف بصدِّيق لكثرة ما صَدَقَ في تصديقه بالحقائق، وصدق في مبادرته إلى الإيمان وما يُقَرِّب من الله تبارك وتعالى. وللصِّدِّيق مراتب، ألا ترى أن المؤمنين صِدِّيقون لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[٢].

وقوله: ﴿يا أبت﴾، اختلف النحاة في التاء من [أَبَتِ] ـ فذهب سيبويه إلى أنها عِوَض من ياء الإضافة، فالوقوف عليها عنده بالهاء، ومذهبُ الفراء أن يوقف عليها بالتاء لأن الياء التي للإضافة عنده مُنَوَّنة، وجمهور القراء على كسر التاء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «وَا أَبَتِ» بواو النداء، وقرأ ابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يا أبت﴾ بفتح التاء، ووجهها أنه[٣] أراد: «يَا أَبَتا» فحذف الألف وترك الفتحة دالَّةً عليها، ووَجْه آخر أن تكون التاءُ المقحمة كالتي في قولهم: «يا طلحَة أقبل»، وفي هذا نظر، وقد لَحَّنَ هارون هذه القراءة. و«الَّذي لا يُبصر ولا يَسْمع» هو الصنم، ولو سمع وأبصر كما هي حال الملائكة وغيرهم مِمَّن عُبِد لم تحسن عبادتها، ولكن بيَّن إبراهيم عليه السلام بِنَفْي السمع والبصر شُنْعَةَ الرأي في عبادتها وفَسَادَه.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَنِى﴾ يدلُّ أن هذه المقالة بعد أن نُبِّيءَ، و«الصِّرَاطُ السَّوِيُّ» معناه: المستقيم، وهو طريق الإيمان.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ مخاطبة بِرٍّ واستعطاف على حالة كفره، وقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يحتمل أن يكون أبوه مِمَّن عَبد الجِن، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان الْمُغْوِي في عبادة الأوثان والكفر بالله عبادَةً له. و«العَصِيُّ» فَعِيلٌ من عَصَى يعصي إذا خالف الأمر.

= القراءة الشاذة. انظر غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري.

(١) القَفِيزُ: مِكْيَال كان يكال به قديماً، ويختلف مقداره باختلاف البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوا جراماً. (المعجم الوسيط).

(٢) من الآية (١٩) من سورة (الحديد).

(٣) يريد: ووجهها أن القارىء أراد... الخ.



وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، قال الطبري وغيره: [أَخَافُ] بمعنى: أعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر عندي أنه خوفٌ[1] على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقالة آيساً من أبيه، فكان يرجو ذلك، وكان يخاف ألاَّ يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسُّه العذاب. و«الْوَلِيُّ»: الخالِص المصاحب القريب بنسب أو مَوَدَّة.

قال آزَر ـ وهو تارخ ـ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾، والرغبة: مَيْلُ النفس، فقد تكون الرغبة في الشيء، وقد تكون عنه. وقوله: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ رفع بالابتداء، و[أَنْتَ] فاعل يسد مَسَدَّ الخبر، وحسَّن ذلك وقرَّبه اعتمادُ [رَاغِبٌ] على ألف الاستفهام، ويجوز أن يكون [رَاغِبٌ] خبراً مقدماً، و[أَنْتَ] مبتدأ، والأول أصوب، وهو مذهب سيبويه[2]. وقوله: ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ يريد الأصنام، وكان ـ فيما روي ـ ينحتها وينجزها بيده ويبيعها ويحضُّ عليها، فقَرَّر ابنه إبراهيم عليه السلام على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه، ثم أخذ يتوعده.

وقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ اختلف فيه المتأولون ـ فقال السدي، وابن جريج، والضحاك: معناه: بالقول، أي: لأشتمنك واهجرني أنت إذا شئت مدة من الدهر، أو سالِماً، حسب الخلاف الذي سنذكره، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: معناه: لأرجمنك بالحجارة، وقالت فرقة: معناه: لأقتلنَّك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان بمعنى واحد، وقوله: [وَاْهْجُرْنِي] ـ على هذا التأويل ـ إنما يترتب على أنه أمر على حياته، كأنه قال: إن لم تنته قتلتك بالرجم، ثم قال له: واهجرني، أي: مع انتهائك، كأنه جزم الأمر بالهجرة، وإلاَّ فمع الرجم لا تترتب الهجرة. و[مَلِيّاً]

---

(١) في بعض النسخ: «أنه حرف على بابه».

(٢) وجه الصواب أمران: الأول أنه لا تقديم فيه ولا تأخير؛ إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ، والثاني أنه ليس فيه فصل بين العامل الذي هو [أَرَاغِبٌ] وبين معموله الذي هو ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ بما ليس بمعمول للعامل؛ لأن الخبر ليس عاملاً في المبتدأ، بخلاف كن [أَنْتَ] فاعلاً، فإنه معمولٌ لـ[أَرَاغِبٌ]، فلم يفصل بين [أَرَاغِبٌ] وبين ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ بأجنبي، إنما فصل بمعمول له. (قاله في البحر المحيط).

معناه: دهراً طويلاً، مأخوذ من الملوَيْن، وهما الليل والنهار، هذا هو قول الجمهور: الحسن، ومجاهد، وغيرهما، فهو ظرفٌ[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [مَلِيّاً] معناه: سليماً سوِيّاً، فهو حالٌ من [إِبْرَاهِيم] عليه السلام[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله: مُسْتَبِدّاً بحالك عنّي غنيّاً، مَلِيّاً بالاكتفاء[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

قرأ أبو البرهسم: [سَلَاماً] بالنصب. واختلف أهل العلم في معنى تسليمه عليه ـ فقال بعضهم: هي تحية مُفارق، وجوَّزوا تحية الكافر، وأن يُبدأ بها، وقال الجمهور: ذلك التسليم بمعنى الْمُسَالمة لا بمعنى التحية، وقال الطبري: معناه: أَمَنَةً منِّي لك، وهذا قول الجمهور، وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام. وقال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[٤]، ورفع «السلام» بالابتداء، وجاز ذلك مع كونه نكرة لأنها نكرة مُخَصَّصة، فقربت من المعرفة، ولأنه في موضع المنصوب الذي هو: سلمت سلاماً، وهذا كما يجوز ذلك فيما هو في معنى الفاعل، كقولهم: «شرٌّ ما أهَرَّ ذا ناب»[٥]، وهذا مثال سيبويه رحمه الله.

---

(١) وعليه قول الشاعر:

نهـارٌ ولَيْـلٌ دائِـمٌ مَلَـوَاهُمَـا ... عَلَـى كُـلِّ حـالِ الْمَـرْءِ يَخْتَلِفَـانِ

(٢) والمعنى: اهجرني سالماً بعرضك، لا تصيبنَّك منِّي مَعَرَّة، وقد اختار الطبري هذا المعنى.

(٣) ومن استعمال [مَلِيّاً] في الدهر الطويل قول المهلهل:

فَتَصَـدَّعَـتْ صُـمُّ الْجِبَـالِ لِمَـوْتِـهِ ... وَبَكَـتْ عَلَيْـهِ الْمُـرْمِـلاتُ مَلِيّـاً

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الفرقان).

(٥) هذا مَثَل يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله، ويقال: أَهَرَّه، إذا حمله على الهرير، والهرير: صوت الكلب دون النباح، وصوت القوس وغيرها، وذو النَّاب: السَّبُع. و(شرٌّ) هنا رفع بالابتداء وهو نكرة، وشرط النكرة ألا يُبتدأ بها حتى تُخَصَّص بصفة، كقولنا: «رجلٌ من بني تميم فارسٌ»، ولكنهم =



وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ معناه: سأدعو الله تعالى في أن يهديك، فيغفر لك بإيمانك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أظهر من أن يُتأوّل على إبراهيم الخليل صلوات الله عليه أنه لم يعلم أن الله تعالى لا يغفر لكافر، وقد يجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام أول نبي أوحى الله إليه أن الله لا يغفر لكافر؛ لأن هذه العقيدة إنما طريقها السمع، فكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ذلك، وإبراهيم عليه السلام إنما تبيَّن له في أبيه أنه عدوٌّ لله بأحد وجهين: إمَّا بموته على الكفر كما رُوي، وإمَّا بأن أوحى الله إليه الحتم عليه. وقال مكيٌّ عن السدي: أخره بالاستغفار إلى السَّحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تعَسُّفٌ، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه، وأما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتنف، فالسين[1] متمكنة.

و«الْحَفِيُّ»: المهتبل[2] المتلطف، وهذا شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله عليه. ثم أخبره أنه يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمعزل، ويروى أنهم كانوا بأرض كوثا، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وفي هجرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر لسارة... الحديث بطوله. و[تَدْعُونَ]: تعبدون. وقوله: [عَسَى] تَرَجٍّ وفي ضمنه خوف شديد.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية إخبارٌ من الله تبارك وتعالى لنبيِّه محمد ﷺ أن إبراهيم عليه السلام لما رحل عن بلد أبيه وبلد قومه عوَّضه الله من ذلك ابنه إسحق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام، وجعل له الولد تسلية وشدّاً لعضده، وإسحق أصغر من إسماعيل عليهما السلام؛ ولمَّا حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة فحملت بإسحق فيما رُوي.

= ابتدأوا بالنكرة هنا من غير صفة لأن المعنى: ما أهر ذا نابٍ إلاَّ شَرٌّ.

(١) أي التي في سأستغفر.

(٢) هكذا في الأصول، ومعاني الاهتبال هي: الاغتنام للفرصة، والكذب، والثكل، والاحتيال والاستعداد، واهتبال الصيد: تكسُّبه، وليس في هذه المعاني ما يناسب التعبير هنا، ولعلَّ الصواب: «المحْتَفِلُ» من الاحتفال بالشيء بمعنى الاهتمام به والمبالغة في برِّه.



قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾، يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة، كل ذلك من رحمة الله، و«لِسَانُ الصِّدْقِ» هو الثناءُ الباقي عليهم آخر الأبد، قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. واللسان في كلام العرب القالة الذائعة كانت في خيرٍ أو شرٍّ، ومنه قول الشاعر:

إنِّـي أَتَتْنِـي لِسَـانٌ لا أُسَـرُّ بِهَـا مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيها وَلاَ سَخَرُ[1]

وقال آخر:

نَـدِمْـتُ عَلَـى لِسَـانٍ فَـاتَ مِنِّـي . . . .[2]

وإبراهيم عليه السلام ـ وذريته ـ مُعَظَّم في جميع الأُمم والممالك، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

---

(١) البيت لأعشى باهلة، وهو في اللسان (لَسَنَ)، قال: «اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ، قال أعشى باهلة: إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ... البيت»، ورواية البيت في الأصمعيات، وفي موسوعة الشعر العربي:

قَـدْ جـاءَ مِـنْ عَـلٍ أَنْبـاءٌ أُنَبَّـؤُهـا إلـيَّ لا عَجَـبٌ مِنْهَـا وَلا سَخَـرُ

و(عَلَ) بالحركات الثلاث في اللام، والمعنى: من فوق، أي من أعْلَى نَجْد، والسَّخَرُ بفتحتين وبضمتين: السخرية، يريد أنه لا يعجب من هذه الأنباء ولا يسخر، وقد ذكر النحاة أن (عَلُ) بني على الضم لأنه علَمٌ مفرد، وإذا جعل نكرة نُوِّنَ وصُرِفَ فقيل: (من عَلٍ)، وإن شئت رددتَ إليه ما ذهب منه وهي ألفٌ منقلبة من واو فقلت: (مِنْ عَلْوَ).

يقول: وصلتني أنباءٌ من أعلى نجد لم أستغربها، ولم أسخر منها، وهذه الأنباءُ خاصة بنعي أخي.

هذا والبيت في (المؤتلف والمختلف): إني أتتني لسانٌ ما أُسَرُّ بها... مِنْ عُلْوَ» وفي الكامل للمبرد: (من عَلُ)، وفي أمالي المرتضي: إنِّي أُتِيتُ بشيءٍ لا أُسَرُّ به... مِنْ عَلْوَ لا عجب منه».

(٢) هذا صدر بيت للحطيئة، وهو في اللسان (لَسَن) و(عَكَمَ)، وقد استشهد به على أن (اللسان) يُذَكَّر، قال: «وقد يُذَكَّر على معنى الكلام، قال الحطيئة:

نَـدِمْـتُ عَلَـى لِسـانٍ فـاتَ مِنِّـي فَلَيْـتَ بِـأَنَّـهُ فـي جَـوْفِ عِكْـمِ

واستشهد به على أن العِكْمَ داخلُ الجَنْب، قال: «والعِكْمُ: النَّمَطُ تجعله المرأة كالوعاء تدَّخِر فيه متاعها، والعِكْمُ: داخلُ الجَنْب على المثل بالعِكْم النَّمط، قال الحطيئة: ندمتُ على لسانٍ... البيت» على أنه رواه هنا: «وَدِدْتُ بأنَّه» بدلا من «فَلَيْتَ بأنَّه».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

هذا أمرٌ من الله تعالى بذكر موسى بن عمران صلوات الله عليه على جهة التشريف، وأعلمه بأنه كان مُخلَصاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم[١]: ﴿مُخْلِصاً﴾ بكسر اللام، وهي قراءة الجمهور، أي: أخلص نفسه لله تعالى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم[٢]: ﴿مُخْلَصاً﴾ بفتح اللام، وهي قراءة أبي رزين، ويحيى، وقتادة، أي: أخلصه الله تعالى للنبُوَّة والقيادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾[٣]، والرسول من الأنبياء: الذي يكلف تبليغ أُمته، وقد يكون نبيٌّ غير رسول.

وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ هو تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، و«الطُّور»: الجبل المعروف بالشام، وقوله: [ٱلْأَيْمَنِ] صفة للجانب، وكان على يمين موسى عند وقوفه، وإلاَّ فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، ولا يوصف بشيءٍ من ذلك إلاَّ بالإضافة إلى ذي يمين ويسار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون [ٱلْأَيْمَنِ] مأخوذٌ من اليُمْن، كأنه قال: الأَبرك والأَسْعد، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملته. وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: بل أُدني موسى للملكوت، ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة رحمه الله، وقال سعيد: أردفه جبريل عليه السلام، والنَّجِيُّ، قيل: من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: معناه: نجا بصدقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مختل، وإنما النَّجِيُّ المنفردُ بالمناجاة، وكان هارون أسنَّ من موسى عليهما

---

(١) أي في رواية أبي بكر عنه.
(٢) وذلك في رواية حَفص عنه.
(٣) من الآية (٤٦) من سورة (ص).



السلام فطلب من الله أن يشُدَّ أَزْره بنُبوَّته ومعونته فأجابه الله إلى ذلك، وعدَّها في نعمه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ هو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام. وإسماعيل عليه السلام هو أبُ العرب اليوم، وذلك أن اليمنية والمضرية ترجع إلى ولد إسماعيل عليه السلام، وهو الذي أسكنه أبوه بوادٍ غير ذي زرع، وهو الذبيح في قول الجمهور، وقالت فرقة: الذبيح إسحق عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأوَّلُ يترجح بجهات: منها قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾[1]، فَوَلَدٌ قد بُشِّر أبواه أنه سيكون منه وَلَدٌ هو حفيد لهم كيف يؤمر بعد ذلك بذبحه وهذه العِدَةُ قد تقدمت؟ وجهة أخرى هي أن أمر الذبح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة، وما رُوي قطُّ أنَّ إسحق دخل تلك البلاد، وإسماعيل بها نشأ، وكان أبوه يزوره بها مراراً كثيرة يأتي من الشام على البراق ويرجع من يومه، والبراق هو مركب الأنبياء عليم الصلاة والسلام، وجهة أخرى وهي قول النبي ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)[2]، وهما أبوه عبد الله بن عبد المطلب، لأنه فُدي بالإبل من الذبح، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل عليه السلام، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة (الصَّافَّات)، وذلك أنه لما فرغ من ذكْر الذبح وحاله قال: ﴿وبشرناه بإسحق﴾[3]، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحق عليه السلام.

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (هود).

(٢) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره، عن الصنابِحِيِّ، قال: «كنَّا عند معاوية ابن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحق، فقال: على الخبير سقطتم، كنَّا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ عليَّ مِمَّا أفاءَ الله عليك يا بن الذبيحَيْن، فضحك عليه الصلاة والسلام، فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله لئن سَهُلَ عليه أمْرُها ليذبحن أَحَدَ ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افْدِ ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني» والحديث ضعيف.

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (الصَّافات).



ووصف الله تعالى إسماعيل بصدق الدعوة لأنه كان مبالغاً في ذلك، رُوي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل عليه السلام وانتظر الرجل يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاءَ الرجل، فقال له: ما زلتُ في انتظارك هنا منذ أمس، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد غير صحيح، والأول أصح، وقد فعل مثله نبينا محمد ﷺ قبل بعثه، ذكره النقاش، وخرجه الترمذي، وغيره، وذلك في مبايعة وتجارة[1]، وقيل: وصفه بصدق الدعوة لوفائه بنفسه في أمر الذبح؛ إذ قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أَسْوَأُ الكذب إخلاف الوعد ورمْيُ الأبرياء بالتُّهم، وقد قال رسول الله ﷺ: (العِدَةُ دينٌ)[3]، فناهيك بفضيلة الصدق في هذا.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾، يريد قومَه وأُمَّته، قاله الحسن، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وكان يأمر قومه»، وقوله: [مَرۡضِيّٗا] أصله: مرْضُوي، لقيت الواو وهي ساكنةٌ الياءَ فأُبدلت ياءً، وأُدغمت، ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات، وقرأ ابن أبي عبلة: «وكَانَ عِنْدَ ربِّهِ مَرْضُوّاً».

---

(١) خرَّجه الترمذي عن عبد الله بن الحَمْساءِ ورواه أبو داود في سُنَنه، وأخرجه الخرائطي في كتابه (مكارم الأخلاق) عن ابن الحَمْساء، قال: بايعت النبي ﷺ ببَيْع قبل أن يُبْعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاثة أيام-فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققْت علي، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»، واللفظ لأبي داود.

(٢) من الآية (١٠٢) من سورة (الصَّافات).

(٣) العِدَةُ: الوَعْد، والهاءُ عوض عن الواو، ويجمع على عِدَاتٍ، ولا يجمع الوعد، وفي معنى العِدَة ٱلوَأي، وفي الأثر (وَأيُ المؤمن واجب)، أي في أخلاق المؤمنين، ومما يؤيد ما ذكره ابن عطية الحديث الذي أخرجه البخاري في (الكفالة)، عن جابر رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: (لو جاء مالُ البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا)، فلم يجيء مال البحرين حتى قُبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى: من كان له عند النبي ﷺ عِدَةٌ أو دَيْن فليأتنا، فأتيتهُ فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا، فحثا لي حَثْيَةً فعددتها فإذا هي خمسمائة، وقال: خذ مِثْلَيْها. وحديث (العِدَةُ دَيْن) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عليٍّ وعن ابن مسعود، وقد رمز له الإمام السيوطي «في الجامع الصغير» بأنه حديث ضعيف.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

إدريس عليه السلام هو من أجداد نوح، وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض فيما رُوي بعد آدم صلوات الله عليه، وهو أول من خطَّ بالقلم، وكان خيَّاطاً، ووصفه الله تعالى بالصدق، والوجه أن يُحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو إلياس، بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبَوْا فأُهلكوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأشهر أنه لم يبعث بإهلاك أمة، وأنه نبيٌّ فقط.

واختلف الناس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ـ فقال جماعة من العلماء: هذا هو رفع النبوة والتشريف والمنزلة، وهو في السماء كسائر الأنبياء. وقالت فرقة: بل رُفع إلى السماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك بأمر الله كما رفع عيسى عليه السلام، وهنالك مات إدريس عليه السلام، وكذلك قال مجاهد إلاَّ أنه قال: ولم يمت، وكذلك قال وهب بن منبه، وقال كعب الأحبار لابن عباس: كان له خليل من الملائكة فحمله على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة، فلقي هناك مَلَك الموت. فقال له: إنه قيل لي: اهْبط إلى السماء الرابعة فاقبض روح إدريس، وإنِّي لأعجب كيف يكون هذا، فقال له المَلك الصاعد: هذا إدريس معي، فقبض روحه. وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات، وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما في الإسراء يقتضي أنه في السماء الرابعة.

قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ الآية. الإشارة بـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكره، وقوله: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ يريد إدريس ونوحاً عليهما السلام، و﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام، و﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام، و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا

ويحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام. وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ معناه: اخترنا واصطفينا، وكأنه من: «جَبَيْتُ الماءَ» إذا جمعته، ومنه جباية المال، كأن جابيه يصطفيه. وقرأ الجمهور: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر: (إذا يتلى) بالياء. و«الآياتُ» هنا الكُتُب المنزلة، و[سُجَّداً] نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والجمهور: [وَبُكِيّاً]، قالت فرقة: هو جمع باكٍ، كما يُجْمَع عاتٍ وجاثٍ عَلَى: عُتيٍّ وجُثِيٍّ، وقالت فرقة: هو مصدرٌ بمعنى البكاء، والتقدير: وَبَكَوْا بُكِيّاً، واحتج الطبريُّ ومكيٌّ لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُوي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال: هذا السجود فأين البُكِيُّ؟ يعني البكاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واحتجاجهما بهذا فاسد؛ لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه: فأين الباكون؟ فلا حجة فيه لهذا، وهذا الذي ذكروه عن عمر رضي الله عنه ذكره أبو حاتم عن النبي ﷺ. وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ويحيى، والأعمش: [وَبِكيّاً] بكسر الباء، وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

«الخَلَف» ـ بفتح اللام ـ: القَرْن يأتي بعد آخر يمضي، والابن بعد الأب، وقد يستعمل في سائر الأمور، و«الْخَلْفُ» ـ بسكون اللام ـ إذا كان الآتي مذموماً، وهذا مشهور كلام العرب، وقد ذكر عن بعضهم أن الخَلَف والخَلْف بمعنى واحد، وحجة ذلك قول الشاعر:

لَنَا الْقَدَمُ الأولى إلَيْكَ وَخَلْفُنَا ... لِأَوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ[1]

(١) البيت لحسان بن ثابت الأنصاري، وهو في اللسان شاهد على أنَّ (الخَلْف) ـ بسكون اللام ـ هو الآتي=



وقرأ الجمهور: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿أضاعوا الصلوات﴾ بالجمع، وهو كذلك في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والمراد بـ«الخَلْفِ» من كفر وعصى بَعْدُ من بني إسرائيل، وقال مجاهد: المراد النصارى، خلفوا بعد اليهود، وقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وعطاءٌ: هم قوم من أمة محمد ﷺ في آخر الزمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أي: يكون في هذه الأُمَّة مَنْ هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يكون الخلف بعد ستين سنة)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عرف إلى يوم القيامة.

واختلف الناس في «إضاعةِ الصَّلاةِ» منهم، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره: كان إضاعةَ كُفْرٍ وجَحْدٍ بها، وقال القاسم ابن مخيمرة[2]، وعبد الله بن مسعود: كانت إضاعة أوقاتها، و[عدم][3] المحافظة على أوانها، وذكره الطبري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و«الشَّهَوَاتُ» عمومٌ، وكل ما ذُكر من ذلك فمثال.

= بعد الماضي ويكون محموداً، قال: «والخَلْف: الباقي بعد الهالِكِ، والتابعُ له، هو في الأصل أيضاً من خَلَف يَخْلُفُ خَلْفاً، ويكون محموداً ومذموماً، فشاهد المحمود قول حسَّان بن ثابت الأنصاري: لنا القدم الأولى... البيت... فالخلْف ها هنا هو التابع لمن مضى، وليس من معنى الخَلَف الذي هو البدل»، ثم قال صاحب اللسان: «وقيل: الخَلْف هنا المتخلفون عن الأولين، أي الباقون، وعليه قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾، فسمي بالمصدر، فهذا قول ثعلب، قال الأزهري: وهو الصحيح».

(١) أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور: سمعت رسول الله ﷺ، وتلا هذه الآية: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، فقال: (يكون خَلْف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيّاً، ثم يكون خَلْف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر).

(٢) القاسمُ بن مُخَيْمِرة ـ بالخاء المعجمة ـ مُصَغَّراً، أبو عروة الهَمْداني ـ بالسكون ـ الكوفي، نزيل الشام، ثقة، فاضل، من الثالثة، مات سنة مائة. (تقريب التهذيب).

(٣) زيادة تقتضيها سلامة التعبير.



و«الغَيُّ»: الخُسْران والحصول في الورطات، ومنه قول الشاعر:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ ... وَمَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائِماً[١]

وبه فسَّر ابن زيد رحمه الله هذه الآية. وقد يكون الغَيُّ أيضاً الضَّلَال، فيكون هذا هنا على حذف مضاف تقديره: «يلقون جزاءَ الغيِّ»، وبه فسَّر الزجاج. وقال عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود: الغَيُّ وادٍ في جهنم، وبه وقع التوعُّد في هذه الآية. وقيل: الغَيُّ [والآثام][٢] نهران في جهنم، رواه أبو أُمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ استثناء يحتمل الاتصال والانفصال، وقوله: [وَآمَنَ] يقتضي أن الإضاعة أوَّلاً هي إضاعةُ كفر، هذا مع اتصال الاستثناء، وعليه فسَّر الطبري. وقرأ الجمهور: [يُدْخَلُونَ] بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الحسن كلَّ ما في القرآن (يَدْخُلُونَ) بفتح الياء وضم الخاء.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ بنصب الجنَّات على البدل من ﴿ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة برفعها على تقدير: ذلك، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [جَنَّةَ] على الإفراد والنصب، وكذلك في مصحف عبد الله بن مسعود، وقرأها الأعمش. و«العُدْنُ»: الإقامة المستمرة، وقوله: [بِالْغَيْبِ] أي: أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعاينوا، و«الْمَأْتِيُّ» مفعول على بابه، والأَتِيُّ هو

---

(١) البيت للمرقِّش الأصغر، وهو ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو ابن أخٍ للمرقِّش الأكبر، وعمُّ طرفة بن العبد، وقد عشِق فاطمة بنت المنذر، وعرف بأنه من عشاق العرب، وهو أشعر المرقشيْن وأطولهما عُمْراً، والبيت من قصيدة له يصف فيها حبه لفاطمة، ويتحدث عن قصة ترويها كتب الأدب، ويمكن الرجوع إليها في المفضليات. واستشهد بهذا البيت في اللسان على أن الغي هو الضلال.

(٢) زيادة ليست في الأصول ولكنها في حديث أُمامة، ويقتضيها التعبير.

(٣) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: لو أن صخرة زنة عشر أواقٍ قُذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وآثام، قلت: وما غيٌّ وآثام؟ قال: نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان ذكر الله في كتابه: ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ ﴾، ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ ﴾. (الدر المنثور). والحديث ضعيف، فيه زكريا بن أبي مريم ضعيف وانظر ميزان الاعتدال ٣/ ١١٠، ولسان الميزان: ٢/ ٤٨٢.

الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد، وكان إتيانه إنما يقصد به الوعد الذي تقدمه، وقالت جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ بمعنى: آتٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، والنظر الأول أصوب.

و«اللَّغْوُ»: السَّقط من القول، وهو أنواع مختلفة كلُّها ليست في الجنة، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن يسمعون سلاماً، وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات، وقوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريد في التقدير، أيْ: يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمان، ويروى أن أهل الجنة تنْسَدُّ لهم الأبواب بقدر الليل في الدنيا، فهم يعرفون البُكْرة عند انفتاحها والعَشِيَّ عند انسدادها، وقال مجاهد رحمه الله: ليس بُكْرَةً ولا عَشِياً، ولكن يُؤْتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد ذكر نحوه قتادة، أن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاهة العيش، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأتي على أكمل وجوهه. قال الحسن: خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش، وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرَّة في اليوم، وهي غايته، وكان أكثر عيشهم من شجر البَرِّيَّة، ومن الحيوان، ونحوه، ألا ترى قول الشاعر:

أَوْ وَجْبَةٌ مِنْ جَناةِ أَشْكَلَةٍ إنْ لَمْ يُرِغْهَا بالْقَوْسِ لَمْ تُنَلِ[1]

الوجبة: الأَكْلَة في اليوم.

---

(١) الوَجْبَةُ: الأَكْلَة في اليوم والليلة، وفي حديث الحسن: «يطعم عشرة مساكين وجْبَةً واحدةً»، والأشْكَلَةُ: واحدة الأشْكَل وهو السِّدْرُ الجبلي، وفي اللسان (شكل): «قال أبو حنيفة: أخبرني بعض العرب أن الأشكل شجر مثلُ شجر العُنَّاب في شوكه وعَقَفِ أغصانه، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً، وهو صُلْب جدّاً، وله نُبَيْقَة حامضة شديدة الحموضة، منابته شواهق الجبال، تُتخذ منه القِسِيُّ، وإذا لم تكن شجرته عتيقة متقادمة كان عودها أصفر شديد الصفرة، وإذا تقادمت شجرته جاء عودها نصفين، نصف شديد الصفرة، ونصف شديد السواد». ويُرِغْها: يطلبها ويريدها، من أراغ بمعنى أراد وطلب. والنصف الأول من البيت شاهد في اللسان على أن الأشكلة هي السِّدرة الجبلية، وهو غير منسوب. والشاعر يصف أكلة العربي في البادية بأنها مرة واحدة في اليوم، وأنها من شجر البرية، ولا يحصل عليها إلا ببحث ومشقة وتعب.

وقرأ الجمهور: (نُورِثُ) بسكون الواو، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة: [نُوَرِّثُ] بفتح الواو وشدِّ الراء(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ بالنون، كأن جبريل عليه السلام عنى نفسه والملائكة، وقرأ الأعرج: [وما يتنزل] بالياء على أنه خبر من الله تعالى أن جبريل لا يتنزَّل، قال هذا التأويل بعضُ المفسرين، ويردُّه قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ لأنه لا يطَّرد معه، وإنما يتَّجه أن يكون خبراً من جبريل عليه السلام أنَّ القرآن لا يتنزَّل إلاَّ بأمر الله تبارك وتعالى في الأوقات التي يقدرها، ورُويت قراءة الأعرج بضم الياء، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «إلاَّ بقول ربِّكَ».

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ أبطأ عنه جبريل مرة، فلمَّا جاءه قال له: (يا جبريل قد اشتقت إليك، أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا)؟(٢) فنزلت هذه الآية.

وقال مجاهد، والضحاك: سببها أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي ﷺ عند قوله في الأسئلة المتقدمة في سورة الكهف(٣): (غداً أُخبركم) حتى فرح بذلك المشركون، واهتم رسول الله ﷺ، ثم جاءه جبريل عليه السلام، فنزلت هذه الآية في ذلك المعنى، فهي كالتي في الضُّحى(٤).

---

(١) وهي أيضاً قراءة رُوَيس، وحُمَيْد، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، وقرأ الأعمش: [نُورِثُهَا] بإبراز الضمير العائد على الموصول.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن غريب، ورواه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء في روايته أن النبي ﷺ قال لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، وذكر السيوطي في «الدر المنثور» أن هذا الحديث أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الدلائل.

(٣) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟يْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.



وهذه الواو التي في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى، وواصلةٌ بين القولين، وإن لم يكن معناهما واحداً، وحكى النقاش عن قوم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ متصل بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ لفظٌ يحتاج إلى ثلاث مراتب، واختلف المفسرون فيها ـ فقال أبو العالية: ما بين الأيدي: الدنيا بأسرها إلى النَّفخة الأولى، وما خَلْفُ: الآخرة إلى وقت البعث، وما بين ذلك: ما بين النفختين. وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مرَّ من الزمن قبل إيجاد من في الضمير، وما خَلْفُ هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة، ، ما بين ذلك هو مدَّة الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكته، وأنَّ قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بأمره، وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو لخدمته؛ إذ الأمكنة له وهُمْ له، فلو ذُهب بالآية إلى أن المراد بما بين الأيدي وما خلف الأمْكِنَةُ التي تصرُّفهم فيها، وأن المراد بما بين ذلك هُمْ أنفسهم ومقاماتهم ـ لكان وجهاً، كأنه قال: نحن مُقَيَّدُون بالقدرة، لا ننتقل ولا نتنزَّل إلاَّ بأمر ربك[1].

وقال ابن عباس، وقتادة ـ فيما رُوي وما أراه صحيحاً عنهما ـ: ما بين الأيدي هي الآخرة، وما خَلْف هي الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مختل المعنى إلاَّ على التشبيه بالمكان، كأن ما بين اليد إنما هو ما تقدم

= وهذا الحديث أخرجه ابن جرير عن مجاهد، وأخرج نحوه سعيدُ بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد. (راجع الدر المنثور)، قال الإمام السيوطي: إن هذا القول قال به أيضاً عكرمة، ومقاتل، والكلبي. ولكنهم اختلفوا في المدة التي تأخرها جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ.

(١) قال أبو حيان في البحر: «وما قاله ابن عطية ذهب إلى نحوه الزمخشري، قال: له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات والأماكن، وما نحن فيه، فلا نملك إلا أن ننتقل من جهة إلى جهة، ومن مكان إلى مكان إلاَّ بأمر المليك ومشيئته، والمعنى أنه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية».

وجوده في الزمان بمثابة التوراة والإنجيل من القرآن، وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم، وهذه المقالة هي للملائكة، فتأمَّله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أيْ ممَّن يلحقه نسيان لِبَعْثِنا إليك في وقت المصلحة به، فإنما ذلك عن قدَرٍ له، أي: فلا تطلب أنت يا محمد من الزيارة أكثر مما شاء الله، هذا على ما تقتضيه قوة الكلام على التأويل الواحد، أو فلا تهتم يا محمد بتأخري، ولا تلتفت إلى فرح المشركين بذلك على التأويل الثاني. و[نَسِيّاً] فعيلٌ من النسيان والذهول عن الأمور، وقالت فرقة: [نَسِيّاً] معناه: تاركاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف لأنه إنما نفى النسيان مطلقاً، فيتمكن ذلك في النسيان الذي هو نص، وأما التَّرْكُ فلا ينْتفي مطلقاً، ألاَ ترى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾[1]، وقوله: ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾[2]، فلو قال: نَسِيكَ، أو نحوه من التَّقْييد لهم يصح حمله على الترك، ولا حاجة بنا إلى أن نقول: إن التَّقييد في النِّيَّة لأن المعنى الآخر أظهر. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا نَسِيكَ رَبُّكَ»، وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَحَلَّ اللهُ في كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حرام، وما سكت عنه فهو عافيته فاقبلوا)، ثم تلا هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية. [رَبُّ] بدل من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أمْرٌ بحمل تكاليف الشرع وإشعارٌ مَّا بصعوبتها، كالجهاد والحج والصدقات، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار، أعاننا الله عليها. وقرأ الجمهور: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ بإظهار اللام، وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء، وهي قراءة عيسى، والأعمش، والحسن، وابن محيصن. قال أبو عليٍّ: سيبويه يجيز إدغام اللام في الطاءِ والتَّاءِ والذال والثاء والصاد والزاي والسين،

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة (البقرة): ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

(٢) من الآية (٩٩) من سورة (الكهف).

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبزار، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، والحاكم وصححه، عن أبي الدرداء، وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن أبا الدرداء رفع الحديث، قال: (ما أَحَلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾).



وقرأ أبو عمرو: ﴿هَل ثُّوِّبَ﴾[١] بإدغامها في الثاء وإدغامها في التَّاء أحق لأنها أدخل معها في الفم، ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي:

فَذَرْ ذا وَلَكِنْ هَتُّعِينُ مُتَيَّماً عَلَى ضَوْءِ بَرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ نَاصِبِ؟[٢]

وقوله: ﴿سَمِيًّا﴾ قال قومٌ ـ وهو ظاهر اللفظ ـ: معناه: موافقاً في الاسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هل تعلم من يُسَمَّى بهذا ويُوصف بهذه الصفة؟ وذلك أن الأُمم[٣] لا يُسَمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى، وأما الأُلوهية والقدرة فقد يوجد السميُّ فيها، وذلك باشتراك لا بمعنى واحد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ سَمِيًّا معناه: مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ حسن، وكأن السَّمِيَّ بمعنى المسامي والمضاهي، فهو من السُّمُوِّ، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدَّم في ذكر يحيى عليه السلام[٤].

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (المطففين)، وفي البحر المحيط أن الجمهور قرأ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ بإظهار لام هَلْ، والنحويان، وحمزة، وابن محيصن بإدغامها في الثاء، والنحويان هما أبو عمرو بن العلاء، وعليُّ بن حمزة الكسائي.

(٢) مُزاحم بن الحارث العقيلي شاعر إسلامي، كان بدوياً فصيحاً، وكان في زمن جرير والفرزدق، وكان جرير يقرظه ويقدمه، والبيت في الكتاب لسيبويه، والرواية فيه: «فَدَعْ ذا»، والمُتَيَّم: الذي تيَّمه الحبُّ واستعبده، ، النَّاصب: المُصِب المُتْعِب، وهو غير جار على فعله؛ لأن الفعل (أنصب) فهو منصب، وإنما هو على النسب كتامرٍ ولابنٍ. وقد جعل البرقَ مُتْعِباً له لما يعانيه من مراعاته وتعرف المكان الذي ينزل فيه مطره، هل يكون في مكان المحبوب أم في غيره، ولهذا سأل أن يُعَانَ على مراعاته، أو طلب من يعينه على السهر معه لما يحدثه البرق من شجو وحنين. والشاهد فيه إدغام اللام في التاء، أي: لام (هل) في تاء (تُعِينُ) لأنهما متقاربان في المخرج، إذ هما من حروف طرف اللسان الصعبة في النطق، فهي أحوج إلى الإدغام من غيرها، ولهذا فإن بعض القراء أدغم اللام في التاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ فقرأ: [بَتُّؤْثِرُونَ].

(٣) في بعض النسخ: «وذلك أن الأمم والفِرَق».

(٤) أي قوله تعالى قبل ذلك: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾.

[الإِنْسَانُ] اسم للجنس يُراد به الكافرون، ورُوي أن سبب هذه الآية هو أن رجالاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه، ورُوي أن القائل هو أُبيٌّ بن خلف، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رفات ونفخ فيه وقال: أيبعث هذا؟ وكذَّب وسخر، وقيل: إن القائل هو العاصي بن وائل، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: [أئِذَا] بالاستفهام الظاهر، وقرأت فرقة: [إذَا] دون ألف استفهام، وقد تقدم هذا مستوعَباً[1]. وقرأت فرقة: (مِتُّ) بكسر الميم، وقرأت فرقة بضمها واللام في قوله: [لَسَوْفَ] مجلوبة على الحكاية لكلام معلَّم بهذا المعنى، كأن قائلاً قال لكافر: إذا مِتَّ يا فلان لسوف تخرج حَيّاً، فقرَّره الكافر على جهة الاستبعاد، وكرر الكلام حكاية للقول الأول[2]. وقرأ جمهور الناس: (أُخْرَجُ) بضم الهمزة، وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ وأبو حيوة: [أَخْرُجُ] بفتح الهمزة وضم الراء.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الآية احتجاجٌ، خاطب الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً ﷺ رادّاً على مقالة الكافر. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [أولا يذَّكَّر] بشد الذال والكاف، وقرأ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: [أولا يَتَذَكَّرُ]، والنشأة الأولى والإخراج من العدم إلى الوجود أوضح دليل على جواز البعث من القبور، ثم قرَّرَ ذلك وأوجبه السمعُ، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ دليلٌ على أن المعدوم لا يُسَمَّى شيئاً، قال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

---

(١) قرأ الجمهور [أَئِذَا]، وقرأ ابن ذكوان وجماعة [إذَا] على الخبر، وقد تقرر ذلك في كثير من الآيات، وقد قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومن قرأ من القراء على صورة الخبر فلا يريد الخبر حقيقة لأن ذلك يكون تصديقاً بما هو موضع الاستفهام والإنكار، لكنه يحذف همزة الاستفهام لدلالة المعنى عليه».

(٢) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام في البحر المحيط، ثم عقب عليه بقوله: «ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، ولا إلى أن هذا حكاية لقول تقدم، بل هذا من الكافر استفهام فيه معنى الجحد والإنكار، ومن قرأ: ﴿إذا ما مت﴾ تكون الهمزة قد حذفت لدلالة المعنى عليها، وقد يكون إخباراً على سبيل الهُزْءِ والسُّخْرِية بمن يقول ذلك إذ لم يرد به مطابقة اللفظ للمعنى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة اعتزالية فتأملها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ الآيَةَ وعيدٌ يكون ما بعده على أصعب وجوهه، والضمير في قوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾، عائد على الكفار القائلين ما تقدم، ثم أخبر أنه يقرن بهم الشياطين المُغْوِينَ لهم، وقوله: ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ كقاعد وقعود وجالس وجلوس، وأصله: جُثُوواً، وليس في كلام العرب واوٌ متطرفة قبلها ضمة فوجب أن تُعَلَّ، ولم يُعتَدَّ ها هنا بالساكن الذي بينهما لِخِفَّته وقِلَّة حوله فقلبت ياءً فجاءَ جُثُوياً، فاجتمع الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياءً، ثم أُدغمت الياءُ في الياء ثم كسرت الثاءُ للتناسب بين الكسر والياء. وقرأ الجمهور ﴿جِثِيًّا﴾ و﴿صِلِيًّا﴾[1] بضم الجيم والصاد، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿جِثِيًّا﴾ و﴿صِلِيًّا﴾ بكسر الجيم والصاد. وأخبر الله تعالى أنه يُحضر هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين فيجثون حول جهنم، وهي قعدة الخائف الذليل على ركبتيه كالأسير ونحوه، وقال قتادة: ﴿جِثِيًّا﴾ معناه: على ركبهم، وقال ابن زيد: الجثي شرُّ الجلوس.

و«ٱلشِّيعَةُ»: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعاونة فيه، كأن بعضهم يشيع بعضاً، أيْ ينبِّه منه، ومنه تشييع النار بالحطب، وهو وَقْدُهَا بالحطب شيئاً بعد شيءٍ، ومنه قيل للشجاع: مشيع القلب، فأخبر الله تعالى أنه ينزع من كل شيعة أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار، وقال أبو الأحوص: المعنى: نبدأ بالأكابر جُرْماً. ثم أخبر تعالى في الآية بَعْدُ أنه أعلم بمستحقِّي ذلك وأبصر؛ لأنه لم يَخْفَ عليه حالهم من أولها إلى آخرها.

وقرأ بعض الكوفيين، ومعاذ بن مسلم، وهارون القارىء: [أَيَّهُمْ] بالنصب، وقرأ الجمهور: (أَيُّهُمْ) بالضم، إلاَّ أن طلحة والأعمش سكَّنا ميم [أَيُّهُمْ]، واختلف الناس في وجه رفع (أَيٌّ) ـ فقال الخليل: رَفْعُه على الحكاية بتقدير: الذي يُقال فيه من أجل عُتُوِّه: أَيُّهُمْ أَشَدُّ، وقرنه بقول الشاعر:

---

(١) في قوله تعالى بعد ذلك بآية واحدة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، ونُعَقِّب على كلام المؤلف بأن قراءة عاصم في رواية حفص بالكسر في الكلمتين.

ولَقَـدْ أبيـتُ مـنَ الْفَتَـاةِ بِمَنْـزِلٍ فَـأَبِيـتُ لاَ حَـرِجٌ ولا مَحْـرُومُ[١]

أي: فأبيتُ يقال فيَّ: لا حرِجٌ ولا محروم، ورجَّح الزجاج قول الخليل، وذكر عنه النحاسُ أنه غَلَّط سيبويه في هذه المسألة[٢]، قال سيبويه: ويلزم على هذا أن يجوز: «اضرب السارق الخبيثُ»، أي الذي يقال له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس بلازم؛ من حيث هذه أسماءٌ مفردة والآية جملة، وتسلُّط الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة، ومذهب سيبويه أن [أَيُّهُمْ] مبني على الضمِّ؛ إذ هي أُخت لـ«الذي» ولِـ«ما»، وخَالَفَتْهُما في جواز الإضافة فيها فأُعربت لذلك، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت إلى البناء، وكان التقدير: أَيُّهُمْ أَشَدُّ. وقال أبو علي: حُذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناءُ، وقال يونس: عُلِّق عنها الفعل فارتفعت بالابتداء، قال أبو علي: معنى ذلك أنه يعمل في موضع ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ إلاَّ أنه ملغىٰ لأنه تعلق جملة، إلاَّ أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. وقال الكسائي: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ معناه: لَنُنَادِيَنَّ، فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعمل في [أي]. وقال المبرد: ﴿أَيُّهُمْ﴾ متعلق بـ﴿شِيعَةٍ﴾ فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أَيُّهم أشد، كأنهم يتبارون إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمه أن يقدر مفعولاً لـ[نَنْزِعَنَّ] محذوفاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيُّهُمْ أكبر﴾. و﴿عِتِيّاً﴾ مصدر، وأصله: عتووا، أُعِلَّ بما أُعل به ﴿جِثيّاً﴾، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ينذلقُ عُنُقٌ من النار

---

(١) البيت للأخطل، وهو في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والخزانة، والإنصاف، وروح المعاني، والقرطبي، و«بمنزلِ»: في مكان قريب مكين، لا حرجٌ: لا أتحرج من لذة، ولا محروم: لا أُحْرم ما اشتهي، والشاهد في أنه رفع «حرِجٌ ومحرومٌ»، وكان وجه الكلام أن ينصبا على الحال. وفي البيت من الخلاف مثل ما في إعراب الآية الكريمة.

(٢) نقل عنه القرطبي أنه قال: «وما علمتُ أحداً من النحويين إلا وقد خطَّأ سيبويه في هذا، وسمعت أبا إسحق يقول: ما يَبِينُ لي أن سيبويه غَلِطَ في كتابه إلاَّ في موضعين هذا أحدهما، قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب (أيّاً) مُفْردة لأنها تضاف، فكيف يبنيها وهي مضافة؟».

فيقول: إنِّي أُمرت بكل جبَّار عنيد، فتلفظهم. . . الحديث[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: نحن في ذلك النَّزع لا نضع شيئاً في غير موضعه؛ لأننا قد أحطنا علماً بكل أحد، والأولى بصلي النار نعرفه، و«الصِّلِي» مصدرُ صَلِيَ يَصْلَى إذا باشر. قال ابن جريج: المعنى: أولى بالخلود.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ حَتْمٌ، والواو تقتضيه، ويفسره قول النبي ﷺ: (من ماتَ له ثلاثة من الولد لم تمسَّه النَّارُ إلاَّ تحِلَّة القَسَم)[٢]. وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وجماعة: ﴿وَإِنَّ مِّنهُمْ﴾ بالهاء، على إرادة الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فلا شَغْب في هذه القراءة.

وقالت فرقة من الجمهور القارئين [مِنْكُمْ]: المعنى: قلْ لهم يا محمد، فإنما المخاطب بـ[مِنْكُمْ] الكفرةُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول.

وقال الأكثر: المخاطبُ العالَمُ كلُّه، ولا بُدَّ من ورود الجميع، واختلفوا في كيفية

---

(١) أخرجه الترمذي، والإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه في رواية، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رواية أخرى. ولفظه كما رواه عن أبي سعيد (٣ـ٤٠): (عن نبي الله ﷺ أنه قال: يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وُكِّلْت اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس، فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرج الطبراني نحوه عن عبد الرحمن بن بشير الأنصاري رضي الله عنه. (الدر المنثور). والحديث يدل على أنه أيضاً يرد النار، والورود له معان سيذكرها ابن عطية، وأقربها أنها ستكون برداًوسلاماً على المؤمنين.

ورود المؤمنين ـ فقال عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وخالد بن معدان، وابن جريج، وغيرهم: وُرود دخولٍ، لكنها لا تعدو على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَوْا منه. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: أمَّا أنا وأنت فلا بُدَّ أن نردها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنه يُنجيك، وقالوا: في القرآن أربعة أوْراد معناها الدخول، هذا أحدها، وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[3]، وقالوا: كان دعاءُ بعض السَّلَف: «اللهم أدخلني النَّار سالماً، وأخرجني منها غانماً»، وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: (الورود في هذه الآية هو الدخول)[4]، وأشفق كثير من العلماء من تحقيق الورود والجهل بالصدور[5].

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب، كما تقول: «وردت الماءَ» إذا جئته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا: وحَسْبُ المؤمنين بهذا هوْلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[6].

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (هود).

(٢) من الآية (٨٦) من هذه السورة (مريم).

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء).

(٤) أخرجه أحمد، وعَبْد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضها: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فذكرت له، فقال ـ وأهْوَى بإصبعيه إلى أُذنيه صمتاً ـ إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً).

(٥) روي أن ابن رواحة أراد الخروج إلى الشام، فأتاه المسلمون يودعونه، فبكى، فقال: والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة لكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾، فقد علمت أنِّي وارد النار، ولا أدري كيف الصدور بعد الورود، وعن الحسن أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاكَ أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أتاك أنَّك خارج؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضَّحك إذاً؟.

(٦) من الآية (٢٣) من سورة (القصص).

وروت فرقة أن الله تعالى يجعل النار يوم القيامة خامدة الأعْلَى كأنها هالة، فيأتي الخلق كلهم بَرُّهم وفاجرهم، فيقعون عليها، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون الفائزون ولم ينلهم ضر، فقالوا: هذا هو الورود.

وروت حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية)، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأين قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: (فَمَه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾)[1]، ورجَّح الزَّجاج هذا القول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2].

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نُسخ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وليس هذا موضع نسخ.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: وُرودُهُم هو جوازهم على الصراط، وذلك أن الحديث الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق الخاطف، وكالرِّيح، وكالجواد من الخيل، وعلى مراتب، ثم يسقط الكافر في جهنم وتأخذهم كلاليب[3]، قالوا: فالجواز على الصراط هوالورود الذي تضمنته هذه الآية.

وقال مجاهد: وُرودُ المؤمنين هو الْحُمَّى التي تصيبهم في دار الدنيا، وفي الحديث (الحُمَّى من فَيْح جهنم، فَأَبْرِدوها بالماء)[4]، وفي الحديث أيضاً (الحُمَّى حظ كل

---

(١) أخرجه مسلم، من حديث أُمّ مُبَشِّر، قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول عند حفصة الحديث، وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن سعد، وأحمد، وهناد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والطبراني، وابن مردويه. هذا وأُمُّ مُبَشِّر هي امرأة زيد بن حارثة.

(٢) الآية (١٠١) من سورة (الأنبياء).

(٣) أخرجه أحمد، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والترمذي، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث، وابن مردويه، عن ابن مسعود، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن مسعود أيضاً، وأخرج نحوه عن ابن مسعود أيضاً ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه. (ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور).

(٤) أخرجه مسلم في السلام، وابن ماجه في الطب، وأحمد (٥ـ٢١٦، ٦ـ٣٤٦)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن رافع بن خديج، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن الحمَّى فوْرٌ من جهنم فأبردوها بالماء).



مُؤمِنٍ من النار)[١]، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل عاده من الحُمَّى: (إن الله يقول: هي ناري أُسَلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة)[٢]، فهذا هو الورود.

و«الْحَتْمُ»: الأمر المنفذ المجذوم[٣]، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: [ثَمَّ] بفتح الثاء على الظرف، وقرأ ابن أبي ليلى: [ثَمَّه] بفتح الثاء وهاء السكت، وقرأ نافع وابن كثير، وجمهور الناس: (نُنَجِّي) بفتح النون الثانية وشد الجيم، وقرأ يحيى، والأعمش: [نُنْجِي] بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأت فرقة: [نُجِّي] بضم النون الواحدة وشد الجيم وكسرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [ثَمَّ] بفتح الثاء [نُحَّيَ] بالحاء غير منقوطة.

و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ معناه: اتقوا الكفر. وقال بعض العلماء: «لا يضيع أحدٌ بين الإيمان والشفاعة»، و[نَذَرُ] دالَّة على أنهم كانوا فيها، و«الظُّلْمُ» هنا هو ظُلْم الكفر. وقد تقدم القول في قوله: [جِثِيّاً]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مِنْهَا وَنَتْرُكُ ٱلظَّالِمِينَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

قرأ الأعرج، وابن محيصن، وأبو حيوة: ﴿وإِذَا يُتْلَىٰ﴾ بالياء من تحت.

وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأُ المؤمن عليه القرآن، ويبهره بآيات النبي ﷺ، كان الكافر منهم يقول: إن الله إنما يُحسِن لأحب الخلق إليه، وإنما يُنْعم على أهل الحق، ونحن قد أنعم علينا دونكم، فنحن أغنياءُ وأنتم فقراءُ، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارةً، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله تعالى: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؟

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: (الحمَّى حظ كل مؤمن من النار)، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، هكذا ذكر في «الدر المنثور»، وهو غير مرفوع.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٣) هذا رأي مجاهد وآخرين، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الحَتْمُ المَقْضيُّ: القَسَم الواجب.

وقرأ نافع، وابن عباس رضي الله عنهما: (مَقَاماً) بفتح الميم، و﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾[١] بالفتح أيضاً، وهو المصدر من قام، أو الظرف منه في[٢] موضع القيام. وهذا يقتضي لفظ المَقَام، إلاَّ أن المعنى في هذه الآية يجوز أنه واقع على الظرف فقط، وقرأ أُبَيٌّ رضي الله عنه: «في مُقَام أمين»[٣]، بضم الميم، وقرأ ابن كثير: [مُقَاماً] بضم الميم، وهو ظرف من أقام، وكذلك أيضاً من المصدر منه مثل ﴿مَجْرِبْهَا وَمُرْسَنْهَآ﴾[٤]، وقرأ: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ و﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالفتح، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم جميعَهُنَّ بالفتح، وروى حفصٌ عن عاصم ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم.

و«النَّدِي» والنَّادي: المجلس فيه الجماعة، ومنه قول حاتم الطائي:

وَدُعِيتُ في أُولَى النَّدِيِّ وَلَمْ يُنْظَرْ إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ خُزْرِ[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ مخاطبة من الله تبارك وتعالى لنبيِّه محمد ﷺ، خبر يتضمن كسر حُجَّتهم واحتقار أمرهم؛ لأن التقدير: هذا الذي افتخروا به لا قَدْر له عند الله، وليس بِمُنْجٍ لهم، فكم أهلك الله من أُمم لمَّا كفروا وهم أَشَدُّ من هؤلاء وأكثر أموالاً وأجمل منظراً. و«القَرْنُ»: الأمَّة يجمعها العصر الواحد، واختلف الناس في قدر المُدَّة التي إذا اجتمعت أُمة سُمِّيت تلك الأمة قرناً ـ فقيل: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقد تقدم القول في هذا غير مرة. و«الأَثاثُ»: المالُ العَيْن والعَرَض والحيوان، وهو اسمٌ عام، واختلف، هل هو جمع أو إفراد؟ فقال الفراءُ: هو اسمُ جَمْع لا واحد له من لفظه كالمتاع، وقال خلف الأحمر، هو جَمْعٌ واحده أثاثة، كحمامَةٍ وحمامٍ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (الأحزاب): ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾.

(٢) في بعض النسخ «أي» بدلا من «في» وهي أشبه.

(٣) من قوله تعالى في الآية (٥١) من سورة (الدخان): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.

(٤) من الآية (٤١) من سورة (هود).

(٥) البيت من أبيات قالها حاتم يمدح بني بدر، وهو في الديوان، وفي اللسان (خزر)، والنَّدِيُّ: المجلسُ ما دام القوم مجتمعين فيه، والجمع: الأندية. والخُزْرُ: جمع خَزْراءَ، وهو ضيق العين، وقيل: هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخرها. والبيت هنا شاهد على أن النَّدِيَّ هو المجلس فيه الجماعة.

أَشَـاقَتْـكَ الظَّعـائِـنُ يَـوْمَ بـانُـوا ... بِذِي الرِّئْيِ الْجَميلِ مِنَ الأَثَاثِ؟[١]

وأنشد أبو العباس:

لَقَـدْ عَلِمَـتْ عُـرَيْنَـةُ حَيْـثُ كـانُـوا ... بِـأَنَّـا نَحْـنُ أَكْثَـرُهُـمْ أَثَـاثـاً[٢]

وقرأ نافع ـ بخلاف ـ وأهل المدينة: [وَرِيّاً] بياءٍ مشددة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه، وطلحة: [وَرِياً] بياءٍ مخففة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (وَرِئْياً) بهمزة بعدها ياءٌ، على وزن رِعْياً، ورويت عن نافع، وابن عامر، رواها أشهب عن نافع، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [وَرِيْئًا] بياءٍ ساكنة بعدها همزة، وهو على القلب، وزنها فِلْعًا، وكأنه من راءَ[٣]، وقال الشاعر:

وكُـلُّ خَليـلٍ راءَنـي فَهْـوَ قـائِـلٌ ... مِنَ اَجْلِكَ: هذا هامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ[٤]

---

(١) البيت لمحمد بن نمير الثقفي، وأنشده أبو عبيدة، وهو في، القرطبي والطبري، واللسان، والكامل، وقد قاله الشاعر من أبياتٍ يُشبب فيها بزينب أُخْتِ الحجاج بن يوسف الثقفي، فتوعَّده فهرب منه، والقصة في الكامل للمبرد، والظَّعائن: جمع ظعينة، وهي الزوجة في الهودج عند الرحيل، وبانُوا: سافروا وابتعدوا، والرِّئْيُ: المنظر، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، هذا إذا كانت الكلمة مهموزة، قال الفراءُ في الآية: «أهلُ المدينة يقرؤونها: [رِيّاً] بغير همز، قال: وهو وجه جيِّدٌ من رأيت». والبيت هنا شاهد على أن الأثاث هو المتاع وما كان من مالٍ، وقيل: هو كثرة المال، أو هو المال كله: الإبل والغنم والعبيد والمتاع.

(٢) عُرَيْنَةُ حيٌّ من اليمن، وعَرِين حيٌّ من تميم، ولهم يقول جرير:

عَـرِيـنٌ مِـنْ عُـرَيْنَـةَ لَيْـسَ مِنَّـا ... بَـرِئْـتُ إلـى عُـرَيْنَـةَ مِـنْ عَـرِيـن

والأثاث في الأصل: الكثرةُ والعِظَمُ من كلِّ شيءٍ، وهو هنا الكثير من المال، بل قيل: هو المالُ كله، وما كان من لِبَاسٍ وحشو للفراش فاسْمُه المتاع، وواحدته أثاثةٌ. يفخر الشاعر على عُرينة في كل مكان بأنهم أكثر منهم مالاً ومتاعاً.

(٣) في بعض النسخ: «وكأنه من وراء»، وما اخترناه هو الصواب.

(٤) البيت لكثيِّر، وهو في اللسان (رأى) و(هوم)، قال: «ويقال: رَاءَهُ في رَآهُ، قال كُثَيِّر: وكلُّ خليل... البيت» فهو شاهد على أن رَاءَ لغة في رَأَى، ووزنه فَلَع، ومثله في ذلك قول قيس بن الخطيم:

فَلَيْـتَ سُـوَيْـداً راءَ مَـنْ فَـرَّ مِنْهُـمُ ... وَمَـنْ جَـرَّ إِذْ يَحْدُونَهُـمْ بـالـرَّكَـائِـبِ

وفي التهذيب: «ومن قلب الهمزة من رَأَى قال: راءَ، كقولك: نأَى وناءَ». والهامة أعْلَى الرأس، وفيه الناصية والقصة، وفيه المفرق، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُؤخذ بثأره تصير هامةً فتزقو عند قبره، تقول: اسقوني اسقوني، ويقال: هذا هامَةُ اليوم أو غدٍ، أيْ يموت اليومَ أو غداً. فهو قد صار عليلاً بسبب حبها حتى يحسب الرائي أنه سيموت قريباً.



فأَما القراءتان المهموزتان فهما من رؤية العين، الرِّئْيُ اسمُ المَرْئي الظاهر للعين كالطِّحْن والسِّقي، قال ابن عباس: الرِّئْي: المنظر، قال الحسن: ورياً بمعناه، وأما المشدَّدة الياء فقيل: هي بمعنى المهموزة إلا أن الهمزة خففت لتستوي رؤُوس الآي. وذكر منذر بن سعيد عن بعض أهل العلم أنه من الرِّي في السُّقْيا، كأنه أراد أنهم خير منهم بلاداً وأطيب أرضاً وأكثر نعماً؛ إذْ جملة النِّعم إنما هي من المطر، وأما القراءة المخففة الياء فضعيفة الوجه، وقد قيل: هي لحنٌ. وقرأ سعيد بن جبير، ويزيد البربري، وابن عباس أيضاً: [وَزِيّاً] بالزاي، وهي بمعنى الملبس وهيئته، تقول: زَيَّيْتُ بمعنى: زَيَّنْتُ[1].

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ فقولٌ يحتمل معنيَيْن: أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء والابتهال، كأنه يقول: الأَضَلُّ منا ومنكم مدَّ اللهُ له حتى يؤُول ذلك إلى عذابه. والمعنى الآخر أن يكون بمعنى الخبر كأنه يقول: من كان ضَالاً من الأمم فعادة الله فيه أن يمد له ولا يعاجله حتى يُفْضي ذلك إلى عذابه في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فاللام في قوله تعالى: [فَلْيَمْدُدْ] على المعنى الأول لاَمُ رغبة في صيغة أمر، وعلى المعنى الثاني لاَمُ أمر دخلت على معنى الخبر ليكون أوكد وأقوى، وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

[حَتَّى] في هذه الآية حرف ابتداءٍ دخلت على جملة، وفيها معنى الغاية، و[إِذَا]

---

(١) وقيل: يجوز أن يكون من زويت بمعنى جمعْتُ، فيكون أصلها: زِوْيَا، فقلبت الواو ياءً، قال ﷺ: زُوِيَتْ لي الأرض، أيْ جُمِعَت، وقال الأعشى:

يَـزِيـدُ يَغُـضُّ الطَّـرْفَ دُونـي كَـأنَّمَـا ... زَوَى بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ عَلَـيَّ المَحَـاجِـم



شرط، وجوابها في قوله تعالى: [فَسَيَعْلَمُونَ]، و«الرُّؤْيَةُ» رُؤْية العين، و[ٱلْعَذَاب] و[ٱلسَّاعَةَ] بدلٌ من [مَا] التي وقعت عليها [رَأَوْا]. و[إِمَّا] هي المدخلة للشك في أول الكلام، والثانية عطف عليها. و[ٱلْعَذَابَ] يريد به عذاب الدنيا ونُصْرَةَ المؤمنين عليهم، و«الْجُنْدُ» النُّصْرةُ والقائمون بأمر الحرب، و﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، و﴿أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿أَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

ولما ذكر ضلالة الكفر، وارتباكهم في الامتحان بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم، عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين، في أنه يزيدهم هدى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة، والمعرفة بالدلائل الواضحة، وزيادة العلم دأباً، قال الطبري عن بعضهم: المعنى: بناسخ القرآن ومنسوخه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثالٌ.

و﴿البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ إشارةُ إلى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله، وهذه النعم على هؤلاء خير عند الله ثواباً وخير مرجعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول في زيادة الهُدَى سهلٌ بَيِّنُ الوجوه[١].

و﴿البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ كلُّ عملٍ صالح يرفع الله به درجة عامله، وقال الحسن: هي الفرائض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الصلوات الخمس، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات المشهورات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، فقد قال ﷺ لأبي الدرداء رضي الله عنه: (خُذْهُنَّ قبل أن يحال بينك وبينهن، فهُنَّ الباقيات الصالحات، وهُنَّ من كُنوز الجنَّة)[٢]، وروي

---

(١) سبق بيان ذلك في مواضع مختلفة، وخلاصة الآراء خمسة: (١) ويزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً، (٢) يزيدهم بصيرة في دينهم، (٣) يزيدهم إيماناً بزيادة الوحي، كلما نزلت سورة زادتهم إيماناً، (٤) يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ، (٥) يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدىً بالناسخ.

(٢) أخرج الطبراني، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وابن مردويه، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله هُنَّ الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها، وهن من كنوز الجنة). (الدر المنثور)، =

عنه ﷺ أنه قال يوماً: (خُذُوا جُنَّتكم)، قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عدوٍّ حضر؟ قال: (من النار)، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، هنَّ الباقيات الصالحات)[١]، وكان أبو الدرداءِ رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يقول: «لأُهَلِّلَنَّ ولأُكبِّرَنَّ الله ولأُسبِّحَنَّهُ حتى إذا رآني الجاهل ظنَّني مجنوناً».

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. الفاءُ في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عاطفة بعد ألف الاستفهام، وهي عاطفة جملة على جملة، و﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ يعني به العاصي بن وائل السهمي، قاله جمهور المفسرين، وخبره أن خَبَّاب بن الأَرَتِّ كان قَيْناً[٢] في الجاهلية، فعمل له عملاً، فاجتمع له عنده دين، فجاءه يتقاضاه، فقال له العاصي بن وائل: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقال خَبَّاب: لا أكفر بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى يميتك الله ثم يبعثك، قال العاصي: أوَ مبعوثٌ أنا بعد الموت؟ قال خبَّاب: نعم، قال: فإذا كان ذلك فسيكون لي مالٌ وولد، وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت الآية في ذلك[٣].

وقال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد كانت للوليد أيضاً أقوالٌ تشبه هذا الغرض.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (وَوَلَداً) على معنى اسم الجنس، بفتح الواو واللام،

= وفي رواية لقتادة ذكر نحو ذلك، ثم زاد عليه أنه قال صلوات الله وسلامه عليه: (خُذْهن إليك يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات)، قال القرطبي: ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء، وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبرني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) القَيْن: الحدَّاد.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، والبيهقي في الدلائل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، عن خبَّاب بن الأرت، قال: كنتُ رجلاً قيْناً... الحديث. (الدر المنثور).



وكذلك كل ما في سائر القرآن، إلاَّ في سورة نوح[١] فإنهما قرأا بضم الواو وسكون اللام. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: [وَوُلْداً] بضم الواو وسكون اللام، وكذلك في جميع القرآن، وقرأ ابن مسعود: «وِلْداً» بكسر الواو وسكون اللام، واختُلِف مع ضم الواو ـ فقال بعضهم: هو جَمْع وَلَد كأَسَد وأُسْد واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَقَــــدْ رَأَيْـــتُ مَعَـــاشِـــراً قَــدْ ثَمَّــرُوا مــالاً وَوُلْــداً[٢]

وقال بعضهم: هو مفرد، واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَيْـتَ فُـلانـاً كـانَ فـي بَطْـنِ أُمِّـهِ وَلَيْـتَ فُـلانـاً كـانَ وُلْـدَ حِمَـارِ[٣]

قال أبو عليٍّ رحمه الله: وفي قراءة حمزة والكسائي ما كان مفرداً قصد به المفرد، وما كان جمعاً قصد به الجمع، وقال الأخفش: الوَلد: الابن، والوُلْد: الأهل والوالد، وقال غيره: الوَلَد: بطن الرجل الذي هو منه، حكاه أبو علي في الحجة.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ توقيف، والألف للاستفهام، وحذفت في الوصل للاستغناء عنها[٤]، و«اتِّخاذُ العهد» معناه: بالإيمان والأعمال الصالحة. و[كَلاَّ] زجرٌ وردعٌ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب، على معنى حِفْظه عليه ومعاقبته به، وقرأ عاصم[٥]، والأعمش: [سَيُكْتَبُ] بياءٍ مضمومة، وقرأ: (سَنَكْتُبُ) بالنون أبو

---

(١) يعني قوله تعالى في الآية (٢١): ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

(٢) قال هذا البيت الحارثُ بن حِلِّزة، وهو سابع أبيات قالها يصف غدْر الدهر، ويُنَدِّد بمن يكنز الأموال، وهو في اللسان (ولد)، واستشهد به الفراءُ في (معاني القرآن)، وقال: والوَلَدُ والوُلْدُ لغتان مثل ما قالوا: العَدَمُ والعُدْمُ.

(٣) هذا البيت في اللسان (ولد) غير منسوب، وقد استشهد به على أن الوُلْدَ مفرد، وقد اختلفت الأقوال في الوَلَد والوُلْد، وذكرها صاحب اللسان، قال ابن سيدة: الوَلَدُ والوُلْدُ: ما وُلد أيّاً كان، وهو يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، وقد يجوز أن يكون الوُلْد جمع وَلَد كوُثْن ووَثَن، وقال الزجاج: الوَلَدُ والوُلْد واحد، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم... الخ، وقيل: إن قيساً تجعل الوُلْد بالضم جميعاً، والوَلَد بالفتح واحد.

(٤) يفهم من هذا الكلام أن الألف التي للاستفهام حذفت في الوصل، وهذا غير صحيح، فهي موجودة، ولكن أصل الكلمة (أَاَطَّلَع) فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل. ونُرَجِّح أن أصل الكلام «وحذفت ألفه في الوصل للاستغناء عنها» فسقطت كلمة (أَلِفُهُ).

(٥) يعني في رواية أبي بكر عنه.



عمرو، والحسن، وعيسى[(١)]. و«مَدُّ العذاب» هو إطالته وتعظيمه، وقوله تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾، أي: هذه الأشياءُ التي سمَّاها وقالَ إنه يُؤتاها في الآخرة يَرِثُ الله ماله منها في الدنيا بإهلاكه وتركه لها، فالوراثة مستعارة، ويحتمل أن تكون خيبته في الآخرة كوراثة ما أَمَّل. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: «ونرثه ما عنده»، وقال النحاس: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ معناه: نَحْفَظُه عليه فنعاقبه، ومنه قول النبي ﷺ: (العلماءُ ورثة الأنبياء)[(٢)]، أي حفظة ما قالوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذا الجُزم[(٣)] يورث هذه المقالة. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يتضمن ذلَّته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

«اتَّخَذَ» افتعل من (أخذ) لكنه يتضمن إعْدَاداً من المتَّخِذ للمُتَّخَذِ، وليس ذلك في (أَخَذَ)، والضمير في [اتَّخَذُوا] لِعَبَدَة الأوثان، و«الآلهةُ»: الأصنامُ وكُلُّ من عُبِدَ من دون الله تبارك وتعالى، ومعنى [عِزّاً] العموم في النُّصْرة والمنفعة وغير ذلك من أوجه الخير.

وقوله تعالى: [كَلاَّ] زجْرٌ وردٌّ، وهذا المعنى لازم لـ(كَلاَّ)، فإنْ كان القول المردود منصوصاً عليه بان المعنى، وإن لم يكن منصوصاً عليه فلا بدَّ من أمر مردود يتضمنه

---

(١) وكذلك قرأها عاصم في رواية حفص عنه.

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وأهل السنن إلا النسائي عن أبي الدرداء. أخرجه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما في الجامع الصغير: (العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة)، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف، وفي رواية أخرى عن علي رضي الله عنه أخرجها ابن عدي في الكامل، قال ﷺ: (العلماءُ مصابيح الأرض، وخلفاءُ الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء)، وقد رمز له الإمام السيوطي أيضاً في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.

(٣) في بعض النسخ: «فكأن هذا المجرم».



القول كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾(١)، فإن قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يتضمن مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حوْلاً مَّا ولا يتفكَّر جدّاً في أن الله علَّمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك.

وقرأ الجمهور: [كَلاَّ] على ما فَسَّرْناه، وقرأ أبو نهيك: [كَلاًّ] بفتح الكاف والتنوين، حكاه عنه أبو الفتح، وهو نعت للآلهة(٢). وحكى عنه أبو عمرو الداني [كُلاًّ] بضم الكاف والتنوين، وهو منصوب بفعل مضمر يدلُّ عليه [سَيَكْفُرُونَ]، تقديره: يرفضون أو يتركون أو يجحدون ونحوه.

واختلف المفسرون في الضمير الذي في [سَيَكْفُرُونَ] وفي [بِعِبَادَتِهِمْ] ـ فقالت فرقة: الأول للكفار والثاني للمعبودين، والمعنى أنه سيجيءُ يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم إلى جحد الكفر وعبادةِ الأوثان، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٣). وقالت فرقة: الأول للمعبودين والثاني للكفار، والمعنى أن الله تعالى يجعل للأصنام حياةً تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها هي من ذلك ذنب، وأما المعبودون من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بيِّنٌ. وقوله تعالى: [ضِدّاً] معناه: يجيئُهم منه خلاف ما أَمَّلُوه فيؤول بهم ذلك إلى ذِلَّةٍ ضدَّ ما أَمَّلُوه من العز، ـ وهذه صفة عامة، وقال قتادة: معناه: قُرَنَاءَ(٤)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: أعواناً، وقال الضحاك: أعداءً، وقال ابن زيد: بلاءً، وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعم منه وأجمع للمعنى المقصود، و«الضِّدُّ» هنا مصدرٌ يوصف به الجمع كما يوصف به الواحد.

---

(١) الآية (٦) من سورة (العَلَق)، وقوله تعالى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هو الآية (٥) من سورة (العَلَق).

(٢) هكذا في جميع النسخ، والذي ذكره أبو الفتح ابن جني في كتابه «المحتَسَب» هو أنه ينبغي أن تكون (كَلاًّ) هذه مصدراً، كقولك: كَلَّ السيفُ كَلاًّ، فهو إذاً منصوب بفعل مضمر، فكأنه سبحانه لمَّا قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ قال: [كَلاًّ]، أي: كلَّ هذا الرأي والاعتقادُ كلاًّ، كما يقال: ضَعْفاً لهذا الرأي وَفَيَالَةً (أيْ ضعفاً وخطأً)، وتم الكلام، ثم استأنف سبحانه وتعالى الكلام بقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، فالوقفُ إذاً عَلَى [عِزّاً]، ثم استأنف تعالى فقال: كلَّ رأيُهُم كلاًّ، ووقف، ثم قال من بعد: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام).

(٤) في الأصول كلها: فِرَقاً ـ والتصويب عن الطبري وغيره من المفسرين الذين نقلوا قول قتادة.

وحكى الطبري عن ابن نهيك أنه قرأ: [كُلٌّ] بالرفع، ورفعت بالابتداء[١].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الآية. الرُّؤْيةُ رؤية قلب، و[أَرْسَلْنَا] معناه: سَلَّطنا، أو لم نَخُل بينهم وبينهم فهو تسليط، وهو مثل قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾[٢]، وتعديته بـ[عَلَى] دالَّة على أنه تسليط. و[تَؤُزُّهُمْ] معناه: تُقْلقهم وتحركهم إلى الكفر والضلال، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً، وقال ابن زيد: تُشْليهم إشلاءً[٣]، ومنه أزيز القِدْر، وهو غَلَيَانه، ومنه ما في الحديث: أتيت رسول الله ﷺ فوجدته يصلي وهو يبكي، ولصدره أزيز كأزيز المرجل[٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فلا تستبطىءْ عذابهم وتُحب تعجيله، وقوله: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي مُدَّة نعمتهم وقبيح أعمالهم لنصير بهم إلى العذاب إمَّا في الدنيا، وإلاَّ ففي الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعدُّ أنفاسهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في قوله تعالى: [يَوْمَ]، ويحتمل أن يعمل فيه فعل مقدر، تقديره: واذكر، أو احْذَر، ونحو هذا. و«الْحَشْرُ»: الجمعُ، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع: البعث من القبور، وقرأ الحسن: «يَوْمَ يُحْشَرُ الْمُتَّقُونَ وَيُسَاقُ الْمُجْرِمُونَ»، وروي عنه: «ويسوقُ الْمُجْرِمين»، و«الْمُتَّقُونَ»: المؤمنون الذين غفر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الوِفادة أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك «سَوْقُ المجرمين» إنما هو لدخول النار. و[وَفْداً] قال المفسرون: معناه:

---

(١) ذكر المفسرون أن [كَلاَّ] لم تذكر في النصف الأول من القرآن، وقال الألوسي: وأول موضع ذكرت فيه في القرآن هو قوله تبارك وتعالى في هذه السورة: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، ثم تكررت في النصف الثاني فذكرت في ثلاثة وثلاثين موضعاً. قيل: وتأتي بمعنيين: الأول بمعنى: حَقًّا، والثاني بمعنى: لا.

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (الزخرف).

(٣) أي: تُغْويهم وتدفعهم. يقال: أَشْلَى الكلبَ على الصيد بمعنى أغراه.

(٤) الحديث في تفسير الطبري، قال: «ومنه حديث مُطَرِّف عن أبيه، أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل».



رُكْبَاناً، وهي عادة الوفود؛ لأنهم سَراة الناسِ[(١)] وأحسنهم شكلا، فشَّبه أهل الجنة بأولئك، لا أنهم في معنى الوفادة إذ هو مُضَمَّن الانصراف، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون رُكْباناً على النُّوق المُحَلاَّة بحلية الجنة، خُطُمها[(٢)] من ياقوت وزبرجد ونحو هذا. وروى عمرو بن قيس المُلاَئِيُّ[(٣)] أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحُسْن، ورُوي أنهم يركب كل واحد منهم ما أحبَّ، فمنهم من يركب الإبل، ومنهم من يركب الخيل، ومنهم من يركب السُّفُن فتجيءُ عائمة بهم، وقد وَرَد في الضحايا (إنها مطاياكم إلى الجنة)، وفي أكثر هذا بُعْدٌ لكن ذكرناه بحسب الجمع للأقوال. و«السَّوْقُ» يتضمن هواناً لأنهم يُحْفَزُون[(٤)] من ورائهم. و«الْوِرْدُ»: العِطاش، قاله ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهم القوم الذين ينحفزون من عطشهم لورود الماء، ويحتمل أن يكون المصدر، والمعنى: نوردهم وِرْداً، وهكذا يجعله من رأى أن في القرآن أربعة أوراد، وقد تقدم ذكر ذلك[(٥)].

واختلف المتأولون في الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ﴾ ـ فقالت فرقة: هو عائد على [ٱلۡمُجۡرِمِينَ]، أي: لا يملكون أن يُشْفَع لهم ولا سبيل لهم إليها، وعلى هذا التأويل فهم مشركون خاصة، ويكون قوله سبحانه ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ استثناءً منقطعاً، أي: لكن من اتَّخَذ عهداً يُشفع له، و«العَهْدُ» ـ على هذا ـ الإيمانُ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهدُ لا إله إلاَّ الله، وفي الحديث: (يقول الله تعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم)[(٦)]، وفي الحديث: (خمس صلوات كتبهن الله

---

(١) سَرَاةُ: جمع سَرِيٍّ، وهو الشريف.

(٢) الخُطُم: جمع خِطام، وهو ما وضع على خَطْم الجمل ليقاد به.

(٣) عمرو بن قيس المُلائِيُّ ـ بضم الميم وتخفيف اللام والمد ـ أبو عبد الله، الكوفي، قال عنه في «تقريب التهذيب»: ثقة متقن عابد، من السادسة، مات سنة بضع وأربعين.

(٤) حَفَزَه حفزاً: دفعه مِنْ خَلْفه بالسَّوق أو بغيره.

(٥) وذلك عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧١) من هذه السورة: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود=



على العباد، فمن جاءَ بهن تامَّات كان له عند الله عهدٌ أن يُدخله الجنة)[١] و«العَهْدُ» أيضاً الأمان، وبه فُسِّر قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون «المجرمون» يعُمُّ الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشَّفاعة إلاَّ العصاةَ من المؤمنين فإنه يُشفع فيهم، فيكون الاستثناءُ متصلاً، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا أزال أشفع حتى أقول: يا رب شفِّعني فيمن قال لا إله إلاَّ الله، فيقول الله: يا محمد ليست لك، ولكنها لي)[٣].

وقالت فرقة: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: إلاَّ من كان له عمل صالح مُبرِّز يحصل به في حيِّز من يشفع، وقد تظاهرت الأحاديث أن أهل العلم والفضل والصلاح يَشْفَعون فَيُشَفَّعُون، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (في أُمتي رجل يُدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم)[٤]، قال

= رضي الله عنه. ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أنه قرأ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، قال: إن الله يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فَلْيَقُم، فلا يقوم إلاَّ من قال هذا في الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاَّ برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وذكره بهذا النص أيضاً الإمام الشوكاني في فتح القدير.

(١) أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من جاءَ بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاءَ وله عند الله عهدٌ ألاَّ يعذبه، ومن جاءَ قد انتقص منهن شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاءَ عذبه)، (الدر المنثور وفتح القدير).

(٢) من الآية (١٣٤) من سورة (البقرة).

(٣) خرَّجه مسلم بمعناه، واستشهد به القرطبي في تفسير هذه الآية.

(٤) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤ـ٢١٢) عن عبد الله بن قيس قال: سمعت الحارث بن أُقيش يحدث أن أبا بَرْزَة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن من أُمتي لَمَن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أُمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركناً من أركانها)، وأخرج أيضاً الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (قد أُعطي كل نبي عطية، فكلٌ قد تعَجَّلها، وإني قد أخرت عطيتي شفاعةً لأمَّتي، وإن الرجل من أُمتي ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع للقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعُصْبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة وللرجلين وللرجل)، (المسند ٣ـ٢٠).



قتادة رحمه الله: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين.

وقال بعض هذه الفرقة: معنى الكلام: إلاَّ لمن اتَّخذ عند الرحمن عهداً، أي: لا يملك المتقون الشفاعة إلاَّ لهذه الصنيعة فتجيءُ [مَنْ] في التأويل الواحد للشافعين، وفي الثاني للمشفوع فيهم(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن يراد بـ[مَنْ] محمد ﷺ وبـ(الشفاعة) الخاصة له ﷺ لعامة الناس، ويكون الضمير في [يَمْلِكُونَ] لجميع أهل الموقف، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها ﷺ، فالعهد ـ على هذا ـ النصُّ على أمر الشفاعة(٢) في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾.

الضمير في [قَالُوا] للكفار من العرب في قولهم: الملائكة بنات الله، وللنصارى، ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر، وقوله: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ﴾ ـ بعد الكناية عنهم ـ بمعنى: قل لهم يا محمد، و«الإِدُّ»: الأمر الشنيع الصعب، وهي الدواهي والشُّنع العظيمة، ويروى عن النبي ﷺ أن هذه المقالة أوَّلَ ما قيلت في العالم شاكَ الشَّجَرُ واستعرت

---

(١) وضَّح الطبري هذا الرأي فقال: «ومَن نصب [مَنْ] على أن معناه: إلاَّ لِمَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً، فإنه ينبغي أن يجعل قوله ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾ للمتقين، فيكون معنى الكلام حينئذ: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، لا يملكون الشفاعة إلاَّ من اتَّخَذَ عِند الرَّحْمن عَهْداً، فيكون معناه عند ذلك: إلاَّ لمن اتَّخَذَ عندَ الرَّحمن عهْداً، فأمَّا إذا جعل ﴿لايملكون...﴾ خبراً عن المجرمين فإن [مَنْ] تكونَ حينئذ نصباً على أنه استثناءٌ منقطع، فيكون معنى الكلام: لا يملكون الشفاعة، لكن من اتَّخذ عندَ الرَّحمن عهداً يملكه».

(٢) اضطربت الأصول في كتابة هذه العبارة، واخترنا أقربها إلى الصواب في نظرنا، والعصمة لله وحده.

(٣) من الآية (٧٩) من سورة (الإسراء).



جهنمُ وغضبت الملائكة[١]. وقرأ الجمهور: (إِدًّا) بكسر الهمزة، وقرأ أبو عبد الرحمن: [أَدًّا] بفتح الهمزة، ويقال: إِدٌّ، وأَدٌّ، وآدٌّ[٢]، وقرأ ابن كثير هنا، وفي [عَسَقَ][٣]: (تَكَادُ) بالتاءِ (يَتَفَطَّرْنَ) بياءٍ وتاءٍ وفتح الطَّاءِ وشدِّها، ورواها حفصٌ عن عاصم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أبي بكر: [تَكَادُ] بالتاءِ [يَنْفَطِرْنَ] بياءٍ ونون وكسر الطاء، وقرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ] بالياء وإزالة علامة التأنيث [يَتَفَطَّرْنَ] بالياءِ والتاءِ وشدِّ الطاءِ وفتحها في الموضين، وقرأ حمزة، وابن عامر في مريم مثل أبي عمرٍو، وفي [عَسَقَ] مثل ابن كثير، وقال أبو الحسن، والأخفش: [يَكَادُ] بمعنى: يريد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٤]، وأنشد على أن (كاد) بمعنى (أراد) قولَ الشاعر:

كَـادَتْ وكِـدْتُ وتِلْـكَ خَيْـرُ إِرَادَةٍ ... لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى[٥]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا حجَّة في هذا البيت، وهذا قول قَلِقٌ.

وقال الجمهور: إنها استعارة لشُنْعَة الأمر، أيْ: هذا حقُّه لو فهمت الجماداتُ قَدْره، وهذا المعنى مَهْيَع[٦] العرب، فمنه قول جرير:

---

(١) نقل ابن جرير في تفسيره هذا الخبر، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: «ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول... الخ»، ولم يرفعه.

(٢) الأولى هي قراءة الجمهور، والثانية قراءة أبو عبد الرحمن السلمي ـ كما قال المؤلف ـ والثالثة هي قراءة ابن عباس، وأبي العالية، فقد قرأ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا آدًّا﴾، مثل مادًّا، ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير).

(٣) في قوله تعالى في الآية (٥): ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

(٤) من الآية (١٥) من سورة (طه).

(٥) البيت في اللسان (كيد) غير منسوب، وقد استشهد به على أن (كاد) تكون بمعنى: طلب وأراد، قال: «بلغوا الأمر الذي كادوا، يريد: طلبوا أو أرادوا، وأنشد أبو بكر في (كاد) بمعنى (أراد): كادتْ وكدتُ وتلك... البيت. قال: معناه: أرادتْ وأردْتُ». وابن عطية يرى أن المعنى هنا هو أنني وإياها قاربنا الفعل ولم نفعل، وهو المعنى الأساسي في (كاد)، أما المعنى الذي ذكره أبو بكر، والحسن، والأخفش فهو قلقٌ في نظره.

(٦) المَهْيَع: الطريق الواسع المنبسط، والمراد هنا أنه أسلوب مألوف اتبعه العرب.



لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُورُ المدينةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ[(١)]

ومنه قول الآخر:

أَلَمْ تَرَ صَدْعاً في السَّمَاءِ مُبِينا ... عَلَى ابْن لُبَيْنَى الحارثْ بن هشام؟[(٢)]

وقال الآخر:

وأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقْشَعِرّاً ... كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ[(٣)]

و«الانْفِطَارُ»: الانشقاق على رتبة غير مقصودة، و«الهَدُّ»: الانهدام والتفرُّق في سرعة، قال محمد بن كعب: كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفي على جهة التنزيه له عن ذلك، وقد تقدم ذكر هذا المعنى وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة.

وقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. [إِنْ] نافيةٌ بمعنى (ما)، وقرأ الجمهور: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالإضافة، وقرأ طلحة: ﴿آتٍ الرحمنَ﴾ بتنوين [آتٍ] والنصب

---

(١) البيت من قصيدة طويلة تجاوزت أبياتها المائة والعشرين بيتاً، وهي من النقائض، وقد قالها جرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء ومطلعها:

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَوَ كُلَّمَا رفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ؟

والشاهد فيه أنه أخبر عن الجبال بأنها اصبحت خاشعة خاضعة حين جاءها خبر الزبير، وهو في القصيدة يذم مجاشعاً قوم الفرزدق ويتهمهم بأنهم غَرُّوا الزبير وضيعوه.

(٢) الصَّدْع: الشَّقُّ في الشيءِ الصُّلْب كالزجاجة والحائط وغيرهما، وجمعه صدوع، والمُبين: الواضح الظاهر، والحارث بن هشام صحابي جليل، أسلم يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه، ومات في طاعون عمواس، وقيل: بل استشهد يوم اليرموك، وهو أخو أبي جهل، وابن عم خالد بن الوليد، وقد شهد بدراً مع المشركين وكان ممن فَرُّوا فعيَّره حسَّان بن ثابت بقوله:

إنْ كنْتِ كاذِبَةَ الَّذي حَدَّثْتِنِي ... فَنَجَوْتِ مَنْجى الحارث بن هِشَام
ترك الأحِبَّةَ أنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ... ونَجَا بِرَأسِ طَمِرَّةٍ وَلِجَام

واعتذر الحارث عن فراره بأبيات مشهورة، والشاهد هو استعمال الصدع الواضح في السماء حزناً على الحارث بن هشام.

(٣) اقْشَعَرَّ فهو مُقْشَعِرٌّ: تَقَبَّضَ وتجمَّع، وفي حديث عمر رضي الله عنه: «قالت له هند لما ضرب أبا سفيان بالدِّرَّة: لرُبَّ يوم لو ضربتَه لا قْشَعَرَّ بطن مكة، فقال: أجل»، وبطن مكة: وَسَطُها، ولم نقف على قائل البيت، والشاهدُ فيه استعارة القشعريرة والتَّقَبُّض لمكة.

في النون، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «لَمَّا أَتَى ٱلرَّحْمَن»، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاعٌ بعيد، و[عَبْداً] حالٌ.

ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبيده، فذكر «الإحصاءَ»، ثم كرر المعنى بغير اللفظ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَقَدْ كَتَبَهُمْ وَعَدَّهُم»، وفي مصحف أُبَيٍّ رضي الله عنه: «لَقَد أَحصَاهم فَأَجْمَلَهم عدداً». وقوله: [عَدًّا] توكيد للفعل وتحقيقٌ له. وقوله: [فَرْداً] يتضمن معنى قلَّة النصير والحول والقوة، فلا مُجير له ممَّا يريده الله به.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾. ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحبه من عباده حسب ما في الحديث المأثور(١)، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: إنها بمنزلة قول النبي ﷺ: (من أَسَرَّ سريرةً أَلْبسه اللهُ رداءها)(٢)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من عبد إلاَّ وله في السماء صيت، فإن كان حسناً وُضع في الأرض حسناً، وإن كانَ سيِّئاً وُضع كذلك)(٣).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إنَّ الآية نزلت فيه، وذلك أنه لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية في ذلك(٤)، أي: ستستقر نفوس المؤمنين ويوَدُّون حالهم ومنزلتهم، وذكر النقَّاش أنها نزلت في علي ابن

---

(١) هو الحديث المشهور الذي خرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء في أهل الأرض.

(٢) في تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير أن قتادة روى هذا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٤٨) وابن عدي في الكامل ٢/ ١٦٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٧٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن المنذر، وابن مردويه، وفي «الدر المنثور» أنَّه عن عبد الله بن عوف، وصوابه: عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.



أبي طالب رضي الله تعالى عنه[(١)]، قال ابن الحنفية: «لا يوجد مؤمن إلاَّ وهو يحب عليَّ بن أبي طالب وأهل بيته رضي الله عنهم».

وقرأ الجمهور: (وُدًّا) بضم الواو، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتح الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن تكون متَّصلة بما قبلها في المعنى، أيْ أن الله تبارك وتعالى لمَّا أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد، آنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وُدّاً وهو ما يظهر عليهم من كرامته؛ لأن محبة الله للعبد هي ما يظهر عليه من نِعَمه وأمارات غُفرانه له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

الضمير في [يَسَّرْنَاهُ] للقرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[(٢)]؛ لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدَّم ذكره، ووقع التَّيسير في كونه بلسان محمد ﷺ، وبلُغته المفهومة المبينة. وبشارةُ المتَّقين هي بالجَنَّة والنَّعيم الدائم والعزِّ في الدنيا. و«القومُ اللُّدُّ» هم قريش، ومعناه: مجادلين ومخاصمين بباطل، والألَدُّ: المُخَاصم المبالغ في ذلك. وقال مجاهد: [لُدًّا] معناه: فُجَّاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي فجور الخصومة، ولا يلد إلاَّ المبطل. وفي الحديث: (أَبْغَضُ الرجال إلى الله الأَلَدُّ الْخَصم)[(٣)].

ثم لما وصفهم تعالى بأنهم لُدٌّ ـ وهي صفة سُوءٍ بحكم الشرع والحق ـ وجب أن يَقْسو عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وأَلَدَّ وأعظم قَدْرَ ما كان يسرُّهم

---

(١) أخرج ذلك ابن مردويه، والديلمي عن البراء، وأخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الحكيم الترمذي، وابن مردويه، عن علي رضي الله تعالى عنه.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها..



في أنفسهم من الوصف بـ[لُدّ]، فإن العرب بجهالتها وعتوِّها وكفرها كانت تتمدَّح باللَّدَد، وتراه إدْراكاً وشهامة، فمن ذلك قول الشاعر:

إنَّ تَحْتَ التُّرَاب عَزْماً وحَزْماً وَخَصيماً أَلَدَّ ذا مِغْلاَقِ[١]

فمثَّل لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم ويتَبيَّن صغَر شأنهم، وعبَّرَ المفسرون عن «اللُّدِّ» بالْفَجَرة وبالظَّلمة، وتلخيص معناها ما ذكرناه.

و«الْقَرْنُ»: الأمَّة، و«الرِّكْزُ»: الصوتُ الخفي دون نُطْق بحروف ولا فم، وإنما هو صوت الحركات وخَشْفُهَا[٢]، ومنه قول لبيد:

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنيس فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْر غَيْب والأنيسُ سَقَامُها[٣]

فكأنه قال: أو تسمع من أخبارهم قليلاً أو كثيراً، أو طرفاً خفيّاً ضعيفاً، وهذا يُرادُ به من تقدم أمره من الأمم ودَرَس خَبَرُه، وقد يحتمل أن يريد: هل بقي لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه؟ فيدخل في هذا من عُرف هلاكه من الأُمم.

تمَّ تفسير سورة مريم والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) الخَصيم هو الخَصْمُ الذي يخاصمك، وجمعه خُصَمَاءُ وخُصْمان، والخُصُومة: الجدل، والمِغْلاق في أحد معاونيه: السهم السابع من قداح الميسر، يكون لصاحبه الفوز، ولعله المراد هنا، والشاعر قد قرن بين العَزْم والحزم واللَّدد في الخصومة مع الفوز في الميسر، وجعل ذلك كله من الصفات التي يعتز بها العربي، وموضع الاستشهاد هنا التمدح باللدد في الخصومة.

(٢) الخَشْفُ والخَشْفَةُ والخَشَفَةُ: الحركةُ والحس، وقيل: الحِسُّ الخفيُّ، روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما دخلت مكاناً إلا سمعتُ خَشْفَةً، فالتفتُّ فإذا بلالٌ).

(٣) البيت من مُعَلَّقه لبيد، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها بقرة وحشية، فالضمير في (تَوَجَّسَتْ) يعود عليها، ومعنى تَوَجَّسَتْ: تَسَمَّعتْ إلى صوت خفيٍّ، وفيها معنى الخوف عند التَّسَمُّع، والرِّكْز: الصوتُ الخفيُّ، ويروى البيت: «وتوجست رزَّ الأنيس»، كما يُروى: «وتَسَمَّعَت رزَّ الأنيس»، والأنيس: الإِنْس، ورَاعَها: من الروع وهو الخوف والفزع، و«عَنْ ظَهْرِ غيب»: من وراء حجاب، و«الأنيس سَقَامُهَا»: أي الإنسان سبب مرضها وهلاكها لأنه يصيدها. يقول: إن البقرة الوحشية تسمعت الصوت الخفي الذي يحدثه الإنسان من وراء حجاب، والإنسان هو السبب في هلاك هذه البقرة.

وقد طرق الشعراءُ هذا المعنى بكثرة، ومن ذلك قول ذو الرُّمَّة يصف ثوراً تسَمَّع إلى صوت صائد وكلابه:

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ بنَبْأَةِ الصَّوْتِ ما في سَمْعِهِ كَذِبُ

فهو نَدِسٌ أي حاذق ما في سمعه كذب، أي هو صادق الاستماع بهذه النَّبْأة، وهي الصوتُ الخفي.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة طه

هذه السورة مكيّة[١] وآياتها خمس وثلاثون ومائة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿طه﴾ بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أَوائل السُّور، إلاَّ قول من قال هناك: «إن الحروف إشارة إلى حروف المعجم، كما تقول: «ا، ب، جـ»، فإنه لا يترتب هاهنا؛ لأَن ما بعد ﴿طه﴾ من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن ﴿طه﴾.

واختصت ﴿طه﴾ بأَقوال لا تترتب في أَوائل السُّور المذكورة، فمنها قول من قال: ﴿طه﴾ اسم من أَسماءِ محمد ﷺ، وقول من قال: ﴿طه﴾ معناه: «يا رجل» بالسريانية وقيل: بغيرها من لغات العجم، ورُوي أَنها لغة يمنية في عَكٍّ[٢]، وأَنشد الطبري في ذلك:

دَعَوْتُ بِطَهَ فِي القِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ ... فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُوَائِلا[٣]

(١) قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه.

(٢) عَكّ: اسم قبيلة من قبائل اليمن.

(٣) هذا البيت لِمُتَمِّم بن نويرة، شقيق مالك بن نويرة، وهو في الطبري والقرطبي، ويروى: هتفتُ بطَهَ، والموائل: طالبَ النجاة الذي يلجأُ إلى الشيء لينجو بنفسه. والمزايل: المفارق المبارح، يقول: دعوت في القتال بقولي: يا رجل، فلم يجب، فخفت عليه أن يكون قد فارقنا طلباً للنجاة، والشاهد أن ﴿طه ۝١﴾ هنا بمعنى: يا رجل.



ويروى: مزايلاً. وقال الآخر:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ خَلاَئِقِكُمْ لاَ بَارَكَ اللهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلاَعِينِ[1]

وقالت فرقة: سبب نزول هذه الآية إنما هو ما كان رسول الله ﷺ يتحمله من مشقَّة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم وتحتاج إلى الترويح[2]، فقيل له: طَأ الأَرض، أَي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح[3]، فالضمير في ﴿طه﴾ للأَرض، وخُفِّفَت الهمزة فصارت أَلفاً ساكنة.

وقرأت فرقة: [طَهْ]، وأَصله: طَأْ، فحذفت الهمزة وأُدخلت هاءُ السكت، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر: [طَهَ] بفتح الطاءِ والهاءِ، ورُوي ذلك عن قالون عن نافع، وروى يعقوب عنه كسرها، وروي عنه بين الفتح والكسر، وأَمالت فرقة، وفخمت فرقة، والتفخيم لغة الحجاز والنبي ﷺ، وقرأَ عاصم[4]، وحمزة، والكسائي: [طِهِ] بكسر الطاءِ والهاءِ، وقرأَ أَبو عمرو: [طَهِ] بفتح الطاءِ وكسر الهاءِ، ورُوي عن الضحاك وعمرو بن فائد أَنهما قرآ: [طَاوِي].

وقوله تعالى: ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ معناه التبليغ من نفسك في العبادة والقيام في الصلاة، وقالت فرقة: إِنما سبب الآية أَن قريشاً نظرت إِلى عيش رسول الله ﷺ وشظفه وكثرة عياله، فقالت: إِن محمداً مع ربه في شقاءٍ، فنزلت الآية رادَّةً عليهم، أَي: إِن الله تعالى لم يُنزل القرآن ليجعل محمداً شقياً، بل ليجعله أَسعد بني آدم في النعيم المقيم في أَعلى المراتب، فالشقاءُ الذي رأَيتم هو تَنَعُّم النفس، ولا شقاءَ مع ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

---

(١) البيت ليزيد بن المُهَلْهِل، ويروى:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ شَمَائِلِكُمْ لاَ قَدَّسَ الله أَرْوَاحَ الْمَلاَعِين

والخلائق: جمع خليقة، وهي الطبيعة التي يخلق المرءُ بها، والبيت شاهد على أن معنى ﴿طه﴾ يا رجل عند بعض العرب.

(٢) هكذا في الأصول، والظاهر أن يقال: «تَتَوَرَّمَان وتحتاجان»

(٣) يريد أنه من تعبه يقف على قدم ويريح الثانية، ثم يبدلهما فيقف على التي ارتاحت ويريح الأخرى، وهكذا.

(٤) قراءة عاصم برواية حفص عنه بفتح الطاءِ والهاءِ مع مدهما، أَما هذه فرواية أُخرى.



فهذا التأويل أَعم من الأَول في لفظ الشقاءِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ يصح أَن ينصب على البدل من موضع ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾، ويصح أَن ينصب بفعل مضمر تقديره: لكن أَنزلناه تذكرة. و﴿يَخْشَىٰ﴾ يتضمن الإيمان والعمل الصالح؛ إِذ الخشية باعثة على ذلك. وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ نصب على المصدر، وقوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ صفة أَقامها مقام الموصوف، وأَفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأَوثان وبعث النفوس على النظر. و﴿ٱلْعُلَى﴾ جمع عُلْيا، فُعْلى.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفع بالابتداء، ويصح أَن يكون بدلاً من الضمير المستقر في ﴿خَلَقَ﴾. وقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قالت فرقة: هو بمعنى: استولى، وقال أَبو المعالي وغيره من المتكلمين: هو بمعنى استواءِ القهر والغلبة، وقال سفيان الثوري: فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً، وقال الشعبي وجماعة غيره: هذا من متشابه القرآن، نؤمن به ولا نعرض لمعناه، وقال مالك بن أَنس لرجل سأَله عن هذا الاستواء، فقال له مالك: «الاستواءُ معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأَظنك رجل سوءٍ، أَخرجوه عني»، فأَدبر السائل وهو يقول: يا أَبا عبد الله، لقد سأَلت عنها أَهل الشام وأَهل العراق فما وفِّق فيها أَحد توفيقك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وضعَّف أَبو المعالي قول من قال: «لا يتكلم في تفسيرها»، فإِن قال: «إِن كل مؤمن يجمع على أَن لفظة الاستواءِ ليست على عرفها في معهود الكلام العزيز»، فإِذا فعل هذا فقد فسَّره ضرورة ولا فائدة في تأَخُّره عن طلب الوجه والمخرج البيِّن، بل في ذلك إِلباسٌ على الناس، وإِيهامٌ لِلْعَوامِّ، وقد تقدم القول في مسأَلة الاستواءِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تمادٍ في الصفة المذكورة المُنَبِّهَة على الخالق المنعم، وفي قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ قصص في أَمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته، والآية مُضَمَّنَةٌ أَن كل موجود مُحْدث فهو لله بالملك والاختراع، ولا قديم سواه تعالى. و﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: التراب الندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآية، معناه: وإِن كنتم أَيها الناس إِذا أَردتم إِعلام



أَحد بأَمر، أَو مخاطبة أَوثانكم وغيرها، فأَنتم تجهرون بالقول، فإِن الله الذي هذه صفاته يعلم السِّرَّ وأَخفى، فالمخاطبة بـ﴿ تَجْهَرْ ﴾ لمحمد ﷺ، وهي مراد بها جميع الناس إِذ هي آية اعتبار.

واختلف الناس في ترتيب السِّرِّ وما هو أَخفى منه ـ فقالت فرقة: السِّرُّ هو الكلام الخفيُّ الخافت كقراءة السِّرِّ في الصلاة، والأَخْفَى ما هو في النفس متحصل. وقالت فرقة: السِّرُّ هو ما في نفوس البشر وكلُّ ما يمكن أَن يكون فيها في المستأْنف بحسب الممكنات من معلومات البشر، والأَخفى ما هو من معلومات الله تعالى، ولا يمكن أَن يعلمه البشر البَتَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا كله معلوم لله عزَّ وجلَّ، وقد تُؤُوِّل على بعض السلف أَنه جعل [وأَخْفى] فعلاً ماضياً، وهذا ضعيف.

و﴿ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يراد بها المُسَمَّيات التي تضمنت المعاني التي هي في غاية الحُسْن، ووحَّد الصفة مع جَمْع الموصوف لمَّا كانت المُسَمَّيات لا تعقل، وهذا جارٍ مجرى ﴿ مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[١]، و﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى ﴾[٢] وغيره، وذكر أَهل العلم أَن هذه الأَسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إِن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إِلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة»[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾.

هذا الاستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إِلى ما يُورد عليها، وهذا كما تبدأُ

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (طه).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الرجل إذا أَردت إِخباره بأَمر غريب فتقول: أَعلمتَ كذا وكذا؟ ثم تبدأُ تخبره، والعامل في [إِذْ] ما تضمنه قوله سبحانه: ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ من معنى الفعل، وتقديره: وهل أَتاك ما فعل موسى إِذْ رأَى ناراً، ونحوه.

هذا، وكان من قصة موسى عليه السلام أَنه رحل من مَدْيَن بأَهله بنت شعيب وهو يريد أَرض مصر، وقد طالت مدة جنايته هنالك، فرجا خفاءَ أَمره، وكان ـ فيما يزعمون ـ رجلاً غيوراً، فكان يسير الليل بأَهله ولا يسير النهار مخافة كشفة الناس، فضلَّ عن طريقه في ليلة مظلمة ندية، ويُروى أَنه فقد الماءَ فلم يدر أَين يطلبه، فبينا هو كذلك ـ وقد قدح زَنْده فلم يُور شيئاً ـ إِذْ رأَى ناراً، فقال لأَهله: امكثوا، أَي أَقيموا، وذهب هو إِلى النار فإِذا هي مضطرمة في شجرة خضراءَ يانعة، قيل: كانت من عُنَّاب، وقيل: من عوسج، وقيل: من عُلَّيقة، فكلما دنا منها تباعدت منه ومشت، فإِذا رجع عنها اتَّبعته، فلما رأَى ذلك أَيقن أَن هذا أَمر من أُمور الله تعالى الخارقة للعادة، ونودي وانقضى أَمره في تلك الليلة، هذا قول الجمهور، وهو الحق، وحكى النقاش عن ابن عباس أَنه أَقام في ذلك الأَمر حولاً، ومكث أَهله، قالوا: وهذا أَمر غير صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعيف في نفسه.

و[آنَسْتُ] معناه: أَحْسَسْتُ، ومنه قول الحارث بن حِلِّزة:

آنَسَــتْ نَبْــأَةً وأَفْــزَعَهَــا القُنْـ ـنَـاصُ عَصْراً وَقَـدْ دَنَـا الإِمْسَـاءُ[1]

والنار على البعد لا تُحَسُّ إِلاَّ بالبصر، ولذلك فسَّر بعضهم اللفظة بـ«رَأَيْتُ»، و«آنَسَ» أَعَمُّ من رَأَى لأَنك تقول: آنسْتُ من فلانٍ خيراً أَو شرّاً. و«القَبَسُ»: الجذوة من النار على رأْس العود أَو القصبة أَو نحوه، و«الهُدَى» أَراد هدي الطريق، أَي: لعلِّي أَجد ذا هدى مرشداً لي أَو دليلاً وإِن لم يكن فخبراً، و«الهُدى» يعُمُّ هذا كله، وإِنما رجا موسى عليه السلام هُدى نازِلَتِهِ فصادف الهدى على الإِطلاق.

---

(١) البيت من معلقته التي أنشدها في مجلس عَمْرو بن هند مدافعاً عن قبيلته إزاء بني تغلب، وفيها يصف الناقة ورحلته عليها، ويشبهها بالنعامة. وآنَسَتْ: أَحسَّت ـ وهي موضع الشاهد ـ والنَّبْأَةُ: الصوتُ الخفيُّ، والقُنَّاصُ: جمع القانص وهو الصَّيَّادُ، يقول: إن تلك النعامة التي شبهت بها ناقتي قد سمعت صوتاً خَفياً عند المساءِ، فارتاعت له.



وفي ذكر قصة موسى عليه السلام بأَسرها في هذه السورة تسلية للنبي ﷺ عمَّا لقي في تبليغه من المشقات وكُفْر الناس، فإِنما هي له على جهة التمثيل في أَمره، ورُوي عن نافع وحمزة [فقال لأَهْلِهُ امكُثوا] بضم الهاء، وكذلك في القَصَص[1]، وكسر الباقون الهاءَ فيهما.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، الضمير عائد على النار، وقوله: [نُودِيَ] كناية عن تكليم الله له، وفي [نُودِيَ] ضمير يقوم مقام الفاعل، وإِن شئت جعلته موسى إِذ قد جرى ذكره، وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [إِنِّي] بكسر الأَلف على الابتداء، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [أَنِّي] بفتح الأَلف على معنى: لأَجل أَني أَنا ربك فاخلع نعليك. و«نُودي» قد توصل بحرف الجر، وأَنشد أَبو علي:

نَـادَيْـتُ بِـاسْـمِ رَبِيعَـةَ بْـنِ مُكَـدَّمٍ إِنَّ المنـوَّهَ بِـاسْمِـهِ الْمَـوْثُـوقُ[2]

واختلف المتأَولون في السبب الذي من أَجله أُمر بخلع النَّعلين ـ فقالت فرقة: كانتا من جِلْد حمارميت، فأُمر بطرح النجاسة، وقالت فرقة: بل كانت نعْلاه من جلد بقرة ذُكِّي، ولكن أُمر بخلعهما لينال بركة الوادي المقدس وتمسّ قدماه تربة الوادي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية معنى آخر هو الأَليق بها عندي، وذلك أَن الله تعالى أَمره أَن يتواضع لعظيم الحال التي حصل فيها، والعُرف عند الملوك أَن تخلع النعلان ويبلغ الإنسان إِلى غاية تواضعه، فكأَن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أَو غيرها.

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة القصص: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

(٢) نَوَّهْتُ باسْمِهِ: رفعتُ ذكْره، يقال: نوَّه فلانٌ بفلان إِذا رفعه وطيَّر به وقوَّاه، وفي حديث الزبير: أَنَّه نوَّه به عليٌّ، أَي: شَهَره وعرَّفه. والموْثُوق: يريد الموثوق به، يقال: وثِقَ به يَثِقُ: ائْتَمَنَهُ، فالشاعر هنا يرفع ذكر ربيعة هذا ويثق به لأَنه موضع الثقة والشاهد أَنه وصل الفعل (نادى) بحرف الجر حين قال: (ناديت باسم ربيعة)، هذا وربيعة بن مُكدَّم فارسٌ جاهليٌّ مشهور، وبنته أُم عمرو، ولها شعر ترثيه به، قال ذلك في «التاج»، ولعل هذا البيت من شعرها فيه. وقال في اللسان: رجل مُكدَّم إِذا لقي قتالاً فأَثرت فيه الجراح.

و﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ معناه: المُطَهَّر، و﴿طُوًى﴾ معناه: مرَّتين مرَّتين، فقالت فرقة: معناه: قدِّسْ مرتين، وقالت فرقة: معناه: طويْتَهُ أنتَ، أَيْ سرتَ فيه، أَي طُويت لك الأَرضُ مرتين من ظنك. وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [طُوًى] بالتنوين على أَنه اسم المكان، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو عمرٍو: [طُوَى] على أَنه اسم البقعة، بدون تنوين، وقرأَ هؤلاءِ كلهم بضم الطاءِ، وقرأَ ابن زيد عن أَبي عمرو بكسر الطاء، وقرأَت فرقة: [طاوِي]، قالت فرقة: هو اسم الوادي، و[طُوًى] على التأْويل الأَول بمنزلة قولهم ثُنًى وثِنًى، أَيْ: مَثْنِيّاً.

وقرأَ السبعة غير حمزة: [وأَنا اخترتك]، ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [وَإِنِّي ٱخْتَرْتُكَ]، وقرأَ حمزة وحده: [وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ] بالجمع وفتح الهمزة وشدِّ النون، والآية على هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1]، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[2]، فخرج من إفرادٍ إِلى جمع، وقرأَت فرقة: [وَإِنَّا ٱخْتَرْنَاكَ] بكسر الأَلف، وحدثني أَبي رحمه الله يقول: سمعت أَبا الفضل الجوهري يقول: (لمَّا قيل لموسى عليه السلام (استمع لما يوحى) وقف على حجر، واستند إِلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وأَلقى ذقنه إِلى صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفاً)، وقرأَت فرقة: [بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَاوِي]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ يحتمل أَن يريد: لتذكرني فيها، أَو يريد: لأَذكرك في عِلِّيِّين بها، فالمصدر ـ على هذا ـ يحتمل الإِضافة إِلى الفاعل أَو إِلى المفعول، واللامُ لام السبب. وقالت فرقة: قوله ـ ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ أَي عند ذكري، أَي إِذا ذكرتني وأَمْري لك بها، فاللام ـ على هذا ـ بمنزلتها في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[3] وقرأَت فرقة: [لِلذِّكْرَى]، وقرأَت فرقة: [لِذِكْرَى] بغير تعريف[4]، وقرأَت فرقة: [لِلذِّكْرِ].

---

(١) من الآية (١) من سورة (الإسراء).

(٢) من الآية (٢) من سورة (الإسراء).

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء).

(٤) أَي: بأَلف التأْنيث وبغير لام التعريف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾.

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ، أَي: اعبدني فإِن عقابي وثوابي بالمرصاد، و«السَّاعَةُ» في هذه الآية: القيامة، بلا خلاف.

وقرأَ ابن كثير، والحسن، وعاصم[١]: [أَكَادُ أَخْفِيهَا] بفتح الهمزة، بمعنى: أُظهرها، أَي أَنها من صِحَّةِ وقوعها وتَيَقُّن كونها تكاد تظهر، لكن تنحجب إِلى الأَجل المعلوم، والعرب تقول: «أَخْفَيْتُ الشيءَ» بمعنى: أَظْهَرته، ومنه قول امرىء القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[٢].

ومنه قوله أَيضاً:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لاَ نَخْفِهِ ... وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لاَ نَقْعُدُ[٣]

---

(١) أَي: في رواية أَبي بكر عنه، أَما رواية حفص فهي بالضم كالجمهور.

(٢) البيت من قصيدة امرىء القيس (خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدبُ) التي قالها في وصف الفرس، وعارضه علقمة بأُخرى مثله، وفَضَّلَت (أُمُّ جندب) زوجة امرىء القيس علقمة على زوجها، فطلقها. وضمير الفاعل في (خفاهُنَّ) يعود على الفرس الذي يصفه امرؤ القيس، أَما المفعول فيها فهو عائد على (اليرابيع) التي عبَّر عنها بالفَأْر في البيت السابق، ومعنى خَفَاهُنَّ: أَخرجهن أَو أَظهرهُنَّ، والأَنْفَاق: جمع نَفَق، وهو السرب تحت الأَرض، يريد الأَنفاق التي اختبأَت فيها الفئران تحت الأَرض، والوَدْقُ: المطر، والمُجَلِّبُ: الذي له جَلَبَةٌ وضجيج، ورُوي: «من سحاب مُركَّب»، يقول: إِن الفرس من شدة جريه وركضه قد أَخرج الفئران من أَنفاقها، كأَنما أَخرجها دَوِيُّ المطر الشديد وجَلَبَتُه. والشاهد أَن (خَفَى) بمعنى: أَظهرَ وأَخرج.

(٣) هذا البيت أَنشده الفراءُ في (معاني القرآن)، وهو في اللسان، والتاج، والقرطبي، ومجاز القرآن، والطبري، وهو من قصيدة امرىء القيس التي يتهدد فيها بني أَسد، والتي بدأَها بقوله:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالإِثْمِدِ ... وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

ورواية الفراء (لا نَخْفِهِ) بفتح النون، من خفَيْتُه أَخْفيه، وهذا هو موضع الشاهد هنا كما أَراد ابن عطية، ولكن البيت رُوي بضم النون في (لا نُخْفِهِ)، ومعناها: لا نُظْهره، كما قال الطبري، وقال: «إِن الذين وجهوا الإِخفاءَ في هذا الموضع إِلى الإِظهار اعتمدوا على ما ذكروا من سماعهم هذا البيت على ما وصفت من ضم النون، ولكن الصواب أَنه بفتح النون». والآراء كثيرة في معنى قوله تعالى: ﴿ أَكَادُ

قال أَبو علي: المعنى: أُزيل خفاءها وهو ما تُلَفُّ به القربة ونحوها.

وقرأ الجمهور: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ بضم الهمزة، واختلف المتأولون في معنى الآية فقالت فرقة: معناها أُظْهِرُها، و«أَخْفَيْتُ» من الأَضداد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مختل.

وقالت فرقة: معناها أَكاد أُخفيها من نفسي، على معنى العبارة عن شدة غموضها على المخلوقين، وقالت فرقة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ﴾ وتمَّ الكلام، بمعنى: أَكادُ أُنفذها لقربها وصحة وقوعها، ثم استأنف الإخبارَ بأَنه يُخفيها[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول قلق.

وقالت فرقة: [أَكَادُ] زائدة[2] لا دخول لها في المعنى، بل تضمنت الآية الإخبار بأَن الساعة آتية، وأَن الله يخفي وقت إِتيانها عن الناس.

= أُخۡفِيهَا﴾. وقد ذكر المؤلف أكثرها.

(١) واستشهدوا لذلك بقول ضابىء بن الحارث البرجمي:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي أَقَارِبه

وذلك أَن عثمان بن عفان رضي الله عنه أَراد تأَديبه لفحشه وهجائه للناس، فلما دُعي ليقابل الخليفة ربط سكِّيناً إِلى ساقه ليقتله بها، لكن أَمره افتضح فضرب ووضع في السجن، وقد مات فيه. والشاهد في قوله: (كِدْتُ)، أَي: كدت أَفعل ما نويت من قتل عثمان، وعلى هذا قالوا: إِن معنى الآية: إِن الساعة آتية أَكاد آتي بها، ثم ابتدأ سبحانه وتعالى فقال: ولكني أُخْفِيها لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى.

(٢) كذلك استشهد هؤلاء بكثير من الشعر، وما استشهدوا به قول ذي الرُّمَّة:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

والنَّأْيُ: البُعد، ورَسيس الهوى: أَوَّله، أَو ما خفي منه، أَو مَسُّه، فالمعنى عندهم: «لم يبرح رسيس الهوى من حب مية» وعلى هذا تكون (يَكَدْ) زائدة، ويؤيد هذه الرواية الأُخرى التي ذكرها اللسان في البيت، وهي: (لَمْ أَجِدْ رسيسَ الهوى)، والحقيقة أَن لهذه الرواية خبراً، فقد انتقد ابنُ شبرمة قاضي البصرة ذا الرُّمَّة حين سمعه ينشد القصيدة في المربد، فعدل ذو الرُّمَّة إِلى الرواية الثانية، لكن أَكثر النقاد قالوا: إِن بديهة ذي الرُّمَّة في الرواية الأُولى أَجود من رويَّته وتفكيره في الثانية، وقالوا: إِن معنى (لَمْ يَكَدْ): لَم يَقْرُب، وإِن نفي مقاربة الشيء أَبلغ من نَفْي الشيء، فيكون معنى البيت: إِذا غيَّر البعاد قلوب المحبين فبعاد مَيَّةَ عنِّي لا يذهب بما أُحِسُّ لها من حبٍّ مقيم، ولا يقارب حتَّى أَن يذهب به.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى: أُريد، فالمعنى: أُريد إخفاءَها عنكم لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى، واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر:

كَــادَتْ وَكِــدْتُ وَتِلْــكَ خَيْــرُ إِرَادَةِ .... (١)

وقد تقدم هذا المعنى.

وقالت فرقة: [أَكَادُ] على بابها، بمعنى أَنها لمقاربة ما لم يقع، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاءِ أَمْرِ القيامة ووقتها، وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أَهيب على النفوس، بالغ قوله تعالى في إِعْتام وقتها فقال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ حتى لا تظهر البَتَّة، ولكن ذلك لا يقع، ولا بُدَّ من ظهورها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا تلخيص هذا المعنى الذي أَشار إِليه بعض المفسرين، وهو الأَقوى عندي. وروى بعض القائلين بأَن المعنى: «أَكَادُ أُخْفيها من نفسي» ما في القول من القلق، فقالوا: معنى «من نفسي»: من تلقائي ومن عندي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا رفض للمعنى الأَول ورجوع إِلى هذا القول الذي اخترناه أَخيراً، فتأَمله.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وهكذا بترتيب الوعيد، و﴿تَسْعَىٰ﴾ معناه: تكتسب وتجترح. والضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ عائد على «السَّاعَة»، يريد: الإيمان بالساعة، فأَوقع الضمير عليها، ويحتمل أَن يعود على الصلاة، وقالت فرقة: على «لا إِله إِلا الله».

---

(١) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

كَــادَتْ وَكِــدْتُ وَتِلْــكَ خَيْــرُ إِرَادَةِ — لَـوْ عَـادَ مِنْ عَهْـدِ الصَّبَـابَـةِ مَـا مَضَـى

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ [مريم: ٩٠]، وهو في اللسان (كيد)، وهو شاهد على أن (كاد) بمعنى (أراد)، ومثله في ذلك ما أَنشده أبو بكر للأَفوه الأَودي:

فَــإِن تَجَمَّــعَ أَوْتَــادٌ وَأَعْمِــدَةٌ — وَسَـاكِـنٌ بَلَغُـوا الأَمْـرَ الَّـذِي كَـادُوا

أَي: الأَمر الذي أَرادوا. (راجع اللسان والتاج).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا متَّجه، والأوَّلان أبين وجهاً.

وقوله تعالى: [فتردى] معناه: تَهْلِكَ، والرَّدَى: الهلاك، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة:

تَنَادَوا فَقَالُوا: أَرْدَتِ الخيلُ فَارساً فقلت: أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي[1]؟

وهذا الخطاب كلُّه لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده، وقال النقاش: الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ لمحمد ﷺ، وهذا بعيد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [أَكَادُ أُخْفِيها مِنْ نَفْسِي]، وعلى هذه القراءة تركَّب ذلك القول المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ تقديره ومُضَمَّنُه التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها، وإلاَّ فقد علم الله تعالى ما هي في الأزل. وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ من صلة ﴿تِلْكَ﴾، وهذا نظير قول الشاعر:

عَدَسْ مَا لِعَبَّاد عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ[2]

قال ابن الجوهري: رُوي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة

---

(١) البيت من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله، وهو في الأغاني، والعيني، والحماسة، والشعر والشعراء، والجمهرة، ولباب الآداب، وتفسير البحر، وأَرْدَتْ: أَهلكت، والرَّدِي: الهالك. يقول: حين أعلنوا أن الخيل قد أَهلكت أَحد الفرسان أَحسست بالمصيبة وقلت: أَهو عبد الله هذا الذي هلك؟ هذا والقصيدة هي الأَصمعية الثامنة والعشرون.

(٢) هذا البيت ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وهو في الخزانة، وحاشية الأمير، والأغاني، والطبري، والمحتسب، واللسان، وابن الشجري، والإنصاف، وابن يعيش، والشذور، والعيني، والهمع، والتصريح، والأشموني، وشرح شواهد المغني، والديوان. وقوله: (عَدَسْ) هو زجرٌ للبغل، وربما سمَّوا البغل عدس، وعَبَّاد هو أخو عبيد الله بن زياد، وكان أَميراً على سجستان، وكان قد سجن الشاعر لشعر قاله، إلاَّ أَن اليمانية كلموا معاوية بشأنه فأَرسل بريداً خاصاً يحمل أَمراً بإطلاقه، ولمَّا أطلق سراحه قُدِّم له بغل من بغال البريد ليركبه فقال هذا البيت في مطلع أبيات تجدها مع القصة كاملة في خزانة الأَدب. و(هذا) اسم إشارة، وقد وُصِلَ بجملة (تحملين)، فصار من الأَسماء الموصولة في رأي بعض النحويين. فيكون (هذا) مبتدأً، وجملة (تحملين) صلة، و(طليق) خبر، أَي: والذي تحملينه طليق.



العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقال له: ﴿أَلْقِهَا﴾ ليرى منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تنضاف إليه.

وقرأ الحسن، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ [عَصَايِ] بكسر الياء مثل غلامي[١]، وقرأت فرقة: [عَصَيَّ]، وهي لغة هُذَيْل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ . . . .[٢]

وقرأ الجمهور: [عَصَايَ] بفتح الياء، وكذلك ابن أبي إسحاق قرأ: [عَصَايْ] بياءٍ ساكنة.

ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عُظْمها وجُمْهورها[٣]، وأجمل سائر ذلك. وقرأ الجمهور: [وَأَهُشُّ] بضم الهاءِ والشين المنقوطة، ومعناه: أخبط بها الشجر حتى ينتشر الورق للغنم، وقرأ إبراهيم النَّخَعي: [وَأَهِشُّ] بكسر الهاءِ، والمعنى كالذي تقدم، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: [وَأَهُسُّ] بضم الهاءِ والسِّين غير منقوطة، ومعناه: أزجرها وأُخَوِّف، وقرأت فرقة: [على غنمي] بالجرِّ، وقرأت فرقة:

---

(١) قال هذا ابن مجاهد، ورفضه ابن جني، فقال في المحتَسَب: «وقول ابن مجاهد: «مثل غلامي» وجه له؛ لأن الكسرة في ياء (عَصَايِ) لالتقاء الساكنين، والكسرة في ميم (غُلامِي) هي التي تحدثها ياءُ المتكلم، أفترَى أن في (عَصَايِ) بعد ياء المتكلم ياءٌ له أُخرى حتى يكون للمتكلم ياءان؟ وهذا محال، وإنما غرضه أن الياءَ في (عَصَايِ) مكسورة كما أن ميم (غُلامي) مكسورة، وأساء التمثيل على ما ترى». ثم قال: «وكسر الياء في هذا ضعيف».

(٢) هذا صدر بيت، وهو بتمامه مع بيت قبله:

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ ... وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالْبُكَى مَنْ يُفْجَعُ
سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

وأبو ذُؤَيْب يرثي أولاده ويبكيهم، فقد ماتوا واحداً بعد الآخر وتركوه وحيداً على غير هواه، فالضمير في (سَبَقُوا) يعود على أولاده، وهَوَيَّ لغة هُذَيْل في (هَوَايَ)، يقولون ذلك في جميع المقصور، فيقولون: عَصَيَّ وتُقَيّ. وأعنقوا: تبع بعضهم بعضاً وماتوا قَبْلي، ولم يلبثوا كما كنتُ أهوى، وكنتُ أُحب أن أموت قبلهم ولكنهم خالفوا ذلك فكأن هذا كان هوًى لهم. وقيل: جعل موْتَهم مُضِيّاً لهوَاهم من باب ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى لا يمكر، ولكن لمَّا قال: ﴿مَكَرُوا۟﴾ جرى اللفظ على الأول، وهنا فإن موتهم لم يكن هوًى لهم، ولكن جرى اللفظ على الأول. أمَّا قوله: (وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ) فمعناه أن كلَّ حيٍّ لا بُدَّ أن يموت.

(٣) عُظْمُ الشيء: أكثَرُهُ، وجُمْهُور الشيء: أكثره. فالمراد أنه ذكر أكثر منافع عصاه.



[عَلَيَّ غَنَمِي] فأَوقعوا الفعل على الغنم، وقرأَت فرقة: [غَنْمِي] بسكون النون، ولا أَعرف لها وجهاً، وقوله: [أُخْرَى] ـ فوَحَّد مع تقدم الجمع ـ هو المَهْيَع في توابع جمع ما لا يعقل والكناية عنه، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة، كقوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وكقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقد مرَّ القول في هذا المعنى غير مرة[(١)].

وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أَخذها من بيت عِصِيِّ الأَنبياء الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقا على الرعية، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة، وكانت من العين الذي في ورق الريحان، وهو الجسم المستطيل في وسطها، وقد تقدم شرح أَمرها فيما مضى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾.

لما أَراد الله تبارك وتعالى أَن يُدَرِّبه في تلقِّي النبوة وتكاليفها أَمره بإلْقاء العصا، فأَلقاها موسى عليه السلام، فقلب اللهُ أَوصافها وأَغراضها، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فماً، وصارت حيَّةً تسعى، أَي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة، فلما رآها موسى عليه السلام رأَى عبرة فولَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّب، فقال الله له: خذها ولا تخف، وذلك أَنه أَوجس في نفسه خيفة، أَي لحقه ما يلحق البشر، ورُوي أَن موسى عليه الله تناولها بِكُمَّي جُبَّته، فنُهي عن ذلك فأَخذها بيده فصارت عصا كما كانت أَول مرة، وهي سيرتها الأُولى.

ثم أَمره الله تعالى أَن يضم يده إِلى جَنْبِه، وهو الجناح استعارة ومجازاً، ومنه قول الراجز:

---

(١) آخرها عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨) من هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.



أَضُمُّــهُ لِلصَّــدْرِ وَالْجَنَــاحِ(١)

وبعض الناس يقول: «الجناح»: اليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله صحيح على طريق الاستعارة، أَلا ترى أَن جعفر بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه سُمِّي ذا الجناحين بسبب يديه حين أُقيمت له الجناحان مقام اليد، شبه بجناح الطائر(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلُّ مرعُوبٍ من ظُلْمة أَو نحوها فإِنه إذا ضمَّ يده إلى جناحه فتر رعبه وجمع جأْشه، فجمع الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام تفتير الرعب مع الآية في اليد. ورُوي أَن يد موسى عليه السلام خرجت بيضاءَ تشِفُّ وتضيءُ كالشمس.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَي: من غير بَرَصٍ ولا مُثْلَة، بل هو أَمر يَنْحَسر ويعود بحكم الحاجة إِليه، وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يحتمل أَن يريد وصف الآيات بالكبر على ما تقدم من قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ونحوه، ويحتمل أَن يريد تخصيص هاتين الآيتين بأَنهما أَكبر الآيات، كأَنه قال: لِنُرِيَكَ الكبرى من آياتنا، فهما معنيان. ثم أَمره الله تبارك وتعالى بالذهاب إلى فرعون، وهو مصعب بن الرَّيَّان في بعض ما قيل، وقيل غير هذا، ولا صحة لشيءٍ من ذلك. و[طغى] معناه: تجاوز الحدَّ في فساد.

---

(١) لم أقف على قائل هذا الرجز، وفي اللسان (جنح): «وجناح الإنسان: يده، ويَدَا الإنسان: جناحاه، وفي التنزيل ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، وفيه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وقال الزجاج: معنى جناحك العَضُد، ويقال: اليَدُ كلها جناح، وجمْعُه أَجْنِحَة وأَجْنُح».

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، أخو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، كان من السابقين إلى الإسلام، وقد حضر معركة مُؤتة بالبلقاء في الشام، فنزل عن فرسه وقاتل، ثم حمل الراية وتقدم الصفوف فقطعت يمناه، فحملها بيُسراه وقاتل فقطعت أيضاً، فاحتضن الراية إلى صدره وقاتل حتى وقع شهيداً وفي جسمه نحو تسعين طعنة ورَمْية، وقيل: إن الله تبارك وتعالى عوّضه عن يديه بجناحين في الجنة، وقال حسَّان فيه:

فَــلاَ يَبْعِــدَنَّ الله قَتْلَــى تَتَــابَعُــوا ... بِمُــؤْتَــةَ مِنْهُــمْ ذُو الْجَنَــاحَيْــنِ جَعْفَــرُ

ولقد لُقِّبَ جعفر بالطَّيَّار، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فرأَيت جعفر يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم».



قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ الآية، لما أَمره الله تعالى بالذهاب إِلى فرعونَ علم أَنها الرسالة، وفهم قدْر التكليف، فدعا الله في المعونة إِذْ لا حولَ له إِلاَّ به، وقوله: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ معناه: لفهم ما يرِد علي من الأُمور، و«الْعُقْدَة» التي دعا في حَلِّها هي التي اعترته من الجمرة التي جعلها في فمه حين جرَّبه فرعون، ورُوي في ذلك أَن فرعون أَراد قتله وهو طفل حين مدَّ يده إِلى لحية فرعون، فقالت له امرأَته: إِنه لا يعقل، فقال: بَلَى، هو يعقل وهو عدوٌّ لي، فقالت له: نُجَرِّبه، قال: أَفعل، فدعت بجمرات من نارٍ وطبق فيه ياقوت، فقال: إِن أَخذ الياقوت علمنا أَنه يعقل، وإِن أَخذ النار عذرناه، فمدَّ موسى يده إِلى جمرة فأَخذها فلم تَعْدُ على يده فجعلها في فيه فأَحرقته وأَورثت لسانه عُقْدة في كِبَره، أَي حَبْسَة مُلْبِسَةً في بعض الحروف. قال ابن الجوهري رحمه الله: كفَّ الله النار عن يده لئلا تقول النار: طبعي، وأَحرقت لسانه لئلا يقول موسى: مكانتي، وموسى عليه السلام إِنما طلب من حلِّ العقدة قدْر أَن يُفْقَه قولُه، فجائز أَن يكون ذلك كله زال، وجائز أَن يكون بقي منه القليل، فيجتمع أَن يُؤْتى سُؤْلَه وأَن يقول فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(١)، ولو فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون سباً لموسى عليه السلام لحالته القديمة.

و«الْوَزِيرُ»: المُعين القائم بِوِزْر الأمور، وهو ثقلها، ويحتمل الكلام أَن طلب الوزير من أَهله على الجملة، ثم أَبدل هارون من الوزير المطلوب، ويحتمل أَن يريد: واجعل هارون وزيراً، فإِنما ابتداءُ الطلب فيه، فيكون ـ على هذا ـ مفعولاً أَولاً بـ[ٱجْعَلْ]. وكان هارون عليه السلام أَكبر من موسى عليه السلام بأَربعة أَعوام.

وقرأَ ابن عامرٍ وحده: [أَشْدُدْ] بفتح الهمزة [وَأُشْرِكْهُ] بضمها على أَن موسى عليه السلام أَسند هذه الأَفعال إِلى نفسه، ويكون الأَمر هنا لا يريد به النبُوَّة بل يريد تدبيره ومساعيه؛ لأَن النُّبُوَّة لا يكون لموسى عليه السلام أَن يشرك فيها بشراً، وقرأَ الباقون: [أُشْدُدْ] بضم الهمزة [وَأَشْرِكْهُ] على معنى الدعاء في شدِّ الأَزر وتشريك هارون عليه السلام في النُّبُوَّة، وهذه هي الوَجْه لأَنها تناسب ما تقدم من الدعاء، ويعضدها آياتٌ غير هذه تقضي بطلبه تصديق هارون إِيَّاه. و«الأَزْرُ» يعني الظهر، قاله أَبو عبيدة، كأَنه قال: شُدَّ به عوني، واجعله مُقَاومي فيما أُحاول من الأُمور، وقال امرؤُ القيس:

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الزخرف).



بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا ... مَجَرَّ جُيُوش غَانِمِينَ وَخُيَّبِ[1]

أَي: قاوَمَهُ وصار في طوله. وفتح أبو عمرو وابن كثير الياءَ من [أَخِي] وسكَّنها الباقون، ورُوي عن نافع [وَأَشْرِكْهُو] بزيادة واوٍ في اللفظ بعد الهاءِ. ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سبباً يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله. وقوله: [كَثِيراً] نعت لمصدر محذوف، تقديره: تسبيحاً كثيراً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

المعنى: قال الله تعالى: قد أَعطيتك يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الأَمر وحلّ العُقدة، إمَّا بالكُلِّ وإمَّا على قدر الحاجة في الأَفعال، وإِيتاءُ هذا السؤال مِنَّة من الله عزَّ وجلَّ، فقرن إِليها قديم مِنَّته عنده على جهة التوقيف عليها ليَعْظُم اجتهاده وتَقْوى بصيرته.

وكان من قصة موسى عليه السلام ـ فيما روي ـ أَن فرعون ذُكر له أَن خراب ملكه يكون على يدي غلام من بني إِسرائيل، فأَمر بقتل كل ولد يولد لبني إِسرائيل، ثم إِنه رأَى مع أَهل مملكته أَن فناءَ بني إِسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إِذ هم كانوا عملة الأَرض والصناع ونحو هذا، فعزم على أَن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة، فوُلد

---

(١) هذا البيت من قصيدته «أُم جندب» التي وصف فيها الفرس وصفاً دقيقاً طويلاً، ولكنه في بعض أبياتها يشبه ناقته بحمار وحشي وقف يأكل العشب في مَحْنِيَّة، والمَحْنِيةُ: حيث ينحني الوادي وهو أخصب موضع فيه، والضَّال: نوع من الشجر في الصحراء، هو السِّدْرُ البري، وآزَرَ: حاذى وساوى، أَيَ صار مثله طولاً وغضارة لخصوبة الأَرض، مَجَرَّ جُيُوشٍ: مَمَرَّ جيوش، غانمين: منتصرين، خُيَّبُ: مهزومين، أَي هذه المنطقة في الوادي تمر بها الجيوش المنتصرة والمهزومة بكثرة، ولذلك لا ترعى فيها الحيوانات، ولا يقصدها الرعاة خوفاً من الجيوش، ولهذا بقيت خصيبة.

وهذا البيت في اللسان (أَزر) شاهد على أَن (آزَرَ) بمعنى: ساوى، ولكن آزر بمعنى قَوَّى لا تتأتى فيه، وأَظهر منه في هذا المعنى البيت الذي استشهد به اللسان ولم ينسبه، قال: وأَزَّر الزرع وتأَزَّر: قوَّى بعضه بعضاً فالتف وتلاحق واشتد، قال الشاعر:

تَأَزَّرَ فيه النَّبْتُ حَتَّى تَخَايَلَتْ ... رُبَاهُ وَحَتَّى ما تُرَى الشَّاءُ نُوَّمَا



هارون عليه السلام في سنة الاستحياءِ فكانت أُمّه آمنة، ثم وُلد موسى عليه السلام في العام الرّابع سنة القتل، فخافت أُمه عليه الذبح فبقيت مهتمة، فأَوحى الله إِليها، قيل: بمَلك جاءَها فأَخبرها وأَمرها، قال بعض من روى هذا: ولم تكن نَبيَّةً؛ لأَنا نجد في الشرع ورواياته أَن الملائكة قد كلَّمت من لم يكن نبيّاً، وقال بعضهم: بل كانت أم موسى رسول الله ﷺ السلام نَبيَّة بهذا الوحي، وقال بعضهم: بل كان هذا الوحي رؤْيا رأَتها في النوم، وقالت فرقة: بل هو وحي إِلهام وتسديد كوحي الله إِلى النحل وغيرها، فأَلهمها الله تبارك وتعالى إِلى أَن اتَّخذت تابوتاً فقذفت فيه موسى راقداً في فراش، ثم قذفته في يمِّ النيل، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف على النيل إِذ رأَى التابوت، فأَمر به فَسِيق إِليه وامرأَته معه، ففتح فرآه، فرحمته امرأَته وطلبته لتتخذه ابناً فأَباح لها ذلك، وروي أَن التابوت جاءَ في الماء إِلى المشرعة التي كان جواري امرأَة فرعون يستقين فيها الماءَ، فأَخذن التابوت وحَمَلْنَه إِليها، فأَخرجته وأَعلمت فرعون وطلبته منه، ثم إِنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأَة، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويُطاف به يعرض للمراضع، فكلما عرضت عليه امرأَة أَباها، وكانت أُمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغمومة وفؤادها فارغ إِلاَّ من هَمِّه، فقالت لأُخته: اطلبي أَثره في المدينة عسى يقع إِلينا منه خبر، فبينا الأُخت تطوف إِذْ بَصُرَتْ به وفهمت أَمره، فقالت لهم: أَنا أَدلكم على أَهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فتعلقوا بها وقالوا لها: أَنت تعرفين هذا الصبي، قالت: لا، غير أَني أَعلم من أَهل هذا البيت الحرص على التقرُّب إِلى الملكة والجدَّ في خدمتها وإِرضائها، فتركوها وسأَلوها الدلالة، فجاءَت بأُمِّ موسى فلما قَرَّبَنْه شرب ثدييها، فسُرَّت آسية امرأَة فرعون، وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت لها: ما كنت لأَدع بيتي وولدي، ولكنه يكون عندي، فأَحسنت إِلى أَهل ذلك البيت غاية الإِحسان، واعتزَّ بنو إِسرائيل بهذا الرضاع، والسبب من الملكة، وأَقام موسى حتى كمل رضاعه، فأَرسلت إِليها آسية أَن جيئي بولدي ليوم كذا، وأَمرت خدمها ومن لها أَن يَلْقَيْنه بالتُّحف والهدايا واللباس، فوصل إِليها على ذلك وهو بخير حال وأَجمل شباب، فسُرَّت به ودخلت به على فرعون ليراه ويحبه، فرآه وأَعجبه وقرَّبه، فأَخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجَبَذَهَا[1]، فاستشاط فرعون وقال: هذا عدوٌّ لي، وأَمر بقتله،

---

(١) جَبَذَ وجَذَبَ بمعنى واحد.

فناشدته فيه امرأته وقالت: إنه لا يعقل، فقال فرعون: بل يعقل، فاتَّفقا على تجربة بالجمرة والياقوت حسبما ذكرنا آنفاً في حلِّ العُقْدة، فنجاه الله من فرعون وردَّه إلى أمه فشَبَّ عندها إلى أن ترعرع، وكان فتًى جلْداً فاضلاً، فاعتزت به بنو إسرائيل بظاهر ذلك الرضاع، وكان يحميهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أنه منهم ومن صميمهم، فكانت بصيرته في حمايتهم، وكان يعرف ذلك أَعيان بني إسرائيل.

ثم إن قصة القبطي المقاتل مع الإسرائيلي نزلت، وذِكْرُها في موضعها مَسْتَوْعَب، فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين، فكان من أَمره مع شعيب رسول الله عليه السلام ما هو مُسْتَوْعَب في موضعه، من أَنه تزوج ابنته الصغرى على رعيه الغنم عشر سنين، ثم اعتزم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر، فجاءَ في طريقه فَضَلَّ في ليلة مظلمة فرأَى النار حسبماتقدم ذكره، فعدَّد الله تبارك وتعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من لطف الله به في كل فضل، وتخليصه له من قصة إلى أُخرى، وهذه الفتون التي فتنه بها، أَي اختبره وخلَّصه حتى صلح للنبوة وسَلِم لها.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ إيهامٌ يتضمن عِظَم الأَمر وجلالته في النعم، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[١]، وهو كثير في القرآن والكلام، و﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ بدلٌ من [مَا]، والضمير الأَول في [ٱقْذِفِيهِ] عائد على موسى، وفي الثاني على التابوت[٢]، ويجوز أَن يعود على موسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ خبر خرج في صيغة الأَمر مبالغةً، إذ الأَمر أَقطع الأَفعال وأَوجب، ومنه قول النبي ﷺ: «قُوموا فَلأصَلِّ لكم»[٣]، فأَخرج الخبر في صيغة الأَمر لنفسه مبالغةً، وهذا كثير، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأَمر حسن جوابه كذلك. و«العَدُوُّ» الذي كان لله تبارك وتعالى ولموسى عليه السلام هو فرعون، ولكن أُم موسى أَخبرت به على الإيهام،

---

(١) الآية (١٦) من سورة (النجم).

(٢) يريد أَن يقول: والضمير في [ٱقْذِفِيهِ] الأُولى عائد على موسى، وفي [فَٱقْذِفِيهِ] الثانية عائد على التابوت.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، ومالك، والدارمي، عن أَنس، ولفظه في البخاري (أَن جدَّته ـ أَي أَنس ـ مُلَيكه دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته له، فأكل منه ثم قال: (قُوموا فلأُصَلِّي لكم)، قال أَنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسودَّ من طول ما لُبِس فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ، وصففت واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف)، وعلى هذه الرواية فلا شاهد في الحديث لأن الصيغة فيه ليست صيغة أَمر

ولذلك قالت لأُخته: قُصِّيه، وهي لا تدري أَين.

ثم أَخبر الله تعالى موسى عليه السلام أَنه أَلقى عليه مَحَبَّة منه، فقال بعض الناس: أَراد محبة آسية، لأَنها كانت من الله وكانت سبب حياته، وقالت فرقة: أَراد القبول الذي يضعه الله في الأَرض لخيار عباده، وكان حظ موسى عليه السلام منه غاية الوفر، فقالت فرقة: أَعطاه إِجلالاً يُحِبُّه به كل من رآه، وقالت فرقة: أَعطاه ملاحة العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان فيهما ضعف، وأَقوى الأقوال أَنه القبول.

وقرأَ الجمهور: [ولتصنع على عيني] بكسر اللام وضم التاءِ على معنى: ولِتُغذى ولِتُطعم وتُربى، وقرأَ أَبو نُهَيْك: [وَلِتَصْنَعَ] بفتح التاء، قال ثعلب: معناه: لتكون حركتك وتصرفك على عين مني، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [وَلِيُصْنَعْ] بالياءِ وكسر اللام على الأمر للغائب، وذلك مُتَّجه، وقوله: ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ معناه: بمرأًى مني وأَمر مدرك مبصر مراعَى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

العامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره: ومَنَنَّا إِذْ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكورة آنفاً، وقرأَت فرقة: [كي تقر] بفتح القاف، وقرأَت فرقة: [كي تَقِر] بكسر القاف، والنَّفْسُ التي قتلها هي نفس القبطي الذي كان يقاتل الإسرائيلي فوكزه موسى فقضى عليه، و«الغَمُّ»: همُّ النفس، وكان هم موسى عليه السلام بأَمر مَن طلبه ليثأَر به.

وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ معنا: خَلَّصْنَاك تخليصاً[1]، هذا قول جمهور المفسرين، وقالت فرقة: معناه: اختبرناكَ، وعلى هذا التأْويل لا يُراد إِلاَّ ما اختُبر به

(١) تعبير الطبري، والقرطبي وغيرهما من المفسرين: «أخلصناك إخلاصاً»، وهذا القول منسوب إلى مجاهد رضي الله عنه، والمعنى: خلَّصه من كل ما لا يلائم النبوة حتى أصبح صالحاً لها.



موسى عليه السلام بعد بلوغه وتكليفه، وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى عليه السلام.

وعدَّة سنيه في أَهلِ مدين عشرة أَعوامٍ؛ لأَنه إِنما قضى أَوفى الأَجلين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أَي: بميقات محدود[1] للنبوة التي قد أَرادها الله بك، ومنه قول الشاعر:

نَـالَ الْخِـلاَفَـةَ أَوْ كَـانَـتْ لَـهُ قَـدَراً   كَمَـا أَتَـى رَبَّـهُ مُـوسَـى عَلَـى قَـدَرِ[2]

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ معناه: جعلتك موضع الصنيعة ومقرَّ الإِجمال والإِحسان، وقوله: [لِنَفْسِي] إِضافة تشريف، وهذا كما تقول: «بيت الله» ونحوه. «والصِّيامُ لي وأَنَا أَجْزِي به»[3]، وعبَّر بالنفس عن شدَّة القرب وقوة الاختصاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

أَمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام في هذه الآية بالنفوذ إِلى دعوة فرعون، وخاطب موسى وحده تشريفاً له، ويحتمل أَن هارون أُوحي إِليه مع مَلَك أَن ينفذ، و[بِآيَاتِي] معناه: بعلاماتي التي أَعطيتكما من معجزة وآية وحي وأَمْر ونهي كالتوراة، و[تَنِيَا] معناه: تضعفا وتبطئا، تقول: وَنَى فلان في أَمْر كذا إِذا تباطأَ فيه عن ضعف، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الأَصح أَنَ يقال: بميقات مُحَدَّد؛ لأَن الشيء المحدود هو القليل.

(٢) البيت لجرير، وهو من قصيدة له يمدح بها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو في الديوان، والطبري، والبحر، والقرطبي، والمغني، والرواية فيه: جاءَ الخلافة، وفي الديوان: (نال الخلافة إِذْ كانت)، ويروى: (عزَّ الخلافة بل كانت له قدراً) ومعناها: أَخذ الخلافة بِعِزٍّ وقَهْرٍ، قال صاحب اللسان: «يقال: قَدَر الإِله كذا تقديراً، وإِذا وافق الشيءُ الشيءَ قلتَ: جاء قَدَرُه، وقال ابن سيدة: القَدَر والقَدْرُ ـ بسكون الدال وفتحها ـ: القضاءُ والحكم، وهو مايُقدِّره الله عزَّ وجلَّ من القضاء، ويحكم به من الأُمور»، فالشاهد في البيت قوله: (عَلى قدَر)، إِذ المعنى: بقضاء الله وتوفيقه.

(٣) هذا جزءٌ من حديث متفق عليه.



. . . . فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلاَ الضَّرَعِ الْغُمْرِ[(١)]

والوَنَى: الكلالُ والفَشَل في البهائم والإنس، وفي مصحف ابن مسعود: [وَلاَ تَهِنَا فِي ذِكْرِي]، ومعناه: وَلاَ تَلِينا، من قولك: هيِّنٌ ليِّنٌ.

و«الْقَوْلُ اللَّيِّنُ»، قالت فرقة: معناه: كَنِّيَاهُ[(٢)]، وقالت فرقة: بل أمرهما بتحسين الكلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الوجه، وذلك أَن كل من يريد دعاءَ إِنسان إِلى أَمر يكرهه، فإِنما الوجه أَن يحرر في عبارته المعنى الذي يريد حتى لا يخل به ولا يخرمنه، ثم يجتهد بعد ذلك في أَن تكون عبارته لطيفة ومقابلته ليِّنَة، فذلك أَجلب للمراد، فأَمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أَن يَسْلُكَا مع فرعون إِكمال الدعوة في لين من القول.

وقوله: [لَعَلَّهُ] معناه: على رجائِكما وطمعكما، فالتوقع فيها إِنما هو راجع إِلى جهة البشر، وقرأَ الجمهور [يَفْرُط] بفتح الياءِ وضم الراءِ، ومعناه: يَعْجَل ويتسرع بمكروه فينا، ومنه الفارط في الماءِ، وهو الذي يتقدم القوم إِليه، قال الشاعر:

فَاسْتَعْجَلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنا ... كَمَا تَقَدَّمَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ[(٣)].

---

(١) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه في اللسان (ضرع)، وهو غير منسوب، قال: الضَّرَعُ هو الغُمْرُ الضعيف من الرجال، وقال الشاعر:

أَنَاةً وَحِلْماً وَانْتِظَاراً بِهِمِ غَداً ... فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلاَ الضَّرَعِ الْغُمْرِ

ورجلٌ ضارع: بيِّن الضُّروع والضَّراعة: ناحلٌ ضعيف. والغُمْرُ: الذي لم يجرب الأُمور ولا خبرة له بحرب ولا أَمْر ولم تُحَنِّكه التجارب. والشاهد في البيت هو أن الواني بمعنى الضعيف المتباطىء في الأَمر بسبب ضعفه وعجزه.

(٢) أَي خاطباه بالكنية، وهي ما يُجْعَلُ علماً على الشخص غير الاسم واللقب، وتُستعمل مع الاسم واللقب أَو بدونهما تفخماً لشأَن صاحبها أَن يُذكر اسمه مجرداً، وتكون لأَشراف الناس.

(٣) البيت للقُطَامِيِّ ـ عمير بن شُتَيم التغلبي ـ وهو من قصيدة له يمدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي، وهي في الأَغاني، وأَورد منها ابن قتيبة أَبياتاًفي «الشعر والشعراء»، والبيت في اللسان (فرط)، وفي تفسير البحر المحيط. قال في اللسان: «وفَرط القوم يَفرطُهم فَرْطاً وفَرَاطة: تقدمهم إِلى الورْد لإِصلاح الأَرشية والدِّلاء ومَدْرِ الحياض والسَّقْي فيها، وفَرَطْتُ القوم أَفرطُهُم فَرْطاً، أَي سبقتهم إِلى الماء، فأَنا فارطٌ وهم الفُرَّاط، قال القطامي: «فاستعجلونا. . . البيت». والوُرَّاد: هم الذين يردون الماءَ، يقال: وردتُ الماءَ أَرِدهُ وُروداً إِذا حَضَرْتَه لتشرب، ويروى البيت: «كما تقدم فارط الوُرَّاد».



وقرأَت فرقة: [يُفرِطَ] بضم الياءِ وكسر الراءِ، ومعناه: يَشْتَطُّ، وقرأَ ابن محيصن: [يُفْرَطَ] بضم الياءِ وفتح الراءِ، ومعناها أَن يحمله حامِلٌ على التسرع إِلينا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أَي بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون، وهذا كما تقول: «الأمير مع فلان» إِذا أَردت أَنه يحميه. ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارة عن الإِدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

المعنى: فأْتِيا فرعون فأَعلماه أَنكما رسولان إِليه، وعبَّر لفرعون بـ[رَبِّكَ] تحقيراً له؛ إِذْ كان يدَّعي الربوبية، ثم أَمر بدعوته إِلى أَن يَبْعَث معهما بني إِسرائيل ويُخرجهم من ذُلِّ خدمة القبط، وقد تقدم في هذه الآية دعاؤُه إِلى الإِيمان، وهذه جملة ما دُعي إِليه فرعون «الإِيمان وإِرسال بني إِسرائيل»، والظاهر أَن رسالته إِليه ليست على حدِّ إِرساله إِلى بني إِسرائيل، وتعذيبُ بني إِسرائيل كان ذبح أَولادهم وإِذلالهم. و«الآية» التي أَحالاَ عليها هي العصا واليد. وقال: [جِئْنَاكَ] ـ والجائي بها موسى ـ تجوُّزاً من حيث هما مشتركان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يحتمل أَن يكون آخر كلامٍ وفَصْله، فيقوى أَن يكون «السلام» بمعنى التحية، كأَنما رغبا بها عنه، وجَرَيا على العُرف في التسليم عند الفراغ من القول فسلَّما على من اتبع الهدى، وفي هذا توبيخ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذه الجملة استعمال الناس هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم. ويحتمل أَن يكون في درج القول متصلاً بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ فيحتمل على هذه أَن يكون خبراً بأَن السلامة للمهتدين، وهذان المعنيان قالت كلَّ واحد منهما فرقةٌ لكن دون هذا التلخيص، وقالوا: [السَّلاَمُ] بمعنى: السَّلامة، و[على] بمعنى «اللام»، أَي: السَّلامةُ لمن اتَّبع الهدى.



ولما فرغا من المقالة التي أُمرا بها عند قوله: [وَتَوَلَّى] خاطبهما فرعون، وفي سرد هذه الآية حذف يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره: فأَتَياهُ فلما قالا جميع ما أُمِرَا به قال لهما فرعون: فمن ربكما؟ وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ بغير جمعه مع «هارون» في الضمير نداءٌ له بمعنى التخصيص والتوقيف؛ إِذْ كان صاحب عُظْم الرسالة ولزيم الآيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

استبد موسى عليه السلام بجوابه من حيث خصه بالسؤال، ثم أَعلمه من صفات الله بالتي لا تشريك لفرعون فيه ولا بوجه مجاز. واختلف المفسرون في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فقالت فرقة: أَعطى الله الذَّكر من كل حيوان ـ نوعه وخلقته ـ أُنثى، ثم هدى للإِتيان، وقالت فرقة: أَعطى الله كل موجود من مخلوقاته خِلْقَتَهُ وصورتَهَ، أَي أَكْمَلَ ذلك له وأَتقنه، ثم هَدَى أَي: يسَّر كل شيء لمنافعه ومرافقه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَشرف معنًى وأَعم في الموجودات.

وقرأَت فرقة: [خَلَقَهُ] بفتح اللام، ويكون المفعول الثاني بـ[أَعْطَى] مُقَدَّرا، تقديره: كماله أَو مصلحته.

وقول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يحتمل أَن يريد محاجَّته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه، فليس يتَّجه على هذا أَن يريد إِلاَّ: ما بال القرون الأُولى لم تُبعث إِليها ولم يوجد أَمْرُكَ عندها؟ فردَّ موسى عليه السلام عِلْم ذلك إِلى الله تعالى. ويحتمل أَن يريد فرعون قطْع الكلام الأَول والرجوع إِلى سؤال موسى عمَّن سلف من الناس روغاناً في الحجة وحيدة، وقيل: «ٱلْبَالُ»: الحال، كأَنه سأَله عن حالهم، كما جاءَ في الحديث: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[1]، قال النقاش: إِنما قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لمَّا سمع مؤمن آله يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾

---

(١) البخاري (٦٢٢٤) في كتاب الأدب من صحيحه.



﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾[1] الآية، وردَّ موسى العلم إلى الله لأنه لم تأته التوراة بعد. وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يريد اللوح المحفوظ، أو فيما كتبته الملائكة من أحوال البشر.

وقرأت فرقة: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ بفتح الياءِ وكسر الضاد، واختُلف في معنى هذه القراءة فقالت فرقة: هو ابتداءُ كلام، تنزيهٌ لله تبارك وتعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تمَّ في قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾، و[يَضِلُّ] معناه: يتلف[2]، وقالت فرقة: بل قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ من صفة الكتاب، أي أن الكتاب لا يغيب عن الله تعالى، تقول العرب: «ضَلَّني الشَّيْءُ» إذا لم أجده، و«أَضْلَلْتُهُ أنَا»، ومنه قول النبي ﷺ حكاية عن الإسرائيلي الذي طلب أن يُحرق بعد موته: (لعلي أُضِل الله) الحديث[3]، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أظهر ما فيه أن يعود ضميره إلى الله تعالى، ويحتمل أن يعود إلى الكتاب في بعض

---

(١) من الآيتين (٣٠، ٣١) من سورة (المؤمن) وهي سورة(غافر)، ومؤمن آل فرعون هو الذي تتحدث عنه الآيات من قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ الآية (٢٨) وما بعدها، ولهذا سميت السورة سورة المؤمن.

(٢) ومعنى يتلفُ يَهْلِكُ، وبهذا عبَّر أكثر المفسرين، قال الزجاج: معنى لا يَضِلُّ: لا يهْلِك من قوله تعالى: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾، وقيل: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾: لا يُخطِىء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أي: لا يخطىء في التدبير، فمن أنظره فَلِحكمة أنظره، ومن عاجله فَلِحكْمة عاجَلَه، وقيل: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾: لا يغيب، قال ابن الأعرابي: «أصل الضلال الغيبوبة، يقال: ضلَّ النَّاسي إذا غاب عنه حفظ الشيء، ومعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغيب عنه شيءٌ ولا يغيب عن شيء».

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد والأنبياء والرقاق، ومسلم في التوبة، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، ومالك في الجنائز من الموطأ، وأحمد في مواضع كثيرة، والرواية التي فيها هذا اللفظ أخرجها أحمد، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه ألاَّ آتيك، ثم سأله عن أمور، وفي نهاية الحديث قال: (إنَّ رجلاً ممَّن كان قبلكم رَغَسَهُ الله تعالى مالاً وولداً حتى ذهب عصر وجاء آخر، فلما احتضر قال لِوَلَدِه: أيَّ أَبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أَب، فقال: هل أنتم مطيعي وإلاَّ أخذت مالي منكم، انظروا إذا أنا مِتُّ أن تحرقوني حتى تدعوني حُمماً، ثم اهرسوني بالمهراس ـ وأدار رسول الله ﷺ يديه حذاءَ ركبتيه ـ قال رسول الله ﷺ: ففعلوا والله، وقال نبي الله ﷺ بيده هكذا، ثم اذروني في يوم راحٍ لعلي أُضلُّ الله تعالى، كذا قال عفان ـ أجد الرواة ـ قال أبي: وقال مهني أبو شبل عن حماد: أضلُ الله، ففعلوا والله ذلك، فإذا هو قائم في قبضة الله تعالى، فقال: يا بن آدم، ما حملك على ما فعلته؟ قال: من مخافتك، قال: فتلافاَهُ الله تعالى بها).

ومعنى: (رَغَسَهُ الله): كثَّر ماله وأولاده وبارك له فيهما ـ والحُمَم: الفحم والرماد وكل ما احترق من النار ـ والرَّاح من الأيام: الشَّديد الرِّيح).



التأويلات، يصفه بأنه لا ينسى، أي: لا يَدَعُ شيئاً، فالنسيان هنا استعارة، كما قال في موضع آخر: ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾[1]، فوصفه بالإحصاء من حيث حصرت فيه الحوادث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾.

انظر هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام، هي مما تقضي بداية العقولُ أن فرعون وكل بشر بعيدٌ عنها؛ لأنه لو قال: هو الرزاق القادر المريد العالم ونحوه من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط ويقول: أنا أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكن فرعون أن يقول: إن ذلك له.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عباس: [مِهَاداً] بكسر الميم وبألف، و«المِهَادُ» هو جمع مَهْدٍ، وقيل: هو اسم مفرد كفَرْش وفِرَاش، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: [مَهْداً] بفتح الميم وسكون الهاء، وقوله: [سَلَكَ] بمعنى: نَهَجَ ولَحَبَ[2]، و«السُّبُل»: الطُّرُق. وقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، على تقدير: يقول عزَّ وجلَّ: [فَأَخۡرَجۡنَا]، ويحتمل أن يكون كلام موسى تمَّ عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ ثمَّ وصل الله تعالى كلام موسى بإخباره لمحمد ﷺ، والمراد الخلق أجمع بهذه الآيات المنبَّه عليها. و«الأَزْوَاج» بمعنى: الأنواع، وقوله: [شَتَّى] نعت للأزواج، أي: مختلفات.

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾ بمعنى هي صالحة أن يؤكل منها وترعى الغنم فيها، فأخرج العبارة في صيغة الأمر؛ لأنه أوحى الأفعالِ وأهزُّها للنفس، و[النُّهَى] جمع نُهْيَة، والنُّهْيَةُ: العقل الناهي عن القبائح.

قوله تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، أي: من الأرض، وهذا من حيث خلق آدم عليه السلام من تراب، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ يريد: بالموت والدفن والفَنَاءِ كيف كان، وقوله: ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ﴾ يريد: بالبعث يوم القيامة.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾.

(٢) يقال: نَهَجَ الطريق: بيَّنَه، ويقال: لَحَبَ الطريق: أَوْضَحه وبيَّنه. فمتى (سَلَكَ): أَوْضَحَ وَبيَّنَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ إخبارٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ عن فرعون، وهذا يؤيد أَن الكلام من قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ إنما هو خطاب لمحمد ﷺ، وقوله: [كُلَّهَا] عائد على الآيات التي رآها، لا أنه رَأَى كلَّ آية لله، وإنما المعنى أَن الله أَراه آياتٍ مّا، وهي العصا واليد والطمسة وغير ذلك، وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة، يرى الآية كلَّها كاملة، كأَنه قال: «لقد أَريناهُ آياتنا بكمالها»، وأَضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها. وقوله تعالى: [وَأَبَى] يقتضي تَكَسُّبَ فرعون، وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

هذه المقاولة من فرعون تدل على أَن أَمر موسى عليه السلام قد كان قَوِيَ، وكَثُر مُتَّبِعُوه من بني إِسرائيل، ووقع أَمْرُه في نفوس الناس، وذلك أَنهامُقاولة من يحتاج إلى الحُجَّة لا من يصدع بأَمْر نفسه. وأَرْضُهم هي أَرْضُ مصر.

وقرأَت فرقة: [لا نخلِفُه] بالرفع، وقرأَت فرقة: [لا نُخْلِفْه] بالجزم حملاً على جواب الأَمر، و[نَحْنُ] تأْكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أُكِّد. و[مَوْعِداً] مفعول أَول لـ[اَجْعَلْ]، و[مَكَاناً] مفعول ثانٍ. وهذا الذي اختارَ أَبو علي، ومنع أَن يكون [مَكَاناً] معمولاً لقوله: [مَوْعِداً] لأَنه قد وُصف، وهذه الأَسماءُ العاملةُ عمل الفعل إذا نُعتت أَو عُطف عليها أَو أُخبر عنها أَو صُغِّرت أَو جُمعت وتوغَّلت في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولاَ تَعَلَّق بها شيءٌ هو منها، وقد يُتَوَسَّع في الظروف فتُعلَّق بعد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[1]، فقوله: [إِذْ] معلق بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ وهو قد أُخبر عنه، وإنما جاز هذا في الظَّرف خاصة، وكذلك منع أَبو علي أَن يكون [مَكَاناً] نصب على الظرف السَّادَّ مَسَدَّ المفعول.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (غافر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ومنع قومٌ أَن يكون [مَكَاناً] نصباً على المفعول الثاني بـ[نُخْلِفُهُ]، وجوَّزه كثير من النحاة، ووجهه أَن يتَّسع في أَن يخلف الموعد. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي: [سِوًى] بكسر السِّين، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة: [سُوًى] بضمها، والجمهور نوَّن النون، وقرأَ الحسن: [سِوَى] بكسر السين غير منون الواو، قال أَبو الفتح: «تَرْكُ الصرف هنا مشكل، والذي ينبغي أَن يكون محمولاً على الوقف»[1]، وقرأَت فرقة: [سَوَاءً]، ذكره أَبو عمرو عن ابن أَبي عيلة، ومعنى [سُوًى] أَي: عدْلاً ونَصَفة، قال أَبو علي: فكأَنه قال: مكاناً قريباً منَّا قُرْبه منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإِنما أَراد: حالنا فيه مستوية، فيعُمُّ ذلك الْقُربَ، وأَن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق، أَي: لا تعترضكم فيه الرياسة، وإِنما بقصد الحجة، و[سُوًى] لغةٌ في (سِوًى)، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر:

وَإِنَّ أَبَـــانَـــا كَـــانَ حَـــلَّ بِبَلْـــدَةٍ ... سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيْلانَ وَالْفِزْرِ[2]

وقالت فرقة: معناه: مستوياً من الأَرض لا وَهْدَ فيه ولا نَجْد[3]، وقالت فرقة: معناه: سوًى مكاننا هذا[4].

---

(١) إِنَّما كان ترك الصَّرْفِ مُشْكِلاً لأَنه وصْفٌ على فُعَل، وذلك مصروف عند اللغويين والنحويين، يقال: (مَالٌ لُبَدٌ ـ ورَجُلٌ حُطَمٌ، ودليلٌ خُتَعٌ ـ، «واللبُدُ: الكثير، والحُطَمُ: الظَّلوم، والخُتَعُ: الحاذق في الدلالة».

(٢) البيت لموسى بن جابر الحنفي، قال ذلك في اللسان (سوى)، والرواية فيه: (وَجَدْنا أَبانا...)، والبيت في الطبري، والقرطبي، والبحر، وقد نقل صاحب اللسان عن الأخفش قوله: «سِوًى وسُوًى إذا كان بمعنى (غير) أَو بمعنى العَدْل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضَمَمْتَ السين أو كسرت قصَرْتَ فيهما جميعاً، وإن فتحت مددت، تقول: مكانٌ سِوًى وسُوًى وسواءٌ، أي: عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين» ثم استشهد ببيت موسى بن جابر هذا. ثم نقل عن ابن بَرِّي قوله: «ولم يأت سَواءٌ مكسور السين ممدوداً إِلاَّ في قولهم: هو في سِوَاءِ رأسه، إذا كان في نعمة وخصب». والفِزْرُ هو سعد بن زيد بن مناة، أبو قبيلة من تميم.

(٣) الوَهْد: الأرض المنخفضة، والنَّجْد: الأرض المرتفعة.

(٤) قال أَبو حيان في البحر المحيط: «وليس بشيء؛ لأن (سوى) إذا كانت بمعنى (غير) لا تستعمل إِلاَّ مضافة لفظاً، ولا تنقطع عن الإِضافة».

فقال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، اتَّسع في الظرف من قرأه برفع [يَوْمُ] فجعله خبراً، وقرأ الحسن، والأعمش، والثَّقفي: [يَوْمَ] بالنصب على الظرف، والخبر مقدر، ورُوي أَن يوم الزينة كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً، وصادف يوم عاشوراءَ، وكان يوم سبت، وقيلَ: هو كسر الخليج الباقي إلى اليوم. وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ عطف على [الزِّينَةِ] فهو في موضع خفض، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على تقدير: موعدكم أَن يُحشر، وتعلق عطفه على [يَوْمُ]، وفيه نظر. وقرأ الجمهور: [يُحْشَرَ] برفع الياء، وقرأ ابن مسعود، وأَبو سعيد الخدري: [يَحْشُر] بفتح الياءِ وضم الشين ونصب [النَّاسَ]، وقرأت فرقة: [نَحْشر] بالنون، و«الْحَشْرُ»: الجمع، ومعناه: نحشر الناس لمشاهدة المعارضة والتَّهَيُّؤ لقبول الحق حيث كان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

المعنى: فجمع السَّحرة ووعدهم وأَمرهم بالإِعداد لموسى، فهذا هو كيده، ثم أَتى فرعون بجمعه وأَهل دولته، والسحرة معه، وكانت عصابة لم يخلق الله تعالى أَسْحر منها، وجاءَ أَيضاً موسى عليه السلام ببني إِسرائيل معه، فقال موسى عليه السلام للسَّحرة: [وَيْلَكُمْ]، وهذه مخاطبة مُحَذِّر، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رأَوه، وأَلاَّ يباهتوا بكذب.

وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ونافع، وعاصم[1]، وأَبو عمر، وابن عامر: [فَيَسْحَتَكُمْ] بفتح الياءِ، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [فَيُسْحتكُمْ] بضم الياءِ، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: سَحَتَ وأَسْحَتَ بمعنى: أَهْلَكَ وَأَذْهَبَ، ومنه قول الفرزدق:

---

(١) في راوية أَبي بكر عنه.



وَعَضُّ زَمَانٍ يَا بْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ[1]

فهذا من أَسْحَتَ.

فلما سمع السحرةُ هذه المقالة هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من مهابته رعبٌ شديد، وتنازعوا أَمرهم، و«التَّنازع» يقتضي اختلافاً كان بينهم في السِّر، أَي: قال بعضهم لبعض: هو محق، وقال بعضهم: هو مبطل، وقال بعضهم: إن كان من عند الله فَسَيَغْلِبنا، ونحو هذا من الأَقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا، ومعلوم أَن جميع تناجيهم إنما كان في أَمر موسى عليه السلام، وقالت فرقة: إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَظهر أَنَّ تلك قيلت علانية، ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثَمَّ تنازع، و«النَّجْوى»: السِّرُّ والمُسَارَّةُ، أَي: كان كل رجل منهم يناجي من يليه، ثم جعلوا ذلك سرّاً مخافة فرعون أَن يتبيَّن فيهم ضعفاً؛ لأَنهم حينئذ لم يكونوا مُصَمِّمين على غلبة

---

(١) البيت من قصيدة للفرزدق: (عَزَفْتَ بأَعْشَاشٍ وما كِدْتَ تَعْزِفُ)، وهو في التاج واللسان (جلف وسحت)، وفي مجاز القرآن، وشرح المفضليات، والجمهرة، والخزانة، والطبري، والقرطبي، وقبله يقول الشاعر:

إِلَيْـكَ أَمِيـرَ الْمُـؤْمِنِيـنَ رَمَـتْ بِنَـا هُمُـومُ الْمُنَـى وَالْهَـوْجَـلُ الْمُتَعَسِّـفُ

فقول الشاعر: (وَعَضُّ زمانٍ) مرفوع بالعطف على (هُمُومُ الْمُنَى)، والهوجل: الفلاة التي لا علامات فيها، والمُتَعَسِّفُ: التي يُسَارُ فيها بدون دليل. وعَضُّ الزَّمان: شِدَّتُهُ، والمُسْحَتُ: المُسْتأْصَل الذي لم يبق منه بقية، والمُجَلَّف: الذي ذهب معظمه وبقي منه شيءٌ يسير. وهذا البيت صعبٌ في إعرابه، قال الزمخشري عنه: لا تزال الركب تصطك في تسوية إِعرابه، وقال ابن قتيبة: رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأَتعب أَهل الإِعراب في طلب الحيلة، وقد سأَل عبد الله بن أَبي إِسحق النحوي، سأَل الفرزدق: بِمَ رفعتَ (أَو مُجَلَّفُ)؟ فقالَ: بما يسوءُك وينوءُك، علينا أَن نقول، وعليكم أَن تتأَولوا، والتأْويلات كثيرة: قيل: مُجَلَّفٌ مرفوع على المعنى، أَي مرفوع بفعلٍ محذوف دلَّ عليه (لم يدع)، قال ذلك ابن جني في المحتَسَب، قال: إِن قوله: (لم يدع من المال إلاَّ مسحتاً) دلَّ على أَنه بقي، فأَضمر ما يدل عليه، وهو: بقي مجلَّفُ، وقال ثعلب: (مجلَّف) مستأنف، والتقدير: هو مُجَلَّف، وقال الفارسي: (مجلَّف) معطوف على (عَضُّ)، وهو مصدر جاء على صيغة المفعول، والتقدير: وعضُّ زمانٍ أَو تجليفٌ، وقال الفراءُ: (مجلَّف) مبتدأٌ وخبره محذوف. وهناك إِعرابات أُخرى تعتمد على روايات تختلف الكلمات فيها عما رويناه.



موسى عليه السلام، بل كان ظنًّا من بعضهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ الآية. قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [إِنَّ] مُشَدَّدة النون [هَذَانِ] بألفٍ ونون مخففة للتَّثنية، وقرأ أبو عمرو وحده: [إِنَّ هذين لساحران]، وقرأ ابن كثير: [إِنْ هذانِّ لساحران] بتخفيف نون [إِنْ] وتشديد نون [هَذانِّ لَسَاحِرَانِ]، وقرأ حفص عن عاصم: (إِنْ) خفيفة (هَذَان) خفيفة أيضاً (لَسَاحِرَانِ). وقرأت فرقة: [إِنْ هذانِ إلا ساحران][1]، وقرأت فرقة: [إِنْ ذَانِ لَسَاحِرَانِ][2]، وقرأ فرقة: [مَا هَذَانِ إِلاَّ سَاحِرَانِ]، وقرأت فرقة: [إِنَّ هَذَانِّ] بتشديد النون من [هَذَانِ].

فأَمَّا القراءَة الأولى، فقالت فرقة: [إِنَّ] بمعنى: نعم، كما روي أَنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبة (إِنَّ الحمدُ للهِ) برفع (الحمد)[3]، وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «إِنَّ وراكِبَهَا» حين قال له رجل: لعن اللهُ ناقةً حملتني إليك، ويدخل في هذا التأْويل أَنَّ اللام لا تدخلُ في خبر الابتداء، وهو مما يجوز في الشِّعر، ومنه قول الشاعر:

أُمُّ الْحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ ... تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَهْ[4].

---

(١) وهي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتخريج هذه القراءة كالتخريج الذي سنذكره في الهامش التالي مباشرة.

(٢) [إِنْ] هي المخففة من الثقيلة، و[ذَانِ] مبتدأٌ، و[لَسَاحِرَانِ] الخبر، واللام للفرق بين (إِنْ) النافية و(إِنْ) المخففة من الثقيلة على رأي البصريين، أما الكوفيون فيزعمون أَنَّ (إِنْ) نافية وأَنَّ اللام بمعنى (إِلاَّ).

(٣) روى القرطبي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لا أُحْصي كم سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على مِنْبره: (إِنَّ الحمدُ لله، نحمده ونستعينه)، ثم يقول: (أَنا أفصح قريش كُلِّها، وأَفصحها بعدي أَبان بن سعيد بن العاص). فكأَنه ﷺ يقول: نَعَمْ. الحمد لله... وقد جرت عادة الخطباء في الجاهلية أَن يفتتحوا خطبهم بقولهم: نعم، وقد رُوي كثير من الشعر الذي استعملت فيه (إِنَّ) بمعنى (نعم)، ومن ذلك قول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات:

بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فِي الصَّبَا ... حِ يَلُمْنَنِي وَأَلُومُهُنَّهْ
وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَ ... كَ وَقَدْ كَبِرْتَ فقلت إِنَّهْ

وإِجابة عبد الله بن الزبير لمن لَعَن ناقته: (إِنَّ وراكِبَها) معناها: نعَمْ. ولَعَنَ راكِبهَا.

(٤) ينسب هذا الشعر إلى رؤبة، وهو في ديوانه المسمى: (مجموع أشعار العرب) تحت عنوان: «أبيات مفردات، وهي منسوبة إلى رؤبة بن العجاج»، وقيل: هو لعنترة بن عروس، وقيل: لزيد بن ضبة. وهو في معنى اللبيب، واللسان، والخزانة، وابن عقيل. وأُمُّ الحُلَيْس: كنية امرأَة، وشَهْرَبَةٌ: عجوزٌ كبيرة. والشاهد أَن اللام فيه دخلت على الخبر، ويقول ابن عطية هنا: إنه مما يجوز في الشعر، وكثير من =



وذهبت فرقة إلى أَن هذه الآية بِلُغة بني الحارث بن كعب، وهي إِبْقاءُ أَلف التَّثْنِية في حالي النصب والخفض، فمن ذلك قول الشاعر:

تَـزَوَّدَ مِنَّـا بَيْـنَ أُذْنَـاهُ طَعْنَـةً دَعَتْـهُ إِلـى هَـابِي التُّرَابِ عَقِيـمِ[١].

وقول الآخر:

فَـأَطْرَقَ إِطْـرَاقَ الشُّجَـاعِ وَلَـوْ يَـرَى مَسَـاغـاً لِنَـابَـاهُ الشُّجَـاعُ لَصَمَّمَـا[٢].

= النحويين يرفضون ذلك حتى في الشعر، ويقولون: إن اللام زائدة، أو هي ضرورة هنا، ولا يقاس عليه، وقيل: إنها لام الابتداءِ والتقدير: لهي عجوز، وقد أكثر النحويون من الكلام في هذا البيت، ومثله في هذا قول الشاعر:

خَـالِـي لأَنْـتَ، ومَـنْ جَـرِيـرٌ خـالُـه يَنَـلِ الْعَـلاَءَ وَيُكْـرِمِ الأَخْـوَالا

(١) البيت لهَوْبر الحارثي، قال ذلك في اللسان (هبا) ـ واستشهد به على أن الهَابي من التراب هو ما ارتفع ودَقَّ، وهَوْبَر هذا من بني الحارث الذين يبقون ألف التثنية في حالي النصب والخفض كما ذكر ابن عطية، والشاهد هنا هو إبقاءُ الألف في كلمة (أُذْنَاه) مع أنها مجرورة بالإضافة، واللغة الفصيحة أن يقال: بين أُذنيه، وقال بعض أهل اليمن:

أَيَّ قَلُـوصِ رَاكِـبٍ تَـرَاهَـا طَـارُوا عَـلاهُـنَّ فَطِـرْ عَـلاَهَـا

أي: طاروا عليهن فطر عليها، وقال النحاس: إن هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه أو أمانته كأبي زيد الأنصاري، وأبي الخطاب الأخفش، والكسائي، والفراء. كلهم قالوا هذا على لغة بني الحارث بن كعب، ونقله القرطبي. ومن الشواهد المشهورة في ذلك ما أنشده الجوهري لأبي النجم:

واهـاً لِـرَيَّـا ثُـمَّ واهـاً وَاهَـا هِـيَ الْمُنَـى لَـوْ أَنَّنَـا نِلْنَـاهَـا
يَـا لَيْـتَ عَيْنَـاهَـا لَنَـاوَفَـاهَـا بِثَمَـنٍ نُـرْضِـي بِـهِ أَبَـاهَـا
إِنَّ أَبَـاهَـا وَأَبَـا أَبَـاهَـا قَـدْ بَلَغَـا فـي الْمَجْـدِ غَـايَتَـاهَا

فقد استعمل المثنى بالألف في حالة النصب في قوله: (غَايَتَاهَا)، وكان القياس أن يقول: (غَايَتَيْها) لأنه مفعول الفِعْل (بَلَغَ)

(٢) البيت لِلْمُتَلَمِّس، وهو من قصيدة له يدافع فيها عن نسبه، ويمدح الرجل الغيور على كرامته، وفي مطلعها يقول:

يُعَيِّـرُنِـي أُمِّـي رِجَـالٌ وَلاَ أَرَى أَخـاً كَـرَمٍ إِلاَّ بِـأَنْ يَتَكَـرَّمَـا

والشجاع: الحيَّة، وصمَّمَ الشجاع في عضَّته: نَيَّبَ ولم يترك ما عَضَّه، ومساغ: مَفْعَل من ساغ يسوغ، أي يُسهَلُ فعْله، وهذا البيت يضرب مثلاً للمفكر الذي يتروَّى في الأمور، يقول: إنه أطرق إطراق الحية، ولو أَنه وجد مجالاً لعضَّة نابية لفعَل. والشاهد هنا أنه استعمل المثنى بالألف في حالة الخفض في قوله: (لناباه)، والقياس (لنابيه) وقد روي بها البيت.



وتُعزى هذه اللغة لِكِنَانَة، وتُعزى لِخَثْعم، وقال الفراءُ: الأَلف في [هَذَانِ] دعامةٌ وليست مجلوبة للتثنية، وإنما هي أَلف (هذا) تُركت في حال التَّثْنية، كما نقول: (الذي) ثم في الجمع نزيد نوناً ونترك الياءَ في حال النصب والرفع والخفض، وقال الزجاج: في الكلام ضمير تقديره: إِنَّه هذان لَسَاحران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأْويل دخول اللام في الخبر، وقال بعض النحاة: أَلِف [هَذَانِ] مُشَبَّهَة هنا بأَلف تَفْعلان، وقال ابن كيسان: لما كان [هَذَا] بحال واحدة في رفعه ونصبه وخفضه تركت تثنيته هنا كذلك. وقالت جماعةٌ ـ منهم عائشة رضي الله عنها، وأَبو عمرو ـ: هذا ممَّا لَحَنَ الكاتب فيه وأُقيم بالصواب وهو تخفيف النون من [إِنْ].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال مُعْتَرَضة، إلاَّ ما قيل من أَنها لغة، و[إِنَّ] بمعنى: أَجَل ونعم، أَوْ إِنَّ في الكلام ضمير.

وأَمَّا من قرأَ [إِنْ] خفيفة، فهي عند سيبويه المخففة من الثقيلة ويرتفع بعدها الاسم، ويقول الفراءُ: هي بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلاَّ) وَوَجْه سائر القراءَات بيِّنٌ.

وعبَّر كثير من المفسرين عن «الطريقة» بـ«السَّادة»[1]، وإِنما يراد أَهل العقل والسنِّ والحِجَى، وحُكي أَن العرب تقول: «فلان طريقة قومه»، أَي: سَيِّدهم، والأَظهر في الطريقة هنا أَنها السِّيرة والمملكة والحال التي هم عليها، و[الْمُثْلَى] تأْنيث الأَمْثَل، أَي: الفاضلة الحسنة.

وقرأَ جمهور القراء: [فَأَجْمِعُوا] بقطع الأَلف وكسر الميم، على معنى: اعزموا، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [فَاجْمَعُوا] مِنْ (جَمَعَ)، أَي: ضُمُّوا سحركم بعضه إِلى بعض، وقرأَ ابن كثير: [ثُمَّ] بفتح الميم [ايْتُوا] بسكون الياءِ، وقرأَ أيضاً في رواية شبل عنه: [ثُمِّ ايِتُوا] بكسرهما، قال أَبو علي: وهذا غلط، ولا وجه لكسر الميم من [ثُمَّ]، وقرأَ الجمهور: ﴿ثُمَّ ٱئۡتُوا۟﴾ بفتح الميم وهمزة بعد الأَلف. وقوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ حالٌ،

---

(١) أي: سادة القوم ورؤسائهم.



أي: مُصْطَفِّين، وتداعَوْا إلى هذا لأنه أَهْيَب وأَظهر لهم. و[أَفْلَحَ] معناه: ظفر ببغيته، و[ٱسْتَعْلَى]: طلب العُلُوَّ في أَمره وسَعَى سَعْيَه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾.

خيَّر السَّحرة موسى عليه السلام في أَن يبتدىء بالإلقاءِ أَو يتأَخر بعدهم، ورُوي أَنهم كانوا سبعين أَلف ساحر، ورُوي أَنهم كانوا ثلاثين أَلفاً، ورُوي أَنهم كانوا خمسة عشر أَلفاً، وروي أَنهم كانوا تسعمائة أَلف، ثلاثمائة من الفيوم، وثلاثمائة من الفرما، وثلاثمائة من الإِسكندرية، وكان مع كل رجل منهم حبل وعصي قد استعمل فيها السحر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ﴾ هي للمفاجأَة، كما تقول: خرجتُ فإِذا زيد، وهي التي تليها الأَسماءُ. وقرأَت فرقة: [عِصِيُّهُمْ] بكسر العين، وقرأَت فرقة بضمها، وقرأَ فرقة: [يُخَيَّلُ] على بناءِ الفعل للمفعول، فقوله: [أَنَّها] في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ الحسن، والثقفي: [تُخَيِّلُ] بضم التاءِ المنقوطة من فوق وكسر الياءِ وإِسناد الفعل إِلى الحبال والعِصِيِّ، فقوله: [أَنَّها] في موضع نصب، وقرأَت فرقة: [تَخَيَّلُ] بفتح التاءِ والياءِ وإِسناد الفعل إِلى الحبال والعِصِيِّ، فقوله: [أَنَّها] مفعول من أَجله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أَن الحبال والعِصِيَّ كانت تتحرَّك وتنتقل بِحِيَل السِّحر، وبِدَسِّ الأَجسام الثقيلة الميَّاعة فيها، وكان تحرُّكها يشبه تحرَّك الذي له إِرادة كالحيوان، وهو السَّعْي، فإِنه لا يُوصف بالسَّعْي إِلاَّ من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إِلى أَنها لم تتحرَّك، ولكنهم سحروا أَعين الناس وكان الناظر يُخَيَّل إِليه أَنها تتحرَّك وتنتقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والله أَعلم أَي ذلك كان.



وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عمَّا يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنُّه في أَمرٍ على شيءٍ يسوءُه، وظاهر الأَمر كله الصلاح، فهذا الفعل من أَفعال النفس يسمى الوجيس، وعبَّر المفسرون عن [أَوْجَسَ] بِأَضْمَرَ، وهذه العبارة أَعمُّ بكثير من الوجيس. و[خِيْفَةً] يصح أَن يكون أَصلها «خِوْفَةً» فقلبت الواو ياءً للتناسب، ويحتمل أَن يكون «خَوْفَةً» بفتح الخاءِ، قلبت الواو ياءً ثم كسرت الخاءُ للتناسب. وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أَن يضلُّوا لهول ما رأَى. والأول أَصوب؛ لأَنه أَوجس في نفسه على الجملة وبقي ينتظر الفرج. وقوله: ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَي الغالب لمن ناوأَك في هذا المقام.

وقرأَ جمهور القراء: [تَلَقَّفْ] بالجزم وشدّ القاف على جواب الأَمر، وقرأَ ابن عامر وحده: [تَلَقَّفُ]، وهو في موضع الحال، ويصح أَن يكون من المُلْقِي على الاتساع، ويصح أَن يكون من المُلْقَى وهي العصا، وهذه حالٌ وإِن كانت لم تقع بعد، كقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[1]، وهذا كثير، وقرأَ حفص عن عاصم: [تَلْقَفْ] بسكون الفاء وتخفيف القاف، وأَنَّث الفعل وهو مسند إِلى ما في اليمين من حيث كانت العصا مُرادة بذلك. ورَوى البزي عن قنبل[2] أَنه كان يشدد الفاءَ من [تَلْقَف]، كأَنه أَراد: تتلقف فأَدغم، وأَنكر أَبو علي هذه القراءة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن قارئها إِنما يَلْتَزِمُها في الوصل حيث يستغني عن جلب أَلف، وقرأَ الجمهور: [كَيْدُ] بالرفع، وقرأَت فرقة: [كَيْدَ] بالنصب، وهذا على أَن [مَا] كافةٌ و[كَيْدَ] منصوب بـ[صَنَعُوا]، ورفع [كَيْدُ] على أَن [ما] بمعنى الذي. و[يُفْلِحُ] معناه: يظفر ببغيته، وقالت فرقة: معناه أَن الساحر يقتل حيث ثقف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا جزءٌ من عدم الفَلاَح، وقرأَت فرقة: [أَيْنَ أَتَى]، والمعنى فيهما متقارب.

ورُوي من قصص هذه الآية أَن فرعون لعنه الله جلس في علّية له طولها ثمانون ذراعاً والناسُ تحته في بسيط، وجاء سبعون أَلف ساحر فأَلقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه

---

(١) من الآية (٩٥) من سورة (المائدة).

(٢) في بعض النسخ، «عن ابن كثير».



وِقْر[١] ثلاثمائة بعير، فهال الأمر، ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً، وجعلت تنمو حتى رُوي أنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا يضحك ويرى أن الاستواء حاصل، ثم أقبلت تأكل الحبال والعصي حتى أفنتها، ثم فغرت نحو فرعون، ففزع عند ذلك وقال: يا موسى، فمد موسى عليه السلام يده إليها فرجعت عصاً كما كانت، فنظر السحرة وعلموا الحق ورأوا عدم الحبال والعصى فآمنوا رضي الله عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول، فالمقدَّر من ذلك هنا: «فألقى موسى عصاه فالْتَقَمَتْ كل ما جاءُوا به»، أو نحو هذا، وروي أن السَّحرة لما رأت العصا لا أثر فيها للسِّحر ثم رأت انقلابها حيَّةً وأكلها الحبال والعصيَّ ثم رجوعها إلى حالتها وعدم الحبال والعصي، أيقنوا بنبوَّة موسى عليه السلام، وأن الأمر من عند الله تعالى، وقدّم [هَارُونَ] قبل [مُوسى] لتستوي رؤُوس الآي بنقل معنى قول السحرة، وهذا مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[٢]، فتأخير [شَتَّى] إنما هو لتعتدل رءُوس الآي، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[٣]، فتأخير قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إنما هو لتستوي رءُوس الآي.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وورش عن نافع: [آمَنْتُمْ] على الخبر، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [ءَآمَنْتُمْ] بهمزة بعدها مدَّة، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم [أأمَنْتُمْ] بهمزتين. وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ مُقاربة منه وبعضُ إذعان. وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يريد قطع اليد اليُمْنى مع الرِّجْل الشمال، وقوله: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ اتِّساع من حيث هو مربوط في الجذع، وليست على حدِّ قولك: زيد في

---

(١) الوِقْر: الحِمْل.

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (طه).

(٣) الآية (١٢٩) من سورة (طه).



الدار، ويصلح في هذا المعنى (عَلَى) من حيث هو مربوط في أعلاها، وليست على حدِّ قولك: ركبتُ على الفرس، وقوله: [أَيُّنَا] يريد نفسَه وربَّ موسى عليه السلام، وقال الطبري: يريد نفسَه وموسى عليه السلام، الأول أذهب مع مخرقة فرعون[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

قال السَّحرة لفرعون لمَّا توعَّدهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾، أي: لن نفضِّلك ونفضِّل السلامة منك على ما رأَينا من حُجَّة الله تعالى وآياته المبينات وعلى الذي فطرنا، هذا على قول جماعة إن الواو في قوله: [وَٱلَّذِي] عاطفة، وقالت فرقة: هي واو القسم، و[فَطَرَنَا] معناه: خلقنا واخترعنا، فافعل يا فرعون ما شئت، وإنما قضاؤُك في هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراءِ ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس هل نفذ فيهم وعيد فرعون؟ فقالت طائفة: صلبهم على الجذوع كما قال، فأَصبح القوم سحرةً وأَمسوا شهداءَ بلُطْف الله ورحمته، وقالت فرقة: إن فرعون لم يفعل ذلك، وقد كان الله تعالى قد وعد موسى عليه السلام أنه ومن معه الغالبون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله محتمل، وصَلْب السَّحرة وقَطْع أَيديهم لا يدفع في أَن موسى عليه السلام ومن معه غَلَب إلاَّ بظاهر العموم، والانفصال عن ذلك بيِّن.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، قالت فرقة: أَرادوا ما ضمهم إليه من معارضة موسى عليه السلام وحملهم عليه من ذلك، وقالت فرقة: بل كان فرعون قديماً يأْخذ ولدان الناس بتعليم السِّحر ويجبرهم على ذلك، فأَشار السَّحرة إِلى ذلك. وقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ردٌّ على قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

---

(١) المَخْرقة: الجهل والحمق.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قالت فرقة: هذه الآية بِجُمْلَتِها هي من كلام السَّحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان فيما فعلوه، وقالت فرقة: بل هي من كلام الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ تنبيهاً على قُبْح ما فعل فرعون، وحُسْن ما فعل السحرة، وموعظة وتحذيراً، وقد تضمنت القصة المذكورة مثاله والمجرم الذي اكتسب الجرائم والخطايا. وقوله: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ مختصٌّ بالكافر، فإنه معذب عذاباً ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجهز عليه فيستريح، بل يُعَادُ جِلْدهُ ويُجَدِّدُ عذابُه، فهو لا يحيا حياةً هنية، وأَما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أَن تخرجهم الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت إلاَّ أَنهم لا يُجهز عليهم ولا يُجدَّد عذابهم، فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار، وفي الحديث الصحيح أَنهم يموتون إماتة، وهذا هو معناها، لأَنه لا موت في الآخرة.

و«الدَّرَجَاتُ الْعُلَى» هي القربُ من الله تعالى، و[تَزَكَّى] معناه: أَطاع الله وأَخذ بأَزْكَى الأُمُور، وتأَمَّل التكسُّب في لفظة [تَزَكَّى] فإِنَّهُ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾.

هذا استئناف إخبار عن شيءٍ من أَمر موسى، بينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدث فيها لموسى وفرعون حوادث، وذلك أَن فرعون لما انقضى أَمر السحرة وغَلَب موسى وقوي أَمره، وعَدَهُ فرعون أَن يرسل معه بني إسرائيل، فأَقام موسى عليه السلام على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأَعلمه أَنه لا يرسلهم معه، فبعث الله تعالى حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآية: الجراد والقُمَّل إلى آخرها، وكلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب، فإذا انكشف العذاب نكث حتى تأْتي أُخرى، فلمَّا كانت الآيات أَوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أَن يخرج ببني إسرائيل من مصر في الليل سارياً، و«السُّرَى»: سير اللَّيل، و[أَنْ] في قوله تعالى:

﴿أَنْ أَسْرِ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾[1]، ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال، وتكون في موضع نصب بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. وقوله: ﴿بِعِبَادِى﴾ إضافة تشريف لبني إسرائيل، وكل الخلق عباد الله، ولكن هذا كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2].

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لمَّا أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حلياً وثياباً، ويروى أن موسى عليه السلام أذن لهم في ذلك وقال لهم: إنَّ الله سينفلكموها، ويروى أنهم فعلوا ذلك دون رأيه، وهو الأشبه به ﷺ، وسيأتي في جمع الحليِّ ما يؤيد ذلك، ويروى أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختمر، فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج، فطبخوه فطيراً، فهي سُنَّتهم في ذلك الوقت من العام إلى هُلمَّ، ويُروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائه ألف إنسان، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم، فاتصل الخبر بفرعون، فجمع جنوده وحشرهم ونهض وراءَه، فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر، فجزع بنو إسرائيل، رأوا أن العدو من ورائهم والبحر أمامهم، وموسى عليه السلام يثق بصنع الله تعالى. ، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم، وكان مقصدهم إلى موضع تنقطع فيه الفحوص[3] والطرق الواسعة. واختلف الناس في عدد جنود فرعون ـ فقيل: كان في خيله سبعون ألف أدهم، ونسبة ذلك من سائر الألوان، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلَّة صحته، فلما وصل موسى إلى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، ويُروى أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً بمصر، وهو ظاهر الآية، ويروى أنه إنما أُوحي إليه بذلك في موطن وقوعه، واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأُمور إلى بعض، فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرق اثنتي عشرة فرقة، طُرُقاًواسعة بينها حيطان ماءٍ واقف، فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصَّبا فجففت تلك الطرق حتى يبست، ودخل بنو

---

(١) من الآية (٦) من سورة (ص).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحجر) وتكررت في الآية (٧٢) من سورة (ص).

(٣) فَحَصَ الأرض: حفرها.

إسرائيل، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر، فرأى الماءَ على تلك الحال، فجزع قومه واستعظموا الأَمر، فقال لهم لعنه الله: إنما انفلق من هيبتي، وهاهنا كمال إِضلاله لهم، وحمله الله على الدخول، وجاءَ جبريل عليه السلام راكباً على فرس أُنثى فاتَّبعها فرس فرعون، وتابعه الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم، وسمع بنو إسرائيل انطباق الماءِ وهم قد خرجوا بأَجمعهم من البحر فعجبوا، فأَخبرهم موسى عليه السلام أَن فرعون وقومه قد هلكوا فيه، فطلبوا مصداق ذلك فلفظ البحر الناس، وأَلقى الله تعالى فرعون على نجوة من الأَرض بِدرْعه المعروفة له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب أَلفاظها، وقد مضى أَمر فرعون بأَوعب من هذا في موضع اقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿يَبَسًا﴾ مصدر وصف به، وقرأَ بعض الناس: [يابساً]، وأَشار إِلى ذكره الزجاج، وقرأَ حمزة وحده: [لاَ تَخَفْ] إِمَّا على جواب الأَمر، وإِمَّا على نَهْي مستأْنف، وقرأَ الجمهور: [لا تخاف] على أَن يكون حالاً من موسى عليه السلام، ويحتمل أَن يكون صفة للطريق على تقدير: لا تخاف فيه، أَي يكون بهذه الصفة، ومعنى هذا القول: لا تخاف دركاً[1] من فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً من البحر. وقرأَ أَبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [فَاتَّبَعَهُمْ] بشدِّ التَّاءِ، وتَبِع واتَّبع إِنما يتعدى إِلى مفعول واحد، كقولك: شويت واشتويت، وفديتُ وافتديت، وحفرت واحتفرت. وقوله: [بِجُنُودِهِ]، إِمَّا أَن تكون الباءُ مع ما جُرَّ بها في موضع الحال، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وإِمَّا أَن يكون لتعدي الفعل إِلى مفعول ثانٍ إِذْ لا يتعدى دون حرف جرٍّ إِلاَّ إِلى واحد. وقرأَ الجمهور: [فَأَتْبَعَهُمْ] بسكون التاءِ، وهذا يتعدى إِلى مفعولين، فالباءُ ـ على هذا ـ إِمَّا زائدة، والتقدير: فأَتْبعهم فرعونُ جنودَه، وإِمَّا أَن تكون باءَ الحال، ويكون المفعول الثاني مقدراً، كأَنك قلت: رُؤَسَاءَه أَو عزمه، ونحو هذا، والأول أَظهر[2]. وقرأَت فرقة: [فَغَشِيَهُمْ]، وقرأَت فرقة: [فَغَشَّاهُمُ اللهُ]. وقوله: ﴿مَا

---

(١) الدَّرَكُ والدَّرْك: اسمان من الإدراك، وقد قرىء أيضاً بسكون الدال كما قرىء بفتحها.

(٢) وأَتْبَع ـ بسكون التاء ـ قد يكون بمعنى (تَبِعَ). فيتعدى إلى واحد فقط، كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

غَشِيَهُمْ﴾ إيهامٌ أَهْوَلُ من النَّصِّ على قَدْرٍ مَا، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ثم أكَّد تعالى بقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ مقابلة لقول فرعون لعنه الله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

ظاهر هذه الآيات أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النِّعم التي عددها الله تعالى عليهم، وبَيْن خروجهم من البحر وبيْن هذه المقالة مُدَّةٌ وحوادث، ولكن يخص الله بالذكر ما يشاءُ من ذلك. ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها مُعَاصروا رسول الله ﷺ، فالمعنى: هذا فعلنا بأَسلافكم، ويكون قوله سبحانه [كُلُوا] بتقدير: قيل لهم: كُلُوا، وتكون الآية ـ على هذا ـ اعتراضاً في أَثناء قصة موسى عليه السلام القَصْدُ به توبيخ هؤلاء الحضور إِذْ لم يصبر سَلَفهم على أَداءِ شكر نعم الله تبارك وتعالى، والمعنى الأَول أَظهر وأَبين.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأَبو عمرو: [أَنْجَيْنَا ـ وَوَاعَدْنَا ـ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ ـ وَرَزَقْنَاكُمْ]، إِلاَّ أَن أَبا عمرٍو قرأَ: [وَعَدْنَاكُمْ] بغير أَلف في كل القرآن(٣)، وقرأَ حمزة، والكسائي: [أَنْجَيْتُ ـ وَوَاعَدْتُ ـ وَنَزَّلْتُ ـ وَرَزَقْتُكُمْ]. وقوله: [وَوَاعَدْنَاكُمْ] قيل: هي لغةٌ في (وَعَدَ) لا تقتضي فِعْل اثنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِن حُمِلَتْ على المعهود فَلأَنَّ التَّلَقِّي والعهد والعزم على ذلك يقوم مقام المُوَاعَدة.

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (النجم).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (غافر).

(٣) اختار أَبو عبيد هذه القراءة؛ لأَن الوَعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة، و«المُوَاعَدةُ» لا تكون إلا من اثنين، وابن عطية يردُّ على هذا حين ينقل عن بعضهم أن (وَاعَدَ) لغة في (وَعَدَ)، وحين يقول: إن التَّلقي والعزم على العهد يقوم مقام المواعدة.



وقصص هذه الآية أَن الله تعالى لمَّا أَنْجى بني إسرائيل، وَغرِقَ فرعونُ، وَعَدَ سبحانه وتعالى بني إِسرائيل وموسى عليه السلام أَن يسيروا إِلى جانب طور سيناءَ ليكلِّم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأَوامرهم ونواهيهم، فلمَّا أَخذوا في السَّيْر تعجَّل موسى عليه السلام لِلقاءِ ربِّه حسبما يأْتي ذكرُه بعد.

وقالت فرقة: هذا الطُّور الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى أَولاً حيث رأَى النَّار وكان في طريقه من الشام إِلى مصر، وقالت فرقة: ليْس به، و«الطُّور»: الجبل الذي لا شَعْرَاءَ فيه[١]، وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ إِمَّا أَن يريد به اليُمْن، وإِمَّا أَن يريد به اليمين فالإِضافة إِلى «ذي يَمِين»، إِنْسان أَو غيره. و«ٱلْمَنُّ والسَّلْوَى» طعامهم، وقد مضى في سورة البقرة استيعاب تفسيرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ يريد الحلال المِلْكَ؛ لأَن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما، واختلف الناسُ ما المقصود الأَول بلفظ «الطَّيِّب» في القرآن ـ فقال مالك رحمه الله: الحلال، وقال الشافعي رحمه الله: ما يطيب للنفوس، وساق إِلى هذا الخلاف تَفَقُّههم في الخَشَاش[٢] والمستقذر من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ معناه: تتعدون الحدَّ وتَتَعَسَّفُونَ كالذي فعلوا. وقرأَ جمهور الناس: [فَيَحِلَّ] بكسر الحاءِ، و[يَحْلِلْ] بكسر اللام، وقرأَ الكسائي وحده[٣]: [فَيَحُلَّ] بضم الحاءِ، و[يَحْلُلْ] بضم اللام، ومعنى الأَول: فيجب ويحقُّ، ومعنى الثاني: فيقع وينْزِل. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ معناه: سقط من عُلُوٍّ إِلى سُفْل، ومنه قول خُنَافر:

* فهَوَى هُوِيَّ ٱلْعُقَاب *[٤]

---

(١) الشَّعْرَاءُ: الأَرض أَو الروضة الكثيرة الشجر. (المعجم الوسيط).

(٢) الخَشَاش: حشرات الأَرض، وفي الحديث الشريف: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض).

(٣) لعله يريد: من السبعة، فقد ذكرت كتب التفسير أنها قراءة قتادة، وأبي حيوة، والأعمش، وطلحة.

(٤) قال الصاغاني: خُنافر مثل عُلابط اسم كاهن، وهو خنافر بن التَّوأم الحميري، وفي اللسان «هَوَى بالفتح يَهْوِي هَوِيّاً وهُوِيّاً: سقط من فوق إلى أسفل، وهوى العُقَاب تهْوِي هُوِيّاً إذا انقضت على صَيْد أو غيره ما لَمْ تُرغِه، فإذا أراغته قيل: أهْوَتْ له إهواءً، قال زهير:

أَهْــوَى لَهَــا أَسْفَــعَ الْخَــدَّيْــنِ مُطَّــرِقٌ ... رِيشُ الْقَــوَادِمِ لَــمْ يُنْصَــبْ لَــهُ الشَّبَــكُ =



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن لم يكن سقوطاً فهو تشبيه بالسَّاقط، والسُّقوط حقيقة قول الآخر:

. . . . هَــوِيَّ الــدَّلْــوِ أَرْسَلَــهُ الــرِّشَــاءُ[1]

وشبَّه الذي يقع في طامَّة أَو ورطة بعد أَن كان بنجوة منها بالساقط، فالآية من هذا، أَي: هوى في جهنم وفي سخط الله، وقيل: أُخذ الفعل من الهاوية وهي قعر جهنم.

ولما حذَّر الله تبارك وتعالى غضبه والطُّغيان في نعمه فَتَح باب الرَّجاءِ للتَّائبين، والتوبة فرضٌ على جميع الناس لقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] [النور: ٣١]، والناس فيها على مراتب: أَمَّا مُواقع الذَّنب وقدرته على ذلك باقية فتوبتُه النَّدمُ على ما مضى والإِقلاع التَّام عن مثله في المستقبل، وأَمَّا الذي واقَعَ الذَّنب ثمَّ زالت قُدرته على ذلك مِمَّن شَيَّخَ أَو بآفة فتوبته النَّدم واعتقاد التَّرك إِن لو كانت قُدرة، وأَمَّا من لم يُواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب، والتوبةُ من ذنب تصحُ مع الإِقامة على غيره، وهي توبة مقيَّدة، وإِذا تاب العبد ثم عاود الذَّنب بعينه بعد مُدَّة فيحتمل حُذَّاق أَهل السُّنَّة أَلاَّ يعيد الله تعالى عليه الذَّنب الأَول؛ لأَن التَّوبة كانت محضة، ويحتمل أَن يعيده لأَنها توبة لم يُوَفَّ بها.

واضطرب الناس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ من حيث وجدوا الهُدى ضِمْنَ الإِيمان والعمل ـ فقالت فرقة: معناه: ثُمَّ لزم الإِسلام حتَّى يموت عليه، وقالت فرقة: معناه: لم يشك في إِيمانه، وقالت فرقة: معناه: ثم استقام، وقالت فرقة: ثم أَخذ بِسُنَّة

= والإراغة أن يذهب الصيد هكذا وهكذا والعُقابَ تَتْبعه» والشاهد أن الهُوِيَّ والهَوِيُّ هو السقوط من أعلى إلى أسفل.

(١) هذا عجز بيت، ذكره صاحب اللسان في (هَوَى) شاهداً على أن الهَوِيَّ بفتح الهاء إلى أسفل، وبضمها إلى فوق، يقال: هَوَى هَوِيّاً بالفتح إذا هبط، وهَوَى هُوِيّاً بالضم إذا صعد، ثم استشهد به مرة أخرى على أن الهُوِيَّ بالضم هو العَدْوُ السريع، يقال: هَوَت الناقة هُوِيّاً إذا عَدَتْ عدواً شديداً أرفع العَدْوِ، والبيت بتمامه:

فَشَــدَّ بِهَــا الأَمَــاعِــزَ وَهِــيَ تَهْــوِي ... هُــوِيَّ الــدَّلْــوِ أَرْسَلَــهُ الــرِّشَــاءُ

ويروى: أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ، وهي رواية اللسان، والرِّشاءُ: حبل الدَّلو الذي يحمله إلى أسفل وإلى أعلى. والدَّلْوُ تُذَكَّر وتُؤَنَّث، والتأنيث أعلى وأكثر، هذا ولم ينسب صاحب اللسان البيت لأحد.

(٢) من الآية (٣١) من سورة (النور).



نبيِّه ﷺ، وقالت فرقة: معناه: ثم أَصاب العمل، وقالت فرقة: معناه: ثمَّ عرف أمر مَشيبه، وقالت فرقة: معناه: والىٰ أَهلَ البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها تخصيص واحد منها دون ما هو من نوعه بعيدٌ ليس بالقوي، والذي يقوى في معنى ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ أَن يكون: ثم حفظ معتقداته من أَن يخالف الحق في شيءٍ من الأَشياء، فإِن الاهتداءَ ـ على هذا الوجه ـ غير الإِيمان وغير العمل، ورُبَّ مؤمن عمل صالحاً قد أَوبقه عدم الاهتداءِ كالقدرية والمُرْجِئة وسائر أَهل البِدع والخوارج، فمعنى ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾: ثُمَّ مَشَى في عقائد الشَّرع على طريق قويم، جعلنا الله تعالى منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي حفظ المعتقدات ينحصر عُظْم أَمر الشَّرع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ ﴾.

قصص هذه الآية أَن موسى عليه السلام لمَّا شرع في النُّهوض ببني إِسرائيل إِلى جانب الطُّور الأَيمن حيث كان الموعد أَن يكلم الله موسى بما فيه لهم شرف العاجل والآجل، رأَى ـ على جهة الاجتهاد ـ أَن يتقدم وحده مبادرةً إِلى الله عزَّ وجلَّ، وحرصاً على القرب، وشوقاً إِلى مناجاته، واستخلف هارون عليه السلام على بني إِسرائيل، وقال لهم موسى عليه السلام: تسيرون إِلى جانب الطُّور، فلمَّا انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه، زاده في الأَجل عَشْراً، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القيام ليخبره موسى أَنهم على الأَثر فيقع الإِعلام له بما صنعوا.

وقرأَت فرقة: [أُولاَءِ]، وقرأَت فرقة أُخرى: [أُولاَيَ] بفتح الياءِ[1]، وقوله: [على

---

(١) حكى ذلك الفراءُ، وقال الزجاج: إِنَّ هذا لا وَجْه له، قال النحاس: وهو كما قال؛ لأَن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَايَ، ولا يخلو من إِحدى جهتين: إِما أَن يكون مبهماً فإِضافته محال، وإِما أَن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أَيضاً؛ لأَن ما بعده من تمامه وهو معرفة. =



أثري] يحتمل أَن يكون في موضع رفع خبراً بعد خبر، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب على الحال، وقرأَت فرقة: (عَلَى أَثَرِي) بفتح الهمزة والثاءِ، وقرأَت فرقة: [على إثري] بكسر الهمزة وسكون الثاءِ.

وأَعلمه موسى عليه السلام أَنه إنما استعمل طلب الرِّضا، فأَعلمه الله تعالى أَنه قد فَتَنَ بني إِسرائيل، أَي اختبرهم بما صنع السَّامري، ويحتمل أَن يريد: أَلقيناهم في فتنة، أَي في مَيْل مع الشهوات، ووقع في اختلاف كلمة، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أَي من بعد فراقك لهم. وقرأَت فرقة: [وأَضلهم السامري] بإِسناد الفعل إِلى السَّامري، وقرأَت فرقة: [وأَضلُّهم السامريُّ] بضم اللام على الابتداء والخبر عن السَّامريِّ أَنه أَضَلُّ القوم.

و«السَّامِرِيُّ» رجلٌ من بني إِسرائيل، ويقال: إِنه كان ابن خال موسى عليه السلام، وقالت فرقة: لم يكن من بني إِسرائيل، بل كان أَصْله من العجم من أَهل كرمان، والأَول أَصح، وكان من قصص السَّامري أَنه كان منافقاً عنده حِيَلٌ وسحرٌ، وقبض القبضة من أَثر جبريل عليه السلام، وعلم بما أَقدره الله عليه لِفِتْنَةِ القوم أَنه يتهيَّأُ له بتلك القبضة ما يريد مما يخور على الله تعالى، لأَنه لو ادَّعى النبوَّة مع ذلك العجل لما صحَّ ولا جاز أَن يخور ولا أَن تتم الحيلة فيه، لكنه لمَّا ادَّعى له الربوبية وعلامات كذِبه قائمة لائحة صحت الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى، كقصة الدَّجَّال الذي تخرق له العادات لأَنه مدعي الربوبية، ولو كان مدعي النبوة لما صحَّ شيءٌ من ذلك. فلمَّا رأَى السَّامري موسى قد غاب ورأَى بقية بني إِسرائيل في طلبهم من موسى آلهة حين مروا على قوم يعبدون أَصناماً على صفة البقر ـ وقيل: كانت بقراً حقيقية ـ علم أَنه سيفتنهم من هذا الطريق، فيروى أَنه قال لهم: إِنَّ الحليَّ الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حَبسُه، ولكنِ أجمعوه عندي حتى يحكم الله لكم فيه، ويروى أَن هارون عليه السلام أَمر بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيءَ موسى ويستأْذن فيه ربَّه، وقيل: بل كان المال الذي جمعوه للسَّامري ممَّا لَفَظَ البحرُ من أَموال القبط الغارقين مع فرعون، فيروى ـ مع هذا الاختلاف ـ أَن الحليَّ اجتمع عند السَّامري، وأَنه صنع العجل وأَلقى القبضة فيه فَخَار. ورُوي ـ وهو الأَصحُّ والأَكثر ـ أَنه أَلقى الناس الحلي في حفرة أَو نحوها، وأَلقى هو

= هذا وأهل الحجاز يقولون: «أَولاءِ» ممدودة، وبنو تميم يقولون: «هُمْ أُولى» مقصورةً مرسلة، حكى ذلك عيسى.



عليهاالقبضة فتجسَّد العجل، وهذا هو وجْه فتنة الله تعالى لهم، وعلى هذا نقول: انخرقت للسَّامريِّ عادة، وأَما على أَن يصوغه فلم ينخرق له عادة، وإِنما فُتنوا حينئذ بِخُواره فقط، وذلك الصوت قد يولد في الأجرام بالصنعة، فلما أَخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما وقع رجع موسى إِلى قومه غضبان أَسفاً عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم.

وقوله: ﴿أَسَفًا﴾ أَي حزيناً، من حيث علم أَنه موضع عقوبة لا يَدَ له بِدَفْعِها، ولا بُدَّ منها، و«الأَسَفُ» في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب، ومتى كان من الأَقل على الأَقوى فهو حُزْن، وتأَمَّل ذلك فهو مُطَّرد إِن شاءَ الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

وبَّخ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة، و«الْوَعْدُ الْحَسَن» هو ما وعدهم من الوصول إِلى جانب الطُّور الأَيمن، وما بعد ذلك من الفُتوح في الأَرض، والمغفرة لمن تاب وآمن، وغير ذلك مِمَّا وَعَدَ الله به أَهل طاعته. وقوله: وَعْداً إِمَّا أَن يكون نصباً على المصدر والمفعول الثاني مُقَدَّر، وإِمَّا أَن يكون بمعنى الموعود ويكون هو المفعول الثاني بعينه.

ثم وقفهم على أَعذارٍ لم تكن ولا تصحُّ لهم، وهي طول العهد حتى يتبيَّن لهم خلف في الموعد، وإِرادة غضب الله تعالى، وذلك كلُّه لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتديَّن. وسُمِّي العذاب غضباً من حيث هو ناشىءٌ عن الغضب، والغضبُ إِنْ جُعل بمعنى الإِرادة فهو صفةُ ذات، وإِن جُعل ظهور النقمة والعقاب فهو صفة فعل، فهو من التردد بين الحالين.

وقرأَ نافع، وعاصمٌ: [بِمَلْكِنَا] بفتح الميم، وقرأَ حمزة، والكسائي: [بِمُلْكِنَا] بضمها، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [بِمِلْكِنَا] بكسرها، قال أَبو علي: هذه لغات.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ظاهر الكلام أنها بمعنى واحد، ولكن أَبا علي ـ وغيره ـ فرَّق بين معانيها، فأَمَّا ضم الميم فمعناه ـ على قول أَبي علي ـ لم يكن لنا مُلْك فنُخلف موعدك بقوته وسلطانه، وإنما أَخلفناه بنظر أَدَّى إليه ما فعل السَّامري، وليس المعنى أَن لهم مُلْكاً، وإنما هو كقول ذي الرُّمَّة :

لاَ يُشْتَكَى سَقْطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ بِهاَ الْمَفَاوِزَ حَتَّى ظَهْرُهَا حَدِبِ[1]

أَي: لا يكون منها سَقْطَةٌ فَتُشْتَكى، قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[2]، أَي: ليس منهم سؤال فيكون منهم إِلْحاف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كلُّه في هذه الأَمثلة غير متقن من قول أَبي علي، وإنما مشى في ذلك أَثر الزجاج دون تعقب، وقد شرحتُ هذا المعنى في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وتبين أَن هذه الآية ليست كهذه الأَمثلة لأَنهم لم يرفعوا الاختلاف، والأَمثلة فيها رفع الوجهين[3].

---

(١) البيت من قصيدته التي مطلعها: «ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكبُ»، والتي اختارها أبو زيد القرشي ضمن المُلْحَمات السبع في الجمهرة، والسقطة: السقوط والعثرة. والمفاوز: جمع مفازة وهي الصحراءُ التي لا ماء فيها، وقالوا: إذا عبرها الإنسان فقد فاز، والحَدَبُ: خروج الظهر ودخول البطن والصدر، والبيت في وصف ناقته، وهو ضمن أبيات طويلة تكلم فيها عن ناقته التي صحبته في سيره الطويل بالصحراء، والشاهد أن النفي في البيت منصب على السقوط فلا تكون هناك شكوى، كما أن النفي في الآية الكريمة منصب على السؤال فلا يكون هناك إلحاف. هكذا قال الزجاج وتبعه أبو علي، لكن ابن عطية لا يقبل هذا الفهم، وقد شرحه في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

(٢) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة).

(٣) راجع المجلد الثاني ص٩١ وما بعدها. وخلاصة الكلام الذي هناك أن الزجاج يقول: «لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف، وهذا كما قال امرؤ القيس:

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا

وقول زهير:

قِفْ بِالطُّلُولِ التي لَمْ يُعْفِهَا الْقِدَمُ بَلَى، وَغَيَّرَهَا الأَرْوَاحُ وَالدِّيَمُ

بمعنى أنه ليس هناك منارٌ فلا يكون هناك اهتداءٌ، وليس هناك قِدَم فلا يكون هناك عَفَاءٌ»، وعلَّق ابن=



وأَما فتح الميم فهو مصدرٌ من مَلَك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأَنَّا ملكنا الصواب ولا وُفِّقنا له، وإِنما غَلَبتنا أَنفسنا.

وأَمَّا كسر الميم فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأُمور التي يُبْرمها الإِنسان، ومعناها كمعنى التي قبلها، والمصدر مضاف في الوجهين إِلى الفاعل، والمفعول مُقَدَّر، أَي: بِمَلْكِنَا الصواب، وهذا كما قد يضاف أَحياناً إِلى المفعول والفاعلُ مُقدَّر، كقوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾[2].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [حُمِّلْنَا] بضم الحاءِ وشدِّ الميم، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [حَمَلْنَا] بفتح الحاءِ والميم[3]. و«الأَوْزَارُ»: الأَثقال، ويحتمل أَن تكون هذه التسمية من حيث هي ثقيلة الأَجرام، ويحتمل أَن تكون من حيث تأَثَّمُوا في قذفها وظهر لهم أَن ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها. وقوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أَي: فكما قذفنا نحن فكذلك أَلقى السَّامريُّ ما كان بيده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَلفاظ تقتضي أَن العِجْل لم يصفه السَّامري.

ثم أَخبر الله تعالى عن فعل السامريِّ بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾، ومعنى

= عطية على ذلك بأَنه إِذا أَراد الزجاج أَنه لا يكون منهم سؤال البَتَّة فهذا لا تعطيه أَلفاظ الآية، وأَن المعنى في بيت امرىء القيس أَنه لا يُهْتدى بالمنار وإِن كان المنار موجوداً وفي بيت زهير ينتفي العَفَاءُ وإِن وُجِدَ القِدَمُ..» لأَن نفي الإِلحاف لا ينفي السؤال، والشعر المذكور ينتفي فيه الأَمر الأَول لعدم وجود الثاني. وراجع أَيضاً تعليقنا رقم (٢) ص٤٧٢ من نفس الجزء.

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص).

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة (فصلت): ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

(٣) قال ابن خالويه: «الحجة لمن شدَّد أَنه جعل الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله، ودلّ عليه بضم أَوله، وكان أَصله: ولكنا حمَّلنا السامريَّ، فلما خُذل الفاعل أُقيم المفعول مقامه، فرُفع؛ لأَن الفعل الذي كان حديثاً عن الفاعل صار عن المفعول فارتفع، والحجة لمن خفَّف أَنه أَرادهم بالفعل، وجعل النون والأَلف المتصلين به في موضع رفع»، أَي: على أَنه فاعل.



[جَسَداً] أي شَخْصاً لا روح فيه، وقيل: معنى [جَسَداً]: لا يتغذّى، و«الخُوَارُ»: صوتُ البقر، وقالت فرقة: كان هذا العجل يخور ويمشي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهكذا تكون الفتنة من قِبَلَ الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: إنما كان خواره بالرِّيح، كانت تدخل من دُبره وتخرج من فمه فيصوت لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

الضمير في قوله: [فَقَالُوا] لبني إسرائيل، أي: ضلُّوا حين قال كبارهم لصغارهم، و[هَذَا] إشارة إلى العجل، وقوله تعالى: [فَنَسِيَ] يحتمل أن يكون من كلام بني إسرائيل، أي: فنسي موسى عليه السلام ربّه وإلهه وذهب يطلبه في غير موضعه، ويحتمل أن يكون [فَنَسِيَ] إخباراً من الله تعالى عن السَّامري أنه نسي دينه وطريق الحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالنسيان في التأويل الأول[1] بمعنى الذُّهول، وفي الثاني بمعنى الترك.

ثم قرن الله تعالى موضع خطابهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، والمعنى: أفَلَم يتبيَّن هؤلاء الذين ضلُّوا أن هذا العجل إنما هو جماد لا يتكلم ولا يرجع قولاً ولا يضر ولا ينفع؟ وهذه خلال لا يخفى معها الحدوث والعجز؛ لأن هذه الخلال لو حصلت له أوجبت كونه إلهاً. وقرأت فرقة: ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ﴾ بضم العين، و[أَنْ] ـ على هذه القراءة ـ مخففة من الثقيلة، والتقدير: أنه لا يرجع، وقرأت فرقة: ﴿أَلَّا يَرْجِعَ﴾[2]، و[أَنْ] ـ على هذه القراءة ـ هي الناصبة.

وأخبر عزَّ وجلَّ أن هارون عليه السلام قد قال لهم في أول حال العجل: إنماهو فتنة وبلاءٌ وتمويه من السَّامري، وإن ربكم الرَّحْمنُ الذي له القدرةُ والعِلْم والخَلْق

(١) في بعض النسخ: «في هذا التأويل».
(٢) أي: بالنصب، والرؤية في قراءة النصب بصرية، أما على قراءة الرفع في بمعنى العلم والظن.



والاختراع، فاتَّبعوني إلى الطُّور الذي واعدكم الله تعالى إليه، وأَطيعوا أَمري فيما ذكرته لكم، وقرأَت فرقة: [إِنَّما] [وإن ربكم الرحمن] بكسر الهمزتين، وقرأَت فرقة: [أَنَّما] [وَأَنَّ] بفتح الهمزة، وقرأَت فرقة: [إِنَّما] بالكسر و[أَنَّ] بالفتح، والقراءَة الوسطى ضعيفة.

فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون عليه السلام وندَبهم إلى الحق: لن نبرح عابدين لهذا الإله، عاكفين عليه، أَي: ملازمين له، و«العكوف»: الانحناءُ على الشيء من شدة ملازمته، ومنه قول الراجز:

* عَكَفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَنْزَجَا *[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذُكر تقديره: فرجع موسى عليه السلام فوجد الأَمر كما ذكر الله تعالى له، فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة. وقرأَ الجمهور: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ ﴾ بحذف الياء، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو بإِثباتها في الوصل، ويقف ابن كثير بالياءِ وأَبو عمرو بغير الياءِ. ويحتمل قوله: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ ﴾ أَي ببني إسرائيل نحو جبل الطُّور، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إِني لو فعلت ذلك مشت معي طائفة وأَقامت طائفة على عبادة العجل، فتفرق الجمع، فخفتُ لومك على التفريق. ويحتمل قوله: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ ﴾ أَي أَلاَّ تسير بسيرتي وعلى طريقتي في الإِصلاح والتسديد، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إِنَّ الأَمر كان متفاقماً، فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفريقاً بين بني إِسرائيل، وإِنما لايَنْتُ جهدي.

---

(١) البيت للعجاج يصف ثوراً، وهو في اللسان (عكف ـ فنزج)، قال: «عكف على الشيء يعكُف ويعكِف عكفاً وعكوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه، وقيل: أقام. . . قال العجاج يصف ثوراً:

فَهُـنَّ يَعْكُفْـنَ بِـهِ إذا حَجَـا
عَكَـفَ النَّبِيـطِ يَلْعَبُـونَ الفَنْـزَجَـا

أي: يُقْبِلْنَ عَلَيهِ». والنَّبِيط: جيل ينزلون السواد، وهم الأَنباط. والفَنْزَجَةُ: النَّزَوان، وقيل: هو رقص المجوس، وفي الصحاح: رقصُ العجم إذا أَخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون، ثم استشهد بهذا البيت من الرجز.

وقوله: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۦ ﴾ بمعنى: ما منعك أَن تتبعني، واختلف الناس في وجه دخول [لاَ] ـ فقالت فرقة: هي زائدة، وذهب حذاق النحاة إلى أَنها مؤكدة، وأَن في الكلام فِعْلاً مقدراً، كأَنه قال: ما منعك ذلك، أَو خصك، أَو نحو هذا على أَلاَّ تتبعني؟ وما قبْل وما بعْد يدل على هذا ويقتضيه.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: [يا بن أم]، فيحتمل أَن يريد: «يَا بْنَ أُمَّا» فحذف الأَلف تخفيفاً، ويحتمل أَن يجعل الاسمين اسماً واحداً: وبناه كخمسة عشر، وقرأَ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يابن أمِ﴾ بالكسر على حذف الياء تخفيفاً، وهو شاذٌّ لأَنها ليست كالياءِ في قولك: يا غلامي، وإنما هي كالياءِ في قولك: يا غلامَ غلامي، وهذه ياءٌ لا تحذف[1]، ويحتمل أَن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أَضاف إلى نفسه فحذف الياءَ كما تحذف من الأَسماء المفردة إذا أُضيفت، نحو يا غلام، وقالت فرقة: لم يكن هارون أَخا موسى عليه السلام إلاَّ من أُمِّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيفٌ، وقالت فرقة: كان شقيقه، وإنما دعاه بأُمه لأَن التداعي بالأُمِّ أَشفق وأَشد استرحاماً، وأَخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً، وكان حديد الخُلُق عليه السلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

---

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة): «والوجه في العربية إثبات الياءِ هاهنا؛ لأن هذه الياءَ إنما تحذف في النداءِ المضاف إليك، إذا قلت: يا غلامي؛ لأنها وقعت موقع التنوين، والتنوين لا يثبت في النداء»، ومعنى هذا الاسم الذي فيه الياءُ هنا مضاف إلى المنادى الذي هو (ابن)، وليس بمنادى، وهذا كما قال الشاعر:

يَـا بْـنَ أُمِّـي وَلَـوْ شَهِـدْتُـكَ إِذ ... تَـدْعُـو تميماً وَأَنْـتَ غَيْـرَ مُجَابِ

ولكن لما كثُر به الكلام، وصار المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، حذفت الياءُ.



المعنى: قال موسى عليه السلام مخاطباً للسَّامري: فما خطبك؟ وقوله: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ كماتقول: ما شأْنك؟ وما أَمْرُك؟، ولكن لفظة الخطب تقتضي انتهاراً؛ لأَن الخطب مستعمل في المكاره، فكأَنه قال: ما نَحْسُك؟ وما شُؤْمك؟ وما هذا الخطْب الذي جاءَ من قبَلك[1] و«السَّامِرِيُّ» قيل: هو منسوب إِلى قبيلة من بني إِسرائيل، ويقال: إِلى قرية يقال لها: سامرة[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي معروفة اليوم ببلاد مصر، وقيل: كان اسمه موسى بن ظفر.

قوله تعالى: [بَصُرْتُ]، قرأَت فرقة بضم الصَّاد على معنى: صارت بصيرتي بصورة مَّا، فهو كَظَرُفتُ وشَرُفْت، وقرأَت فرقة: [بَصِرْتُ] بكسر الصاد، فيحتمل أَن يريد من البصيرة، ويحتمل أَن يريد من البَصَر، وذلك أَن في أَمر السامري ما زاد على الناس بالبصر، وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه، وبالبصيرة، وهو ما علمه من أَنَّ القبضة إِذا نبذها مع الحليِّ جاءَه من ذلك ما يريد. وقرأَ الجمهور: [يُبْصِرُوا بِهِ] بالياء، يريد بني إِسرائيل، وقرأَ حمزة والكسائي: [تُبْصِرُوا] بالتاءِ من فوق، يريد موسى عليه السلام مع بني إِسرائيل.

وقرأَ الجمهور: (قَبْضَةً) بالضاد منقوطة، بمعنى: أَخذت بكفي مع الأَصابع، وقرأَ عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وأُبيُّ بن كعب رضي الله عنهم، وغيرهم: [فقبصتُ قَبصةً] بالصاد غير منقوطة، بمعنى: أَخذت بأَطراف أَصابعي فقط، وقرأَ الحسن ـ بخلاف عنه ـ [قُبْصَةً] بضم القاف[3]. و«الرَّسُولُ» هو جبريل عليه السلام، و«الأَثَرُ» هو ترابٌ تحت حافر فرسه.

---

(١) نقل أبو حيان الأَندلسي كلام ابن عطية هذا في (البحر المحيط) ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا ليس كما ذَكَر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، وهو قول إبراهيم عليه السلام لملائكة الله، فليس هذا يقتضي انتهاراً ولا شيئاً مما ذكر».

(٢) في معجم البلدان للحموي أنها قرية بين مكة والمدينة.

(٣) أَي: بضم القاف والصاد المهملة كما وضَّح أَبو حيان في البحر المحيط، ونسبها أيضاً إِلى قتادة، ونصر بن عاصم، وقال أَبو الفتح في المحتسب: «وأَما (القُبْصَة) بالضم فالقدر المقبوض، كالحُسْوَة لِلْمَحْسُوّ، والحَسْوَةُ فِعْلُك أَنت، والقَبْصَةُ والقَبْضَةُ جميعاً على ذلك إنما هما حدثان موضوعان موضع الجثة، كالخلْق في معنى المخلوق، وضرْب الأَمير في معنى المضرب».

وسبب معرفة السَّامري لجبريل عليه السلام ومَيْزه فيما رُوي أَنَّ أُمَّ السَّامري ولدته عام الذَّبح فطرحته في مغارة، فكان جبريل عليه السلام يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشبَّ، فميَّزه لذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي على الحلي فكان منها ما تراه، وهذا محذوف من اللفظ يقتضيه الحال والمخاطبة، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أَي: كما وقع وحدث قربت لي نفسي وجعلته لي سؤلاً ورأياً حتى فعلتُه. وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في جدٍّ أَو وَحْي، فعاقبه باجتهاد نفسه بأَن أَبعده ونحَّاه عن الناس، وأَمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته، وأَلاَّ يُؤَاكلُوا ويُنَاكحُوا، ونحو هذا، وعلمه مع ذلك، وجعل له أَن يقول مدة حياته: [لا مساس]، أَي: لاَ مُمَاسَّة ولا إذاية، وقرأَ الجمهور: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بكسر الميم وفتح السين، على النصب بالتَّبرئة، وهو اسم ينصرف، ومنه قول النَّابغة:

فَأَصْبَحَ مِنْ ذَاكَ كَالسَّامِرِيِّ ... إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُ لاَ مِسَاسَا[1]

ومنه قول رؤْبة:

* حتَّى تَقُولَ الأَزْدُ لاَ مِسَاسَا *[2]

واستعماله على هذا كثير، وقرأَ أَبو حيوة: [لا مَسَاسِ] بفتح الميم وكسر السين،

(١) لم أَجد هذا البيت في ديوان النابغة الذي جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والذي نشرته الشركة التونسية للتوزيع بالاشتراك مع الشركة الوطنية للتوزيع بالجزائر. كذلك لم أعثر على قائله فيما بين يدي من المراجع، ولم أجده في التاج ولا في اللسان أو الأساس أو كتب التفسير، اللهم إلاّ في البحر المحيط غير منسوب، قال في اللسان: «لا مِسَاسَ: أَي لا تَمَسَّنِي.. وقد قُرِىء بفتح السين منصوباً على التبرئة»، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا. على أَن اسم النابغة يطلق على ثمانية من الشعراء، فلعله لواحد منهم.

(٢) كذلك لم أجد هذا البيت في ديوان رؤبة المسمى: (مجموع أشعار العرب ـ المكتب التجاري بيروت)، وقد أورده القرطبي في لفظ آخر مع بيت قبله، وهما:

حَمَّالُ رَايَاتٍ بِهَا قَنَاعِسَا ... حَتَّى تَقُولَ الأَزْدُ لاَ مَسَابِسَا

وعلق عليه المحقق بقوله: «هكذا في الأصول، ولم نقف عليه».



وهو معدول عن المصدر كَفَجَارِ ونحوه، وشبَّهه أَبو عبيدة وغيره بِنَزَالِ ودَرَاكِ ونحوه، والشَّبه صحيح من حيث هي معدولات، وفارقه في أَن هذه عدلت عن الأمر، و(مَسَاسِ) و(فَجَارِ) عدلت عن المصدر، ومن هذا قول الشاعر:

تَمِيمٌ كَرَهْطِ السَّامِرِيِّ وَقَوْلِهِ ... أَلاَ لاَ يُرِيدُ السَّامِرِيُّ مَسَاسِ[1]

وقرأَ الجمهور: [تُخْلَفَهُ] بفتح اللام، على معنى: أَن يقع فيه خُلْف، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو: [لَنْ تُخْلِفَهُ] بكسر اللام، على معنى: لن تستطيع الزوغان عنه والحيدة، فتزول عن موعد العذاب، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [لَنْ نُخْلَفَهُ] بالنون، قال أَبو الفتح: المعنى: لن نصادفه مُخْلَفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلها بمعنى الوعيد والتهديد.

ثمَّ وبَّخه عليه السلام بقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ الآية أَي: انظر صنيعك وتغييرنا له وردِّنا الأَمر فيه إِلى الواجب. وقرأَت فرقة: [ظَلْتَ] بفتح الظاءِ، على حذف اللام الواحدة، وقرأَت فرقة: [ظِلْتَ] بكسر الظاءِ على نقل حركة اللام إِلى الظاءِ ثم حذفها بعد ذلك، نحوقول الشاعر:

خَلاَ أَنَّ العِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا ... أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إِلَيْهِ شُوسُ[2]

---

(١) الرَّهْط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة، أو ما دون العشرة، جمعه أَرْهُط وأرهاطٌ، ولم نقف على قائل البيت، والشاهد فيه أن (مَسَاسِ) معدولة عن المصدر، ويوافقه الزمخشريِ في ذلك، فقد قال: إن (مَسَاسِ) بوزن (فجارِ)، وقال صاحب اللوامح: «هو على صورة نَزَالِ ونَظَار من أسماء الأفعال، بمعنى: انزل وانظر، وهذه الأسماءُ التي بهذه الصيغة معارف، ولا تدخل عليها (لا) النافية التي تنصب المنكرات، نحو: لا مال لك، لكن فيه نفي للفعل، وتقديره: لا يكون منك مساسٌ، ولا أقول: مساس، ومعناه النهي، أي: لا تمسني»، وأكد ابن جني هذا الكلام في المحتسب.

(٢) البيت لأبي زُبَيْد الطائي، وهو في اللسان (حَسَسَ)، والرواية فيه (حَسَيْن به)، وهي التي أشار إليها ابن عطية، قال صاحب اللسان: «أما قولهم: «أَحَسْتُ بالشيء» فعلى الحذف كراهية التقاء المثلين»، ونقل عن الأزهري أنه يقال: أَحسَسْتُ الخير وأحسَسْتُه وحسَيْت وحِسْتُ: إذا عرفت منه طرفاً، وقد استشهد اللغويون ببيت أبي زبيد هذا، وقد قال سيبويه: «وكذلك يُفعل في كل بناءٍ يُبنى اللاَّم مِنَ الفعل منه على السكون، ولا تصل إليه الحركةُ، شبهوها بأقمتُ»، وهذا ينطبق على (ظللت) التي هي أصل البحث هنا. العِتَاق: النجائب الكريمة، والشَّوَس: أَن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها، ويكون ذلك في الخلق، ويكون من الكِبْر.



أَراد: أَحْسَسْن، فنقلت حركة السِّين إِلى الحاءِ ثم حذفت تخفيفاً، وفي بعض الروايات: حَسَيْنَ. وقرأَت فرقة: [ظَلْتَ]، و(ظَلّ) معناه: أَقام يفعل الشيءَ نهاراً، ولكنه قد يستعمل في الدَّائب ليلاً ونهاراً، بمثابة طَفِقَ. و[عَاكِفاً] معناه: ملازماً.

وقرأَت فرقة: [لَنَحْرِقَنَّه] بتخفيف الراءِ بمعنى: بالنار، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: [لَنَحْرُقَنَّهُ] بفتح النون وضم الرَّاء خفيفة[1]، بمعنى: لَنَبْرُدَنَّهُ بالمِبْرَد[2]، وقرأَ نافع وغيره: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضم النون وكسر الرَّء وشدِّها، وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية، وهي قراءة تحتمل الحرق بالنار، وتحتمل بالمبرد، وفي مصحف أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما: [لَنَذْبَحَنَّهُ ثمَّ لَنَحْرِقَنَّهُ ثمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ]، وهذه القراءة مع رواية من روى أَن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يتركَّب أَن يكون هناك حرق بنارٍ، وإِلاَّ فإِذا كان جماداً من ذهب فإِنما هو حَرْق بالمِبْرَد، اللهم إِلاَّ أَن يكون أَذابه، ويكون النَّسف مستعاراً لتفريقه في اليَمِّ مذاباً. وقرأَت فرقة: [لَنَنْسِفَنَّهُ] بكسر السِّين، وقرأَت فرقة: [لَنَنْسُفَنَّهُ] بضم السين، و«النَّسْفُ»: تفريق الريح الغُبَار، وكل ما هو مثله كتفريق الغربال ونحوه فهو نسف. و«الْيَمُّ»: غمر الماءِ من بحر أَو نهر، وكل ما غمر الإِنسان من الماءِ فهو يَمٌّ. و[نَسْفاً] تأكيد بالمصدر، واللام في قوله: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] لام القسم.

وفي هذه الآية من القصص أَن موسى عليه السلام بَرَدَ العِجْلَ حتى ردَّه كالغبار ثُمَّ ذرَّاه في البحر، ثم أَمر بني إِسرائيل أَن يشرب جميعهم من الماءِ، فمن شرب ممن كان في قلبه حُب العجل خرج على شاربه من الذهب فضيحةً له، وقال مكيٌّ رحمه الله ـ

---

(١) في الأصول أخطأ النساخ في ضبط الحروف، والتصويب عن كتب التفسير وكتب القراءة.

(٢) هذا من قولهم: «حرقتُ الشيءَ أحرقه حرْقاً» بمعنى: بَرَدْتُهُ وحَكَكْتُ بعضه ببعض، ومنه قولهم: «حَرَقَ نَابَهُ يحرِقُه ويحرُقُه» أَي: سحقه حتى يُسمع له صريف، ويقال للمِبْرَد: المحْرَق. قال ابن جني: «حرقتُ الحديد: إِذا بَرَدْتَه فتَحَاتَّ وتساقط، ومنه قولهم: «إِنه لَيَحْرُقُ عليَّ الأَرَّم»، أَي: يحك أسنانه بعضها ببعض غيظاً عليَّ، قال زهير:

أَبَى الضَّيمَ النُّعمانُ يَحْرُقُ نَابَهُ ... عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ

وأنشد أبو زيد، ورويناه عنه:

نُبِّئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى أَنَّمَا ... بَاتُوا غِضَاباً يَحْرُقُونَ الأَرَّمَا

فكأن [لَنُحَرِّقَنَّه] ـ على هذا ـ: لَنَبْرُدَنَّه ولَنَحُتَّنَّه حَتّاً.

وأَسْنَدَ ـ: إِنَّ موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة، وحينئذ وقع أَمر العجل، وإن الله تبارك وتعالى أَعلم موسى بذلك فكتمه عنهم، وجاءَ بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل، فحينئذ أَعلمهم موسى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه روايةٌ الجمهورُ على خلافها، وإنما تعجَّل موسى وحده فوقع أَمر العجل، ثم جاءَ موسى عليه السلام وصنع بالعجل ما صنع، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأَن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة فكان لموسى عليه السلام نهضتان، والله أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مُبيِّناً لهم، وقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ بمعنى: وسع علمُه كلَّ شيءٍ، و[عِلْماً] تمييز، وهذا كقولهم: «تفقَّأْتُ شحماً» و«تَصَبَّبْتُ عَرَقاً»، والمصدر في الأَصل فاعل، ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو على التمييز. وقرأَ مجاهد، وقتادة: [وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ] بفتح السِّين وشدِّها، بمعنى: خَلَقَ الأَشياءَ وكثَّرها بالاختراع فوسَّعها موجودات.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ مخاطبةٌ لمحمد ﷺ، أَي: كما قَصَصْنا عليك نبأَ بني إسرائيل هذا في خبر العجل كذلك نقصُّ عليك، فكأَنه قال: هكذا نقصُّ عليك، فكأَنَّها تعديد نعمة، وقوله: ﴿ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ يريد به ما قد سبق مدَّة محمد ﷺ. و«الذِّكْرُ»: القرآن. وقرأَت فرقة: (يَحْمِلُ) بكسر الميم، وقرأَت فرقة أُخرى: [يُحَمَّل] بفتح الميم وشدها، وقوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ يريد: بالكفر به والتكذيب له، و«الوِزْرُ»: الثقل، وهو هنا ثقل العذاب بدليل قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾، و[حِمْلاً] تمييز، و[يَوْمَ] ظرف، و[يَوْمَ] الثاني بدل منه. وقرأَ الجمهور: [يُنْفَخُ] بضم الياءِ وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأَت فرقة: [يَنْفُخُ] بفتح الياءِ وإسناد الفعل للفاعل، أَي يَنْفُخ المَلَك، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [نَنْفُخُ] بالنون، أَي: بأَمرنا وإِذْنِنا، وهذه القراءة

تناسب قوله: [نَحْشُرُ]. وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ بسكون الواو، ومذهب الجمهور أنه القَرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وبهذا جاءت الأحاديث، وقالت فرقة: الصُّور: جمع صورة، كتمرة وتَمْر، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي ٱلصُّوَرِ﴾ بفتح الواو، وهذه صريحة في بعث الأجساد من القبور، وقرأت فرقة هي الجمهور: [وَنَحْشُرُ] بالنون، وقرأت فرقة: [وَيَحْشُرُ] بالياءِ، وقرأت فرقة: [وَيُحْشَرُ] بضم الياءِ [ٱلْمُجْرِمُونَ] على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف.

وقوله: [زُرْقاً] اختلف الناس في معناه ـ فقالت فرقة: بحشرهم أول قيامهم سود الألوان زُرق العيون، فهو تشويهٌ مَّا، ثم يعمون بعد ذلك، وهي مواطن. وقالت فرقة: إنهم يحشرون عطاشاً، والعطش الشديد يردُّ سواد العيون إلى البياض، فكأنهم يَبْيَضُّ سواد عيونهم من شدة العطش. وقالت فرقة: أراد: زُرْق الألوان، وهي غاية في التشويه لأنهم: يجيئون كلون الرماد، ومَهْيَعٌ في كلام العرب أن يُسَمَّى هذا اللون أزرق، ومنه زرقة الماء، قال الشاعر:

فَلَمَّـا وَرَدْنَ الْمـاءَ زُرْقـاً جِمَـامُـهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ[1]

ومنه قولهم: «سنان أزرق» لأنه نحو ذلك اللون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سُلْمى، وهو من معلقته المشهورة، وزُرْقة الماءِ كنايةٌ عن صفائه. والجمامُ، قال الأصمعي: يقال للماء إذا خرج من عيونه فارتفع في البئر: قد جَمَّ يَجِمُّ جُموماً، ويُسَمَّى الماءُ نفسهُ جَمّاً، ويقال: بئر جموم، أي سريعةُ رجوع الماءِ. وأما قوله: «وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ» فمعناه: أَقَمْنَ كما يطرح الذي لا يريد السفر عصاه ويُقيم، فالمتَخَيِّم هو الذي يتخذ خَيْمة ليقيم فيها، والحاضر هو المقيم، قال بعضهم: وصفهن بأنهن في أَمْن ومنعة، فإذا أنزلن كُنَّ آمنات كنزول من هو في أهله ووطنه. و«زُرْقاً» منصوب على الحال من (الماء)، و(الجمام) رُفع بمعنى (زُرْق) والشاهد في البيت غير ملائم؛ لأن زرقة الماء كناية عن صفائه، وصفاءُ الماءِ شيءٌ محبوب ممدوح، أما الزُّرقة التي في الآية فالغرض منهاالتشويه والتقبيح كما قال ابن عطية، وقد يقال: إنه أراد من ذكر البيت أن الزُّرقة في الماء تعطيه لون البياض، وبياض العيون من شدة العطش لون من الدمامة والتشويه.

«يَتَخَافَتَ المجرمون بينهم»: يَتَسَارُّون، المعنى أَنهم لهول المطلع وشدَّة ذهاب أَذهانهم قد عزب عنهم قَدْرُ المدَّة التي لبثوها، واختلف الناس في هذا ـ فقالت فرقة: في دار الدنيا ومُدَّة العمر، وقالت فرقة: في الأَرض مدَّة البرزخ، وقالت أُخرى: ما بين النفختين في الصُّور.

و﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أَثبتهم نفساً وأَعلمهم بالحقيقة بالإِضافة إِليهم، فهم في مدة المقالة يظنون أَن هذا قَدْر لُبْثهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾، قيل: إِن رجلاً من ثقيف سأَل رسول الله ﷺ عن الجبال، ما يكون أَمرها يوم القيامة؟ وقيل: بل سأَله عن ذلك جماعةٌ من المؤمنين. وقد تقدَّم معنى النَّسف، وروي أَن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فيدكدكها حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباءِ المنبثِّ، فذلك هو النَّسف، وقوله تعالى: [فَيَذَرُهَا] يحتمل أَن يريد مواضعها، ويحتمل أَن يريد ذلك التراب الذي نسفه؛ لأَنه إِنما يقع على الأَرض باعتدال حتى تكون الأَرض كلها مستوية. و«الْقَاعُ»: المستوي من الأَرض المعتدل الذي لا نَشَزَ فيه، ومنه قول ضرار بن الخطَّاب:

لَتَكُونَنَّ بِالْبِطَاحِ قُرَيْشٌ بُقْعَةَ الْقَاعِ فِي أَكُفِّ الإِمَاءِ[(١)]

و«الصَّفْصَفُ» نحوه في المعنى.

و«الْعِوَجُ» ما يعتري اعتدال الأَرض من الأَخْذ يَمْنة ويَسْرة بحسب النَّشْز من جبل وظَرِبٍ وكُدْيَةٍ[(٢)] ونحوه، و«الأَمْتُ»: ما يعتري الأَرض من ارتفاع وانخفاض، يقال: «مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أَمْتاً»، فكأَنَّ الأَمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء، والعِوَج في الآية مختص بالخفض[(٣)]، وفي هذا نظر.

---

(١) البطحاءُ: مَسيل الوادي يتجمع فيه دُقاق الحَصَى، وهو أيضاً الأبطَح، والجمع بِطَاحٌ وَبَطْحَاوات، ويروى البيت: «لتكونن بالبلاد». والقاع: الأرض المستوية التي لا ارتفاعات فيها، أما البقعة ـ بضم الباء وفتحها ـ فهي القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجنبها، فالمعنى أن قريشاً ستكون مختلفة عن غيرها من القبائل كما تختلف البقعة عما جاورها.

(٢) النَّشْز: الارتفاع، ويكون في الأرض وفي غيرها. والظَّرب: الجبل المنبسط، وجمعه ظِرَابٌ، وفي حديث الاستسقاء: «اللهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية»، والكُدْيَة: الأرض الغليظة أو الصلبة التي لا تستعمل فيها الفأس، وجمعها كُدًى.

(٣) اختلف الأصول في هذه الكلمة وفي جملتها، ففي بعض النسخ: «العوج في الأرض»، وفي بعضها=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

المعنى: يوم تُنسف الجبال يَتْبع الخلائقُ داعيَ الله تعالى إلى المحشر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾[(١)]. وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ يحتمل أن يريد الإخبار به، أَي: لا شكَّ فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل أن يريد: لا محيد لأَحد عن اتِّباعه، والمشي نحو صوته. و«الخُشُوعُ»: التَّطامنُ والتَّواضعُ، وهو في الأَصوات استعارة بمعنى الخفاء والاستسراء، ومعنى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: لِهَيْبَتِهِ وهوْل مطلع قدْرته[(٢)]. و«الهَمْسُ»: الصَّوْتُ الخفي الخافت، وقد يحتمل أَن يريد «بالهَمْسِ المسموع» تخافُتَهم بينهم وكلامَهُم السِّرَّ، ويحتمل أَن يريد صوت الأَقدام، وأَن أَصواتَ النطق ساكتة.

و[مَنْ] في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يحتمل أَن يكون الاستثناءُ متصلاً، ويكون [مَنْ] في موضع نصب يُراد بها المشفوع له، فكأَن المعنى: إلاَّ من أَذن له الرَّحمن في أَن يشفع له، ويحتمل أَن تكون استثناءً منقطعاً على تقدير: لكن من أَذن له الرَّحمن يَشفع، فـ[مَنْ] في موضع نصب بالاستثناء، ويصلح أَن يكون في موضع رفع، كما يجوز الوجهان في قولك: «ما في الدَّارِ أَحدٌ إلاَّ حماراً، وإلاَّ حمارٌ»، والنصب أَوجه، و[مَنْ] ـ على هذه التأْويلات ـ للشافع، ويحتمل أَن تكون للمشفوع فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قالت فرقة: يريد الملائكة، وقالت فرقة: يريد خلقه أَجمع، وقد تقدم القول في ترتيب ما بين اليد وما خلفه في غير

= «مختص بالعرض»، وفي بعضها «مختص بالأرض». وهكذا.

(١) من قوله تعالى في الآية (٨) من سورة (القمر): ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾. والدَّاعي هو إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور، لا يملك أحد أن يتخلف عن دعوته، بل يسرعون إليه، ولا يحيدون عنه، وهذا هو معنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، وقيل: المعنى: لا عِوَجَ لدعائه، وقيل: يتبعون الداعي اتِّباعاً لا عِوَجَ له، فالمصدر مضمر، والضمير عائد على ذلك المصدر.

(٢) نقل أبو حيان عبارة ابن عطية هنا، وجاءت فيه «لهيبته وهو مطلع قدرته».

موضع، على أَن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية: ما خلفهم: الدنيا، وما بين أَيديهم: أَمر الآخرة والثواب والعقاب، وهو بأَن يعرضها حالة وقوف حتى يجعلها كالأَجرام، وأَمَّا إِن قدرناها في نسق الزمان فالأَمر على العكس بحكم ما بيَّنَّاه قَبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ معناه: ذلَّت، والعاني: الأَسير، ومنه قول النبي ﷺ في أَمر النِّساء: «هُنَّ عوان عندكم»(١)، وهذه حالة الناس يوم القيامة. قال طلق بن حبيب: أَراد تعالى سجودَ الناس على الوجوه والآراب السبعة(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِن كان روى هذا أَن للناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إِخباراً عنه فقوله مستقيم، وإِن كان أَراد سجود الدنيا فقد أَفسد المعنى. و«ٱلْقَيُّوم» بناءُ مبالغة من قيامه عزَّ وجلَّ على كل شيءٍ بما يجب فيه. و[خَابَ] معناه: لم ينجح ولا ظَفِرَ بمطلوبه، و«الظُّلْمُ» يعم الشِّركَ والمعاصي، وخيبة كل حاملٍ بقدر ما حمل من الظُّلم، فخيبة المشرك على الإِطلاق، وخيبة العاصي مقيَّدة بوقت وحدٍ في العقوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ معادل لقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تَيْسير في الشَّرع؛ لأَنها[مِنْ] التي للتبعيض، و«الظُّلْمُ» أَعمُّ من «الْهَضْمِ»، وهما متقاربان في المعنى ويتداخلان، ولكن من حيث تناسقا في هذه الآية ذهب قوم إِلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى، فقالوا: الظُّلْمُ أَن تَعْظُم عليه سَيِّآته وتكثر أَكثر ممَّا يجب، والهَضْمُ أَن يُنْقص من حسناته ويُبْخَسها، وكلُّهم قرأَ: [فلا

---

(١) هذا جزءٌ من حديث صحيح، وقد أوصى فيه بالنساء، قال صلوات الله وسلامه عليه، كما في مسند الإمام أحمد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمه: «فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساء؛ فإنَّهنَّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهنَّ عليكم حَقّاً ولكم عليهن حقّاً». والحديث طويل، ورواه الترمذي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص.

(٢) هكذا في الأصول، وفي بعض النسخ: «والآداب السبعة».



يخاف] على الخبر، غير ابن كثير فإنه قرأ: [فلا يَخفْ] على النهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أَي: كما قدرنا هذه الأُمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد، كذلك حذَّرنا هؤلاء أَمرها، وأَنزلنا قرآناً عربياً، وتوعدنا فيه بأَنواع من الوعيد، لعلَّهم ـ بحسب توقع البشر وتَرَجِّيهم ـ يتَّقون ويخشَوْن عقابه فيؤمنون ويتذكرون نِعَمَه عندهم وما حذَّرهم من أَليم عقابه، هذا تأْويل فرقة في قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وقالت فرقة: معناه: أَو يُكسبهم شرفاً، ويُبقي عليهم إِيمانهم وذِكْراً صالحاً في الغابرين. وقرأَ الحسن البصري: [أَو يُحدِثْ] ساكنة الثاءِ، وقرأَ مجاهد: [أَو نُحدِثْ] بالنون وسكون الثاءِ، ولا وَجْه للجزم إِلاَّ على تسكين حرف الإِعراب استثقالاً لحركته، وهذا نحو قول جرير:

. . . . وَلاَ تَعـرِفْكُـم الْعَـرَبُ[1]

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ ختم للقول؛ لأَنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعِظَمَ قدرته وذِلَّة عبيده وتَلَطُّفَه بهم، ختم ذلك بهذه الكلمات، وجعل بعد ذلك الأَمر بنوع آخر من القول. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾، قالت فرقة: سببه أَن النبي ﷺ كان يخاف وقت تكليم جبريل عليه السلام له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه السلام الوحي، فنزلت الآية في ذلك[2]، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[3]، وقالت فرقة أُخرى: سبب هذه الآية أَن النبي ﷺ كان إِذا أُوحيَ إِليه القرآن أَمر بكتبه للحين، فأَمر الله تعالى في هذه الآية أَن

---

(١) هذا جزءٌ من بيت، وهو ثاني ثلاثة أبيات قالها جرير يهجو بني العم وقد أعانوا عليه الفرزدق، والبيت بتمامه:

سيـروا بنـي العَـمِّ فـالأَهْـوازُ مَنْـزِلكُـمْ ونَهْـرُ تِيـرَى ولا تَعْـرِفكُـمُ الْعَـرَبُ

ونهر تيري: بلد من نواحي الأهواز، والشاهد فيه كما قال ابن جني ونقله عنه ابن عطية أنه مما سُكِّن استثقالاً، وأصل الكلام: «ولا تَعْرِفُكُم العرب» بضم الفاءِ، ولكن الشاعر سكنها لاستثقال الضمة عليها.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه، يتخوف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه، فقال الله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

(٣) من الآية (١٦) من سورة (القيامة).



يتأنَّى حتى تُفَسَّرَ له المعاني وتقرر عنده[١]، وقالت فرقة: سبب الآية أَن امرأَةً شكت إِلى رسول الله ﷺ أن زوجها لطمها، فقال لها رسول الله ﷺ: «بَيْنَكما القصاصُ»، ثمَّ نزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾[٢]، ونزلت هذه الآية بمعنى التَّثَبُّت في الحكم بالقرآن حتى يتبيَّن[٣]، والله أَعلم. وقرأَ الجمهور: [من قبل أن يُقضَى إليك وحيُهُ]، وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾، وباقي الآية بيِّن، رغبة في خير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

قال الطبري رحمه الله: المعنى: وإِنْ يعرض ـ يا محمدُ ـ هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رُسُلي ويطيعوا إِبليس، فَقديماً ما فعل ذلك أَبوهم آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل ضعيف، وذلك أَن كون آدم مثالاً للكفار الجاحدين ليس بشيءٍ، وآدم إِنما عصى بتأْويل، ففي هذا غضاضة عليه ﷺ، وأَمَّا الظاهر في هذه الآية إِمَّا أَن يكون ابتداءَ قصص لا تعلُّق له بما قبله، وإِمَّا أَن يجعل تعلُّقه أنه لَمَّا عهد إِلى محمد ﷺ أَلاَّ يعجل بالقرآن مثل له بنبيٍّ قبله عُهد إِليه فنسي فعوقب ليكون أَشدَّ في التحذير وأَبلغ في العهد إِلى محمد ﷺ. والعهد هنا في معنى الوصيَّة، و[نَسِيَ] معناه: ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا لأَنه لا يتعلَّق بالنَّاسي عقاب، وقرأَ الأَعمش: [فَنَسِيَ] بسكون الياءِ، ووجهها طلب الخفَّة. و«العَزْمُ»: المُضِيُّ على المعتقد في أَي شيٍ كان، وآدم عليه السلام قد كان معتقده أَلاَّ يأْكل من الشجرة، لكنه لمَّا وسوس إِليه إِبليس لم يعزم

---

(١) أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ قال: لا تُمْلِهِ على أحد حتى نُتِمَّهُ لك، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد نحوه عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (النساء).

(٣) أخرجه الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن البصري رضي الله عنه. (الدر المنثور) وهو مرسل.



على معتقده، وعبَّر بعض المفسرين عن العزم هنا بالصبر والحفظ وغير ذلك مما هو أَعمُّ من حقيقة العزم، والشيءُ الذي عهد لآدم عليه السلام هو ألاَّ يقرب الشجرة، وأُعلم مع ذلك أَن إِبليس عدوٌّ له. وقال أَبو أُمامة رضي الله عنه: لو أَن أَحلام بني آدم جُمعت منذ خلق الله الخلق إِلى يوم القيامة ووضعت في كفَّة ميزان ووضع حلم آدم عليه السلام في كفَّة أُخرى لرجحهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ الآية ابتداءُ قصة، والعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمر، وقد تقدم استيعاب هذه القصة، ولكن نذكر من ذلك ما تقتضيه أَلفاظ هذه الآية، فالملائكة قيل كان جميعهم مأموراً بذلك، وقيل: بل فرقة فاضلة منهم عددهم اثنان وعشرون. و«السُّجُودُ» الذي أُمروا به سجود كرامة لآدم صلوات الله عليه، وعبادة لله تعالى. وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متصل في قول من جعل إِبليس من الملائكة، ومنقطع في قول من قال: هو من قبيلة غير الملائكة يقال لها الجن. وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، أَي: لا يقع منكما طاعةٌ له في إِغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما من الجنَّة. ثم خصَّص آدم عليه السلام بقوله: [فَتَشْقَى] من حيث كان المخاطبَ أَوَّلاً المقصودَ في الكلام، وقيل: بل ذلك لأَن الله تعالى جعل الشَّقاءَ في معيشة الدُّنيا في حيِّز الرِّجال. ورُوي أَنَّ آدم عليه السلام لمَّا أُهبط معه ثور أَحمر، فكان يحرث ويمسح العرق، فهذا هو الشَّقاءُ الذي خُوِّف منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

المعنى: إِن لك يا آدم نعمة تامَّة وعطية مستمرة أَلاَّ يصيبك جوعٌ ولا عري ولا ظمأٌ ولا بروز للشمس تؤذيك، وهو الضُّحى(١)، وقرأَ نافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [وَإِنَّكَ] بكسر الأَلف، وقرأَ الباقون وحفص عن عاصم: [وَأَنَّكَ] بفتح الأَلف،

---

(١) الضحيُ بالياءِ هو مصدر: ضَحَا الرَّجُلُ، بمعنى: برز للشمس، ومثلها في ذلك الضُّحُوُّ بالواو ـ قال في اللسان: «ضَحَا الرَّجلُ ضَحواً وضُحُوّاً وضُحياً: برز للشمس، وضَحَا الرجُلُ وضَحِيَ يَضْحَى في اللغتين معاً ضُحُواً وضُحياً: أصابته الشمس».



وجعل الله تبارك وتعالى في هذه الآية الجوع مع العري، والظمأ مع الضحى؛ وكان عرف الكلام أن يكون الجوع مع الظمأ للتناسب، والعُرْيُ مع الضُّحيِّ لأنها لا تتضاد، والعري يمس بسببه البرد فيؤذي، والحرُّ يفعل ذلك بالضَّاحي، وهذه الطريقة مهيع في كلام العرب أن تفرق النسب، ومنه قول امرىء القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ[١]

وذهب بعض الأُدباء إلى أن بيتي امرىء القيس فيهما محافظة للنسب، وأن ركوب الخيل للصيد وغيره من اللَّذَّات يناسب تبطن الكاعب. ومن الضُّحِيِّ قول الشاعر:

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[٢]

و«وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ» قالوا: كانت دون مشافهة إلقاءً في النفس، وقيل: بل كانت بالمشافهة والمخاطبة، وهو ظاهر القصة من غير ما موضع، وكان دخوله إلى الجنَّة ـ

---

(١) البيتان من لاميته المعروفة: (أَلا أنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ الْبَالِي)، وتعتبر من أفضل شعره بعد المعلقة، وهي قصيدة وجدانية يصور فيها الشاعر مجونه وتصابيه وصيده وقنصه وسعيه إلى المجد وعشقه للنساء، والتَّبَطُّن: المباشرة والملامسة، والكاعِبُ هي الفتاة التي برز ثديها، والخلخال: حلية معروفة تلبسها المرأة في رجلها، والزِّقُّ: وعاءُ الخمر، وسَبَأَ الزِّقَّ: اشترى الخمر ليشربها، والرَّوِيُّ: الممتلىء، والكَرُّ: العودة للهجوم، والإِجْفال: الفزع والهروب في الحرب. قالوا: وقد جعل امرؤ القيس ركوب الخيل للصيد واللذة مع مباشرة الكاعب ذات الخلخال، وجعل شراءَ الخمر وشربها مع الفروسية وركوب الخيل للهجوم في الحرب، وكان عُرْف الكلام أن يجمع بين ركوب الخيل للصيد واللذة وركوبها للفروسية والهجوم في الحرب، وأن يجمع بين شرب الخمر ومباشرة الكاعب الحسناء، ولكن مهيع الكلام كما يقول ابن عطية أن تفرق العرب النسب، وألا تجمع بين الأشياء المُتَناسبة، وبعض الأدباء قالوا: إن هناك تناسباً في بيتي امرىء القيس، حيث قرن لذة ركوب الخيل بلذة ركوب النساء في البيت الأول، وهكذا تختلف آراء النقاد في العمل الفني من حيث التناسب والتضاد.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في الديوان، وفي اللسان (ضَحا) غير منسوب، وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غداة غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ؟

ومعنى يَضْحى: يصيبه حرُّ الشمس، نقل ذلك في اللسان عن الزهري، واستشهد بهذا البيت، وفيه: «ويقال لكل من كان بارزاً في غير ما يُظِلُّه ويُكِنُّه: إنه لَضَاحٍ، ويَخْصَر هو من الخَصَر بالتحريك، وهو البرد يجده الإنسان في أطرافه»



فيما رُوي ـ في فم الحيَّة، وكان آدم عليه السلام قد قال الله له: لا تأكل من هذه الشجرة، وعيَّن له شجرة قد تقدمَّ الخلاف في جنسها، فلمَّا وصفها له إبليس أنها شجرة الخُلْد التي من أكلها كان ملكاً مخلَّداً، عَمَد آدم عليه السلام إلى غير تلك التي نهي عنها من جنسها فأكلها بتأويل أن النَّهي كان على النَّدب لا على التَّحريم، وسارعت إلى ذلك حوَّاءُ وكانت معه في النهي، فلمَّا رآها آدم عليه السلام قد أكلت أكل، فطارَت عنهما ثيابهما، وظهر تبرُّء الأَشياء منهما، وبدت سوآتهما. وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ معناه: جعلا يفعلان ذلك دائماً، و[يَخْصِفَانِ] معناه: يلفقان ويضُمَّان شيئاً إلى شيء، فكانا يستتران بالورق، وروي أنه كان من ورق التِّين.

ثمَّ نصَّ[١] تعالى على آدم أنه عصى، و[غَوَىَ] معناه: ضلَّ من الغيِّ الذي هو ضد الرشد، ومنه قول الشاعر:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائما[٢]

وقرأت فرقة: [وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ] بفتح الألف عطفاً على قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾، وقرأت فرقة: [وإِنَّكَ لا تظمأُ] عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ﴾[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ

(١) في بعض النسخ: «ثم قَصَّ تعالى على آدم».

(٢) هذا البيت من المعاني التي سبق إليها المرقِّش الأصغر، ربيعةُ بن سفيان بن سعد، وهو عمُّ طرفة، وابن شقيق المرقِّش الأكبر، وهو من قصيدة له يقول في مطلعها:

أَلاَ يَا أَسْلَمِي لاَ صُرْمَ لِي الْيَوْمَ فَاطِمَا

وهي من المفضليات تحت رقم ٥٦، والبيت هو رقم ٢٢ من المفضلية، وهو في حماسة البحتري، وفي المرزباني، وشعراء الجاهلية. واللسان (غوى)، قال: «الغَيُّ: الضلالُ والخيبةُ، غَوَى غَيّاً وَغَوِيَ غَوَايَةً: ضلَّ، . . . وأغواه هو، وأنشد للمرقِّش: فمن يلق خيراً. . . البيت.

هذا وفي القرطبي نقلاً عن بعض العلماء أن معنى (غوى) فَسَد، وأن الغَيَّ هو الفساد، وعلى هذا فمعنى الآية: ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا، يعني آدم عليه السلام، قال القرطبي: وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: (غَوَى) معناه ضَلَّ.

(٣) قال أبو حيان: ويجوز أن يكون على الابتداء.



مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

[ٱجْتَبَاهُ] معناه: تخيَّره واصطفاه، و﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾ معناه: رجع به من حال المعصية إلى حال النَّدم وهداه لصالح الأَقوال والأَعمال، وأَمضى عقوبته عزَّ وجلَّ في إِهباطه من الجنة.

وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطَا﴾ مخاطبة آدم وحواء، ثم أَخبرهما بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أَن إِبليس والحيَّة يهبطان معهما، وأَن العداوة بينهم وبين أَنسالهم إِلى يوم القيامة، و﴿عَدُوٌّ﴾ يوصف به الواحد والاثنان والجمع. وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ شرطٌ، وجوابه في قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وما بعده إِلى آخر القسم الثاني، والهدى معناه دعوة شرعي. ثم أَعلمهم أَن من اتَّبع هداهُ وآمن به فإِنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وأَنَّ من أَعرض عن ذِكر الله وكفر به فإِنَّ له معيشة ضنكاً، و«الضَّنْكُ»: النَّكِدُ الشَّاق من العيش في المنازل أَو في مواطن الحرب ونحوها، ومنه قول عنترة:

. . . . وَإِنْ نَزَلُوا يَوْماً بِضَنْكٍ أَنْزِلِ(١)

يوصف به الواحد والجمع والمؤنث، وقرأَت فرقة: [ضَنْكَى](٢)، أَتبعت بالصفة لفظة «المعيشة». واختلف الناس في المعيشة الضَّنك، متى هو الوقت الذي هي فيه ـ فقالت فرقة: هي الدنيا، ومعنى ذلك عندهم أَن الكافر وإِن كان متسع الحال والمال

---

(١) هذا جزء من بيت لعنترة، وهو من قصيدة له يُعَرِّض فيها بقيس زهير سيد بني تميم، فقد حَمَى عنترة بني عبس من تميم في إحدى المعارك، فقال قيس: «والله ما حَمَى الناس إلاّ ابن السوداء»، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إِنِّـي ٱمْـرُؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَبْـسٍ مَنْصِبـاً ... شَطْـرِي وَأَحْمِـي سَـائِـرِي بِـالْمُنْصـلِ
إِنْ يُلْحَقُـوا أَكْـرُرْ وَإِنْ يُسْتَلْحَمُـوا ... أَشْـدُدْ وَإِنْ يُلْفَـوْا بِضَنْـكٍ أَنْـزِلِ

والمعنى: إن لحقهم العدوُّ يوماً فإني لا أهرب بل أعود فأقابل العدوّ بالهجوم، وإن اشتبكوا في معركة والتحموا بعدوهم في القتال أشدِّد من هجومي وقتالي، وإن اشتدت الضائقة عليهم في المعركة نزلت عن فرسي حتى أتجنب التحام الخيل، وفي القصيدة نفسها يقول:

إِنَّ الْمَنِيَّـةَ لَـوْ تُمَثَّـلُ مُثِّلَـتْ ... مِثْلِـي إِذا نَـزَلُـوا بِضَنْـكِ ٱلْمَنْـزِلِ

وهو شاهد لمعنى الضنك مثل الشاهد في البيت الذي ذكره المؤلف.

(٢) على وزن «فَعْلَى».



فمعه من الحرص والأَمل والتعذيب بأُمور الدنيا والرغبة واتساع صفاءِ العيش بذلك ما يصيِّر معيشته ضنكاً، وقالت فرقة: هي ضنك بأَكل الحرام، وقالت فرقة: بل المعيشة الضَّنك هي في البرزخ، وهو أَن يرى مقعده من النَّار غُدوّاً ورواحاً، وبالجملة عذاب القبر على ما رُوي فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحَمَل هذه الفرقة على هذا التأْويل أَن لفظ الآية يقتضي أَن المعيشة الضَّنك قبل يوم القيامة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾. وقالت فرقة: بل المعيشة الضنك في الآخرة، وهي عذابهم في جهنم وأَكلهم الزَّقُّوم وغيره، وذكر الله تعالى ذلك من وعيده لهم، ثم أَخبر عن حالة أُخرى هي أيضاً يوم القيامة وهي حشرهم عمياً، ثم يجيء قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ بمعنى هذا الذي ذكرناه من المعيشة الضَّنك والعمى ونحوه هو عذابه في الآخرة، وهو أَشد وأَبقى من كل ما يقع عليه الظَّن والتَّخيُّل، فكأَنه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة ثم ذكر أَن عذاب الآخرة أَشد وأَبقى.

وقرأَت فرقة: [وَنحشُرُهُ] بالنون، وقرأَت فرقة: [وَيَحْشُرُهُ]، وقرأَت فرقة: [وَنَحْشُرْهُ] بسكون الرَّاءِ، وقرأَت فرقة: [أَعْمَى] بفتح الأَلف، وقرأَت فرقة: [أَعْمَى] بالإِمالة، وقالت فرقة: العَمَى هنا عَمَى البصيرة عن الحجة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو كان هذا لم يُحسَّ الكافر بذلك؛ لأَنه مات أَعمى البصيرة ويُحشر كذلك، وقالت فرقة: العَمَى هنا عَمَى البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَوجه، مع أَن عمى البصيرة حاصل في الوجهين، وأَما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فمن رآه «في العين» فلا بد أَن يتأَولها مع هذا إِمَّا أَنَّها في طائفتين وإِمَّا في موطنين.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾، [ذَلِكَ] إِشارة إِلى العَمَى الذي حلَّ به، أَي مثل هذا في الدنيا أَن أَتتك آياتُنا فنسيتها، و«النِّسْيَان» في هذه الآية بمعنى الترك، ولا مدخل



للذهول في هذا الموضع، و[تُنْسَى] بمعنى: تُترك في العذاب، ورُوي أن هذه الآية نزلت في القرشي[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

المعنى: وكما وصفنا من أليم الأفعال نجزي المسرفين المعتدين الكفَّار بالله عزَّ وجلَّ. وقوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ إن كانت معيشة الضَّنك في الدنيا أَو في البرزخ فجاءَ هذا وعيداً بعذاب الآخرة بعد وعيد، وإِن كانت المعيشة [الضَّنْك][٢] في الآخرة فأَكَّد الوعيد بعينه بهذا القول الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيَّله الإِنسان أَو يقع في الدنيا.

ثمَّ ابتدأَ يُوَبِّخُهم ويذكر العِبَر بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾. وقرأَت فرقة: [يَهْدِ] بالياءِ بمعنى: يُبيِّن، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل ـ فقال بعضهم: الفاعل [كَمْ]، وهذا قول كوفيٌّ، ونُحاة البصرة لا يجيزونه؛ لأَن [كَمْ] لها صدر الكلام، وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكْنَا»، فكأَن هذه القراءَة تناسب ذلك التأْويل في [كَمْ]، وقال بعضهم: الفاعلُ الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: أَفلم يَهْدِ لهم ما جعل الله لهم من الآيات والعِبَر، فأَضاف الفعل إِلى الله تعالى بهذا الوجه، قاله الزجاج. وقال بعضهم: الفاعل مُقدَّر، الهدى أَو الأَمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَو النَّظر والاعتبار، وهذا أَحسن ما يُقدَّر به عندي[٣].

---

(١) أي في القرشي الذي سأل النبي ﷺ عن الجبال، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ينسفها ربي نسفاً﴾.

(٢) زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام، ثم علَّق عليه بقوله: «وهو قول المبرد، وليس بجيد، إذ فيه حذف الفاعل وهو لا يجوز عند البصريين». وقال أَبو البقاء: «الفاعل ما دلَّ عليه (أَهْلَكْنَا) والجملة مُفسِّرَة له».



وقرأَت فرقة: [نَهْدِ] بالنُّون، وهذه القراءة تناسب تأْويل من قال في التي قبلها: الفاعل الله، و[كَمْ] ـ على هذه الأَقوال ـ نصب بـ[أَهْلَكْنَا]. ثم قيَّد «القُرُون» بأَنهم يمشي هؤلاء الكفرة في مساكنهم، فإنما أَراد عاداً وثمود والطَّوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشَّام وغيره. وقرأَت فرقة: [يَمْشُونَ] بفتح الياءِ، وقرأَت فرقة: [يُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشدّ الشين، و«النُّهَى» جمع نُهْيَةٍ، وهو ما ينهى الإِنسان عن فِعْل القبيح.

ثمَّ أَعلم عزَّ وجلَّ أَن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله عزَّ وجلَّ في تأْخيره عنهم إلى أَجل مسمَّى عنده، فتقدير الكلام؛ ولولا كلمة سبقت في التأْخير لأَجل مُسمًّى لكان العذاب لِزاماً، كما تقول: لكان حتماً وواجِباً واقِعاً، لكنه قدَّم وأَخَّر لِتَتَشَابَه رُءُوس الآي.

واختلف الناسُ في الأجل ـ فيحتمل أَن يريد يوم القيامة، والعذاب المتوعَّد به ـ على هذا ـ هو عذاب جهنَّم، ويحتمل أَن يريد بالأَجل مَوْتَ كل واحد منهم، فالعذاب ـ على هذا ـ ما يَلْقَى في قبره وما بعده، ويحتمل أَن يريد بالأَجل يوم بدرٍ، فالعذاب ـ على هذا ـ هو قتلهم بالسيف، وبكل احتمال مما ذكرناه قالت فرقة، وفي صحيح البخاري أَن يوم بدرٍ هو اللِّزام، وهو البطشة الكبرى.

ثمَّ أَمره تبارك وتعالى بالصبر على أَقوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذَّاب، إلى غير ذلك، والمعنى: لا تعجل بهم فهم بمدرجة المهلكة، وكون اللِّزام يوم بدر أَبلغ في آيات نبينا ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، قال أَكثر المتأَوِّلين: هذه إشارة إلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: صلاةُ الصُّبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾: العتمة[1]، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾: المغرب والظُّهر. وقالت فرقة: ﴿من آناء الليل﴾: المغربُ والعشاءُ، و﴿أطراف النهار﴾: الظُّهر وحدها[2]، ويحتمل اللَّفظ أَن

---

(١) أَي صلاة العشاء.

(٢) الرأي القائل بأن الآية إشارة إلى الصلوات الخمس يؤيده الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله مرفوعاً؛ قال: كنَّا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألاَّ تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» ـ يعني=



يُرادبه قول: «سُبحانَ الله وبحمده» من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضُّحى، وقبل غروب الشَّمس؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «من سبَّح عند غُروب الشَّمس تسبيحة غربت بذنوبه»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وسَمَّى الطَّرفين أطرافاً على أحد وجهين: إمَّا على نحو قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(٢)، وإمَّا على أن يجعل النهار للجنس فلِكُلِّ يوم طرف، وهي التي جمع. وأمَّا من قال: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلا بُدَّ له من أن يتمسَّك بأن يكون النهار للجنس كما قلنا، أو يقول: إن النهار ينقسم قسمين فَصَلَهُما الزَّوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزَّوال طرفان، الآخِر من القسم الأول، والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين: أطرافاً على نحو ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وأشار إلى هذا النَّظر أبو بكر بن فُورك في «المشكل».

و«الآناءُ» جمع (إِنْي) وهي الساعة من اللَّيل، ومنه قول الهُذَلِّي:

حُلْـوٌ وَمُـرٌّ كعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ ... فِي كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ(٣)

= العصر والفجر ـ ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وهذا الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(١) أخرج أحمد في مسنده، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أضحى يوماً مُحرماً مُلَبِّياً حتى غربت الشمس غربت بذنوبه كما ولدته أُمه»، والرأي القائل بأن المراد بالآية تسبيح الله تعالى بعد صلاة الصبح وقبل صلاة المغرب هو رأي عطاءٍ الخراساني وأبي الأَحوص.

(٢) من الآية (٤) من سورة (التحريم)، وقد قال العلماءُ في جمع القلوب هنا: إن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين أن يجمعوهما لأنه لا يُشكل، وقيل: كلُّ ما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به لأنه أمكن وأخف، وقيل في آيتنا هنا: النهار له أربعة أطراف: عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وعند زوال الشمس، وعند وقوعها للزوال، وقيل: المراد بالأطراف الساعات لأن الطرف آخر الشيء.

(٣) الهُذَلِيُّ القائل لهذا البيت هو المُتَنَخِّل، مالك بن عمرو بن عُثْم بن سويد اللِّحياني الهُذَلِيُّ، والبيت أحد أبيات قالها في رثاء ابنه أُثَيلَةَ، وهو في اللسان (أنى)، وفي «الشعر والشعراء»، و(الطبري)، وعِطْفُ الشيءِ: جانِبُه، والقِدْحُ السَّهْم قبل أن يُنَصَّل أو يُراش. والمِرَّة: القوة والشكيمة والإرادة، أصلها من إمرار الحبل، أي إحكام فتله، والإِنْيُ: واحد آناءِ الليل وهي ساعاتُه، قال الزجاج: «يقال فيه إِنْيٌ وإِنًى، فمن قال إِنْيٌ فهو مثل نِحْيٍ وأَنْحَاءٍ، ومن قال إِنًى فهو مثل مِعًى وأَمْعَاءٍ، وينتعل: يركب الأرض الصلبة وما فيها من حرَّات، وقد روى ابن الأنباري البيت بلفظ آخر، ذكر ذلك صاحب اللسان، وهو: =

وقالت فرقة: الآية إشارة إلى نوافل، فمنها آناءَ اللَّيل، ومنها قبل طلوع الشمس، وركعتا الفجر والمغرب أطراف النهار. وقرأ الجمهور: [لعلك ترضى] بفتح التاءِ، أي: لعلَّك تُثاب على هذه الأعمال بما ترضى به، وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم: [لعلّك تُرْضَى]، أي: لعلَّك تُعطى ما يُرضيك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

قال بعض الناس: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيءٌ، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً، فأَبى اليهودي إلاّ برهن، فبلغ الرسول ذلك النبي ﷺ فقال: «والله إنِّي لأَمين في السماء أَمين في الأَرض»، فرهنه درعه، فنزلت الآية في ذلك[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مُعترضٌ أَن يكون سبباً؛ لأَن السُّورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عُمْر النبي ﷺ؛ لأَنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أَن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أَن الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السابقة، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجل، ثمَّ أَمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأْنهم والصبر على أَقوالهم والإِعراض عن أَموالهم وما في أَيديهم من الدنيا؛ إِذ ذلك منصرم عنهم، صائر بهم إِلى خِزي[3].

= السَّالِكُ الثَّغْرَ مَخْشِياً مَوارِدُهُ ... بِكُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

والحقيقة أنه جمع بين صدر بيت آخر وبين عجز هذا البيت، والروايتان في اللسان، والأبيات كاملة في الشعر والشعراء، ويروى: (حذاه الليل) بدلاً من (قضاه الليل).

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة، وطلحة، وأبي عمارة، قال ابن خالويه في كتابه «الحجة»: (والأمر في القراءتين قريب، لأنَّ من أرضي فقد رَضِيَ، ودليله قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخَرَائطي، وأبو نعيم، عن رافع. «فتح القدير والدر المنثور».

(٣) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، ثم عقَّب عليه بقوله: (قلتُ: وكذلك ما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مرَّ بإبل بني المصطلق وقد عَبِسَتْ في أبوالها وأبعارها من السِّمَن فتقنَّع بثوبه ثم مضى لقوله=

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغ من «ولا تنظر»، لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلك حرصٌ مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه، و«الأَزْوَاجُ»: الأنواع، فكأنه قال: إلى ما متَّعنا به أقواماً منهم وأصنافاً، وقوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ شبه نعيم هؤلاءِ الكفار بالزَّهر، وهو ما اصفر من النَّوْر، وقيل: الزهْرُ: النَّوْرُ جملة؛ لأن الزهر له منظر ثم يضمحل، فكذلك حال هؤلاءِ، ونصب [زَهْرَةَ] يجوز أن يكون بإضمار فعل تقديره: جعلناه زهرةَ، ويجوز أن ينصب على الحال، وذلك أن تعريفها ليس بمحض[1]. وقرأت فرقة: [زَهْرَةً] بالتنوين، وقرأت فرقة: [زَهْرَهْ] بالهاء مُسكَّنه، وقرأت فرقة: [زَهَرَةَ] بفتح الهاءِ[2]. ثم أخبر تعالى نبيَّه ﷺ أن ذلك إنما هو ليختبرهم به، ويجعله فتنةً لهم وأمْراً يجازون عليه بالسوءِ لفساد تقلُّبهم فيه، ورزْقُ الله تعالى الذي أحلَّه للمتَّقين من عباده خيرٌ وأبقى، أي: ورزق الدنيا خير، ورزق الآخرة أبقى، وبيَّن أنه خير من رزق الدنيا.

ثم أمره تبارك وتعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم ويصطبر عليها ويلازمها، وتكفَّل هو برزقه، لا إله إلاَّ هو، وأخبره أن العاقبة لأُولي التقوى وفي حيِّزها، فَثَمَّ نصرُ الله في الدنيا ورحمتُه في الآخرة، وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ويدخل في عمومه جميع أُمَّته، ورُوي أن عُروة بن الزُّبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السَّلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله ودخله وهو يقرأُ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ثمَّ يُنادي: الصلاةَ الصلاةَ يرحمكم الله، ويصلِّي، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

= عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية). ومعنى: (عَبِسَتْ في أبوالها): أن أبوالها وأبعارها قد جفَّت على أفخاذها، وهذا يكون من الشحم.

(١) كثرت الآراءُ في إعراب قوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ﴾ ـ فقيل: هي مفعول ثان لـ(مَتَّعْنَا) على تضمينه معنى (أَعْطَيْنَا)، وقيل: منصوبة على الذم، وقيل: بل هي بدل من محلّ الجار والمجرور، وقيل: هي بدل من [أَزْوَاجاً] على تقدير: ذوي زهرة، وقيل غير ذلك.

(٢) أجاز الزمخشري في [زَهَرَة] بفتح الهاءِ أن تكون جمع زاهر، مثل كافر وكَفَرة، قال: «وصفهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتمتعون، وتهلُّل وجوههم، وبهاء زيّهم، بخلاف ما عليه المؤمنون من شجوب الألوان وتقشف الثياب».



يوقظ أَهل داره لصلاة اللَّيل ويُصلِّي ويتمثَّل بهذه الآية[(١)]. وقرأَ الجمهور: [نحن نرزقك] بضم القاف، وقرأَت فرقة: [نَحْنُ نَرْزُقْكَ] بسكونها.

ثم أَخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أَي بعلامة مما اقترحناها عليه، أَو ممَّا يبهر ويضطر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورسل الله تعالى إِنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر، محفوفة بالبراهين العقلية، ليضلَّ من سبق في علم الله ضلاله، ويهتدي من سبق هداه، فوبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني التوراة، أَعظم شاهد وأَكبر آية له. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: [تَأْتِهِمْ] على لفظ [بَيِّنَةُ]، وقرأَ الباقون وأَبو بكر عن عاصم: [يَأْتِهِمْ] بالياءِ على المعنى، وقرأَت فرقة: [بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ] بالإِضافة إِلى [مَا]، وقرأَت فرقة: [بَيِّنَةٌ] بالتنوين، و[مَا] بدلٌ على هذه القراءَة، وقرأَت فرقة: [بَيِّنَةً مَا] بالنصب، و[مَا] ـ على هذه القراءَة ـ فاعله بـ[تَأْتِي]، وقرأَ الجمهور: ﴿فِى ٱلصُّحُفِ﴾ بضمِّ الحاءِ، وقرأَت فرقة: [في ٱلصُّحْفِ] بسكونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

أَخبر الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ أَنه لو أَهلك هذه الأُمَّة الكافرة قبل إِرساله إِليهم محمداً ﷺ لقامت لهم حُجَّة وقالوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية. وروى أَبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، قال: «يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: رَبِّ، لِمَ لَمْ تَجْعَل لي عقلاً؟ ويقول الصبي نحوه، ويقول الهالك في

(١) ومن هذا الباب ما أخرجه أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن عبد الله بن سلام، قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وتلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية «الدر المنثور».



الفترة: يا ربِّ، لِمَ لَمْ تُرسل إِليَّ رسولاً؟ ولو جاءَني لكنت أَطوع خلقك لك، قال: فتُرفع لهم نارٌ، ويقال لهم: رِدُوها، قال: فَيَرِدُهَا من كان في علم الله أَنه سعيد، ويكعُّ عنها الشَّقِّي، فيقول الله تبارك وتعالى: إِيَّاي عصيتم، فكيف برسلي لَوْ أَتَتْكُم؟»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأَمَّا الصَّبيُّ والمغلوب على أَمره فَبَيِّنٌ أَمرهما، وأَمَّا صاحب الفترة فليس ككفَّار قريش قبل النبي ﷺ؛ لأَن كفار قريش وغيرهم مِمَّن علم وسمع عن نُبُوَّة ورسالة في أَقطار الأَرض فليس بصاحب فترة، والنبي ﷺ قد قال للرجل الذي سأَله عن أَبيه: «أَبي وأَبوك في النار»[٢]، ورأَى عمرو بن لحي في النار، إِلى غير هذا مما يطول ذكره، وإِنما صاحب الفترة يفرض أَنه آدمي لم يصل إِليه أَن الله تعالى بعث رسولاً ولا دَعَا إِلى دين، وهذا قليل الوجود، اللهمَّ إِلاَّ أَن يشذ في أَطراف الأَرض المنقطعة عن العمران، والذُّلُّ والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة.

ثمَّ أَمر الله نبيَّه محمداً ﷺ أَن يتوعدَّهم ويحملهم ونفسه على التَّرَبُّص وانتظار الفرج، و«التَّرَبُّصُ»: التَّأَنِّي، و«الصِّرَاطُ»: الطريق. وقرأَت فرقة: ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾[٣]، وقرأَت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَاءِ][٤]، فكأَن هذه الآية قسمت الفريقين،

(١) أخرجه أبو داود في الحدود، والترمذي في الطلاق، وأخرج نحوه أحمد في مسنده (٤/ ٢٤)، عن الأسود بن سريع، وفيه أن نبي الله ﷺ قال: «أَربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: ربِّ جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبَعْر، وأما الهَرِم فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لَكَ رسولٌ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»، وعن أبي هريرة مثل هذا غير انه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسْحب إليها».

(٢) أخرجه أبو داود في السُّنَّة، وأحمد ين حنبل (٤/ ١٤)، ولفظه فيهما: أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»، وفي صحيح مسلم في كتاب الإيمان وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ أين أبي؟ قال: «في النار»، قال: فلما رأى ما في وجهه قال: «إنَّ أبي وأباك في النار».

(٣) على وزن فَعِيل، أي: المستوي.

(٤) أي: الوسط، وهي قراءة أبي مجلز، وعمران بن حدير.



أي: سَتَعْلَمُون هذا من هذا، وقرأت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَّا] بشدِّ الواو وفتحها[1]، وقرأت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسُّوءَى] بضم السين وهمزة على الواو، على وزن فُعْلَى[2].
و﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ معناه: رشد.

كمل تفسير سورة طه والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) اختلفت الأصول في ضبط هذه القراءة، وتداخلت الألفاظ فيها وفي القراءة التالية.
(٢) قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: (على وزن فُعْلَى أنث لتأنيث الصراط، وهو مِمَّا يُذكَّر ويؤنَّث).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنبياء

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع، وكان عبد الله بن مسعود يقول: (الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأُول، وهنَّ من تلادي)[1]، يريد: من قديم ما كسبت وحفظت من القرآن، كالمال التِّلاد[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

رُوي أَن رجلاً من أَصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخر في يوم نزول هذه السُّورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له الآخر: نزل اليوم ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾، فنفض يده من البنيان وقال: والله لا بنيت أَبداً وقد اقترب الحساب.

وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، ويدل على ذلك ما بعده من الآيات، وقوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ يريد الكفار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه من هذه الآية على العصاة من المؤمنين قسطهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ وما بعده مختصٌّ بالكفَّار، وقوله: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾، قالت فرقة: المراد ما ينزلُ من القرآن، وقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ يريد نزوله وإِتْيَانه

---

(١) أخرجه البخاري، وابن الضريس، عن ابن مسعود، والرواية كما في «الدر المنثور» و«فتح القدير»: (بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، .... الخ الحديث).

(٢) المالُ التِّلاد: المالُ الأَصلي القديم، وقيل: هو الموروث.

إِيَّاهم، لا هو في نفسه. وقالت فرقة: المراد بالذكر أَقوالُ النبي ﷺ في أَمر الشريعة، ووعْظه وتذْكيرُه، فهو مُحْدثٌ على الحقيقة، وجعله «مِنْ رَبِّهم» من حيث إن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلاَّ ما هو من عند الله، وقالت فرقة: «الذِّكْرُ» الرَّسُولُ نفسه، واحتجت على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾[1]، فهو محدث على الحقيقة، ويكون معنى ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ بمعنى: استمعوا إليه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أَي: استماعهم في حال لعب، فهو غير نافع ولا واصل النفس.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾.

قوله: ﴿لَاهِيَةً﴾ حالٌ بعد حال[2]، واختلف النحاة في إعراب قوله سبحانه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ـ فمذهب سيبويه أَن الضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ فاعل، وأَن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ منه، وأَن لغة «أَكَلُوني البراغيث» ليست في القرآن، وقال أَبو عبيدة وغيره: الواو والأَلف علامة أَن الفاعل مجموع، كالتاءِ في قولكِ: «قامت هند»، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل بـ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، وهذا على لغة من قال: «أَكَلُوني البراغيث»، وقالت فرقة: الضمير فاعل، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرتفع بفعل تقديره: أَسَرَّها الذين، أَو قالها الذين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والوقوف على [ٱلنَّجْوَى] في هذا القول وفي القول الأَول أَحسن، ولا يحسن في الثاني. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] مرتفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: هم الذين ظلموا، والوقف مع هذا حسن. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] في موضع نصب بفعل تقديره: أَعني الذين. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] في موضع خفض بدل من [ٱلنَّاسِ] في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

---

(١) من الآيتين (١٠ـ ١١) من سورة (الطلاق).

(٢) هذا إذا جعلناه حالاً من الضمير في ﴿استمعوا﴾، ويمكن أن تكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْعَبُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه أقوال ضعيفة.

ومعنى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾: تكلَّموا بينهم بالسِّرِّ والمناجاة بعضهم لبعض، وقال أَبو عبيدة: [أَسَرُّوا]: أَظهروا، وهو من الأضداد، ثمَّ بيَّن تعالى الأَمر الذي تناجوا به وهو قول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ثم قال بعضهم لبعض ـ على جهة التوبيخ في الجهالة ـ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾، أَي ما يقول، شبَّهوه بالسِّحر، المعنى: أَفتتَّبعون السِّحر؟ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أَي تدركون أَنه سِحر، وتعلمون ذلك، كأَنَّهم قالوا: تضلُّون عن بيِّنة ومعرفة، ثم أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أَن يقول لهم وللناس جميعاً: ﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أَي: يعلم أَقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [قُلْ ربي]، وقرأَ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ رَبِّى﴾ على معنى الخبر عن نبيِّه ﷺ، واختلف عن عاصم، قال الطبري رحمه الله: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأَمصار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أَنهم قالوا إِن ما عنده سحرٌ، عدَّد الله تعالى في هذه الآية جميع ما قالته طوائفهم، ووقع الإِضراب بكل مقالة عن المتقدمة لها ليبيِّن اضطراب أَمرهم، فهو إِضراب عن جَحْد متقدم لأَن الثاني ليس بحقيقة في نفسه. و«الأَضْغَاثُ»: الأَخلاط، وأَصلُ الضِّغث: القبضة المختلطة من العشب والحشيش، فشبَّهت تخاليط الحُلْم بذلك، وهو ما لا يتفسَّر ولا يتحصل، ثمَّ حكى قول من قال: إِنَّه مُفتر قاصد للكذب، ثم حكى قول من قال: شاعر، وهي مقالة فرقة عاميَّة منهم، لأَن نبلاءَ العرب لم يخف عليهم بالبديهة أَن مباني القرآن ليست مباني شِعْر، ثم حكى

اقتراحهم وتمنيهم آيةً تضطرهم وتكون في غاية الوضوح كناقة صالح عليه السلام وغيرها، وقوله: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ دالٌّ على معرفتهم بإتيان الرُّسل الأُمم المتقدمة.

وقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ قبله كلام مقدرٌ يدل عليه المعنى، تقديره: والآية التي طلبوها عادتُنا أَن القوم إن كفروا بها عاجلناهم، وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة، فهذه كانت تؤمن؟ وقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ جملة في موضع الصفة للقرية، والجُمل إذا أُتبعت النكرات فهي صفات لها، وإذا أُتبعت المعارف فهي أَحوال منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ ردٌّ على فرقة منهم كانوا يستبعدون أَن يبعث الله من البشر رسولاً يشِفُّ[1] على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل، فمثل الله تعالى في الردّ عليهم بمن سبق من الرُّسل من البشر، وقرأَ الجمهور: [يُوحى] على بناء الفعل للمفعول، وقرأَ حفص عن عاصم: [نُوحِي] بالنون، ثم أَحالهم على سؤال أَهل الذّكر من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا أَثارة من علم.

واختلف الناس في أَهل الذِّكر، من هم؟ فَرُوي عن عبد الله بن سلام أَنه قال: أَنا من أَهل الذّكر، وقالت فرقة: هم أَحبار أَهل الكتاب، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: أَنا من أَهل الذِّكر، وقالت فرقة: هم أَهل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا موضع ينبغي أَن يُتَأَمَّل[2]؛ وذلك أَنَّ الذكر هو كل ما يأْتي من تذكير الله عباده، فأَهل القرآن أَهل ذكر، وهذا أَراد عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَمَّا المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أَن يكونوا أَهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأَنهم كانوا خصومهم، وإنما أُحيلوا على سؤال أَحبار أَهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد ﷺ، فتجيءُ شهادتهم ـ بأَن الرُّسل قديماً من البشر لا مطعن فيها ـ لازمة لكفار قريش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا﴾، قيل: الجسد من الأَشياء يقع على ما لا

(١) أي يزيد: الشَّفُّ: الرِّبح والفضل والزيادة، وهو أيضاً النقصان، يقال: شَفَّ الدرهم يشفُّ إذا زاد وإذا نقص.

(٢) في بعض النسخ: ينبغي أن يتأول.



يتغذى، ومنه قوله سبحانه: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾[1]، فمعنى هذا: ما جعلناهم أجساداً لا تتغذَّى، وقيل: الجسد يعم المتغذِّي من الأجسام وغير المتغذي، فالمعنى: ما جعلناهم أجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأْكلون الطعام كالجمادات أو كالملائكة، فـ﴿جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ على التأويل الأول منفيٌّ، وعلى الثاني موجب والنَّفيُ واقع على صفته، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، ثم نفى عنهم الخُلْد لأَنه من صفات القديم، وكل محدث فغير خالد في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه وعيد في ضِمْن وَصْفه تعالى سِيرَتَهُ في الأَنبياء عليهم السلام من أَنه يصدق مواعيدهم، فكذلك يصدق لمحمد ﷺ ولأَصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة. وقوله: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ يعني من المؤمنين، و«المسرفون»: الكفارُ المفرطون في غيِّهم وكفرهم، وكل من ترك الإِيمان مسرف.

ثم وبَّخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، والكتابُ: القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد: فيه الذِّكر الذي أَنزله الله إِليكم بأَمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه، فأَضاف الذِّكر إِليهم من حيث هو في أَمرهم، ويحتمل أَن يريد: فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تُذكر عظام الأُمور، وفي هذا تحريض، ثمَّ أَكَّد التحريض بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وحركهم بذلك إِلى النَّظر.

ثم مثَّل لهم على جهة التوعُّد بمن سلف من الأُمم المعذَّبة، و[كَمْ] للتكثير، وهي في موضع نصب بـ[قَصَمْنَا]، و[قَصَمْنَا] معناه: أَهلكنا، وأَصل القَصْم: الكسر في الأَجرام، فإِذا استعير للقوم والقرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر، وهو إِهلاكهم، فأَوقع هذه الأُمور على القرية والمراد أَهلها، وهذا مَهْيَع كثير، ومنه: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ معناه: خَلَقنا وأَثبتنا أُمة أُخرى غير المُهْلَكَة.

---

(١) من الآية (٨٨) من سورة (طه).

(٢) من الآية (٦) من سورة (الأنبياء).



وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ وصف عن قرية من القُرى المجملة أَولاً، قيل: كانت باليمن تسمَّى حَضُوراءِ بعث الله تعالى إِلى أَهلها رسولاً فقتلوه، فأَرسل إِليهم بختنصر صاحب بني إِسرائيل، فهزموا جيشه مرتين، فنهض في الثالثة إِليهم بنفسه، فلما هزمهم وأَعمل القتل فيهم ركضوا هاربين، ويحتمل أَلا يريد بالآية قرية بعينها، وأَنه واصف كلَّ قرية من القرى المعذبة، وأَن أَهل كل قرية كانوا إِذا أَحسُّوا العذاب من أَي نوع كان أَخذوا في الفِرار، و«أَحَسُّوا»: باشروا بالحواسِّ. و«الرَّكْضُ»: تحريك القدم على الصفة المعهودة، والفَارُّ والجاري بالجملة راكضٌ، إِمَّا دابة وإِمَّا الأَرض تشبيهاً بالدَّابة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يحتمل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ إِلى آخر الآية أَن يكون من قول رجال بختنصر على الرواية المتقدمة، فالمعنى على هذا أَنهم خدعوهم واستهزءُوا بهم بأَن قالوا للهاربين منهم: لا تفرُّوا وارجعوا إِلى مواضعكم لعلَّكم تسأَلون صلحاً أَو جزية أَو أَمراً يتفق عليه، فلما انصرفوا أَمر بختنصر أَن ينادي فيهم: يا ثارات النبي المقتول، فقتلوا بالسَّيف عن آخرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله مروي. ويحتمل أَن يكون ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ إِلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب على التأْويل الآخر، أَن الآيات وصف قصة كل قرية، وأَنه لم يُرد تعيين حَضُوراء ولا غيرها، فالمعنى على هذا أَن أَهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أَنهم من الله بمكان، وأَنه لو جاءهم عذاب أَو أَمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أَو يسأَلوا عن وجه تكذيبهم لنبيِّهم، فيحتجون هم عند ذلك بِحُجَجٍ تنفعهم في ظنهم، فلمَّا نزل العذاب دون هذا الذي أَمَّلوه وركضوا فارِّين نادتهم الملائكة ـ على وجه الهُزْءِ بهم ـ: لا تركضوا وارجعوا لعلَّكم تُسأَلون كما كنتم تطمعون بسفه رأْيكم، ثم يكون قوله: ﴿حَصِيدًا﴾ أَي بالعذاب تُركوا كالحصيد. و«الإِتْراف»: التَّنعيم، و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ معناه:

دعاؤُهم وكلامهم، أَي: لم ينطقوا بغير التأَسُّف، و«الْحَصِيدُ» يشبه بحصيد الزرع بالمنجل، أَي ردَّهم الهلاك كذلك، و﴿خَٰمِدِينَ﴾ أَي موتَى دون أَرْواحٍ، مشبَّهين بالنَّار إِذا طفيت.

ولمَّا فرغ وصف هذه الحال وعظ الله تعالى السَّامعين بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، أَي: كما ظنَّ هؤلاء الذين نزل بهم ما نزل، وكما تظنُّون أَيُّها الكفرة الآن، ففي الآية وعيد بهذا الوجه، والمعنى: إِنما خلقنا هذا كله لِيُعتبر به ويُنْظر فيه ويُؤْمن بالله بِحَسَبِهِ.

قال بعض الناس: [تُسْأَلُونَ] معناه: تفهمون وتفقهون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير لا يعطيه اللَّفظ، وقالت فرقة: [تُسْأَلُونَ] معناه: شيئاً من أَموالكم وعَرَض دنياكم، على جهة الهُزْءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ظاهر هذه الآية الرَّدُّ على من قال من الكفار أَمر مريم وما ضارعه من الكفر، تعالى الله عن قول المبطلين، و«اللَّهْوُ» في هذه الآية: المرأَةُ، ورُوي أَنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة، و[إِنْ] في قوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يحتمل أَن تكون الشرطية، بمعنى: لَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ، ولَسْنَا كذلك، وللمتكلِّمين هنا اعتراض وانفصال، ويحتمل أَن تكون نافية، بمعنى (ما)، وكل هذا قد قيل.

و«الْحَقُّ» عامٌّ في القرآن والرِّسالة والشَّرع وكل ما هو حق، و«الْبَاطِلُ» أَيضاً عامٌّ كذلك، [يَدْمَغُهُ] معناه: يصيب دماغَه، وذلك مُهْلِك في البشر، فكذلك الحق يهلِك الباطل، و«ٱلْوَيْلُ»: الخِزْيُ والهَمُّ، وقيل: هو اسم وادٍ في جهنَّم فهو المراد في هذه الآية، وهذه مخاطبة للكفَّار الذين وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يجوز عليه وما لا يليق به، تعالى الله وتبارك وتقدَّس وتنزَّه عن قولهم، بل هو كما وصف نفسه، وفوق ما نعته به خلقه، لاَ رَبَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون ابتداءَ كلام، ويحتمل أن يكون معادلاً لقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾، كأنه تقسيم الأمر في نفسه، أي: للمختلقين هذه المقالة الويلُ وله تعالى من في السموات والأرض، واللاَّم في ﴿لَهُۥ﴾ لام المِلْك، و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعم الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه من الملائكة بقوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾؛ لأن [عِنْد] هنا ليست في المسافات، وإنما هي تشريف في المنزلة، فوصفهم تعالى بأنهم لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يسأمونها ولا يكلُّون فيها. و«ٱلۡحَسِيرُ» من الإبل: المُعْيِي، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ ٱلْوَجَى كَمْ كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى ... وَلاَ زَالَ مِنْهَا ضَالِعٌ وَحَسِيرُ[1].

و«حَسَرَ» و«اسْتَحْسَرَ» بمعنى واحد، وهذا موجود في كثير من الأفعال، وإن كان في استفعل لطلب الشيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾، روي عن كعب الأَحبار رحمه الله تعالى أنه قال: جعل الله لهم التَّسبيح كالنَّفَس وطَرْف العين للبشر، يقع منهم دائماً دون أن تلحقهم فيه سآمة، وقال قتادة رحمه الله: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ مع أصحابه إذ قال: «تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيءٍ يا رسول الله. قال: «إنِّي لأَسمع أَطيط السماء، وحقَّ لها أن تئِط، ليس فيها موضع راحة إلاَّ وفيها مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم»[2].

---

(١) الوَجَى: الحَفَى، يقال: وَجِيَ الماشي إذا حَفِيَ، وهو أن يرقَّ القدم، يقال للإنسان والحيوان، والنَّوَى: البُعْد والفراق، والضَّالع: القوي الشديد الأضلاع، يصف الإبل بأنها أصيبت بالحفى من كثرة ما سافرت وأبعدت الناس، وبأن فيها القوي الذي لا يزال قادراً على السير، وفيها الضعيف الذي أصيب بالعجز عن السير.

(٢) الحديث في الطبري، عن قتادة، وأخرجه الترمذي، وابن ماجه في الزهد، كما أخرجه أحمد في مسنده عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، (٥/ ١٧٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذه [أَمْ] التي هي بمنزلة ألف الاستفهام، وهي هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أَنها بمنزلة (بل) مع ألف الاستفهام، كأَن في القول إِضراباً عن الأَول ووقفهم الله تعالى بقوله: هل اتَّخَذُوا آلِهَةً يُحْيُونَ ويخترعون؟ أَيْ: ليست آلهتهم كذلك، فهي غير آلهة؛ لأَن مِنْ صِفة الإِله القدرةُ على الإِحياءِ والإِماتة. وقرأَت فرقة: [يُنْشِرُونَ] بضم الياء، بمعنى: يُحْيُون غيرهم، وقرأَت فرقة أُخرى: [يَنْشُرُونَ][1] بمعنى يَحْيَون هم وتدوم حياتهم، يقال: نَشَر الميتُ وأَنشره الله.

ثمَّ بيَّن تبارك وتعالى أَمر التمانع بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]، وذلك بأَنه كان يبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق، واقتضاب القول في هذا أَنَّ إِلهَيْن لو فُرضا فرَّق بينهما الاختلاف في تحريك جِرْم وتَسْكِينه، فمحال أَن تتم الإِرادتان، ومحالٌ أَلاَّ تتما جميعاً، وإِذا تمَّت الواحدة كان صاحب الأُخرى عاجزاً، وهذا ليس بإِله، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما. ونظرٌ آخر، وذلك أَن كل جزءٍ يخرج من العدم إِلى الوجود فمحال أَن تتعلَّق به قدرتان، فإِذا كانت قدرة أَحدهما توجد بَقِيَ الآخر فَضْلاً لا معنى له في ذلك الجزء، ثمَّ يتمادى النَّظر هكذا جُزْءاً جُزْءاً. ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما وصفه به أَهل الجهالة والكفر.

ثم وصف تعالى نفسه بأَنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، وهذا وصف يحتمل معنَيَيْن: إِمَّا أَن

---

(١) أي بفتح الياءِ وضم الشين، فهي مضارع (نَشَرَ)، أَمَّا القراءةُ بضم الياء وكسر الشِّين فهي على ان الفعل مضارع (أَنْشَر)، وهما لغتان، نَشَرَ وأَنْشَر متعديان، ونَشَر يأتي لازماً، تقول: أَنْشَر اللهُ الموتى فَنَشِرُوا، أي: فَحَيُوا، قال ذلك صاحب البحر.

(٢) قال الكسائي وسيبويه: [إِلاَّ] هنا بمعنى (غير)، فلما جعلت (إِلاَّ) في موضع (غير) أُعرب الاسم الذي بعدها بإِعراب (غير)، كما قال الشاعر:

وَكُــلُّ أَخٍ مُفَــارِقُــهُ أَخـوه ... لَعَمْــرُو أَبِيــكَ إِلاَّ الفَــرْقَــدَانِ

وقال الفراءُ: [إِلاَّ] هنا في موضع (سِوَى)، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى الله لفسدتا.



يريد أنه بحق ملكه وسُلطانه لا يُعارض ولا يُسْأَل عن شيءٍ يفعله؛ إِذْ له أَن يفعل في مِلْكِهِ ما يشاءُ، وإِمَّا أَن يريد أَنه مُحْكَمُ الأَفعال وواضع كل شيءٍ في موضعه، فليس في أَفعاله سؤالٌ ولا اعتراض. وهؤلاء من البَشَر يُسْأَلون لهاتين العِلَّتين؛ لأَنهم ليسوا مالكين، ولأَنهم في أَفعالهم خَلَل كثير(١).

ثم قرَّرهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكيره وبيان فساده، وفي هذا التقرير زيادة على الأول، وهي قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، فكأَنه قَرَّرهم هنا على قصد الكفر بالله عزَّ وجلَّ، ثم دعاهم إِلى الحُجَّة والإِتيان بالبرهان.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يحتمل أَن يريد بـ[هَذَا] جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أَي: ليس فيها برهان على اتخاذ الآلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك، ويحتمل أَن يريد بقوله: [هَذَا] القرآن، والمعنى: فيه ذِكْرُ الأَولين وذكر الآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشَّرع لهم وردّهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقصِّ أَخبارهم وذكر الغيوب في أُمورهم. ومعنى الكلام ـ على هذا التأْويل ـ عرض القرآن في معرض البرهان، أَي: هاتوا برهانكم فهذا برهاني أَنا ظاهرٌ في ذكر من مَعي وذكر مَن قَبْلي. وقرأَت فرقة: [هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي] بالإِضافة فيهما، وقرأَت فرقة: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بالإِضافة [وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي] بتنوين [ذِكْرٌ] الثاني وكسر الميم في قوله: ﴿مِّن قَبْلِى﴾، وقرأَ يحيى بن سعيد(٢)، وابن مصرف بالتنوين في [ذِكْر] من المَوْضِعَيْن وكسر الميم في [مِنْ] في المَوْضِعين، وضَعَّف أَبو حاتم هذه القراءة، كسر الميم في الأَول، ولم يَرَ لها وَجْهاً(٣).

---

(١) رُوي أن رجلاً قال للإمام علي رضي الله عنه: أيحبُّ ربنا أن يُعصى؟ قال: أفَيُعصى ربنا قهراً؟ قال: أرأيت إن منعني الهُدى ومنحني الرَّدَى ٱلْحَسَنَ إليَّ أَمْ أَسَاءَ؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضلَه فهو فضلُه يؤتيه من يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

(٢) في كتب التفسير والقراءات: «يَحْيَى بن يَعْمَر»، وهو غير يحيى بن سعيد الأنصاري، ولعلَّ الخطأ من النساخ.

(٣) قال: لأن (مَنْ) دخلت على (مَعْ)، وقال أبو الفتح: «هذا أحد ما يدل على أن (مع) اسم، وهو دخول (مِن) عليها، حكى صاحب الكتاب، وأبو زيد ذلك عنهم: جئتُ مِنْ مَعِهِمْ، أي: مِن عندهم، فكأنه قال: هذا ذِكْرٌ مِن عندي ومِنْ قَبْلي، أي: جئتُ انا به كما جاءَ به الأنبياءُ من قَبْلي، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾».



ثم حكم عليهم تعالى بأَن أكثرهم لا يعلمون الحقَّ لإعراضهم عنه، وليس المعنى: فهم مُعرِضون لأنهم لا يعلمون، بل المعنى: فهم معرضون ولذلك لا يعلمون الحقَّ، وقرأ الحسن، وابن محيصن: [ٱلْحَقُّ] بالرَّفع على معنى: هذا القول هو الحقُّ، والوقف في هذه القراءَة على ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لمَّا أَخبرهم تبارك وتعالى أَنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أَتبع ذلك بإعلامه أَنه ما أَرسل رسولاً قطُّ إلاَّ أَوْحَى إليه أَن الله تعالى فردٌ صمدٌ، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النُّبُوَّات، وإنما اختلفت في الأَحكام. وقرأ حمزة، والكسائي: [نُوحِي] بنون مضمومة، وقرأ الباقون: [يُوحَى] بياءٍ مضمومة، واختلف عن عاصم[2].

ثمَّ عدَّد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم، وذلك أَنهم مع اتخاذهم آلهةً كانوا يُقرُّون بأَن الله تعالى هو الخالق الرَّازق إلاَّ أَنهم قال بعضهم: اتَّخَذَ الملائكة بنات، وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم، واليهود في عُزَير، فجاءَت هذه الآية رادَّة على جميعهم مُنبِّهة عليهم. ثم نزَّه تعالى نفسه عن مقالة الكفرة، وأَضرب عن مقالهم، ونَصَّ ما هو الأَمر في نفسه بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وهذه عبارةٌ تشمل الملائكة وعيسى وعُزَيراً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ عبارة عن حُسْنِ طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامتثال الأَمر. وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَي: ما تقدم من أَفعالهم وأَعمالهم والحوادث التي لها إليهم تسبب، وما تأَخَّر، ثم أَخبر أَنهم لا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى الله أَن يشفع لهم، قال بعض المفسرين: لأَهل لا إله إلا الله. و«المُشْفِقُ»: المُبالغ في الخوف المحترقُ النفس من الفزع على أَمْرٍ مَّا.

---

(١) ويكون قوله سبحانه ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مستأنفاً، وتقدير الكلام: «هذا الحقُّ»، فهو خبر مبتدأ محذوف، ويوقف أيضاً على ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ثم يستأنف الكلام فيقال: ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(٢) فروى حفص عنه القراءة بالنون، وروى أبو بكر عنه القراءة بالياء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

المعنى: من يَقُل منهم كذا إن لو قاله، وليس منهم من قال هذا، وقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ ﴾ الآية... إبليسُ[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف؛ لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنَّه ادَّعى رُبوبيَّة.

وقرأ الجمهور: [نَجْزِيهِ] بفتح النون، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد[٢]. [نُجْزِئْهِ] بضم النون والهاءِ، ووَجْهُها أن المعنى: نجعلها تكتفي به، من قولك: أَجزأَني الشيءُ، ثم خففت الهمزة ياءً[٣]. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كجزائنا هذا القائل جزاؤنا الظالمين.

ثم وَقَفهم تعالى على عِبْرَة دالَّة على وحدانية الله جلَّت قدرته. و«الرَّتْقُ»: الملتصق بعضه ببعض الذي لا صَدْع فيه ولا فتح، ومنه: «امرأةٌ رَتْقاء»[٤]. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾، فقالت فرقة: كانت السماءُ ملتصقة بالأَرض ففتقهما الله بالهواء، وقالت فرقة: كانت السماءُ ملتصقة بعضها ببعض والأَرض كذلك ففتقهما الله سبعاً سَبْعاً.

---

(١) القائل بأن المراد بالآية إبليس هو قتادة والضحاك، على اعتبار أنه ادَّعى الشركة.

(٢) في بعض النسخ: «عبد الله بن سعيد»، وهو خطأ، والمراد عبد الله بن يزيد المكي، أبو عبد الرحمن المقرىء أصله من البصرة أو الأهواز، قال عنه في التقريب: «ثقة فاضل، أقرأ القرآن نيفاً وسبعين سنة، من التاسعة، وهو من كبار شيوخ البخاري، مات سنة ثلاث عشرة» يعني ومائتين.

(٣) قال ابن مجاهد عن هذه القراءة: لا أدري ما ضم النون، لا يقال إلاَّ: جَزَيْتُ، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ وقال ابن جني عنها: «هذا لعمري غريب عن الاستعمال، إلاَّ أن له وجهاً أذكره»، وهو الذي لخصه هنا ابن عطية رحمه الله.

(٤) جاء في اللسان (رتق): «وهي رتقاءُ بيِّنه الرَّتَق: التصق ختانُها فلم تُنَل لارتِتَاق ذلك المواضع منها، فهي لا يستطاع جماعها».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذين القولين فالرُّؤْيَة المُوقَف عليها رؤْية القلب.

وقالت فرقة: السماءُ قبل المطر رَتْق، والأرض قبل النبات رَتْق، ففتقهما الله تعالى بالمطر والنبات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾[(١)]، وهذا قولٌ حسن يجمع العِبْرة وتَعْدِيد النِّعمة والحُجَّة بمحسوسٍ بيِّن، ويناسب قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، أَي: من الماء الذي أَوجده الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجَّه الاعتبار. وقالت فرقة: السماءُ والأَرض رتق بالظلمة ففتقهما الله تعالى بالضوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرُّؤْية على هذين القولين رؤْية العين، والأَرض هنا اسمٌ للجنس، فهو جمع.

وقرأَ الجمهور: [رَتْقاً] بسكون التاءِ، و«الرَّتْقُ»: مصدرٌ وُصف به كالزُّوْر والعَدْل. وقرأَ الحسن، والشَّعبي، وأَبو حيوة: [كَانَتَا رَتَقاً] بفتح التاء، وهو اسم المرتوق كالنَّفْض والنَّفَض والخَبْط والخَبَط[(٢)]، وقال: [كَانَتَا] من حيث هما نوعان، ونحوه قول عمرو بن شُيَيْم[(٣)]:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكَ أَنَّ حِبَـالَ قَيْـسٍ ... وَتَغْلِـبِ قَـدْ تَبَـايَنَتَـا ٱنْقِطَـاعَـا[(٤)]

---

(١) الآيتان (١١ـ ١٢) من سورة (الطارق).

(٢) قال ابن جنِّي في المُحْتَسِب: «قد كثر عنهم مجيءُ المصدر على فَعْل ساكن العين، واسم المفعول منه على فَعَل مفتوحها، وذلك قولهم: النَّفْض للمصدر والنَّفَض للمنفوض، والخَبْط المصدر والخَبَط الشيءُ المخبوط، والطَّرْد المصدر والطَّرَد المطرود، وإِن كان يستعمل مصدراً نحو الحَلْب والحَلَب، فقراءة الجماعة: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ كأنه مما وُضع من المصادر موضع اسم المفعول، كالخَلْق بمعنى المخلوق، وأما [رَتَقاً] بفتح التاءِ فهو المرتوق، أي: كانتا شيئاً واحداً مرتوقاً».

(٣) هكذا في الأصول، وهو خطأٌ من النساخ، فالاسم الحقيقي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيم، من بني تغلب، وهو المعروف باسم القُطامي ـ بضم القاف وفتحها ـ، راجع ترجمته في الأغاني، وخزانة الأدب، والاشتقاق، والمؤتلف، والجُمحي، والمرزباني.

(٤) هذا البيت من قصيدة للقطامي، ومطلعها: «قِفِي قبلَ التَّفرق يا ضباعا»، وقد قالها يمدح زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أسره في حرب كانت بين قيس عيلان وتغلب، وأرادت قيس قتل القطامي، لكن زُفر حال بينهم وبينه، ومَنْ عليه، ووهب له مائة ناقة، وردَّه إلى تغلب مكرماً، فقال:

أَأَكْفُـرُ بَعْـدَ رَدِّ الْمَـوْتِ عَنِّـي ... وَبَعْـدَ عَطَـائِـكَ الْمَائَـةَ الـرِّتَـاعَـا؟ =



وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ في القولين بمنزلة قولك: «كَانَ زيدٌ حَيّاً»، أي: ثم لم يكن، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك: «كان زيد عالماً»، أي: وهو كذلك. وقرأ ابن كثير وحده: [أَلَمْ يَرَ] بإسقاط الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ بيّنٌ أنه ليس على عمومه، فإن الملائكة والجن قد خرجوا من ذلك، ولكن الوجه أن يُحمل على أعم ما يمكن، فالحيوانُ أجمع والنَّباتُ ـ على أن الحياة فيه مستعارة ـ داخلٌ في هذا. وقالت فرقة: المراد بالماء المنيُّ الذي في جميع الحيوان. ثم وقفهم على ترك الإيمان توبيخاً وتقريعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

الرَّواسي جمع راسية، أي ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت واستقر، ولا يستعمل إلاَّ في الأجرام الكبار كالجبال والسَّفينة ونحوها[1]. ويُروى أن الأرض كانت تكفأ بأهلها حتى ثقلها الله بالجبال فاستقرَّت. و«المَيَد»: التحرُّك، و«الْفِجَاجُ»: الطرق المتَّسعة في الجبال وغيرها و[سُبُلاً]: جمع سبيل، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود على الرَّواسي، ويحتمل أن يعود على الأرض، وهو أحسن. و﴿يَهْتَدُونَ﴾ معناه: في مسالكهم وتصرُّفهم.

= والمراد بالجبال في البيت ما بين قيس وتغلب من علاقات وعهود، وتباينت: تفرقت واختلفت، أي: انقطعت الصِّلات بينهما، والشاهد أن الشاعر قال: تباينَتَا بلفظ التثنية، مع أن (حبال) جمع، فكان الظاهر أن يقول: تبايَنَت انقطاعاً، وأن يراعي الجمع في الحبال، ولكنه راعى أنهما نوعان، حبال لقيس وحبال لتغلب. ومثل هذا البيت قول الأسود بن يَعْفُر:

إنَّ المَنِيَّــةَ والحُتُــوفَ كِــلاهُمَــا ... تُــوفِــي المَخَــارِمَ يَــرقُبَــان سَــوَادِي

فقد قال: يرقبان، ولو جرى على ما يقتضيه الظاهر لقال: ترقُب سوادي، لأن المنيّة والحتوف عدة أشياء.

(١) في بعض النسخ: ونحوه.



و«السَّقْفُ»: ما عَلاَ، والْحِفْظُ هنا عامٌّ في الْحِفْظ من الشياطين ومن الوهى والسُّقوط وغير ذلك من الآفات.

و«آيَاتُهَا»: كواكبُها وأَمطارها والرَّعد والبرق والصَّواعق وغير ذلك مما يشبهه. وقرأَت فرقة: ﴿عَنْ ءَايَتِهَا﴾ بالإِفراد الذي يراد به الجنس.

و«ٱلْفَلَكُ»: الجِسْم الدائر دورة اليوم واللَّيلة، فالكلُّ في ذلك سابح متصرف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعن بعض المفسرين إِلى الكلام فيما هو الفَلَك[1]، فقال بعضهم: كحديدة الرحى، وقال بعضهم: كالطَّاحونة، وغير هذا مما لا ينبغي التَّسَوُّر عليه[2]، غير أَنَّا نعرف أَن الفَلَك جسم مستدير، و﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يتصرَّفون، وقالت فرقة: الفَلَك موجٌ مكفوف، ورأَوْا قوله: [يَسْبَحُونَ] من السِّباحة وهي العوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قيل: إِن سبب هذه الآية أَن بعض المسلمين قال: إِنَّ محمداً لن يموت وإِنما هو مخلَّد، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأَنكره، ونزلت هذه الآية. والمعنى: لم نُخلِّد أَحداً، ولا أَنت نخلِّدك، وينبغي أَلاَّ يَنْتَقِمَ أَحدٌ من المشركين عليك في هذا أَفَهُمْ مُخَلَّدون إِنْ مت أَنت فيصح لهم انتقام[3]؟

وقيل: إِن سبب الآية أَن كفار مكة طعنوا على النبي ﷺ بأَنه بشرٌ، وأَنه يأْكُل الطعام

---

(١) هكذا في جميع الأصول، ولعلَّ بعض الكلام قد سقط من النساخ.

(٢) هكذا في جميع الأصول، ولعلَّه يريد: مما ينبغي الهجوم عليه، لأن التَّسَوُّر على الشيء فيه هجوم عليه، يقال: تَسَوَّرتُ الحائط: هجمت عليه ـ راجع اللسان.

(٣) في اللسان (نقم): (انتَقَمَ وَنَقِمَ الشيءَ ونَقَمَه: أَنكره، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، فالمعنى المراد من عبارة المؤلف هنا: ينبغي أَلاَّ يُنْكر أَحد من المشركين عليك، أَفَهُم مخلدون ليصح لهم الإنكار عليك؟ وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ

ويموت، فكيف يصح إرساله؟ فنزلت الآية رادَّة عليهم. وألف الاستفهام داخلةٌ في المعنى على جواب الشرط، وقُدِّمت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام، والتقدير: أَفَهُمُ الخالدون إنْ مِتَّ؟ والفاءُ في قوله تعالى: ﴿أفإن﴾ عاطفة جملة على جملة، وقرأت فرقة: [مُتَّ] بضم الميم، وقرأت فرقة: [مِتَّ] بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ عموم يُراد به الخصوص، والمراد كلُّ نفس مخلوقة. و«الذَّوْقُ» هاهنا مستعار، و[نَبْلُوكُمْ] معناه: نختبركم، وقدم الشَّر لأن الابتلاءَ به أكثر، ولأن العرب من عادتها أن تقدم الأقلَّ والأرْدَأَ، فمنه قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2]، فبدأ بتقسيم أُمَّة محمد ﷺ بالظُّلم. وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه جعل الخير والشَّر هاهنا عامّاً في الغنى والفقر والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن المراد من الخير والشَّر هنا كلُّ ما يصح أن يكون فتنةً وابتلاءً، وذلك خير المال وشرُّه، وخير البَدَن وشرُّه، وخير الدنيا في الحياة وشرِّها، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا، ولا الطَّاعة والمعصية؛ لأن من هُدِيَ فليس نفسُ هُداه اختباراً، بل قد تَبَيَّن خيره، فعلى هذا ففي الخير والشَّرِّ ما ليس فيه اختبارٌ، كما يوجد أيضاً اختبار بالأوامر والنواهي وليس بداخل في هذه الآية.

و[فِتْنَةً] معناه: امتحاناً وكشفاً[3]. ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن الرَّجعة إليه والقيام من القبور، وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وعيدٌ. وقرأت فرقة: [تُرْجَعُونَ] بضم التاءِ، وقرأت فرقة: [تَرْجِعُونَ] بفتحها، وقرأت فرقة: [يُرْجَعُونَ] بالياءِ مضمومة، على الخروج من الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف).
(٢) من الآية (٣٢) من سورة (فاطر).
(٣) وهو منصوب على أنه مفعول به، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى [نَبْلُوكم].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

رُوي أَن أَبا سفيان وأَبا جهل بن هشام رأَيا رسول الله ﷺ في المسجد فاستهزءا به فنزلت الآية[١] بسببها، وظاهر الآية أَن كفار قريش وعظماءهم يعمهم هذا المعنى من أَنهم ينكرون أَخذ رسول الله ﷺ في أَمر آلهتهم، وذكره لهم بفساد. و[إِنْ] بمعنى (ما)، وفي الكلام حذف تقديره: يقولون: أَهذا الذي؟ وقوله: ﴿يَذْكُرُ﴾ لفظ يعمُّ المدح والذم لكن قرينة المقال أَبداً تدل على المراد من الذِّكر، وتَمَّ ما حكى عنهم في قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾.

ثم ردَّ عليهم بأَن قرن بإِنكارهم ذِكر الأَصنام كُفْرَهم بذكر الله، أَي: فهم أَحق بالملام، وهم المخطئون. وقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ﴾ أَي: بما يجب أَن يُذكر به، و«لا إله إلا الله» منه. وقوله سبحانه: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، روي أَن الآية نزلت حين أَنكروا هذه اللَّفظة وقالوا: ما نعرف الرَّحمن إِلاَّ باليمامة، وظاهر الكلام أَن [ٱلرَّحْمَن] قُصد به العبارة عن الله تعالىٰ، كما لو قال: وهم بذكر الله، وهذا التأْويل أَغرق في ضلالهم وخطئهم.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ توطئة للرَّدِّ عليهم في استعجالهم العذاب، وطلبهم آية مقترحة، وهي مقرونة بعذاب مُجَهَّز إِن كفروا بعد ذلك. وَوَصَفَ تعالى الإِنسان الذي هو اسم الجنس بأَنه خُلق من عجل، وهذا على جهة المبالغة، كماتقول للرجل البَطَّال: أَنت من لعب ولَهْو، وكما قال رسول الله ﷺ: «لَسْتُ من دَدٍ وَلاَ دَدٌ مِنِّي»[٢]. وهذا نحو قول الشاعر:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه، وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلاَّ حمية، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية. «الدر المنثور».

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٥) والطبراني في الأوسط (٤١٣) عن أنس مرفوعاً وإسناده ضعيف. وذكر هذا الحديث ابن الأثير في النهاية بلفظ: «ما أنا مِن دَدٍ ولا الدَّدُ مِنِّي»، وكذلك ذكره ابن منظور في=

وَأَنَّـا لَمِمَّـا نَضْـرِبُ الْكَبْـشَ ضَـرْبَـةً   عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ(١)

كأَنهم لمَّا كانوا أَهل ضرب للهام وملازمة للحرب قال: إِنهم من الضرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يتم به معنى الآية المقصود في أَن ذمت عَجَلتهم وقيل لهم على جهة الوعيد: إن الآيات ستأتي فلا تستعجلون، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾: إِنَّه من المقلوب، كأَنه أَراد: خُلق العَجَل من الإِنسان، على معنى أَنه جعل طبيعة من طبائعه وجزءاً من أَخلاقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل ليس فيه مبالغة، وإِنما هو إِخبارٌ مجرد، وإِنما حمل قائليه عليه عَدَمُهم وجه التجوُّز والاستعارة في أَن يبقى الكلام على ترتيبه، ونظير هذا القلب الذي قالوه قولُ العرب: «إِذا طلعت الشِّعرى استوت العود على الحِرْباء»، وكما قالوا: «عرضت النَّاقة على الحوض»(٢)، كما قال الشاعر:

حَسَـرْتُ كَفِّـي عَـنِ السِّـرْبَـالِ آخُـذُهُ   فَـرْداً يُجَـرُّ عَلَـى أَيْـدِي ٱلْمُفَـدِّينَـا(٣)

= «اللسان» بهذا اللفظ، والدَّدُ: اللهو واللعب، وهي محذوفة اللام، وقد استعملت مُتَممة، فقيل: دَداً كنَدَىً، ودَدَنٌ بالنون، قال ابن الأثير: وتنكير الدَّدِ في الجملة الأولى يفيد الشياع والاستغراق، أي: ما أنا في شيءٍ من اللهو واللعب، وعرَّفه في الجملة الثانية لأنه صار معهوداً بالذكر، كأنه قال: ولا ذلك النوع مني، وقيل: إن اللام فيه لاستغراق الجنس، وفي الموضعين مضاف محذوف، والتقدير: ما أنا من أهل دَدٍ، ولا الدَّدُ من أشغالي.

(١) هذا البيت لأبي حَيَّةَ النُّمَيْري، وهو في الخزانة، وأمالي ابن الشجري، والكتاب، والهمع، وشرح شواهد المغني، والكَبْش: رئيس القوم يحميهم ويدافع عنهم، وقد سبق الفرزدق بقوله:

وَإِنَّـا لَمِمَّـا نَضْـرِبُ الْكَبْـشَ ضَـرْبَـةً   عَلَى رَأْسِهِ وَالْحَـرْبُ قَـدْ لاَحَ نَـارُهَـا

وقد وضح ابن عطية موضع استشهاده بالبيت، على أن النحويين يستشهدون به على أنَّ (ما) تأتي بعد (مِن) فتكونان معاً بمنزلة كلمة واحدة، مثل (رُبَّما)، وبهذا يصير المعنى: مِن أَمْرِنَا وَشَأْنِنا، وهذا هو الذي وضحه المؤلف.

(٢) هذا من المقلوب في كلام العرب، والأصل: «استوت الحرباءُ على العود»، و«عرضت الحوض على الناقة». والشِّعْرى: كوكب نيِّرٌ يطلع عند شدة الحرِّ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾، وهما شِعْرِيان: الشِّعْرَى العَبُور، والشِّعْرَى الغُمَيْصَاءُ.

(٣) البيت لتميم بن مُقْبل، وهو من قصيدة له اختارها القرشي في «جمهرة أشعار العرب»، ومطلعها: =



وأَما المعنى في تأْويل من رأَى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدَّمناه، وقالت فرقة من المفسِّرين: قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إنما أَراد أَن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجَّل به قبل مغيب الشمس، وروى بعضهم أَن آدم عليه السلام قال: يا ربِّ أَكمل خلقي فإِنَّ الشمس على الغروب أَو قد غربت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية. وقالت فرقة: العَجَلُ: الطِّينُ، والمعنى: خُلق آدم من طين، وأَنشد النقاش:

. . . . وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ[1]

وهذا أَيضاً ضعيف مغايرٌ لمعنى الآية. وقالت فرقة: معنى ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أَي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾، فهو بحال عَجَلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَيضاً ضعيف، وفيه تخصيص ابن آدم بشيءٍ كل مخلوق يشاركه فيه، وليس في هذه الأَقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إِلاَّ القول الأَول.

وقرأَت فرقة: [خُلِقَ الإنسانُ] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَت فرقة: [خَلَقَ الإنسانَ] على معنى: خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ، فمعنى الآية بجملتها ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، على معنى التعجُّب من تعجُّل هؤلاء المقصودين بالردِّ. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أَي: سيأْتِي ما يَسُوؤُكُم إذا مُتُّم على كفركم، يريد يوم بدر وغيره، ثم فسَّر

= طَافَ الْخَيَالُ بِنَا رَكْباً يَمَانِياً وَدُونَ لَيْلَى عَوَادٍ لَوْ تُعَدِّينَا

والرواية في الجمهرة: (حَسَرتُ عَن كَفِّيَ السِّرِبَال)، والسِّربَالُ: القميصُ والدِّرع، والمُفَدُّون: الذي يقولون لي: فديناك من المكاره، أو نحن فداؤك، والشاهد أنه يريد أن يقول: حسرت السربال عن كفِّي لشجاعتي، فهو من المقلوب.

(١) هذا عجز بيت، استشهد به في اللسان (عجل) على أن العَجَل بمعنى الطين، قال: «وقيل: العَجَلُ هاهنا: الطِّينُ والحمأَةُ، وهو العَجَلَة أيضاً، قال الشاعر:

وَالنَّبْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ مَنْبِتُهُ وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ

قال الأزهري: وليس عندي في هذا حكاية عمَّن يُرجع إليه في علم اللغة». وفي البحر المحيط أن أبا عبيدة أنشد هذا البيت، وهو لبعض الحِمْيَرِيِّين، وأن العَجَل بلغة حِمْيَر هو الطين.

تعالى استعجالهم بقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وكان استفهامهم على جهة الهُزْءِ والتكذيب، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يريدون محمداً ﷺ ومَنْ آمَنَ بِهِ؛ لأَن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشَّرع، وموضع [مَتَى] رفع عند البصريين، وقال بعض الكوفيين: موضعه نصب على الظَّرف، والعامل فعل مُقَدَّر تقديره: يكون أَو يجيءُ، والأَول أَصوب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

حُذف جواب [لَوْ] إِيجازاً لدلالة الكلام عليه، وأُبهم قدر العذاب لأَنه أَبلغ وأَهيب من النَّص عليه، وهذا محذوف نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، وتقدير المحذوف في جواب هذه الآية: لَمَا استعجلوا، ونحوه. وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ يريد يومَ القيامة، وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإنسان وأَنها موضع حواسِّه وهو أَحرص على الدِّفاع عنها، ثم ذكر الظُّهور لِيُبَيِّن عموم النار لجميع أَبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ استدراك مُقَدَّر قبله نفيٌ تقديره: إِنَّ الآيات لا تأْتي بحسب اقتراحهم بل تأْتيهم بغتة، والضمير للسَّاعة التي تُصَيِّرهم إِلى العذاب، ويحتمل أَن يكون للنار، وقرأَت فرقة: [بَلْ يَأْتِيهِمْ] بالياءِ على أَن الضمير للوعد، [فَيَبْهَتُهُمْ] بالياءِ على أَن الضمير للوَعْد أَيضاً، و«الْبَغْتَةُ»: الفجأَة عن غير مقدِّمة، و[يَنْظُرُونَ] معناه: يُؤَخَّرُونَ.

ثم آنس الله تعالى محمداً ﷺ بما جرى على سائر الأَنبياء من استهزاءِ قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين، و[حَاقَ] معناه: نَزَل وحلَّ، وهي مستعملة في العذاب والمكاره. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ فيه محذوف تقديره: جزاءَ ما كانوا، ونحوه، ومع هذا التأْنيس الذي لمحمد ﷺ وعيدٌ للكفرة وضَرْبُ مَثَلٍ له بمن سلف من الأُمم.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئتَ به الكافرين بذِكر الرحمن الجاهلين به، قل لهم على جهة التقريع والتوبيخ: من يحفظهم؟ و«كَلأَ» معناه حَفِظَ، ومنه قول النبي ﷺ «اكْلأْ لَنَا الْفَجْرَ»[1]، وفي آخر الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس لهم مانع ولا كالِئٌ، وعلى هذا المعنى[2] تركبت [بَلْ] في قوله سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾، ثم يقضي عليهم التقرير[3] في أنه لا مانع لهم من الله بأَن كشف أَمر آلهتهم، والمعنى: يظنُّون أَن آلهتهم التي بهذه الصفة تمنعهم من دوننا، بل لا يمنعهم أَحد إلاَّ نحن، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما: يُجَارونَ ويُمْنَعون، والآخر: ولاَ هُمْ مِنَّا يُصحبون بخير ولا بركة ونحو هذا، وفي الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس ثمَّ شيءٌ من هذا كله، بل ضلَّ هؤلاء لأَنَّا متَّعناهم ومتَّعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنُّوا أَن حالهم لا تبيد[4]، والمعنى: طال العمر في رخاءٍ.

ثم وقفهم تعالى على مواضع العبرة في الأُمم وفي البشر بحسب الخلاف في الأَطراف، و«الرُّؤْيَة» في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ رؤْية العين تتبعها رؤْية القلب، و[نَأْتِي] معناه: بالقدرة والبأس، و[ٱلْأَرْض] عامة في الجنس، وقوله سبحانه: ﴿ مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ إمَّا أَن يريد: فيما يخرب من المعمور فذاك بعض الأَرض، وإمَّا أَن يريد موت البشر فهو تَنَقُّص للقرون، ويكون المراد حينئذ أَهل الأَرض، وقال قوم: النقص

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في تفسير سورة (طه)، وابن ماجه في الصلاة، وكذلك أخرجه مالك في موطئه في الصلاة. «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي». واللفظ في هذه الكتب: (اكْلأ لنا الليل، أو الصبح).

(٢) في بعض النسخ: «وعلى هذا النفي» يريد النفي في المحذوف المقدر.

(٣) في بعض النسخ: «ثم يقضي عليهم العقوبة».

(٤) في بعض النسخ: «وظنوا أن حالهم لا تَبِين».

من الأَطراف موت العلماء، ثم وقفهم ـ على جهة التوبيخ ـ أَهُم يغلبون من غلب جميع أهل الأَرض وقهر الكلَّ بسلطانه وعظمته؟ أَي إِنَّ ذلك محال بيِّنٌ، بل هم مغلوبون مقهورون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى: قل يا أَيها المُقْترحون المتشططون إِنما أُنذركم بوحي يوحيه الله إِليَّ، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى لِيُنظر فيها، كنُقصان الأَرض من أَطرافها وغيره، ولم أُبعث بآية مُطَّردة ولا بما تقترحونه، ثم قال: [ولا يسمع] بمعنى: وأَنتم معرضون عمَّا أُنذر به، فهو غير نافع لكم، ومَثَّل أَمرهم بالصُّمِّ. وقرأَ جمهور القراءِ: [وَلاَ يَسْمَعُ] بالياءِ وإِسناد الفعل إِلى [ٱلصُّم]، وقرأَ ابن عامر وحده: [وَلاَ يُسْمِعُ] بضم الياءِ وكسر الميم ونصب [الصُّمَّ][1]، وقرأَت فرقة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بالتاء مضمومة وفتح الميم وبناءِ الفعل للمفعول، والفرقتان نصبتا [ٱلدُّعَاءَ][2]، وقرأَت فرقة: [وَلاَ يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءِ] بإِضافة [ٱلصُّمُّ] إِلى [ٱلدُّعَاءِ]، وهي قراءة ضعيفة وإِن كانت متوجهة[3].

ثم خاطب الله تعالى محمداً ﷺ متوعِّداً لهم بقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والنَّفْحة: الخَطْرَة والمسَّةُ، كما تقول: نفح بيده إِذا مال بها هكذا ضارباً إِلى جهة، ومنه «نَفْحَة الطِّيب» كأَنه يخطر خطرات على الحاسَّة[4]، ومنه: نَفَح له من

---

(١) وهي قراءة ابن جبير عن أبي عمرو، وابن الصلت عن حفص، وهي أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ﷺ. ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط».

(٢) وردت هذه القراءة في بعض النسخ، وسقطت في بعض النسخ.

(٣) قال ابن خالويه في كتابه «الحجة»: «الحجة لمن قرأ بالياءِ أنه أفردهم بالفعل فرفعهم بالحديث عنهم، والحجة لمن قرأ بالتاءِ أنه قصد النبي ﷺ بالفعل، ونصب ﴿ٱلصُّمَّ﴾ بتعدي الفعل إليهم، ودليله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] لأن من لم يلتفت إلى وعظ الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يسمع عن الله ما يخاطبه به كان كالميت الذي لا يسمع ولا يجيب»، ولم أجد القراءة بالإضافة في القرطبي، ولا في الطبري، ولا في البحر المحيط، ولم يذكرها ابن جنِّي في «المحتسب» الذي جعله لبيان وجوه شواذ القراءات.

(٤) في اللسان: «نَفَحَ الطيبُ يَنْفَح نَفْحاً ونُفوحاً: أَرَّجَ وفاح، وقيل: النَّفْحة دُفعة الريح، طيبةً كانت أو خبيثة».



عطاياه إذا أخذ منها نصيباً[١]، ومنه: «نَفَحَ الفَرَسُ برجله» إذا ركض[٢]، والمعنى: ولئن مسَّ هؤلاء الكفرة صدمة عذاب في دنياهم لَيَنْدَمُنَّ ولَيُقِرُّنَّ بظلمهم[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لمَّا توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا عقَّب ذلك بتوعُّد بوضع الموازين، وإنما جمعها وهي ميزان واحد لأن لكل أحد وزناً يخصه، ووحَّد [ٱلْقِسْطَ] وهو قد جاءَ بلفظ الموازين مجموعاً من حيث «القِسْط» مصدرٌ وصف به، كما تقول: «قومٌ عدْلٌ ورضَى». وقرأت فرقة: [ٱلْقِصْطَ] بالصاد. وقوله سبحانه: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَي: لحساب يوم القيامة، أَو لحكم يوم القيامة، فهو بتقدير حذف مضاف.

والجمهور على أَن الميزان في يوم القيامة بعمود وكفَّتين توزن به الأَعمال، ليبين للناس المحسوس المعروف عندهم، والخفة والثقل متعلِّقة بأَجسام يقرنها الله تعالى يوم القيامة بالأَعمال، فإمَّا أَن تكون صحف الأَعمال أَو مثالات تُخلق أَو ما شاءَ الله تبارك وتعالى.

وقرأَ نافع وحده: [مِثْقَالُ] بالرفع على أَن تكون مستأنفة، وقرأَ جمهور الناس: [مِثْقَالَ] بالنصب على معنى: وإِن كان الشيءُ أَو العمل مثقال. وقرأَ الجمهور: [أَتَيْنَا] على معنى: جئنا، وقرأَ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: [آتَيْنَا] على معنى: وَاتَيْنَا من المواتاة[٤]، ولا يقدر ولا يفسر ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بأَعطينا لمَّا تعدَّت بحرف جرٍّ.

---

(١) في الحديث الشريف: «المكثرون هم المقلُّون إلاَّ من نفح فيه يمينه وشماله، أَي ضرب يديه في العطاء»، وعلى هذا يقال: نَفَحه بشيءٍ أي أعطاه، ونفحه بالمال نفحاً: أعطاه.

(٢) وفي اللسان أيضاً: «ونفحت الدابة تنفح نَفْحاً: رمحت برجلها ورَمَت بحدِّ حافرها ودفعت، وقيل: النَّفح بالرجل الواحدة، والرَّمْح بالرجلين معاً».

(٣) نقل الليث عن أبي الهيثم أنه قال في قوله الله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، يقال: أصابتنا نفحة من الصَّبا أي روحةٌ وطيب لا غمَّ فيه، وأصابتنا نفحةٌ من سَمُوم، أي حرٌّ وغمٌّ وكرب.

(٤) فالمعنى: جازَيْنَا بها، يقال: آتَى يُؤَاتي مؤاتاة، بمعنى: جَازَى. وقال الزمخشري: هي مفاعلة من الإِتيان بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وآتاهم بالجزاء.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويوهن هذه القراءَة أَن تبديل الواو المفتوحة بهمزةٍ ليس بمعروف، وإنما يعرف ذلك في المضمومة أَو المكسورة، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ تَوَعُّدٌ.

ثمَّ عقَّب سبحانه وتعالى بأَمر موسى عليه السلام.

و«ٱلْفُرْقَان» فيما قالت فرقة: التَّوراة، وهي «الضِّياءُ والذِّكْرُ»، وقرأَ ابن كثير، وحمزة: [ضِئَاءً] بهمزتين قبل الأَلف وبعدها، وقرأَ الباقون: [ضِيَاءً] بهمزة واحدة بعد الأَلف، وقرأَ ابن عباس: [ٱلْفُرْقَانَ ضِيَاءً] بغير واو، وهي قراءَة عكرمة والضحاك، وهذه القراءَة تؤيد قول من قال: المراد بذلك كله التوراة، وقالت فرقة: «الفرقان» هو ما رزقه الله من نصرٍ وظهور حُجَّةٍ وغير ذلك ممَّا فرَّق بين أَمره وبين أَمر فرعون لَعَنَه الله، و«الضِّيَاءُ» التوراة، و«الذِّكْرُ» بمعنى التَّذَكُّر. وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل ثلاثة تأويلات: أَحدها في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطَّلع عليهم أَحد، وهذا أَرجحها، والثاني أَنهم يخشون الله على أَن أَمره تعالى غائب عنهم، وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة، والثالث أَنهم يخشون الله ربهم بما أَعلمهم به مما غاب عنهم من أَمر آخرتهم ودنياهم، و«الإِشْفَاقُ»: أَشَدُّ الخشية، و«السَّاعة»: القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَآ﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إمَّا أَن يكون بمعنى أَثبتناه، كما تقول: أَنزل الشيطان فلاناً بمكان كذا إذا أَثبته، وإمَّا أَن يتعلَّق النزول بالملك، ثم وقفهم تبارك وتعالى تقريراً وتوبيخاً، هل يصح لهم إنكار بركته وما فيه من الدعاء إلى الله تعالى وإلى صالح العمل؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الرُّشْد عام في هدايته إلى رفض الأَصنام، وفي هدايته في أَمر الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك من النُّبُوَّة فما دونها. قال بعضهم معناه: وُفِّق للخير صغيراً، وهذا

كلُّه متقارب. وقوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل موسى وهارون عليهما السلام، فبهذه الإضافة هو قبل كما هي نسبة نوح عليه السلام منه. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ مدح لإبراهيم عليه السلام، أي أنه يستحق ما أُهِّل له، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]، والعامل في [إِذْ] قوله: ﴿ءَاتَيْنَآ﴾، و«ٱلتَّمَاثِيلُ»: الأصنام؛ لأنها كانت على صورة الإنسان من خشب، و«ٱلْعُكُوفُ»: المُلازمة للشيء. وقوله: [فَطَرَهُنَّ] عبارة عنها كأنها تعقل، وهذه من حيث لها طاعة وانقياد، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل[2].

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ الآية. رُوي أنهم حضرهم عيدٌ لهم فعزم قوم منهم على حضور إبراهيم عليه السلام معهم طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم، فمشى معهم، فلما كان في الطريق عزم على التخلُّف عنهم، فقعد وقال لهم: إنِّي سقيم، فمرَّ به جمهورهم، ثم قال في خلوة من نفسه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾، وسمعه قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس. وقوله: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ معناه: إلى عيدهم، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده فدخل ومعه قدوم، فوجد الأصنام قد وقفت، أكبرها في الأول ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أطعماتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدوم ويهشمها، حتى أفسد أشكالها كلها، حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلَّق القدوم في يده وخرج عنها. و[جُذَاذاً] معناه قطعاً صغاراً، والجذ: القطع، وقرأ الجمهور: [جُذَاذاً] بضم الجيم، وقرأ الكسائي وحده بكسرها، وقرأ ابن عباس، وأبو نُهيك، أبو السّماك بفتحها، وهي لغات، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ ونحوه معاملة للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تُعْبد وتُنَزَّل منزلة من يعقل، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ أظهر ما فيه أنه عائد على إبراهيم عليه السلام، أي فعل هذا كله توخياً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه،

---

(١) من الآية (١٢٤) من سورة (الأنعام).

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هنا عن قوله: [فَطَرَهُنَّ] ثم علَّق عليه بقوله: «وكأن ابن عطية تخيل أن (هُنَّ) من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات، وليس كذلك، بل هو لفظ مشترك بين من يعقل ومن لا يعقل من المؤنث المجموع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، والضمير عائد على الأربعة الحرم».

ويحتمل أَن يعود الضمير إِلى الكسر المتروك، ولكن يضعف ذلك دخول الترجِّي في الكلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾.

المعنى: فانصرفوا من عيدهم فرأَوا ما حدث بآلهتهم فأَكبروا ذلك، وحينئذ قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ على جهة البحث والإِنكار، و﴿قَالُواْ﴾ الثانية الضمير فيها يعود للقوم الضعفة الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿تالله لأكيدن﴾، واختلف الناس في وجه رفع قوله: ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ ـ فقالت فرقة: هو مرتفع بتقدير النداءِ، كأَنهم أَرادوا: الذي يقال له عندما يدعىٰ: يا إبراهيم، ـ وقالت فرقة: رفعه على إِضمار الابتداءِ، تقديره: هو إبراهيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَرجح. وقال الأُستاذ أَبو الحجاج الأَشبيلي الأَعلم: هو رفع على الإِهمال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لما رأَى وجوه الرَّفع كأَنها لا توضِّح المعنى الذي قصدوه ذهب إِلى رفعه بغير شيءٍ، كما قد يرفع التَّجرُّد والعُرُوُّ عن العوامل الابتداءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والوجه عندي أَنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله، على أَن تجعل ﴿إبرَاهِيمَ﴾ غير دالٍّ على الشخص، بل تَجعل النُّطق به دالاً على بناءِ هذه اللفظة، وهذا كما تقول: «زَيْدٌ وزن فَعْل»، أَو «زيد ثلاثة أَحرف»، فلم تدل بوجه على الشخص بل دَللت بنطقها على نفس اللفظة، وعلى هذه الطريقة تقول: «قلت إبراهيم»، ويكون مفعولاً صحيحاً أَنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذَّر بعد ذلك أَن يبنى الفعل فيه للمفعول[1].

---

(١) هذا أيضاً هو اختيار الزمخشري، وقد ذكره القرطبي نقلاً عن ابن عطية، وذكره أيضاً صاحب البحر وعلَّق عليه بقوله: «وهو مُخْتَلَف في إجازته، فذهب الزجاج، والزمخشري، وابن خروف، وابن مالك=



وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد: في محفل وبمحضر الجمهور، وقوله: ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ يحتمل أن يراد به الشهادة عليه، يريدون بفعله أو بقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾، ويحتمل أن يراد به المشاهدة، أي: يشاهدون عقوبته أو غلبته المؤديَّة إلى عقوبته، المعنى: فجاءَ إبراهيم عليه السلام حين أُتي به فقالوا له: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم عليه السلام: بل فعله كبيرهم هذا، على جهة الاحتجاج عليهم، أي أنه غار من أن يُعبد هو ويُعْبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك. وقالت فرقة هي الأكثر: إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين. والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات: قوله: «إنِّي سقيم» وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقوله للمليك: هي أُختي»[1]. ثم تطرَّق إلى موضع خزيهم بقوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ على جهة التوقيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات. وقالت فرقة: معنى قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات. . .» أي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب، أو يشبه الكذب، وذهبت إلى تخريج هذه المقالات، فخرَّجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاءِ، ولم يجزم الخبر على أن الكبير فعل هذا، وفي الكلام تقديم ـ على هذا التأويل ـ في قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾. وذهب الفراءُ إلى جهة أُخرى بأن قال: قوله ﴿فَعَلَهُۥ﴾ ليس من الفعل،

= إلى تجويز نصب القول للمفرد مما لا يكون مقتطعاً من جملة نحو قول الشاعر:

إذا ذُقْتَ فَاهَا قُلْتَ طَعْمَ مُدَامَةٍ

ومما لا يكون مفرداً معناه معنى الجملة نحو قلت خطبةً، ولا مصدراً نحو قلت قولاً، ولا صفةً نحو قلت حقّاً، بل لمجرد اللفظ نحو قلت زيداً، ومن النحويين من منع ذلك وهو الصحيح؛ إذ لا يُحفظ من لسانهم: قال فلان زيداً، ولا قال ضرب، ولا قال ليت، وإنما وقع القول في كلام العرب لحكاية الجُمَل» اهـ كلام أبي حيان في البحر المحيط (٦/ ٣٢٤).

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٠٣)، وفيه بقية توضح قصة إبراهيم وزوجه والملِك الذي أرادها، فحماها الله منه.

وإنما هو: «فَلَعَلَّهُ» على جهة التَّوقُّع، حذف اللام، على قولهم: «عَلَّهُ» بمعنى «لَعَلَّهُ» ثمَّ خُفِّفَت اللام[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تكلُّف[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ ﴾.

المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم عليه السلام من أن الأَصنام التي أَهَّلوها للعبادة ينبغي أَن تُسأَل وتُستَفْسَر، فقالوا: إنكم أَنتم الظالمون في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأَنتم معكم من تسأَلون، ثم ارتبكوا في ضلالهم ورأَوا بالفكرة وبديهة العقل أَن الأَصنام لا تنطق، فساقهم ذلك حين نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجَّة عليهم. وقوله: ﴿ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيِّه كأنه منكوس على رأْسه، فهي أَقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أَسوأ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم عليه السلام حين نكسوا في حيرتهم: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، أَي: فما بالك تدعو إلى ذلك؟ فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة فوقفهم موبِّخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر، ثم حقَّر شأْنها وأَزْرى بها في قوله: ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ ﴾.

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «قال بعض الناس ـ يريد محمد بن السَّمَيْفَع ـ: بل فَعَلَّه كبيرهم مشددةً، يريد: فَلَعَلَّه كبيرهم». هذا هو نصُّ كلامه، ومنه يتضح أنه يوضح قراءة ابن السَّمَيْفَع وليس مذهباً له كما قال ابن عطية.

(٢) وقال الكسائي: «الوقف عند قوله»: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ ﴾، أي فعَلَه مَن فعَله، ثم يبتدىء: ﴿ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا ﴾، وقيل: إن المعنى: لِمَ يُنْكرون أن يكون الفاعل كبيرهم؟ وهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فِعْلاً وعَملاً، ويكون المعنى: بل فَعَلَه كبيرهم هذا فيما يلزمكم.



وقرأ ابن كثير: [أُفَّ لكم] بالفتح[1]، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [أُفِّ لَكُمْ] بالكسر وترك التنوين نفيها، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: [أُفٍّ لَكُمْ] بالكسر والتنوين. و«أُفّ» لفظة تقال عند المستقذرات من الأشياء فيُستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره.

فلمَّا غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجَّة نكسوا رؤوسهم وأخذتهم عزَّةٌ بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، ورُوي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي من باديتها، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ تحريض، كما تقول: اعزم على كذا إن كنت عازماً.

ورُوي أنهم لما اجتمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك، وأمر بجمع الحطب فجُمع في مدة أشهر، وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إذا هو برىء أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب ـ مما تبرَّع به الناس وممَّا جُلب للملك من أهل الرساتيق[2] ـ كالجبل من الحطب، ثم أضرم ناراً، فلما أرادوا طرح إبراهيم عليه السلام فيه لم يقدروا على القرب منه، فجاءَهم إبليس في صورة شيخ فقال لهم: أنا أصنع لكم آلة يلقى بها في النار، فعلَّمهم صنعة المنجنيق، ثم أُخرج إبراهيم عليه السلام فشُدَّ برباط وَوُضع في كفة المنجنيق ورمي به فوضع في النار، وقد قيل للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فاحترق الحبل الذي رُبط به فقط، ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءَه وهو في الهواءِ فقال له: أَلَكَ حاجةٌ؟ فيروى أنه قال: أَمَّاإليك فلا، ويُروى أنه قال له: إنِّي خليل، وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله، فقال الله تعالى: يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لا قطعتها بيني وبين النار، يا نار كوني برداً

---

(١) أي وبدون تنوين كما وضحه الحافظ الدمشقي في كتابه: «النشر في القراءات العشر»، وقال: إنها أيضاً قراءة ابن عامر ويعقوب، وهذه القراءات وردت في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

(٢) الرَّسَاتيق جمع رُسْتَاق، وهو الرُّزْتاق والرُّذاق والرَّزدَقُ، وهو الصَّفُّ، قال الجوهري: الرَّزدق السَّطر من النخل والصف من الناس، وهو معرَّب، وأصله بالفارسية رَسْتَه، قال ابن ميَّادة:

تَقُـــولُ خَـــودٌ ذَاتُ طَـــرفٍ بَـــرَّاق ... هَـلاَّ اشْتَـرَيْـتَ حِنْطَـةً بِـالـرُّسْتَـاقِ

وقال ابن السِّكِّيت: رُسْدَاق ورُزداق، ولا تقل رُسْتاق.



وسلاماً، ورُوي أَنه حين خُوطبت النار خمدت كلُّ نار في الأَرض، ورُوي أَن الغراب كان ينقل الحطب إِلى نار إِبراهيم عليه السلام، ورُوي أَن الوزغة[1] كانت تنفخ عليه لتضرم، وكذلك البغل، ورُوي أَن العَضْرَفُوط والخُطَّافُ[2] والضفدع كانوا ينقلون الماءَ لتطفأَ النار، فأَلقى الله على هذه الوقاية وسلَّط على تلك الأُخرى النوائب والأَيدي، وقال بعض العلماءِ فيما رُوي: إِن الله تعالى لو لم يقل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لهلك إِبراهيم من برد النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد أَكثر الناس في قصص حرق إِبراهيم عليه السلام، وذكروا تحديد مدَّة بقائه في النار وصورة بقائه فيها مِمَّا رأَيت اختصاره لقلَّة صحته، والصحيح من ذلك أَنه أُلقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً، وكانت أَعظم آية، ورُوي أَنهم قالوا: إِنها نارٌ مسحورة لا تحرق، فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق، ورُوي أَن إِبراهيم عليه السلام كان له بسطة وطعام في تلك النار، كل ذلك من الجنة، وروي أَن العيدان أَينعت وأَثمرت له هنالك ثمارها التي كانت أُصولها.

وقوله: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ معناه: وسلامة، وقال بعضهم: هي تحية من الله تعالى لإِبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وكان الوجه أَن يكون مرفوعاً.

و«ٱلْكَيْدُ» هو ما أَرادوا من حرقه، وكانوا في خسارة من كفرهم وغلبته لهم وحرق الشيخ الذي جرَّبوا به النار، ورُوي أَن المِلك بنى بنياناً واطَّلع منه على النار فرأَى إِبراهيم عليه السلام ومعه ناسٌ فعجب وسأَل: هل طُرح معه أَحد؟ فقيل له: لا، فناداه فقال: من أُولئك؟ فقال: هم ملائكة ربِّي.

---

(١) الوزغة: سامٌّ أبرص (للذكر والأنثى)، أَو الوزغة الأنثى، والذكر الوزغُ، والجمع وَزَغٌ وأَوْزَاغٌ. «المعجم الوسيط».

(٢) العَضْرَفُوط: دُوَيْبة بيضاءُ ناعمة، ويقال: هي ذكر العِظاء. (اللسان ـ عضرف)، والخطاف: العصفور الأسود، وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة، وجمعه خطاطيف. (اللسان ـ خطف).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمرويُّ في هذا كثير غير صحيح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

روي أَن إِبراهيم عليه السلام لما خرج من النار أَحضره النمرود وكلَّمه، ثم ختم الله عليه بالكفر فلَجَّ وقال لإبراهيم في بعض قوله: يا إِبراهيم أَين جنود ربِّك الذي تزعم؟ فقال له: سيريك فعل أَضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأَصحابه سحابة من بعوض فأَكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً، ودخلت منها بعوضة في رأْس نمرود فكان رأْسه يضرب بالعيدان وغيرها، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً وهلك منها، وخرج إِبراهيم عليه السلام وابن أَخيه لوط عليه السلام من تلك الأَرض مهاجرين، وهي كوثا من العراق، ومع إِبراهيم عليه السلام ابنة عمه سارة زوجه، وفي تلك السفرة لقي الجبَّار الذي رَامَ أَخذها منه.

واختلف الناس في الأَرض التي بورك فيها ونجَّى الله إِليها إِبراهيم ولوطاً عليهما السلام ـ فقالت فرقة: هي مكَّة، وذكروا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾[1]، وقال الجمهور: هي أَرض الشَّام، وهي الأَرض التي بارك الله فيها، أَمَّا من جهة الآخرة فبالنُّبوَّة والإِيمان، وأَمَّا من جهة الدنيا فهي أَطيب بلاد الله أَرضاً، وأَعذبها ماءً، وأَكثرها ثمرة ونعمة، وهو الموضع المعروف بسكنى إِبراهيم وعَقِبِهِ، ورُوي أَنه ليس في الأَرض ماءٌ عذب إِلاَّ وأَصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وهي أَرض المحشر، وفيها يجمع الناس، وفيها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدَّجَّال، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه قال يوماً في خطبة: «إِنه يكون بالشَّام جند، وبالعراق جند، وباليمن جند»، فقال رجل:

(١) من الآية (٩٦) من سورة (آل عمران).



يا رسول الله، خِرْ لي، فقال: «عليك بالشَّام فإن الله قد تكفَّل لي بالشَّام وأهله، ومن بقي فليلحق بأَمْنِهِ»[١]، وقال عمر رضي الله تعالى عنه لكعب الأحبار: أَلا تتحول إلى المدينة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني أجد في كتاب الله المنزَّل أن الشَّام كنز الله من أَرضه، وبها كنزه من عباده، وروي أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام هاجرا من كوثا ومَرَّا بمصر، وليست بالطريق ولكنَّهم نكَّبوا[٢] خوف الاتباع حتى جاءُوا الشَّام، فنزل إبراهيم السَّبع من أَرض فلسطين وهي برِّيَّة الشَّام، ونزل لوط بالمؤتفكة.

و«إسحق» هو ابن إبراهيم عليهما السلام، و«يعقوب» ولد إسحق عليهما السلام، و«النَّافلة»: العطيَّة، كما تقول: نَفَلَني الإمام كذا، ونافلة الطاعة كأَنَّها عطيَّة من الله تعالى لعباده يُثيبهم عليها، وقالت فرقة: الموهوب إسحق، والنافلة يعقوب عليهما السلام، والأَول أَبين، و﴿يَهْدُونَ﴾ معناه: يرشدون غيرهم، و﴿إقام﴾ مصدر، وفي هذا نظر[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

التقدير: وآتينا لوطاً، فهو منصور بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، و«الحكم» فصل القضاء بين الناس، و«الخبائث» إتيان الرجال وضراطهم في مجالسهم إلى غير ذلك من كفرهم. وقوله في نوح عليه السلام: ﴿مِن قَبْلُ﴾ بالإضافة إلى إبراهيم ولوط عليهما

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي قلابة، قال: «وَذُكِرَ لنا أن رسول الله ﷺ قال... الخ»، وفي آخره: «فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَق بأَمْنِهِ وليَسْقِ بقَدَرِه». وهذا مرسل وفيه تصحيف صوابه: «فليلحق بيمنه وليسق بغدره» كما هو عند عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة ورواه أحمد ٥/ ٣٣ وأبو داود (٢٤٨٣) عن عبد الله بن حواله مرفوعاً بنحوه وصححه ابن حبان والحاكم والألباني.

(٢) نَكَّبُوا: عَدَلُوا وتَنَحَّوا عن الطريق الأصلي.

(٣) جاء في «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٦): «وقال ابن عطية: والإقام مصدر، وفي هذا نظر. انتهى. وأيُّ نظر في هذا. وقد نصَّ سيبويه على أنه مصدر بمعنى الإقامة، وإن كان الأكثر «الإقامة» بالتَّاء، وهو المقيس في مصدر أفعل إذا اعتلت عينه، وحسَّن ذلك هنا أنه قابل (وإيتَاءَ) وهو بغير تاءٍ فتقع الموازنة بين قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، وقال الزجاج: حذفت الهاءُ من «إقامة» لأن الإضافة عوضٌ عنها انتهى، وهذا قول الفراء، زعم أن تاءَ التأنيث قد تحذف للإضافة، وهو مذهب مرجوح».



السلام، و﴿ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ هو الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب، وقوله سبحانه: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ ﴾ لمَّا كان جل نُصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يده بل بأَمر أَجنبي منه حسن أَن يقول: ﴿نصرناه من﴾، ولا تتمكَّن هنا «عَلَى» كما تتمكَّن في أَمر محمد ﷺ مع قومه[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر هؤلاء الأَنبياء عليهم السلام ضَرْبُ مثل لقصة محمد ﷺ مع قومه، ونجاةُ الأَنبياء وهلاك مكذِّبيهم ضمنها توعُّدٌ لكفار قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قدره جماعة من المفسرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل عندي ويقوى أَن يكون المعنى: «وَآتَيْنَا دَاود» عطفاً على قوله: ﴿ وَنُوحًا ﴾، وذلك عطف على قوله: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾، والمعنى على هذا التأْويل مُتَّسق.

وسليمان هو ابن داود عليهما السلام من بني إِسرائيل، وكان[2] مَلِكاً عدلاً نبيّاً يحكم بين الناس فوقعت بين يديه هذه النَّازلة، وكان ابنه إِذ ذاك قد كبر، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إِلى داود عليه السلام من باب آخر، فتخاصم إِلى داود عليه السلام رجل له زرع، وقيل: كَرْمٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الْحَرْثُ» يقال فيهما، وهو في الزَّرع أَبعد عن الاستعارة، دخلت حَرْثَه غنم رجل

---

(١) كأنه قد تضمن معنى: «نجيناه» أو «عصمناه» فتعدى بمِن، وقال أبو عبيدة: «إن «مِنْ» بمعنى (على) أي: ونصرناه على القوم». ومعنى ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾: نصرناه من مكروه القوم، أي: عصمناه ومنعناه من شرِّهم وأذاهم، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾.

(٢) أي داود عليه السلام.



آخر فأفسدته، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فقالت فرقة: على أن يبقى كَرْمُه بيده، وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحَرْثِ والحَرْثَ إلى صاحب الغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أُفسدت، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحَرْث وغَلَّته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يُظَنُّ بداود عليه السلام إلاَّ أن حكمه بنظر متوجه. فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكَّى صاحب الغنم، فجاءَ سليمان إلى داود فقال: يا نبي الله، إنَّما حكمت بكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو؟ قال: أن يأْخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأْخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك، فإذا كَمُل الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مالَ صاحبه، فرجعت الغنمُ إلى ربِّها والحَرْثُ إلى ربِّه، فقال داود عليه السلام: وُفِّقْتَ يا بُنَيَّ، وقضى بينهما بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أن سليمان عليه السلام رأى ما يتحمَّله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة، ومن مؤونة إصلاح الحرث، يُوازي ما فسد في الحرث، وفَضل حُكمُه حُكْمَ أَبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه، وتبقى نفسه بذلك طيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة إلى أن هذه النَّازلة لم يكن الحُكْم فيها باجتهاد، وإنما حَكَم داود بوحي، وحَكَمَ سليمان بوحي نسخ الله به حُكْم داود، وجعلت فرقة ـ منها ابن فُورك ـ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ أيْ فَقَّهناه القضاءَ الفاصل الناسخ الذي أَراد الله تبارك وتعالى أن يستقر في النَّازلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتاج هذه الفرقة في هذه اللَّفظة إلى هذا التعب ويبقى لها المعنى قَلِقاً.



وقال جمهور الأُمَّة: إن حكمهما كان باجتهاد، وأَدخل العلماءُ هذه الآية في كتبهم على مسأَلة اجتهاد العَالِمَيْن، فينبغي أَن يُذكر هنا تلخيص مسأَلة الاجتهاد، واختلف أَهل السُّنَّة في العَالِمَيْن ـ فما زاد ـ يُفتيان من الفروع والأَحكام في المسأَلة فيختلفان ـ فقالت فرقة: الحق في مسائل الفروع في طرف واحد عند الله تعالى، وقد نصب على ذلك أَدلَّة وحمل المجتهدين على البحث عنها والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسأَلة فهو المصيب على الإِطلاق، وله أَجران، أَجر في الاجتهاد وأَجر في الإِصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطىءٌ في أَنْ لم يُصب العين، فله أَجر وهو غير معذور، وهذا هو الذي قال النبي ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ فله أَجرٌ»[1]، وكذلك أَيضاً يدخل في قوله ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» العالِم يجتهد فيخالف نصّاً لم يَمُرَّ به، كقول سعيد بن المسيب في النكاح: إنه العقد في مسأَلة التحليل للزوج المطلَّق ونحوه، وهذا يجمع بين قوله ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» وبين قوله: «كلُّ مجتهد مصيب» أَي أَخطأَ العين المطلوبة وأَصاب في اجتهاده، ورأَت هذه الفرقة أَن العالم المخطىء لا إِثم عليه في خطئه وإِن كان غير معذور. وقالت فرقة: الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دليلاً، بل وكل الأَمر إِلى نظر المجتهدين، فمن أَصابه أَصاب، ومن أَخطأَه فهو معذور ومأْجور، ولم نُتَعَبَّد بإِصابة العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط. وقال جمهور أَهل السُّنَّة ـ وهو المحفوظ عن مالك وأَصحابه ـ: الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إِنما هو الأَفضل في الظن، فكل مجتهد قد أَدَّاه نظره إِلى الأَفضل في نظره، والدليل على هذه المقالة أَن الصحابة فَمَن بعدهم قرَّر بعضهم خلاف بعض ولم ير أَحد منهم أَن يقع الاعتماد على قوله دون قول مخالفه، ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أَبي جعفر عن

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، ومسلم وأبو داود في الأقضية، والترمذي في الأحكام، والنسائي وابن ماجه في القضاء، وأحمد في مسنده (٢/ ١٨٧، ٤/ ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥)، ولفظه فيه أن خصمين اختصما إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه فقضى بينهما، فسخط المقضى عليه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «إذا قضى القاضي فاجتهد فأصاب فله عشرة أُجور، وإذا اجتهد فأخطأ كان له أجر أو أجران»، فالحديث على هذا في القضاء لا في الفُتيا، وفي رواية: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».



حمل الناس على الموطإ إلى كثير من هذا المعنى، وإذا قال العالِم في أَمرٍ مَّا: حلالٌ، فذلك هو الحق فيما يختصُّ بذلك العالِم عند الله تعالى وبكلِّ من أَخذ بقوله، وإذا قال آخر: حرام ـ وكلٌّ ذلك باجتهاد، فذلك أَيضاً حقٌّ عند الله تعالى فما يختص بذلك العالِم وبكلٍّ من أَخذ بقوله، فأَمَّا من قال إنَّ الحقَّ في طرف فرأَى مسأَلة داود وسليمان عليهما السلام مطّردة على قوله، وأَن سليمان عليه السلام صادف العين المطلوبة وهي التي فهم، ومن رأَى أَنَّ الحقَّ في الطرفين رأَى أَن سليمان عليه السلام فهم القضيَّةَ المُثْلى والتي هي أَرجح، لا أَن الأُولى خطأ، وعلى هذا يحملون قول النبي ﷺ: «إذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» أَي: أَخطأَ الأَفضل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثيراً ما يكون بين الأَقوال في هذه المسائل قليل تبايُن إلاَّ أَن ذلك الشُّفوف يشرف القول وكثيراً ما يتبيَّن الفضل بين القولين بأَدنى نظر، ومسائل الفروع تخالف مسائل الأُصول في هذا، ومسأَلة المجتهدين في نفسها مسأَلة أَصل، والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأُصول أن مسائل الأصول الكلام فيها إنما هو في وجود شيءٍ مَّا، كيف هو؟ كقولنا: «يُرى الله يوم القيامة» فقالت المعتزلة: «لا يُرى»، وكقولنا: «الله واحد»، وقالت النصارى: «ثلاثة»، وهكذا هَلْ للمسائل عينٌ مطلوبة؟ ومسائلُ الفروع إنما الكلام فيها على شي متقرر الوجود، كيف حُكمه من تحليل أَو تحريم ونحو هذا؟ والأَحكام خارجة عن ذاته ووجوده، وإنما هي بمقاييس واستدلالات، وتعتبر مسائل الفروع بأَنها كل ما يمكن أَن يَنْسَخ بعضُه بعضاً، ومسائل الأُصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أَن يطرأَ عليه الآخر ناسخاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومسأَلة الاجتهاد طويلة ومتشعبة، إلاَّ أَن هذه النبذة تليق بالآية وتقتضيها حرصاً على الإيجاز.

ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخر لا بد من ذكره وهورجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أَرجح من الأَول، وأَن داود عليه السلام فعل ذلك في هذه النازلة، واختلف فقهاءُ المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية، ثم يرى بعد ذلك أَن غير ما حكم به أَصوب، فيريد أَن ينقض الأَول ويقضي بالثاني ـ فقال عبد الملك، ومطرف في

(الواضحة): ذلك له ما دام في ولايته، فأَمَّا إذا كانت ولاية أُخرى فليس ذلك له، وهو بمنزلة غيره من القضاة، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في «المدونة». وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أَصوب: ليس له ذلك. وقال ابن عبد الحكم، ويستأْنف الحكم بما قوي عنده آخراً، قال سحنون: إلاَّ أَن يكون نسي الأَقوى عنده أَوْ وهم فحكم بغيره فله نَقْضه، وأَمَّا إن حكم بحكم وهو الأَقوى عنده في ذلك الوقت ثم توجَّه عنده غير ذلك فلا سبيل له إلى نقض الأَول، [قاله سحنون في كتاب ابنه. وقال أَشهب في كتاب ابن المواز: إن كان رجوعه إلى الأَصوب في مالٍ فله نقض الأَول][1]، وإن كان في طلاق أَو نكاح أَو عتق فليس له نقضه، وقد تقدم القول في الحرث، وروت فرقة أنه كان زرعاً، وروت فرقة أنه كان كرماً.

و«النَّفَشُ»: تسرُّب البهائم في الزورع وغيرها باللَّيل[2]، و«الْهَمَلُ»: تسرُّبها في ذلك بالنهار واللَّيل، وقال ابن سيده: لا يقال الْهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإبل[3]، ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أَرباب الغنم ما أَفسدت باللَّيل لأَن على أَهلها أَن يثقفوها[4]، وعلى أَهل الزروع وغيرها حفظها بالنهار، وهذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراءِ بن عازب[5]، وهذا مذهب مالك وجمهور الأُمَّة، ووقع في كتاب ابن

---

(١) سقط من بعض النسخ ما بين العلامتين [. . . .]. ونقل القرطبي هذا الكلام بالنص الذي أثبتناه هنا.

(٢) في اللسان: «يقال: نَفَشَت الإبل تَنْفُشُ وتَنفِش، ونَفَشَتْ تَنْفَشُ إذا تفرقت فَرَعَتْ بالليل من غير عِلم راعيها، والاسم النَّفَش، ولا يكون النَّفَشُ إلاَّ بالليل، والهَمَل يكون ليلاً ونهاراً».

(٣) في اللسان عن ابن الأعرابي: «إِبلٌ هَمْلَى مُهْمَلَة، وإبلٌ هَوَامل مُسَيَّبَةٌ لا راعي لها»، وفيه أيضاً: «وفي الحديث: ولنا نَعَم هَمَلٌ، أي مُهملة لا رعاءَ فيها ولا فيها مَن يُصلحها ويهديها فهي كالضالة».

(٤) أي: عليهم أن يطلبوها ويدركوها حتى لا تفسد الزروع.

(٥) حديث ناقة البَرَاءِ بن عازب رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعيد بن مُحَيِّصة: «أن ناقة للبراءِ دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ (أي مضمون) على أهلها»، قال القرطبي: هكذا رواه جميع الرواة مرسلاً، وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عُيَيْنة فإنه رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحَيِّصة، ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب، ولكنه لم يذكر حرام بن سعد، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن مُحَيِّصة عن أبيه، ورواه ابن جريج عن ابن شهاب. قال أبو عمرو: وهذا الحديث ـ وإن كان مُرْسلاً ـ فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدَّث به الثقات واستعمله فقهاءُ الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به.

سُحنون أَن الحديث إنما جاء في أَمثال المدينة التي هي حيطان مُحْدِقة[1]، وأَمَّا البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أَرباب النَّعم ما أَفسدت من ليل أَو نهار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه ذهب إلى أَن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تَعَدٍّ لأَنها لا بد تفسد. وقال أَبو حنيفة في ذلك: لا ضمان، وأَدخله في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماءِ جُبَارٌ»[2]، فقاس جميع أَفعالها على جروحها.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأَول قومٌ منه أَن داود عليه السلام لم يخطىء في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْم والعِلْم، وقالت فرقة: بل لأَنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة مدحه الله تعالى بأَن له حُكماً وعِلْماً يُرجع إليه في غير هذه النَّازلة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ مبالغة في الخير وتحقيق له، وفي اللَّفظ معنى: وكان ذلك في حقه وعند مستوجبه منَّا، فكأَنه قال: وكنَّا فعالين لأَجل استجابة ذلك وحذف اختصاراً لدلالة ظاهر القول على ما حُذف منه، وقوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريد داود وسليمان والخصمين، لأَن الحكم ينضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإضافة، وقرأَت فرقة: ﴿لِحُكْمِهِما﴾.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ـ فذهب فرقة ـ وهي الأَكثر ـ إلى أَنه قوله «سبحان الله»، وذهبت فرقة منها منذر بن سعيد إلى أَنه بمعنى: يُصَلِّين معه بصَلاته.

---

(١) الحيطان: جمع حائط وهو البستان، وتجمع كذلك على حوائط. ومُحْدِقَة من «أَحدقت الأَرض» إذا صارت حديقة، والحديقة: كل أرض ذات شجر مثمر ونخل أحاط به حاجز.

(٢) أخرجه البخاري وابن ماجه وأبو داود في الديات، ومسلم في الحدود، والترمذي في الأحكام، والنسائي والدارمي في الزكاة، ومالك في موطئه في العقول، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة. وأبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويرى انه ناسخ لحديث ناقة البراء، ومالك يذهب إلى الأخذ بحديث البراء، ويرى العلماءُ أن شروط النسخ غير متوافرة هنا، والتعارض بين الحديثين إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلاَّ بنفي الآخر، وحديث «العَجْمَاءُ جرحها جُبَار» ـ أي هَدَرٌ ـ حديث عموم متفق عليه، وقد خصَّص حديثُ ناقة البراءِ الزرع والحوائط، فهو من باب العموم والخصوص، حديث الجُبَار حديث عموم، وحديث ناقة البراء خاص بالحوائط والزروع، ولا تعارض بنيهما ولا نسخ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

عدَّد الله تعالى على البشر أن علَّم داود عليه السلام صنعة الدُّروع وألان له الحديد فكان يصنعها أَحكم صنعة لتكون وقاية في الحرب وسَبَبَ نجاة من العدو، و«اللَّبُوس» في اللُّغة: السلاح، فمنه الدِّرع والسيف والرُّمح وغير ذلك، ومنه قول الشاعر:

وَمَعِـــيَ لَبُــوسٌ لِلْبَئِيــسِ كَــأَنَّــهُ ... رَوْقٌ بِجَبْهَــةِ ذِي نَعَــاجٍ مُجْفَــلِ[1].

يعني الرُّمح.

وقرأ نافع والجمهور: [لِيُحْصِنَكُم] بالياءِ على معنى: لِيُحصِنَكم داود عليه السلام أَو اللَّبوس، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: [لِتُحْصِنَكُمْ] بالتاءِ على معنى: لِتُحصنكم الصنعة أَو الدُّروع التي أَوقع عليها اللَّبوس، وقرأ أَبو بكر عن عاصم: [لِنُحْصِنَكُمْ] بالنون على معنى ردِّ الفعل لله تعالى، ويُروى أَنه كان الناس يتَّخذ القوي منهم لباساً من صفائح الحديد، فكان ثقله يقطع بأَكثر الناس، وقرأَت فرقة: [ٱلرِّيحَ] بالنصب على معنى: وسخَّرنا الرِّيح، وقرأَت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرَّفع على الابتداء والخبرُ في المجرور قبله. ويُروى أَن الرِّيح العاصفة كانت تهب على سرير سليمان عليه السلام الذي فيه بساطه، وقد مَدَّ حول البساط بالخشب والأَلواح حتى صنع سريراً يحمل جميع عسكره وأَقواته فتُقِلُّه من الأَرض في الهواءِ ثم تتولاه الريح الرخاءُ بعد ذلك فتحمله إِلى حيث أَراد سليمان عليه السلام.

---

(١) هذا البيت لأبي كبير الهذلي، واسمه عامر بن الحليس، وهو من قصيدة مطلعها:

أَزُهَيْـرُ هَـلْ عَـنْ شَيْبَـةٍ مِـنْ مَعْـدَلِ ... أَمْ لاَ سَبِيـلَ إِلَـى الشَّبَـابِ الأَوَّلِ؟

وهو هنا يخاطب ابنته «زهيرة» فيقول لها: أَزُهَيْرُ، والبَئِيسُ: الشجاعُ، والرَّوْقُ: القَرْنُ، وذو نعاج: يعني ثوراً له نعاجٌ ويقود قطيعاً، والنِّعَاج: البقر الوحشي، والجفول: الشرود في فزع وسرعة، واللَّبوس: ما يُلْبَس، وهو أيضاً الثيابُ والسلاح، قال في اللسان: «مذكَّر، فإن ذهبتَ به إلى الدرع أنثت، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم﴾، قالوا: هي الدرعُ تُلبس في الحرب، والشاهد هنا أَن اللَّبُوس عامٌّ في السِّلاح كلِّه: الدرع والسيف والرمح، وقد أَراد به الشاعر هنا الرمح وشبهه بِرَوْق الثور الفزع الشارد في سرعة وهو يدافع عن نعاجه».



وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، اختلف الناس فيها ـ فقالت فرقة: هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع مُلْكِهِ، وخصَّص في هذه الآية انصرافه من سفراته إلى أرضه لأَن ذلك يقتضي سفره إلى المواضع التي سافر إليها، والبَرَكَةُ في أَرض الشَّام بيِّنة الوجوه، وقد قال بعضهم: إن العاصفة هي في القبول على عادة البشر والدَّواب في الإسراع إلى الوطن، والرُّخاءُ في البدأَة حيث أَصاب، أَي حيث يقصد؛ لأَن ذلك وقت تَأَنٍّ وتدبير وتقلب رأْي، وقال منذر بن سعيد: في الآية تقديم وتأْخير، والكلام تام عند قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ صفة للرِّيح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يريد الأَرض التي يسير إِليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت، وذلك أَنه لم يكن يسير إِلى أَرض إِلاَّ أَصلحها، وقتل كفَّارها، وأَثبت فيها الإِيمان، وبثَّ فيهاالعدل، ولا بركة أَعظم من هذا، فكأَنه قال: إِلى أَي أَرض باركنا فيها فبعثنا سليمان إِليها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

يحتمل أَن يكون قوله: ﴿يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في موضع نصب على معنى: وسخَّرنا من الشياطين، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على الابتداء، ويتناسب هذا مع القراءَتين المتقدمتين في قوله سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب والرفع. وقوله: ﴿يَغُوصُونَ﴾ جمع على معنى [مَنْ] لا على لفظها، و«الغوص»: الدخول في الماء والأَرض، والعلم دون ذلك البنيان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه، وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾، قيل: معناه: من إِفسادهم ما صنعوه، فإِنهم كان له حرصٌ على ذلك لولا ما حال الله بينهم وبين ذلك، وقيل: معناه: عادلين وحاضرين، أَي لا يشذ عن علمناوتسخيرنا أَحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ﴾، أَحسن ما فيه النصب بفعل مضمر تقديره: واذكر أَيوب، وفي قصص أَيوب عليه السلام طول واختلاف من المفسرين، وتلخيص ذلك أَنه

رُوي أَن أَيوب عليه الصلاة والسلام كان نبياً مبعوثاً إِلى قوم، وكان كثير المال من الإِبل والبقر والغنم، وكان صاحب البَثَنية من أَرض الشام، فغبر كذلك مدة، ثم إِن الله تبارك وتعالى لمَّا أَراد محنته وابتلاه أَذِن لإِبليس في أَن يفسد ماله، فاستعان بذرِّيته فأَحرقوا ماله ونَعمه أَجمع، فكان كلَّما أُخبر بشيءٍ من ذلك حَمَدَ الله تعالى وقال: هي عارية استردها صاحبها والمُنْعم بها، فلما رأَى إِبليس ذلك جاءَ فأَخبر بعجزه عنه، فأَذن الله له في إِهلاك بنيه وقرابته ففعل ذلك أَجمع فدام أَيوب عليه السلام على شكره، فأَخبر إِبليس بعجزه، فأَذن الله تعالى له في إِصابته في بدنه، وحجر عليه لسانه وعينيه وقلبه، فجاء إِبليس وهو ساجد فنفخ في أَنفه نفخة احترق بدنه منها، وجعلها الله أَكلة في بدنه، فلما عظمت وتقطع أَخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سُباطة[1]، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته، ويقال: كانت بنت يوسف الصديق، وقيل: اسمها رحمة، وقيل في أيوب: إِنه من بني إِسرائيل، وقيل: إِنهُ من الروم من ذرية عيصو، فكانت زوجته تسعى عليه وتأْتيه بما يأْكل وتقوم عليه، فدام في هذا العذاب مدة طويلة، قيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثماني عشرة سنة، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: تسعة أَعوام، وقيل: ثلاثة، وهو في كل ذلك صابر شاكر حتى جاءَه ـ فيما رُوي ـ ثلاثة ممَّن كان آمن به فوقروه بالقول وأَنَّبوه ونَجَهُوهُ[2] وقالوا: ما صنع بك ربك هذا إِلاَّ لخبثٍ باطنه فيك، فراجعهم أَيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أَنه ذليل لا يقدر على إِقامة حُجَّة ولا بيان ظُلامة، فخاطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومُبيِّناً أَنه لا حُجَّة لأَحد مع الله، ولا يسأَل عمَّا يفعل، ثمَّ عرَّفه سبحانه وتعالى بأَنه قد أَذن في صلاح حاله، وعاد عليه بفضله، فدعا أَيوب عليه السلام عند ذلك فاستُجِيب له.

ويُروى أَن أَيوب عليه السلام لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به، وكان ـ فيما رُوي ـ يقع الدود منه فيردُّهُ بيده حتى مرَّ به قوم كانوا يعادونه فشمتوا به فتأَلَّم لذلك ودعا حينئذ فاستُجيب له، وكانت امرأَته غائبة عنه في بعض شأْنها فأَنبع الله له عيناً وأَمر بالشرب منها فبرىء باطنه، وأُمر بالاغتسال فبرىء ظاهره ورُدَّ إِلى أَفضل حاله، وأُتِي

---

(١) السُّباطة: الموضع الذي يُرمى فيه التراب والأوساخ وما يُكنس من المنازل، وفي بعض الكتب: «وضعوه على تل وجعلوا عليه عريشة».

(٢) النَّجْهُ: استقبالك الرجل بما يكره وردُّك إِيّاه عن حاجته، وفي الحديث: (بعدما نَجَهَهَا عُمَر)، أَي بعدما ردَّها وانتهرها.



بأَحسن الثياب، وهبَّ عليه رِجْلٌ[١] من جراد من ذهب فجعل يحثو منها في ثوبه، فناداه الله تعالى: يا أيُّوب ألم أكن أَغْنَيتك عن هذا؟ قال: بَلَى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك، فبينما هو كذلك إذ جاءَت امرأته فلم تره على السباطة فجزعت وظنَّت أنه أُزيل عنها وجعلت تَتَوَلَّه[٢]. فقال لها: ما شأْنك أَيتها المرأَة؟ فهابته لحسن هيئته، فقالت: إني فقدتُ مريضاً كان لي في هذا الموضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأَمَّلته في أَثناءِ المقالة فرأَت أَيوب، فقالت له: أَنت أَيوب؟ فقال لها: نعم، فاعتنقها وبكى، فروي أَنه لم يُفارقها حتى أَراه الله جميع ماله حاضراً بين يديه.

واختلف الناسُ في أَهله وولده الذين آتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا، فردَّ الله عليه بصره وولده بأَعيانهم، وجعل مثلهم عدةً له في الآخرة، وقيل: بل أُوتي جميع ذلك في الدنيا من أَهل ومال.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي: وتذكرة وموعظة، ولا يعبد الله إلاَّ مؤمن، والذكرى إنما هي في محنته، والرحمة في زوال ذلك. وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ تقديره: بأَنِّي مَسَّني، فحذف الجار وبقيت [أَنِّي] في موضع نصب، ورُوي أَن سبب محنة أَيوب عليه السلام أَنه دخل مع قوم على مَلِك جار عليهم فأَغلظ له القول ولَيَّن له أَيوب القول خوفاً منه على ماله، فعاقبه الله على ذلك، ورُوي أنه كان يقال له: مالك لا تدعو في العافية؟ فكان يقول: إني لأَستحي من الله أَن أَسأَله زوال عذابه حتى يمرَّ علي فيه ما مرَّ من الرَّخاء، وأَصابه البلاءُ ـ فيما رُوي ـ وهو ابن ثمانين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى: واذكر إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو أَبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم، وإدْريسُ هو خنوخ، وهو أَول نبيٍّ بعث الله من بني آدم، ورُوي أَنه كان خيَّاطاً يسبح الله عند إدخال الإبرة ويحمده عند إخراجها، وذو الكفل كان نبيّاً، ورُوي أَنه بُعث إلى رجل واحد، وقيل: لم يكن نبيّاً

---

(١) الرِّجْل: الطائفة العظيمة من الجراد.
(٢) وَلَه وتوَلَّه: حزن حزناً شديداً.



ولكنه كان عبداً صالحاً، ورُوي أن (ٱلْيَسَعَ) جمع بني إسرائيل فقال: من يتكفَّل لي بصيام النهار وقيام اللَّيل وألاَّ يغضب وأُوليه النظر للعباد بعدي؟ فقام إليه شاب فقال: أَنا لك بذلك، فراجعه ثلاثاً في ذلك يقول: أَنا لك بذلك، فاستعمله، فلمَّا مات (ٱلْيَسَعُ) قام بالأمر فجاءَ إبليس ليغضبه ـ وكان لا ينام إلاَّ في القائلة ـ فكان يأْتيه وقت القائلة أَياماً فيوقظه ويشتكي ظلامته ويقصد تضييق صدره، فلم يضق به صدراً، ومضى معه لينصفه بنفسه، فلمَّا رأَى إبليس ذلك أَبلَس عنه، وكفاه الله شرَّه، وسُمِّي (ذا الكفل) لأَنه تكفَّل بأَمر فوفَّى به، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

التقدير: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبه يونس بن متَّى عليه السلام، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأْتي ذكرها في موضعها الذي تقتضيه، وهو نبي أَهل نينوى، وهذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ قال أَنا خير من يونس بن مَتَّى فقد كذب»[١]، وفي حديث آخر: «لا ينبغي لأَحد أَن يقول أَنا خير من يونس بن متَّى»[٢]، وهذا الحديث وقوله: «لا تفضِّلوني على موسى»[٣] يتوهم أَنهما يعارضان قوله عليه الصلاة والسلام على المِنْبر: «أَنا سَيِّد ولد آدم ولا فخر»[٤]،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج مثله عبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما زيادة (نسبه إلى أبيه، أصاب ذنباً ثم اجتباه ربه) «الدر المنثور».

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣ من الجزء السابع)، ومسلم في كتاب الفضائل.

(٤) هذا جزءٌ من حديث طويل هو حديث الشفاعة، وقد اخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، والإمام أحمد، وفي مسنده (١/ ٥) نصُّ الحديث عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وفيه: «فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي ولكن انطلقوا إلى سيِّد ولد آدم»، ثم جاء فيه «فيقول: أي ربِّ، خلقتني سيِّد ولد آدم ولا فخر»، وأخرج الحديث أيضاً ابن ماجه في الزهد، وأبو داود في السُّنَّة. وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وأخرجه البخاري، ومسلم وأحمد وغيرهم ـ قال ﷺ: «إنه لم يكن نبي=

والانفصال عن هذا بوجهين: أحدهما ذَكَرَهُ الناس وهو أَن يكون قوله: «أَنا سيِّد ولد آدم» يتأَخَّر في التاريخ، وأَنها منزلة أَعلمه الله تعالى بها لم يكن عَلِمَهَا وقت تلك المقالات الأُخر، والوجه الثاني وهو عندي أَجرى مع حال النبي ﷺ أَنه إِنما نهى عن التفضيل بين شخصين مذكورين وذهب مذهب التواضع ولم يزل سيِّد ولد آدم، ولكنه نهى أَن يفضَّل على موسى كراهة أَن يغضب لذلك اليهود فيزيد نفارها عن الإِيمان، وسبب الحديث يقتضي هذا، وذلك أَن يهودياً قال: لا والذي فضل موسى على العالمين، فقال له رجل من الأَنصار: أَتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أَظْهُرنا؟ فسرى الأَمر وارتفع إِلى النبي ﷺ فنهى عن تفضيله عن موسى، ونَهَى عليه الصلاة والسلام عن تفضيله على يونس لئلا يظن أَحد بيونس عليه السلام نقصُ فضيلةٍ بسبب ما وقع له، فنهيه ﷺ عن التفضيل على شخص معيَّن، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث ثالث: «لا تفضِّلوا بين الأَنبياء»[1] هذا كله مع قوله: «أَنا سيِّد ولد آدم ولا فخر» وإِطلاق الفضل له دون اقتران بأَحدٍ بيِّن صحيح. وتأَمل هذا فإِنه يلوح، فقد قال عمر رضي الله عنه للحطيئة: امدح ممدوحك ولا تفضِّل بعض الناس على بعض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة «سيِّد» ولفظة «خير» سيَّان، وهذا مبدأُ جَمْع آخر بين الأَحاديث يُذهب ما يُظَنُّ من التعارض.

وقوله تعالى: ﴿مُغَٰضِبًا﴾، قيل: إِنه غاضب قومه حين طال عليه أَمرهم وتعنتهم فذهب فارّاً بنفسه، وقد كان الله تعالى أَمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذنبه في مخالفة هذا الأَمر، ورُوي أَنه كان شاباً ولم يحتمل أَثقال النُّبوَّة وتفسَّخ تحتها كما

= إِلاَّ له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإني قد أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» والحديث طويل، ونصه في المسند (١/ ٢٨١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «جاءَ يهودي إلى رسول الله ﷺ قد ضرب في وجهه، فقال له: ضربني رجل من أصحابك، فقال له النبي ﷺ: لم فعلتَ؟ قال: يا رسول الله فضَّل موسى عليك، فقال النبي ﷺ: لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يرفع رأسه من التراب فأجد موسى عليه السلام عند العرش، لا أدري أكان فيمن صُعق أم لا». وأخرج الحديث مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد الخدري أيضاً واللفظ فيه: (لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء).

يتفسخ الرُّبَع[١] تحت الحمل، ولهذا قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[٢] أي: فاصبر ودم على الشقاء بقومك، وقالت فرقة: إنما غاضب الملِك الذي كان على قومه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو من الأَول فيما يلحق منه يونس عليه السلام. وقال الحسن بن أَبي الحسن وغيره: إنما ذهب مغاضباً ربَّه واستفزَّه إبليس[٣]، ورَوَوْا في ذلك أَن يونس عليه السلام لمَّا طال عليه أَمر قومه طلب من الله عذابهم، فقيل له: إنَّ العذاب يجيئهم يوم كذا، فأَخبرهم يونس عليه السلام بذلك، فقالوا: إن رحل عنَّا فالعذاب نازل، وإن أَقام بيننا لم نبالِ، فلمَّا كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل فأَيقنوا بالعذاب فخرجوا بأَجمعهم إِلى البَرَازِ[٤]، وفرَّقوا بين صغار البهائم وأُمهاتها وتضرعوا وتابوا فرفع الله عنهم العذاب، وبقي يونس في موضعه الذي خرج إِليه ينتظر الخبر، فلمَّا عرف أَنهم لم يُعذَّبوا ساءَه أَن عدُّوه كاذباً، وقال: والله لا انصرفت إِليهم أَبداً، ورُوي أَنه كان من دينهم قتل الكذاب، فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاءَ به مما لا يتَّصف به نبي.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالت فرقة: استفزَّه إِبليس ووقع في ظنِّه إِمكان أَن لن يقدر الله عليه بمعاقبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ مردود.

وقالت فرقة: معنى ﴿ظن أن له نقدر عليه﴾ أَن لن نُضَيِّق عليه في مذهبه، من قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[٥]، وقالت فرقة: هو من القَدَر، أَي ظن أَن لن يقضي الله عليه بعقوبة[٦]، وقالت فرقة: الكلام بمعنى الاستفهام، أَي: أَفظن أَنْ لن

---

(١) الربع: الفصيل إذا ولد في الربيع وكان أول النتاج.

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (القلم).

(٣) في بعض النسخ: «فاستزلَّه إبليس»، وهي أيضاً في القرطبي.

(٤) البَرَازُ: الفضاءُ الواسع الخالي من الشجر ونحوه.

(٥) من الآية (٢٦) من سورة الرعد. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أَي ضُيِّق.

(٦) أَي: هي من القَدَر الذي هو القضاءُ والحُكمُ، وهو قول قتادة ومجاهد والفراء.



نقدر عليه؟ وحكى منذر بن سعيد أَن بعضهم قرأَ: [أَفَظَنَّ] بالأَلف، وقرأَ الزهري: [نُقَدِّرَ] بضم النون وفتح القاف وشد الدال[1]، وقرأَ الحسن: [فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ]، وعنه أَيضاً: ﴿نَّقْدِرَ﴾[2]، وبعد هذا الكلام حذف كثير اقتضب لبيانه في غير هذه الآية. المعنى: فدخل البحر وكذا وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظُلْمة جوفه.

واختلف الناس في جمع «الظُّلُمات» ما المراد به؟ فقالت فرقة: ظلمة اللَّيل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، وقالت فرقة: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأَول، وظلمة الحوت الأَول الذي التقم يونس عليه السلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يعبِّر بالظلمات عن جوف الحوت الأَول فقط، كما قال: ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[3]، وكل جهاته ظُلْمة فَجَمعها سائغ، ورُوي أَن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر، ثم قال في دعائه: «اللهم إِني قد اتَّخذت لك مسجداً في موضع لم يتَّخذه أَحد قبلي». و[أَنْ] مفسِّرة نحو قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾[4]، وفي هذا نظر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم، هذا أَحسن الوجوه، وقد تقدم ذِكْر غيره، فاستجاب الله له وأخرجه إِلى البرِّ، وَوَصْفُ هذا يأْتي في موضعه. و«ٱلْغَمُّ» ما كان ناله حين التقمه الحوت.

وقرأَ جمهور القراءِ: [نُنْجِي] بنونين الثانية ساكنة، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكرـ: [نُجِّي] بنون واحدة مضمومة وشد الجيم، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَت

---

(١) وحكى الماوردي هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) روي عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب أنه قال في قول الله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من التقدير وليس من القدرة، يقال منه: قدَّر الله لك الخير يُقَدِّره قدراً، وأنشد ثعلب:

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ اللِّوَى بِرَوَاجِعٍ ... لَنَا أَبَداً مَا أَوْرَقَ السَّلَمُ النَّضْرُ

وَلاَ عَائِدٌ ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مضى ... تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني: ما تُقَدِّرْهُ وتقضي به يقع، وليس المراد: ما تَقْدِرُ عليه.

(٣) من الآية (١٥) من سورة يوسف. وقراءة المدنيَّيْن بالألف على الجمع.

(٤) من قوله تعالى في الآية (٦) من سورة ص: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾. وكانت [أَنْ] في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تفسيرية لأن ما قبلها في معنى القول وهو قوله: ﴿فَنَادَىٰ﴾، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، ويكون التقدير: «بأنه لا إله إلا أنت»، وبهذا يكون قد حصر الألوهية فيه سبحانه وتعالى، ثم نزَّهه عن سمات النقص، ثم أقرَّ بما بعد ذلك.

فرقة: [نُنَجِّي] بنونين الأُولى مضمومة والثانية مفتوحة والجيم مشددة، فأمَّا القراءة الأُولى والثالثة فَبيِّنَتَان، والأُولى فعلها معدى بالهمزة، والأُخرى بالتضعيف، وأمَّا القراءة الوسطى التي هي بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة وياءٍ ساكنة فقال أَبو علي: لا وجه لها، وإنما هي وهم من السامع، وذلك أَن عاصماً قرأَ: [نُنْجِي] والنون الثانية لا يجوز إظهارها لأَنها تخفى مع هذه الحروف، يعني الجيم وما جرى مجراها، فجاءَ الإخفاءُ يشبهها بالإدغام، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) ثم يدعو اجتماع النونين إِلى إدغام إحداهما في الجيم؛ لأَن اجتماع المثلين إنما يدعو إِلى ذلك إذا كانت الحركة فيهما متفقة، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) وتسكن الياءُ ويكون المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله المصدر، كأَنه قال: نُجِّيَ النجاءُ المؤمنين؛ لأَن هذه لا تجيءُ إلاَّ في ضرورة، وليست في كتاب الله تعالى، والشاهد فيها قول الشاعر:

وَلَـوْ وَلَـدَتْ قُفَيْـرَةُ جَـرْوَ كَلْـبٍ لَسُـبَّ بِـذَلِـكَ الْجَـرْوِ الْكِـلاَبَـا[1]

وأَيضاً فإن الفعل الذي بني للمفعول إذا كان ماضياً لم يسكن آخره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمصاحف فيها نون واحدة كتبت كذلك من حيث النون الثانية مخفاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾.

تقدَّم أَمر زكريَّا عليه السلام في سورة مريم، وإصلاح الزوجة، قيل: بأَن جعلها

---

(١) (قُفَيْرَة) على وزن جهينة هي أُم الفرزدق، والبيت لجرير، قاله من قصيدة يهجو بها الفرزدق. والجرو: الصغير من ولد الكلب والأسد والسباع، ومن هنا تظهر فائدة الإضافة إلى الكلب، لأنها تحدد المراد من الجرو بأنه ابن كلب، وقد كان جرير قاسياً في هجائه، وكثيراً ما ذكر قُفَيْرَة ونعتها بأقبح الصفات، وهو القائل فيها:

وَهَـلْ أُمٌّ تَكُـونُ أَشَـدَّ رعيـاً وَصَـرّاً مِـنْ قُفَيْـرَةَ وَاحْتِـلاَبَـا؟

والتقدير في البيت: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجَرْو، وهذا شاذٌّ، كما تقول: ضُرِبَ زيداً، بمعنى: ضُرِبَ الضَّرْبُ زيداً، وتسكين الياء في الآية لغة عربية. ولكن ابن عطية يرفض هذا في الآية.



تحمل وهي عاقر، فحاضت وحملت، وهذا هو الذي يشبه الآية، وقيل: بأن أُزيل بذاءٌ كان في لسانها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وعموم اللَّفظة يتناول كلَّ وجوه الإصلاح.

وقرأت فرقة: [وَيَدْعُونَنَا]، وقرأت فرقة: [وَيَدعُونَا]، وقرأت فرقة: [رَغَباً] بفتح الراءِ والغين، و﴿رَهَبًا﴾ كذلك، وقرأت فرقة بضم الراءِ فيهما وبسكون الغَيْن والهاءِ، وقرأت فرقة بفتح الراءِ فيهما وبسكون الغَيْن والهاءِ، والمعنى أنهم يدعون في وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاءٍ ورهبة وخوف في حال واحدةٍ؛ لأن الرَّغبة والرَّهبة متلازمتان، وقال بعض الناس: الرغب أن ترفع بطون الأكُفِّ نحو السماء، والرهب أن ترفع ظهورهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغب ـ من حيث هو طلب ـ يحسن معه أن يوسع باطن الراح نحو المطلوب منه؛ إذ هو موضع الإعطاء، وبها يتملَّك، والرَّهَب ـ من حيث هو دفع مضرَّة ـ يحسن معه طرح ذلك والإشارة إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليدين ونحوه.

و«الْخُشُوعُ»: التذلُّل بالبدن المتركِّبُ على التذلُّل بالقلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

المعنى: واذكر التي أحصنت فرجها، وهي مريم بنتُ عمران أُمُّ عيسى عليهما السلام. و«الْفَرْجُ» ـ فيما قال الجمهور، وهو ظاهر القرآن ـ: الجارحة المعروفة، وفي إحصانها هو المدح. وقالت فرقة: الفَرْج هنا فَرْجُ ثوبها الذي منه نفخ المَلَك، وهذا ضعيف، وأَمَّا نفخ الولد فيها فقال كثير من العلماءِ: إنما نفخ من جيب درعها، وأضاف

«الروح» إضافة المِلْك إلى المَالك، و«ابْنها»: عيسى بن مريم عليه السلام، وأَراد تعالى أَنه جعل مجموع قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام من أَولها إِلى آخرها آيةً لمن اعتبر في ذلك. و﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: لمن عاصر فما بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ يحتمل الكلام أَن يكونَ مُنْقَطِعاً خطاباً لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، ثم أَخبر عن الناس أَنهم تقطعوا، ثم وَعَدَ وأَوْعَدَ، ويحتمل أَن يكون متصلاً، أَي: جعلنا مريم وابنها آية للعالمين بأَن بُعِثَ لهم بملَّة وكتاب، وقيل لهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾، أَي دعا الجميع إِلى الإِيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته، ثم أَخبر تعالى بعد ذلك أَنهم اختلفوا وتقطعوا أَمرهم، ثم فرَّق بين المحسن والمسيء فذكَّر المحسن بالوعد، أَي: فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فهو بِسَعْيه يُجازى، وذكَّر المسيءَ بالوعيد في قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ الآية، فتأَمل الوعيد فيها على كل قول تذكره فإِنه بيِّن، و«ٱلْكُفْرَانُ» مصدرٌ كالكفر، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْـتُ أُنَـاسـاً لاَ تَنَـامُ خُـدُودُهُـم وَخَـدِّي وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ نَـائِـمُ[١]

واختلف القراءُ في قوله تعالى: [وحرام] ـ فقرأَ عكرمة وغيره: [وَحَرِمٌ] بفتح الحاءِ وكسر الراءِ، وقرأَ جمهور السبعة: [وَحَرَامٌ]، وقرأَ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: [وَحِرْمٌ] بكسر الحاءِ وسكون الراءِ[٢]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ بخلاف عنه ـ: [وَحَرْمٌ] بفتح الحاءِ وسكون الراءِ، وقرأَت فرقة: [وَحَرَّمَ] بفتح الحاءِ والراءِ وشدِّ الراءِ، وقرأَت فرقة: [وَحُرِّمَ] بضم الحاءِ وكسر الراءِ وشدها، وقرأَ قتادة، ومطر الوراق: [وَحَرُمَ] بفتح الحاءِ وضم الراءِ[٣]. والمستفيض من هذه القراءات قراءةَ

---

(١) هذا البيت شاهد على أَن «الكفران» مصدر «كفر» كالكفر والكفور، وهو في البحر، وفي الطبري، والرواية فيه: «من الناس ناسٌ ما تنامُ خدودهم». وفي اللسان: «وتقول: كفر نعمةَ الله، وبنعمة الله، كُفْراً وكُفْراناً وكفوراً».

(٢) قراءة حفص عن عاصم كما هي ثابتة في المصحف: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ إِلى آخر الآية، ولعلَّ الخطأ من النساخ.

(٣) قال ابن جني: «أما [حَرِمَ] فالماضي من حَرِمَ، مثل قَلِقَ من قَلِقٍ، قالوا: حَرِمَ زيدٌ إِذا سُلِبَ ما لَه، قال زهير:

وَإِنْ أَتَـاهُ خَلِيـلٌ يَـوْمَ مَسْغَبَـةٍ يَقُـولُ لاَ غَـائِـبٌ مَـالِـي وَلاَ حَـرِمُ =



من قرأ: [وَحِرْمٌ]، وقراءَة من قرأَ: [وَحَرَامٌ]، وهما مصدران مثل «حلٌّ وَحَلاَلٌ».

وأَمَّا معنى الآية فقالت فرقة: حرامٌ وحِرْمٌ معناه: جَزْمٌ وحَتْم على قرية أَهلكناها أَنهم لا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون ويستعتبون، بل هم صائرون إلى العذاب، وقال بعض هذه الفرقة: «الإِهْلاَكُ» هو بالطَّبع على القلوب ونحوه، و«الرُّجُوعُ» هو إلى التوبة والإيمان، وقالت طائفة: المعنى: وحَرَامٌ، أَي ممتنع ـ وحِرْمٌ كذلك ـ على قرية أَهلكناها أَنهم لا يرجعون، وقالوا: لا زيادة في الكلام. واختلفوا في «الإِهلاك والرجوع» بحسب القولين المذكورين، قال أَبو علي: يحتمل أَن يرتفع ﴿حَرَامٌ﴾ بالابتداءِ، والخبر رجوعهم، و﴿لا﴾ زائدة، ويحتمل أَن يرتفع ﴿حَرَامٌ﴾ على خبر الابتداء، كأَنه قال: والإِقالة والتوبة حرام، ثم يكون التقدير بأَنهم لا يرجعون، فتكون ﴿لا﴾ على بابها، كأَنه قال: هذا عليهم ممتنعٌ بسبب كذا، فقال تحريم في الآية بالجملة ليس كتحريم الشرع الذي إن شاءَ المنهيُّ عنه ركبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه في الآية معنى ضمنه وعيدٌ بيِّن، وذلك أَنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أَنهم لا يُحشرون إلى ربٍّ، ولا يرجعون إلى مَعَادٍ، فهم يظنون بذلك أَنه لا عقاب ينالهم، فجاءَت الآية مكذِّبة لظن هؤلاء، أَي: «مُمْتَنِعٌ على الكفرة المهلَكين أَنهم لا يرجعون، بل هم راجعون إلى عقاب الله وأَليم عذابه»، فتكون ﴿لا﴾ على بابها، والحرام على بابه، وذلك الحِرْم فتأَمله[1].

= ومعنى هذا الكلام أن (حَرِمَ) لازمٌ ولهذا يكون الوصف منه على فَعِلٍ، مثل قَلِقَ وبَطِرَ من قَلِقٍ وبَطِرٍ.
ثم قال ابن جني: «وأَمَّا [حَرُمَ] فَمِن حَرَمْتُهُ الشيءَ: إذا منعته إِيَّاهُ، فقد عادإِذاً إِلى معنى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾».

(١) وقال الزجاج: «إِن في الكلام إِضماراً، والتقدير: وحرامٌ على قرية حَكَمْنَا باستئصالها، أو بالخَتْم على قلوبها أن يُتَقَبَّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أيْ لا يتوبون، و[لاَ] غير زائدة. وقال النحاس: الآية مشكلة، ومن أحسن ما قيل فيها ما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، حيث قال: «وَجَبَ أَنَّهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون»، وقد قيل: الحرام يأتي بمعنى الواجب، ويدل على ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ وترك الشرك واجب، وقالت الخنساءُ:

حَـرَامٌ عَلَـى أَلاَّ أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِيـاً ... عَلَـى شَجْـوِهِ إِلاَّ بَكَيْـتُ عَلَـى صَخْـرِ =



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

تحتمل ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ـ في هذه الآية ـ أن تكون متعلِّقة بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، وتحتمل ـ على بعض التأويلات المتقدمة ـ أن تتعلَّق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وتحتمل أن تكون حرف ابتداءٍ: وهو الأظهر بسبب ﴿إِذَآ﴾؛ لأنها تقتضي جواباً هو المقصود ذكْره.

واختلف هنا في الجواب ـ فقالت فرقة: الجواب قوله: ﴿اقترب الوعد﴾ والواو زائدة، وقالت فرقة ـ منها الزجاج وغيره: الجواب في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، والتقدير: قالوا يا ويلنا، وليست الواو بزائدة. والذي أقول: إن الجواب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾، وهذا هو المعنى الذي قُصد ذكره لأنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحُرِّم عليهم امتناعه.

وقرأ الجمهور: [فُتِحَتْ] بتخفيف التاءِ، وقرأ ابن عامر وحده: [فُتِّحَتْ] بتثقيلها. ورُوي أن يأْجُوج ومأْجوج يشرفون في كل يوم على الفتح فيقولون: غداً يُفتح، ولا يردُّون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا كان الغدُ وجدوا الرَّدْمَ كأَوله، حتى إذا أَذِنَ الله في فتحه قال قائلهم: غداً نفتحه إن شاءَ الله، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ. وقرأ عاصم وحده: [يأجوج ومأجوج] بالهمزة، وقرأ الجمهور بالتسهيل، وقد تقدم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثيرٌ من حال يأْجوج ومأْجوج فغنينا هنا عن إعادة ذلك.

و﴿الحدب﴾ كلُّ مُسَنَّم من الأَرض كالجبل والظَّرِب والكُدْية والقَبر ونحوه، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يأْجوج ومأْجوج، يعني أَنهم يطلعون من كل ثنيَّة ومرتفع ويَعُمُّون الأَرض، وذلك أَنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم أَخرج بعث النار من ذرِّيتك، فيخرج من كل أَلف تسعمائه وتسعة وتسعين» قال[1]: ففزع الناسُ، فقال رسول الله ﷺ: «إن منكم رجلاً ومن يأْجوج

= «وقيل: هذا البيت لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي الجاهلي، قال ذلك في اللسان ـ حرم».

(١) أَي الراوي.



ومأْجوج أَلف رجل»[١]، ويروى أَن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له أَلف ولد بين رجل وامرأَة. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُم﴾ جميع العالم، وإِنما هو تعريف بالبعث من القبور. وقرأَ ابن مسعود: [من كل جدث]، وهذه القراءَة تؤيد هذا التأْويل.

و﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يُسرعون في تطامن[٢]، ومنه قول الشاعر:

عَسَلاَنَ الذِّئْبِ أَمْسَى قَارِباً ... بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلْ[٣]

وقرأَت فرقة بكسر السين، وقرأَت فرقة بضمها.

وأَسند الطبري عن أَبي سعيد قال: «يخرج يأْجوج ومأْجوج فلا يتركون أَحداً إِلاَّ قتلوه إِلاَّ أَهل الحصون، فيمرون على بحيرة طبرية، فيمر أَحدهم فيقول: كان هاهنا ماءٌ، فيبعث الله عليهم النَّغف حتى يكسر أَعناقهم، فيقول أَهل الحصون: لقد هَلَك أَعداءُ الله، فيدلُّون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماءً من السماءِ فيقذف بهم في البحر فيطهر الأَرض منهم»[٤]، وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره: «قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها»[٥] ورُوي أَن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، وفي تفسير سورة الحج، وفي الرقاق والتوحيد، وأخرجه مسلم في الإيمان والفتن، والترمذي في تفسير سورة الحج، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده.

(٢) تَطَامَنَ: أصلها الهمزة، يقال: تَطَأْمَنَ، وهي مطاوع طَأمنه إذا سكن أو انخفض، وتخفف الهمزة فيقال: تَطَامَنَ. «المعجم الوسيط».

(٣) البيت في اللسان (عَسَلَ)، وقد نسبه إلى لبيد، ثم قال: «وقيل: وهو للنابغة الجعدي»، ونسبه في القرطبي إلى النابغة. وعَسَل الذئب والثعلب يَعْسِل عسلاً وعسلاناً: مضى مسرعاً واضطرب في عدوه، والقاربُ: الذي يسير ليلاً في طلب الماءِ ويكون مسرعاً، ونَسَل: أَسْرَعَ، وأصل النسلان في الذئب ثم استعمل في غيره، يقال: نَسَل ينسل ـ بالكسر ـ وينسُل ـ بالضم ـ نسْلاً ـ بالسكون ـ ونَسَلا ـ بالتحريك: أَسرع في مشيه.

(٤) حديث أبي سعيد الخدري عن يأجوج ومأجوج حديث طويل، والرواية المذكورة هنا أخرجها ابن جرير من طريق ابن عطية، أما الرواية الأخرى فقد قال في الدر المنثور: أخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى يتركوها يبساً، حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا مرة ماءٌ.. الخ.

(٥) حديث حذيفة أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، وفي هذا الحديث تفسير للمراد بالنَّغف، إذْ جاء=

رأى صبياناً يلعبون وينْزو بعضهم على بعض فقال: هكذا خروج يأجوج ومأجوج.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يريد يوم القيامة، وروي في الحديث «إن الرجل ليتخذ الفلو من بعد يأجوج ومأجوج فلا يبلغ منفعته حتى تقوم الساعة»[1]، وقوله: ﴿هِيَ﴾ مذهب سيبويه أنها ضمير القصة، كأنه قال: فإذا القصة أو الحادثة شاخصة أبصارَ، وجوَّز الفراءُ أن تكون ضمير «الأبصار» تقدمت لدلالة الكلام، ويجيءُ ما يفسِّرها، وأنشد على ذلك:

فَـــلا وَأَبِيهَـــا لاَ تَقُـــولُ خَلِيلَتِـــي ... أَلاَ فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بنُ أَبِي كَعْبِ[2]

والشخوص بالعين: إحْدادُ النَّظر دون أن يطرف، وذلك يعتري من الخوف المُفْرط أو علَّة أو نحوه.

وقوله: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ تقديره: يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عمَّا وجدنا الآن وتبيَّنَّا من الحقائق، ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يُداخلهم من تعمُّد الكفر وقصد الإعراض فقالوا: ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذه مخاطبة لكفار مكة، أي: إنكم وأصنامكم حصب جهنم، و«الْحَصْبُ»:

= فيه: «فيبعث الله عليهم دابة يقال لها: النغف، تدخل في مناخرهم فيصبحون موتى».

(١) أخرجه ابن جرير عن حذيفة رضي الله عنه، ولفظه كما في «الدر المنثور»: «قال: لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة»، والفِلْوُ والفُلُوُّ: الجحش أو المهر يُفطم أو يبلغ السنة. والجمع أفلاءٌ.

(٢) البيت لمالك بن أبي كعب، وهو من شعر يقوله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر. (انظر: «الأغاني»، والرواية في «معاني القرآن» للفراءِ: «لَعَمْرُو أَبيها لا تَقُولُ ظعينتي». وكذلك ذكره الطبري، والفراءُ في كتابه «معاني القرآن» يقول: «تكون (هي) عماداً يصلح في موضعها (هو) فتكون كقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾، ومثله قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، فجاء التأنيث لأن الأبصار مؤنثة والتذكير للعماد، وسمعتُ بعض العرب يقول: كان مرَّةً وهو ينفع الناس أحسابهم، فجعل (هُوَ) عماداً، وإن شئت جعلت (هِيَ) للأبصار، كنِّيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها، كما قال الشاعر: «لَعَمْرُ أبيها. .» البيت، فذكر الظعينة، وقد كنَّى عنها في (لَعَمْرُ أبيها).

ما توقد به النار، إمَّا لأنها تُحصب به أي تُرمى، وإمَّا أَن تكون لغة في الحطب إذا رمى، وأما قبل أَن تُرمى فلا يُسمَّى حصباً إلاَّ بتجوُّز.

وقرأ الجمهور: [حَصَبُ] بالصاد مفتوحة، وسكَّنها ابن السَّمَيفع؛ وذلك على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأُبي بن كعب، وعائشة، وابن الزُّبير رضي الله تعالى عنهم: [حَطَبُ جَهَنَّمَ] بالطَّاءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: [حَضَبُ جَهَنَّمَ] بالضاد منقوطة مفتوحة، وسكَّنها كثير غيره، والحَضَبُ أَيضاً ما يُرمى به في النار لتوقد به، والمِحْضَبُ العُودُ الذي تُحرَّك به النار أَو الحديدة ونحوه، ومنه قول الأعشى:

فَـلاَ تَـكُ فِـي حَـرْبِنَـا مِحْضَبـاً لِتَجْعَـلَ قَـوْمَـكَ شَتَّـى شُعُـوبَـا(١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد الأصنام، وحرقها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها، ومن حيث تقع ﴿مَا﴾ لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ على رسول الله ﷺ فقال: إن عيسى وعُزَير ونحوهما قد عُبدا من دون الله فيلزم أَن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية، ثم قرَّر الأَمر بالإشارة إلى الأَصنام التي أَراها في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، وعبَّر عن الأصنام بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من حيث هي عندهم بحال من يعقل، و«الوُرودُ» في هذه الآية ورود الدخول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

---

(١) البيت في اللسان (حَضَب، وهو شاهد على أَن (المِحْضَب) هو العود الذي تُحرَّك به النار عند الإيقاد، قال: «والحَضَبُ»: الحطب في لغة اليمن، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَضَبُ جَهَنَّمَ﴾ منقوطة، قال الفراءُ: يريد الحصب، وحَضَبَ النار يحضِبُهَا: رفعها، وقال الكسائي: حَضَبْتُ النار إذا خبت فألقيت عليها الحطب لتقد، والمِحْضَب: المِسْعَر، وهو العود الذي تُحرَّك به النار عند الإيقاد، قال الأعشى: «فَلاَ تَكُ في حَرْبِنَا. . . البيت». يقول: لا تحرِّك الفتنة وتشعل نار الحرب فتُفرِّق قومك وتجعلهم شعوباً مختلفة).

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على من يعقل ممَّن تُوُعِّد. و«ٱلزَّفِيرُ»: صوتُ المعذَّب، وهو كشهيق الحمير وشبهه إلاَّ أنه من الصدر، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: لا يسمعون خيراً ولا ساراً من القول، وقالت فرقة: إن عذابهم أَن يجُعلوا في توابيت في داخل توابيت أُخر فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً.

ولمَّا اعترض ابن الزِّبَعْرىٰ بأَمر عيسى بن مريم، وعُزَيْر نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ مُبَيِّنة أَن هؤلاء ليسوا تحت المراد لأَنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إِليه، و«ٱلْحُسْنَى» يريد كلمة الرَّحْمة والحَتْم بالتفصيل. و«ٱلْحَسِيسُ»: الصوت، وهو بالجملة ما يتأَدَّى إِلى الحسِّ من حركة الأَجرام، وهذه صفةٌ لهم بعد دخولهم الجنة، لأَن الحديث يقتضي أَن في الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبيٌّ ولا مَلَك إِلاَّ جثا على ركبتيه.

و«ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ» عامٌّ في كل هول يكون في يوم القيامة، فكأَن يوم القيامة بجملته هو الفزع الأَكبر، وإِن خصص شيءٌ من ذلك فيجب أَن يقصد الأَعظم هوْله. قالت فرقة في ذلك: هو ذبْح الموت، وقالت فرقة: هو وقوع طبق جهنم على جهنم، وقالت فرقة: هو الأمر بأَهل النار إِلى إِلى النار، وقالت فرقة: هو وقت النفخة الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وما قبله من الأَوقات أَشبه أَن يكون فيها الفزع لأَنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث، فأَما وقت ذبح الموت ووقع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أَهل الجنة في الجنة، فذلك فزع بيِّن أَنه لا يصيب أَحداً من أَهل الجنة فضلاً عن الأَنبياء، اللهم إِلاَّ أَن يريد: لا يحزنهم الشيءُ الذي هو عند أَهل النار فزع أَكبر، فأَمَّا إِن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أَنه قبل دخول الجنة.

وقد ذهب بعض الناس إِلى أَن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ يعُمُّ كل مؤمن[1]، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه أَنه قال: عثمان منهم.

(١) في القرطبي أنه روي عن النبي ﷺ «ثلاثة يوم القيامة في كثيب من المسك الأذفر، ولا يحزنهم الفزع الأكبر: رجلٌ أَمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجل أَذَّن لقوم محتسباً، ورجل ابتلي برق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربّه». وهذا حديث لا أصل له.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا مِرْيَة أَنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كلَّ من سعد في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم، أَي: هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والنعيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأَت فرقة: [نَطْوِي] بنون العظمة، وقرأَت فرقة: [يَطْوِي] بياءٍ مفتوحة على معنى: يَطْوِي اللهُ، وقرأَت فرقة: [تُطْوَى] بتاءٍ مضمومة وبرفع [ٱلسَّمَاء] على ما لم يُسَمَّ فاعله.

واختلف الناس في ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ ـ فقالت فرقة: السِّجل: مَلَك يطوي الصحف، وقالت فرقة: السِّجل: رجل كان يكتب للنبي ﷺ. وهذا كله وما شاكله ضعيف. وقالت فرقة: السِّجلُّ: الصحيفة التي يكتب فيها، المعنى: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أَي: كما يطوى السجل من أَجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إِلى المفعول، ويحتمل أَن يكون المصدر مضافاً إِلى الفاعل، أَي: كما يطوي السِّجلُّ الكتاب الذي هو فيه، فكأَنه قال: يوم نطوي السجل كالهيئة التي فيها طيُّ السِّجلِّ للكتاب، ففي التشبيه تجوُّز.

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [ٱلسِّجْلَ] بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام، وفتح أَبو السَّمّال السِّين فقرأَها: [ٱلسَّجِلَ]، وقرأَ أَبو زرعة بن عمرو بن جرير: [ٱلسُّجُلّ] بضم السِّين وشدها وضم الجيم، وقرأَ الجمهور: [لِلْكِتَابِ]، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [لِلْكُتُبِ].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أَن يكون خبراً عن البعث، أَي: كما اخترعنا الخلق أَوَّلاً على غيرِ مثال كذلك نُنْشِئُهُم تارة أُخرى فنبعثهم من القبور، والثاني أَن يكون خبراً عن أَنَّ كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إِلى الدنيا، ويؤيد هذا التأْويل أَن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس

يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرْلاً، كما بدأنا أوَّل خَلْق نُعيده»[1]. والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تأكيدٌ للأمر، بمعنى أَن الأَمر واجب فيه ذلك.

وقالت فرقة: «ٱلزَّبُور»: اسمٌ يعُمّ جميع الكُتب المُنَزَّلَة لأَنه مأْخوذ من «زَبَرْتُ الْكِتَابَ»: إذا كَتَبْتُهُ، قالت فرقة: و«الذِّكْرُ» أراد به اللَّوح المحفوظ، وقال بعضهم: الذِّكر الذي في السماء. وقالت فرقة: الزَّبُورُ هو زبور داود عليه السلام، والذِّكْر أَراد به التوراة، وقالت فرقة: الزَّبور ما بعد التوراة من الكُتب، والذِّكْر التوراة. وقرأَ حمزة وحده: [ٱلزُّبُور] بضم الزاي.

وقالت فرقة: «ٱلأَرْضُ» أَراد بها أَرض الدنيا، أَي كل ما يناله المؤمنون من الأَرض، وقالت فرقة: أَراد أَرض الجنة، واستشهدوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقالت فرقة: إنما أَراد بهذه الآية الإخبارَ عمَّا كان صنعه مع بني إسرائيل، أَي: فاعلموا أَنَّا كُنَّا وَفَّيْنَا لهم بما وعدناهم، فكذلك نُنجز لكم ما وعدناكم من النُّصرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قالت فرقة: الإشارة بقوله تعالى: ﴿فِى هَٰذَا﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة، وقالت

---

(١) أخرجه مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراةً غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام». وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غرلاً، أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾». وعن عائشة رضي الله عنها أخرج ابن جرير، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها العجوز، فأخذَ العجوز ما أخذها، فقال: إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن، ثم قال: تحشرون حُفاة عُراةً غُرلاً، فقالت: حاشى لله من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: بلى، إن الله تعالى قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فأول من يُكسى إبراهيم خليل الرحمن.

فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان بالله تعالى، وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ قالت فرقة: عمَّ العالمين وهو يُريد من آمن فقط، وذلك أن النبي ﷺ ليس برحمة على من كفر به ومات على كفره، وقالت فرقة: العالمون عامٌّ ورحمته للمؤمنين بيِّنة، وهي للكافرين بأَن الله تعالى رفع عن الأُمم أَن يُصيبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أَنواع العذاب المستأْصِلة كالطوفان وغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل الكلام أَن يكون معناه: وما أَرسلناك للعالمين إلاَّ رحمةً، أَي: هو رحمة في نفسه وهدًى، أَخذ به مَنْ أَخذ، وأَعرض عنه مَنْ أَعرض.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ﴾ معناه: عرَّفتكم بنذارتي، وأَردت أَن تُشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله.

ثم أَعلمهم بأَنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، بل هو مُتَرَقَّبٌ في القرب والبعد، وهذا أَهول وأَخوف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾.

الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد على الله تعالى، وفي هذه الآية تهديد، أَي: يعلم جميع الأَشياء الواقعة منكم، وهو بالمرصاد في الجزاءِ عليها.

وقرأَ يحيى بن عامر: [وَإِنْ أَدْرِيَ لَعَلَّهُ] [وَإِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ] بفتح الياءِ فيهما، وأَنكر ابن مجاهد فتح هذه الياءِ، وَوَجَّهه أَبو الفتح[1].

---

(١) قال أَبو الفتح في كتابه: «المحتسب»: «أَنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين، وظاهر الأمر لعمري كذلك، لأنها لام الفعل بمنزلة ياء أرمي وأقضي، إلا أن تحريكها بالفتح في هذين الموضعين لشبهة عرضت هناك، وليس خطأً ساذجاً بحتاً.

وذلك أنك إذا قلت: «أدري» فلك هناك ضمير وإن كان فاعلاً، فأشبه آخره مالَكَ فيه ضمير وإن كان مضافاً، مثل غلامي وداري، فلما تشابه الآخِرَان بكونهما ياءين، وهناك أيضاً للمتكلم ضميران، وهما المرفوع في (أدري) والمجرور في (غلامي) أشبه آخِرُ (أدري) ـ لما ذكرنا ـ آخِرَ (غلامي) ففتحت الياءُ في (أدري كما تفتح في نحو (غلامي وداري)

=

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ الضمير فيه عائد على الإملاء لهم، وصَفْح الله تعالى عن عذابهم، وتمادي النعمة عليهم. و﴿فِتْنَةٌ﴾ معناه: امتحانٌ وابتلاءٌ، و«ٱلْمَتَاعُ» ما يُستمتع به مدة الحياة الدنيا.

ثم أَمره الله تعالى أَن يقول على جهة الدعاءِ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، والدعاء بهذا هنا فيه توعُّد، أَي: إِن الحق هو نصرتي عليكم، وأَمر الله تعالى بهذا الدعاء دليل على الإِجابة والعِدَة بها.

وقرأَت فرقة: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [رَبُّ] بالرَّفع على المنادى المفرد، وقرأَت فرقة: [رَبِّي أَحْكَمُ] على وزن أَفْعَل، وذلك على الابتداءِ والخبر، وقرأَت فرقة: [رَبِّي أَحْكَمَ] على أَنه فعل ماض، ومعاني هذه القراءَات بيِّنة.

ثم توكَّل في آخر الآية واستعان بالله تعالى، وقرأَ جمهور القراءِ: [قُلْ رَبِّ ٱحْكُمْ]، وقرأَ عاصم ـ فيما رُوي عنه ـ: [قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ]. وقرأَ ابن عامر وحده: [عَلَى مَا يَصِفُونَ] بالياءِ، وقرأَ الباقون والناس: [عَلَى مَا تَصِفُونَ] بالتاءِ من فوق على المخاطبة.

كمل تفسير سورة الأنبياء والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= ثم أطال في بيان أوجه الشبه بين الكلمات مهما كانت تبدو لأَول مرة بعيدة ليؤكد أن هناك شبهاً بين الياء في (أدري) والياء في (غُلامي)، ثم قال: فاعرفه معنًى كالعُذْر أو عُذْراً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

هذ السُّورة مكِّيَّة إلاَّ ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهن أربع آيات، إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقال الضحاك: هي مدنية، وقال قتادة: سورة الحج مدنية إلاَّ أربع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الحج: ٥٢]، إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، فهن مكِّيَّات، وعدَّ النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات، وقال الجمهور: السُّورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأَصح ـ والله أعلم ـ لأَن الآيات تقتضي ذلك[١]، ورُوي عن أَنس بن مالك أنه قال: نزل أَول السُّورة في السفر على رسول الله ﷺ فنادى بها فاجتمع الناس إليه، فقال: أَتدرون أَي يوم هذا؟ فبهتوا، فقال: يوم يقول الله: يا آدم أَخرج بعث النار، فيخرج من كل أَلف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فاغتم الناسُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَبشروا، فمنكم رجل ومن يأْجوج ومأْجوج أَلف رجل. . . الحديث»[٢].

---

(١) لأن فيها ﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو مكي، و﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهو مدني، قال الغزنوي: «هي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكيّاً ومدنيّاً، سلميّاً وحربيّاً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مختلف العدد».

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، أخرج نحوه سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره، عن عمران ابن حصين. وكذلك أخرج نحوهما البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وحديث (بعث النار) أخرجه أيضاً البخاري عن أبي سعيد الخدري في تفسير هذه السورة (الحج)، وفي الأنبياء، وفي الرقاق، وفي التوحيد، وأخرجه مسلم في الإيمان، وفي الفتن.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

صدر الآية تحذير لجميع العالم، ثم أَوجب الخبر وأَكَّده بأَمر زلزلة القيامة، وهي إِحدى شرائطها، سمَّاها شيئاً لأَنها حاصلةٌ مُتَيَقَّن وقوعها يُستسهل لذلك أَن تُسَمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إِذ اليقين بها يشبه الموجودات، وإِمَّا على المآل، أَي هي إِذا وقعت شيءٌ عظيم، فكأَنه لم يُطلق الاسم الآن، بل المعنى: إِنها إِذا كانت فهي حينئذ شيءٌ عظيم.

و«ٱلزَّلْزَلَة»: التحريك العظيم[(١)]، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أَبي هريرة[(٢)] من ثلاث نفخات. ومن لفظة الزلزلة قول الشاعر:

يَعْـرِفُ الْجَـاهِـلُ الْمُضَلَّـلُ أَنَّ الـدَّهْـ ـــرَ فِيـــهِ النَّكْـرَاءُ وَالـزِّلْـزَالُ[(٣)]

فيحتمل أَن تكون الزَّلْزلة في الآية عبارة عن أَهوال يوم القيامة، كما قال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾[(٤)]، وكما قاله عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اهزمهم وزلزلهم»[(٥)]،

---

(١) في بعض النسخ «التحريك العنيف».

(٢) هذا حديث طويل، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وقال عنه: أخرجه عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والعصيان»، وأبو يعلى، وأبو حسن القطَّان في «المطولات»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو موسى المديني، كلاهما في «المطولات»، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه ثلاث نفخات، نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

(٣) يستشهدون بهذا البيت على أَن مصدر الفعل الرباعي المضعف إذا جاء على «فعلال» كان بكسر الفاء، فإذا فُتحت الفاءُ كان اسماً للمصدر وليس مصدراً، نقل صاحب اللسان عن أبي إسحق قوله في الآية الكريمة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: «المعنى: إذا حُرِّكَت حركة شديدة، والقراءَة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي، ويجوز في الكلام زَلْزَالَهَا»، وليس في الكلام «فَعْلاَل» بفتح الفاءِ إلاَّ في المضاعف نحو الصَّلْصال والزَّلْزال، والزِّلزال بالكسر المصدر، والزَّلزال بالفتح الاسم، وكذلك الوسواسُ المصدر، والوَسْوَاسُ الاسم.

(٤) من الآية (٢١٤) من سورة (البقرة).

(٥) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في الجهاد والمغازي والتوحيد والدعوات، وأخرجه كلٌّ من=



والجمهور على أَن زلزلة الساعة هي كالمعهودة في الدنيا إِلاَّ أَنها في غاية الشِّدَّة.

واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أَم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على الزَّلْزلة، وقوَّى قولهم أَن الرضاع والحمْل إِنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: الزَّلْزَلة في يوم القيامة، واحتجت بحديث أَنس المذكور آنفاً؛ إِذْ قرأَ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنه اليوم الذي يقول فيه لآدم: أَخْرج بعث النار».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث لا حُجَّة فيه؛ لأَنه يحتمل أَن النبي ﷺ قرأَ الآية المُتَضَمِّنَة ابتداءَ أَمر السَّاعة ثم قصد في تذكيره وتخويفه إِلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أَي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأْويل أَلاَّ يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإِن أَعادوه على الزَّلْزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أَن النقاش ذكر أَن المراد بـ«كُلِّ ذَاتِ حَمْلٍ» من مات من الإِناث ولدُها في جوفها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

و«الذُّهُولُ»: الغفلة عن الشيءِ بطُروء[1] ما يشغل عنه من همٍّ أَو وجع أَو غيره، قال ابن زيد: المعنى: تترك ولدها للكرب الذي نزل بها. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [تُذْهِلُ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ ونصب [كُلَّ][2]. ، وأَلحق الهاءِ في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ لأَنه أَراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأَجراه على الفعل، وأَمَّا إِذا أَخبرتَ عن المرأَة بأَن لها طفلاً ترضعه

= مسلم والترمذي وابن ماجه في الجهاد، وأخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٥٣ـ٣٥٥، ٣٨١)، ولفظه كما في المسند، عن ابن أبي خالد، وهو إسماعيل، قال: سمعتُ ابن أبي أوفى يقول: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب، اهزمهم وزَلْزِلْهُمْ».

(١) في الأصل: «بطَرَيَان ما يشغل عنه».

(٢) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «ولو قيل: تُذْهِل كلَّ مرضعة، وأنت تريد الساعة أنها تُذْهل أهلها كان وجْهاً، ولم أسمع أحداً قرأ به». هذا وقد قرأ به اليماني أيضاً مع ابن أبي عبلة كما قال صاحب البحر المحيط.



فإنما تقول: «مُرْضِعٌ» مثل «حَامِل»[١]، قال عليُّ بن سليمان: هذه الهاءُ في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ تردُّ على الكوفيِّين قولهم: إن الهاءَ لا تكون فيما لا تلبُّس له بالرجال، وحكى الطبري أن بعض نحويِّي الكوفة قال: أمُّ الصبيِّ مرضعةٌ، والمُسْتأجَرة له مرضعٌ.

و«ٱلْحَمْلُ» بفتح الحاءِ: ما كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرة. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ تشبيه لهم، أي: من الهَمِّ، ثم نفي عنهم السُّكر الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن وغيره.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ بضم السِّين وثبوت الألف، وكذلك في الثاني، وهذا هو الباب، فمرَّةً جعله سيبويه جمعاً، ومرَّةً جعله اسم جمع، وقرأ أبو هريرة بفتح السِّين فيهما، وهذ أيضاً قد يجيءُ في هذه الجموع، قال أبو الفتح: هو تكسير، وقال أبو حاتم: هي لغة تميم، وقرأ حمزة والكسائي: [سَكْرَى] في الموضعين، ورواه عمران بن حُصين، وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود، وحذيفة، وأصحاب عبد الله. قال سيبويه: وقوم يقولون «سَكْرَى»، جعلوه مثل «مَرْضَى» لأنهما شيئان يدخلان على الإنسان، ثم جعلوا «رَوْبَى» مثل «سَكْرَى» وهم المستثقلون نوماً من شرب الرائب، وقال أبو علي: ويصح أن يكون [سُكَارَى] جمع «سَكِرٍ» كزَمْنَى وَزَمِنٍ، وقد حكى سيبويه: رجل سَكِرٌ بمعنى سكران، فيجيءُ سَكْرَى حينئذ لتأنيث الجمع، كما العلامة في «طائفة» لتأنيث الجمع. وقرأ سعيد بن جبير: [وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى] بالضم والألف. وحكى المهدوي عن الحسن أنه قرأ: [وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى ومَا هُمْ بِسَكْرَى]، وقرأ الحسن[٢]، والأعرج، وأبو

---

(١) قال الخليل ما خلاصته: إذا وصَفْتَ المرأة بفعل هي تفعلُه قلت مُفْعِلَةٌ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، أما إذا وصفتها بفعل واقع منها أو لازم لها قلت: مُفْعِل، كقولك: امرأةٌ مُطْفِلٌ، أي ذاتُ طِفْلٍ، بلا هاءٍ، وعلى هذا نفهم الوجه في قول امرىء القيس:

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُغْيِلِ

وقول الآخر:

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلادَ أُخْرَى وَضَيَّعَتْ ... بَنِي بَطْنِهَا، هَذَا الضَّلَالُ عَنِ الْقَصْدِ

(٢) لم أجد في كتب التفسير من نسب قراءة ﴿سَكْرى﴾ بفتح السين إلى الحسن إلاّ ابن عطية هنا نقلاً عن المهدوي، أمّا قراءته بالضم ﴿سُكْرى﴾ فقد نسبها له أبو الفتح في المحتسب. وصاحب البحر المحيط. وقد رواها عن الحسن ابن مجاهد.

زُرْعة بن عمرو بن جرير في الموضعين: [سُكْرَى] بضم السين، قال أبو الفتح: «هو اسم مفرد كالبُشْرى، وبهذا أفتاني أبو علي، وقد سألته عن هذا»[١]. وقرأ أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، وأبو هريرة، وأبو نُهَيْك: [وتُرَى] بضم التاء، [ٱلنَّاسَ] بالنصب، قال: وإنَّما هي بحَسَبه[٢]، ورويت هذه القراءة [وتُرى الناسُ] بضم التاءِ والسين، أي: تُرى جماعة الناس[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية. قال ابن جريج: نزلت في النضر بن الحارث، وأُبيِّ بن خلف، وقيل: في أَبي جهل بن هشام، ثم هي بَعْدُ تتناول كلَّ من يتصف بهذه الصفة. و«المُجادَلَةُ»: المُحاجَّة، والمادَّة مأْخوذة من «الْجَدَل» وهو الفَتْل، والمعنى: ﴿ يُجَٰدِلُ ﴾[٤] في قدرة الله وصفاته[٥]. وكان سبب الآية كلامٌ من ذُكر في أَن الله تبارك وتعالى لا يبعث الموتى، ولا يقيم الأَجساد من القبور. و«الشَّيْطَانُ» هنا هو مُغْويهم من الجن، ويحتمل أَن يكون الشيطان من الإِنس، والإِنحاءُ على مُتَّبعيه. و«ٱلْمَرِيدُ»: المتجرِّد من الخير إِلى الشرِّ، ومنه الأَمرد، وشجرةٌ مرداءُ أَي عارية من الورق، وصَرْحٌ

---

(١) راجع المحتسب (٢/ ٧٤).

(٢) أي بحسب ظنِّه وتَخَيُّلِه، كأنه قال: تظنُّ ويُخيَّل إليك. قال أبو حيان في البحر المحيط: «عُدِّي (تُرَى) إلى مفاعيل ثلاثة، أحدها الضمير المستكن في (تُرَى) وهو ضمير المخاطب مفعول لم يُسَمَّ فاعله، والثاني والثالث ﴿ ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾».

(٣) أي أن التأنيث جاء لمعنى الجماعة من الناس.

(٤) زيادة لتوضيح المعنى المراد.

(٥) قيل: كان النضر جدِلاً يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا يقدر الله أن يحيي من بلي وصار تراباً. راجع (أسباب النزول) للسيوطي ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم، وراجع «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٤) فقد قال: «أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج مثله».

مُمَرَّد أَي مُمَلَّسٌ من زجاج، وصخرةٌ مرداءُ أَي ملساءُ. والضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائد على «الشَّيْطَان»، قاله قتادة، ويحتمل أَن يعود على «المُجَادل». و﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، و﴿أَنَّهُۥ﴾ الثانية عطف على الأُولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مكررة للتأكيد فقط، وهو معترض بأَن الشيءَ لا يؤكد إِلاَّ بعد تمامه وتمام ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأُولى إِنما هو بصلتها في قوله: ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، وكذلك لا يُعطف عليه، ولسيبويه في مثل هذا أَنه بدلٌ، وقيل ﴿أَنَّهُۥ﴾ الثانية خبر ابتداء محذوف تقديره: فشأْنه أَنه يضله، وقدره أَبو علي: فَلَه أَن يُضِلَّه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن الضمير في ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأُولى للشيطان، وفي الثانية لـ﴿مَنْ﴾ الذي هو المتولي. وقوله: ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾ بمعنى: يدلُّه على طريق ذلك، وليست بمعنى الإِرشاد على الإِطلاق. وقرأَ أَبو عمرو: [إِنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ] بالكسر فيهما.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الآية. هذا احتجاجٌ على العالم بالبدأَة الأُولى، وضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين إِذا اعتبرهما الناظر جوَّز في العقل البعثة من القبور، ثم ورد خبر الشرع بوجوب ذلك ووقوعه. و«الرَّيْبُ»: الشَّك، وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ شرط مضمنه التوقيف، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [البعث] بفتح العين، وهي لغة في «البعْث» عند البصريين، وهي عند الكوفيين تخفيف «بَعْث».

وقوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ يريد آدم ثم سلَّط الفعل عليهم من حيث هم ذريته، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ يريد المنيَّ الذي يكون من البشر، و«النُّطفة» تقع على قليل الماءِ وكثيره، وقال النقاش: المراد نطفة آدم، وقوله: ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ يريد من الدَّم الذي تعود النُّطفة إِليه في الرَّحِم، أَو المقارن للنطفة، و«الْعَلَقُ»: الدَّم العبيط، وقيل: «العَلَق»: الشديد الحمرة، فسمي الدَّم لذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما يُمضغ، وقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ معناه: مُتَمَمَة الْبِنْيَة ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ غير مُتَمَمة، أَي التي تسقط، قاله مجاهد، وقتادة، والشعبي، وأَبو العالية، فاللفظة بناءُ مبالغة من «خَلَق»، ولمَّا كان الإِنسان فيه أَعضاءٌ متباينة وكلٌّ منها مختص بخَلْق حَسُنَ في جملته تضعيف الفعل لأَن فيه خَلْقاً كثيرة، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [مُخَلَّقَةً] بالنصب [وَغَيْرَ] بالنصب في الراءِ.

ويتصل بهذا الموضع من الفقه أَن العلماءَ اختلفوا في أُمِّ الولد إِذا أَسقطت بضْعَة لم تُصَوَّر، هل تكون أُمَّ ولد بذلك؟ فقال مالك، والأَوزاعي، وغيرهما: هي أُمُّ ولد بالمضغة إِذا علم أَنها مضغة الولد، وقال الشافعي، وأَبو حنيفة: حتى يتبيَّن فيه خلق ولو عضو واحد.

وقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، قالت فرقة: معناه: لنبين أَمر البعث، فهو اعتراض بين الكلامين، وقرأَت هذه الفرقة بالرَّفع في [نُقِرُّ]، والمعنى: ونحن نُقِرُّ، وهي قراءة الجمهور. وقالت فرقة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: تكون المضغة غير مُخَلَّقَة وطرح النِّساء إِيَّاها كذلك نُبَيِّن للناس أَن المناقل في الرَّحِم هي هكذا، وقرأَت هذه الفرقة: [وَنُقِرَّ] بالنصب، وكذلك قرأَت: [نُخْرِجَكُمْ] بالنصب، وهي رواية المفضل عن عاصم، وحكى أَبو عمرو الداني أَن رواية المفضل هذه هي بالياءِ في ﴿يُقِرُّ﴾ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾، والرفع على هذا التأْويل شائع، ولا يجوز النصب على التأْويل الأَول. وقرأَ ابن وثاب: [مَا نِشَاءُ] بكسر النون. و«الأَجَلُ المُسَمَّى» هو مختلف بحسب جنينٍ جنينٍ، فَثَمَّ من يسقط، وثَمَّ من يَكْمُل أَمْرُه ويخرج حياً.

واختلف الناس في «الأَشُدِّ» من ثمانية عشر، إِلى ثلاثين، إِلى اثنين وثلاثين، إِلى ستة وثلاثين، إِلى أَربعين، إِلى خمسة وأَربعين، واللَّفظة تُقال باشتراك، فأَشُدُّ الإِنسان على العموم غير أَشُدِّ اليتيم الذي هو الاحتلام[١]. و«الأَشُدُّ» في الآية يحتمل المعنيين، والرَّدُّ إِلى أَرذل العمر هو حصول الإِنسان في زمانةٍ[٢] واختلال قوة حتى لا يقدر على إِقامة الطاعات، واختلال عقل حتى لا يقدر على إِقامة ما يلزمه من المعتقدات، وهذا أَبداً يلحق مع الكبر، وقد يكون أَرذل العمر في قليل من السن بحسب شخص مَّا لحقته زمانة، وقد ذكر عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن أَرذل العمر خمس وسبعون سنة، وهذا فيه نظر، وإِن صحَّ عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إِلاَّ أَن يريد: على الأَكثر، فقد نرى كثيراً أَبناءَ ثمانين سنة ليسوا في أَرذل العمر، وقرأَ الجمهور: [ٱلْعُمُرِ]

---

(١) يريد أن أشُدَّ الإنسان على العموم هو الاحتلام، وهو غير الذي أشُدُّ اليتيم يراد به: القدرة على التصرف وحسن إدراك الأمور، لقوله تعالى في الآية (١٥٢) من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ راجع المجلد الثالث ص٤٩٢.

(٢) الزَّمانة: المرض.



مشبعة، وقرأ نافع: [الْعُمْرِ] مخففة الميم، واختلف عنه.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ أي: لينسى معارفه وعِلْمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك شيئاً، فهذا مثال واحد يقضي للْمُعْتَدِّ به أن القادر على هذه المناقل الْمُتْقِن لها قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأُولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾.

هذا هو المثال الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعث الأجساد، وذلك أَن إحياء الأَرض بعد موتها بيِّن، وكذلك الأَجساد، و﴿هَامِدَةً﴾ معناها: ساكنة ودارسة بالية، ومنه قيل: همد الثوبُ إذا بلي، قال الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... وَأَرَى ثِيَابَكَ بَالِيَاتٍ هُمَّداً[1]

و«اهتِزاز الأَرض» هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماءِ، و﴿ربت﴾ معناه: نشرت وارتفعت، ومنه الربوةِ، وهي المكان المرتفع، وقرأَ أَبو جعفر بن القَعْقَاع[2]: [وَرَبَأَتْ] بالهمز، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَها عبد الله بن جعفر[3]،

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة خاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن بعد أن أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد، ومطلعها:

أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا ... وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

ورواية الديوان: «مَا لِجِسْمِكَ سَايِئاً» أي يسوءُ من يراك. والثوبُ الهامد: المتقطع من طول طيِّه، ينظر إليه الناظر فيحسبه سليماً، فإذا لمسه تناثر قطعاً من البلَى. وهذا هو الشاهد هنا.

(٢) هو أبو جعفر القارىء المدني المخزومي، مولاهم، اسمه يزيد بن القَعْقَاع، وقيل: بل اسمه جندب بن صيرور، وقيل: فيروز، قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب»: «وهو ثقة، من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين، وقيل: سنة ثلاثين».

(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي، أحد الأجواد، ولد بأرض الحبشة، وله صحبة، مات سنة ثمانين وله من العمر ثمانون سنة.



وخالد بن إلياس[١]، وهي غير وجيهة، وَوَجْهُها أن تكون من: «رَبَأْتُ القَوْمَ» إذا علوتَ شرفاً من الأرض طليعة، فكأن الأرض بالماءِ تتطاول وتعلو[٢]. و«الزَّوْجُ»: النوع، و«البَهِيجُ» فَعِيلٌ من البهجة وهي الحُسْن، قاله قتادة وغيره.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ ابتداءٌ، وخبره ﴿بِأَنَّ﴾، أي: هو بأن الله حقٌّ مُحْيِي قادرٌ، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس بسبب لما ذُكِرَ، لكن المعنى أن الأمر مرتبط بعضه ببعض، أو على تقدير: والأَمْرُ أن الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ الآية. الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم، وحكى النقاش عن محمد بن كعب أنه قال: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وكرر هذه على جهة التوبيخ، فكأنه يقول: وهذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك مَنْ يجادل، فكأن الواو واو الحالِ، والآية المتقدمة الواوُ فيها واو عطفت جملة الكلام على ما قبلها، والآية على معنى الإخبار، وهي هاهنا مكررة للتوبيخ، و﴿ثَانِيَ﴾ حالٌ من الضمير في ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ولا يجوز أن يكون مِنْ ﴿مَن﴾ لأنها ابتداءٌ، والابتداءُ عمله الرفع لا النصب، وإضافة ﴿ثَانِيَ﴾ غير مُعْتَدٍّ بها؛ لأنها في معنى الانفصال إذْ تقديرها: ثانياً عِطْفَهُ. وقوله سبحانه: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ عبارة عن المتكبر المُعْرِض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك أن صاحب الكِبْر يرُدُّ وجهه عما يتكبَّر عنه، فهو برَدِّ وجهه يصعِّر خدَّه ويلوي عنقه، ويثني عطفه، وهذه هي عبارات المفسرين. و«العِطْفُ»: الجانب. وقرأ الحسن: [عَطْفِهِ] بفتح العين، والعِطَافُ: السيف؛ لأن صاحبه يَتَعَطَّفُه، أي يصله

---

(١) هو خالد بن إلياس ـ وقيل: ابن إياس ـ بن صخر بن أبي الجهم بن حذيفة، أبو الهيثم العدوي، المدني، إمام المسجد النبوي، قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب»: «متروك الحديث، من السابعة».

(٢) الطليعة الذي يبعثه القوم يقال له: رَبِيءٌ ورَبِيئَةٌ، قال الشاعر:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمَلاً ... كَذِئْبِ الغَضَا يَمْشِي الضَّراءَ وَيَتَّقِي

والأصل أن يؤنث لأنه يقال له: العَيْن إذ هو ينظر بعينه، والعين مؤنثة، أما من ذكَّره فعلى أنه نقل من الجزءِ إلى الكُلِّ. قال ذلك سيبويه. راجع اللسان.



بجنبه[١]. وقرأ الجمهور: [لِيُضِلَّ] بضم الياءِ، وقرأَ مجاهد وأَهل مكة: [لِيَضِلَّ] بفتح الياءِ، وكذلك قرأَ أَبو عمرو. و«الخِزْيُ»: الذي تُوُعِّدَ به النضرُ بن الحارث صدق في أَسره يوم بدر، وقَتْلِهِ صَبْراً[٢]، و«الْحَرِيقُ»: طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ بمعنى: يقال له، ونسب التقديم إِلى اليدين إِذْ هُما آلة الاكتساب، واختلف في الوقف على ﴿يَدَاكَ﴾ ـ فقيل: لا يجوز لأَن التقدير: «وبأَن الله»، أَي أَنَّ هذا هو العدل فيك بجرائمك، وقيل: يجوز بمعنى: والأَمْر أَن الله تعالى ليس بظَلاَّمٍ. و«الْعَبِيد» ذُكر هنا في معنى مسكنتهم وقلَّة قدرتهم، فلذلك جاءَت هذه الصيغة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

وهذه الآيات نزلت في أَعراب وقوم لا يقين لهم، كان أَحدهم إِذا أَسلم فاتفقت له اتصافات حسان من نُمُوٍّ مالٍ وولد ذَكَرٍ يُرْزقه وغير ذلك قال: هذا دين جيِّدٌ، وتمسَّك به لهذه المعاني، وإِن كان الأَمر بخلافٍ تشاءم به وارتد كما صنع العُرَنِيُّون[٣] وغيرهم. قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ معناه: على انحراف منه عن العقيدة البيضاء، أَو على شَفَا منها[٤]، مُعَدٌّ للزهوق، و«الفِتْنَةُ»: الاختبار، وقوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ عبارةٌ

---

(١) في اللسان (عطف): «العِطَافُ: السيف؛ لأن العرب تسميه رداءً، قال الشاعر:

وَلاَ مَالَ إِلاَّ عِطَافٌ وَمِدْرَعٌ ... لَكُمْ طَرَفٌ مِنْهُ حَدِيدٌ وَلِي طَرَفُ

يريد بالطرف الأول حدَّه الذي يُضْرَب به، وبالطرف الثاني المِقْبض الذي يمسك به».

(٢) في الأصول: «وقتله بالصفراء»، والمعروف أن النبي ﷺ قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً.

(٣) بنو عَرين: بَطْنٌ من تميم، وعُرَيْنة ـ مُصَغَّرٌ ـ: بطنٌ من بَجيلة، وفي اللسان: «العُرَنِيُّونَ مثالُ الجُهَنِيِّين: ارتدُّوا فقتلهم النبي ﷺ».

(٤) الشَّفا: حَرْفُ الشيءِ وحدُّه، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾، وقال: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.



للمُوَلِّي عن الأمور. و«خَسَارَته الدنيا والآخرة» أما الدنيا فبالمقادير التي جرت عليه، وأما الآخرة فبارْتداده وسوءِ معتقده. وقرأ مجاهد، وحمزة، والأعرج: [خَاسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ] نصباً على الحال.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ يريد الأوثان، ومعنى ﴿يَدْعُوا﴾: يعبد، ويدعو أيضاً في مُلِمَّاتِهِ. واختلف الناس في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ ـ فقالت فرقة من الكوفيين: اللام مُقَدَّمة على موضعها، وإنما التقدير: يدعو من يضره، ويؤيد هذا التأويل أن عبد الله بن مسعود قرأ: [يَدْعُو مَنْ ضَرُّه]، وقال الأخفش: ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول: و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة صلة، وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف، والتقدير: يقول: لمن ضرُّه أقرب من نفعه إلهٌ، وشبه هذا بقول عنترة:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنها . . . .[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول فيه نظر، فتأمل إفساده للمعنى إذْ لم يعتقد الكافر قط أن ضرر الأوثان أقرب من نفعها، واعتذار أبي عليٍّ هنا مموه، وأيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به[2]. وقيل: المعنى في (يدعو) يُسَمِّي، وهذا كالقول الذي قبله إلاَّ أن المحذوف آخراً مفعول تقديره: إلهاً[3]. وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿يَدْعُوا﴾ في موضع الحال وفيه هاءٌ محذوفة، والتقدير: ذلك هو الضلال البعيد، أي: يدعوه، فيوقف على هذا[4]. قال أبو علي: ويحسن أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى «الذي»، أي: الذي هو

---

(١) هذا صدر بيت من المعلقة، والبيت بتمامه:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لِبَانِ الأَدْهَمِ

والأشطان: جمع شَطَن وهو حبل البئر، واللَّبَان ـ بفتح اللام ـ: الصدر، والأدهم: الفرس، يقول: إن الرماح في صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاءِ، لأن البئر إذا كانت كثيرة الجَرَفَة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان حتى لا تضطرب.

(٢) وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ مستأنفاً لأنه لا يصح دخوله في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾.

(٣) وهذا لا يتم إلاَّ بتقدير زيادة اللام، أي: «يدعو من ضَرُّه».

(٤) وقَدَّر «يَدْعُوه» مَدْعُوّاً، ولهذا قيل: هذا الرأي ضعيف؛ لأن «يدعوه» لا يقدر «مَدْعُوّاً»، إنما يقدر «داعياً».



الضلال البعيد يدعو، فيكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ موصولاً بقوله: ﴿هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، ويكون ﴿يَدْعُوا۟﴾ عاملاً في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى «الذي» غير سهل[1]، وشبهه المهدوي بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾[2]. وقد يظهر في الآية أن يكون قوله: ﴿يَدْعُوا۟﴾ متصلاً بما قبله، ويكون فيه معنى التوبيخ، كأنه قال: يدعو من لا يضر ولا ينفع، ثم كرَّر ﴿يَدْعُوا۟﴾ ـ على جهة التوبيخ ـ غيْرَ مُعَدًّى؛ إذْ قد عُدِّي في أول الكلام، ثم ابتدأ الإخبار بقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ واللام مُؤذنة بمجيءِ القسم، والثانية التي في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام القسم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداءِ والثانية لام اليمين، ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد: «يَدْعُو من ضرُّه»، ثم علَّق الفعل باللام، ويصحُّ أن يقدَّر هذا الفعل من الأفعال التي تعلَّق وهي أفعال النفس كظننت وحسبت، وأشار أبو عليٍّ إلى هذا وردَّ عليه.

و«ٱلْعَشِيرُ»: القريب المعاشر في الأمور، وذهب الطبري إلى أن المراد بـ«الْمَوْلى» و«الْعَشِيرِ» هو الوثن الذي ضرُّه أقرب من نفعه، وهو قول مجاهد، والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

لمَّا ذكَر الله تبارك وتعالى من يعبد الله على حرف وسفَّه رأيهم وتوعَّدهم بخسارة

---

(١) وقال أبو حيان في البحر تعليقاً على رأي أبي عليٍّ هذا: «وهو لا يصح إلاَّ على قول الكوفيين؛ إذ يجيزون في اسم الإشارة أن يكون موصولا، والبصريون لا يجيزون ذلك إلاَّ في «ذا» بشرط أن يتقدمها الاستفهام بـ(ما) أو (من).

(٢) الآية (١٧) من سورة طه ـ ووجه الشبه أن ﴿تِلْكَ﴾ في هذه الآية اسم إشارة بمعى «الذي»، كأنه قال: ما الذي بيمينك؟ فرأي المهدوي يعود إلى ما ذكره أبو عليٍّ من أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ في آيتنا بمعنى «الذي» وهي في محل نصب بوقوع ﴿يَدْعُوا۟﴾ عليه، ويكون قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ كلام مستأنف.



الآخرة، عقَّب ذلك بذكْر حالة مخالفيهم من أَهل الإِيمان، وذِكْر ما وعدهم به من إِدخاله إِيَّاهم الجنة، ثم أَخذت الآية في توبيخ أُولئك الأَولين وإِسلامهم إِلى رأْيهم وإِحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم، كأَنه يقول: هؤلاءِ العابدون على حرف صحبهم القَلَق وظنُّوا أَن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأَتباعه، ونحن إِنما أَمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا، فمن ظنَّ غير ذلك فليمدد بسبب وليختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه؟ قال هذا المعنى قتادة، وهو على جهة المثل السائر، قولهم: «دونك الحبل فاختنق»، يقال ذلك للذي يريد من الأَمر ما لا يمكنه.

و«السَّبَبُ»: الحبل، والنَّصْرُ معروف، إِلاَّ أَنَّ أَبا عبيدة ذهب به إِلى معنى الرِّزْق، كما قالوا: «أَرْض منصورة» أَي ممطورة[1]، وكما قال الشاعر:

وَإِنَّكَ لاَ تُعْطِي امْرَءًا فَوْقَ حَقِّهِ ... وَلاَ تَمْلِكُ الشِّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُه[2]

وقال: وقف بنا سائل من بني أَبي بكر فقال: من ينصرني ينصره الله، و«السَّمَاءُ» ـ على هذه الأَقوال ـ: الهواءُ عُلُوّاً، فكأَنه أَراد: سقْفاً أَو شجرةً أَو نحوه، وقال ابن زيد: السماءُ هي المعروفة، وذهب إِلى معنى آخر، كأَنه قال لمن يظن أَن الله لا ينصر محمداً: إِنْ كنتَ تظن ذلك فامدد سبباً إِلى السماء واقطعه إِن كنت تقدر على ذلك، فإِن عجزت فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمد عليه الصلاة والسلام من السماء؛ إِذْ نصرته من هنالك، والوحي الذي يأْتيه.

---

(١) في اللسان: «قال ابن الأعرابي: النَّصْرَةُ: المَطَرَةُ التامة، وقال أبو عبيد: نُصرت البلادُ إذا مُطرت، ونُصر القوم إذا غيثوا، وفي الحديث: إن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب، أي تمطرهم».

(٢) البيت للْفَقْعَسي، وفقعس حيٌّ من بني أسد، أبوهم فَقْعَس بن طريف بن عمرو بن الحارث، واسمه: المَرَّارُ ـ بفتح الميم وتشديد الراءِ الأولى ـ ينسب تارة إلى فقعس أحد أقرباء آبائه الأقربين، وتارة إلى جده الأعلى: أسد بن خزيمة بن مدركة. وفي «المؤتلف والمختلف» للآمدي إنه المَرَّار بن سعيد بن حبيب... إلى أن ينتهي بفقعس بن طريف. والشاهد في البيت قوله: «الغيث ناصِرُه»، والناصر هو ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي، يقال: نصر البلاد إذا أتاها، ونصرت أرض بني فلان أي أتيتها، ونصر الغيث الأرض: أغاثها وسقاها وأنبتها، قال الشاعر:

مَنْ كَانَ أَخْطَأَهُ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا ... نُصِرَ الْحِجَازُ بِغَيْثِ عبد الوَاحِد

راجع اللسان (نصر).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الْقَطْعُ» ـ على هذا التأويل ـ ليس بالاختناق، بل هو جَزْم السبب، وفي مصحف ابن مسعود: [ثُمَّ لْيَقْطَعْهُ بِهَا]، والجمهور على أَن القطع هنا هو الاختناق. قال الخليل: «وَقَطَعَ الرَّجُلُ» إذا اختنق بحبل أَو نحوه، ثم ذكر الآية.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو أَن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأَن ينصره الله ويطمع أَلاَّ يُنْصَر، قيل لهم: من ظنَّ أَن هذا لا يُنْصر فليمت كمداً، هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظَّانُّ غيظاً وكمداً، ويؤيد هذا أَن الطبري والنقاش قالا: ويقال: نزلت في نفر من بني أَسد وغطفان قالوا: نخاف أَن يُنصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع.

والمعنى الأَول الذي قيل للعابدين على حرف ليس بهذا، ولكنه بمعنى: مَنْ قَلِقَ واستبطأَ النصر وظن أَن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يُنصر فليختنق سفاهةً إِذْ تعدَّى الأَمر الذي حُدَّ له في الصبر وانتظار صنع الله تعالى. وقال مجاهد: الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائد على ﴿مَن﴾، والمعنى: من كان من القلقين من المؤمنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والضمير في التأْويل الذي ذكرناه في أَن يُراد الكفار لا يعود إِلاَّ على النبي ﷺ فقط. وقالت فرقة: الضمير عائد على الدِّين والقرآن.

وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر: [لِيَقْطَعْ فَلِيَنْظُر] بكسر اللام فيهما على الأَصل، وهي قراءة الجمهور، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي بسكون اللام فيهما وفي لام الأَمر في كل القرآن مع الواو والفاءِ وثُمَّ، واختُلف عن نافع، وهي قراءة الحسن، وأَبي عمرو، وعيسى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَما الفاءُ والواو ـ إِذا دخلت (إِحداهما)[1] على لام الأَمر ـ فحكى سيبويه أَنهم يرونها كأَنها من الكلمة فسكون اللام تخفيف، وهو أَفصح من تحريكها، وأَمَّا «ثُمَّ» فهي كلمة مستقلَّة فالوجه تحريك اللام بعدها.

---

(١) ما بين العلامتين (. . .) زيادة لسلامة التعبير وللتوضيح.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد رأَى بعض النحويين الميم من «ثُمَّ» بمنزلة الفاء والواو.

وقوله: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ يحتمل أَن تكون ﴿مَآ﴾ بمعنى الذي، وفي ﴿يَغِيظُ﴾ عائد عليها، ويحتمل أَن تكون مصدرية حرفاً فلا عائد عليها، و«الكَيْدُ» هو مده السبب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَبيَن وجوه هذه الآية أَن تكون مثلاً، ويكون النصر المعروف، والقطعُ الاختناقُ، والسماءُ الارتفاعُ في الهواءِ بسقف أَو شجر أَو نحوه فتأَمَّله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، المعنى: وكما وعدنا بالنصر وأَمَرْنَا بالصبر كذلك أَنزلنا القرآن آية بيِّنةً لمن نظر واهتدى، لا ليُقترح معها ويُستعجل القَدَر، وقال الطبري: المعنى: كما بيَّنْتُ حُجَّتي على من جَحَدَ قُدرتي على إِحياء الموتى كذلك أَنزلناه. والضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإِنْ لم يتقدَّم لها ذكر لشُهْرة المشار إِليه نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(١) وغيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ في موضع خبر الابتداء، والتقدير: والأَمر أَن الله يهدي من يريد، وهداية الله تبارك وتعالى هي خلْقُه الرَّشاد والإِيمان في نفس الإِنسان.

ثم أَخبر الله تعالى عن فعله بالفِرَق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد ﷺ وغيره. واليهود. والصابئون. وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القِبْلَة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور، قاله قتادة. والنصارى. والمجوس وهُمْ عَبَدَةُ النار والشمس والقمر. والمشركون وهم عَبَدَة الأَوثان. قال قتادة: الأَديان ستَّة، خمسة للشيطان وواحد للرَّحمن. وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، ثم دخلت ﴿إِنَّ﴾ على الخبر مؤكدة، وحَسُن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر ﴿إِنَّ﴾ الأُولى، وقرن الزجاج هذه الآية بقول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الخَوَاتِيمُ(٢)

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٢) هذا البيت لجرير، وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، ويُروى البيت: «يَكْفِي=

نقله الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا البيت كالآية لأن الخبر في البيت قوله: «به تُرْجى الخواتيم»، و(إِن) الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين. ثُمَّ تمَّ الكلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، واستأنف الخبر عن أَن الله تبارك وتعالى على كل شيء شهيدٌ وعالم به، وهذا خبر مناسب للفصل بين الفِرَق، وفَصلُ الله تعالى بين هذه الفِرَق هو بإِدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ، من رؤْية القلب، وهذه آية إِعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها. وذكر في الآية كلَّ ما عَبَدَ الناس إِذْ في المخلوقات أَعظمُ ممَّا ذكر كالبحار والرياح والهواءِ، فـ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: الملائكة، و﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عُبد من البشر. و«الشَّمس» كانت تعبدها حمير، وهم قوم بلقيس، و«الْقَمَرُ» كانت كنانة تعبده، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكانت تميم تعبد الدَّبران، وكانت لَخم تعبد المشترى، وكانت طي تعبد الثُّريَّا، وكانت قريش تعبد الشِّعرى، وكانت أَسد

= الخَلِيفَةَ أَنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ»، ويُروى أيضاً: «بِهِ تُزْجَى الْخَوَاتِيمُ»، بمعنى: تُساق خواتيم الإمارة، والسِّرْبَال: القميص، وفي اللسان بعد أن ذكر البيت عن الزجاج قال: «إنّما جمع خاتماً على خواتيم اضطراراً»، وقيل: إن خواتيم جمع خَاتَام، وهي لغة في الخاتِم، فهو الخَتْم والخاتِمُ والخاتَم والخَاتَام والخَيتَام، والبيت شاهد على أن [إنَّ] دخلت على جزأي الجملة، أي على المبتدأ والخبر لزيادة التأكيد، وحسَّن ذلك طولُ الفصل في الكلام، على أنه يجوز في البيت وجه آخر لا يجوز في الآية، وهو أن يكون خبر [إنَّ] الأولى هو قول الشاعر: «بِهِ تُزجَى الْخَوَاتِيمُ»، وجملة «إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ» جملة معترضة بين اسم (إِنَّ) وخبرها. راجع «خزانة الأدب» و«شرح شواهد الكشاف».



تعبد عُطارد، وكانت ربيعة تعبد المرزم، و«الجبال والشَّجر» منها النار وأَصنام الحجارة والخشب، و«الدَّوابُّ» منها البقر وغير ذلك ممَّا عُبد من الحيوان كالديك ونحوه.

وا«السُّجُودُ» في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأَمر، وهذا كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[1].

وهذا مما يتعذر فيه السجود المتعارف. قال مجاهد: سجود هذه الأَشياءِ هو بطلانها، وقال بعضهم: سجودها هو بظهور الصنعة فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم، وإِنما خلط هذه الآية بآية التسبيح، وهنالك يحتمل أَن يقال: هي بآثار الصنعة.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يحتمل أَن يكون معطوفاً على ما تقدَّم، أَي: وكثير حق عليه العذاب سَجَدَ، أَي كراهيةً وعلى رَغْمِه، إِمَّا بِظِلِّه وإِمَّا بخضوعه عند المكاره ونحو ذلك، قاله مجاهد، وقال: سجوده بظلِّه، ويحتمل أَن يكون رفعاً بالابتداءِ مقطوعاً ممَّا قبله، وكأَن الجملة معادلةٌ لقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأَن المعنى أَنهم مرحومون بسجودهم، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة بفتح الراءِ على معنى: من موضع، أَو على أَنه مصدر كمدخل، وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَٱلدَّوَابُّ﴾ مشدَّدة الباءِ، وقرأَ الزهري وحده مخففة الباءِ، وهي قليلة ضعيفة، وهي تخفيف على

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَق: سوادٌ وبياضٌ في الدابة، أو هو ارتفاع التحجيل الفخذين، والحَجَرَات: النواحي، والأَكَمَة: المكان المرتفع، وجمعها أكمات وأكَمَ، وجمع الأكم إكامٌ، وجمع الإكام: أُكمٌ، وتخفف هذه فيقال أُكْمٌ، وسجود الأكم للحوافر كناية عن خضوعها لها لأن السجود بمعناه المتعارف عليه غير ممكن في الأكَم.

هذا وزيد الخيل شاعر من طيىء، جاهلي وأدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، وسماه «زيد الخير» وقال له: «مَا وُصِفَ لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلاَّ رأيته دون الصفة ليسك».



غير قياس كما قالوا: ظَلْتُ وأَحَسْتُ، وكما قال علقمة:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مُلْثُوم(١)

أَراد: بِسَبَائِبِ الكتَّان، وأَنشد أَبو علي في مثله:

حَتَّى إذا مَا لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الشَّرِ ... كُنْتُ امْرَءًا مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ(٢).

وهذا بابٌ إنما استعمل في الشعر فلذلك ضعَّفت هذه القراءَة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ الآية. اختلف الناسُ في المشار إليه بقوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ ـ فقال قيس بن عُبَادة، وهلال بن يساف: نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم ستَّة: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، برزوا لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة(٣)، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله

(١) البيت من قصيدة لعَلْقمة يقدم فيها آراءه وخواطره في الحياة، وهو واحد من أبيات يصف فيها الخمر التي يحبها ويعشقها، والإبريق هنا هو الإناءُ الذي توضع فيه الخمر لتصب في الكؤوس، والشَّرَفُ: المكان المرتفع، والمُفَدَّم: الذي غُطِّي فمه، يقال: فَدَّم الإبريق إذا غَطَّى فمه. و(سَبَا الْكَتَّان) أصلها: سَبَائِبُ الكتان حذف منها المحذوف على غير قياس للتخفيف، وهي موضع الشاهد هنا، والسَّبائب جمع سِبٌّ، وهي شُقَّةُ كَتَّان رقيقة، وقيل: السَّبائب واحدها سَبِيبَة وهي الثوب الرقيق يصنع من الحرير. ولَثَمَ الإبريق: شَدَّ الفِدَامَ ـ أي الغِطَاءَ ـ على بعض رأسه وتركَ بعضه للنَّفَس. ويُروى: مَرْثُومُ ـ بالراء ـ ومعناها: في أنفه بياضٌ، أو أنه مكسور وقد تفطَّر منه الدم، يريد أن أنف الإبريق فيه بياض، أو أنه مكسور تتقطر منه قطرات الخمر والشاعر في البيت يشبه الإبريق في انتصابه وبياضه بظبي وقف على مكان مرتفع، ويصور مدى العناية بالخمر إذ يضعونها في الإبريق ويغطون طرفه بنسيج رقيق من الكتان الأبيض.

(٢) البيت في المحتسب، وقد قال عن قراءة الزهري ﴿والدوابُ﴾ بتخفيف الباءِ: إنها ضعيفة قياساً وسماعاً، ولكن للتخفيف ضرب من العُذر، فهم إذا كرهوا تضعيف الحرف فقد يحذفون أحدهما فيقولون في (ظَلَلْتُ): ظَلْتُ، وفي (أَحْسَسْتُ): أَحَسْتُ، وقد أنشد أبو عليٍّ هذا البيت. والشاهد فيه أنه قال: (الشَّرِ) فحذف الراءَ الثانية، وكان المفروض أن يقول: (غير الشَّرِّ).

(٣) في أسباب النزول للنيسابوري عن قيس بن عبادة قال: سمعتُ أبا ذرٍّ يقول: أُقسم بالله لنزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ في هؤلاء الستة: حمزة، وعبيدة، وعلي بن أبي طالب، وعُتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة. ثم قال: رواه البخاري عن حجاج بن منهال، عن هشيم بن هاشم. وفي «الدر المنثور»: «أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه أنه كان يُقسم أن هذه الآية... الخ الحديث».



تعالى عنه أنه قال: أنا أَول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة(١)، وأَقسم أبو ذرٍّ رضي الله عنه على هذا القول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووقع أَن الآية فيهم في صحيح البخاري رحمه الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى المؤمنين وأَهل الكتاب، وذلك أَنه وقع بينهم تخاصم، فقالت اليهود: نحن أَقدم ديناً منكم ونحو هذا، فنزلت الآية. وقال عكرمة: المخاصمة بين الجنة والنار، وقال مجاهد، وعطاءُ بن أَبي رباح، والحسن بن أَبي الحسن، وعاصم، والكلبي: الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول تعضده الآية، وذلك أَنه تقدم قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، المعنى: فهم مؤمنون ساجدون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ثم أَشار إلى هذين الصنفين بقوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾، والمعنى أَن الإيمان وأَهله والكفر وأَهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة بالعداوة والجدال والحرب. وقوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ يريد: طائفتين لأَن لفظة خَصْمٍ هي مصدرٌ يوصف به الجمع والواحد، ويدل على أَنه أَراد الجمع قوله تعالى: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾، فإنها قراءة الجمهور، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [ٱخْتَصَمَا فِي رَبِّهِم]. وقوله: ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ معناه: في شأْن ربهم وصفاته وتوحيده، ويحتمل أَن يريد: في رضى ربهم، وفي ذاته. ثم بيَّن حكم الفريقين، فتوعَّد تبارك وتعالى الكفَّار بعذاب جهنم، و﴿قُطِّعَتْ﴾ معناه: جُعلت لهم بتقدير كما يفصل الثَّوب، ورُوي أَنها من نحاس، وقيل: ليس شيءٌ من الحجارة أَحَرَّ منه إذا حمي. ورُوي في صَبِّ الحميم ـ وهو الماءُ المغلي ـ أَنه تُضرب رءوسهم بالمقامع فتنكشف أَدمغتهم فيُصَبُّ الحميم حينئذ، وقيل: بل يصب الحميم أَوَّلاً فيفعل ما وصف ثم تُضرب بالمقامع بعد ذلك. و﴿ٱلْحَمِيمُ﴾: الماءُ المغلي، و﴿يُصْهَرُ﴾ معناه: يُذاب، وقيل: معناه: يُعصر، وهذه العبارة قلقة، وقيل: معناه: ينضح، ومنه قول الشاعر:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، والبيهقي، من طريق قيس بن عبادة.

. . . . تَصْهَــرُهُ الشَّمْــسُ وَلاَ ينْصَهِــرْ[١]

وإنما يُشْبِه ـ فيمن قال: يعصر ـ أنه أراد أن الحميم بحرارته يهبط ـ كُلَّما يُلْقى ـ في الجوف ويكشطه ويَسْلِتُهُ، وقد روى أبو هريرة نحوه عن النبي ﷺ «أنه يَسْلِتُهُ ويَبْلُغُ به قدميه ويديه ثم يعاد كما كان»[٢]. وقرأ الجمهور: [يُصْهَرُ]، وقرأت فرقة: [يُصَهَّر] بفتح الصاد وشدِّ الهاءِ. و«المِقْمَعَةُ» ـ بكسر الميم ـ مقرعة من حديد يُقْمَع بها المضروب[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَرَادُوٓاْ﴾ رُوِي فيه أَن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار فيريدون الخروج فيُضربون بالمقامع وتردُّهم الزبانية. و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡهَآ﴾ لابتداءِ الغاية، وفي قوله: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ يحتمل أَن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أَن تكون لابتداءِ غاية أيضاً، وهي بدلٌ من الأُولى. وقوله: ﴿وَذُوقُواْ﴾ هنا حذف تقديره: ويقال لهم: ذوقوا، و«ٱلْحَرِيق» فَعِيلٌ بمعنى مُفْعل، أَي: محرق.

وقرأ الجمهور: ﴿۞هَٰذَانِ﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿هَٰذَانِّ﴾

---

(١) هذا عجز بيت قاله ابن أحمر يصف فرخ قطاة، والبيت بتمامه:

تَــرْوِي لَقًــىً أُلْقِــيَ فــي صَفْصَــفٍ تَصْهَــرُهُ الشَّمْــسُ فَمَــا ينْصَهِــرْ

وهو في اللسان (صَهَرَ) كما أثبتناه، وفي الطبري «ولا يَنْصَهِر» كما ذكره المؤلف. وتَرْوِي معناه: تَسْقِي، أَي: تسوق إليه الماءَ فتصير له كالرواية، يقال: رويتُ أَهلي وعليهم إذا أتيتهم بالماءِ، واللَّقى كل شيءٍ مطروح متروك مُلْقى على الأرض لهوانه، والصَّفْصف: الأرض الملساء المستوية. والصَّهر: إذابة الشحم، يقال: صَهَر الشحم يصهره صهراً: أذابه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي وصححه في صحيحه، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحَميم ليُصَبُّ على رءُوسهم فينفذُ الجمجمة حتى يخلُصَ إلى جوفه فَيَسْلِتَ ما في جوفه حتى يمرق من قدمه ـ وهو الصَّهر ـ ثم يعادُ كما كان».

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ معطوف على ﴿مَآ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مَا فِى بُطُونِهِمۡ﴾، فالجلود تصهر أيضاً مع ما في البطون، وقيل: بل التقدير: يُصْهَر ما في البطون وتحرق الجلود؛ لأن الجلود لا تذاب إنما تجتمع على النار وتنكمش، وهذا كقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

أي: وسقيتها ماءً.



بتشديد النون، وقرأها شبلٌ، وهي لغة لبعض العرب في المبهمات كالَّذانِ وهَذانِ، وقد ذكر ذلك أبو علي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ ﴾. وقرأ الجمهور: [يُحَلَّون] بفتح الياءِ واللام وتخفيفها، يقال: حَلِيَ الرجلُ وحَلِيَت المرأةُ إذا صارت ذات حَلْي. وقيل: هي من قولهم: «لم يَحْلُ فلانٌ بطائِلٍ»[1]. و﴿ مِنۡ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ هي لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض. و«الأَسَاوِر» جمع سِوَارٍ وإِسْوَارٍ بكسر الهمزة، وقيل: أساور جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرة جمع سِوَار. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [من أَسْوِرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ].

و«اللُّؤْلُؤُ»: الجوهر، وقيل: صغاره، وقيل: كباره، والأشهر أنه اسمٌ للجوهر. وقرأ نافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر[2] ـ: ﴿ وَلُؤۡلُؤٗا ﴾ بالنصب عطفاً على موضع «الأَسَاوِر»؛ لأن التقدير: يُحَلَّوْنَ فيها أَسَاوِرَ، وهي قراءَة الحسن، والجحدري، وسلام، ويعقوب، والأعرج، وأَبي جعفر، وعيسى، وابن عمر، وحمل أَبو الفتح نصبه على إضمار فِعْل، وقرأ الباقون من السبعة: [ولُؤْلُؤٍ] بالخفض عطفاً إِمَّا على لفظة «الأَسَاوِرِ»، ويكون «اللؤلؤ» في غير الأَساور، وإِمَّا على «الذَّهَب» لأن الأَساور تكون أيضاً من ذهب ولؤلؤ قد جمع بعضها إِلى بعض، ورُويت هذه القراءَة عن الحسن بن أَبي الحسن، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، وأَهل مكة، وثبتت في (الإمام) أَلف بعد الواو، قاله الجحدري، وقال الأَصمعي: ليس فيها أَلف، ورَوى يحيى عن أَبي بكر،

---

(١) أي لم يظفر بطائل، فكأنه جعل ما يُحَلَّوْن به هناك أمراً ظفروا به.

(٢) الثابت في المصحف أن رواية حفص عن عاصم بالنصب أيضاً، فلا معنى لهذا التخصيص، ولهذا لم يذكره أحد من المفسرين.



عن عاصم بهمز الواو الثانية دون الأُولى، وروى المعلَّى بن منصور، عن أَبي بكر، عن عاصم ضِدَّ ذلك، قال أَبو عليٍّ: فهمزهما وتخفيفهما وهمز إِحداهما دون الأُخرى جائز كله. وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [لِئْلِئاً] بكسر اللامين.

وأَخبر الله تعالى عنهم بلباس الحرير لأَنها من أَكمل حالات الآخرة، وقد رُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تشبه أُمور الآخرة أُمورَ الدنيا إِلاَّ في الأَسماءِ فقط، وأَما الصفات فمتباينة.

و«الطَّيِّبُ من القول»: لا إِله إِلا الله وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبيحه وتقديسه، وسائر كلام أَهل الجنة من محاورة وحديث طيب، فإِنها لا تسمع فيها لاغية، و«صِرَاطُ ٱلْحَمِيدِ» هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إِليه، ويحتمل أَن يريد بـ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ نفس الطريق، فأَضاف إِليه على حدِّ إِضافته في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ الآية. قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ تقديره: وهم يصدون، وبهذا حَسُن عطف المستقبل على الماضي، وقالت طائفة: الواو زائدة، و﴿يَصُدُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإِنما الخبر محذوف مقدرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾، تقديره: خَسِرُوا أَوْ هَلكوا، وجاءَ ﴿يَصُدُّونَ﴾ مستقبلاً إِذْ هو فعل يُديمونه، كما

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه. وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب في الآخرة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة»، وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه». «الدر المنثور».

(٢) من قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) ـ وتكررت في قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل): ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.



جاءَ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾[(١)] ونحوه.

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وذلك أَنه لم يُعلم لهم صدٌّ قبل ذلك الجمع، إلاَّ أَن يراد صدهم الأَفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث، وقالت فرقة: «المسجد الحرام» أَراد به مكة كلها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك.

وقرأَ جمهور الناس: [سَوَاءٌ] بالرفع، وهو على الابتداءِ، و﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ خبر، وقيل: الخبر ﴿سَوَآءً﴾ وهو مقدم، وهو قول أَبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبْلَةً أَو مُتَعبَّداً، وقرأَ حفص عن عاصم: [سَوَاءً] بالنصب، وهي قراءَة الأَعمش، وذلك يحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون مفعولاً ثانياً لـ«جَعَلَ» ويرتفع ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ به لأَنه مصدر في معنى «مُسْتَوٍ» أُعمل عمل اسم الفاعل، والوجه الثاني أَن يكون حالاً من الضمير في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، وقرأَت فرقة: [سَوَاءً] بالنصب [العاكفِ] بالخفض عطفاً على ﴿ٱلنَّاسِ﴾[(٢)]، و«العَاكِفُ»: المقيم في البلد، و«البَادِي»: القادم عليه من غيره. وقرأَ ابن كثير في الوصل والوقف: [البادي] بالياءِ، ووقف أَبو عمرو بغيرياءٍ وَوَصَلَ بالياءِ، وقرأَ نافع: [الباد] بغير ياءٍ في الوصل والوقف في رواية المسيِّبي، وأَبو بكر وإِسماعيل بن أَبي أُويس[(٣)]، وروى ورش الوصل بالياءِ، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ وصلاً ووقفاً، وهي في «الإِمام» بغير ياءٍ.

وأَجمع الناسُ على الاستواءِ في المسجد الحرام واختلفوا في مكة ـ فذهب عمر بن

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الرعد).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط»: «كأنه يريد عطف البيان، والأولى أَن يكون بدل تفصيل».

(٣) أَما أبو بكر فهو عبد الحميد بن عبد الله بن عبد الله بن أُويس الأصبحي ـ أبو بكر بن أبي أُويس ـ مشهور بكنيته، كأبيه، ثقة، من التاسعة، قال الإمام الحافظ العسقلاني: «ووقع عند الأزدي: أبو بكر الأعشى، في إسناد حديث، فنسبه إلى الوضع فلم يُصب، مات سنة اثنتين ومائتين».

وأما إسماعيل فهو إسماعيل بن عبد الله بن أُويس الأَصْبَحي، أبو عبد الله بن أبي أُويس المدني، صدوق، أخطأ في أحاديث من حفظه، من العاشرة، مات سنة ست وعشرين ومائتين. والأَصْبَحِي ـ بفتح فسكون ففتح ـ نسبة إلى ذي أصبح، واسمه الحارث بن عوف، من يعرب بن قحطان. وأصبح صارت قبيلة.

الخطاب، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة معهم إِلى أَن الأمر كذلك في دُور مكة، وأَن القادم له النزول حيث وُجِدَ، وعلى رَبِّ المنزل أَن يُؤْويه شاءَ أَو أَبَى، وقال ذلك سفيان الثوري وغيره، وكذلك كان الأمر في الصدر الأَول، قال ابن سابط[١]: وكانت دورهم بغير أَبواب حتى كثُرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأَنكر عليه عمر رضي الله عنه وقال: أَتغلق باباً في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إِنما أَردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه فاتَّخذ الناس الأَبواب. وقال جمهور من الأُمة منهم مالك رحمه الله: ليست الدور كالمسجد، ولأَهلها الامتناع بها والاستبداد، وعلى هذا هو العمل اليوم.

وهذا الخلاف متركب على الاختلاف في مكة، هل هي عَنْوَة[٢] كما روي عن مالك والأَوزاعي؟ أَو صلح كما روي عن الشافعي؟ فمن رآها صلحاً فإِن الاستواءَ عنده في المنازل بعيد، ومن رآها عَنْوة أَمكنه أَن يقول: الاستواءُ فيها قدَّره الأَئمة الذين لم يُقطعوها أَحداً وإِنما سُكْنى من سكن من قِبَل نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر قول النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[٣] يقتضي الاستواءَ، وأَنها مُتَمَلَّكَةٌ ممنوعة على التأويلين في قوله ﷺ؛ لأَنه تُؤُوِّل بمعنى أَنه وَرِث جميع منازل أَبي طالب وغيره، وتُؤُوِّل بمعنى أَنه باع منازل بني هاشم حين هاجروا. ومن الحجة لتملُّك أَهلها دورهم أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أُمية داراً للسجن بأَربعة آلاف، ويصح مع ذلك أَن يكون الاستواءُ في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأَمر حينئذ عن الاعتبار بالعَنْوة والصلح.

وقوله تعالى: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾، قال أَبو عبيدة: الباءُ زائدة، ومنه قول الشاعر:

بِـوَادٍ يَمَـانٍ يُنْبِـتُ الشَّـثَّ صَـدْرُهُ ... وَأَسْفَلُـهُ بِـالْمَـرْخِ وَالشَّبَهَـانِ[٤]

---

(١) هو عبد الرحمن بن سابط ـ بكسر الباء كما في المغني ـ ويقال: ابن عبد الله بن سابط، قال العسقلاني: وهو الصحيح، ثقة، كثير الإرسال، من الثالثة، مات سنة ثمان عشرة.

(٢) يعني: هل هي مفتوحة عَنْوة بقوة السلاح، أو مفتوحة صلحاً؟

(٣) أخرجه أبو داود في الفرائض.

(٤) البيت للأحول اليشكري، واسمه يعلى، وهو في اللسان (شث) و(سدر) ذلك لأنه رُوي أيضاً: (يُنْبِتُ السِّدْرَ)، والسِّدْر هو شجر النبق، والواحدة سدرة. والشَّث: شجر طيب الريح، مُرُّ الطعم، يدبغ به، وينبت في جبال الغور وتهامة ونجد، والمَرْخُ: شجر كثير الوري سريعه، والشَّبَهان: نبت يُشْبه الثُّمام، =

ومنه قول الأعشى:

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا . . . .[(١)]

وهذا كثير[(٢)]. ويجوز أن يكون التقدير: ومَنْ يُرِدْ فيهِ الناسُ بإِلْحاد.

و«الإِلْحَادُ»: المَيْلُ، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى

= قال ابن سيدة: والشَّبَهان ـ بالتحريك وبضمتين ـ ضرب من العضاه، وقيل: الشَّبَهَان نبت شائك له وردٌ لطيف أحمر، والشاهد في البيت هو زيادة الباء في (بالمَرْخ)، إذ الأصل: يُنبت المرخ، وقيل أيضاً: إن الباء ليست زائدة، بل هي للتعدية، والتقدير: وينبت أسفله بالمرخ.

(١) في الطبري أن البيت لأعشى بني ثعلبة، وهو غير موجود في الديوان، بل ليس فيه قصيدة دالية مكسورة من بحر الكامل، وفي اللسان (جرد) نسب للأعشى بيتاً يقول فيه:

ضَمِنَتْ لَنَا أَعجَازَهُ أَرْمَاحُنَا ... مِلْءَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحَ الأَجْرَدَا

وفي الديوان قصيدة دالية منصوبة فيها بيت يلتقي مع هذا البيت في كثير من الأمور، إذ يتحدث الشاعر قبله عن الإبل، ويقول: إن الله جعل طعامنا فيها، وهي ضخمة كالهضاب، ومضمونة لنا لا يطرُدها مُغير، ولا يُرَوِّعها مروِّع، ثم يقول:

ضَمِنَتْ لَنَا أَعْجَازُهُنَّ قُدُورَنَا ... وَضُرُوعُهُنَّ لَنَا الصَّرِيحَ الأَجْرَدَا

والصريح الأجرد هو اللبن الصافي، أي أن أعجازها تملأ قدُورنا وتضمن لنا اللحم الذي يكفي ضيوفنا ولا ينفذ، وأعجزاها ضمنت لنا اللبن الصافي. لكن ليس في هذا البيت ولا في بيت اللسان شاهداً يصلح هنا، لأن الشاهد هو زيادة الباء في (بِرِزْق)، والتقدير: ضمنت رزْق.

(٢) من ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة مريم ـ الآية ٢٥ ـ: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾، والعرب تقول: خُذ الخطام، وخُذ بالخطام، وتقول: زوَّجتك فلانة، وزوَّجتك بفلانة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، أي: تنبت الدُّهْنَ، ومن ذلك قول قيس بن زُهير العبسي

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي ... بِمَا لاَقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ؟

وقول امرىء القيس:

أَلاَ هَلْ أَتَانَا وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ ... بِأَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا

أي: هاجر من أرض إلى أرض، أو ذهب إلى حيث لا يدري. لكن الباء هنا دخلت على (إنَّ) وهي في موضع رفع، أما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ فقد دخلت على (إلْحَادٍ) وهو في موضع نصب، وفي بيت قيس بن زهير دخلت على (ما)، قال هذا الفراءُ في «معاني القرآن». من زيادة الباء أيضاً قول الشاعر:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجْ ... نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ

أي: ونرجو الفَرَج. أما (الفَلَجُ) فهو موضع لبني جعدة بنجد. ويظهر من هذه الشواهد صدق ما قاله المؤلف من أن هذا كثير.



الصغائر، فَلِعِظَم حُرمة المكان توعد الله تعالى على نِيَّة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلاَّ في مكة، هذا قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإِلْحادُ في هذه الآية: الشِّرك، وقال أيضاً؛ وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: وقَوْلُ «لا والله وبلى والله» بمكة من الإلْحاد، وقال حبيب بن أبي ثابت: الحكرة بمكة من الإِلْحاد بالظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعموم يأْتي على هذا كله.

وقرأَت فرقة: [ومن يَرِدْ] من الوُرُود، حكاه الفراءُ، والأَول أَبْيَن وأَعم وأَمدح للبقعة. و﴿مَن﴾ شرط جازمة للفعل، وذلك منع من عطفها على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والله المستعان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى: واذكر إِذْ بَوَّأْنا، و[بَوَّأَ] هي تعدية بالتضعيف، و(باءَ) معناه: رَجَع، فكأَن المُبَوِّىءَ يردُّ المُبَوَّأَ إِلى المكان، واستعملت اللفظة بمعنى (سَكَنَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]، وقال الشاعر:

كَمْ صَاحِبٍ لِيَ صَالِحٍ ... بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا[2]

واللام في قوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ قالت فرقة: هي زائدة، وقالت فرقة: ﴿بَوَّأْنَا﴾

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر): ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بمعنى: ننزل ونسكن.

(٢) هذا البيت لعَمْرُو بن معديكرب الزَّبيدي، فارس العرب المشهور، ويروى: (كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ مَاجِدٍ)، واللَّحْدُ ـ بفتح اللام المشدَّدة وبضمها ـ: الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت؛ لأنه قد أُميل عن وسطه إِلى جانبه، قاله صاحب اللسان، فإن كان في وسطه فهو الضَّريح والضَّريحة. وبوَّأْته: هيَّأْتُ له وأنزلته فيه، وهو موضع الشاهد هنا.

نازلةٌ منزلة فعل يتعدى باللام نحو جعلنا(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأظهر أَن يكون المفعول الأَول بـ﴿بَوَّأْنَا﴾ محذوفاً تقديره: (الناس) أَو (العالم)، ثم قال: ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾، بمعنى: له كانت هذه الكرامة وعلى يديه بُوِّئوا(٢).

و«الْبَيْتُ» هو الكعبة، وكان ـ فيما رُوي ـ قد جعله الله تعالى مُتَعَبَّداً لآدم عليه السلام، ثم درس بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مُدَّة إبراهيم عليه السلام أَمره الله تعالى ببنائه، فجاءَ إِلى موضعه وجعل يطلب أَثراً، فبعث الله ريحاً فكشفت له عن أَسَاس آدم فرتَّب قواعده عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في قول الجمهور حُكِيَت لنا، بمعنى قيل له: [ألا يُشْرِكَ بي شيئاً]، وقرأَ عكرمة: [أن لا يُشرك بي] بالياءِ على معنى نقل معنى القول الذي قيل له، قال أَبو حاتم: ولا بُدَّ مِنْ نصب الكاف على هذه القراءة، بمعنى: لِئَلاَّ يشرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يحتمل أَن تكون ﴿أَنْ﴾ في قراءة الجمهور مفسِّرة، ويحتمل أَن تكون مُخَفَّفة من الثقيلة(٣).

وفي الآية طعن على من أَشرك من قُطَّان البيت، أَي: هذا كان الشرط على أَبيكُمْ فَمَنْ بَعده وأَنتم، فلم تفوا بل أَشركتم، وقالت فرقة: الخطاب من قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ لمحمد ﷺ، وأُمِر بتطهير البيت والأَذان بالحج.

---

(١) وقيل: اللام في قوله: ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ صلة للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾، يقال: بَوَّأْتُه منزلاً وبوأت له، كما يقال: مكَّنْتُك ومكَّنْت لك. وقد ذكر الفراءُ القولين، وقال: إنَّ قوله تبارك وتعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ معناه: رَدِفَكُمْ.

(٢) فاللام في ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ لام العلَّة، أي: لأجل إبراهيم وكرامة له.

(٣) ويحتمل أن تكون زائدة، كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ﴾، وقد أجاب الزمخشري عن سؤال يَعْرِض إذا قدرنا ﴿أَنْ﴾ مفسرة، وتقدير السؤال: كيف يكون النهي عن الشِّرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتَّبوئة؟ أجاب الزمخشري بقوله: «كانت التَّبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تَعبَّدنا إبراهيم، قلنا له: لا تُشْرِكْ بي شيئاً وطهِّر بيتي من الأصنام والأوثان والأَقذار أن تُطرح حوله».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والجمهور على أن ذلك إبراهيم عليه السلام، وهو الأَصحُّ.

و«تَطْهِير البَيْت» عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميع الأَنجاس والدماءِ وغير ذلك، و«القائمون» هم المصلُّون، وذكر الله تعالى من أركان الصلاة أَعظمها وهي: القيام والرُّكوع والسُّجود.

وقرأَ جمهور الناس: [وَأَذِّنْ] بشد الذال، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وابن مُحَيْصن: [وَآذِنْ] بمدَّة وتخفيف الذال، وتصحَّف هذا على ابن جني؛ فإنه حكى عنهما «وَأذِنَ» على أَنه فعل ماض وأَعرب على ذلك بأَن جعله عطفاً على ﴿بَوَّأْنَا﴾[1]. ورُوي أَن إبراهيم عليه السلام لمَّا أُمر بالأَذان بالحج قال: يا رب وإذا ناديت فمن يسمعني؟ قيل له: ناد يا إبراهيم، فعليك النداءُ وعلينا البلاغ، فصعد على أَبي قُبَيْس ـ وقيل: على حجر المقام ـ ونادى: أَيُّها الناس، إن الله قد أَمركم بحجِّ هذا البيت فحجُّوا، واختلفت الروايات في أَلفاظه عليه السلام، واللازم أَن يكون فيها ذكر البيت والحج، ورُوي أنه يوم نادى أَسمع كلَّ من يحج إلى يوم القيامة في أَصلاب الرجال، وأَجابه كل شيءٍ في ذلك الوقت من جمادٍ وغيره: لَّبيك اللهم لَّبيك، فجرت التلبية على ذلك، قاله ابن عباس وابن جبير.

وقرأَ جمهور الناس: [بِٱلْحَجِّ] بفتح الحاءِ، وقرأَ ابن أَبي إسحق في كل القرآن بكسرها، و﴿رِجَالًا﴾ جمع راجلٍ كتاجرٍ وتِجار، [وصاحب وصحاب][2]، وقرأَ عكرمة، وابن عباس، وأَبو مجلز، وجعفر بن محمد: [رُجَّالاً] بضم الراءِ وشد الجيم، ككاتب وكُتَّاب. وقرأَ عكرمة أيضاً، وابن أَبي إسحق: [رُجَالاً] بضم الراءِ وتخفيف

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا عن ابن جني ولم يعلِّق عليه، ونقله أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط وعلَّق عليه بقوله: «وليس بتصحيف، بل قد حكى أَبو عبد الله الحسين بن خالويه في «شواذ القراءات» من جَمْعه، وحَكى صاحب «اللوامح» أبو الفضل الرازي ذلك عن الحسن وابن مُحَيْصن، قال صاحب اللوامح: وهو عطف على ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾، فيصير في الكلام تقديم وتأخير، ويصير ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزماً على جواب الأَمر الذي هو ﴿وَطَهِّرْ﴾. وإذا رجعنا إلى كلام ابن جني في «المحتسب» نجد أنه يقول نفس الكلام تقريباً، إذ قال: «فأما قوله ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ فإنه انجزم لأنه جواب قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، وهو على قراءة الجماعة جواب قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾».

(٢) زيادة من القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية منسوباً إليه هكذا.



الجيم، وهو قليل في أَبنية الجمع، ورويت عن ابن مجاهد، وقرأَ مجاهد: [رُجَالَى] على وزن فُعَالَى، فهو مثل كُسَالَى.

و«الضَّامِرُ» قالت فرقة: أَراد بها الناقة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَنه يقال: ناقة ضامر، ومنه قول الأَعشى:

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ دُرِّعَتْ هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ [1]

فيجيءُ قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ مستقيماً على هذا التأْويل. وقالت فرقة: «الضَّامِرُ» كل ما اتصف بذلك من جملٍ وناقة وغير ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر، لكنه يتضمن معنى الجماعات أَو الرفاق، فيحسن لذلك قوله: ﴿يَأْتِينَ﴾. وقرأَ أَصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: [يأْتُونَ]، وهي قراءة ابن أَبي عبلة، والضحاك.

وفي تقديم ﴿رِجَالًا﴾ تفضيل للمُشاة في الحج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما آسى على شيءٍ فاتني إِلاَّ أَن أَكون حَجَجْتُ مَاشياً، فإِني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، وقال ابن أَبي نجيح: حجَّ إِبراهيم وإِسماعيل عليهما السلام مَاشِيَين، واستدل بعض العلماءِ بسقوط ذكر البحر في هذه الآية على أَن فرض الحج بالبحر ساقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قال مالك في المَوَّازِيَّة: لا أَسمع للبحر ذكراً.

---

(١) البيت من قصيدة للأعشى قالها يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والرواية في الديوان: (قد سُرْبِلَتْ)، وبعد هذا البيت يقول:

قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى صَدْرِهَا فِي مُشْرِقٍ ذِي صَبَحٍ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا: يَا عَجَبَاً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

فذهبت أبياته في الناس.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأَنُّس، لا أَنه يلزم من سقوط ذكر البحر سقوط الفرض، وذلك أَن مكَّة ليست في ضفة بحر فيأْتيها الناس في السُّفن، ولا بد لمن ركب البحر أَن يصير في إِتيان مكة إِمَّا راجلاً وإِمَّا على ضامر، فإِنَّما ذُكرت حالتا الوصول، وإِسقاط فرض الحج بمجرد [عدم ذِكْر](١) البحر ليس بالكثير ولا بالقويِّ، فأَما إِذا اقترن به عدوٌّ أَو خوف أَو هولٌ شديد أَو مرض يلحق شخصاً مَّا فمالك والشافعي وجمهور االناس على سقوط الوجوب في ذلك، وأَنه ليس بسبيل يُستطاع، وذكر صاحب كتاب (الاستظهار) في هذا المعنى كلاماً ظاهره أَن الوجوب لا يُسقطه شيءٌ من هذه الأَعذار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيفٌ(٢).

و«الفَجُّ»: الطريق الواسعة، و«العَمِيقُ» معناه: البعيد، قال الشاعر:

إذا الْخَيْـلُ جـاءَتْ مِـنْ فِجَـاجٍ عَمِيقَـةٍ   يَمُدُّ بها في السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبُ(٣).

و«الْمَنَافِعُ» في هذه الآية: التجارة في قول أَكثر المتأَولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال أَبو جعفر محمد بن علي: أَراد الأَجر ومنافع الآخرة، وقال مجاهد بعموم الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، يصح أَن يريد بالاسم هاهنا المُسمَّى، بمعنى: ويَذْكُرُوا اللهَ، على تجوُّز في هذه العبارة، إِلاَّ أَن يقصد ذكر القلوب، ويحتمل أَن يريد بالاسم التسميات، وذكر الله تعالى إِنما هو بذكر أَسمائه، ثم يذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أَن يكون الذِّكْر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في

---

(١) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة للتوضيح وسلامة التعبير.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية كله عن «البَحْرِ» إلى أن قال: وهذا ضعيف، ثم علَّق بقوله: «قلت: وأضعف من ضعيف».

(٣) الفِجَاج: جمع فجٍّ وهو الطريق الواسعة بين جبلين، والعميق: البعيد، وأصله البُعْد سفلاً، يقال: بئر عميقة، أي بعيدة القَعْر، وهذا هو موضع الشاهد في البيت، وتَشَعَّثَ شعره: تَلَبَّدَ واغْبَرَّ، والشَّعث والأشعث: المُغْبَرُّ الرأس، المُنْتَف الشعر، والشَّاحِبُ: المتغير من هُزَالٍ، أو جوع، أو سفر، أ وعمل، ولم يقيده في الصحاح، بل قال: شحب جسمه على تغير، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يَدَيَّ من المراجع.

الرِّزق، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إنها أَيام أَكل وشرب وذكر الله»[١]، وذهب قوم إِلى أَن المراد ذكْر اسم الله تعالى على النحر والذبح، وقالوا: إِن في ذكر الأَيام دليلاً على أَن الذبح في اللَّيل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأَصحاب الرأْي. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الأَيام المعلومات هي أَيام العشر ويوم النحر وأَيام التشريق، وقال ابن سيرين: هي أَيام العشر فقط، وقالت فرقة: بل أَيام التشريق، ذكره القتيبي، وقالت فرقة فيها مالك وأَصحابه: بل الأَيام المعلومات يوم النحر، ويومان بعده، وأَيام التشريق الثلاثة هي المعدودات، فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً، واليومان بعده معلومات ومعدودات والرابع معدود لا معلوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أَنهم أَخذوا «ذكر اسم الله» هنا على الذبح للأَضاحي والهَدْي وغيره، فاليوم الرابع لا يُضَحَّى فيه عند مالك وجماعة، وأَخذوا التَّعجل والتأَخر بالنَّفْر في الأَيام المعدودات، فتأَمل هذا يَبِنْ لك قصدهم، ويظهر أَن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى، أَي تلك الأَيام الفاضلة كلها، ويبقى أَمر الذبح وأَمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم، وتكون فائدة قوله: ﴿مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ و﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ التحريض على هذه الأَيام وعلى اغتنام فضلها؛ إِذ ليست كغيرها، فكأَنه قال: هي مخصوصات فَلْتُغْتَنَم.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾ ندب، واستحب أَهل العلم للرجل أَن يأْكل من هديه أَو ضحيته مع التَّصدُّق[٢] بأَكثرها، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأَكل الكل. و«الْبَائِس»: الذي قد مسَّه ضُرُّ الفاقة وبؤسها، يقال: بأَس الرجل يبؤُس[٣]، وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإِن لم تكن فقراً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لكن البائس

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، وأبو داود في الأضاحي، والترمذي في الصوم، والنسائي في الحج، وابن ماجه في الصيام، وكذلك الدارمي، ومالك في الحج في موطئه، والإمام أحمد (٥/ ٧٥)، ولفظه فيه عن نبيشه الهذلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ»، وفي رواية أخرى عنه: «وقال رسول الله ﷺ: إنا كنَّا نهيناكم أن تأكلوا لحومها فوق ثلاث كي تسعكم، فقد جاء الله بالسَّعة، فكلوا وادَّخروا واتَّجروا، ألا وإن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله تبارك وتعالى».

(٢) في بعض النسخ «وأنَّ يتصدق».

(٣) الذي في اللسان (بأس) هو: «بَؤُسَ الرجلُ يَبْؤُس بأساً إذا كان شديد البأس شجاعاً، فهو بئيس، أي شجاع، وبَئِسَ يَبْأَسُ بُؤساً وبأساً وبَئِيساً على افتقر واشتدت حاجته، فهو بائس، أي فقير».



سعد بن خولة»[1]، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾.

اختلفت القراءَة في سكون اللام من قوله تعالى: [ثم لْيقضوا تفثهم ولْيوفوا نذورهم ولْيطوفوا] وفي تحريك جميع ذلك بالكسر، وفي تحريك [ليقضوا] وتسكين الاثنتين، وقد تقدم في قوله تعالى: [فلْيمدد بسبب إلى السماء][2] توجيه جميع ذلك.

و«ٱلتَّفَثُ» ما يفعله المُحْرِم عند حلِّه من تقصير شعره وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث[3] وفي ضمن ذلك قضاءُ جميع مناسكه إذْ لا يقضي التفثَ إلاَّ بعد ذلك. وقرأَ عاصم وحده ـ في رواية أَبي بكر ـ: [وَلْيُوَفُّوا] بفتح الواو وشدِّ الفاءِ، و(وَفَّى) و(أَوفى) لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى و(أَوْفَى) أَكثر[4]. و«ٱلنُّذُور»

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في باب الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض، وأخرجه مسلم في الوصية، وأخرجه مالك في موطئه أيضاً في الوصية، ولفظه كما في البخاري، عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مالٍ، ولا يرثني إلاَّ ابنة، أفأتصدق بثُلُثَيْ مالي: قال: لا، فقلت: بالشطر؟ فقال: لا، ثم قال: الثُّلث والثُّلث كبير أو كثير، إنك إنْ تَذَرْ ورثتك أغنياء خير من أن تَذَرهم عالةً يتكفَّفُون الناس، وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلاَّ أُجرْتَ بها حتى ما تجعل في امرأتك، فقلت: يا رسول الله، أُخلَّف بعد أصحابي، قال: إنك لن تُخَلَّفَ فتعمل عملاً صالحاً إلاَّ ازدَدْت به درجةً ورفعةً، ثم لعلك تُخَلَّف حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون، اللهم أَمْضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردَّهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة».

(٢) من الآية (١٥) من هذه السورة (الحج) راجع ص٢٢٣ من هذا المجلد.

(٣) حديث خمسٌ من الفطرة أخرجه البخاري في اللباس، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه في الطهارة، وأبو داود في الترجُّل، والترمذي في الأدب، ومالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٢/٢٢٩، ٢٣٩، ٢٨٣، ٤١٠)، ولفظه فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة: قصُّ الشارب، وتقليمِ الأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، والختان».

(٤) مما جاء بوَفَّى قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، ومِمَّا جاء بأَوْفى =



ما معهم من هدْي وغيره، و«الطَّوافُ» المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج، قال الطبري: لا خلاف بين المتأولين في ذلك. قال مالك: هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلاَّ أَن يطوف طواف وداع فإِنه يجزيه منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل بحسب الترتيب أَن تكون الإِشارة إِلى طواف الوداع إِذ المستحسن أَن يكون ولا بد، وقد أَسند الطبري عن عمرو بن أَبي سلمة قال: سأَلت زهيراً[1] عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع. وقال مالك في الموطأَ: واختلف المتأَولون في وجه وصف البيت بالعتيق ـ فقال مجاهد، والحسن: العَتيق: القديم، يقال: سيف عتيق، وقد عَتُق الشيءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يعضده النظر؛ إِذ هو أَول بيت وضع للناس، إِلاَّ أَن الزبير قال: سُمِّي عتيقاً لأَن الله تعالى أَعتقه من الجبابرة بمنعه إِياه منهم، وروى في هذا حديثاً عن النبي ﷺ، ولا نظر مع الحديث[2]. وقالت فرقة: سُمِّي عتيقاً لأَنه لم يُملك موضعه قط، وقالت فرقة: سُمِّي عتيقاً لأَن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يردُّه التصريف[3]. وقيل: سُمِّي عتيقاً لأَنه أُعتق من غرق الطوفان، قاله ابن

= قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

(١) في بعض النسخ: «سألت زيداً»، واخترنا ما يوافق الطبري.

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ولفظه كما في «الدر المنثور»: قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبارٌ قط». قالوا: قصده تبَّع ليهدمه فأصابه الفالج فأشار الأخيار عليه أن يكف عنه، وقالوا: له ربٌّ يمنعه، فتركه وكساه، وهو أول من كساه، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه من الطير الأبابيل، أمَّا الحجَّاج فلم يقصد التسلُّط على البيت، لكن تحصَّن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه.

(٣) قال أبو حيان في البحر: «ولا يردُّه التصريف لأنه فسَّره تفسير معنى، وأما مِنْ حيث الإعراب فلأن (العتيق) فعيل بمعنى مُفْعِل، أي مُعْتِق رقاب المذنبين، ونسب الإعتاق إليه مجازاً إذ بزيارته والطواف به يحصل الإعتاق».



جبير، ويحتمل أَن تكون ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ صفة مدح تقتضي جودة الشيء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَمَلْتُ على فرس عتيق» الحديث[١]، ونحوه قولهم: «كلام حر».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع رفع بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أَو الواجب ذلك، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب بتقدير: امتثلوا ذلك ونحو هذا الإِضمار، وأَحسن الأَشياءِ مضمراً أَحسنها مُظهراً، ونحو هذه الإِشارة البليغة قول زهير:

هَـذَا وَلَيْـسَ كَمَـنْ يَعْيَـا بِخُطَّتِـهِ ... وَسْطَ النَّـدِيِّ إذا مَـا نَـاطِقٌ نَطَقَـا[٢]

و«ٱلْحُرُمَاتُ» المقصودة هاهنا هي أَفعال الحج المشار إِليها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع، قاله ابن زيد وغيره، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً وتحريصاً، ثم لفظ الآية ـ بعد ذلك ـ يتناول كل حرمة لله تعالى في جميع الشرع. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ ظاهره أَنها ليست للتفضيل، وإِنما هي عِدَةٌ بخير، ويحتمل أَن يجعل ﴿خَيْرٌ﴾ للتفضيل على تجوُّز في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ إِشارة إِلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أَشياءَ برأْيها كالبحيرة والسائبة، فأَذهب الله تعالى جميع ذلك وأَحلَّ لهم جميع الأَنعام إِلاَّ ما يُتلى عليهم في كتاب الله تبارك وتعالى في غير موضع، ثم أَمرهم باجتناب الرِّجس من الأَوثان، والكلام يحتمل معنيين: أَحدهما أَن تكون [مِنْ] لبيان الجنس فيقع

---

(١) أخرجه مسلم في الهبات، ومالك في الزكاة، ولفظه كما في مسلم: حَمَلْتُ على فرس عتيق في سبيل الله ـ أي تصدقت به ـ فأضاعه صاحبه، فظننت أنه بائعه برُخص، فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا تَبْتَعْه، ولا تَعُد في صدقتك، فإن العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه.. ومعنى (أضاعه): همله.

(٢) البيت من قصيدة زهير بن أبي سُلْمى التي يمدح بها هرم بن سنان وأباه وإخوته، والتي بدأها بقوله:

إن الخَلِيـطَ أَجَـدَّ البَيْـنَ فـانفَـرَقَـا ... وعُلِّـقَ القَلْـبُ مِـنْ أسْمَـاءَ مَـا عَلِقَـا

والبيت يصف هرماً بالبلاغة والفصاحة، وبأنه لا يعيا بخُطَّتِهِ في الندِيّ، أي في مجلس القوم، وذلك بعد أن وصفه في الأبيات السابقة بالكرم وبالشجاعة، والشاهد فيه الإشارة البليغة بقوله في أول البيت: «هذا».



نهيه عن رجس الأَوثان فقط، وتبقى سائر الأَرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع، والمعنى الثاني أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية، فكأَنه نهاهم عن الرِّجس عاماً ثم عيَّن لهم مبدأَه الذي منه يلحقهم؛ إِذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ويظهر أَن الإِشارة إِلى الذبائح التي كانت للأَوثان، فيكون هذا مما يتلى عليهم. ومن قال: إِن [مِنْ] للتبعيض قَلَب معنى الآية وأَفسده، والمروي عن ابن عباس، وابن جُريج أَن الآية نهي عن عبادة الأَوثان.

و«الزُّور» عامٌ في الكذب والكفر، وذلك أَن كلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وقال ابن مسعود، وأَيمن بن خُرَيْم[(١)]: إِن رسول الله ﷺ قال: «عدلت شهادة الزُّور بالشِّرك» وتلا هذه الآية[(٢)]، و«الزُّورُ» مشتق من الزَّوَر وهو الميل، ومنه في جانب فلان زَوَرٌ، ويظهر أَن الإِشارة إِلى زُور أَقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرَّعوه في الأَنعام.

و﴿حُنَفَآءَ﴾ معناه: مستقيمين أَو مائلين إِلى الحق بحسب أَن لفظة «الْحَنَف» من الأَضداد، تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و[حُنَفَاءَ] نصب على الحال. وقال قوم: ﴿حُنَفَآءَ﴾ معناه: حُجَّاجاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تخصيص لا حُجَّة معه.

---

(١) هو أيمن بن خُرَيم ـ بالمعجمة ثم الرَّاءِ مصغراً ـ ابن الأخرم، الأسدي، أبو عطية الشامي الشاعر، مختلف في صحبته، وقال العجلي: تابعي ثقة.

(٢) أخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أيمن بن خُرَيْم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عَدَلَت» شهادة الزُّور إشراكاً بالله ـ ثلاثاً ـ ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي، عن ابن مسعود قال: شهادة الزُّور تعدل الشرك بالله، ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾. والحديث المشهور في ذلك هو ما رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وكان مُتَّكِئاً فجلس ـ فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».



و﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ يجوز أن تكون حالاً أخرى، ويجوز أن تكون صفة لقوله: ﴿حُنَفَاءَ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك بالله سبحانه وتعالى أظهره به في غاية السقوط ويحتمل الهول والانبتات من النجاة، بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومثله قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «إذا حدَّثتكم عن رسول الله ﷺ فلئن أخِرَّ من السماء إلى الأرض أهون عليَّ من أن أكذب عليه» الحديث.

وقرأ نافع وحده: [فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ] بفتح الخاءِ وشد الطاءِ على حذف تاء التفعل، وقرأ الباقون: ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ بسكون الخاءِ وتخفيف الطاءِ، وقرأ الحسن ـ فيما رُوي عنه: [فَتِخِطَّفُهُ] بكسر التاءِو الخاءِ وفتح الطاءِ مشددة، وقرأ الحسن أيضاً وأبو رجاءٍ بفتح التاءِ وكسرِ الخاء، والطاءِ وشدها، وقرأ الأعمش: [مِنَ السَّمَاءِ تَخْطِفُهُ] بغيرِ فاء وعلى نحو قراءَة الجماعة. وعطف المستقبل على الماضي لأنه بتقدير: فهو نَخْطَفُهُ الطير. وقرأ أبو جعفر: [الرِّيَاحُ].

و﴿السحيق﴾: البعيد، ومنه قولهم: أَسْحَقَهُ اللهُ، ومنه قوله ﷺ: «فَأَقُولُ سُحْقاً سُحْقاً»[1]، ومنه: «نَخْلَةٌ سحوق» للبعيدة في السماء.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن، ومسلم في الطهارة والفضائل والزهد، وابن ماجه في الزهد، ومالك في الزهد، وأحمد (٢/ ٣٠٠، ٣/ ٢٨، ٥/ ٣٣٣)، ولفظه فيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه أتى المقبرة فسلم على أهل المقبرة فقال: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، ثم قال: وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخواننا، قال: فقالوا: يا رسول الله ألَسْنَا بإخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذي لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض، قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من لم يأت من أمَّتك بعد؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غير محجلة بين ظهراني خيل بهم دهم ألم يكن يعرفها؟ قالوا: بَلَى، قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً مُحَجَّلين من أثر الوضوء، وأنا فَرَطُهم على الحوض، ثم قال: ألاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ منكم عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أُناديهم: ألا هَلُمَّ، فيقال: إنهم بدَّلوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً»، وفي راوية البخاري: «فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي». قال ابن الأثير في كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر»: «أنا فَرَطُكم على الحوض، أي: مُتَقدِّمكم إليه، يقال: فَرَط يَفْرِط فهو فارطٌ وفَرَطٌ إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويُهَيِّيء لهم الدِّلاء والأرْشية».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك. و«الشَّعَائِرُ» جمع شعيرة، وهو كلُّ شيءٍ لله تعالى فيه أَمْرٌ أَشْعَرَ به وأَعْلَم، وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهَدْي والأَنعام المشعرة، ومعنى «تعظيمها» التسمين والاهتبال بأَمرها والمغالات بها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة. وعود الضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ على التعظمة والفَعْلة التي تضمنها الكلام، وقرىء ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو ﴿تَقْوَى﴾، ثم اختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ الآية ـ فقال مجاهد وقتادة: أَراد أَن للناس في أَنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها ربُّها هدياً، فإِذا بعثها فهو «الأَجَلُ المُسَمَّى»، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: أَراد: لكم في الهَدْي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب من اضطر، و«الأَجَلُ الْمُسَمَّى»: نحرها، وتكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الجُمَل، لأَن «المَحِلّ» قبل «الأَجل»، ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين: ثمَّ مَحِلُّها إِلى موضع النحر، فذكر البيت لأَنه أَشرف الحرم وهو المقصود بالهَدْي وغيره، وقال ابن زيد، وابن عمر، والحسن: تلك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومَعَالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، وفي الآية التي تأْتي أَن البُدْن من الشعائر، و«الْمَنَافِعُ»: التجارة وطلب الرِّزق، ويحتمل أَن يريد كسب الأَجر والمغفرة، وبكلٍّ احتمال قالت فرقة، و«الأَجَلُ»: الرجوع إِلى مكة وطواف الإِفاضة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ مأْخوذٌ من إِحْلال المُحْرِم معناه، ثم أَخَّر هذا كله إِلى طواف الإِفاضة بالبيت العتيق، فالبيت ـ على هذا التأْويل ـ مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطأ».

ثم أَخبر تعالى أَنه جعل لكل أُمة من الأَمم مَنْسكاً، أَي موضع نُسُك وعبادة، ثم أَن المَنْسَك ظرفٌ كالمذبح ونحو هذا، ويحتمل أَن يريد المصدر، كأَنه قال: عبادة



ونحوها، والنَّاسِكُ: العابد، وقال مجاهد: سُنَّة في إراقة دماءِ الذبائح، وقرأَ معظم القراءِ: [مَنْسَكاً] بفتح السين، وهو من: نَسَك ينْسُك بضم السين في المستقبل، وقرأَ حمزة والكسائي: [مَنْسِكاً] بكسر السين، قال أَبو الفتح: «الفتح أَولى؛ لأَنه إِما المصدر وإِما المكان وكلاهما مفتوح، والكسر في هذا من الشَّاذِّ في اسم المكان أَن يكون (مَفْعِل) من: فَعَلَ يَفْعَلُ، مثل مَسْجِد، من: سَجَدَ يَسْجُدُ، ولا يسوغ فيه القياسُ، ويشبه أَن الكسائي سمعه من العرب».

وقوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أَمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأَن يكون الذبح له لأَنه رازق ذلك، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأُمم إِلى إِخبار الحاضرين بما معناه: فالإِله واحد لجميعكم، فكذلك الأَمر في الذَّبيحة إِنما ينبغي أَن تُخلص له، و﴿أَسْلِمُواْ﴾ معناه: لِحَقِّه ولِوَجْهِه ولإِنْعَامِه آمنوا وأَسْلِموا، ويحتمل أَن يريد الاستسلام.

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ أَن يبشِّر بشارة على الإِطلاق، وهي أَبلغ من المفسَّرة لأَنها مرسلة مع نهاية التخيل، و﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، و«الخبت»: ما انخفض من الأَرض، والمُخْبِتُ: المتواضع الذي مشيه متطامن كأَنه في حدورٍ من الأَرض، وقال عمرو بن أَوْسٍ[1]:

المُخْبِتُون: الذين لا يَظْلِمُون وإِنْ ظُلِمُوا لم ينتصروا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهيِّن اللَّيِّن، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأَمر الله تعالى، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وتلك لِقُوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأَنهم بين يديه، ووصفهم تبارك وتعالى بالصَّبر والصَّلاة وإِقامة الصَّلاة وإِدامتها، وقرأَ الجمهور: [ٱلصَّلَاةِ] بالخفض، وقرأَ ابن أَبي إِسحق، والحسن: [ٱلصَّلَاةَ] بالنصب على توهم النون وأَن حذفها للتخفيف، ورُويت عن أَبي عمرو[2]،

---

(١) في الأصول: عمرو بن أُويس، وفي بعض النسخ: عمرو بن أبي أويس، والتصويب عن تفسير القرطبي، وهو: عمرو بن أَوْس بن أبي أَوْسٍ، الثقفي الطائفي، تابعي كبير، من الثانية، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: «وَهِمَ من ذكره في الصحابة، مات بعد التسعين من الهجرة».

(٢) شُبِّه ذلك بحذف النون من اللَّذَيْن والَّذين في قول الأَخطل:

أبَنِـــي كُلَيْـــبٍ إِنَّ عَمَّـــيَّ اللَّـــذَا ... قَتَـــلاَ الْمُلُـــوكَ وَفَكَّكَـــا الأَغْـــلاَلاَ =



وقرأ الأعمش: [والمقيمين الصلاة] بالنون والنصب في [الصلاة]، وقرأ الضحاك: [وَٱلْمُقِيمَ ٱلصَّلَاةَ]. وروي أن هذه الآية ـ قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ـ نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ رضي الله تعالى عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

«الْبُدْنُ»: جمع بَدَنَة، وهي ما أُشعر من ناقة أو بقرة، قاله عطاءٌ وغيره، وسميت بذلك لأنها تَبْدُن، أي تَسْمُن، وقيل: بل هذا الاسم خاص بالإبل، وقالت فرقة: «البُدْنُ»: جمع بَدَن ـ بفتح الباءِ والدال ـ، ثم اختلفت، فقال بعضها: البُدْن مفردٌ اسمُ جنس يُراد به العظيم السمين من الإبل والبقر، ويقال للسمين من الرِّجال: بَدُن[1]، وقال بعضها: البُدْن جمع بَدَنَةٍ كَثَمَرَةٍ وثُمْر، وقرأ الجمهور: [وَٱلْبُدْنَ] ساكنة الدال، وقرأ ابن جعفر، وشيبة، والحسن، وابن أبي إسحق: [وَٱلْبُدُنَ] بضم الدال، فيحتمل أن يكون جمع بَدَنَة كثُمُر، وعدَّد الله تعالى في هذه الآية نِعمه على الناس في هذه البُدْن، وقد تقدم القول في الشعائر. و«الْخَيْرُ» قيل فيه ما قيل في «المنافع» التي تقدم ذكرها، والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَآ﴾ يريد: عند نحرها.

وقرأ جمهور الناس: [صَوَافَّ] بفتح الفاءِ وشدها، جمع صافَّةٍ، أَي: مطيعة في قيامها، وقرأ الحسن، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري، وشقيق،

= وفي قول أشهب بن رُمَيْلَة:

وَإِنَّ الَّذي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُم … هُمُ القَوْم كُل القَوْم يا أُمَّ خَالِدِ

قال سيبويه: حذفوا النون منهما حيث طال الكلامُ وكان الاسمُ الأول منتهاه الاسم الآخر.

(١) قال في اللسان: (بَدَنَ الرَّجُل بالفتح يَبْدُن فهو بادِنٌ إذا ضَخُم، وكذلك بَدُنَ بالضم) وقال: «وَبَدَّن الرَّجُلُ: أَسَنَّ وضعُف، وفي حديث النبي ﷺ: «لا تُبَادِروني بالرُّكوع ولا بالسُّجود؛ فإنه مهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني إذا رُفعت، ومهما أسبقكم إذا سجدتُ تدركوني إذا رُفعتُ، إني قد بَدَّنْتُ»، هكذا رُوي بالتخفيف، قال الأُمويُّ: إنما هو بَدَّنْتُ بالتشديد، يعني كبِرْتُ وأَسْنَنْتُ، والتخفيف من البدانة، وهي كثرة اللحم».

وسليمان التيمي، والأعرج: [صَوَافِي] جمع صافية، أي: خالصة لوجه الله تعالى، لا شركة فيها لشيءٍ كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضاً: [صَوَافٍ] بكسر الفاءِ وتنوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياءُ تخفيفاً على غير قياس، وفي هذا نظر، وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر محمد بن علي: [صَوَافِنَ] بالنون جمع صافِنَةٍ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، والصافن من الخيل: الرافع لفراهته إحدى يديه وقيل إحدى رجليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾[١]، وقال عمرو ابن كلثوم:

تَـرَكْنَـا الْخَيْـلَ عَـاكِفَـةً عَلَيْـهِ ... مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَهَـا صُفُـونَـا[٢]

و﴿وَجَبَتْ﴾ معناه: سقطت بعد نحرها، ومنه: وجبت الشمس، ومنه قول أَوْس ابن حجر:

أَلَـمْ تُكْسِـفِ الشَّمْـسُ وَٱلْبَـدْرُ وَٱلْـ ... ـكَـوَاكِـبُ لِلْجَبَـلِ ٱلْـوَاجِـبِ[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾ ندبٌ، وكل العلماءِ يستحب أَن يأكل الإنسانُ من هديه، وفيه أَجرٌ وامتثال إذ كان أَهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم، وقال مجاهد، وإبراهيم، والطبري: هي إباحة.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (ص).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وقبله يقول:

وَسَيِّـدِ مَعْشَـرٍ قَـدْ تَـوَّجُـوهُ ... بِتَـاجِ الْمُلْـكِ يَحْمِـي الْمُحْجَـرِينـا

فالضمير في قوله: «عليه» يعود على «سيِّد المعشر»، ومعنى «عاكفة عليه» أنها وقفت مقيمة عليه، والأعِنَّة: جمع عِنَان، وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة، وهو طاقان مستويان، ومُقلَّدة: لابِسَةً أعِنَّتها، والصُّفُون: جمع صافِنٍ، وقال الفراءُ: الصَّافِنُ: القائم على ثلاث، قال الشاعر:

أَلِـفَ الصُّفُـونَ فمـا يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ ... مِمَّـا يَقُـومُ عَلَـى الثَّـلاَثِ كَسِيـراً

و«عاكفةً» نصب بِتَرَكْنَا، ومُقَلَّدة تابعٌ لعاكفة، وكذلك صفونا.

(٣) هذه هي رواية الديوان، ويروى البيت: «ألم تكشِف الشَّمْسُ ضوءَ النهار»، والجبل: هنا: رجُلٌ عظيمٌ، قالوا: يريد بن فضالة بن كلدة، والبيت من قصيدة يرثيه بها، وفيها يصرح باسمه ويقول:

لِهُلْـكُ فَضَـالَـةَ لاَ تَسْتَـوِي الـ ... ـفُقُـودُ وَلاَ خَلَّـةُ الـذَّاهِـبِ

والواجب: الذي ماتَ، يقال: وَجَبَ الرجل يجب وجوباً: مات، يقول: إن الشمس والبدر والكواكب كلها كسفت لموت فضالة والبيت شاهد على أن وَجَبَ بمعنى: سقط على جنبه.

و«القَانِعُ»: السائل، يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً إذا سأل، بفتح النون في الماضي، وقنِع بكسر النون يَقْنَع قناعة فهو قَنِعٌ إذا تعَفَّفَ واستغنى بِبُلْغَتِهِ، قاله الخليل، ومن الأول قول الشماخ:

لَمَـالُ ٱلْمَـرْءِ يُصْلِحُـهُ فَيُغْنِـي ... مَفَـاقِـرَه أَعَـفُّ مِـنَ ٱلْقُنُـوعِ[1]

فَمُحَرِّرُوا القول من أهل العلم قالوا: القانع: السائل.

و«ٱلْمُعْتَرُّ»: المعترض من غير سؤالٍ، قاله محمد بن كعب القرظيُّ، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن بن أبي الحسن، وعكست فرقة هذا القول، حكى الطبري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: القانِع: المستغني بما أعطيته، والمُعْتَرُّ هو المعترض، وحكى عنه أنه قال: القانع: المُتَعَفِّف، والمُعْتَرُّ: السائل، وحكى عن مجاهد أنه قال: القَانِع: الجارُ وإن كان غنيّاً، وقرأ أبو رجاءٍ ﴿ٱلْقَانِعَ﴾، فعلى هذا التأويل معنى الآية: أطعموا المتعفف الذي لا يأتي معترضاً، وذهب أبو الفتح ابن جنّي إلى أنه أراد «القَانِع» فحذف الألف تخفيفاً[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد؛ لأن توجيهها على ما ذكرته آنفاً أحسن، وإنما يُلْجأُ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة، وقرأ أبو رجاءٍ، وعمرو بن عُبيد: ﴿المعتري﴾، والمعنى واحد[3]، ويروى

---

(١) البيت في اللسان (قنع)، قال: «فالقانع: الذي يَسْأل، والمعْترُّ: الذي يتعرض ولا يسأل، قال الشَّماخُ: لَمَالُ المرءِ... البيت»، ثم فسَّر القُنُوعَ بأنه مسألة الناس، ثم نقل عن ابن السِّكِّيت قوله: «ومن العرب من يجيز القُنُوع بمعنى القناعة، وكلام العرب الجيِّد هو الأول، ويُروى (البيت) من الكنوع ـ بالكاف ـ والكنوع: التَّقبض والتصاغر».

(٢) استشهد أبو الفتح على حذف الألف تخفيفاً بقول الشاعر:

أَصْبَـحَ قَلْبِـي صَـرِدَا ... لاَ يَشْتَهِـي أَنْ يَـرِدَا
إِلاَّ عَـرِداً عَـرِدَا ... وَصِلِّيَـانـاً بَـرِدَا

يريد: عارداً وبارداً.

(٣) المُعْتَرِي خفيفة، قال أبو الفتح: من اعتريت، يقال: عَرَاهُ يَعْرُوهُ عَرْواً، واعتراه يعتريه اعتراءً، فهو مُعْتَرٍ، قال طرفة:

فِـي جِفَـانٍ تَعْتَـرِي نَـادِيَنَـا ... وَسَـدِيـفٍ حِيـنَ هَـاجَ الصِّنَّبِـرْ

والسَّديف: شحم السنام، والصِّنَّبِرْ: أشدُّ البرد، يريد أنهم يطعمون الطعام وقت الشِّدَّة.



عن أبي رجاءٍ ﴿وَٱلْمُعْتَرَ﴾ بتخفيف الراء، وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُعْتَرُّ يَغْشَى بِلاَدَنَا   لِنَمْنَعَهُ بِٱلضَّائِعِ ٱلْمُتَهَضَّمِ[1]

وذهب ابن مسعود رضي الله عنه إلى أن الهديَ أثلاث، فقال جعفر بن محمد عن أبيه: أُطعم القانع والمُعْتَر ثلثاً، والبائس الفقير ثلثاً، وأهلي ثلثاً، وقال ابن المسيِّب: ليس لصاحب الهَدْي منه إلاَّ الرُّبع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله على جهة الاستحسان لا على الفرض، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كما أَمرتكم فيها بهذا كله سخَّرناها لكم، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تَرَجٍّ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا.

وقوله تعالى: ﴿يَنَالَ﴾ عبارة مبالغة وتوكيد، وهي بمعنى: لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب[2]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل الجاهلية كانوا يُضَرِّجُونَ[3] البيت بالدماءِ فأراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله تعالى عن ذلك ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولكن ينالُ الرفعةَ عنده والتحصل حسنةً لديه التقوى، أي الإخلاص وعمل الطاعات. وقرأ مالك بن دينار، والأعرج، وابن يَعْمَر، والزهري: [لَنْ تَنَالَ]، [وَلَكِنْ تَنَالُهُ] بتاءٍ فيهما.

والتسمية والتكبير على الهَدْي والأُضحية أن يقول الذابح: باسم الله والله أكبر، ورُوي أن قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نزلت في الخلفاءِ الأربعة رضي الله تعالى عنهم حسبما تقدم في التي قبلها[4]، فأمَّا ظاهر اللَّفظة فيقتضي العموم في كل محسن.

---

(١) المُعْتَرُّ: الفقير، أو المُتَعَرِّض للمعروف من غير أن يسأل. ويغشى البلادَ: يأتيها، والضائع: المُهْمَل، يقال: ضاع الشيءُ يضيع ضيعةً وضَياعاً ـ بالفتح ـ: هَلَكَ، والمَتَهَضَّم: المظلوم المغصوب المقهور، وفي اللسان: «قال أبو عبيد: المُتَهَضَّم والهَضيمُ جميعاً: المظلوم، والهضيمة: أن يتهَضَّمك القوم شيئاً، أي يظلموك».

(٢) النيل لا يتعلق بالله تعالى، ولكنه تعبير مجازي عن القبول عند الله.

(٣) أي: يصبغونه ويلطِّخونه، مبالغة في ضَرَجَ.

(٤) يريد قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ في الآية (٢٤).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

روي أن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين، لمَّا كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿كَفُورٍ﴾، ووعد فيها بالمدافعة، ونهى أفصح نَهْي عن الخيانة والغدر. وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر: [يُدَافِعُ] [وَلَوْلاَ دِفَاعُ]، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: [يَدْفَعُ]، [وَلَوْلاَ دَفْعُ]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يُدَافِعُ]، [وَلَوْلاَ دَفْعُ]، قال أبو علي: أُجريت (دَافَعَ) في هذه القراءَة مجرى (دَفَعَ)، كعاقبت اللصَّ وطارقت النعل، فجاءَ المصدر دَفْعاً، قال أبو الحسن الأَخفش: أكثر الكلام أن الله يدفع، ويقولون: دافع الله عنك إلاَّ أن دَفَعَ أكثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يحسن في الآية ﴿يُدَافِعُ﴾ لأنه قد عنَّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجيءُ معارضته ودفعه مدافعةً عنهم، وحكى الزهراوي أن (دفاعاً) مصدر (دَفَعَ)، كحسبت حساباً. ثم أذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله: ﴿أُذِنَ﴾[1]، وصورة الإِذن مختلفة بحسب القراءَات، فبعضها أقوى من بعض، فقرأ نافع، وحفص عن عاصم: [أُذِنَ] بضم الألف ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ بفتح التاءِ، أَي: في أَن يقاتلوهم، فالإِذْن في هذه القراءَة ظاهرٌ أنه في مجازاة، وقرأ أبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم، والحسن، والزهري: [أُذِنَ] بضم الأَلف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاءِ، فالإِذن في هذه القراءَة في ابتداءِ القتال، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [أَذِنَ] بفتح الألف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاءِ، وقرأ ابن عامر بفتح الأَلف والتاءِ جميعاً، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) روى الترمذي والنسائي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: لمَّا أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، لَيَهْلِكُنَّ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد علمتُ أنه سيكون قتال.



[أَذن لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ] بكسر التاءِ، وفي مصحف أُبيٍّ [أُذِنَ] بضم الهمزة [لِلَّذِينَ قَاتَلُوا]، وذلك قرأَ طَلحة والأَعمش إِلاَّ أَنهما فتحا همزة [أَذِنَ].

وقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ معناه: كان الإِذن بسبب أَنهم ظُلموا، قال ابن جريج: وهذه الآية أَول ما نقض الموادعة. قال ابن عباس، وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إِلى المدينة، وقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: لمَّا سمعتُ علمتُ أَنه سيكون قتال، وقال مجاهد: الآية في مؤمنين بمكة أَرادوا الهجرة إِلى المدينة فمنعوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما بعد هذه الآية يردُّ هذا القول؛ لأَن هؤلاءِ مُنعوا الخروج لا أُخرجوا. ثم وعد تعالى بالنصر في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ يريد كلَّ من نَبَتْ به مكة وآذاه أَهلها حتى أَخرجوه بإِذايتهم، طائفة إِلى الحبشة وطائفة إِلى المدينة، ونسب الإِخراج إِلى الكفار لأَن الكلام في معرض تقرير الذنب وإِلزامه[(١)]. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع ليس من الأَول، هذا قول سيبويه، ولا يجوز عنده فيه البدل، وجوَّزه أَبو إِسحق، والأَول أَصوب[(٢)].

---

(١) أي أن سبب الإخراج يرجع إلى الكفار، ولذلك قال العلماء: إن في هذه الآية دليلاً على صِحَّة نسبة الفعل الواقع من المُلجأ المُكرَه إلى الذي أَلجَأه وأَكرهه، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾.

(٢) الاستثناءُ المنقطع يجعل قوله تعالى: ﴿ أَن يَقُولُوٓاْ ﴾ في موضع نصب، لأنه لا يمكن توجيه العامل عليه، فهو مقدر بلَكِن من حيث المعنى، أما لو كان الاستثناءُ متصلاً لجازَ في ﴿ أَن يَقُولُوٓاْ ﴾ أن يكون في موضع النصب أو في موضع الرفع.

وقد أجاز أبو إسحق فيه الجرَّ على البدل، وتبعه في ذلك الزمخشري، فهو عندهما مبدل من قوله تعالى: ﴿ حَقٍّ ﴾، والتقدير: بغير موجبٍ سوى التوحيد الذي ينبغي أَن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتبشير، ومثله قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا ﴾. وقد ناقشهما أبو حيان الأندلسي في ذلك مناقشة مستفيضة، وقال: إن البدلَ لا يجوز؛ لأنه لا يكون إلاَّ إذا سبقه نفي أو نَهْيٌ أو استفهامٌ في معنى النفي، أمّا إذا كان الكلام موجباً أو أمراً فلا يجوز البدل، لأن البدل لا يكون إلاَّ حيث يتسلط عليه العامل، وفي الآية يستحيل أن يتسلَّط العامل على البدل إذ يفسد المعنى، ثم إن الزمخشري حين مثَّل البدل قدَّر: «بغير موجب سوى التوحيد»، وهذا تمثيل للصفة جعل (إلاَّ) بمعنى (سوى)، =



وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية تقويةٌ للأمر بالقتال، وذكر الحجة بالمصلحة فيه، وذكر أنه متقدم في الأُمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المُتَعَبَّدات[1]، فكأَنه قال: أُذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتَغَلَّب على الحق في كل أُمة. هذا أَصوب تأْويلات الآية. ثم ما قيل بَعْدُ من مُثُل الدفاع تبع للجهاد، وقال مجاهد: ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا، وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ولولا دفع الله بأَصحاب محمد ﷺ الكفار عن التابعين فمن بعدهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله فيه دفع قوم بقوم إلاَّ أَن معنى القتال أَليق بما تقدم من الآية. وقالت فرقة: ولولا دفع الله العذاب بدعاءِ الفُضلاءِ والأَخيار ونحوه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية، وذلك أَن الآية تقتضي ولا بُدَّمدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه، فتأَمله.

وقرأَ نافع، وابن كثير: [لَهُدِمَتْ] مخففة الدال، وقرأَ الباقون: [لَهُدِّمَتْ] مشدَّدة الدال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه تَحْسُن من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرارٌ وكثرة، كما قال تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2] فثقَّل الياءَ، وقال: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[3] فخفف لكونه فرداً، ومنه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[4]، و﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[5].

= ويصح على الصفة، فقد التبس عليه باب الصفة بباب البدل. . راجع «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٤) ففيه أمثلة وتحليل طويل

(١) في بعض النسخ: «واجتمعت المعتقدات»، وما أثبتناه هو الموافق لما في القرطبي.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).

(٣) من الآية (٤٥) من سورة (الحج).

(٤) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف).

(٥) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

و«الصَّوْمَعَةُ»: موضع العبادة، وزنها فَوْعَلَةٌ، وهي بناءٌ مرتفع منفرد حديد الأعلى، والصَّوْمَعُ من الرجال: الحديد القلب، وكانت قبل الإسلام مختصة بالرهبان النصارى وبعُبَّاد الصابئين ـ قاله قتادة ـ ثم استعمل في مئذنة المسلمين.

و«الْبِيَعُ»: كنائس النصارى، واحدتُها بِيَعَة، وقال الطبري: وقيل: هي كنائس اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم أَدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك(١).

و«الصَّلَوَاتُ» مشتركة لكل ملَّة، واستُعير الهدم للصلوات من حيث تُعطَّل، أَو أَراد: موضع صلوات، وذهبت فرقة إِلى أَن «الصَّلَوات» اسم لكنائس اليهود، وأَن اللَّفظة عبرانية عُرِّبت، وليست بجمع صلاة. وقال أَبو العالية: الصَّلَوات مساجد الصابئين. واختلفت القراءَة فيها ـ فقرأَ جمهور الناس: ﴿صَلَوَاتٌ﴾ بفتح الصاد واللام وبالتاءِ بنقطتين، وذلك إِمَّا بتقدير: مواضع صلوات، وإِمَّا على أن تعطيل الصلوات هدمها، وقرأَ جعفر بن محمد: [صَلْوَاتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام، وقرأَت فرقة: [صِلْوَاتٌ] بكسر الصاد وسكون اللام، حكاهما ابن جنِّي، وقرأَ الجحدري ـ فيما رُوي عنه ـ: [وَصُلُوتٌ] بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام، على وزن فُعُول، قال: وهي مساجد النصارى، وقرأَ الجحدري، والحجاج بن يوسف: [وَصُلُوبٌ] بضم الصاد واللام وبالباء، على أَنه جمع صليب، وقرأَ الضحاكُ والكلبي: [وَصُلُوثٌ] بضم الصاد واللام والثاءِ منقوطة ثلاثاً، قالوا: وهي مساجد اليهود، وقرأَت فرقة: [صَلْوتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام(٢)، وقرأَت فرقة: [وَصُلُوَاتٌ] بضم الصاد واللام، حكاها ابن جنِّي، وقرأَت فرقة: (صُلُوتَى) بضم الصاد واللام وقصر الأَلف بعد التاءِ، وحكى ابن جنِّي أَن خارج باب الموصل بيوت تدفن فيها النصارى يقال لها: صَلَوات، وقرأَ عكرمة، ومجاهد: [صِلْوِتَى] بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الأَلف بعد التاءِ(٣).

---

(١) فقد نقل عن مجاهد أنه قال: «البيع: الكنائس» ولم ينسبها لأحد.

(٢) لم يبين هل هي بألف بعد الواو أو بدون ألف، واخترنا أن تكون بغير ألف حتى لا تتكرر مع القراءة التي نقلها عن جعفر بن محمد.

(٣) ذكر القرطبي عشر قراءات في [صَلَوَاتٌ]، وقال: ذكر ابن عطية تسع قراءات، وذكر من بينها ما لم نجده=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذهب خصيف إِلى أَن هذه الأَسماءَ قصدها تقسيم متعبدات الأُمم، فالصوامع للرهبان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقيل: للصابئين، والبِيعُ للنصارى، والصَّلَوات لليهود، والمساجد للمسلمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر أَنه قُصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات، وهذه الأَسماءُ تشترك الأُمم في مُسَمَّياتها إِلاَّ البِيَعة فإِنها مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب، ومعاني هذه الأَسماء هي في الأُمم التي لهم كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر هذه الآية المجوس ولا أَهل الشِّرك لأَن هؤلاءِ ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله تعالى إِلاَّ عند أَهل الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير عائد على ما تقدَّم. ثم وعد الله تبارك وتعالى بنصره ونصر دينه وشرعه، وذلك حضٌّ على القتال والجدِّ فيه، ثم الآية تعمُّ كلَّ من نصر حقّاً إِلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأَربعة رضي الله عنهم.

= في الأصول مثل: [صُلُوَاتٌ] بضم الصاد وسكون اللام وبالتاء المثناة بعد الألف، و[صُلُولَى] بلامين على وزن فُعُولى، و[صِلْوَثَى] بكسر الصاد والواو وسكون اللام وبالثاء المثلثة والألف المقصورة. وأشار محققة في الهامش إِلى أَن هذه الأخيرة هي عبارة أبي حيان، وما في أُصول القرطبي يختلف عنها. وفي المحتَسَب لابن جني ضَبَط محققوه قراءة جعفر بن محمد بضم الصاد واللام وفتح الواو وتاء مثناة بعد الألف، وزادوا في ضبط قراءة عكرمة ياءً بعد الواو المكسورة وقبل التاء، وهذا يختلف عما وجدناه في الأصول هنا، والله أعلم بالصواب.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا التخصيص أن هؤلاءِ خاصة مُكِّنُوا في الأرض من جملة الذين يُقاتَلُونَ المذكورين في صدر الآية، والعموم في هذا كله أبْيَن، ويتَّجه الأمر في جميع الناس، وإنما الآية آخذةً عهداً على كل من مكَّنه الله تعالى، كلّ على قدر ما مُكِّن، فأما الصلاة والزكاة فكلٌّ مأخوذ بإقامتها، وأمَّا الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر فكلٌّ بحسب قوته، والآية أمكن ما هي في الملوك، والمعروف والمنكر يعُمَّان الإيمان والكفر فما دونهما.

وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﷺ خاصةً من الناس، وهذا على أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من قوله تبارك وتعالى: ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أو على أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تابع لـ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ توعُّدٌ للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مُكِّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني قريشاً، وهذه آية تسلية للنبي ﷺ ووعيد لقريش، وذلك أنه مثَّلهم بالأُمم المكذِّبة المعذَّبة. وأسند فعلاً فيه علامة التأنيث إلى ﴿قَوْمُ﴾ من حيث أراد والقبيلة ليطَّرد القول في عادٍ وثمود، وقومُ نوح هم أول أُمة كذَّبت نبيَّها، ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى ما لم يُسَمَّ فاعله من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه مؤمنون به. و﴿أَمْلَيْتُ﴾ معناه: أَمهلت، وكأن الإملاءَ أن تُمهل من تنوي فيه المعاقبة وأنت في حيِّز إمهالك عالمٌ بفعله. و«النَّكِيرُ» مصدر كالغدير بمعنى الإنكار والإعذار، وهو في هذه المصادر بناءُ مبالغة، فمعنى هذه الآية: فكما فعلتُ بهذه الأُمم كذلك أَفعل بقومك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿كأين﴾ هي كاف التشبيه دخلت على «أي»: قاله سيبويه، وقد أوعبت القول في



معنى هذه اللَّفظة وقراءَتها في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾[(١)]، وهي لفظة إخبار، وقد تجيءُ استفهاماً، حكى الفراءُ: كأيِّن مالُك؟ أي: كمْ مالُك؟ وقرأَت فرقة: [هْلَكْنَاهَا]، وقرأَت فرقة: [أَهْلَكْتُهَا] بالإفراد، والمراد أَهل القرية، و﴿ظَالِمَةٌ﴾ معناه: بالكفر، و﴿خَاوِيَةٌ﴾ معناه: خالية، ومنه: خوى النجم إذا خلا من القوة، ونحوه «ساقطةٌ على عروشها»، و«العُرُوشُ»: السُّقُوف، فالمعنى أَن السُّقُوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها فهي على العروش.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾، قيل: هو معطوف على «العروش»، وقيل: على «القرية»، وهو أَصوب[(٢)]، وقرأَت فرقة: [وبئر] بهمزة على الياء، وسهَّلها الجمهور، وقرأَت فرقة: [مُعْطَلَةٍ] بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاء وتخفيفها، والجمهور على ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ بضم الميم وفتح العين وشد الطاءِ. و«الْمَشِيدُ»: المبني بالشِّيدِ وهو الجِصُّ، وقيل: الْمَشِيدُ: المُعَلَّى بالآجُرِّ ونحوه فمن المَشيد قول عديٍّ بن زيد:

شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ[(٣)]

---

(١) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران)، راجع المجلد الثاني ص ٣٧٥ ومابعدها. وكثير من اللغويين يرون أن (كأين) غير مركبة، بل هي بسيطة وهي كلمة وضعتها العرب للإخبار بعدد كثير نحو: (كم)، ولا دليل على أنها مركبة، والدليل على أنها بسيطة إثبات نونها في الخط لأن الأصل في نون التنوين عدم إثباتها، وأن العرب يتلاعبون بها، إذ فيها خمس لغات، وأبو حيان الأندلسي يميل إلى هذا الرأي.

(٢) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «البئر والقصر يخفضان على العطف على «العروش»، وإذا نظرت في معناها وجدتها ليست تَحْسُن فيها (على)؛ لأن العروش أعالي البيوت، والبئر في الأرض وكذلك القصر، لأن القرية لم تخو على القصر، ولكنه أتبع بعضه بعضاً»، وهذا يوضح سبب الضعف في العطف على «العروش»، ولهذا قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: «وجَعْل ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ معطوفين على ﴿عُرُوشِهَا﴾ جهلٌ بالفصاحة». ومع هذا فقد عاد الفراءُ في نهاية كلامه إلى تفضيل العطف على العروش قائلاً: «إِنَّهُ أحبُّ إليَّ».

(٣) البيت من قصيدة نظمها عديُّ بن زيد وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدَّهر وعِبَر الأيَّام، وأورد أسماءَ الملوك والأباطرة والأكاسرة الذين أدركوا غاية الثراءِ والأُبَّهَة والسُّلطة، ثم تركوا كل ذلك مخلفين قصورهم المرمريَّة كشاهد على هزيمة الإنسان أمام الزَّمن، وهو في هذا البيت يصل الحديث عن قصر يُسمَّى (الحَضْر) بناه الضَّيْزَنُ بن معاوية القضاعي فيقول: إنه قد شيَّد هذا القصر بالمرمر، وجلَّله بالكِلس فارتفع وشمخ حتى أوت الطُّيور إلى أعاليه تبني أعشاشها. والكلْسُ هو الجير، والذُّرى: جمع ذِرْوَة وهي أعلى الشيء، والذَّرى ـ بالفتح ـ الْكِنُّ وما سترك وكنَّك من حائط أو شجر. والبيت ورد في اللسان شاهداً على أن المَشِيد هو المبني بالشِّيد. وفي اللسان أيضاً مناقشة طويلة بين اللغويين في الفرق بين (مَشِيد) و(مُشَيَّدة). هذا والشِّيد: كل شيء طليت به الحائط من بلاط أو جص.



شَادَهُ: بناه بالشِّيد، والأظهر في البيت أنه أَراد: علاه بالمرمر، وقالت فرقة في هذه الآية: إن «مَشِيداً» معناه: مُعلَّى مُحصَّناً، ومعنى الآية يقتضي أنه كان كذلك قبل خرابه.

ثم وبَّخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أَي: في البلاد فينظروا في أَحوال الأُمم المكذِّبة المعذَّبة، وهذه الآية تقتضي أَن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أَن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل إذا اختل الدماغ. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ نصب بالفاء في جواب الاستفهام، صُرف الفعل من الجزم إلى النصب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظة مبالغة كأَنه قال: ليس العمى عمى الأَبصار وإنما العمى حق العمى عمى القلب، ومعلوم أَن الأَبصار تَعْمَى ولكن المقصود ما ذكرناه، وهكذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصُّرَعة»[١]، و«ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف»[٢]، والضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ للقصة ونحوها من التقدير. وقوله تعالى: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ مبالغة، كقوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[٣]، وكما تقول: نظرتُ إليه بعيني، ونحو هذا.

والضمير في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ لقريش، وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعيدٌ وإخبارٌ بأَن كلَّ شيءٍ إلى وقت محدود، والوعد هنا مقيد بالعذاب فلذلك ورد في مكروه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، قالت فرقة: وإن يوماً من أَيام

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث صحيح، ولفظه كما ذكره: «ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». ولفظه في «النهاية» لابن الأثير: «ما تعدُّون الصُّرَعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: هو الذي يملك نفسه عند الغضب»، ثم فسَّر الصُّرَعة بقوله: المبالغ في الصراع الذي لا يُغْلَب.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد في مسنده، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره في «الجامع الصغير» «ليس المسكين الذي يطوف على الناس فتردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتَّمرة والتَّمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

(٣) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (النور) ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾، ومن قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (الأحزاب): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

عذاب الله تعالى كأَلف سنة ممَّا تَعُدُّون من هذه لِطُول العذاب وبؤسه، فكأَن المعنى: فما أَجهل من يستعجل هذا، وقالت فرقة: وإِنَّ يوماً عند الله لإِحاطته به وعلمه وإِنفاذ قدرته كأَلف سنة عندكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا التأْويل يقتضي أَن عشرة آلاف سنة إِلى ما لا نهاية من العدد في حكم الأَلف، ولكنهم قالوا: ذكر الأَلف لأَنها منتهى العدد دون تكرار فاقتصر عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل لا يناسب الآية[1]. وقالت فرقة: إِن المعنى أَن اليوم عند الله تعالى أَلف سنة من هذا العد، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «إِنِّي لأَرجو أَن تؤخر أُمتي نصف يوم»[2]، وقوله: «يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل الأَغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة»[3]، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: «مقدار الحساب يوم القيامة أَلف سنة»، فكأَن المعنى: وإِن طال الإِمهال فإِنه في بعض يوم من أَيام الله.

وكرر قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لأَنه جلب معنى آخر، ذكر أَولاً القُرى المُهلكة دون إِملاءٍ بل بعقب التكذيب، ثم ثَنَّى بالمهلة لِئلاَّ يفرح هؤلاءِ بتأَخر العذاب عنهم. وقرأَت فرقة: [تَعُدُّونَ] بالتَّاءِ، وقرأَت فرقة: [يَعُدُّونَ] بالياءِ على الغائب.

---

(١) اختلف المفسرون في التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، فقيل: إن التشبيه في الطول، وهو الذي ذكره ابن عطية أولاً، وسبب الطول في هذا اليوم هو ما فيه من شدة وعذاب؛ لأن أيام المحنة يراها الإنسان طويلة ممتدة لا تنتهي. وقيل: إن التشبيه وقع بالنسبة لعلم الله تعالى وقدرته وإنفاذه ما يريد، وهذا هو القول الثاني في كلام ابن عطية، وعلّق عليه بأنه لا يناسب الآية، أي لا يناسب موردها ولا الغاية منها، وقيل: إن التشبيه في العدد، وهذا ما ذكره ابن عطية ثالثاً، واستشهد عليه بحديثين شريفين.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم.

(٣) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن صفوان بن سليم، ولفظه كما في «الدر المنثور» أن رسول الله ﷺ قال: «فقراءُ المسلمين يدخلون الجنة قبل الأَغنياء من المسلمين بنصف يوم، قيل: وما نصف اليوم؟ قال: خمسمائة عام، وتلا ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾، وأخرجه ابن جرير، وابن مردويه من طريق ضمير بن نهار عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد في الزهد عن ضمير بن نهار عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. «الدر المنثور»، والذي في ابن جرير الطبري: عن (سُمَيْر بن نهار) بدلاً من (ضُمَيْر بن نهار)».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد: إنما أَنا نذير عذاب الله، ليس إِليَّ أَن أُعجِّل عذاباً ولا أَن أُؤخِّره عن وقته[1]، ثم قسَّم حالة المؤمنين والكافرين بأَن للمؤمنين سُتْرَةُ ذنوبهم ورِزْقُه إِيَّاهم في الجنة، و«الكريم» صفة نفي المذام، كما تقول: ثوب كريم، وبأَن للكافرين المعاجزين عذاب الجحيم، وهذا كلُّه ممَّا أُمر أَن يقوله، أَي: هذا معنى رسالتي لا ما تتمنَّوْن أَنتم.

وقوله تعالى: ﴿سَعَوْا۟﴾ معناه: تحيَّلوا وكادوا، من السِّعاية، و«الآيات»: آيات القرآن، أَيْ: كادوا بالتكذيب وسائر أَقوالهم. وقرأَت فرقة: [مُعَاجِزِينَ]، معناه: مغالبين، كأَنهم طلبوا عجز صاحب الآيات، والآيات تقتضي تعجيزهم، فصارت مُفاعلة. وعبَّر بعض الناس في تفسير ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ بِظانِّين أَنهم يغلبون الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير خارج عن اللَّفظة. وقرأَت فرقة: [مُعَجِّزِينَ] بغير أَلف وبشد الجيم، ومعناه: معجِّزين الناس عن الإِيمان، أَي جاعلوهم بالتثبيط عجزة عن الإِيمان. وقال أَبو علي: [مُعَجِّزِينَ] معناه: ناسبين أَصحاب النبي ﷺ إِلى العجز، كما تقول: فَسَّقتُ فلاناً وزَيَّنْتُه، أَي نَسَبْته إِلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ عن النازلة التي أَلقى الشيطان فيها في أُمنية النبي ﷺ.

---

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً.



و﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ معناه المشهور: أَراد وأَحبَّ، وقالت فرقة: هو معناها في الآية، والمراد أَن الشيطان أَلقى أَلفاظه بسبب ما تَمَنَّاه رسول الله ﷺ من مقاربة قومه وكونهم متبعين له، قالوا: فلما تمنى رسول الله ﷺ من ذلك ما لم يَقْضِهِ الله تبارك وتعالى وجد الشيطان السبيل، فحين قرأَ رسول الله ﷺ سورة النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إِلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[1] أَلقى الشيطان «تلك الغرانيق العُلَى وإِنَّ شفاعتهن لَتُرْتَجَى»، فقال الكفار: هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد، وفرحوا بذلك، فلما انتهى إِلى السجدة[2] سجد الناسُ أَجمعون إِلاَّ أُمية بن خلف، فإِنه أَخذ قبضة من تراب فرفعها إِلى جبهته وقال: يكفيني هذا، قال البخاري: هو أُمية بن خلف، وقال بعض الناس: هو الوليد بن المغيرة، وقال بعض الناس: هو أَبو أُحَيْحَة سعيد بن العاصي، ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أَن أَهل مكة اتبعوا محمداً ﷺ ففرحوا لذلك، وأَقبل بعضهم فوجدوا أُلْقِية الشيطان قد نُسخت وأَهل مكة قد افتُتنوا[3].

وقالت فرقة: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ معناه: تَلاَ، والأُمنية: التِّلاوة، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الآيتان (١٩ـ ٢٠) من سورة (النجم).

(٢) في قوله تعالى في الآية الأخيرة من السورة ورقمها (٦٢): ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾.

(٣) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، ولكنها من طُرق كلها مرسلة، ولم أرها مُسْندةً من وجه صحيح، والله أعلم»، ثم ذكر أهم الروايات، وبيَّن أنها مُرْسَلة، وقال أبو بكر البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره، إلاَّ ما رواه شُعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، والشك في هذا الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة، ولم يسنده عن شُعبة إلاَّ أُمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يُعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس»، ويُتَمِّم هذا الكلام أن نوضح الآتي: أن طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير هو الوحيد الذي يجوز ذكره عند أهل السَّند، ومع ذلك وقع الشَّك في وصله، ولم يرو هذا الخبر عن سعيد بن جبير إلاَّ أُمية بن خالد، وهو وإن كان ثقة فقد شَكَّكَ في وصلها، وقد قال البزَّار: «إنما يُروى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك».

وقال القاضي عياض في كتاب «الشفا»: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم». ونلحظ أن ابن عطية لم يذكر الخبر على أنه حديث، وإنما اكتفى بقوله: «قالوا: فلما تمنى رسول الله ﷺ...» بالإضافة إلى ما سنذكره بعد ذلك من تعليق. وقال القرطبي: «الأحاديث المروية في نزول الآية، ليس منها شيءٌ يصح».



تَمَنَّـى كِتَـابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَـةٍ وَآخِـرَهَـا لاَقَـى حِمَـامَ ٱلْمَقَـادِرِ[١]

ومنه قول الآخر:

. . . . تَمَنِّـيَ دَاودَ الـزَّبُـور عَلَـى رِسْـلِ[٢]

وتأوَّلوا قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[٣]، أَي: إلاَّ تلاوة. وقالت هذه الفرقة في معنى سبب إلقاء الشيطان في تلاوة النبيِّ ﷺ ما تقدم آنفاً من ذكر الآلهة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره ـ في علمي ـ مصنف مشهور[٤]، بل يقتضي مذهب أَهل الحديث أَنَّ الشيطان أَلْقَى، ولا يُعَيِّنون هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أَن إِلقاءَ الشيطان إنما هو لأَلفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإِلقاء ـ فالذي في التفاسير ـ وهو مشهور القول ـ أَنَّ النبي ﷺ تكلم بتلك الأَلفاظ، وأَن الشيطان أَوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الأَلفاظ على لسانه، ورُوي أَنه نزل إِليه جبريل عليه السلام بعد ذلك فدارسه سورة النجم، فلما قالها رسول الله ﷺ قال له جبريل: لم آتِكَ بهذا، فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي، وجعل يتفجع ويغْتَمُّ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحدثني أَبي رحمه الله أَنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماءِ والمتكلمين من قال:

---

(١) البيت في اللسان، والتاج، ومجاز القرآن، وهو لحسَّان بن ثابت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، ومعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ وتلا، والحِمَام: قضاءُ الموت وقدره

(٢) هذا عجز بيت ذكر أيضاً للاستشهاد به على أَن (تمنَّى) تأتي بمعنى (قرأ وتلاَ)، وهو في اللسان، والتاج، ومجاز القرآن، والبيت بتمامه:

تَمَنَّـى كِتَـابَ اللهِ آخِـرَ لَيْلِـهِ تَمَنِّـيَ دَاوُدَ الـزَّبُـورَ عَلَـى رِسْـلِ

و(عَلَى رِسْلٍ): على تُؤَدَة ورفق ودون تَعَجُّل.

(٣) من قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

(٤) يتفق هذا مع ما ذكره ابن كثير في تفسيره، وما نقلناه عن القاضي عياض، وأبو بكر البزار، والقرطبي وهو كلام المحققين.



هذا لا يجوز على النبي ﷺ وهو المعصوم في التبليغ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[(١)]، وقرَّب صوته من صوت النبي ﷺ حتى التبس الأمر على المشركين وقالوا: محمد قرأها[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ ـ على هذا التأويل ـ بمعنى: (تلا) ولا بُدَّ، وقد ورد هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي رحمه الله وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرَّسول أَخص من النبي، وكثير من الأنبياءِ لم يُرْسَلُوا، وكل رسول نبي،

---

(١) الآيتان (١٩ـ ٢٠) من سورة (النجم).

(٢) بهذا التأويل أخذ كثير من العلماء، ومنهم القرطبي الذي نقل عن القاضي عياض قوله: «والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أن النبي ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عُرف عنه، فيكون ما رُوي من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ اهـ. وكلام القاضي عياض واضح في أن هذا الإلقاء كان من الشيطان للكافرين، ولم يكن للمسلمين، وأن النبي ﷺ لمَّا عرف حزن وتألَّم، ولكن الله آنسه بالآية الكريمة. ويلتقي مع هذا التأويل ما قاله سليمان بن حرب من أن [في] في الآية بمعنى (عند)، أي: أَلقى الشيطان عند أُمنية النبي ﷺ، أي عند تلاوته، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: ولبثت عندنا. وقال القاضي أبو بكر العربي: «وهذه الآية نصٌّ في براءة النبي ﷺ مما ينسب إليه أنه قاله، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: في تلاوته، فأخبر الله تعالى أن من سنَّته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قِبَل نفسه كما يفعل سائر المعاصي، فهذا نصٌّ في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ تكلم به.

وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وإن رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيءٌ مما ذكروه فوجب إطراحه، والعجب ممن نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، فالتثبيت واقع، والمقاربة منفيَّة، وقال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال آمراً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وهذه نصوص تشهد بعصمته ﷺ.



و«النَّسْخُ» في هذه الآية: الإذهابُ، كماتقول: نسخت الشمسُ الظِّلَّ، وليس برفع ما استقر من الحكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وطوَّف الطبري وأَشبع الإسناد في أَن إِلقاءَ الشيطان كان على لسان النبيِّ ﷺ، واختلفت الروايات في الأَلفاظ ففي بعضها: «تلك الغرانقة»، وفي بعضها: «تلك الغرانيق» وفي بعضها: «وإِن شفاعتهم»، وفي بعضها: «وإِن شفاعتهن»، وفي بعضها: «منها الشفاعة تُرْتَجَى».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغَرَانِيق: السَّادة العظام الأَقدار، ومنه قول الشاعر:

أَهْلاً بِصَائِدَةِ ٱلْغُرَانِقِ[1]

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية. اللام في قوله تعالى: [ليجعل] متعلِّقة بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾[2]، و«الفتنة»: الامتحان والاختبار، و«الَّذِين في قُلُوبهم مَرَض» هم عامة الكفار، و«الْقَاسِيَةُ قُلُوبُهم» خواص منهم عُتاة كأَبي جهل، والنَّضْر، وعُقْبة. و«الشِّقَاقُ»: البعد عن الخير، والضلالُ، والكونُ في شق غير شق الصلاح، و﴿بَعِيدٍ﴾ معناه أَنه انتهى بهم وتعمق فَرَجْعَتُهم منه غير مرجوة.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ هم أَصحاب محمد ﷺ، والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ عائد على القرآن، و﴿فَتُخْبِتَ﴾ معناه: تتطامن وتخضع، وهو مأْخوذ من الخَبْت، وهو المطمئن من الأَرض. وقرأَت فرقة: [لَهَادِ] بغير ياءٍ بعد الدال، وقرأَت فرقة: [لَهَادِي] بياءٍ، وقرأَت فرقة: [لَهَادٍ] بالتنوين وترك الإِضافة، وهذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى قبل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) جاء في اللسان (غرنق): «الغُرْنُوق والغِرْنَوق والغِرْنَاقُ والغُرَانِقُ، كلُّه: الأبيض الشاب الناعم الجميل، وفي حديث عليٍّ رضي الله تعالى عنه: فكأنِّي أَنظر إلى غُرْنُوق من قريش يتشحَّط في دمه، أي شاب ناعم، وامرأة غُرَانِقَة وغُرَانِق: شابة ممتلئة» وفيه أن الغرانيق طيرٌ مثل الكراكي، واحدها: غِرْنَوْقٌ وغِرْنَيْق، سمِّي به لبياضه.

(٢) وقال الحوفي: متعلقة بـ[يُحْكِمُ]، وقيل: متعلقة بـ[أَلْقَى]، وقال أَبو حيان الأَندلسي: الظاهر أَنها للتعليل، وقيل: هي لام العاقبة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾.

«المِرْيَةُ»: الشَّك، والضمير في قوله تعالى: [منه] قالت فرقة: هو عائد على القرآن، وقالت فرقة: على محمد ﷺ، وقالت فرقة: على ما أَلقى الشيطان، وقال سعيد بن جبير أَيضاً: على سجود النبي ﷺ في سورة النجم، و[السَّاعَةُ]: قالت فرقة: أَراد يوم القيامة و«اليوم العقيم» يوم بدر، وقالت فرقة: [السَّاعَةُ] ساعة موتهم أَو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ونحوه، و«اليوم العقيم» يوم القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان جيّدان لأنهما أَحرزا التقسيم بـ(أَوْ)، ومن جعل «الساعة واليوم العقيم» يوم القيامة فقد أَفسد رتبة (أَوْ)، وسمي يوم القيامة أَو يوم الاستئصال عقيماً لأَنه لا ليلة بعده ولا يوم، والأَيام كأَنها نتائج؛ لمجيءِ واحد إِثر واحد، فكأَن آخر يوم قد عقم، وهذه استعارة، وجُملة هذه الآية توعد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ السابق منه[1] أَنه يوم القيامة حيث لا مُلْكَ فيه لأَحد، ويجوز أَن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ قضاءُ الله وحده ويبطل ما سواه، ويمضي حكمه فيمن أَراد تعذيبه، فأَمَّا من تأَوّله في يوم القيامة فاتَّسق له قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، ومن تأَوّله في يوم بدر ونحوه جعل قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ابتداءَ خبر عن حالهم المتركبة على حالهم في ذلك اليوم العقيم من الإِيمان والكفر.

---

(١) يعني: المتبادر إِلى الذهن.



وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءُ معنى آخر، وذلك أَنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأَبو سلمة بن عبد الأَسد قال بعض الناس: مَنْ قتل من المهاجرين أَفضل ممن مات حتف أَنفه، فنزلت هذه الآية مُسَوِّية بينهم في أَن الله تبارك وتعالى يرزق جميعهم رزقاً حسناً. وليس هذا بقاضٍ بتساويهم في الفضل، وظاهر الشريعة أَن المقتول أَفضل، وقد قال بعض الناس: المقتول والميت في سبيل الله شهيدان، ولكن للمقتول مزيَّة ما أَصاب في ذات الله تعالى، و«الرِّزق الحسن» يحتمل أَن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، ويحتمل أَن يريد به بعد يوم القيامة في الجنة.

وقرأَت فرقة: [مَدْخَلاً] بفتح الميم من (دَخَلَ)، فهو محمول على فعل مقدر تقديره: فَيَدْخُلُون مَدخلاً، وقرأَت فرقة: ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم من (أَدخل)[1].

وأَسند الطبري عن سلمان بن عامر[2] قال: كان فَضَالة[3] برُودِس أَميراً على أَرباع، فخرج بجنازتَي رجلين أَحدهما قتيل والآخر متوفى، فرأَى ميل الناس مع جنازة القتيل، فقال: أَراكم أَيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه، فوالَّذي نفسي بيده ما أُبالي من أَيِّ حفرتيهما بعثت، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إلى ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ المعنى: الأَمر ذلك. ثم أَخبر تعالى عمن عاقب مِنَ المؤمنين مَنْ ظَلَمَه مِنَ الكفرة،

---

(١) قال الإمام ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبعة»: «الحُجَّة لمن ضمَّ أنه جعله مصدراً من أدخل يُدخل، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، والحُجَّة لمن فتح أنه جعله مصدراً من دَخَل يُدْخُلُ مَدْخلاً ودُخُولاً، ودليله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ويجوز أن يكون الفتح اسماً للمكان، وربما جاءَ بالضم».

(٢) اختلفت الأصول وكتب التفسير في هذا الاسم، فهو في بعض الأصول، وفي الطبري: (سلامان بن عامر)، وفي بعض الأصول (سلمان بن عامر)، وفي تفسير القرطبي (سليمان بن عامر). وهو سَلْمان بن عامر بن أَوْس بن حُجْر بن عمرو بن الحارث الضَّبِّي، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: إنه صحابي سكن البصرة.

(٣) هو فَضَالَة بن عُبَيد بن نَافِذ بن قيس الأنصاري، أول ما شهد أُحد، ثم نزل دمشق ووليَ قضاءَها، ومات سنة ثمان وخمسين، وقيل: مات قبل ذلك.

ووعد المبغيَّ عليه بأنه ينصره، وسمَّى الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تُسمَّى العقوبة كثيراً باسم الذنب، وهذا كلُّه تجوُّزٌ واتِّساع.

وذُكر أَن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الشَّهر الحرام، فأَبى المؤمنون من قتالهم، وأَبى المشركون إِلاَّ القتال، فلمَّا اقتَتَلُوا جَدَّ المؤمنون ونصرهم الله تعالى فنزلت الآية فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ معناه: نصر الله تعالى أَولياءَه ومَنْ بُغِيَ عليه بأَنه القادر على العظائم، الذي لا تُضاهى قدرته، فأَوجز العبارة بأَن أَشار بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِلى النصر، وعبَّر عن القدرة بتفصيلها، فذكر منها مثلاً لا يُدَّعى لغير الله تعالى، وجعل تقصير اللَّيل وزيادة النهار وعكسها إِيلاجاً تَجَوُّزاً وتشبيهاً، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه نحو ما ذكرناه. وقرأَت فرقة: [تَدْعُوْنَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَت فرقة: ﴿يَدْعُونَ﴾، والإِشارة بما يدعى من دونه، قالت فرقة: هي إِلى الشيطان، وقالت فرقة: هي إِلى الأَصنام، والعموم هاهنا أَحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ[1] وبعده خبر أَن الله أَنزل من السماءِ ماءً فظلت الأَرض تخضر عنه. وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمنزله قوله: فتضحى أَو فتصير، عبارة عن استعجالها أَثر نزول الماءِ واستمرارها كذلك عادة، ووقع قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ من حيث

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: المعنى في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خبَرٌ، كأنَّك قلت في الكلام: اعْلَم أن الله ينزل من السماء ماءً فتصبح الأرضُ، وهو مثل قول الشاعر:

أَلَــمْ تَسْـأَلِ الـرَّبْـعَ الْقَـدِيـمَ فَيَنْطِـقُ ... فَهَـلْ تُخْبِـرَنْـكَ الْيَـوْمَ بَيْـدَاءُ سَمْلَـقُ؟

وقال سيبويه: «وسأَلْتُ الخليل عن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فقال: هذا واجب وهو تنبيه، كأنك قلت: أَتَسْمَع؟ أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا» ثم ذكر البيت السابق، والبيت لجميل بثينة، والسَّمْلَق: الأَرض السهلة المستوية التي لا تُنبت. اهـ.



الآية خَبَراً، والفاءُ عاطفة وليست بجواب لأَن كونها جواباً لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فاسد المعنى[١]، ورُوي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلاَّ بمكة أَو تِهامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا أَنه أَخذ قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إِلى أَن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأَخر[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد شاهدتُ هذا في السوس الأَقصى، نزل المطر ليلاً بعد قحط وأَصبحت تلك الأَرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق. وقرأَ الجمهور: ﴿مُخْضَرَّةً﴾، وقرأَت فرقة: ﴿مَخْضَرَة﴾[٣]. و«اللَّطِيفُ»: المُحكِم للأُمور برفق، واللام في ﴿لَهُۥ﴾ لام الملك، و﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا حاجة به إِلى شيءٍ، هكذا هو على الإِطلاق.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: من الحيوان والمعادن وسائر المرافق، وقرأَ الجمهور: ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب، وذلك يحتمل وجهين من الإِعراب: أَحدهما أَن يكون عطفاً على ﴿مَّا﴾ بتقدير: وسخَّر الفُلْكَ، والآخر أَن يكون عطفاً على المكتوبة[٤]، بتقدير: وأَن الفُلْكَ، وقوله: ﴿تَجْرِى﴾ على الإِعراب الأَول في موضع

---

(١) لأنك إذا أجبت النفي بالفاء كان على معنيين ينتفي الجواب في كل منهما: إذا قلت: ما تأتينا فَتُحَدِّثَنا بالنصب فالمعنى: ما تأتينا محدِّثاً، إنما يأتي ولا يُحَدِّث، ويجوز أَن يكون المعنى: إنك لا تأتي فكيف تُحَدِّث؟ فالحديث مُنتَفٍ في الحالتين، والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب، يَثْبُتُ ما دخلته الهمزة وينتفي الجواب، فيلزم من هذا الذي تقرر إثبات الرؤية في الآية ونفي الاخضرار، وهو خلاف المقصود. هذا هو المراد بقوله: «فاسد المعنى». وأيضاً قالوا: إن جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام السابق شرطٌ وجزاءٌ، ولا يصح في الآية هنا أن يتقدر أن ترى إنزال المطر فتصبح الأرض مخضرة، لأن الاخضرار ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك، إنما هو مترتب على إنزال المطر. قال ذلك الفراءُ.

(٢) إذا جعلنا ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمعنى: (فتَصِير) لا يلزم أن يكون الاخضرار في وقت الصباح، وقد خصَّ الله تعالى وقت الصباح بالذكر دون سائر أوقات النهار لأن رؤية الأشياء المحبوبة في أول النهار أبهج للعين وأسَرُّ للنفس.

(٣) قال في «البحر المحيط»: «على وزن مَسْبَعة».

(٤) يريد بالمكتوبة لفظ الجلالة.



الحال، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر. وقرأت فرقة: [وَٱلْفُلْكُ] بالرفع، فـ﴿ تَجْرِى﴾ خبر على هذه القراءة.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأن طيّ السماءِ ونقص هذه الهيئة كوقوعهما، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إِنْ أَذِنَ في سقوط السماءِ عليكم سقطت، ويحتمل أن يعود قوله: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ على «الإمساك»؛ لأن الكلام يقتضي: بغير عَمَد ونحوهِ فكأنه أراد: إلاّ بإذْنِهِ فَبِهِ نُمسكها. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

الإِحياءُ والإِماتة في هذه الآية ثلاث مراتب، وسقط منها الموت الأَول الذي نصَّ عليه في غيرها[1]، إلاَّ أنه بالمعنى في هذه، و«ٱلْمَنسَكُ» المصدر، فهو بمعنى العبادة والشريعة، وهو أيضاً موضع النُسك، وقرأت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرها، وقد تقدم القول فيه في هذه السورة[2]، وقوله تعالى: ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي أن «المَنْسَكَ» المصدر، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[3]، وروت فرقة أَن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أَمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأْكلون ما ذبحتم وهو من

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

(٢) في قوله تعالى في الآية (٣٤): ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، راجع ص(٢٤٧) من هذا المجلد.

(٣) قال أبو حيان الأندلسي: «ولا يتعين ما قال؛ إذ قد يتسع في معمول اسم الفاعل كما يتسع في معمول الفعل، فهو موضعٌ اتُّسع فيه فأُجري مجرى المفعول به على السَّعة، ومن الاتساع في ظرف المكان قول الشاعر:

وَمَشْـــرَبٍ أَشْـــرَبُـــهُ ... لاَ آجِـنُ المَـــاءِ وَلاَ وَبِيــلُ

فإن (مَشْرَب) مكان الشرب، وقد عاد الضمير، وكان أصله: «أشرب فيه» فاتَّسع فيه فتعدى الفعل إلى ضميره».

والوَبِيلُ: الوخيمُ الثقيلُ «المعجم الوسيط».

قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة. قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ﴾. هذه البِنْيَةُ من الفعل والنهي تحتملُ معنى التخويف وتحتمل معنى احتقار الفاعل وأنه أَقلُّ من أَن يُفاعل، وهذا هو المعنى في هذه الآية، وقال أَبو إِسحاق: المعنى: فلا تنازعهم فينازعوك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التقدير الذي قَدَّر إِنما يَحْسُن مع معنى التخويف، وإِنما يحسن أَن يُقَدَّر هنا المعنى: فلا تبدأْهم بمنازعتك، فالنهي إِنما يراد به معنى من غير اللفظ، كما يراد في قولهم: «لا أَرينك هاهنا»، أَي: لا تكن هاهنا. وقرأَت فرقة: [فلا يَنْزَعَنَّكَ]، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَمْرِۚ﴾ معناه ـ على تأْويل أَن «المَنْسَك» الشريعة ـ: لا ينازعنك في الدين والكتاب ونحوه، وعلى أَن «المَنْسَك» موضع الذبح على ما روت الفرقة المذكورة من أَن الآية نزلت في الذبائح، فيكون ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: الذبح. و«ٱلْهُدَى» في هذه الآية: الإِرشاد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ الآية موادعةٌ محضة، ونسختها آية السيف، وباقي الآية وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

لمَّا أَخبر الله تعالى في الآية قبلها بأَنه يحكم بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه أَتبَعَ ذلك الخبر بأَن عنده علْم كل شيءٍ ليقع الحكم في معلوم، فخرجت العبارة على طريق التشبيه على علم الله تعالى وإِحاطته، وأَن ذلك كله في كتاب وهو اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أَن تكون الإِشارة إِلى كون ذلك



في كتاب وكونه معلوماً، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف.

ثم ذكر تعالى ـ على جهة التوبيخ ـ فعل الكفرة في أنهم يعبدون من الأصنام من دون الله ما لم يُنَزِّل الله فيه حُجَّة ولا بُرهاناً، و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة حيث وقع في القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ توعُّد.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كفار قريش، والمعنى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي ﷺ، أو من أحد أصحابه، وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد، عُرفت المساءَة في وجوههم، و«ٱلْمُنكَر» مِن معتقدهم وعداوتهم وأنهم يدبِّرون ويسرعون إلى السطوة بالتالي، والمعنى أنهم يكادون يسطون دهرهم أجمع، وأما في الشَّاذِّ من الأوقات فقد يُسْطى بالتَّالين نحو ما فُعِل بعبد الله بن مسعود وبالنبي ﷺ حين أغاثه وحل الأمر أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وبعمر رضي الله عنه حين أجاره العاصي بن وائل، وبأبي ذرٍّ رضي الله عنه وغير ذلك، و«السَّطْوُ» إيقاع بمباطشة أَوْ أَمْر بها.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لهم على جهة التوعُّد والتقريع: أَأُنبِّئُكُمْ، أي أُخبركم بشَرٍّ من ذلكم، والإشارة بـ«ذلكم» إلى السَّطْو، ثم ابتدأ ينبىءُ، كأن قائلاً قال له: وما هو؟ قال النارُ، أي نار جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتمل أن يكون أراد أن الله وعدهم بالنار، فيكون الوَعْد بالشرِّ ونحو ذلك لمَّا نصَّ عليه ولم يجىءْ مطلقاً، ويحتمل أن يكون أراد أن الله تعالى وعد النار بأن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] ونحو ذلك من مساوئها. و«ٱلْمَصِيرُ» مَفْعَل من (صار) على تحوَّل من حال إلى حالٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أن الإشارة بـ[ذلكم] هي إلى أصحاب محمد ﷺ التَّالين، ثم قال: أَلاَ أُخبركم بأَكْرَهَ إليكم من هؤلاء أنتم الذين وُعِدْتُم النار[1]، وأسند نحو هذا القول إلى قائل لم يُسَمِّه، وهذا كله ضعيف.

---

(١) عبارة الطبري أوضح من هذه العبارة التي قالها ابن عطية، قال الطبري: «وقد ذُكر عن بعضهم أنه كان يقول: إن المشركين قالوا: والله إن محمداً وأصحابه لشَرُّ خلق الله، فقال الله لهم: قل أفأنبئكم أيها=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

الخطاب بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ قيل: هو خطاب يعم جميع العالم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أراد الله تعالى أن يبين عندهم خطأَ الكافرين، ولا شك أن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس، متى نظره أحد في أمر عبادة الأوثان توجَّه له الخطاب.

واختلف المتأولون في فاعل (ضَرَبَ)، من هو؟ فقالت فرقة: المعنى: ضَرَب أَهلُ الكفر مثلاً لله أَصنامَهُم وأَوْثَانَهُمْ[1]، فاستمعوا أَنتم أَيها الناسُ لأَمر هذه الآلهة، وقالت فرقة: المعنى: ضَرَبَ اللهُ تعالى مثلاً لهذه الأَصنام وهو كذا وكذا، فالمثال والمثل في القول الأَول هي الأَصنام، والذي جُعل له المثال الله تعالى، والمثال الذي في التأْويل الثاني هو في الذباب وأَمره، والذي جُعل له هي الأَصنام، ومعنى ﴿ ضُرِبَ ﴾: أُثبت وأُلزم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾[2]، وقولنا: ضُربت الجزية وضُرب البعث، ويحتمل أَن يكون «ضَرْبُ المثلِ» من الضَّرْب الذي هو المثل، ومن قولك: «هَذَا ضَرْبُ هذا»، فكأَنه قال: مُثِّلَ مَثَلٌ.

وقرأَت فرقة: [يَدْعونَ] بالياءِ من تحت والضمير للكفار، وقرأَت فرقة: [يُدْعونَ] بضم الياءِ وفتح العين[3] على ما لم يُسَمَّ فاعله والضمير للأَصنام.

وبدأَ تعالى بنفي الخَلْق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به،

= القائلون هذا القول بِشَرٌ من محمد ﷺ؟ أنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار». وقوله: «بِشَرٌ من محمد» يعني على زعمهم.

(١) يعني أن الكفار جعلوا لله مَثَلاً حين عبدوا غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي، فاستعموا خبر هذا الشَّبه، وليس ثَمَّ مَثَلٌ، وهذا هو قول الأخفش.

(٢) من الآية (٦١) من سورة (البقرة)، وتكررت في (١١٢) من سورة (آل عمران).

(٣) القراءة الأولى قراءَة الحسن، ويعقوب، وهارون، والخفاف، ومحبوب عن أبي عمرو، والثانية قراءة اليماني، وموسى الأسواري، أمَّا قراءة الجمهور فهي بالتاء مع البناء للفاعل.



فكأَنه قال: ليس لهم صفتي، ثم ثَنَّى بالأَمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز، وذكر تعالى أَمر سلْب الذباب لأَنه كان كثيراً محسوساً عند العرب، وذلك أَنهم كانوا يُضَمِّخُون أَوثانهم بأَنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك[1]، وكانوا متأَلمين من هذه الحجة فجعلت مثلاً. والذُّباب جمعه أَذِبَّة في القليل وذِبَّان في الكثير كغُراب وأَغربة وغِرْبان، ولا يقال ذبابات إِلاَّ في الذيول لا في الحيوان[2].

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فقالت فرقة: أَراد بالطالب الأَصنام وبالمطلوب الذباب، أَي أَنهم ينبغي أَن يكونوا طالبين لما سُلب من طيبهم على معهود الأَنفة في الحيوان. وقالت فرقة: معناهُ ضَعْفُ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأَصنام، وضَعْفُ الأَصنام عن إِعطاء ذلك وإِنالته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يريد: ضَعُفَ الطالبُ وهو الذُّبابُ في استلابه ما على الأَصنام، وضَعُف الأَصنام في أَلاَّ مَنَعَة لهم، وعلى كل قول فدلَّ ضَعْفُ الذباب الذي هو محسوسٌ مُجْمع عليه وضَعْفُ الأَصنام في أَلاَّ منعة لهم عن هذا المُجْمع على ضعفه على أَن الأَصنام في أَحط رُتْبة وأَخَسِّ منزلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ خطابٌ للناس المذكورين، والضمير في ﴿قَدَرُواْ﴾ للكفار، والمعنى: ما وفَّوه حقَّه من التعظيم والتوحيد. ثم أَخبر بقوَّة الله تعالى وعزَّته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأَصنام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

روي أَن هذه الآية إِلى قوله تعالى: ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة:

---

(١) يعني أن الذباب يأكل هذا الطيب ويذهب به من على الأصنام.

(٢) يريد بالذيول الأطراف والنهايات؛ إذ ذباب السيف حَدُّ طرفه الذي يُضرب به، والذباب من أُذن الإنسان والفرس: ما حدَّ من طرفها، فهذا ونحوه يقال فيه: ذبابات، ولا يقال ذلك في الحيوان المعروف.



﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ ﴾[(١)] الآية، فأخبر الله تعالى أنه ﴿ يَصْطَفِى ﴾ أي ﴿ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ وهم الأنبياءُ المبعوثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النُّبُوَّة والرسالة.

وقوله تعالى: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم، وحقيقتها: ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم، و﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ جمع أمر، ليس يراد به المصدر.

ثم أمر الله تعالى بعبادته، وخصَّ الرُّكوع والسُّجود بالذِّكر تشريفاً للصَّلاة.

واختلف الناس، هل في هذه الآية سجدة؟ ومذهب مالك رحمه الله ألاَّ يُسْجد هاهنا[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ ندبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبها من غير هذا الموضع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ترجٍّ في حق المؤمنين، كقوله سبحانه: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[(٣)]، و«الفَلاَحُ» في هذه الآية نَيْلُ البُغْيَة وبلوغ الأَمل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قالت فرقة: هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالجهاد في سبيله، وهو قتال الكفار، وقالت فرقة: هي أَعم من ذلك، وهو جهاد النفس، وجهاد الكافرين، وجهاد الظَّلَمة، وغير ذلك، أَمر الله عباده بأَن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعُموم حسَنٌ، وبَيِّنٌ أَن عرف اللَّفظة يقتضي الجهاد في سبيل الله[(٤)]، وقال هِبَةُ الله

(١) من الآية (٨) من سورة (ص).

(٢) وهو مذهب أبي حنيفة أيضاً، وحُجَّتُهما في ذلك أن الله تعالى قرن الركوع بالسجود في هذه الآية فدلَّ ذلك على أن المراد هو الصلاة، فالآية الكريمة تأمر بالصلاة، وقد خصَّ الله تعالى الركوع والسجود بالذكر لتشريفهما وتشريف الصلاة على غيرها من العبادات.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (طه).

(٤) في القرطبي ما يدل على أن هنا كلاماً سقط في الأصول، فقد نقل كلام المؤلف هنا قائلاً: «قال ابن =

وغيره: إن قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وقوله في الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المرادُ من أَوَّل الأمر، فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نُسخ بالتخفيف، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محدق[١]. و﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ معناه: تخيَّركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ معناه: من تضييق، يريد: في شرعة المِلَّة، وذلك أَنها حنيفية سَمْحَة، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التَّوبة والكَفَّارات والرُّخص ونحو هذا ممَّا كثر عدُّه. و«الحَرْجة»: الشجر المُلْتَفُّ المتضايق، ورفع الحَرَج صحَّ لجمهور هذه الأُمَّة ولمن استقام على منهاج الشَّرْع، وأَما السَّلاَّبَةُ والسُّرَّاقُ وأَصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أَنفسهم بمفارقتهم الدين، وليس في الشَّرع أَعظم حرجاً من إلزام ثبوت[٢] رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى[٣]، ومع صحَّة اليقين وجودة العزم ليس بِحَرجٍ.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: بل جعلها، أَو نحوه من أَفعال الإغراء، وقال الفراءُ: هو نصب على تقدير حذف الكاف كأَنه قال: «كَمِلَّة»[٤]، وقيل: هو كما ينصب المصدر. وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾، قال أَبو زيد: الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٥]. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله تعالى، و﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: في الكتب القديمة، ﴿وَفِى هَٰذَا﴾: في القرآن، وهذه اللَّفظة تضعف قول مَنْ قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجَّه إلاَّ على تقدير محذوف من الكلام

= عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وكذا قال هِبَة الله وغيره: إن قوله تعالى.... الخ».

(١) هكذا في جميع النسخ، من التحديق وهو شدة النظر.

(٢) الثبوت مصدر ثَبَت.

(٣) ثبت هذا في قوله تعالى في الآية (٦٦) من سورة (الأنفال): ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(٤) في الأصول: كأنه قال: «كَلِمَة»، والتصويب عن «معاني القرآن» للفراء.

(٥) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة).

مستأنف. وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتبليغ، وقوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بتبليغ رسلهم إليهم على ما أخبركم نبيُّكم.

وأَسند الطبريُّ إلى قتادة أنه قال: أُعطيت هذه الأمة ما لم يُعْطَه إلاَّ نبيٌّ، كان يقال للنبي: أنت شهيد على أُمَّتك، وقيل لهذه الأُمة: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وكان يقال للنبي: ليس عليك حرجٌ، وقيل لهذه الأُمَّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وكان يقال للنبي: سَلْ تُعْطَ، وقيل لهذه الأُمَّة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

ثم أَمر الله تعالى بالصلاة المفروضة أَن تُقام ويُدَاوم عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أَن تُؤَدَّى، كما أَنعم عليكم فافعلوا كذا، ثم أَمر بالاعتصام بالله تعالى، أَي بالتَّعَلُّق به والخُلُوصِ له وطلبِ النجاة منه ورَفْضِ التوكُّل على سِواه. و«الْمَوْلَى» في هذه الآية معناه: الذي يُليكم نصره وحفظه. وباقي الآية بيِّن.

كمل تفسير سورة الحج بحمد الله تعالى وعونه

* * *

(١) من الآية (٦٠) من سورة (غافر).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة (المؤمنون)(١)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾.

أَخبر الله تبارك وتعالى عن فلاح المؤمنين وأَنهم نالوا البُغْية وأَحرزوا البقاءَ الدائم، وروي عن كعب الأَحبار أَن الله تعالى لمَّا خلق جنة عدن قال لها: تكلَّمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون»، وروي عن مجاهد أَن الله تعالى لمَّا خلق الجنة وأَتْقن حسنها قال: «قد أفلح المؤمنون». وقرأَ طلحة بن مصرف: (قَدْ أَفْلَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ) بضم الحاءِ، يريد: قد أَفلحوا، وهي قراءَة مردودة(٢)، وروي عنه [قد أُفلح المؤمنون] بضم الهمزة وكسر اللام.

ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، والخشوعُ:

(١) هذه السورة مكية بإجماع. وقد روى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في التفسير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدويِّ النحل، وأُنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسُرِّي عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: (اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأَرْضِنَا وارض عنا)، ثم قال: (أُنزل عليَّ عشر آيات من أَقامَهُنَّ دخل الجنة)، ثم قرأَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقد ذكر الإمام السيوطي هذا الحديث في «الدر المنثور»، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وابن المنذر، والعقيلي، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة، وقيل: إن في سنده «يونس بن سليم» وهو مجهول.

(٢) قال عيسى بن عمر: «سمعت طلحة بن مصرف يقرأُ: [قَدْ أَفْلَحُوا ٱلْمُؤْمِنُون]، فقلت له: أتلحن؟ قال: نعم كما لحن أصحابي»، قال أبو حيان الأندلسي تعقيباً على ذلك: «يعني أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي، وليس بلحن لأنه على لغة «أكلوني البراغيث»، وقال الزمخشري: «أو على الإبهام والتفسير»، وفي كتاب ابن خالويه كتبت بواو بعد الحاء، وفي اللوامح: وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدَّرْج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾.



التَّطامن وتساكن الأَعضاءِ والوقار، وهذا إنما يظهر في الأَعضاءِ لمن في قلبه خوف واستكانة، ورُوي عن بعض العلماءِ أَنه رأَى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع هذا خشعت جوارحه[١]، وروي أَن سبب هذه الآية أَن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يَمْنة ويَسْرة، فنزلت هذه الآية، وأُمروا أَن يكون بصر المصلِّي حذاءَ قبلته أَو بين يديه، وفي الحرم إِلى الكعبة، وروي عن ابن سيرين وغيره أَن رسول الله ﷺ كان يلتفت في صلاته إِلى السماءِ فنزلت الآية في ذلك[٢].

و«اللَّغْوُ»: سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأَصحابه، وكأَن الآية فيها موادعة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، ذهب الطبري وغيره إِلى أَنها الزكاة المفروضة في الأَموال، وهذا بيِّن، ويحتمل اللفظ أَن يريد بالزكاة الفضائل، كأَنه أَراد الأَزكى من كل فعل، كما قال تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ صفة العفة[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ الآية، يقتضي تحريم الزنى والاستمناء ومواقعة البهائم، وكل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، ويريد: وراءَ هذا الحدِّ الذي حُدَّ، ومعنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من النساء، ولما كان ﴿حافظون﴾ بمعنى (محجوزون) حسُن استعمال ﴿عَلَىٰٓ﴾، و«العَادِي»: الظالم.

---

(١) أخرج الحكيم الترمذي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه. «الدر المنثور». وفي القرطبي أن المُعْتَمَد رواه عن خالد، عن ابن سيرين.

(٣) من الآية (٨١) من سورة (الكهف).

(٤) قال ابن العربي: «من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم، إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أُخرى كآيات الإحْصان عموماً وخصوصاً، وغير ذلك من الأدلة».

وعلى هذا فإنه لا يحل للمرأة أن تَتَسَرَّرَ بغلامها المملوك لها بالإجماع من العلماء؛ لأنها غير داخلة في الآية. وقد حدث ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يرجم المرأة لولا أنها قررت له أنها فهمت الآية على أنها عامة في الرجال والنساء، فدرأ الحد عنها لأنها تأولت الآية، وعاقبها بأنه لن يحلها لحر بعده أبداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير: [لأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد، والأَمانةُ والعهدُ يجمع كل ما يحمله الإنسان من أَمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغير ذلك، ورعايةُ ذلك: حفظُه والقيام به، والأَمانة أَعمُّ من العهد؛ إذ كلُّ عهد فهو أَمانة فيما تقدم فيه قول أَو فعل أَو معتقد، وقد تَعِنُّ الأَمانة فيما لم يعهد فيه تقدم، وهذا إذا أَخذناهما بنسبتهما إلى العبد، فإن أَخذناهما من حيث هُما[1] ـ عَهْد الله إلى عباده وأمانته التي حَمَّلَهم ـ كانا في رتبة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿ صَلَوَٰتِهِمْ ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [صَلاَتِهِمْ] بالإفراد، وهذا الإفراد اسم جنس فهو بمعنى الجمع، والمحافظةُ على الصلوات ترقُّبُ أَوقاتها والمبادرةُ إلى وقت الفضل فيها. و﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ يريد: الجنة. ورُوي في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أَن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فأَما المؤمنون فيأَخذون منازلهم ويرثون الكفار، ويحصل الكفار على منازلهم في النار[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يسمي الله تعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم، فهو اسمٌ مستعار على الوجهين. و«الفِرْدَوْسُ»: مدينة الجنة، وهي جنة الأَعناب، واللفظة ـ فيما قال مجاهد ـ روميَّة عُرِّبت، وقيل: هي فارسية عُرِّبت، والعرب تقول للكروم: فراديس، وقال رسول الله ﷺ لأُمِّ حارثة: «إنها جنات كثيرة، وإن ابنك قد أَصاب الفردوس»[3].

---

(١) في بعض النسخ: «من حيث صلحا».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكان تخريج ابن ماجه له بمعناه، وقال عنه القرطبي: إسناده صحيح.

(٣) أخرج عبد بن حميد، عن أنس أن الرُّبَيِّعَ بنت النضر أتت رسول الله ﷺ، وكان ابنها الحارث بن سُراقة=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾.

هذا ابتداءُ كلام، والواو في أَوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإِن تباينت في المعاني. واختلف المفسرون في قوله: ﴿ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ فقال قتادة وغيره: أَراد آدم عليه السلام لأَنه استُلَّ من الطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ الضمير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ ﴾ عائداً على ابن آدم ـ وإِن كان لم يذكره ـ لشهرة الأَمر، وأَن المعنى لا يصلح إِلاَّ له، نظير ذلك ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ وغيره. ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وغيره: المراد بقوله: ﴿ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ ابن آدم. و﴿ سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ صفوة الماءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَنه اسم الجنس، ويترتب عليه أَنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم عليه السلام أَو عن الأَبوين المتقدمين بما يكون من الطين، وذلك السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها، وسيجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما فيها إِن شاءَ الله[1]، وعلى هذا يجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما: إِن السلالة هي صفوة الماء، يعني المنِيَّ. وقال مجاهد: ﴿ سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾: بني آدم.

= أُصيب يوم بدر، أصابه سهم غَرْبٌ، فقالت: أخبرني عن حارثة، فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت، وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء، فقال النبي ﷺ: «يا أُمَّ حارثة إنها جنانٌ في جنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس رَبْوَة الجنة وأوسطها وأفضلها» اهـ. والسيف الغَرْبُ هو القاطع الحديد، قال الشاعر:

غَرْباً سريعاً في العِظام الخُرْس

(١) سيأتي ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾، وسيبين المؤلف السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بيِّن؛ إذ آدم من طين وذريته من سلالة، وما يكون عن الشيءِ فهو سلالته، وتختلف وجوه ذلك الكون، فمنه قولهم للخمر: «سلالةٌ»؛ لأَنها سلالة العنب، ومنه قول الشاعر:

إذا أُنْتِجَتْ مِنْهَا المَهَارَى تَشَابَهَتْ ... عَلَى ٱلْعَوْدِ إلاَّ بِالأُنُوفِ سَلاَئِلُهُ[(١)]

ومن اللفظة قول هند بنت النعمان بن بشير:

. . . . سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ[(٢)]

ومنه قول الآخر:

فَجَاءَتْ بِهِ عَضْبَ الأَدِيمِ غَضَنْفَرَا ... سُلاَلَةَ فَرْجٍ كَانَ غَيْرَ حَصِينِ[(٣)].

وهذه الفِرقة يترتب مع قولها عود الضمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ و﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾.

---

(١) البيت شاهد على أن السلائل جمع سلالة، وأن السُّلالة هي ما يكون عن الشيء، أو ما يَنْسَلُّ منه، ويختلف الانسلال باختلاف الأشياء، والمهْر ولد الفرس، والإبل المهْرية منسوبة إلى حيٍّ عظيم هم ولد مَهْرَة بن حيدان، وجمعها مهارى ومَهَارٍ، والعَوْدُ: الجمل المُسِنُّ وفيه بقية، والرواية في الطبري: «على القود»، ولم أجد هذا البيت في معاجم اللغة، ولا في كتب التفسير إلا الطبري، ولا في معاني القرآن للفراء، أو في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٢) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (سَلَلَ) ونسبه إلى هند بنت النعمان كما قال ابن عطية، والبيت بتمامه:

وَمَا هِنْدُ إلاَّ مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ ... سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ

والرواية في الطبري: (وهل كنت إلا مهرة) والمهر، أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية، والأنثى مهرة. وتَجَلَّلها: علاها، ويروى: تَحَلَّلها ـ بالحاء المهملة ـ أي جعلها حليلةً له، والسليلة: بنت الرجل من صلبه، والمراد بالبغل هنا الرجل الذي يشبه البغل، والبغل مذموم مكروه. تندب حظها وتقول: إنها مهرة عربية أصيلة وقد تزوجت رجلاً فظاً يشبه البغل في صفاته وطباعه، وقد قيل: إن كلمة بغل تصحيف عن نغل بالنون، وهو الخسيس من الناس والدواب، وذلك لأن البغل لا ينسل، ونميل إلى غير هذا؛ لأنها إنما أرادت سوء حظها، وأنها برقتها وجمالها وأصالتها قد نكبت بهذا البغل بما فيه من فظاظة وجلافة وانعدام الحساسية والذوق.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في اللسان أيضاً (سلل)، وفي الطبري، والقرطبي، ورواية الطبري: «حَمَلَتْ به» بدلاً من «فجاءت به»، ويستشهدون به على أن السلالة هي نطفة الإنسان، وأن سلالة الشيءِ هي ما اسْتُلَّ منه، وعَضْب الأديم: غليظ الجلد، يعني أنه شديد قوي الجلد، وقد قال محقق اللسان: «لعلّه بالصاد المهملة بدلاً من الضاد؛ لأن هذا التعبير غير موجود في اللغة».



و«النُّطْفَةُ» تقع في اللغة على قليل الماءِ وكثيره، وهي هنا لمني ابن آدم، و«القَرَارُ الْمَكِينُ» من المرأة هو موضع الولد، و«الْمَكِينُ»: المتمكن، فكأن «القرار» هو المتمكن في الرحم. و«العَلَقَةُ»: الدم الغريض، و«المُضْغَةُ»: بضعة اللحم قَدْر ما يُمْضَغ.

وقرأ الجمهور: ﴿عِظَـٰمًا﴾ في الموضعين، وقرأ ابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [عَظْماً] بالإفراد في الموضعين، وقرأ سلمة، وقتادة، والأعرج، والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني، وقرأ مجاهد، وأبو رجاءٍ، وإبراهيم بن أبي بكر بعكس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود: [ثم جعلنا المُضْغَةَ عَظْماً وعَصَباً فكسوناها لحماً].

واختلف الناس في الخلق الآخر ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: هو نَفْخُ الروح فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة ـ عن فِرْقَة ـ: نبات شعره، وقال مجاهد: كمال شبابه، وقال ابن عباس أيضاً: تصرفه في أُمور الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو عام في هذا، وغيرُه من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخرَ هو نفْخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخَر تحصيله المعقولات إلى أن يموت.

و«تَبَارَكَ» هو مطاوع «بارك»، كأنها بمنزلة «تعالى وتقدّس»، من معنى البركة، وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع صدر الآية إلى قوله: ﴿ءَاخَرَ﴾ قال: «فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنزلت»[1].

---

(١) أخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس قال: قال عمر: وافقتُ ربي في أربع: قلت: يا رسول الله، لو صليت خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتَنْتَهُنَّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، فأنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية، ونزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية. . . إلى قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، فقلتُ أنا: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا=

ويروى أَن قائل ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه[١]، ويروى أَن قائل ذلك عبد الله بن أَبي سَرْح، وبهذا السبب ارتدَّ وقال: أَنا آتي بمثل ما يأْتي به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وفيه نزلت: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ معناه: أَحسن الصانعين، يقال لمن صَنَعَ شيئاً: خلقه، ومنه قول الشاعر:

وَلأَنْـتَ تَفْـرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لاَ يَفْـرِي[٣]

وذهب بعض الناس إِلى نفي هذه اللفظة عن الناس، فقال ابن جُرَيْج: إِنما قال:

= ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ قال عمر: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال: والذي نفسي بيده إنها خُتمت بالذي تكلمت به يا عمر.

(١) أخرج ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن زيد بن ثابت قال: أملى عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقال معاذ بن جبل: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: إنها خُتمت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

(٢) هذه هي الآية (٩٣) من سورة الأنعام، وقد قيل: إنها نزلت في عبد الله بن أبي سَرحْ الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بالمشركين، وسبب ذلك أنه لما نزلت آية المؤمنين هذه دعاهُ النبي ﷺ وأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال عبد الله متعجباً من هذا التفصيل: «تبارك الله أحسن الخالقين» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت عليَّ»، فشكَّ عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أُوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، راجع المجلد الثالث صفحة ٤٩١ وما بعدها.

(٣) البيت لزهير بن أبي سُلْمى، وهو في الديوان، والطبري، والقرطبي، واللسان، والتاج، ومختار الشعر الجاهلي، وهو من قصيدة له يمدح بها هرم بن سنان، ومطلعها: «لِمنِ الديارُ بقُنَّة الحَجْر»، وتَفْري: تَقْطَع، و«ما خلقت» معناها: ما قدرتَ وهيأْتَ للقطع، والفَرْيُ: القَطْعُ بعد التقدير، ويقال: خَلَقَ الأديم خلقاً، بمعنى قدَّره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قربة، ولذلك تسمي العرب كل صانع كالنجار والخيَّاط خالقاً، وهذا هو موضع الشاهد، يقول لهرم: أنت إذا قدرتَ أمراً قطعته، أي أنفذته وأمضيته، وغيرك يُقدِّر ثم لا ينفذ لأنه ليس مثلك ماضي العزم.



﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لأنه تبارك وتعالى قد أَذِنَ لعيسى عليه السلام في أَن يخلق، واضطرب بعضهم في ذلك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع، وإِنما هي منفية بمعنى الاختراع والإِيجاد من العدم، ومن هذه الآية قال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين سأَله مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا: الله أَعلم، فقال عمر رضي الله عنه: ما تقول يا بن عباس؟ فقال: يا أَمير المؤمنين، إِن الله تعالى خلق السموات سبعاً والأَرض سبعاً، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأَراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر: أَعَجَزَكُمْ أَن تأْتُوا بمثل ما أَتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأْسه، وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أَبي شيبة، فأَراد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «خلق ابن آدم من سبع» هذه الآية، وبقوله: «وجعل رزقه في سبع» قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾[2] الآية، السَّبع منها لابن آدم، والأَبُّ للأَنعام، والقَضْبُ يأْكله ابن آدم وتسمن به النساءُ، وهذا قول، وقيل: القضب: البقول لأَنها تقضب، فهي رزق ابن آدم، وقيل: القَضْب والأَبُّ للأَنعام والسِّتَّة الباقية لابن آدم، والسابعة هي الأَنعام إِذْ هي من أَعظم رزق ابن آدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ۝٢٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارة إِلى ما ذكر من هذه الأَحوال، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لَمَائِتُونَ]

---

(١) كثر الكلام في المعنى المراد بهذه الآية، وفي الجمع بينها وبين قوله تعالى في الآية (٣) من سورة (فاطر): ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ومن أحسن ما قيل في ذلك هو ما أشار إليه ابن عطية في تفسيره لمعنى قول الله هنا: ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، وهو أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ولا موجد سوى الله، ويكون بمعنى التقدير كما في قول زهير، وهو المراد هنا. فأبناءُ آدم قد يصنعون ويقدِّرون، والله تعالى هو خير الصانعين والمقدرين.

(٢) الآيات (٢٧ـ ٣١) من سورة (عبس).



بالألف، و﴿تُبْعَثُونَ﴾ معناه: من قبوركم أحياءً، وهذا خبر بالبعث والنشور، و«الطَّرَائِقُ» كل ما كان من طبقات بعضه فوق بعض، ومنه: طارقت نعلي، ويريد بالسَّبع الطرائق السموات، ويجوز أَن تكون «الطرائق» بمعنى المبسوطات، من: طرقت الشيءَ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفيٌ عام، أَي: في إِتقان خلقهم وعن مصالحهم وعن أَعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال بعض العلماءِ: أَراد المطر، وقال بعضهم: إِنما أَراد الأَنهار الأَربعة: سيحان وجيحان والفرات والنيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب أَن هذا كله داخل تحت الماء الذي أَنزل الله تعالى.

وقال مجاهد: ليس في الأَرض ماءٌ إلاَّ وهو من السماء.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويمكن أَن يقيد هذا بالعذب، وإِلاَّ فالأُجاج ثابت في الأَرض مع القحط، والعذب يقل مع القحط، وأيضاً فالأَحاديث تقتضي الماءَ الذي كان قبل خلق السموات والأَرض، ولا محالة أَن الله تعالى قد جعل في الأَرض ماءً وأَنزل من السماءِ ماءً.

وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أَي على مقدار مصلح؛ لأَنه لو كثر أَهلك.

و﴿فَأَنشَأْنَا﴾ معناه: أَوجدنا وخلقنا، وذكر تعالى النخيل والأَعناب لأَنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما، قاله الطبري، ولأَنها أَيضاً أَشرف الثمار، فذكره مثالاً لا تشريفاً لها وتنبيهاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «الجنَّات» فيريد حينئذ جميع أَنواع الفواكه، ويحتمل أَن يعود على «النخيل والأَعناب» خاصة إِذْ فيها مراتب وأَنواع، والأَول أَعم لسائر الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ويريد بها الزيتونة، وهي كثيرة في طور سيناءَ من أَرض الشام، وهو الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الطُّور»: الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِّب من كلام العجم. واختلف في ﴿سَيْنَآءَ﴾ فقال قتادة: معناه: الحسن، ويلزم

على هذا التأويل أَن ينون «الطُّور»، وقال مجاهد: معناه: مبارك، وقال مَعْمر عن فرقة: معناه: ذو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمهم أَن يُنَوِّن «الطُّور». وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل أُحد، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم مضاف إِليه الجبل.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن كثير: [سِيْنَاءَ] بكسر السين، وقرأَ الباقون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿سَيْنَآءَ﴾ بفتح السين، وكلُّهم بالمدِّ، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه، وعلى كسر السين فالهمزة كهمزة حِرباءٍ، ولم ينصرف في هذه الآية لأَنه جعل اسم بُقعة أَو أَرض.

وقرأَ الجمهور: ﴿تَنبُتُ﴾ بفتح التاءِ وضم الباءِ، فالتقدير: تَنْبُت ومعها الدهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [تُنْبِتُ] بضم التاءِ وكسر الباءِ، واختلف في التقدير على هذه القراءَة، فقالت فرقة: الباءُ زائدة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1]، وهذا المثال عندي معترض وإِن كان أَبو علي قد ذكره، كقول الشاعر:

نَحْـنُ بَنُـو جَعْـدَةَ أَرْبَـابُ الْفَلَـجْ نَضْرِبُ بِالْبِيْضِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ[2]

ونحو هذا، وقالت فرقة: التقدير: تُنبت جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف، قاله أَبو علي الفارسي أيضاً، وقد قيل: نَبَتَ وأَنبتَ بمعنى، فيكون المعنى كما مضى في قراءَة الجمهور، والأَصمعي يُنكر أَنبت ويتَّهم قصيدة زهير التي فيها:

---

(١) من الآية (١٩٥) من سورة (البقرة).

(٢) هذا الرجز للنابغة الجعدي، وهو في الديوان، والخزانة، ومعجم البكري، ومغني اللبيب، والطبري، والقرطبي. والفَلَج: الماءُ الجاري، وهو في هذا الرجز موضع لبني جعدة، وهو في أعلى بلاد قيس. والبِيض ـ بكسر الباءِ ـ: السيوف، أي: نقاتل بالسيوف، و(نَحْنُ) مبتدأ وخبره (بَنُو جعدة)، وروي البيت (بني جعدة) بالنصب على الاختصاص، فيكون خبر المبتدإِ هو (أربابُ)، والشاهد في البيت هو زيادة الباءِ في (بالفرج)، قال ابن عصفور في (الضرائر): زيادة الباءِ هنا ضرورة. ولكن ابن السيِّد قال في «شرح أَدب الكاتب»: إنما عدَّى الرجاءَ بالباءِ لأنه بمعنى الطَّمع، والطَّمعُ يتعدى بالباءِ، قال الشاعر ـ وهو البعيث ـ:

طَمِعْـتُ بِلَيْلَـى أَنْ تَجُـودَ وَإِنَّمَـا تُقَطِّـعُ أَعْنَـاقَ الـرِّجَـالِ الْمَطَـامِـعُ



. . . . أَنْبَتَ الْبَقْلُ[(١)]

وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج: [تُنْبَتُ] برفع التاءِ ونصب الباءِ، قال أبو الفتح: هي باءُ الحال، أي: تُنْبَتُ ومعها دهنها[(٢)]، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: «تخرجُ بالدُّهْن»، وهي أيضاً باءُ الحال، وقرأ زرُّ بن حُبَيْش: [تُنْبِتُ] بضم التاءِ وكسر الباءِ [ٱلدُّهْنَ] بحذف الباءِ ونصبه، وقرأ سليمان بن عبد الملك، والأشهب: [بِٱلدِّهَانِ]. والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النِّعم التي لا غنى للصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأمصار.

وقرأت فرقة: ﴿وَصِبْغٍ﴾، وقرأت فرقة: [وَأَصْبَاغٍ] بالجمع، وقرأ عامر بن قيس: [وَمَتَاعًا للآكِلِينَ][(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

«الأَنْعَامُ» هي الإبل والبقر والضأن والمعز، و«العِبْرَة» في خلقها وسائر أَخبارها.

وقرأ الجمهور: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بضم النون من «أسقي»، ورويت عن عاصم. وقرأ

---

(١) هذه آخر جملة في بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى من قصيدة له يمدح فيها سنان بن أبي حارثة المري، يقول في مطلعها: (صَحَا القلْبُ عن سَلْمَى وَقَدْ كَادَ لاَ يَسْلُو)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إذا السَّنَـةُ الشَّهْبَـاءُ بِـالنَّـاس أَجْحَفَـتْ ... وَنَـالَ كِـرَامَ المَـالِ فِي الحَجْـرَةِ الأَكْـلُ
رَأَيْـتَ ذَوِي الْحَـاجَـاتِ حَـوْلَ بُيُـوتِهِـمْ ... قَطِينـاً بِهَـا حَتَّـى إذا أَنْبَـتَ الْبَقْـلُ

والبيت في الديوان، وفي اللسان، والطبري، والقرطبي. والسنة الشهباء هي البيضاء من شدة الجدب لشدة ما فيها من ثلج وعدم النبات، وأجحفت: أضرت ضرراً بالغاً وأهلكت الأموال، والحَجْرة: السَّنة الشديدة التي تحجر الناس في البيوت، والمراد بقوله (نال كرام المال الأكلُ) أنهم لشدة الحاجة أكلوا أكرم ما عندهم وهو الإبل، والقطين: السكان المقيمون. والبيت يذكر شاهداً على أن نَبَتَ وأنْبَتَ بمعنى واحد، قال الفراء: هما لغتان، والأصمعي يتهم القصيدة.

(٢) فهي كقولك: خرج بثيابه، أي: وثيابه عليه، كأنه قيل: خرج لابساً ثيابه. بهذا عبَّر أبو الفتح في المحتسب.

(٣) قال أبو حيان الأندلسي في البحر: «كأنه يريد تفسير الصِّبغ».



نافع، وعاصم وابن عامر: [نَسْقِيكُمْ] بفتح النون من «سَقَى»، فمن الناس من قال: هما لغتان بمعنى، ومنهم من قال: سَقَيْتُه إِذا أَعطيته للشَّفة، وأَسْقَيْتُه إِذا جعلت له سقيا لأَرض أَو ثمرة أَو نحوه، فكأَن الله جعل الأَنعام لعباده سقيا يشربون وينتجعون. وقرأَ أَبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ] بالتاءِ من فوق، أَي: تسقيكم الأَنعام.

و«المنافع»: الحَمْلُ عليها، وجلودها، وأَصوافها، وأَوبارها، وغير ذلك مما يطول عدُّه.

و«الفُلْك»: السفن، واحدها فُلْك، الحركاتُ في الواحد كحركات قُفْل وبُرْد، والحركات في الجمع كحركات أُسْد وكُتُب[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

هذا ابتداءُ تمثيل لكفار قريش بأُمم كفرت بأَنبيائها فأُهلكوا، وفي ضمن ذلك الوعيد بأَن يحل لهم بلاءٌ نحو ما حلَّ بأُولئك.

ونوح عليه السلام أَول نبي أُرسل إِلى الناس، وإِدريس عليه السلام أَول من نُبِّىء ولم يُرْسَل.

و«المَلأُ»: الأَشراف لأَنهم عنهم يصدر الملأُ، وهو جمع القوم، وفي قول هؤلاءِ استبعادُ بعثة البشر، وهم قوم مُقِرُّون بالملائكة، وذلك لا شك مستقر عندهم من بقايا نبوة آدم وإِدريس عليهما السلام وغيرهما، ولم يكن ذلك عن علم صحيح ولا معرفة بأَخبار نُبُوَّة.

و«الجِنَّةُ»: الجنون، و﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ معناه: اصبروا وانتظروا هلاكه، و﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾

---

(١) قال في اللسان (فلك): «والفُلْك بالضم: السفينةِ تُذَكَّر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فإن شئت جعلته من باب جُنُب، وإن شئت من باب دِلاص وهجان، وهذا الوجه الأخير مذهب سيبويه، أعني أن تكون ضمة الفاء من الواحد بمنزلة ضمة باءِ بُرْد وخاءِ خُرج، وضمة الفاءِ في الجمع بمنزلة ضمة حاءِ حُمْر وصاد صُفر في جمع أحمر وأصفر».



معناه: إلى وقت، ولم يُعَيِّنُوه، وإنما أَرادوا: إلى وقت يريحكم القدر منه.

ثم إنَّ نوحاً عليه السلام دعا على قومه حين يئس منهم وإن كان دعاؤُه في هذه الآية ليس بنصٍّ، وإنما هو ظاهر من قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فهو يقتضي طلب العقوبة، وأَمَّا النُّصرة بمجردها فكانت تكون بِرَدِّهم إلى الإيمان.

وقرأَ أَبو جعفر، وابن مُحيصن: [رَبُّ ٱنْصُرْنِي] برفع الباءِ، وكذلك [رَبُّ ٱحْكُم][1] وشبهه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قد تقدم القول في صفة السفينة وقدرها في سورة هود، و«الفُلْك» هنا مفرد لا جمع.

وقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ عبارة عن الإدراك على مذهب الحذاق، ووقفت الشريعة على أَعْيُن وعَيْن، ولا يجوز أَن يقال: عينان من حيث لم توقف الشريعة على التثنية، و﴿وحينا﴾ معناه: في كيفية العمل ووجه البيان، وذلك أَن جبريل عليه السلام نزل إلى نوح عليه السلام فقال له: اصنع كذا وكذا لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه. واستَجَنَّ الكفار نوحاً لادعائه النبوة بزعمهم أَنها دعوى، وسخروا منه لعمله السفينة على غير مجرى، أَو لكونها أَول سفينة إن صح ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْرُنَا﴾ يحتمل أَن يكون مصدراً بمعنى أَن نأْمر الماءَ بالفيض، ويحتمل أَن يريد واحد الأُمور، أَي إهلاكنا للكفرة، وقد تقدم القول في معنى قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾. والصحيح من الأَقوال أَنه تنُّور الخُبز، وأَنه أَمارةٌ كانت بين الله تبارك وتعالى وبين نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ﴾ معناه: فَأَدْخِلْ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (الأنبياء).

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُ فِي مَسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ(١)

وقال الآخر:

وَكُنْتَ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبِ(٢)

يقال: سَلَكَ وأَسْلَكَ بمعنى.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بتنوين [كُلٍّ]، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بإضافة [كُلِّ] دون تنوين(٣)، و«الزَّوْجَانِ» كل ما شأنه الاصطحاب من كل شيء كالذكر والأنثى من الحيوان ونحو النِّعال وغيرها كل واحد زوج للآخر، هذا موقع اللفظة في اللغة، والعدديُون يوقعون الزوج على الاثنين، وعلى هذا أَمْرُ استعمال العامة للزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يريد قرابته، ثم استثنى من سبق عليه القول بأنه كافر وهو ابنه وامرأته. ثُم أَمَرَ الله نوحاً عليه السلام أَلا يراجع ربه ولا يخاطبه شافعاً في أَحد من الظالمين، والإشارة إلى من استثني إذ العُرف من البشر الحُنُوُّ على الأَهل، ثم أَمره تعالى بأَن يحمد ربَّه على النجاة من الظَّلَمة عند استوائه وتمكنه في الفلك، ثم أَمره

---

(١) البيت لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي، واسمه يزيد بن عُبَيْد، من بني سعد بن بكر أَظْآر رسول الله ﷺ، وهو في اللسان (مَسَكَ وهَدَجَ)، وسَلَكَ الشيءَ في الشيءِ: أَدخله فيه، سَلْكاً أَي: إدخالاً، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وهذا هو موضع الشاهد هنا، والشَّوَى هنا: اليدان والرجلان من الأُتن، والمَسَك: الأَسْوِرَةُ والخلاخيل من الذَّبْل والقرون والعاج، واحدته مَسَكَة، وقد استعاره أبو وجزة هنا فجعل ما تُدخل فيه الأتن أرجلها من الماءِ مَسَكاً، وجوَّابة الآفاق: السحابة التي تجوب آفاق السماء من مكان إلى مكان، والمهداج هنا: الريح التي لها حنين، يعني أَن الماءَ من نسل الريح التي تستدر السحاب وتلقحه فيمطر، فهو من نسلها. يصف أبو وجزة الأُتُن التي وردت الماء ليلا ونزلت فيه بقوائمها أي أدخلت قوائمها في الماء فصار لها مثل الأساور التي تجعلها المرأة في يديها، وهذا الماءُ الذي أدخلت الأتن قوائمها فهي كان من نسل سحاب مهداج عصرته الريح منه.

(٢) هذا البيت لِعَدِيِّ بن زيد العباديِّ، وهو في اللسان، وقد تكرر الاستشهاد به في هذا التفسير، وفيه يخاطب الشاعر النعمان في قصيدة اعتذار، ويقول: إني ظللت ملازماً لأعدائك لا أتراجع ولا أَفِرُّ حين وقعت في يوم عصيب شديد، ولزاز الخصم: الملازم له، والتَّعريد: الفِرار وسرعة الذهاب في الهزيمة، وسلكوك: أدخلوك، والعصيب: الشديد. والشاهد هنا هو أن سَلَك بمعنى أدخل.

(٣) من قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه، والتقدير: من كل حيوان أو نحوه، ومن قرأ بالإضافة أعمل ﴿ٱسۡلُكۡ﴾ في قوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾، وجاء قوله تعالى: ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كلٍّ ماله ازدواج، قال ذلك أبو علي الفارسي.



بالدعاءِ في بركة المنزل. وقرأ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [مَنْزِلاً] بفتح الميم وكسر الزاي، وهو موضع النزول، وقرأ الباقون وحفصٌ عن عاصم: ﴿مُنزَلًا﴾ بضم الميم وفتح الزاي، وهو مصدر بمعنى الإِنزال، ويجوز أَن يراد به موضع النزول[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، أَي: إِن فيما جرى على هذه الأُمم لعبراً أَو دلائل لمن له نظر وعقل، ثم أَخبر تعالى أَنه يبتلي عباده الزَّمن بعد الزَّمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإِخبار، و[إِنْ] عند سيبويه هي المخففَّة من الثقيلة، واللام لام تأْكيد، والفراءُ يقول: [إِنْ] نافية واللام بمعنى «إِلاَّ»، و﴿مبتلين﴾ معناه مصيبين ببلاءٍ ومُخْتَبِرين اختباراً يؤدي إِلى ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قال الطبري رحمه الله: إِن هذا القَرْن هم ثمود، ورسولهم صالح عليه السلام، وفي الروايات ما يقتضي أَن قوم عادٍ أَقدم إِلاَّ أَنهم لم يهلكوا بصيحة[٢]، وفي هذا احتمالات كثيرة، والله أَعلم.

و﴿أترفناهم﴾ معناه: نعَّمناهم وبسطنا لهم الآمال والأَرزاق، ومقالة هؤلاءِ أيضاً تقتضي استبعاد بعثة البشر، وهذه الطائفة وقوم نوح لم يذكر في هذه الآيات أَن المعجزة ظهرت لهم وأَنهم كذبوا بعد وضوحها، ولكن ذلك مقدر معلوم وإِن لم يعين لنا المعجزة، والعقاب لا يتعلق بأَحد إِلا بعد تركه الواجب عليه، ووجوب الاتباع إِنما هو

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن نوحاً قال ذلك حين خرج من السفينة، وقال بعضهم: بل حين دخلها، وعلى كل فالآية الكريمة تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده إِذا ركبوا أو نزلوا أن يقولوا هذا، قال العلماء: بل وإِذا دخلوا بيوتهم، وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان إِذا خل المسجد قال: اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين.

(٢) يعني أَن بعض الروايات تقول: إِن القَرْن المقصود هم قوم عادٍ لأنهم بعد نوح وكانوا قبل ثمود، ولكن قوم عادٍ لم يهلكوا بصيحة، والقرن المقصود أهلكهم الله بصيحة بدليل قوله تبارك وتعالى بعد هذا في الآية (٤١): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾.



قيام الحجة على المرء أو على من هو المقصد والجمهور، كالعرب في معجزة القرآن، والأطباءِ لعيسى، والسحرة لموسى، فقيام الحجة على هؤلاء قامت على جميع من وراءَهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ ﴾ استفهام بمعنى التوقيف، على جهة الاستبعاد، وبمعنى الهزءِ بهذا الوعد، و﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الثانية بدل من الأُولى عند سيبويه، وفيها معنى تأكيد الأول، وكُرِّرت لطول الكلام، وإن كان المبرد أبَى عبارة البدل لكونه غير مستقل إذ لم يذكر خبر «أَنَّ» الأُولى، والخبر عند سيبويه محذوف وتقديره: «أنكم تبعثون إذا متم»، وهذا المقدر هو العامل في ﴿ إِذَآ ﴾، وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَيَعِدُكُم إذا متم وكنتم تراباً وعِظاماً أَنَكُم مُخرَجُونَ» بحذف ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الأولى. ويعنون بالإخراج النشور من القبور.

وقولهم: ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ استبعادٌ، وهذه كلمة لها معنى الفعل، التقدير: بَعُدَ كذا، فطوراً يليها الفاعل دون لام، تقول: هيهات مجيءُ زيد، أي: بَعُدَ ذلك، ومنه قول جرير:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ ... وَهَيْهَاتَ خِلٌّ بِالْعَقِيقِ نُوَاصِلُه[1]

وأَحياناً يكون الفاعل محذوفاً، وذلك عند اللام كهذه الآية، والتقدير: بَعُدَ الوجود

---

(١) البيت لجرير بن عطية الخطفي كما قال المؤلف، وهو من قصيدة له يرد على الفرزدق فيما كان بينهما، والرواية في الديوان:

فَأَيْهَاتَ أَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ ... وَأَيْهَاتَ وَصْلٌ بِالْعَقِيقِ تُوَاصِلُهْ

والبيت في اللسان (هيه)، والرواية فيه:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ ... وَهَيْهَاتَ خِلٌ بِالْعَقِيقِ نُحَاوِلُهْ

والعقيق: وادٍ بالعالية. قال في اللسان: «وهيهات: كلمة معناه البُعْد، والتاءُ مفتوحة مثلُ كيف وأصلها هاءٌ، وناسٌ يكسرونها على كل حالٍ بمنزلة نون التثنية».



لما توعدون، ومن حيث كانت هذه اللفظة بمعنى الفعل أَشبهت الحروف مثل «مَهْ» وغيرها، فلذلك بنيت على الفتح[1]، وهذه قراءة الجماعة بفتح التاءِ، وهي مفرد سُمِّي به الفعل في الخبر، أَي: بَعُدَ، كما أَن «شَتَّانَ» اسم «افترق»، وعُرْف تسمية الفعل أَن تكون في الأَمر كصَهْ وهَسْ[2].

وقرأَ أَبو جعفر: [هَيْهَاتِ] بكسر التاءِ غير منونة. وقرأَها عيسى بن عمر، وأَبو حيوة ـ بخلاف عنه ـ بتاءٍ مكسورة منونة، وهي على هاتين القراءَتين عند سيبويه جمع «هَيْهَاتَ»، وكان حقها أَن تكون «هَيْهَيَاتٍ» إلاَّ أَن ضعفها لم يقتض إظهار الياءِ، وقال سيبويه رحمه الله: هي مثل «بَيْضَات»، أَراد: «في أَنها جمع»، وظن بعض النحاة أَنه أَراد: «في اتفاق المفرد» فقال: واحد «هَيْهَاتٍ»: «هَيْهَه»، وليس كما قال، وتنوين عيسى أَراد التنكير، وتَرْك أَبي جعفر التنوين على إرداة التعريف. وقرأَ عيسى الهمداني: [هَيْهَاتْ هَيْهَاتْ] بتاءٍ ساكنة، وهي ـ على هذا ـ جماعة لا مفرد، وقرأَها كذلك الأَعرجُ، ورُويت عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو حيوة: [هَيْهَاتٌ] بتاءٍ مرفوعة منونة، وهذا على أَنه اسم معرب مستقل وخبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أَي: البُعْد لوعدكم، كما تقول: النجمُ لسعيكم[3]، ورُوي عن أَبي حيوة [هَيْهَاتُ] بالرفع دون تنوين، وقرأَ خالد بن إلياس: [هَيْهَاتاً هَيْهَاتاً] بالنصب والتنوين. والوقف على ﴿ ۞ هَيْهَاتَ ﴾ من حيث هي مبنيَّة بالهاءِ، ومن قرأَ بكسر التاءِ وقف بالتاءِ، وهي في اللفظة لغاتٌ: هَيْهَا، وهَيْهَاتَ،

(١) مذهب البصريين أن هذه الألفاظ (هيهات، وصَهْ، ومَهْ) وأمثالها أسماءٌ حقيقة ونابت عن الفعل في لفظه فهي بمعناه، وهي المعروفة بأنها «أسماءُ الأفعال»، ومذهب الكوفيين أنها أفعال حقيقة، وهذه الأسماء لا موضع لها من الإعراب، وهيهات اسم فعل ماض بمعنى بَعُد، كما أن «شَتَّان» بمعنى افترق، و«مَهْ» اسم فعل أمر بمعنى: انكَفِفْ عن فعل هذا الشيءِ.

(٢) «صَهْ»: اسم فعل أمر بمعنى اسكت، و«هَسْ»: اسم فعل أمر فيه زجر للغنم كما أن «عَدَسْ» زجرٌ للبغل، و«هَلا» للجواد.

(٣) قال أبو الفتح بن جنِّي: «من قال: هَيْهَاةٌ هَيْهَاةٌ فإنه يكتبها بالهاء لأن ذلك يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون أخلصها اسماً معرباً فيه معنى البعد ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيه كما بنى الناسُ غيره، وقوله تعالى: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر عنه، كأنه قال: البُعْد لوعدكم، كما يقول القائل: الخُلْف لموعدك. والأمر الآخر أن تكون مبنية على الضم، كما بنيت «نحنُ» عليه، ثم اعتقد فيه التنكير فلحقه التنوين». ولكن مذهب أبي عليٍّ الفارسي أنها تكتب بالتاء.



وهَيْهَان، وأَيْهَاتَ، وهَيْهَاتِ، وهَيْهَاتُ، وهيهاتٌ، وهَيْهَاهْ[(١)]، قال رؤْبة:

هَيْهَاتَ مِنْ مُنْخَرِقٍ هَيْهَاؤُهْ[(٢)]

وقرأ ابن أبي عبلة: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا تُوعَدُونَ] بغير لام.

وقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أرادوا أنه لا وجود لنا غير هذا الوجود، وإنما تموت منا طائفة فتذهب وتجيءُ طائفة جديدة، وهذا كفر الدهرية. و﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: بِمُصَدِّقينَ، ثم دعا عليهم نبيُّهم وطلب عقوبتهم على تكذيبهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى: قال الله تعالى لهذا النبي الداعي: عمَّا قليل يندم قومك على كفرهم حين لا ينفعهم الندم. ومن ذِكْر الصيحة ذهب الطبري إلى أنهم قوم ثمود، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: بما استحقوا بأفعالهم وبما حقَّ منا في عقوبتهم. و«الغُثَاءُ»: ما يحمله

---

(١) حكى بعض العلماء في «هيهات» ستاً وثلاثين لغة: هَيْهَاه، وأيْهَاه، وهيهات، وأيهات، وهيهَان، وأيْهان، وكل واحدة من هذه الست مضمومة الآخر ومفتوحته ومكسورته، وكل واحدة منونة وغير منونة، بل حكى بعضهم زيادة على ذلك: هيهاكَ، وأيْهَاكَ، وأيْهَاء، وأيهاه، وهيهاء، وهيهاه. (حاشية الصبان على شرح الأشموني).

(٢) هذا البيت من قصيدة لرؤبة بن العجاج يصف المفازة والسراب، يقول في مطلعها:

وَبَلَـدٍ عَـامِيَـةٍ أَعْمَـاؤه
كَـأَنَّ لَـوْنَ أَرْضِـهِ سَمَـاؤُهُ

والرواية في الديوان «في مُنْخَرِق» بدلاً من «مِنْ مُنْخَرِق»، قال أبو الفتح: «كأنه قال: بَعُد بُعْدُه، وهو كقولهم: جُنَّ جُنُونُهُ، وضلَّ ضَلالُه، وقولهم: موتٌ مائتٌ، وشِعْرٌ شاعِرٌ على طريقة المبالغة، وهَيْهَاؤهُ إذاً فَعْلالُهُ، كزَلْزَالِهِ وَقَلْقَالِهِ، والهمزة فيه منقلبة عن ياءٍ؛ لأنه من باب حاحَيْتُ وعَاعَيْت».

والبيت في اللسان (هيه)، وقد نسبه لِلْعَجَّاج، وذكر بعده عن ابن سِيدَه أن ابن جنِّي أنشده ولم يفسره، ثم قال ابن سِيدَه: «ولا أدري ما معنى «هيهاؤه»». وقد رأيت ما نقلناه عن ابن جني من توضيح للمراد بـ: هَيْهَاؤهُ. وبهذا فسَّره ابن بَرِّي أيضاً».



السيل من زَبَدِهِ ومعتاده الذي لا يُنتفع به، فَيُشَبَّهُ كل هامدٍ وتالفٍ بذلك. و﴿بُعْدًا﴾ منصوب بفعل متروك إظهاره.

ثم أَخبر تعالى عن أنه أَنشأ بعد هؤلاءِ أُمماً كثيرة، كل أُمَّة بأَجل وفي كتاب لا تتعداه في وجودها وعند موتها.

و﴿تَتْرَا﴾ مصدر بمنزلة فِعْل مثل الدعوى والعدوى ونحوهما، وليس ﴿تَتْرَا﴾ بفعل، وإنما هو مصدر من: تَوَاتَرَ الشيءُ، وقرأَ الجمهور: ﴿تَتْرَى﴾ كما تقدم، ووقفهم بالأَلف، وحمزة والكسائي يميلانها، قال أَبو حاتم: هي أَلف تأنيث[١]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [تَتْرًى] بالتنوين، ووقفهما بالأَلف، وهي أَلِف إلحاق[٢]، قال ابن سِيدَهْ: يقال: جاءُوا تَتْرَى وتَتْرًى، أَي متواترين، التاءُ مُبْدلة من الواو على غير قياس؛ لأَن قياس إبدال الواو تاءً إنما هو في «أفتَعَلَ» وما تَصَرَّف منها إذا كانت ياؤُه واواً، فإن فاءَه تنقلب تاءً وتُدغم في تاءِ «افْتَعَلَ»، وذلك نحو «اتَّزَنَ واتَّجَهَ».

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أَي: في الإهلاك. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يريد أَحاديث مَثَل[٣]، وقلَّما يستعمل الجعل حديثاً إلاَّ في الشَّرِّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا على بابها لترتيب الأُمور واقتضاء المُهْلَة، و«الآيَاتُ» التي جاء بها موسى وهارون هي اليَدُ والعصا اللتان اقترن بهما التحدي، وهما «السُّلْطَان المُبِيْن»، ويدخل في عموم اللفظ سائر آياتهما كالبحر والمرسلات السِّت[٤]، وأَما غير ذلك مما جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصة ببني إسرائيل.

---

(١) فهي بمنزلة الألف في «سَكْرَى وَغَضْبَى».

(٢) فهي بمنزلة الألف في «أرْطًى ومِعْزًى».

(٣) أي أحاديث عِبْرَة ومَثَل للآخرين، والأحاديث جمع أُحْدوثة وهي ما يُتحدث به، كأعاجيب جمع أُعجوبة وهي ما يُتعجب منه، ويجوز أن يكون الحديث بالخير إذا قُيِّد بذلك، فهو حديث حَسَن، قال ابن دريد:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

(٤) المرسلات السِّتُّ هي التي أرسلها الله عليهم وذكرها في سورة الأعراف، وهي: الطوفانُ والجرادُ والقُمَّل والضَّفادعُ والدَّمُ والرِّجْزُ.

و«الْمَلأُ» هاهنا: الجمع، يعمُّ الأشراف وغيرهم، و﴿ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ معناه: عن الإيمان لموسى وأخيه عليهما السلام لأنهم أَنِفوا من ذلك. و﴿ عَالِينَ ﴾ معناه: قاصدين العُلُوَّ بالظلم والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿ عَـٰبِدُونَ ﴾ معناه: خادمون مُتَذَلِّلُونَ، ومن هذا قيل لعرب الحيرة: العِبَادُ؛ لأَنهم دخلوا من بين العرب في طاعة كسرى، وهذا أَحد القولين في تسميتهم، والطَّريق المُعَبَّد: المذلَّل، وعلوُّ هؤلاءِ هو الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾(١). وقولُه: ﴿ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ يريد: بالغرق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾.

﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هو التوراة، و﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ يريد بني إِسرائيل لأَن التوراة إِنما نزلت بعد هلاك فرعون والقبط، والترجِّي في «لعل» في حيِّز البشر، أَي: كان من فعلنا معهم ما يرجو معه ابن آدم إِيمانهم وهداهم، والقضاءُ قد حكم بما حكم.

و«ابنُ مَرْيَم» عيسى عليه السلام، وقصتهما كلها آية عظمى بمجموعها، وهي آيات مع التفصيل، وأَخذها من كلا الوجهين متمكن، و«آوَى» معناه: ضَمَّ، واستعمال اللفظة في الأَماكن، أَي أَقررناهما، و«الرَّبْوَة»: المرتفع من الأَرض. وقرأَ جمهور الناس: [رُبْوَةٍ]، وقرأَ عاصم، وابن عامر بفتحها، وهي قراءَة الحسن وأَبي عبد الرحمن. وقر ابن عباس، ونصر عن عاصم بكسرها. وقرأَ محمد بن إِسحاق: [رُبَاوَةٍ] بضم الراءِ، وقرأَ الشهب العقيلي بفتحها، وقرأَت فرقة بكسرها، وكلها لغات قرىءَ بها. و«القَرَارُ»: المتمكن، فمعنى هذا أَنها مستوية بسيطة للحرث والغراسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: القرار هنا: الثمار والحبوب(٢).

ومعنى الآية أَنها من البقاع التي كملت خصالها فهي أَهلٌ أَن يُسْتَقَر فيها، وقد يمكن

---

(١) من الآية (٨٣) من سورة (القصص).

(٢) لأن الثمار والحبوب تعمل على الاستقرار في المكان.



أَن يُسْتَقرَّ على الكمال في البقاع التي ماؤُها آبارٌ، فَيَبِينُ بَعْدُ أَن ماءَ هذه الربوة يُرى معيناً جارياً على وجه الأَرض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كمال الكمال.

و«المَعِينُ»: الظاهرُ الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعايَن جريه، لا كالبئر ونحوه، وكذلك أَدخل الخليل هذه اللفظة في باب (ع ي ن)، وقد يحتمل أَن يكون من قولهم: «مَعَن الماءُ» إذا كثُر، ومن قولهم: المعنُ المعروف والجود، فالميم فاءُ الفعل، وأَنشد الطبري على هذا قول عبيد بن الأَبرص:

وَاهِيَـــــةٌ أَوْ مَعِيـــــنٌ مُمْعِـــــنٌ ... أَوْ هَضْبَـــةٌ دُونَهَـــا لُهُـــوبُ[1]

وقد قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله هاجر لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً»[2]، وهذا يحتمل الوجهين، وهذه الربوة هي الموضع الذي فرت إِليه مريم حين استحيت في قصة عيسى عليه السلام، وهو الذي قيل لها فيه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3]، هذا قول بعض المفسرين.

واختلف الناس في موضع الربوة ـ فقال ابن المسيب سعيد: هي الغوطة بدمشق ـ. وهذا أَشهر الأَقوال لأَن صفة الغوطة أَنها ذات قرار ومعين على الكمال. وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: هي الرملة في فلسطين، وأَسْنَدهُ الطبريُّ، عن كريب، عن مُرَّةَ البَهْزِيِّ،

---

(١) البيت من قصيدة عبيد المشهورة: «أَقْفَرَ من أَهلِهِ مَلْحُوبُ»، وهو من أبيات البداية التي صوَّر فيها المنازل المقفرة وتقلُّب صروف الدهر عليها، وقبل هذا البيت يقول عبيد:

عَيْنَـــاكَ دَمْعُهُـــا سَـــرُوبُ ... كَـــأَن شَـــأْنِيهِمَـــا شَعِيـــبُ

فهو يقول: إن دمع عينيك دائم الجريان، كأن عروق الدمع في رأسك قِرْبَة ماءٍ ممزقة، وسروب: دائمة السيلان، والشأن واحد الشئون وهي عروق تجري منها الدموع، والشَّعيب هي السقاءُ البالي، أو القربة الممزقة. ثم في بيتنا يصف القربة بأنها واهية، أي ضعيفة ممزقة، والمَعِينُ: الماءُ، والمُمْعِنُ: الجاري، واللُّهوب: جمع لِهْبٍ وهو الشِّعب في الجبل أو الفُرجة بين جبلين. والهَضْبَةُ: المكان المرتفع. وهو يقول: الماءُ يجري من هذه القربة الواهية كأنه الماءُ الجاري على وجه الأرض في سهولة، أو الماءُ الهابط من الهضبة العالية إلى شق منحدر في الجبل.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة، وأحمد في مسنده (١/٣٤٧)، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أُمَّ إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغْرِف من الماءِ ـ لكانت معيناً، وأقبل جرهم فقالوا: أتأذنين أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولا حقَّ لكم في الماءِ، قالوا: نعم».

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (مريم).



عن النبي ﷺ[1]، ويعارض هذا القول أن الرملة ليس يجري بها ماءٌ البتَّةَ، ذكره الطبري وضعَّف القول به، وقال كعب الأحبار: الرَّبوة بيت المقدس، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء، وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترجَّح أن الربوة في بيت لحم من بيت المقدس لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواءُ. وقال أبو زيد: الرَّبوة بأرض مصر، وذلك أنهارُبَى يجري فيض النيل إليها فيملأُ الأرض ولا ينال تلك الرُّبَى وفيها القرى وبها نجاتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا القول أنه لم يُرْوَ أن عيسى عليه السلام ومريم كانا بأرض مصر ولا حفظت لهما بها قصة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يا أيُّها الرسل، فتكون هذه بعض القصص التي ذَكَر، وكيف كان قول المعنى[2]، فلم يخاطبوا قطُّ مجتمعين وإنما خوطب كل واحد في عصره. وقرأت فرقة: الخطابُ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ لمحمد ﷺ، ثم اختُلف ـ فقال بعضهم: أقامه مقام الرسل، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾[3]، وقيل غير هذا مما لا يثبت مع النظر. والوجه في هذا أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزاً أن هذه المقالة قد خوطب بها كل نبي، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لتاجرٍ: يا تُجَّار ينبغي أن تجانبوا الرِّبَا، فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أن هذه

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مُرَّة البَهْزيِّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرَّمْلة الرَّبْوَة».

وأخرج الطبراني، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم، وابن عساكر ـ من طرق ـ عن الأقرع بن شفي العكي رضي الله عنه، قال: دخل عليَّ النبي ﷺ في مرض يعودني، فقلت: لا أحسب إلاَّ أني ميِّت من مرضي، قال: «كلاَّ، لتبقيَنَّ ولتُهَاجِرَنَّ منها إلى أرض الشام وتموت وتدفن بالربوة من أرض فلسطين»، فمات في خلافة عمر رضي الله عنه ودفن بالرملة.

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في هذه الجملة، ففي بعضها: «فكيف بأمور من المعنى»، وفي بعضها: «وكيف ما تحول المعنى».

(٣) من الآية (١٧٣) من سورة (آل عمران).



المقالة تصلح لجميع صنفه، وقال الطبريُّ: الخطاب بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ ﴾ لعيسى عليه السلام، ورُوي أنه كان يأكل من غزل أُمه، والمشهور أنه كان يأكل من بقل البريَّة، ووجه خطابه لعيسى عليه السلام ما ذكرناه من تقديره لمحمد ﷺ.

و«الطَّيِّبَاتُ» هنا: الحلالُ بِلَذَّة وبغير ذلك[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ تنبيه على التحفظ، وضرب من الوعيد بالمباحثة، صلى الله على جميع أَنبيائه ورسله، وإِذا كان هذا معهم فما ظنُّ كل الناسِ بأَنفسهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ ﴾ بكسر الأَلف وشدِّ النون. وقرأَ ابن عامر: [وَأَنْ هَذِهِ] بفتح الأَلف وتخفيف [أَنْ]. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [وَأَنَّ هَذِهِ] بفتح الأَلف وتشديد [أَنَّ]. فالقراءَة الأُولى بيِّنَةٌ على القطع، وأَما فتح الأَلف وتشديد النون فمذهب سيبويه أَنها متعلقة آخراً بـ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ على تقدير: «لأَن»، أَي: فاتَّقُونِ لأَنَّ أُمتكم أُمَّة واحدة وأَنِّي ربكم، وهذا عنده نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[2]، و[أَنَّ] عنده في موضع خفض، وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض، وقد عكس هذا الذي نسبتُ إِليهما بعضُ الناس. وقال الفراءُ: [أَنَّ] متعلقة بفعل مضمر تقديره: واعلموا أَو احفظوا.

وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: [أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ] بالرفع على البدل. وقرأَ نافع، وعاصم، وأَبو عمرو: ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ بالنصب على الحال، وقيل على البدل من [هَذِهِ]، وفي هذا نظر.

وهذه الآية تقوِّي أَن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ ﴾ إِنما هو مخاطبة لجميعهم، وأَنه

---

(١) كذلك اختلفت الأصول في كتابة هذه الجملة، ففي بعضها «الحلال ملذة وغير ذلك».

(٢) الآية (١٨) من سورة (الجن).



بتقدير حضورهم، وتجيءُ هذه الآية بعد ذلك بتقدير: وقلنا للناس، وإذا قدرت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ قَلِقَ اتصالُ هذه واتصالُ قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، أما إن قوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأُممهم داخلون فيه بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾، ومعنى «الأُمَّة» هنا المِلَّة والشريعة[1]، والإشارة بـ﴿ هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى الحنيفية السمحة ملَّةِ إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام. وقوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ يريد الأمم، أي: افترقوا، وليس بفعل مطاوع كما تقول «تقطَّع الثوبُ»، بل هو فعل متعد بمعنى «قطعوا»، ومثله تجهَّمني الليل، وتخوَّفني السَّيْر، وتَعرَّفني الزمن.

وقرأ نافع: ﴿ زُبُرٗاۖ﴾ بضم الزاي والباءِ، جمع زبور. وقرأ الأعمش، وأبو عمر ـ بخلاف ـ: [زُبَرًا] بضم الزاي وفتح الباءِ. فأَما الأُولى فتحتمل معنيين: أَحدهما أَن الأُمم تنازعت أَمرها كُتُباً منزلة، فاتبعت فرقة الصُّحف وفرقة التوراة وفرقة الإنجيل، ثم حَرَّفَ الكلُّ وبدَّل، وهذا قول قتادة، والثاني أَنهم تنازعوا أَمرهم كُتباً وضعوها وضلالات أَلَّفوها، وهذا قول ابن زيد، وأَما القراءة الثانية فمعناها: فِرَقاً كزُبَر الحديد.

ثم ذكر تعالى أَن كل فريق منهم معجب برأيه وضلالته، وهذا غاية الضلال؛ لأَن المرتاب بما عنده ينظر إلى طلب الحق، ومن حيث كان ذكر الأُمم في هذه الآية مثالاً لقريش خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام في شأنهم متصلاً بقوله: ﴿ فَذَرۡهُمۡ﴾، أَي: فذَرْ هؤلاءِ الذين هم بمنزلة من تقدم. و«الغَمْرَةُ»: ما عمَّهم من ضلالهم وفَعَلَ به مفعل الماءِ الغَمْرِ[2] بما حصل فيه، وقرأَ أَبو عبد الرحمن: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ﴾. و﴿ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى وقت فتح فيهم غير محدود. وفي هذه الآية موادعة منسوخة بآية السيف.

ثم وقفهم على خطأَ رأْيهم في أَن نعمة الله عندهم بالمال ونحوه إنما هي لرضاه عن حالهم، وبيَّن تعالى أَن ذلك إنما هو إملاءٌ واستدراج، وخبر [أَنَّ] في قوله: ﴿ نُسَارِعُ﴾.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ نُسَارِعُ﴾ بنون العظمة، وفي الكلام ـ على هذه القراءَة ـ ضمير

---

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، وقول النابغة:

حَلَفْـتُ فَلَـمْ أَتْـرُكْ لِنفسِـكَ ريبَـةً   وهَـلْ يَـأْثَمَـنْ ذُو أُمَّـةٍ وَهْـوَ طَـائِـعُ؟

(٢) الماءُ الغَمْرُ: الماءُ الكثير لأنه يغْمُر وجه الأرض، أي يغطيها، والمراد هنا أن الغفلة والضلالة قد غطت على قلوبهم.

عائد تقديره: «لَهُمْ بِهِ»[(١)]. وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة[(٢)]: [يُسَارِعُ] بالياءِ وكسر الراءِ بمعنى أَن إمدادنا يسارع، ولا ضمير مع هذه القراءَة إلاَّ ما يتضمن الفِعْل[(٣)]، ورُوي عن أَبي بكرة المذكور [يُسَارِعُ] بفتح الراءِ، وقرأَ الحرُّ النحوي: [نُسْرِعُ] بالنون وسقوط الأَلف، و«الْخَيْرَات» هنا تعم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وعيد وتهديد، و«الشُّعور» مأْخوذ من الشِّعار وهو ما يلي الإِنسان من الثياب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

لما فرغ من ذِكر الكفرة وتوعُّدهم عقَّب ذلك بذكر المؤمنين ووعدهم، وذكر ذلك بأَبلغ صفاتهم. و«الإِشْفَاقُ» أَبلغ التوقع والخوف، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ﴾ لبيان جنس الإِشفاق، والإِشفاقُ إِنما هو من عذاب الله تعالى، و«مِنْ» في قولنا: «مِنْ عذاب الله» هي لابتداءِ غاية.

و«الآيَةُ» تعمُّ القرآن وتعمُّ العِبَر والمصنوعات التي لله تعالى وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار.

وَفِــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ . . . .[(٤)]

---

(١) وقد حذفت «بِهِ» للعلم بها، وهذا كما حذف الضمير في قولهم: «السَّمن مَنَوَان بدرهم»، أي: مَنَوَان منه بدرهم، وكأن [بِهِ] المتقدمة في الصلة من قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِ﴾ قد صارت عوضاً أو مغنية عن الثانية.

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي، أول مولود بالبصرة، روى عن أبيه، وروى عنه ابن سيرين وجماعة، وثَّقه ابن حجر العسقلاني، من الثانية، واسمه نُفَيع ـ بالتصغير ـ ابن الحارث. مات سنة ست وثلاثين، وقيل: بل سنة ست وثلاثين بعد المائة. «تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«خلاصة تذهيب الكمال».

(٣) أي: لا حاجة إلى تقدير الضمير، لأن في الفعل ضميراً يعود على [ما] في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ﴾. قال ذلك أبو الفتح بن جني في المحتسب.

(٤) هذا صدر بيت معروف متداول، وهو بتمامه:

=



ثم ذَكَرَهُم تعالى من الطرف الآخر وهو نَفْي الإشراك؛ لأَن لِكُفَّار قريش أَن يقولوا: ونحن نؤمن بآيات ربنا، ونريد أَن نصدق بأنه المخترع الخالق، فذكر تعالى نفي الإشراك الذي لا حظَّ لهم فيه بسبب أَصنامهم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ على قراءة الجمهور معناه: يُعطون ما أَعطوا، وقال الطبري: يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما ضمَّهم إلى هذا التخصيص أَن العطاءَ مستعمل في المال على الأَغلب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جبير: هو عامٌّ في جميع أَعمال البرِّ، وهذا حسن، كأَنه قال: والذين يُعطون من أَنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم. وقرأَت عائشة أُم المؤمنين، وابن عباس، وقتادة، والأَعمش: «يَأْتُونَ مَا أَتَوْا»، ومعناه: يفعلون ما فعلوا، ورويت هذه القراءَة عن النبي ﷺ[٢]. وذهبت فرقة إلى أَن معناه: من

= وَفِــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ ... تَــدُلُّ عَلَــى أَنَّــهُ الْــوَاحِــدُ

(١) وقيل: ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشِّرْك لله؛ لأن ذلك داخل في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، بل المراد نفي الشِّرْك للحق، وهو أن يخلصوا في العبادة، فلا يقدم عليها المؤمن إلا خالصة لوجه الله وطلباً لرضوانه.

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد والبخاري في تاريخه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أشته وابن الأنباري معاً في «المصاحف»، والدارقطني في «الأفراد»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ يقرأُ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أو ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوا﴾؟ فقالت: أيهما أحبُّ إليك؟ قلت: والذي نفسي بيده لإحداهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً، قالت: أيهما؟ قلت: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوا﴾، فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، ولكن الهجاءَ حُرِّف. «الدُّرُّ المنثور».

ولنا وقفة أمام هذا وخصوصاً ما ذكر عن تحريف الهجاء؛ لأنه لو كان الأمر أمر تحريف لما غفل عنه القراءُ والمحققون، لأنهم أصحاب غيرة على القرآن بالذات، وعلى الحقيقة في أي روايةٍ، وهم دائماً يتحرون وجه الصواب في كل ما يُروى ويُنقل حتى ولو كان في غير القرآن، وإذاً فالأمر أمر رواية لا تحريف.

ولو كان الأمر أمر تحريف فلنا أن نسأل: هل وقع هذا التحريف في بعض المصاحف أم في كل المصاحف؟ لو أن هذا التحريف وقع في بعض المصاحف فكيف اتفق عليه كل القراء أو أكثرهم بهذه الصورة؟ وكيف لم يقرأ «بالصواب» إلا قلة ضئيلة؟ هل يعقل أن تتفق الكثرة على الخطأ وأن يكون =

المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها، وهذا أمدح، وأسند الطبري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: قلتُ: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ الذي يزني ويسرق؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبُه وجل يخاف ألاَّ يُتقبل منه»(١).

= الصواب موضع اتجاه القلة؟ ولو أن هذا التحريف وقع في جميع المصاحف لما كان تحريفاً، بل هو اتفاق وإجماع، ولا يمكن أن نقول عنه تحريف.

ولو تصورنا أن التحريف واردٌ في ﴿ءَاتوا﴾ لأن الفرق بين رسم المدة فوق الألف فيها وبين رسم الهمزة في ﴿أَتَوا﴾ لما كان وارداً أبداً في قوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ﴾، لأن الفرق في الرسم بينها وبين الرسم في ﴿يَأْتُونَ﴾ واضح قوي لا يتأتى معه الخطأ من القارىء وبخاصة في القرآن الكريم.

ومن ناحية أُخرى يقول الفراءُ: «ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشة رضي الله عنها لم تخالف قراءَة الجماعة، لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب، فيكتب «سُئِلَ الرجلُ» بألف بعد السين، و«يستهزئون» بألف بين الزاي والواو، «شيءٌ» و«شيءٍ» بألف بعد الياء، فغير مُسْتَنْكَر أن يكتب «يُؤْتُون» بألف بعد الياء، وكلام الفراءِ يوضح أمرين: أولهما أنه يَشُكُّ في صحة الرواية بدليل قوله: «لو صحَّت»، والثاني أنه يبين السبب في رسم الهمزة على ألف بعد الياءِ بأن هذه قاعدة يلتزمها بعض العرب، وعليه فتكون القراءة للرَّسْم بالألف هي كالقراءة للرسم بالواو.

وإذا تأملنا في رواية ابن جرير الطبري في تفسيره نراه ينقلها عن أبي خلف، وفيها يقول: «دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فسألها عبيد: كيف نقرأ هذا الحرف ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾، فقالت: ﴿يَأْتُونَ مَا أَتَوا﴾، وكأنها تأولت في ذلك: والذين يفعلون ما يفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله. وليس فيها أنها سألته وأنه أجاب، ثم قالت: أشهد... الخ.. لأنه من غير المعقول أن تسأل عائشة رضي الله عنها أحداً مثل هذا السؤال، والقرآن ليس على هوى الناس، فهو توقيف من الله فكيف نجعله عرضة للأهواء والميول؟ هذا السؤال نفسه يجعلنا نشك في هذه الرواية، ونؤيد رواية أبي خلف التي ينص فيها على أن عائشة رضي الله عنها تأولت الآية، فهو فهم منها وتأويل. وقد روي الحديث عن أبي مُلَيْكَة أنها قالت: لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبُّ إليَّ من حُمر النعم، فقال لها ابن عباس رضي الله عنهما ما هي؟ فقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ هكذا في «الدر المنثور». فكيف نجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى، مع ملاحظة أن كلمة التحريف والتصحيف كلمة عُرفت وأُلفت بعد عائشة رضي الله تعالى عنها، فلم تكن الكتابة والقراءة في أيامها بالكثرة التي حدثت بعد ذلك ودخل فيها التحريف والتصحيف كما اتفق عليه المحققون. فهو في رأينا اصطلاح لاحق ورد على ألسنة بعض الناس وليس من صلب الحديث، وصحيح أنها وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ولكن من الصحيح أيضاً أن عائشة رضي الله عنها لا يمكن أن تقصد هذا المعنى الذي أوردته الآية الكريمة، والله أعلم».

(١) رواه أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والذهبي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وزاد أن ممن رواه عبد بن حميد، وابن جرير، والفريابي، وابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا نظر مع الحديث.

و«الوَجَلُ» نحو الإِشفاق والخوف، وصورة هذا الوجل أَمَّا المخلِّط فينبغي أَن يكون أَبداً تحت خوف من أَن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وأَما التَّقي التائب فخوفه من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله سبحانه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة. وقال الحسن: معناه: الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون أَلاَّ يُنجيهم ذلك من عذاب ربهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة حسنة.

ورُوي عن الحسن أَيضاً أَنه قال: المؤمن يجمع إِحساناً وشفقة، والمنافق يجمع إِساءَةً وأَمْناً.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الأَلف، والتقدير: بأَنَّهم أَو لأَنهم أَو من أَجل أَنهم، ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿وَجِلَةٌ﴾ عاملاً في [أَنَّ] من حيث هي بمعنى: خائفة. وقرأَ الأَعمش: [إِنَّهُمْ] بكسر الأَلف على إِخبارٍ مقطوع في ضمنه تخويف.

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم يبادرون إِلى فعل الخيرات، وقرأَ الجمهور: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وقرأَ الحُرُّ النحوي: [يُسْرِعُون] و«أَنَّهُمْ إِلَيْهَا سَابِقُونَ»، وهذا قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه: من أَجلها سابقون، فالسباق ـ على هذا التأْويل ـ هو إِلى رضوان الله، وعلى الأَول هو إِلى الخيرات، وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: سبقت لهم السعادة في الأَزل فهم لها، ورجحه الطبري بأَن اللام متمكنة في المعنى[1].

(١) ورجح القرطبي وأبو حيان الأندلسي أن اللام بمعنى «إلى»، وهي كاللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي أوْحَى إليها، وأنشد سيبويه شاهداً لذلك قول الأعشى:

تَجَانَفُ عَنْ جَوِّ اليَمَامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائِكَا

أي: إلى سواك، والتجانف: الميْل.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ نَسْخٌ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق على الحقيقة، وتكليف ما لا يُطاق أربعة أَقسام: ثلاثة حقيقة ورابع مجازي، وهو الذي لا يطاق الاشتغال بغيره مثل الإيمان للكافر والطاعة للعاصي، وهذا التكليف باقٍ وهو تكليف أَكثر الشريعة، وأَما الثلاثة فورد اثنان منها، وفيها وقع النسخ المحال عقلاً في نازلة أَبي لهب والمحال عادة في قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾[(١)] الآية، والثالث لم يرد فيه شيءٌ، وهو النوع المهلك لأَن الله تعالى لم يكلفه عباده، فأَما قتل القاتل ورجم الزاني فعقوبته بما فعل، وقد مضى القول مستوعباً في مسأَلة تكليف ما لا يطاق في سورة البقرة[(٢)]، وفي قولنا «ناسخ» نظر من جهة التواريخ وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة، والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أَظهر ما قيل فيه أَنه أَراد كتاب إِحصاءِ الأَعمال الذي ترفعه الملائكة، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ تهديدٌ وتأْنيس من الحيف والظلم، وقالت فرقة: الإِشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ﴾ إِلى القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يحتمل، والأَول أَظهر.

وقوله تعالى: ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ يريد: في ضلال قد غمرها كما يفعل الماءُ الغَمْرُ بما حصل فيه، وقوله سبحانه: ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى القرآن، ويحتمل [أَن يشير][(٣)] إِلى كتاب الإِحصاءِ، ويحتمل أَن يشير إِلى الأَعمال الصالحة المذكورة قبل، أَي: هم في غمرة من اطِّراحها وتركها، ويحتمل أَن يشير إِلى الدين بجملته، أَو إِلى محمد ﷺ، وكل تأْويل من هذه قد قالته فرقة.

---

(١) من الآية (٢٨٤) من سورة (البقرة).

(٢) راجع المجلد الثاني صفحة (١٣٨) وما بعدها. وهناك وضحنا المراد بنازلة أبي لهب وعلَّقنا على كثير من الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله.

(٣) زيادة يحتاج إليها التعبير.



وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الغَمْرة والضلال المحيط بهم، فمعنى الآية: بل هم ضالُّون معرضون عن الحق، وهم ـ مع ذلك ـ لهم سعايات فساد، فوسمهم تعالى بحالتي شرٍّ، قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية، وعلى هذا التأْويل فالإخبار عما سلف من أَعمالهم وعمَّا هم فيه. وقالت فرقة: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ فكأَنه قال: لهم أَعمال من دون الحق أَو القرآن ونحوه، وقال الحسن بن أَبي الحسن ومجاهد: إنما أَخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ عما يُستأْنف من أَعمالهم، أَي أَنهم لهم أَعمال من الفساد سيعملونها.

و﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ ابتداءٍ لا غير، و﴿إِذَآ﴾ الأُولى و﴿إِذَآ﴾ الثانية[1] ـ التي هي جواب ـ تمنعاه من أَن تكون غاية لـ﴿عَٰمِلُونَ﴾.

و«المُتْرَفُ» هو المنعَّم في الدنيا الذي هو منها في سَرَف، وهذه حال شائعة في رؤَساء الكفرة من كل أُمة.

و﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكثر استعمال الجأر في البشر، ومنه قول الأَعشى:

يــــرَاوِحُ مِــــنْ صَلَـــوَاتِ الْمَلِيـ ـــكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوراً جُؤَارا[2]

وذهب مجاهد وغيره إلى أَن العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بدر، وفيه نقد على مترفيهم. والضمير في قوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾ يعود على «المُترفين» فقط لأَنهم صاحوا حين نزل بهم الهزم والقتل يوم بدر، ويحتمل أَن يعود على الباقين بعد المُعَذَّبين، وقد حكى

---

(١) نصُّ الكلام في الأصول «وإذا والثانية هي جواب».

(٢) البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معد يكرب، وقبله يقول:

وَمَـــا أَيْبُلِـــيٌّ علـــى هَيْكَـــلٍ بَنَــاهُ وَصَلَّـــبَ فِيــهِ وَصَــارَا

والأَيْبُلِيُّ هو الراهب الذي يحمل العصا التي يضرب بها الناقوس وتسمى الأَيْبُل، ويُرَاوح بين الأمرين: يفعل هذا مرَّةً ويفعل هذا مرَّةً، والجُؤَار: رفع الصوت مع تضرع واستغاثة، والجُؤَار كالخُوَار، معناهما واحد، وجواب قوله: «وَمَا أَيْبُلِيٌّ..» يأتي في بيت ثالث يقول فيه: «بأَعْظَمَ مِنْهُ تُقًى في الحِسَابِ»، فالأعشى يقول عن ممدوحه الذي وصفه قبل ذلك بالكرم والشجاعة: إنه تَقِيٌّ يرعى الله ويخافه، ويتضرع إليه في صلواته، وحتى الراهب المنقطع للعبادة والصلاة، والذي لا يكف عن السجود والجؤار لله ليس بأتقى من قيس هذا. والمؤلف يستشهد بالبيت على أن الجؤار هو رفع الصوت بالدعاء، وأنه يوصف به البشر كما يوصف به البقر.

ذلك الطبري عن ابن جريج، قال: المُعَذَّبون: قتلى بدرٍ، والذين يجأرون: أهل مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

المعنى: يقال يوم العذاب عند حلوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، وهذا القول يجوز أن يكون حقيقة، أي تقول لهم ذلك الملائكة، ويحتمل أن يكون مجازاً، أي: لسانُ الحال يقول ذلك، وهذا على أن الذين يجأرون هم المعذبون، وأما على قول ابن جريج فلا يحتمل أن تقول ذلك الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية يريد بها القرآن. و﴿تَنكِصُونَ﴾ معناه: ترجعون وراءكم، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «على أدباركم تَنْكُصُونَ» بضم الكاف وبذكر الأدبار بدلاً من الأعقاب. و﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حالٌ، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ قال الجمهور: هو عائد على الحَرَم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكرٌ لشهرته في الأمر، والمعنى: إنكم تعتقدون في أنفسكم أن لكم بالمسجد والحَرَم أعظمَ الحقوق على الناس والمنازل عند الله، فأنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبارُ من الحق، وقالت طائفة: الضمير «في ﴿بِهِۦ﴾»[٢] عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات، والمعنى: يُحدث لكم سماع الآيات كفراً وطغياناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ جيِّد.

وذكر مُنذر بن سعيد أن الضمير لمحمد ﷺ، وهو متعلق بما بعده، وكأن الكلام تمَّ في قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

---

(١) وبهذا يكون قد جمع بين الرأيين الواردين في معنى الآية، والذين يعرفان من كلام المؤلف رحمه الله.

(٢) في الأصول: الضمير عائد على القرآن.



وقوله: ﴿سَـٰمِرًا﴾ حالٌ، وهو مفرد بمعنى الجمع[١]، يقال: قومٌ سَمْرٌ وسُمَّرٌ وسَامِرٌ، ومعناه سَهَرُ الليل، مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأَشخاص[٢] من ضوء القمر، فكانت العرب تجلس للسَّمر تتحدث[٣]، وهذا أَوجب معرفتها بالنجوم؛ لأَنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع مع الغوارب. وقرأَ الجمهور: ﴿سَـٰمِرًا﴾، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [سُمَّاراً]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وابن محيصن: [سُمَّراً][٤]، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

مِـــنْ دُونِهِـــمْ إِنْ جِئْتَهُـــمْ سَمَـــراً ... عَــزْفُ الْقِيَــانِ وَمَجْلِـسٌ غَمْــرُ[٥]

وكانت قريش تسْمُر حول الكعبة مجالسُ في أَباطيلها وكفرها. وقرأَ الجمهور: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح التاءِ وضم الجيم، واختلف المتأَولون في معناها ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناها: تَهْجُرون الحقَّ وذِكْرَ الله تعالى، من الهَجْر المعروف، وقال ابن زيد: هو من هَجَرَ المريضُ إِذا هَذَى، أَي: تقولون اللَّغْوَ من القول، وقاله أَبو حاتم. وقرأَ نافع وحده من السبعة: [تُهْجِرُونَ] بضم التاءِ وكسر الجيم، وهي قراءَة أَهل

---

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، وكقول العرب: الحَاضر، وهم القوم النازلون على الماء، والبَاقِرُ لجمع البقر، والجمال لجمع الإِبل، للذكور والإناث.

(٢) نقل القرطبي كعادته كلام ابن عطية هنا ولم يشر إليه، وذكر كلمة «الأشجار» بدلاً من «الأشخاص».

(٣) كانت تجلس تتحدث حول الكعبة في ضوءِ القمر أو في سَمَره، فسُمِّيَ التَّحَدُّث سَمَراً.

(٤) أما قراءة أبي رجاءٍ ﴿سُمَّاراً﴾ فهي مثل كاتِبٍ وكُتَّاب، وشارب وشُرَّاب، وأما قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم [سُمَّراً] فقد قرأ بها أيضاً عبد الله بن مسعود والسُّمَّر: جمع سامِرٍ، والسَّامِرُ: القوم يَسْمُرون، قال ذو الرُّمَّة:

وَكَـمْ عَـرَّسَـتْ بَعْـدَ السُّـرَى مِـنْ مُعَـرَّسٍ ... بِـهِ مِـنْ كَـلامِ الْجِـنِّ أَصْـوَاتُ سَـامِـرِ

يتحدث عن الناقة، والتَّعْرِيس: النزول آخر الليل للنوم والراحة.

(٥) البيت في اللسان (سمر) ـ ذكره مرتين، في المرة الأولى استشهد به على أنَّ السَّمَر هو حديث الليل، ورواه كما رواه ابن عطية هنا، ولم يَنْسُبْه، ثم عاد وذكره مرة ثانية شاهداً على أن السَّمَر هو الليل، ونسبه إلى ابن أحمر، ولفظه:

مِـــنْ دُونِهِـــمْ إِنْ جِئْتَهُـــمْ سَمَـــراً ... حَـــيٌّ حِـــلالٌ لَمْلَـــمٌ عَكِـــرُ

فالسَّمِرُ هنا: الليل، والحيُّ الحِلالُ ـ بكسر الحاء ـ هم القوم النازلون على الماء أو نحوه، ولَمْلَمٌ: كثير مجتمع، والعَكِرُ: الكثير المتراكم بعضه فوق بعض أو المجتمع بعضه إلى بعض، أما المجلسُ الغَمْرُ ـ على رواية المؤلف ـ فهو الجماعة الكثيرة يجتمعون للحديث والسَّمَر.

المدينة، وابن محيصن، وابن عباس أيضاً، ومعناه: تقولون الفُحْش والهُجْر من القول، وهذه إشارة إلى سبِّهم رسول الله ﷺ وأَصحابه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وغيره، وفي الحديث: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً»(١)، وقرأ ابن محيصن، وأَبو نهيك [تُهَجِّرُونَ] بضم التاءِ وفتح الهاءِ وشدِّ الجيم مكسورة، وهو تضعيف هَجَر وتكثير الهَجْر أَو الهُجْر على المعنيَيْن المتقدمين، وقال ابن جني: لو قيل إن المعنى أَنكم تبالغون في المهاجرة حتى إنكم وإن كنتم سُمَّراً بالليل فكأَنكم تُهَجِّرون في الهَاجِرَةِ على غاية الافتضاح لكان وجهاً(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا تكون هذه القراءة تكثير «تُهْجِرُونَ» بضم التاءِ وكسر الجيم لأَن أَفعل لا يتعدى ولا يُكَثَّر بتضعيف؛ إذ التضعيف والهمزة متعاقبان.

ثم وبخهم على إعراضهم بعد تدبُّر القول لأَنهم ـ بعد التدبر والنظر الفاسد ـ قال بعضهم: شِعْرٌ، وقال بعضهم: سِحْرٌ، وسائر ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَآءَهُم﴾ كذلك توبيخ أيضاً، والمعنى: أَأَبْدَعَ لهم أَمراً لم يكن في الناس قبلهم؟ بل قد جاءَ الرسلُ قَبْلُ كنوح وإِبراهيم وإِسماعيل عليهم السلام، وفي هذا التأْويل من التجوز أَن جعل سالف الأُمم آباءَ؛ إذ الناس في الجملة آخرهم من أَولهم.

---

(١) أخرجه النسائي في الجنائز، ومالك في الموطأ في الضحايا، وأحمد في مسنده (٣/ ٦٣، ٦٦، ٢٣٧، ٢٥٠، ٥، ٣٦١)، ولفظه في مسند أحمد عن محمد بن عمرو بن ثابت عن أبيه، قال: مرَّ بي ابن عمر رضي الله عنهما فقلت: من أين أصبحت غادياً أبا عبد الرحمن؟ ـ وفي رواية أين تريد يا أبا عبد الرحمن؟ ـ قال: إلى أبي سعيد الخدري، فانطلقت معه، فقال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إني نهيتكم عن لحوم الأضاحي وادخاره بعد ثلاثة أيام، فكلوا وادَّخروا فقد جاء الله بالسَّعة، ونهيتكم عن أشياءَ من الأشربة والأنبذة، فاشربوا، وكلُّ مسكر حرام، ونهيتكم عن زيارة القبور، فإن زرتموها فلا تقولوا هُجْراً»، والحديث في لسان العرب (هجر)، وقد نقل بعد أن ذكر الحديث أن الكسائي والأصمعي قالا: الهُجْر: الإفحاش في المنطق والخَنَا، وهو بالضَّمِّ من الإهجار، ويقال منه: يُهْجِرُ.

(٢) ومن كلام ابن جني الذي ذكره لتوضيح رأيه: «فهذا كقولك لصاحبك: أنت مُساتراً مُعْلن، وأنت مُحْسناً مُسيءٌ، أي: أنت في حال مُسَاترتك مُعْلن، وأنت في حال إحسانك عندي مسيءٌ». وقياساً على ذلك يقال: أنت في حال سَمَرك ليلاً مُهَجِّر، أي كأنك تفعل الشيء الفاضح في وقت الهاجرة ولو كنت في سواد الليل لأنك مجاهر لا تحتشم.

ويحتمل اللفظ معنى آخر على أن يُراد بآبائهم الأولين مَن فرَطَ من سلفهم في العرب، كأنه قال: أفلم يَدَّبَّروا القول أم جاءَهم أمر غريب من عند الله لم يأت آباءَهم فبهر عقولهم، ونَبَتْ عنه أذهانُهم، فكأن التوبيخ يتَّسق بأن يُقدَّر الكلام: أفلم يدَّبَّروا أم بُهرت عقولهم ونَبَت أذهانهم عن أمر من أُمور الله غريب في سلفهم؟ والمعنى الأول أبين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

هذا أيضاً توبيخ، والمعنى: ألم يعرفوه صادقاً مدة عمره ولم يقع قط منهم إنكار لمعرفة وجه محمد ﷺ، وإنما أنكروا صدقه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ توبيخٌ أيضاً لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاءَ به وبين ذي الجِنَّة لا يخفى على ذِي فِطْرة. ثم بيَّن تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في مجيئه بالحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، قال ابن جريج وأبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس من نَمَط الآية. وقال غيرهما: الحقُّ هنا: الصوابُ والمستقيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأحرى، على أن يكون المذكور قَبْلُ[1] الذي جاءَ به محمد رسول الله ﷺ، ويستقيم ـ على هذا ـ فساد السموات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء، وذلك أنهم جعلوا لله شركاءَ وأولاداً، ولو كان هذا حقّاً لم تكن لله تبارك وتعالى الصِّفاتُ العليَّة، ولو لم يَكُن له لم تكُن له تلك الصنعة ولا القدرة، وكان ذلك فساد السموات والأرض ومن فيهن، ومن قال إن الحق في الآية الله تعالى تشعَّبت له

---

(١) في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.



لفظة ﴿اتَّبَعَ﴾ وصعُب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية؛ لأن لفظة الاتِّباع ـ على كلا الوجهين ـ إنما هي استعارة بمعنى أن تكون أهواؤُهم يصونها الحقُّ ويُقَرِّرها، فنحن نجد الله تعالى قد قدَّرَ كُفْر أُمَم وأَهواءَهم، فليس في ذلك فساد سموات، وأما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبْق أهوائهم لفسد كلُّ شيءٍ، فتأَمَّلْهُ.

وقرأ ابن وثاب: [وَلَوُ اتبَعَ] بضم الواو، قال أبو الفتح: الضَّمُّ في هذه الواو قليل، والوجه تشبيهها بواو الجمع كقوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾ يحتمل أن يريد: بوَعْظِهِم والبيان لهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ[2] قتادة: [نُذَكِّرُهُمْ] بنون مضمومة وذال مفتوحة وكسر الكاف مشددة[3]. ويحتمل أن يريد: بِشَرَفهم، وهو مروي. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق: [أَتَيْتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ] بضم تاءِ المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: [بَلْ أَتَيْتَهُمْ] خطاباً لمحمد ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ أي جئناهم، ورُوي عن أبي عمرو ﴿آتَيْنَاهُم﴾ بالمدِّ، بمعنى أعطيناهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذا توبيخ لهم كأنه قال: أَم سأَلناهم مالاً فقلقوا لذلك واستثقلوك من أَجله؟

وقرأ حمزة والكسائي: [خَرَاجاً فَخَرَاجُ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿خَرۡجٗا فَخَرَاجُ﴾. وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: [خَرْجاً فَخَرْجُ]، وهو المال الذي يُجْبَى ويُؤْتَى به لأَوقاف محدودة، قال الأَصمعي: الخَرْجُ الجُعْل مرة واحدة، والخَرَاجُ ما تَرَدَّد لأَوقات مَّا.

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (البقرة). وذلك أنهم حركوا الواو بالضم لالتقاء الساكنين لأنها واو جمع، على أن بعضهم قد شبه واو الجمع في ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ بواو ﴿لو اتبع﴾ هذه وحركها بالكسر فقرأ: ﴿ٱشۡتَرَوِاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾. راجع المحتسب لابن جني.

(٢) في الأصل: وقال قتادة. وفي بعض النسخ سقطت الكلمة فليس فيها قال ولا قرأ.

(٣) أي مع الفعل ﴿أَتَيۡنَٰهُم﴾ بمعنى جئناهم، وهي قراءة الجمهور.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا فرق استعمالي، وإلاَّ فهما في اللغة بمعنى، وقد قرئ [خَرَاجاً] في قصة ذي القرنين(١).

وقوله: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ يريد ثوابُه، سمَّاهُ خراجاً من حيث كان معادلاً للخراج في هذا الكلام، ويحتمل أن يريد بخراج ربك رِزقَ ربك، ويؤيد هذا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. و«الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»: دين الإسلام. و﴿ناكبون﴾ معناه: عادلون ومعرضون.

ثم أَخبر الله تعالى عنهم أَنهم لو زال عنهم القحط ومَنَّ الله عليهم بالخصب ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولَجُّوا في طغيانهم. وهذه الآية نزلت في المدة التي أَصابت فيها قريشاً السنون الجدبة والجوع الذي دعا به رسول الله ﷺ في قوله: «اللَّهم سبعاً كسني يوسف. . .» الحديث(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

هذا إِخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن استكبارهم وطغيانهم بعدما نالهم من الجوع، هذا قول رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج أَن «العذابَ» هو الجوع والجدب المشهور نزوله بهم حتى أَكلوا الجلود وما جرى مجراها، وأَن «الباب» المتوعد يومُ

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٩٤) من سورة الكهف: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان، ومسلم في المنافقين، وأحمد في منسده (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٤١)، وقد رواه البخاري من طرق عن مسروق، وفي الطريق الأول قال: دخلت على عبد الله فقال: إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إن قريشاً لما غلبوا النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنةٌ أكلوا فيها العظام والميتة من الجَهْد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، قالوا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا، فدعا ربَّه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.



بدر، وهذا القول يردُّه أَن الجدب الذي نالهم إِنما كان بعد وقعة بدر، ورُوي أَنهم لما بلغهم الجهد جاءَ أَبو سفيان إِلى النبي ﷺ فقال: أَلست تزعم يا محمد أَنك بُعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباءَ بالسيف والأَبناءَ بالجوع، وقد أَكلنا العِلْهِز، فنزلت الآية[1]. و﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ معناه: انخفضوا وتواضعوا، ويحتمل أَن يكون من السُّكون، ويلزمه أَن يكون «اسْتَكَنُوا»، ووجهه أَن فتحة الكاف مطلت فتولدت أَلف، ويعطي التصريف أَنه من «كان»، وأَن وزنه (اسْتَفْعَلَ)، وعلى الأَول وزنه (افْتَعَلَ)، وكونه من «كان» أَبين، والمعنى: فما طلبوا أَن يكونوا لربهم أَهل طاعة، وعبيد خير. ورُوي عن الحسن رحمه الله أَنه قال: «إِذا أَصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاءٌ فإِنما هي نعمة، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحميَّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكينوا وتضرعوا إِلى الله»، وقرأَ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

و«ٱلْعَذَابُ الشَّدِيدُ» إِمَّا يوم بدر بالسيوف كما قال بعضهم، وإِمَّا توعُّدٌ بعذاب غير معين، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة، وروي عن مجاهد أَن العذاب والباب الشديد هو كله في مجاعة قريش.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حَسَنٌ، كان «الأَخْذُ» في صدر الأَمر، ثم فتح الباب عند تناهيه حيث أَبْلَسوا وجاءَ أَبو سفيان.

و«الْمُبْلِسُ»: الذي قد نزل به شرٌّ ويئس من زواله ونسخه بخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ

(١) أخرج ابن جرير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثمامة بن أثال الحنفي لما أتى النبي ﷺ فأسلم وهو أسير فخلَّى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العِلْهِز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا والعلهز هو الوَبَرُ بالدم.



مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته، وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم.

و﴿أَنشَأَ﴾ بمعنى اخترع، و«السَّمْعُ» مصدر، فلذلك وُحِّد، وقيل: أراد الجنس، و﴿ٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: القلوب، وهذه إشارة إلى النطق والعقل، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً ما تشكرون، وذهبت فرقة إلى أنه أراد: قليلاً منكم من يشكر، أي من يؤمن ويشكر حق الشكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أظهر.

و﴿ذَرَأَ﴾ معناه: بثَّ وخلق، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: إلى حكمه وقضائه، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ يريد آية البعث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: له القدرة التي عنها ذلك. و«الاختلاف» هنا التعاقب والكون خلفة، ويحتمل أن يكون الذي هو المغايرة البيِّنة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ، والجَحْدُ قبله مقدر، كأنه قال: ليس لهم نظر في هذه الآيات، أو نحو هذا، و«الأَوَّلُونَ» يشير به إلى الأُمم الكافرة كعاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي لَمُعَادونَ أحياءً، وقولهم: ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ إنْ حَكَى المقالة عن العرب فمرادهم من سلف من العالَم، جعلوهم آباءً من حيث النوع واحد، وإن حَكَى ذلك عن الأولين فالأمر مستقيم فيهم. و«الأَسَاطِيرُ» قيل: هي جمع أُسطورة كأعجوبة وأعاجيب وأُحدوثة وأحاديث، وقيل: هي جمع جمع، يقال: سطْرٌ وأَسْطَارٌ وأساطير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوقيفهم على هذه الأَشياء التي لا يمكنهم إلا الإِقرار بها، ويلزم من الإِقرار بها أَن يؤمنوا بِبَارِئِهَا ويذعنوا لِشَرْعِه ورسالة رسوله.

وقرأَ الجميع في الأَول: ﴿لِلَّهِ﴾ بلا خلاف، واختلف في الثاني والثالث، فقرأَ أَبو عمرو: ﴿اللهُ﴾ جواباً على اللفظِ، وقرأَ باقي السبعة: ﴿لِلَّهِ﴾ جواباً على المعنى، كأَنه قال في السؤال: لِمَنْ ملك السموات السبع؟ إِذ قولك: لمن هذه الدار؟ وقولك: من مالك هذه الدار؟ واحدٌ في المعنى[1].

ثم جعل التوبيخ مدرجاً بحسب وضوح الحجة شيئاً شيئاً، فوقف على الأَرض ومَنْ فيها وجعل بِإِزاءِ ذلك التذكُّر، ثم وقف على السموات السبع والعرش وجعل بإِزاء ذلك التقية وهي أَبلغ من التذكر، وهذا بحسب وضوح الحجة، وفي قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وعيد، ثم وقف على ملكوت كل شيء، وفي الإِقرار بهذا التزام ما تقع به الغلبة في الاحتجاج، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. ومعنى ﴿أَنَّىٰ﴾: كيف؟ ومن أَين؟، وفي هذا تقرير سحرهم، وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها، والسحر هنا مستعار لهم، وهو تشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأَفعال والأَقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور، عبَّر عنهم بذلك. وقالت فرقة: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ معناه: تمنعون، وحكى ذلك بعضُهم لغةً.

وقرأَ ابن محيصن: ﴿العظيمُ﴾ برفع الميم، و﴿مَلَكُوتُ﴾ مصدر في بنائه مبالغة[2]. و«الإِجارة»: المنع من الإِنسان، والمعنى أَن الله تبارك وتعالى إِذا منع أَحداً فلا يقدر عليه، وإِذا أَراد أَحداً فلا مانع له، وكذلك في سائر قدرته وما نفذ من قضائه، لا يُعارض ذلك شيءٌ ولا يحيله عن مجراه.

---

(١) لا خلاف في الأول بين القراء فهو: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن اللام تقدمت في قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ عند السؤال فجاءت في الجواب، واختلف القراءُ في الثاني والثالث حملاً على اللفظ أو على المعنى لأن السؤال خلا من اللام، فمن قرأ: ﴿اللهُ﴾ نظر إلى اللفظ، ومن قرأ ﴿لِلَّهِ﴾ نظر إلى المعنى، ومن هذا قول الشاعر:

إذا قِيـلَ مَـنْ رَبُّ الْمَـزَالِـفِ وَالْقُـرَى ... وَرَبُّ الْجِيَـادِ الْجُـرْدِ قُلْـتُ لِخَـالِـدِ

إذ التقدير: لِمَن المزالف؟ وهي القرى التي تقع بين البرو البحر.

(٢) وهو كالجَبَرُوت والرَّهبُوت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢ ﴾.

المعنى: ليس الأمر كما يقولون من نِسبتهم إلى الله تعالى ما لا يليق به، بل أتَيْناهُم. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أَتَيْتَهُمْ﴾ على الخطاب لمحمد ﷺ، و﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ يراد به: فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ دليل التمانع، وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، والخبر المُخترع محالٌ أن تتعلق به قدرتان فصاعداً، ولو اختلف إلهان في إدارة فمُحال نفوذهما ومحال عجزهما، فإذا انفردت إرادة الواحد فهو العالي والآخر ليس بإله، فإن قيل: نُقَدِّرهما[2] لا يختلفان في إرادةٍ قيل: ذلك يعرض فإذا جوَّزه الكفار قامت الحجة عليهم فإن ما التزم جوازه جارٍ[3] في الحُجَّة مجرى ما التزم وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا﴾ جواب لمحذوف تقديره: لو كان معه إله إذاً لذهب كلُّ إله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ بكسر الميم إتباعاً للمكتوبة[4] في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: [عَالِم الغَيْبِ] بالرفع، والمعنى: هو عالم، قال الأخفش: الجَرُّ أَجْوَد ليكون الكلام من وجه واحد، وقال أبو علي: ووجه الرفع أن الكلام قد انقطع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والابتداءُ عندي[5] أَبرع.

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء).

(٢) في بعض النسخ: «فإن قيل: بقُدْرتهما لا يختلفان».

(٣) في بعض النسخ: «يجري في الحُجَّة».

(٤) المكتوبة هي لفظ الجلالة «الله».

(٥) في بعض النسخ «عنده» أي عند أبي عليٍّ، واخترنا التي نقلها أبو حيان عن ابن عطية وهي التي تتفق مع سياق الكلام، وكذلك جاء في بضع النسخ: «والابتداءُ عندي أبدع» «بدلاً من أبرع».

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ عاطفة بالمعنى، كأنه قال: «عالم الغيب والشهادة فتعالى»، وهذا كما تقول: «زيد شجاعٌ فعظمت منزلته»، أي: شَجُع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى عما يشركون على إخبار مؤتنف، و«الْغَيْبُ»: ما غاب عن الناس، و«الشَّهَادَةُ»: ما شهدوه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيه ﷺ أَن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظَّلَمة إِن كان قضي أَن يرى ذلك، و﴿إِن﴾ شرطٌ و﴿مَآ﴾ زائدة، و﴿تُرِيَنِّي﴾ جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة، وهي لا تفارق«إِمَّا» عند المبرد، ويجوز عند سيبويه أَن تفارقها فيقال: «إِمَّا تُرِيَنِي»، لكن استعمال القرآن لزومها فمن هنالك التزمه المبرد.

وهذا الدعاءُ فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأَمر المُعَذَّب من أَجله[1]، ثم نظيره لسائر الأُمَّة دعاءٌ في جودة الخاتمة. وفي هذه الآية بجملتها إِعلامٌ بقرب العذاب منهم كما كان في يوم بدر. وقوله ثانياً: ﴿رَبِّ﴾ اعتراضٌ بين الشرط وجوابه.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية... أَمْرٌ بالصفح ومكارم الأَخلاق، وما كان منها لهذا فهو محكم باق في الأُمة أَبداً[2]، وما فيها من معنى موادعة الكفار وتَرْك التعرض لهم والصفح عن أُمورهم منسوخٌ بالقتال؛ وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أَنها آية موادعة. وقال مجاهد: الدَّفع بالتي هي

---

(١) من المعلوم أن النبي ﷺ معصوم مما يكون سبباً لجعله مع القوم الظالمين، وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلم ذلك، ويعلم أَن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب، لكن الله تعالى أَمره بذلك إشهاراً للعبودية، وليزيد أجره، وليكون دائماً على ذكر لربِّه، ولهذا كان ﷺ كثير الاستغفار لربه.

(٢) نقل القرطبي معنى هذه الآية عن ابن عطية دون أن يشير إليه، وهذه الجملة عنده جاءَت في عبارة أوضح، نَصُّها: «فما كان منها لهذه الأُمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ في الأمة أبداً»، ونعتقد أنها هي العبارة الصحيحة لابن عطية.



أَحسن هو السلام، تسلِّم عليه إِذا لقيته، وقال الحسن: والله لا يُصيبها أَحد حتى يكظم غيظه ويصفح عما يكره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذان الطرفان[1]، وفي هذه الآية عِدَةٌ للنبي ﷺ، أَي: اشتغل أَنت بهذا وكِلْ تعذيبهم والنقمة منهم إِلينا، وأَمره بالتعوُّذ من الشيطان في همزاته، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإِنسان فيها نفسه، وكأَنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المُحَادَّة[2]، فلذلك اتصلت بهذه الآية، وقال ابن زيد: هَمْزُ الشيطان: الجنون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي مصنف أَبي داود أَن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إِني أَعوذ بك من الشيطان همزه ونفخه ونفثه»[3]، قال أَبو داود: وهمْزةُ المُوتَة وهي الجنون[4]، ونَفْخه الكِبر، ونَفْثهُ السحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والنَّزَعَاتُ وسوراتُ الغضب من الشيطان، وهي المُتَعَوَّذ منها في الآية، والتَّعوذ من الجنون أَيضاً وكيد، وفي قراءَة أُبيِّ بن كعب: «ربِّ عائذاً بك من همزات الشياطين، وعائذاً بك ربِّ أَن يحضرون». وقوله: ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾ معناه: أَن يكونوا معي في أُموري، فإِنهم إِذا حضروا الإِنسان كانوا معدين للهمز، فإِذا لم يكن حضورٌ فلا همز.

---

(١) لعل المقصود أنهما طرفا هذه المنزلة، فأدناها كظم الغيظ، وأعلاها الصفح عن المكروه.

(٢) الحدَّة: الغضب والغلظة في القول، والعنف في المجادلة والحوار، والمحادَّةُ: المخالفة والمعاداة والمنازعة، وهي مفاعلة من الحَدِّ، كأن كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر. (لسان العرب).

(٣) والحديث أيضاً في مسند الإمام أحمد، (٣/ ٥٠، ٥/ ٢٥٣)، ولفظه فيه عن أبي أُمامة الباهلي: كان نبي الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاث مرات، ثم قال: لا إله إلا الله ثلاث مرات، وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.

(٤) ذكر في اللسان (همز) الحديث كما سبق ثم زاد عليه: «قيل: يا رسول الله، ما هَمْزُه ونَفْثُه ونَفْخُه؟ قال: أمَّا هَمْزُه فالمُوتَةُ، وأمَّا نَفْثُه فالشعرُ، وأمَّا نَفْخُه فالكِبْرُ»، وساق هذا على أنه جزءٌ من الحديث، والتفسير للنبي ﷺ، ثم حكى بعد ذلك عن أبي عبيدة أن المُوتَةَ هي الجنون. وفي كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» «الهَمْزُ: المُوتَةُ، الهَمْزُ: النَّخْسُ والغَمْزُ، وكل شيء دفعتَه فقد همزته، والمُوتَةُ: الجنون، والهَمْزُ أيضاً: الغِيبَةُ والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأصل الهمزِ الدفعُ والوخز بيدٍ وغيرها، ومنه هَمْز الخيل وهمز الناس باللسان، وقيل لبعض العرب: أتهمز الفارةَ؟ سُئل بذلك عن اللفظة فظن أن المراد شخص الفأرة فقال: الهِرُّ يهمزها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذا الموضع ابتداءٌ، ويحتمل أن تكون غاية مجردة بتقدير كلامٍ محذوف، والأول أبْيَن لأن ما بعدها هو المعنيُّ به المقصودُ ذِكْرُه[1]. والضمير في ﴿أَحَدَهُمُ﴾ للكفار، وقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ معناه: إلى الحياة الدنيا. وجَمْعُ الضمير يتخرج على معنيين: إمَّا أن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيماً، على نحو إخباره تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع، وإمَّا أن تكون استغاثته بربِّه أوَّلاً ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾. وقال الضحاك: هي في المشرك، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إذا عاين المؤمن قالت له الملائكة: نُرجعك؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان؟ بل قدما إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول: (ارجعون لعليَّ أعمل صالحاً)[2]. وقرأ الحسن والجمهور: ﴿لَعَلِّىٓ﴾ بسكون الياء، وقرأ طلحة بن مصرِّف:

---

(١) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام عن ابن عطية، ثم علَّق عليه بقوله: «توهم ابن عطية أن (حتَّى) إذا كانت حرف ابتداءٍ لا تكون غاية، وهي إذا كانت حرف ابتداء لا تفارقها الغاية، ولم يبين الكلام المحذوف، والذي يظهر لي أن قبلها جملة محذوفة تكون (حتى) غاية لها، يدل عليها ما قبلها، والتقدير: فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم، حتى إذا جاء أحدهم الموت، ونظير حذف هذه الجملة قول الشاعر:

فيا عَجَباً حتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّني

أي: يَسُبُّني الناسُ حتى كليب، فدلَّ ما بعد حتَّى على الجملة المحذوفة، وفي الآية دلَّ ما قبلها عليها».

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، ذكر ذلك في «الدر المنثور»، وفيه: «قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها... الخ الحديث»، وليس في ابن جرير الطبري كلمة (زعموا) هذه.



[لَعَلِّيَ] بفتح الياء، و﴿ كَلَّآ ﴾ كلمة زجر وهي من كلام الله تعالى.

وقوله: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أَحدها: الإِخبار المؤكد بأَن هذا الشَّيْءَ يقع ويقول هذه الكلمة، والآخر: أَن يكون المعنى: إِنها كلمة لا تغني أَكثر من أَن يقولها، ولا نفع له فيها ولا غوث، والثالث: أَن تكون إِشارةً إِلى أَنه لو رُدَّ لعادَ، فتكون آية ذمٍّ لهم. والضمير في [ورائهم] للكفار، أَي يأْتي بعد موتهم حاجزٌ من المُدَّة، و«البَرْزَخُ» في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يستعار لما عدا ذلك، فهو هنا للمُدَّة التي بين موت الإِنسان وبين بَعْثه، هذا إِجماعٌ من المفسرين. و﴿ يَوْمِ ﴾ مضاف إِلى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

وقرأَ الجمهور: ﴿ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وهو القَرْن، وقرأَ ابن عياض[2]: [فِي ٱلصُّوَرِ] بفتح الواو جمع صورة، وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾، اختلف المتأَولون في صفة ارتفاع الأَنساب ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذا عند النفخة الأُولى، وذلك أَن الناس بأَجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أَموات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يزيل ما في الآية من ذكر هول الحشر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: إِنما المعنى أَنه عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور فهم حينئذ لهول المطلع قد اشتغل كل امرىء بنفسه، قد انقطعت بينهم الوسائل وزال انتفاع الأَنساب، فلذلك نفاها، فالمعنى: فلا أَنساب نافِعَة، وروي عن قتادة أَنه ليس أَحد أَبغض إِلى الإِنسان في ذلك اليوم ممن يعرف، لأَنه يخاف أَن يكون عنده مظلمة، وفي ذلك اليوم يفر المرءُ من أَخيه وأُمه وأَبيه وصاحبته وبنيه، ويفرح كل أَحد يومئذ أَن يكون له حق على ابنه وأَبيه، وقد ورد بهذا حديث. وكذلك ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه التي ذكرناها، ثم يأْتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

---

(١) في الأصول وردت هذه الجملة «و﴿ يَوْمِ ﴾ مضاف إلى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾» بعد قول المؤلف: «وقرأ ابن عياض ﴿ ٱلصُّورِ ﴾ بفتح الواو جمع صورة»، وقدمناها هنا لتكون في الموضع المناسب من الآية التي ذكرت فيها.

(٢) في بعض النسخ: «وقرأ ابن عياض»، وفي نسخة أخرى: «وقرأ ابن عباس»، وفي نسخة ثالثة: «وقرأ ابن عامر»، والذي في البحر المحيط: «وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن عياض».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل حسن، وهو مروي المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وثقل الموازين هو بالحسنات، والثقل والخفة إِنما يتعاقبان بأَجرام يخترع الله تعالى فيها ذلك، وهي فيما روي براءَات[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

جمع «الموازين» من حيث المَوْزون جمع وهي الأَعمال، ومعنى الوزن: إِقامةُ الحجة على الناس بالمحسوس على عادتهم وعرفهم، ووزن الكافر على أَحد وجهين: إِما أَن يوضع كُفره في كفَّة فلا يجد شيئاً يعادله به في الكفَّة الأُخرى، وإِما أَن توضع أَعماله من صلة رحم ووجْه بِرٍّ في كفَّة الحسنات ثم يوضع كُفره في الكِفَّة الأُخرى فتخف أَعماله.

و«لَفْحُ النار»: إِصابتها بالوهج والإِحراق، وقرأَ أَبو حيوة: [كَلِحُونَ] بغير أَلف، و«الكَلْحُ»: انكشاف الشفتين عن الأَسنان، وهذا يعتري الإِنسان عند المباطشة عند الغضب، ويعتري الرؤوس عند النار، وقد شبَّه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما في هذه الآية بما يعتري رؤوس الكباش إِذا شيطت بالنار فإِنها تكْلَح[2]، ومنها كُلُوح الكلب والأَسد، ويستعار للزمان والخطوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قبله محذوف تقديره: يقال لهم،

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في المجلد الثالث ص ٥١٥.

(٢) أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وأبو يُعْلَى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ قال: تشويه النار فَتَقْلِصُ شفته العُلْيا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى سُرَّته.

و«الآياتُ» هنا: القرآن، وأَخبر عنهم تعالى أَنهم إذا سمعوا هذا التقرير أَذعنوا، وأَقروا على أَنفسهم، وسلموا بقولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾. وقرأَ جمهور الناس: [شِقْوَتُنَا] بكسر الشين دون أَلف، وهي قراءَة الحرميَّيْن، وقرأَ حمزة والكسائي: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾ بفتح الشين وأَلف بعد القاف، وهي قراءَة ابن مسعود، وخيَّر عاصم في الوجهين، وهما مصدران من شَقِيَ يَشْقَى[(١)]، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع، وذلك أَنهم ذلُّوا؛ لأَن الإقرار بالذنب اعتذار وتنصُّل، فوقع جواب رغبتهم بحسب ما حَتَم الله تعالى من عذابهم بقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وجاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بلفظ نهي وهم لا يستطيعون الكلام على ما رُوي، فهذه مبالغة في المنع، ويقال: إن هذه الكلمة إذا سمعوها يئسوا.

وحكى الطبري حديثاً طويلاً في مقاولة تكون بين الكفار وبين مالك خازن النار، ثم بينهم وبين ربهم، وآخرها هذه الكلمة «اخْسَئُوا فيها»، قال: فتنطبق عليهم جهنم، ويقع اليأسُ، ويبقون يَنْبَح بعضهم في وجه بعض[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته، لكن معناه صحيح، عافانا الله من ناره بِمنِّه.

وقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا﴾ زجرٌ، وهو مستعمل في زجر الكلاب، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: (اخْسَأْ فلن تعدو قَدْرَك)[(٣)].

---

(١) يقال: شَقِيَ يَشْقَى شَقاً وشَقاءً وشَقَاوةً وشَقْوةً وشِقْوَةً، فهذه كلها مصادر للفعل شَقِي. قال الفراءُ: إن (شِقْوَة) كثيرة في كلام العرب، وأنشد أبو ثَرْوان:

كُلِّفَ مِنْ عَنَائِهِ وشِقْوَتِهْ بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَةٍ مِنْ حَجَّتِهْ

(٢) الحديث أيضاً في «الدر المنثور»، وقد ذكر من رواته غير ابن جرير الطبري، الترمذي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث. وهو عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأدب، ومسلم والترمذي في الفتن، وأبو داود في الملاحم، والدارمي في المقدمة، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٠)، ولفظه كما في مسند أحمد عن عبد الله قال: كنا نمشي مع النبي ﷺ، فمرَّ بابن صياد، فقال: إني قد خبأتُ لك خبأ، قال ابن صياد: دُخ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، قال: لا، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قرأ هارون: [أَنَّهُ كَانَ] بفتح الألف، وهي قراءَة أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، ورُوي أَنَّ في مصحف أُبي بن كعب «أَنْ كان»، وهذا كله متعاضد، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ تُكَلِّمُونِ كَانَ فَرِيقٌ] بغير «إِنه»، وهذه تعضد كسر الأَلف من ﴿إِنَّه﴾ لأنها استئناف، وهذه الهاءُ مبهمة ضمير الأمر، والكوفيون يُسَمُّونَهَا المجهولة، وهي عبارة فاسدة. وهذه الآية كلها ممَّا يقال للكفرة على جهة التوبيخ.

والفريق المشار إِليه كلُّ مستضعف من المؤمنين يتفق أَن يكون حاله مع كفار مثل هذه الحال، ونزلت الآية في كفَّار قريش مع صهيب وعمَّار وبلال رضي الله عنهم ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر.

وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: [سُخْرِيّاً] بضم السين، وقرأَ الباقون: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسرها، قالت طائفة هما بمعنى واحد، ذكر ذلك الطبري، وقال أَبو زيد الأَنصاري: إِنهما بمعنى الهزءِ، وقال أَبو عبيدة وغيره: إِن ضم السين من السخرة والتخديم، وكسر السين من السخر وهو الاستهزاءُ، ومنه قول الأَعشى:

إِنِّـي أَتَـانِـي حَـديـثٌ لا أُسَـرُّ بِـهِ ... مِنْ عَلْوَ لاَ كَذِبٌ فِيهِ وَلاَ سَخَرُ[1]

---

(١) البيت لأَعشى باهلة، عامر بن الحارث بن رياح، وهو مطلع قصيدة يرثي بها أخاه المنتشر، وهي من المراثي المعدودات، والبيت في اللسان (لَسَنَ)، وقد استشهد به على أن (اللسان) بمعنى الرسالة والمقالة، إذ االرواية فيه: (إِنِّي أُتتني لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها)، ولهذا أنث الشاعر الفعل فقال: (أَتَتْنِي)، كما استشهد به صاحب اللسان في (سخر) على أن السُّخْر والسَّخَر بمعنى الهُزْءِ، وقال إنه يروى بضم السين وسكون الخاء، ويروى بفتحهما، والقصيدة كاملة في الأصمعيات، والبيت فيها مختلف كثيراً، عن هذه الروايات التي ذكرناها، فهو:

قــد جــاءَ مِــنْ عَسِــلُ أَنْبَــاءٌ أُنَبَّــؤُهَــا ... إِلــيَّ لا عَجَــبٌ منهــا ولا سَخَــرُ

وضبط المحقق كلمة (سَخَر) بفتح السين والخاء وبضمهما معاً، والقصيدة في «جمهرة أشعار العرب»، وفي «مختارات ابن الشَّجري»، وفي «أمالي الشريف المرتضي»، وفي «خزانة الأدب»، مع الاختلاف في بعض الألفاظ، وفي عدد الأبيات.



قال أَبو علي: قراءَة كسر السين أَوجه لأَنه بمعنى الاستهزاء والكسر فيه أَكثر، وهو أَليق بالآية، أَلا ترى إِلى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَلا ترى إِلى إِجماع القراءِ على ضم السين في قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1] لما تخلّص الأَمر للتخديم، قال يونس: إِذا أُريد التخديم فهو بضم السِّين لا غير، وإِذا أُريد الهُزْءُ فهو بالضم والكسر. وقرأَ أَصحابُ عبد الله، والأَعرجُ، وابن أَبي إِسحاق كلَّ ما في القرآن بضم السين، وقرأَ الحسن، وأَبو عمرو كلَّ ما في القرآن بالكسر إِلاَّ التي في الزخرف فإِنهما ضما السين كما فعل الناسُ لأَنها من التخديم، وأَضاف الإِنساء إِلى الفريق من حيث كان بسببهم، والمعنى أَن اشتغالهم بالهزءِ بهؤلاءِ أَنساهم ما ينفعهم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بفتح الأَلف، فـ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾ عامل في ﴿أَنَّ﴾، ويجوز أَن يعمل في مفعول محذوف، ويكون التقدير: لأَنهم. وقرأَ حمزة، والكسائي، وخارجة عن نافع: [إنهم هم الفائزون] بكسر الأَلف، فالمفعول الثاني لـ﴿جزيت﴾ مقدر، تقديره: الجَنَّة والرضوان. و﴿الْفَائِزُونَ﴾: المُنْتهون إِلى غايتهم التي كانت أَملهم. ومعنى الفوز: النجاة من هلكة إِلى نعمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

قرأَ نافع، وعاصم، وأَبو عمر، وابن عامر: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، و﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾، وروى البَزِّي[2] عن ابن كثير (قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ) على الخبر، وأَدغم أَبو عمرو، وحمزة،

---

(١) في الآية (٣٢)، وفيها يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد الله البَزِّي، أبو الحسن، من كبار القراء، من أهل مكة، وتوفي بها، قال ابن الجزري عنه: هو أستاذٌ محقق ضابط متقن، وعرَّفه ابن الأثير في «اللباب» بصاحب قراءة ابن كثير، =

والكسائي التَّاءَ، والباقون لا يدغمونها، فمعنى الأَول: الإِخبارُ بأَن الله يوفقهم للسؤال عن المدة ثم يعلمهم آخراً بلبثهم قليلاً، ومعنى الثانية: الأَمر لواحد منهم مُشَارٌ إِليه، بمعنى: يقال لأَحدهم قل كذا، فإِذا قال غير القويم قيل له: قل: إِن لَبثتم، ومعنى رواية البزي: التوقيفُ ثم الإِخبارُ، وفي المصاحف ﴿قَالَ﴾ فيهما، إِلا في مصحف الكوفة فإِن فيه [قُلْ] بغير أَلف.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، قال الطبري: معناه: في الدنيا أَحياءً، وعن هذا وقع السؤال، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغرض من هذا توقيفهم على أَن أَعمارهم قصيرة، أَدَّاهم الكفر فيها إِلى عذاب طويل.

وقال جمهور المتأَولين: في جوف التراب أَمواتاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَصوب من حيث أَنكروا البعث وكان قولهم: إِنهم لا يقومون من التراب، قيل لهم لمَّا قاموا: كم لبثتم؟ وقوله آخراً: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ يقتضي ما قلناه.

و﴿عَدَدَ﴾ نصب بـ﴿كَمْ﴾ على التمييز. وقرأَ الأَعمش: [عَدَداً سِنِينَ] بتنوين [عدداً].

وقال مجاهد: أَرادوا بـ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾ الملائكة، وقال قتادة: أَرادوا أَهل الحساب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اللفظة أَنهم أَرادوا من يتصف بهذه الصفة ولم يعيِّنوا ملائكة ولا غيرها؛ لأَن النائم والميت لا يعد الحركة فيقدِّر له الزمان.

وقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مقصده ـ على القول بأَن المكث في الدنيا ـ أَي قليل القدر في جنب ما تُعَذَّبُونَ، وعلى القول بأَن المكث في القبور معناه أَنه قليلٌ،

= وكان ضعيفاً في الحديث. «اللباب، وغاية النهاية، والأعلام».



إذْ كُلُّ آتٍ قريبٌ، ولكنكم كذبتم به إذ كنتم لا تعلمون؛ إذ لم ترغبوا في العلم والهدى.

و﴿عَبَثًا﴾ معناه: باطلاً لغير غاية مُراده. وقرأ الجمهور: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاءِ وفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي: [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ وكسر الجيم، والمعنى فيهما بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

المعنى: فتعالى الله عن مقالتهم في جهته من الصاحبة والولد، ومن حسابهم أنهم لا يرجعون، أَي: تَنَزَّه الله عن تلك الأُمور وتعالى عنها. وقرأ ابن محيصن: [ٱلْكَرِيمُ] بالرفع صفةً للرَّبِّ.

ثم توَّعد جلَّت قدرته عَبَدَةَ الأَوثان بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، والوعيد قولُه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾.

و«ٱلْبُرْهَانُ»: الحُجَّة، وظاهر الكلام أَن ﴿مَن﴾ شرط، وجوابه في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ في موضع الصفة. وذهب قومٌ إِلى أَن الجواب في قوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ﴾، وهذا هروب من دليل الخِطَاب من أَن يكونَ ثَمَّ داع له بُرهان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحفُّظ مما لا يلزم، ويلحقه حذف الفاءِ من جواب الشرط وهو غير فصيح، قاله سيبويه. وفي حرف عبد الله: [عِنْدَ رَبِّكَ]، وفي حرف أُبيٍّ: [عند الله]، ورُوي أَن فيه «عَلَى الله». ثم حتم وأَكَّد أَن الكافر لا يبلغ أُمنيته ولا ينجح سعيُه. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ بكسر الأَلف، وقرأ الحسن وقتادة: [أَنَّهُ لا يُفْلِحُ] بفتحها، والمعنى أَنه إِذْ لا يَتَذَكَّر ولا يفلح يؤخر حسابه وعذابه حتى يلقى ربَّه. وقرأ الحسن: [يَفْلَحُ] بفتح الياءِ واللام[1].

(١) يقول بعض العلماء: «افتتح الله السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأورد في ختامها قوله: ﴿إِنَّهُۥ=



ثم أَمر رسول الله ﷺ بالدعاءِ في المغفرة والرحمة والذِّكر له تعالى بأَنه خير الرَّاحمين؛ لأَن كلَّ راحم فمتصرفٌ على إِرادة الله تعالى وتوفيقه وتقديره لمقدار هذه الرحمة. ورحمته تعالى لا مشاركة لأَحدٍ فيها، وأيضاً فرحمة كلِّ راحم في أَشياءَ وبأَشياءَ حقيرات بالإِضافة إِلى المعاني التي تقع في رحمة الله تبارك وتعالى من الاستنقاذ من النار، وهيئة نعيم الجنة، وعلى ما في الحديث فرحمة كل راحم مجموعها كلها جزءٌ من مائة من رحمة الله تعالى جلَّت قدرته؛ إِذْ بثَّ في العالَم واحدة وأَمسك عنده تسعاً وتسعين[١].

وقرأَ ابن محيصن: [وَقُلْ رَبُّ ٱغْفِرْ] بضم الباءِ من [رَبُّ][٢].

تمَّ تفسير سورة المؤمنون والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فانظر تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام».

(١) يشير إلى حديث شريف أخرجه البخاري في التوبة والرقاق، ومسلم في التوبة، والترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٣، ٥١٤ـ٣ـ٥٥، ٥٦ـ٥ـ٤٣٩)، وهو في البخاري عن أبي هريرة، ولفظه فيه أَنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يَيأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

(٢) أسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهِيْعَة، عن عبد الله بن هبيرة، عن حنش بن عبد الله الصنَّعاني، عن عبد الله بن مسعود أنه مرَّ بمصاب مُبْتَلَى فقرأَ في أُذنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرىء، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا قرأتَ في أذنه»؟ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأَها على جبل لزال».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النور

هذه السُّورة كلها مدنية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

قرأَ الجمهور: ﴿سُورَةٌ﴾ بالرفع، وقرأَ عيسى بن عمر، ومجاهد: [سُورَةً] بالنصب، ورُوي ذلك أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، وعن أُمِّ الدرداءِ(٢)، فوَجْه الرفع أَنه خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه سورة، أَو ابتداءٌ وخبره مفهوم تقديره: فيما يُتلى عليكم، ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ ابتداءٌ، وما بعدها صفةٌ لها أَخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة، فحسُن الابتداءُ لذلك، ويكون الخبر في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ وفيما بعد ذلك، والمعنى: السورةُ المُنَزَّلَةُ المفروضة كذا وكذا؛ إِذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدءٌ وخَتْمٌ، ولكن يلحق هذا القول أَن كون الابتداءِ هو الخبر ليس بالبيِّن إِلاَّ أَن يُقَدَّر الخبر في السُّورة بأَسْرِها، وهذا بعيد في القياس(٣).

---

(١) بلا خلاف بين العلماء، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، والزُّبَيْر أنهما قالا: «أُنزلت سورة النور بالمدينة».

(٢) في بعض النسخ: «وعن أبي الدرداء»، وأبو الدرداء اسمه عُوَيْمَر بن زيد بن قيس الأنصاري، مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عامر، وعويمر لقب، وهو صحابي جليل، كان عابداً، مات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، أمَّا أُم الدرداء فهي زَوْجُه، واسمها هُجَيْمَة، وقيل: جُهَيْمَة الأوصابية الدمشقية، قال عنها الحافظ العسقلاني: «ثقة، فقيهة، ماتت سنة إحدى وثمانين».

(٣) نقل أبو حيان في «البحر المحيط» هذه الفقرة عن ابن عطية مع اختلاف في بعض الألفاظ عمَّا هنا؛ إذ جاء فيه «إلاَّ أن يكون المبتدأُ ليس بالبيِّن أنه الخبر، إلا أن يقدر الخبر في السورة كلها»، ومعنى هذا أن قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ وهو مبتدأ ومعطوف عليه ليس بالبيِّن أنه خبر عن المبتدأ الأول وهو قوله=



ووَجْه النصب إضمار فعل قدَّره بعضهم: اتْلُ سورةً، أَو نحوه، وجعله بعضهم: أَنزلنا سورةً أَنزلناها[(١)]، وقال الفراءُ: هي حالٌ من الهاء والأَلف، والحال من المكنى يجوز أَن تتقدم عليه[(٢)].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَفَرَضْنَـٰهَا﴾ بتخفيف الراء، ومعناه الإِثبات والإِيجاب بأَبلغ وجوهه، إِذ هو مشبَّه بالفرض في الإِلزام. وقرأَ مجاهد وغيره، وأَبو عمرو، وابن كثير، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: [وَفَرَّضْنَاهَا] بشدِّ الرَّاءِ، ومعناه: جعلناها فرائض، فمن حيث تردَّد ذلك ضُعِّف الفعل للمبالغة والتكثير[(٣)]. وقرأَ الأعمش: [وَفَرَضْنَاهَا لَكُمْ]، وحكى الزهراوي عن بعض العلماء أَنه قال: كلُّ ما في السُّورة من أَمر ونهْي فرض.

و«الآيَاتُ البيِّنَاتُ»: أَمثالُها ومواعظها وأَحكامها، وقال الزهراوي: المعنى: ليس فيها مشكل، تأْويلها موافق لظاهرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحكُّم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَي على توقُّع البشر ورجائهم.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ بالرفع، وقرأَ عيسى الثقفي: [ٱلزَّانِيَةَ] بالنصب، وهو أَوجه عند سيبويه لأَنه عنده كقولك: زيداً اضرب. ووجه الرفع عنده أَنه أَخبر ابتداءٍ

= تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾، لكن لو قَدَّرْنَا أن الخبر في السورة كلها لأصبح الأمر بيِّناً واضحاً. وقد جاء في كثير من النسخ زيادة عما هنا قوله: وقول الشاعر: «فارسٌ مًّا تركوه» فقد جاز الابتداء بالنكرة هنا لأنها وصفت بصفة أخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة وجاء الخبر بعد ذلك، فأي تخصيص للنكرة يجعلها صالحة للابتداء.

(١) فيكون من باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره، ولا محلَّ هنا لجملة ﴿أَنزَلْنَـٰهَا﴾ لأنها جملةٌ مفسِّرةٌ، بخلاف الوجه الأول فإن ﴿أَنزَلْنَـٰهَا﴾ في محلِّ نصب على أنها صفة لقوله سبحانه: ﴿سُورَةٌ﴾، ولكن يترتب على القول بالاشتغال الابتداءُ بالنكرة من غير مُسَوِّغ، إلا إذا قدرنا لها صفة بحيث يكون التقدير: سورةٌ عظيمة.

(٢) وقيل: إنها منصوبة على الإغراء، أي: «دُونك سورة»، قال ذلك الزمخشري في الكشاف، وقد ردَّه أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» وقال: إنه لا يجوز حذف أداة الإغراء.

(٣) وقد يكون التضعيف لبيان أن الله أنزلها قطعاً قطعاً أو نُجُماً نُجُماً، لأن الفرض هو القطع. قال ذلك القرطبي.



تقديره: فيما يُتلى عليكم الزانية والزاني، وأَجمع الناس على الرفع وإِن كان القياس عند سيبويه النصب. وأَما الفرّاءُ والمُبَرِّد والزَّجاج فإِن الرفع عندهم هو الأَوجه، والخبر في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا﴾؛ لأَن المعنى: إِن الزانية والزاني مجلودان بحكم الله تبارك وتعالى، وهذا قول جيد. وهو قول أَكثر النحاة، وإِن شئتَ قدرتَ الخبر: ينبغي أَن يُجلدوا. وقرأَ ابن مسعود: [وَالزَّانِ] بغير ياءٍ، وقُدِّمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساءِ أَفْشَى[(١)]، وكان لإِماءِ العرب وبغايا الوقت رايات، وكنَّ مجاهرات بذلك، والعارُ بالنساء أَلْحَق إِذ موضوعهن الحجب[(٢)] والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً. والأَلف واللام في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ للجنس، وذلك يُعطي أَنها عامة في جميع الزناة، وهذه الآية باتِّفاقٍ ناسخةٌ لآية الحبس وآية الأَذى اللتين في سورة النساء[(٣)]. وجماعة من العلماءِ على عموم هذه الآية، وأَن حكم المحصنين منسوخ منها، واختلفوا في الناسخ، فقالت فرقة: النَّاسخُ السُّنَّة المتواترة في الرَّجْم، وقالت فرقة: بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه، وهو الذي قرأَه عُمر رضي الله تعالى عنه على المنبر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم «الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذا زنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّة» وقال: إِنَّا قرأْناهُ في كتاب الله تعالى[(٤)]، واتَّفق الجميع على أَن لفظهُ

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا دون أن يشير إليه، وجاءت هذه الكلمة في نقله: «كان في ذلك الزمن زنى النساء فاشياً».

(٢) في الأصول: «إذ موضوعهن الحجبة».

(٣) أما آية الحبس فهي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، وأما آية الأذى فهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

(٤) في صحيح مسلم عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبة أنه سمع عبد الله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالسٌ على منبر رسول الله ﷺ: «إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعَيْناها وعقلناها، فرجَمَ رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرَّجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة أو كان الحَبَل أو الاعتراف»، وليس في هذا النص ذكر للآية المنسوخة لفظاً لا حُكماً، أما لفظها فقد ورد في حديث آخر أخرجه في الحدود أبو داود، وابن ماجه، ومالك في موطئه، أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٨٣)، ولفظه فيه عن كثير بن الصلت قال: كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمروا على هذه الآية، =

رفع وبقي حكمه، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وابن راهويه: ليس في هذه الآية نسخٌ، بل سنَّة الرجم جاءَت بزيادة، فالمُحْصَنُ ـ على رأي هذه الفرقة ـ يُجلد ثم يرجم، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وفعله بشُراحة[١]، ودليلهم قول النبي ﷺ: «والثَّيِّب بالثَّيب جلْدُ مائة والرجم»[٢]، ويردُّ عليهم فعل النبي ﷺ حيثُ رجم ولم يجلد، وبه قال جمهور الأُمَّة إِذْ فعله كقوله رفع الجلد عن المحصن، وقال ابن سلام وغيره: هذه الآية خاصة في البِكْرَيْن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَنه لو لم يبق مَنْ هذا حكْمه إِلا البِكْرَان، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: «البِكْرُ بالبِكْر جَلْدُ مائة وتغريب عام»[٣]، وبقوله: «على ابنك جَلْدُ مائة»[٤]، واستدلوا

= فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، فقال عمرو: لما أُنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أَكْتِبْنِيهَا، قال شعبة ـ أحد الرواة ـ: فكأنه كره ذلك، فقال عمرو رضي الله عنه: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟.

(١) هي شُراحة الهمدانية، ثبتت عليها جريمة الزنى فجلدها علي بن أبي طالب رضي الله عنه مائة جلدة ورجمها بعد ذلك، وقال جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنَّة رسول الله ﷺ، يعني أن الجلد تنفيذ لهذه الآية ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾، والرجم اتباع لما فعله رسول الله ﷺ، فقد رجم الغامدية وماعِزاً.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود، والبخاري في تفسير سورة النساء، وكلٌّ من أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي في الحدود، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٧٦، ٥/ ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠)، والحديث كما جاء في مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان نبي الله ﷺ إذا أُنزل عليه كُرب لذلك وتَرَبَّد له وجهُه، قال: فأُنزل عليه ذات يوم فلُقِي كذلك، فلما سُرِّي عنه قال: «خذوا عنِّي فقد جعل الله لهنَّ سبيلاً، الثَّيب بالثَّيب والبِكْرُ بالبِكْر الثيب جَلْدُ مائةٍ ثم رجمٌ بالحجارة، والبكر جلْد مائة ثم نفي سنة».

(٣) راجع حديث عبادة بن الصامت الذي ورد في الهامش السابق، وفي رواية أخرى عن سلمة بن المحبق قال رسول الله ﷺ: «خذوا عنِّي خذوا عنِّي، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البِكْر بالبِكْر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم»، وقوله: ﴿قد جعل لهن سبيلاً﴾ يشير إلى الآية الكريمة من سورة النساء: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده، ولفظه كما جاء في مسلم في كتاب الحدود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: قل، قال: إن ابني كان عسيفاً ـ أجيراً ـ على هذا، فزنى بامرأته، وإني أُخبرت أن على ابني الرجم، فافتديتُ منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنَّ ما على ابني جَلْد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكم =

على أَنها غير عامة بخروج الإماءِ والعبيد وغيرهم منها، وقد تقدم بسط كثير من هذه المعاني في سورة النساء[١].

والجَلْد يكون والمجلود قاعد عند مالك، ولا يُجزي عنده إلاَّ في الظهر، وأَصحاب الرأي والشافعيُّ يرون أَن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويُفرَّق الضربُ على كل الأَعضاء، وأَشار ابن عمر رضي الله عنهما بالضرب إلى رِجْلَيْ أَمة جلدها في الزنى، والإِجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقَاتل، ويترجَّح قول مالك رحمه الله بقول النبي ﷺ: «أَوْ حَدٌّ في ظهرك»[٢]، وقال عمر رضي الله عنه: «أَوْ لأُوْجِعَنَّ مَتْنَكِ»[٣]، ويُعرَّى الرجل عند مالك، والنَّخعي، وأَبي عبيدة بن الجراح، وابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، والشعبي، وغيرُهم يرون أَن يُضرب على قميص، وهو قول عثمان، وابن مسعود رضي الله عنهما أيضاً، وأَما المرأَة فتُستَر قولاً واحداً.

وقرأَ الجمهور: ﴿رَأْفَةٌ﴾ بهمزة ساكنة على وزن فَعْلة، وقرأَ ابن كثير: [رَأَفَةٌ] على وزن فَعَلة بفتح العين، وقرأَ عاصم أيضاً: [رَآفَةٌ] على وزن فَعَالَة، كَسَآمة وكآبة، وهذه مصادر أَشهرها الأُولى، من «رَؤُفَ» إذا رقَّ ورحم، وقرأَ الجمهور: ﴿تَأْخُذْكُم﴾ بالتاءِ

= بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ، وعلى ابنك جَلْد مائة وتغريب عام، واغْدُ يا أُنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها، قال: فغدا عليها فاعترفت، فأمر رسول الله ﷺ فرُجمت.

(١) راجع ذلك في المجلد الثاني ص ٤٨٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، وكل من أبي الدرداء، والنسائي، وابن ماجه في الطلاق، ولفظه كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أُميَّة قذف امرأته عند النبي ﷺ بشَرِيك بن سحماءَ، فقال النبي ﷺ: «البيِّنَة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيِّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البيِّنة وإلاَّ حدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّىء ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلالٌ فشهد والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقَّفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي ﷺ: أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خَدَلَّجَ الساقين فهو لشَريك بن سحماءِ، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

(٣) المَتْنُ: الظهر، يُذَكَّر ويُؤنَّث.



من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن: [يَأْخُذْكُمْ] بالياءِ من تحت.

واختلف الناس في الرأفة المنهي عنها، فيم هي؟ فقال أَبو مِجْلَز لاحقُ بن حُمَيد[١] ومجاهد، وعكرمة، وعطاءٌ: هي في إِسقاط الحدِّ، أَي: أَقيموه ولا بُدَّ، وهذا تأْويل ابن عمر رضي الله عنهما، وابن جبير، وغيرهما، ومن رأيهم أَن الضرب في الزنى والفِرية والخمر على نحو واحد. وقال قتادة، وابن المسيب، وغيرهما: الرأْفة المنهيُّ عنها هي تخفيف الضرب عن الزنى، ومن رأْيهم أَن يُخَفَّف ضرب الخمر والفِرْية ويشتد ضرب الزنى، وقال سليمان بن يسار[٢]: نُهي عن الرأْفة في الوجهين، وقال أَبو مِجْلَز: إِنَّا لنَرْجُم المحدود ولكن لا نُسقط الحدَّ، وقول النبي ﷺ في السوط: «دون هذا»[٣] ضربٌ من الرأْفة. وقال عمر رضي الله عنه: «اضْرِب ولا تُبْدِيَنَّ إِبطك»، واتفق الناس على أَن الضرب سوطٌ بين سوطين، وقال الزهري: ضرب الزنى والفِرية مشدَّد لأَنهما بمعنى واحد، وضرب الخمر مخفف. وقوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: في الإِخلال بدين الله، أَي بشرعه، ويحتمل أَن يكون الدِّين هنا بمعنى الحكم[٤].

ثم قررهم على معنى التثبيت والحضِّ بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذا كما تقول لرجل تَحضُّه: إِن كنت رجلاً فافعل كذا، أَي: هذه أَفعال الرجال.

---

(١) في الأصول «فقال أبو مِجْلَز ولاحق بن حُميد»، والصحيح أنهما رجل واحد، هو لاحق بن حُميد بن سعيد الدوسي البصري، أبو مُجْلَز، بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي ـ وهو مشهور بكنيته، قال عنه العسقلاني في كتابه «تقريب التهذيب»: «ثقة، من كبار الثالثة، مات سنة ست، وقيل تسع ومائة، وقيل قبل ذلك».

(٢) سليمان بن يسار الهلالي، المدني، مولى ميمونة، وقيل أم سلمة، ثقة فاضل، أحد الفقهاء السبعة، مات بعد المائة، وقيل قبلها. «تقريب التهذيب».

(٣) روى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله ﷺ، فدعا له رسول الله ﷺ بسَوْط، فأُتي بسوط مكسور، فقال: «فوق هذا»، فأُتي بسَوْط جديد لم تُقطع ثمرته، فقال: «دون هذا»، فأُتي بسَوْطٍ قد رُكب به ولان، فأمر به رسول الله ﷺ فجُلِدَ... الحديث. قال أبو عمر: «هكذا روى هذا الحديث مرسلاً جميع رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه»، وقد روى مَعْمَر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي ﷺ مثله سواءً. وقول الراوي في الحديث: «لم تُقطع ثمرتُه» يريد أن طرفه مُحَدَّد، لم تنكسر حِدَّته ولم يصر ليِّناً. ومعنى «رُكب به ولان» أنه لان لكن ليس لدرجة التَّفتُّت والبلى.

(٤) ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، أي: في حكمه.



وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، المقصد بالآية الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أن الطائفة كلَّما كثرت فهي أَليق بامتثال الأمر. واختلف الناس في أَقل ما يُجزي ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن: لا بُدَّ من حضور عشرة، وقال: إن هذا العدد عقد خارج عن الآحاد وهي أَقل الكثرة، وقال ابن زيد وغيره: لا بُدَّ من حضور أَربعة، ورأَوا أَن شهادة الزنى كذلك وأَن هذا باب منه. وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً، وقال عطاءٌ وعكرمة: لا بُدَّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة، وقال مجاهد: يجزي الواحد ويُسمى طائفة، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ونزعا[١] بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾[٣] ونزلت في تقاتل رجلين.

واختلف العلماءُ في التغريب، وقد غرَّب الصديق رضي الله عنه إِلى فدك، وهو رأْي عمر وعثمان وعلي وأَبي ذرٍّ وابن مسعود وأُبيٍّ ابن كعب رضي الله تعالى عنهم، ولكن عمر رضي الله عنه بعد أَن نفى رجلاً فَلَحِقَ بالرُّوم فقال: لا أَنفي أَحداً بعدها، وفيه عن مالك قولان، ولا يرى تغريب النساء والعبيد، واحتج بقوله ﷺ: «لا تُسافر المرأَةُ مسيرة يوم إِلاَّ مع ذي محرم»[٤]، وممن أَبى التغريب جملةُ أَصحاب الرأْي، وقال الشافعي: ينفى البِكر رجلاً كان أَو امرأَة، ونفى علي رضي الله تعالى عنه امرأَة إِلى البصرة.

---

(١) يقال: نزع معنًى جيِّداً من الآية، أي: استخرج منها معنًى جيداً.

(٢) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة).

(٣) من الآية (٩) من سورة (الحجرات).

(٤) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة والصوم، ومسلم في الحج، والترمذي في الرضاع، وابن ماجه في المناسك، ومالك في الاستئذان من موطئه، وأحمد في مسنده (١/ ٢٢٢، ٢/ ١٢، ٣/ ٣٤) ومواضع كثيرة. ولفظه في مُسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلُوَنَّ رجل بامرأة، ولا تُسافر امرأة إلا ومعها ذو مَحْرَم»، وجاء رجل فقال: إن امرأتي خرجت إلى الحج وإني اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا، قال: «انطلق فاحجج مع امرأتك»، هكذا بدون تحديد للأيام، وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تُسَافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم»، وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرْمَة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

في هذه الآية أَربعة أَوجُه من التأْويل:

أَحدها أَن يكون مقصد الآية تشنيع وتبشيع أَمره، وأَنه مُحَرَّم على المؤمنين، واتصالُ هذا المعنى بما قبْلُ حسنٌ بليغ، ويريد بقوله سبحانه: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أَي لا يطأُ، فيكون النكاح بمعنى الجماع، وردَّد القصةَ مبالغة وأَخذاً من كلا الطرفين، ثم زاد تقسيم المشرك والمشركة من حيث الشرك أَعم في المعاصي من الزنى، فالمعنى: الزاني لا يطأُ في وقت زناه إِلاَّ زانيةً من المسلمين أَو من هي أَخَسُّ منها من المشركات، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأَصحابه أَن النكاح في هذه الآية الوَطْءُ، وأَنكر الزجاج وقال: لا يُعرف النكاح في كتاب الله تعالى إِلا بمعنى التزويج.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس كما قال، وفي القرآن ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[1]، وقد بيَّنه النبي ﷺ أَنه بمعنى الوطءِ، وذكر الطبري ما ينحو إِلى هذا التأْويل عن سعيد بن جبير، وابن عباس، وعكرمة، ولكن غير ملَخَّص ولا مكمَّل.

والثاني أَن تكون الآية نزلت في قوم مخصوصين، وهذا قول روي معناه عن عبد الله ابن عمر، وعن ابن عباس وأَصحابه رضي الله تعالى عنهم، قالوا: وهم قومٌ كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهورات، فلما جاءَ الإِسلام وأَسلموا لم يمكنهم الزنى، فأَرادوا ـ لفقرهم ـ زواج أُولئك النسوة؛ إِذ كان من عادتهن الإِنفاق على من ارتسم بزواجهن، فنزلت الآية بسببهن، والإِشارة بـ﴿ٱلزَّانِى﴾ إِلى أَحد أُولئك، حمل عليه اسم الزنى الذي كان في الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أَي لا يتزوج، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ معنى التفجع عليهم، وفي ذلك توبيخٌ كأَنه يقول: أَيُّ مصاب؟ الزاني لا يريد أَن يتزوج إِلاَّ زانية أَو مشركة، أَي: تنزع نفوسهم إِلى هذه الخسائس لقلة انضباطهم. ويَرِدُ على هذا التأْويل الإِجماعُ على أَن الزانية لا يجوز أَن يتزوجها مشرك، ثمَّ قوله:

(١) من الآية (٢٣٠) من سورة (البقرة).



﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نكاح أُولئك البغايا، فيزعم أَهل هذا التأويل أَن نكاح أُولئك البغايا حرَّمه الله تعالى على أُمَّة محمد ﷺ، ومن أَشهرهن عَنَاق البغي، وكان الذي همَّ بتزوُّجها دَلْدَلُ[١]، كان يستخرج ضعفة المسلمين من مكة سِرّاً، ففطنت له ودعته إلى نفسها فأَبى الزنى وأَراد التزويج، واستأْذن النبي ﷺ فنزلت الآية، ولمَّا دعته وأَبى قالت له: أَنَّى تبرز؟ والله لأَفضحنَّك[٢]، وذكر الطبري أَن من البغايا المذكورات أُم مَهزول جارية السائب المخزوميِّ، ويقال فيها: أُم مهزوم، وأُم غُلَيْط[٣] جارية صفوان ابن أُميَّة، وحنَّة القبطية جارية العاص بن وائل، ومُزْنة[٤] جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار، وجلالة[٥] جارية سهيل بن عمرو، وأُم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزوميِّ، وشريفة[٦]. جارية زمعة بن الأَسود، وفرسة جارية هشام بن ربيعة، ومرثنا[٧] جارية هلال بن أَنس، وغيرهن ممن كان لهن رايات تعرف منازلهن بها، وكذلك كان بالمدينة إماءُ عبد الله بن أُبيٍّ وغيره مشهورات.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال في سياق هذا التأْويل: «كانت بيوت في الجاهلية تُسمى المواخير، كانوا يؤجرون فيها فتياتهم، وكانت معلومة للزنى، فحرَّم الله ذلك على المؤمنين».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون هذا الكلام في التأْويل الذي ذكرته قبل هذا. وواحد المواخير:

---

(١) اسمه مَرْثد بن أبي مَرْثد، وكان رجلاً قوياً شديداً، وكان يساعد الضعفاء من المسلمين على الخروج من مكة سراً.

(٢) كان يحمل رجلاً من أسارى مكة، قال: فجئت به حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فعرفته عناق ودعته فأبى، فقالت له: أنَّى تستطيع البروز بمن معك؟ والله لأفضحنك، ثم نادت: يا أهل الخيام، هذا رجل يحمل أسراكم، فتبعه القوم، قال: فاختبأت منهم في كهف.. الخ القصة، وتجدها في «الدر المنثور» في خبر رواه جمع كبير منهم ابن جرير، والبيهقي وعبد بن حميد وغيرهم.

(٣) في الطبري: (أم عُليط) بالعين، وهي في جميع الأصول هنا بالغين المعجمة.

(٤) هكذا في الأصول، وفي الطبري: «مَرِيَّة».

(٥) في الطبري: «حلالة».

(٦) في الطبري: «سريفة» بالسِّين.

(٧) في الطبري «قريباً»، وقد رجعنا إلى الطبري لأن ابن عطية نقل الكلام عنه.

ماخورٌ، ومنه قول بعض المحدثين:

فِــي كُــلِّ وَادٍ هَبَطْنَــا فِيــهِ دسَكْــرَة   فِي كُلِّ نَشْزٍ صَعَدْنَا فِيهِ مَاخور[١]

والتأويل الثالث ذَكَرَهُ الزجاج وغيره عن الحسن، وذلك أَنه قال: المرادُ الزاني المحدود والزانية المحدودة[٢]، قال: وهذا حكم من الله تعالى، فلا يجوز لزانٍ محدُودٍ أَن يتزوج إِلاَّ محدودة، ورُوي أَن محدوداً تزوج غير محدودة فردَّ علي بن أَبي طالب نكاحهما، وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الزِّنى، وحكى الزهراوي في ذلك حديثاً من طريق أَبي هريرة أَن رسول الله ﷺ قال: «لا ينكح الزاني المجلود إِلاَّ مثله»، وهذا حديث لا يصح، وقولٌ فيه نظر، وإِدخال «المشرك» في الآية يردُّه، وأَلفاظ الآية تأْباه وإِن قُدرت «المشركة» بمعنى الكتابية فلا حيلة في لفظ المشرك.

والرابع قد روي عن سعيد بن المسيب، وذلك أَنه قال: هذا حكم كان في الزُّناة عامة، أَلا يتزوج زانٍ إِلاَّ زانية، ثم جاءت الرُّخصة ونُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٣]، ورُوي ترتيب هذا النسخ أيضاً عن مجاهد، إِلاَّ أَنه قال: إِن التحريم كان في أُولئك النفر خاصةً لا في الزُّناة عامة، ذكر ذلك عنهما أَبو عبيدة في ناسخه، وذكر عن مجاهد أَنه قال: حُرِّمَ نكاحُ أُولئك البغايا على أولئك النفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر «الإِشراك» في الآية يضعِّف هذه المناحي.

وقرأَ أَبو البرهثيم: [وحرَّم اللهُ ذلك على المؤمنين][٤].

واختلف فيمن زنى بامرأَةٍ وأَراد نكاحها ـ فأَجاز ذلك أَبو بكر الصديق، وابن عُمر، وجابر بن عبد الله، وطاوس، وابن المسيب، وجابر بن زيد، وعطاءٌ، والحسن،

---

(١) الدَّسْكَرة: القرية العظيمة، والجمع دساكر، والنَّشْزُ: ما ارتفع وظهر من الأرض، والجمع نشوزٌ ونشازٌ. والماخور: بيت الريبة، وفيه حديث زياد حين قدم البصرة أميراً عليها: ما هذه المواخير؟ الشراب عليه حرامٌ حتى تُسَوَّى بالأَرض هدماً وإِحراقاً، قال في اللسان: «هي مجلس الريبة، ومجمع أهل الفسق والفساد، وبيوت الخمارين».

(٢) يريد: الذي أقيم عليه الحدُّ بالجلد والتغريب.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (النور).

(٤) في «البحر المحيط»: «وقرأ أبو البرهثيم ﴿وَحَرَّمَ﴾ مبنياً للفاعل، أي الله»، ومعنى ذلك أن القارىء لم يذكر لفظ الجلالة في الآية.



وعكرمة، وابن عباس، ومالك والثوري، والشافعي[١]. ومَنَعه ابن مسعود، والبراءُ بن عازب، وعائشة، وقالوا: لا يزالان زانِيَيْن ما اجتمعا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية نزلت في القاذفين، قال سعيد بن جبير: كان سببها ما قيل في عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وقيل: بل نزلت بسبب القذف عامة لا في تلك النازلة. وذكر الله تعالى في الآية قذف النساءِ من حيث هو أَهَمُّ، ورَمْيُهُنَّ بالفاحشة أَبْشَع وأَنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإِجماع الأُمة على ذلك، وهذا نحو نصه تعالى على لحم الخنزير ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى والإِجماع، وحكى الزهراوي أَن المعنى: الأَنْفُس المحصنات، فهي تعُمُّ بلفظِها الرجال والنساءَ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٢]، والجمهور على فتح الصاد من ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وكسرها يحيى بن وثاب. و[المحْصنات] العفائف في هذا الموضع؛ لأَن هذا هو الذي يجب به جَلْد القاذف، والعِفَّةُ أَعلى معاني الإِحصان، وفي طيِّه الإِسلام، وفي هذه النازلة الحرية[٣]، ومنه قول حسان:

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق سعيد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال: إني كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرَّم الله عليَّ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها فقال الناس: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كُنَّ نساءً بغايا متعالنات، يجعلن على أبوابهن رايات، يأتيهن الناس يُعرفن بذلك، فأنزل الله هذه الآية. تزوجها فما كان فيها من إثم فَعَلَيَّ.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (النساء).

(٣) يعني أن الوصف بالإحصان يستلزم الإسلام والحرية، وهو يشير بذلك إلى أن للقذف شروطاً منها في المقذوف به أن يكون عاقلاً بالغاً مسلماً حرّاً عفيفاً عن الفاحشة التي رُمي بها، قال العلماءُ: إنما اشترط في المقذوف العقل والبلوغ لأن الحدَّ إنما وضع للزجر على الأَذى الذي يلحق بالمقذوف، ولا ضرر يلحق بالمجنون أو بغير البالغ، وهما شرطان أيضاً في القاذف لأنهما أصلان في التكليف، ولا تكليف بدونهما.



حَصَـــانٌ رَزَانٌ. . . . . (١)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وذكر الله تعالى من صفات النساءِ العفةَ المنافية للرمي بالزنى، ولتخرج من ذلك من ثبت عليها الزنى وغير ذلك ممن لم يبلغ الوطءَ من النساء حسب الخلاف في ذلك.

وعبَّر عن القذف بالرَّمي من حيث معتاد الرمي أنه مُؤْذٍ كالرمي بالحجر والسهم، فلما كان قول القاذف مؤذياً جعل رمياً، وهذا كما قال:

. . . . وَجُـرْحُ اللِّسَـانِ كَجُـرْحِ الْيَـدِ(٢)

والقذف والرمي بمعنى واحد.

وشدَّد الله تعالى على القاذف في أَربعة شهداءَ رحمةً بعباده وستراً لهم. وقرأَ جمهور الناس: ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ على إضافة الأَربعة إِلى الشهداء، وقرأَ عبد الله بن مسلم بن

---

(١) هذا بداية بيت قاله حسَّان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها، والبيت بتمامه:

حَصَـانٌ رَزانٌ مـا تُـزَنُّ بِـرِيبَـةٍ ... وتُصْبِح غَـرْثَـى مِـنْ لُحُوم الغَـوَافِـلِ

والحَصَان: العفيفة أو المتزوجة، وكلُّ امرأة عفيفة مُحْصَنة ومُحْصِنة، وكل متزوجة مُحْصَنة، وكان جمهور القراء على فتح الصاد من ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ لأن المراد النساء المتزوجات اللاتي قد أحصنهن أزواجُهن، ومن قرأ بالكسر ذهب إلى أنها أحصنت نفسها فهي مُحْصِنة. والرَّزَانُ: الوقور من النساء، يقال: امرأةُ رزان: ذات ثبات ووقار وعفاف، رزينة في مجلسها. وما تُزَنُّ بريبةٍ: لا ترمى ولا تتهم بما يريبها أو يعيبها. والغَرَثُ: الجوع، وقيل: الجوع الشديد، يقال في الرجل: غِرثَ فهو غَرِثٌ، وفي المرأة: غَرِثَتْ فهي غَرْثَى وغرثانة. والغوافل: كأنه مفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾. وحسَّان يصفها بالعفة والوقار والبعد عن الريبة والظن، وبأنها لا تأكل لحوم الغافلات من المؤمنات، فهي لا تتحدث عنهن بما يشين. والبيت في اللسان: (حصن ـ زنن ـ غرث).

(٢) هذا عجز بيت من الشعر، قاله امرىء القيس من قصيدة له يتهدد بني أسد، وفيها يقول:

تَطَـاوَلَ لَيْلُـكَ بِـالإِثْمِـدِ ... ونَـامَ الخَلِـيُّ ولَـمْ تَـرْقُـدِ
وبَـاتَ وبَـاتَـتْ لَـهُ لَيْلَـةٌ ... كلَيْلَـةِ ذي العَـائِـرِ الأَرْمَـدِ
وذلِـكَ مِـنْ نَبَـاءٍ جَـاءَنِـي ... وخُبِّـرْتُـهُ عَـنْ أَبِـي الأَسْـوَدِ
ولَـوْ عَـنْ نَثَـا غَيْـرِهِ جـاءَنِـي ... وجُـرْحُ اللِّسَـانِ كَجُـرْحِ الْيَـدِ

والنَّثَا: ما خَبَّرتَ به عن الرجل من حَسَن أو سيِّءٍ، والجَرح بالفتح: الفِعْل، والجُرْح بالضم: الاسم، يقول: إنه قد يُبلغ باللسان والوقل من هجاءٍ وذم ما يُبلغ بالسيف إذا ضُرب به. وأبو الأسود: رجل من كنانة هجا امرأ القيس. هذا وقد نسب القرطبي في تفسيره هذا الشعر إلى النابغة.



يسار، وأبو زُرْعَة بن جرير: [بأربعة] بالتنوين، و﴿ شُهَدَآءَ﴾ على هذا إمّا بدلٌ وإما صفة للأربعة وإمّا حالٌ وإمّا تمييز، وفي هذين نظرٌ؛ إذ الحال من نكرة والتمييز مجموع، وسيبويه يرى أن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشِّعر، وقد حسَّن أبو الفتح هذه القراءَة ورجَّحها على قراءَة الجمهور(١). وحكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة كالمرود والمكحلة في موطن واحد، فإن اضطرب منهم واحد جُلد الثلاثة والقاذف، كما فعل عمر بن الخاطب رضي الله تعالى عنه في أَمْر المغيرة بن شعبة، وذلك أنه شهد عليه بالزِّنى أبو بكرة نُفَيْع بن الحارث وأخوه نافع ـ وقال الزهراوي: عبد الله بن الحارث ـ وزياد أخوهما لأُمٍّ ـ وهو مستلحق معاوية ـ وشبل بن معبد الجبلي، فلما جاؤوا لأداءِ الشهادة توقف زيادٌ ولم يؤدِّها كاملةً، فَجَلَد عمر رضي الله عنه الثلاثة المذكورين(٢).

والجَلْدُ: الضربُ، والمجَادلة: المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف وغيره، ومنه قول قيس بن الخطيم:

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِراً ... كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقُ لَاعِبِ(٣)

---

(١) قال أبو الفتح في تعليل ذلك: «إن أسماء العدد من الثلاثة إلى العشرة لا تضاف إلى الأوصاف، لا يقال: عندي ثلاثة ظريفين، إلاَّ في ضرورة إلى إقامة الصفة مقام الموصوف، وليس ذلك في حسن وضع الاسم هناك، والوجه عندي: ثلاثةٌ ظريفون، وكذلك قوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لتجري ﴿شُهَدَآءَ﴾ على ﴿أَرْبَعَةِ﴾ وصفاً، فهذا هذا». «المحتسب» (٢/١٠١).

(٢) المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي، يقال له: مغيرة الرأي، تردَّد في دخول المنهاج ثم أسلم، وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام واليرموك ـ وفيها ذهبت إحدى عينيه ـ والقادسية ونهاوند، ولاَّه عمر رضي الله عنه على البصرة ثم الكوفة، وله ١٣٦ حديثاً، وهو أول من سُلِّم عليه بالإمرة في الإسلام، والخبر المذكور هنا عن قذفه من قِبل ثلاثة أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن سعيد بن المسيب، وكذلك أخرجه ابن جرير في تفسيره، والأربعة الذين قذفوه هم: نُفيع بن الحارث ـ ولكن الزهراوي يقول: إن اسمه عبد الله بن الحارث ـ وأخوه نافع، وأخوهما لأمهما زياد، وشبل بن معبد، لكن عندما تقدموا لأداء الشهادة توقف زيادٌ، فما كان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا أن جلد الثلاثة وقال لهم: توبوا نقبل شهادتكم، فتاب رجلان هما نافع وشبل، ولم يتب أبو بكرة نُفيع، وقد حلف ألا يكلم أخاه زياداً بسبب تراجعه عن الشهادة، ولم يكلمه فعلاً حتى مات.

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها قيس بن الخطيم في حرب سميت حرب حاطب، ومن أيامها يومُ الحديقة، وهي قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، وكانت=



ونصب ﴿ثَمَٰنِينَ﴾ على المصدر، و﴿جَلۡدَةً﴾ على التمييز. ثم أَمر الله تبارك وتعالى أَلاَّ نقبل للقذفة المحدودين شهادةً أَبداً، وهذا يقتضي مدةَ أعمارهم، ثم حكم عليهم بأَنهم فاسقون، أَي خارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ استثنى جلَّ وعزَّ من تاب وأَصلح من بعد القذف، فإِنه وعدهم بالرحمة والمغفرة، فتضمنت الآية ثلاثة أَحكام في القاذف: جَلْدُه، وردُّ شهادته أَبداً، وفسقه، فالاستثناءُ غير عامل في جَلْده بإِجماع[١]، وعامل في فسقه بإِجماع[٢]، واختلف الناس في عمله في الشهادة ـ فقال شريح القاضي، وإِبراهيم النَّخَعي، والحسن، والثوري، وأَبو حنيفة: لا يعمل الاستثناءُ في ردِّ شهادته[٣]، وإِنما يزول فسقه عند الله تعالى، وأَما شهادة القاذف فلا تقبل البتَّة ولو تاب وأَكذب نفسه ولا بحالٍ من الأَحوال. وقال جمهور الناس: الاستثناءُ عامل في ردِّ الشهادة، فإِذا تاب القاذف قبلت شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته ـ فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والشعبي وغيره أَن توبته لا تكون إِلاَّ بأَن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه، وهكذا فعل شبل بن معبد، ونافع، تابا عن القول في المغيرة، وأَكذبا أَنفسهما فقبل عمر رضي الله عنه شهادتهما، وأَبى أَبو بكرة نُفَيْع من إِكذاب نفسه فردَّ عمر رضي الله عنه شهادته حتى مات. وقالت فرقة ـ منها مالك رحمه الله، وغيره ـ: توبتُه أَن يَصْلُح وتَحْسُن حاله وإِن لم يرجع عن قوله بتكذيب.

واختلف فقهاءُ المالكيين، متى تسقط شهادة القاذف؟ فقال ابن الماجشون: بنفس قذفه، وقال أَبو القاسم، وأَشهب، وسُحنون: لا تسقط حتى يُجلد، فإِن منع من جَلْده

= للخزرج، وفي الأغاني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً إلى جماعة من الخزرج فاستنشدهم هذه القصيدة، فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ هذا البيت التفت إليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسألهم: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس. والمِخْرَاق: ما يلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة، قال ابن سيده: «هو منديل أو نحوه يُلْوى فيضرب به، وهو لعبة يلعب بها الصبيان»، وهو المعروف في مصر باسم: الطُّرَّة.

(١) لأن الحدَّ حق للمقذوفة، والتوبة لا تُسقط حقًّا، وحقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضهم على بعض لا تزول إلا بأدائها أو عفو أصحابها.

(٢) لأن الفِسْق صفة ذميمة يتصف بها العبد، فإن تاب عفا الله عنه ووضع عنه عقوبة التسمية الذميمة.

(٣) لأن الآية خصتها بالرَّفض الأبدي، والله تعالى يقول: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾.



مانع ـ عفوٌ أَو غيره ـ لم تُرَدَّ شهادته. قال الشيخ أَبو الحسن اللخمي: شهادته في مدة الأَجل في الإِثبات موقوفة، ورجَّح القول بأَن التوبة إِما أَن تكون بالتكذيب في القذف وإِلاَّ فأَيُّ رجوع لعدل إِنْ قَذف وحُدَّ وبقي على عدالته، و﴿ تَابُواْ﴾ معناه: رجعوا[١]؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ترجيح، وقد رجَّح الطبريُّ وغيره قول مالك.

واخْتُلف أيضاً ـ على القول بجواز شهادته بعد التوبة ـ في أَي شيءٍ تجوز شهادته؟ فقال مالك رحمه الله: تجوز في كل شيءٍ بإِطلاق، وكذلك كلُّ من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياءِ. وقال سُحْنون رحمه الله: من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياءِ فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه.

وقال مطرِّف، وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أَو زِنى فلا تجوز شهادته في شيءٍ من وجوه الزنى ولا في قَذْفٍ ولا في لِعَانٍ وإِن كان عدلاً، رويا هذا القول عن مالك، واتفقوا ـ فيما أَحفظه ـ على ولد الزنى أَن شهادته لا تجوز في الزِّنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات تناول ظاهرُها الأَزواج وغيرَهُم، فقال سعد بن عُبادة: يا رسول الله إِنْ وجدت مع امرأَتي رجلاً أُمهله حتى آتي بأَربعة؟ والله لأَضربنَّه بالسيف غير مُصْفح عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أَتعجبون من غيرة سعد؟ لأَنا أَغير من سعد والله أَغير مني»[٢]، وفي أَلفاظ سعد روايات مختلفة، وهذا

---

(١) نقل القرطبي كل هذا الكلام عن ابن عطية.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد الرزاق، والطيالسي، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي بعض الروايات ـ على ما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» أن الآية لما نزلت قال سعد بن عبادة: أهكذا أُنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأَنصار ألا تسمعون ما يقول سيِّدكم؟ قالوا: يا رسول الله لا تَلُمْهُ فإنه رجل=



نحو معناها، ثم جاءَ بعد ذلك هلال بن أُمَيَّة الواقفي فرمى زوجته بشَريك بن السَّحْمَاءِ البَلَوي، فعزم رسول الله ﷺ على ضربه حدَّ القذف فنزلت هذه الآية، فجمعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا فتلكأَت المرأَة عند الخامسة لما وُعِظَتْ وقيل: إِنها مُوجبة، فقالت: لا أَفضح قومي سائر اليوم ولجَّت، وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وولدت غلاماً كأَنه جمل أَورق[1]، ثم كان ـ بعد ذلك ـ الغلامُ أَميراً بمصر وهو لا يعرف لنفسه أَباً. وجاءَ أَيضاً عُوَيْمر العَجْلاني فرمى امرأَته ولاَعَنَ[2]، والمشهور أَن نازلة هلال قَبْلُ وأَنها سبب الآية، وقيل: نازلة عُوَيْمر قَبْلُ، وهو الذي وسط إِلى رسول الله ﷺ عاصم بن عدي[3].

و«الأَزْوَاجُ» في هذا الحُكْم يعُمُّ المسلمات والكافرات والإِماءَ، فكلهنَّ يلاعنهنَّ الزوج للانتفاءِ من الحمل، وتختص الحرَّة برفع حدِّ القذف عن نفسه[4].

= غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلَّق امرأة قط فاجترأ رجلٌ منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكني تعجبت، إني لو وجدت لكاعاً قد تفخَّذها رجلٌ لم يكن لي أن أهيجه ولا أُحركه حتى آتي بأربعة شهداءَ، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. ثم حدثت قصةُ هلال بن أُمية، وقال الأنصار: قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة الآن. وقد ذكرنا الخبر كاملاً في الهامش (٢) من صفحة ٣٣٣ من هذا المجلد.

(١) الأَوْرَقُ من كلِّ شيءٍ: ما كان لونه لون الرماد، ومن الناس: الأسمر، ومن الإبل: ما في لونه بياض إِلى سواد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، عن سهل بن سعد، وفي الخبر ـ كما ذكره الإمام السيوطي في «الدر المنثور» ـ أن عُوَيْمر جاءَ إلى عاصم بن عدي فقال: سلْ رسول الله ﷺ: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أَيُقْتَلُ به أمْ كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله ﷺ المسائل، فلقيه عُوَيْمر فقال: ما صنعت؟ فقال: إنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ ولأَسألنه، فأتاه فوجده قد أُنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما.

(٣) نقل القرطبي عن أبي عبد الله بن أبي صفرة، قال: الصحيح أن القاذف لزوجه عُوَيْمر، وهلال بن أُمية خطأ، ثم نقل عن الطبري أنه استنكر أن يكون هو هلال بن أُمية، وأنه قال: «وإنما القاذف عُوَيْمر بن زيد بن الجَدِّ بن العجلاني، شهد أُحُداً مع النبي ﷺ، رماها بشَريك بن السَّحْماء، والسَّحْماء أُمُّه، قيل لها ذلك لسوادها، وهو ابن عبدة بن الجَدِّ بن العجلاني، كذلك كان يقول أَهل الأَخبار» راجع القرطبي (١٢/ ١٨٤).

(٤) يعني أنه يلاعنها لرفع حد القذف عن نفسه.



وقرأ الجمهور: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب، وهو كانتصاب المصدر، والعامل في ذلك قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، ورفع «الشهادة» على خبر ابتداءٍ تقديره: فالحُكْمُ أَو فالواجبُ، أَو على الابتداءِ بتقدير: فعَلَيْهم أَن يشهدوا، أَو بتقدير حذف الخبر وتقديره في آخر الآية: كافيةٌ أَو واجبةٌ.

وقوله تعالى: ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ من صلة ﴿ شَهَٰدَٰتٍ ﴾، ويجوز أَن يكون من صلة ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ بالرفع، وذلك على خبر قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، قال أَبو حاتم: لا وجه للرفع لأَن الشهادة ليست بأَربع شهاداتٍ، و﴿ بِٱللَّهِ ﴾ ـ على هذه القراءَة ـ من صلة ﴿ شَهَٰدَٰتٍ ﴾، ولا يجوز أَن يكون من صلة ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ لأَنك كنت تفصل بين الصلة والموصول بالخبر الذي هو ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قول من نصب ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ يجوز أَن يكون من صلة ﴿شهادةُ﴾، وهي جملة في موضع نصب لأَن «الشهادة» أَوقعتها موقع المفعول به، ومن رفع ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من صلة ﴿ شَهَٰدَٰتٍ﴾ لعلة الفصل المتقدمة في قوله: ﴿ بِٱللَّهِ﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: [وَٱلْخَامِسَةَ] بالنصب في الثانية، وقرأَها بالنصب فيهما طلحةُ ابن مصرف، وأَبو عبد الرحمن، والحسن، والأَعمش، وقرأَ الجمهور فيهما: [وَٱلْخَامِسَةُ] بالرفع، فأَمّا من نَصَب فإِنْ كانَ في قراءته نصب قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ فإِنه عطف ﴿ٱلْخَامِسَةَ﴾ على ذلك لأَنها من الشهادات، وإِن كان يقرأُ: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ بالرفع فإِنه جعل نَصْب قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةَ﴾ على فعل يدل عليه متقدم الكلام، تقديره: وتشهد الخامسة، وأَما من رفع قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ فإِن كان يقرأُ: [أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ] بالرفع فقوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ عطف على ذلك، وإِن كان يقرأُ ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب فإِنه حمل قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ على المعنى؛ لأَن معنى قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾: عليهم أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ والْخَامِسَةُ، واستشهد أَبو عليٍّ لهذا بحمل الشاعر:

وَمُشَجَّجٌ أَمَّا سَوَاءُ... البيت . . . .



على قوله:

. . . . إلاَّ رَوَاكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ[(١)]

لأَن المعنى: ثَمَّ رَوَاكِدُ. ولا خلاف في السَّبْعِ في رفع قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ في الأُولى، وإنما خلاف السَّبع في الثانية فقط، فنصبه حَمْلٌ على قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ﴾، ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ على القطع والحمل على المعنى[(٢)].

---

(١) هذه أجزاءٌ من بيتين استشهد بهما ابن عطية، وعلى عادته اكتفى بموضع الشاهد فقط من كل بيت، والبيتان في كتاب سيبويه، وهما بتمامهما:

بَادَتْ وغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ الْبِلَى ... إِلاَّ رواكِدَ جَمْرُهُنَّ هبَاءُ
ومُشَجَّجٌ أَمَّا سَوَاءُ قَذَالِهِ ... فَبَدَا وغَيَّرَ سَارَهُ المَعْزَاءُ

وسيبويه يستشهد بهما في مجال العطف على المجرور، فأنت تقول: «هذا ضاربُ زيدٍ وعمروٍ» إذا أشركت بين الآخر والأول في الجار لأنه لا مانع من ذلك، وإن شئت نصبتَ على المعنى وتُضمر له ناصباً، فتقول: «هذا ضاربُ زيدٍ وعَمْراً» كأنه قال: ويضرب عَمْراً أو ضاربٌ عَمْراً، وإنما جاز هذا الإضمار عنده لأن معنى الكلام في قولك: «هذا ضاربُ زيدٍ»: هذا ضربَ زيداً، فيجوز لك أن تقول: وضربَ عَمْراً، وهذا حمل على المعنى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾، فالمعنى في الآية: لَهُمْ فيها لَحْمُ طَيْرٍ، ولهذا رُفع ﴿حُورٌ﴾ حَمْلاً على المعنى، ثم استشهد بالبيتين، وفيهما رفع الشاعر قوله: ﴿ومُشَجَّجٌ﴾ مع أنه في أصل الكلام معطوف على «رواكد» في البيت السابق، وحقه النصب، لكنه رفعه حملاً على المعنى، كأنه قال: بها رواكدُ ومُشَجَّجٌ. ومعنى بادت: بليت وذهبت، والآيُ: جمع آية وهي آثارُ الديار وعلاماتُها، والبلى: تقادم العهد، والرواكد: يريد بها الأثافي وهي الأحجار التي توضع عليها القدر عند طهي الطعام، سميت بذلك لثبوتها وبقائها في مكانها، والراكد هو الثابت الساكن في موقعه، والهَبَاءُ: الغبارُ، جعل الجَمْر كالهباءِ لِقِدَمِهِ وانسحاقه، والمُشَجَّجُ: الوَتَد من أوتاد الخباءِ، وشجُّه أو تشجيجه هو شقه بالضرب على رأسه لتثبيته، والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس، والمراد به هنا أعلى الوتد، وسواؤُه: وسَطُهُ، وسَارَهُ: سائره وجميعه، وهي لغةٌ في سائره، قال في اللسان: «وسارهُ: جميعُهُ، يجوز أن يكون من الباب لسعة الباب (س ي ر)، وأن يكون من الواو لأنها عين، وكلاهما قد قيل»، وقال الشنتمري: «حذف عين الفعل لاعتلاله، ونظيره هار بمعنى هائر، وشاكٍ بمعنى شائك». والمَعْزَاءُ: الأرض الحَزْنَة الغليظة ذات الحجارة، وجمعها الأماعز، وكانوا يتحرَّون أن ينزلوا في الأراضي الصلبة ليكونوا بمعزل عن السبيل، والمَعْزَاءُ بفتح الميم، وقد ضبطها بعضهم بالكسر وهو خطأ.

هذا والبيت الثاني في اللسان والتاج وأساس البلاغة، وقد ضبطه محقق اللسان «ومُشَجَّجٍ» بالكسر، والأحسن ما ذكرناه هاهنا وهو الموافق لرأي سيبويه.

(٢) هكذا في الأصول، والذي نفهمه من كلامه أنه حدث خلاف في قراءة ﴿وَٱلْخَامِسَةَ﴾ الثانية، فمن نصبها فقد عطفها على قوله: ﴿أربعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ إذا كان يقرؤها بنصب ﴿أربعَ﴾، ومن قرأ [وَٱلْخَامِسَةُ] بالرفع فقد=



وقرأ نافع: [أَنْ لَعْنَةُ اللهِ][1]، و[أَنْ غَضِبَ اللهِ][2]، وقرأ الأعرج، والحسن، وقتادة، وأبو رجاءٍ، وعيسى: [أَنْ لَعْنَةُ اللهِ][3]، و[أَنْ غَضَبُ اللهِ][4]، وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة كما هي في قول الشاعر:

فِـي فِتْيَـةٍ كَسُيُـوفِ الْهِنْـدِ قَـدْ عَلِمُـوا أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ[5]

وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنَّ لعنَةَ اللهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ بتشديد النون فيهما ونصب اللعنة والغضب، ورجَّح الأخفش القراءَة بتثقيل النون لأَن الخفيفة إنما يراد بها التثقيل ويضمر معها الأمر والشأن، وما لا يُحتاج معه إلى إضمارٍ أَولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لا سيما وأَن الخفيفة ـ على قراءة نافع ـ في قوله تعالى: [أَنْ غَضِبَ ٱللَّهُ] قد وَلِيَهَا

= حملها على المعنى في قوله: ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍ﴾، لأن المعنى فيها: عليهم أَرْبَعُ شَهادات.

(١) بتخفيف [أَنْ] ورفع ﴿لَّعْنَتُ﴾ ولفظ الجلالة مضاف إلى ﴿لعنة﴾.

(٢) بتخفيف [أَنْ]. و[غَضِبَ] فعلٌ ماضٍ، ولفظ الجلالة مرفوع، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة لمَّا خُفِّفَت حذف اسمها وهو ضمير الشأن.

(٣) كقراءة نافع، وفي قراءة الأعرج بها خلاف، وهي أيضاً قراءة سلام، وعمرو بن ميمون، ويعقوب ـ بخلاف عنه ـ.

(٤) بتخفيف [أَنْ] و[غَضَبُ] مصدر مرفوع.

(٥) البيت للأعشى، وهو في الديوان، ورواية العَجُز فيه «أَنْ ليسَ يَدْفَعُ عن ذي الحِيلَةِ الحِيَلُ»، وهو أيضاً في العيني، وابن يعيش، وخزانة الأدب، والخصائص لابن جنّي، والمنْصف، والإنصاف، وابن الشجري، والهمع، وفي كتاب سيبويه، استشهد به أكثر من مرة. وهو من قصيدة الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ وَهَـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟

يقولها ليزيد بن مسهر الشيباني. والشاعر في البيت وما قبله وبعده يتحدث عن أصدقائه ويصفهم بأنهم كالسيوف الهندية مضاءً وعزيمة، او استقامة ورشاقة، وأنهم يعلمون أن الحياة فانية، وكل من عليها ذاهب، ولهذا فهم يقبلون على اللذات. والشاهد في البيت تقدير ضمير الشأن، وهذا ما عناه ابن عطية حين قال: «وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة»، فـ«أَنْ» في البيت مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها هي الخبر، قال ابن الحاجب في شرح المفصل: «لولا أن ضمير الشأن مقدر هاهنا لم يستقم تقدير الخبر، فالذي سوَّغ تقدير الخبر كون الجملة واقعة خبراً لا كون «أَنَّ» بطل عملها فصار ما بعدها مبتدأ وخبراً؛ لأنهم يعتبرون مع التخفيف ما يعتبرونه مع التشديد من امتناع تقديم خبرها».



الفِعْل، قال أَبو علي: وأَهل العربية يستقبحون أَن يليها الفعل إلا أَن يفصل بينها وبينه شيءٌ نحو قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾[2]، وأَما قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] فذلك لقلة تمكن «لَيْسَ» في الأَفعال، وأَما قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[4] فـ﴿بُورِكَ﴾ على معنى الدعاء فلم يجز دخول الفاصل لئلا يفسد المعنى[5].

و«ٱلْعَذَابُ ٱلْمُدْرَأُ» في قول العلماءِ: الحدُّ، وحكى الطبري عن آخرين أَنه الحبس، وهذا قول أَصحاب الرأي، وأَنه لا حدَّ عليها إن لم تُلاعن، وليس يوجبه عليها قول الزوج.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الحديث الوقفة في الخامسة حين تلكأَت ثم مرت في لعانها أَنها كانت تحدّ لقول النبي ﷺ لها: «فعذاب الدنيا أَيسر من عذاب الآخرة»[6].

وجُعلت اللعنةُ للرجل الكاذب لأَنه مُفْتر مباهت بالقول فأُبعد باللَّعنة، وجُعل الغضب الذي هو أَشَدُّ على المرأَة التي باشرت المعصية بالفعل ثم كذبت وباهتت بالقول، فهذا معنى هذه الأَلفاظ، والله أَعلم.

ولا بُدَّ أَن نذكر في تفسير هذه الآية ما يتعلق بها من مسائل اللعان إِذ لا يستغنى عنها في معرفة حكمه وحيث يجب، وأَجمع مالك وأَصحابه على وجوب اللعان بادعاءِ رؤْية زنى لا وطءَ بعده من الزوج[7]، وكذلك مشهور المذهب، وقول مالك أَنَّ اللعان

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المزمل).

(٢) من الآية (٨٩) من سورة (طه).

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (النجم).

(٤) من الآية (٨) من سورة (النمل).

(٥) علَّق أبو حيان في «البحر المحيط» على هذا بقوله: «ولا فرق بين ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ في كون الفعل بعد [أَنْ] دعاءً، ولم يتبيَّن ذلك ابن عطية، وبكون ﴿غَضَبَ﴾ دعاءً مثَّل النحاةُ أنه إذا كان الفعل دُعاءً لا يفصل بينه وبين (أَنْ) بشيء».

(٦) راجع حديث هلال بن أُمية الذي رمى زوجته بشَريك بن السحماء، وقد سبق، وفيه أن المرأة تلكأت عند الخامسة حين قيل لها: إنها موجبة حتى ظن السامعون أنها ستراجع، ثم مضت في شهادتها وقالت: لا أفضح قومي بقية اليوم.

(٧) أي يقول بعد أن يشهد بأنه رآها تزني: «وما وطئتُها بعد رؤيتي».

يجب بنفي حَمْل يدعى قبله استبراءٌ، وحكى اللخمي عن مالك أنه قال مرة: لا يُنفى الولد بالاستبراءِ لأَن الحيض يأتي على الحَمْل، وقاله أَشهب في كتاب ابن المواز، وقاله المغيرة، وقال: لا يُنْفَى الولد إِلاَّ بخمس سنين(١).

واختلف المذهب في أَن يقذف الرجل أَو ينفي حملاً ولا يُعَلِّل ذلك لا برؤْيَة ولا باستبراء ـ فَجُلُّ رُواة مالك على أَن ذلك لا يوجب لعاناً، بل يُحَدُّ الزوج، قاله ابن القاسم، ورُوي عنه أيضاً أَنه قال: يلاعن ولا يُسأَل عن شيءٍ(٢).

واختُلف ـ بعد هذا القول باللعان بالاستبراء ـ في قدر الاستبراء، فقال مالك، والمغيرة ـ في أَحد قوليه ـ: يجزي في ذلك حَيْضَةٌ، وقال أيضاً مالك: لا ينفيه إِلا ثلاث حِيَض(٣).

وأَما موضع اللعان ففي المسجد وعند الحاكم، والمستحب أَن يكون في المسجد بحضرة الحاكم، وكذلك يستحب [أَن يكون](٤) بعد العصر تغليظاً بالوقت، وكل وقت مُجْز.

ومن قذف امرأَته وهي كبيرةٌ لا تحمل تَلاَعَنا، هو لِرَفْع الحدِّ، وهي لِدَرْءِ العذاب، وإِن كانت صغيرة لا تحمل لاَعَن هو لرفع الحدِّ، ولم تلاعن هي لأَنها لو أَقرت لم يلزمها شيء(٥)، وقال ابن الماجشون: لا حدَّ على قاذف من لم تبلغ، قال اللَّخميُّ: فَعَلَى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل.

والمستحب من أَلفاظ اللعان أَن يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه، فيقول الزوج:

---

(١) لأن هذه السنين هي أكثر مدة الحمل كما يرى فقهاء المالكية.

(٢) يرى القرطبي أن هذا هو الصحيح لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، ويقول ابن العربي: «وظاهر القرآن يكفي لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية، فَلْتُعَوِّلوا عليه، لا سيَّما وفي الحديث الصحيح: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً؟ فقال النبي ﷺ: «فاذهب فأت بها»، ولم يكلِّفه ذكر الرؤية».

(٣) قال في اللسان: «الحَيْضَةُ: المرة الواحدة من دُفع الحيض ونُوَبه، والحَيْضات جماعة، والحِيضَةُ: الاسم ـ بالكسر ـ، والجمع الحِيَضُ، وقيل: الحِيضَةُ الدَّمُ نفسه، وفي حديث أُم سَلَمة «لَيْسَت حِيضَتُك في يدك».

(٤) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها التعبير ليكون أوضح.

(٥) لأن البلوغ شرط من شروط التكليف.



أَشهد بالله لرأَيت هذه المرأَة تزني[١]، وإِنِّي في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: لعنةُ الله عليَّ إِن كنت من الكاذبين، وقال أَصبغ: لا بُدَّ أَن يقول: «كالمِرْود في المُكْحَلة»، وقيل: لا يلزمه ذلك، وكذلك يقول أَشهب: لا بُدَّ أَن يقول: بالله الذي لا إله إلاَّ هو، وأَما في لعان نفي الحمل فقيل: يقول الرجل ما هذا الولد منِّي ولَزَنت، وقال ابن القاسم في الموازية: لا يقول «وَزَنَت» من حيث يمكن أَن تغضب، ثم تقول: غَضَبُ الله عليَّ إن كان من الصادقين، فإِن منع جهلهما من ترتيب هذه الأَلفاظ وأَتيا بما في معناها أَجزأَ ذلك.

وحكى اللَّخمي عن محمد بن أَبي صفرة أَنه قال: اللعان لا يرفع العصمة لقول عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إِنْ أَمسكتها، قال: (فأَحْدثْ طلاقاً)، ومشهور المذهب أَن نفس تمام اللعان بينهما فرقة، ولا يحتاج معها إِلى تفريق حاكم، وابن أَبي صفرة هذا ليس بعدد[٢] يُزاحم به الجمهور. ومذهب الشافعي أَن الفرقة حاصلة إِثر لعان الزوج وحده، وقال أَبو حنيفة وأَصحابه: لا تفريق إِلا بحكم السلطان بعد تمام لعانهما، فإِن مات أَحدهما بعد تمام لعانهما وقبل حكم القاضي ورثه الآخر، ومذهب «المدونة» أَن اللعان حكم تفريقه حكم الطلاق، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق، وفي مختصر ابن الجلاب: لا شيء لها، وهذا على أَن تفريق اللعان فسخٌ، وقال ابن القصار: تفريق اللعان عندنا فسخ.

وتحريم اللعان أَبديٌّ بإِجماع فيما أَحفظ من مذهب مالك رحمه الله، ومن فقهاءِ الكوفة وغيرهم من لا يراه متأَبداً، وإِن أَكذب نفسه بعد اللعان لم ينتفع بذلك، وروي عن عبد العزيز بن سلمة أَنه إِن أَكذب نفسه بعد اللعان كان خاطباً من الخطاب. وإِن تقدمت المرأة في اللعان فقال ابن القاسم: لا تعيد، وقال أَشهب: تعيد[٣].

والجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الآية محذوفٌ، تقديره:

---

(١) يقتضي كلامه السابق أنَّ عليه أنْ يقول بعد ذلك: «وما وطئتُها بعد رؤيتي».

(٢) في بعض النسخ: «ليس بعود»، المراد هنا أنه فردٌ وليس بذي منزلة كبيرة يكون له معها رأيٌ يقابل رأي الجمهور.

(٣) من رأي القرطبي أن البدءَ بالمرأة لا يجوز لأنه خلاف القرآن، وليس له أصل يُرَدُّ إليه ولا معنى يُقوَّى به، بل المعنى لعدم الجواز؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان تكون كأنها تنفي ما لم يثبت، وهذا لا وجه له.

لَكَشَفَ الزناة بأَيسر من هذا، أَو لأَخذهم بعقاب من عنده، ونحو هذا من المعاني التي أَوجب تقديرها إِبهامُ الجواب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها إِلى ست عشرة آية أُنزلت في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وما اتصل بذلك من أَمر الإِفك، وفي البخاري في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وأَنزل الله تعالى العشر الآيات، ثم أَنزل الله هذا في براءتي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَنها عدت ما يختص بها.

و«الإِفْكُ»: الزُّور والكذب، والأَفَّاكُ الكذَّابُ، والإِفك قلب الحقيقة عن حالها بالأَقوال وصرفها عن جهة الصواب، وبذلك شبه بالكذب.

واختصار حديث الإِفك أَن رسول الله ﷺ خرج بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع[(١)]، قال ابن إِسحاق: وكانت سنة ستٍّ، وقال موسى بن عقبة: كانت سنة أَربع[(٢)]، فضاع لها هناك عقد، فلما انصرفت إِلى الرحل شعرت بضياعه فرجعت تطلبه، وسار الناسُ حينئذ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أَحداً، وكانت شابة قليلة اللحم رفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها، فلما لم تجد أَحداً اضطجعت في مكانها رجاءَ أَن تُفتقد فيُرجع إِليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إِلاَّ قول صفوان بن المعطل: إِنَّا لله وإِنا إِليه راجعون، وذلك أَنه تخلف وراءَ الجيش لحفظ

(١) هو ماءٌ لبني المصطلق يقال له: المُرَيْسِيع، وهو من ناحية قُدَيْد إلى الساحل، وقد لقيهم الرسول ﷺ على هذا الماء فسميت الغزوة باسمه.

(٢) وقيل: بل كانت سنة خمس، قال الحاكم في «الإكليل»: وهذا أشبه من قول ابن إسحق، ويؤيد هذا ما ثبت في حديث الإفك من تنازع كل من سعد بن معاذ الأنصاري وسعد بن عبادة في أصحاب الإفك، ولو كانت غزوة المُرَيْسِيع سنة ست كما قال ابن إسحق لكان ذكر سعد بن معاذ في حديث الإفك خطأ؛ لأنه مات أيام قريظة سنة خمس على الصحيح. هذه حجة من قال إنها كانت سنة خمس، واعتمد على ذكر ابن معاذٍ في مسلم والبخاري، أما ابن إسحاق الذي ذكر أنها كانت سنة ست فلا يذكر سعد بن معاذ، بل يذكر أُسيد بن حُضَير على أنه هو الذي وقع بينه وبين سعد بن عبادة نزاع.



الساقة، وقيل: اتفاقاً، فلما مرَّ بسوادها قرب منها فعرفها فاسترجع وقال: ظعينة رسول الله ﷺ خُلِّفت هاهنا؟ ونزل عن ناقته وتنحَّى عنها حتى ركبت عائشة رضي الله عنها، وأَخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحْر الظهيرة، فوقع أَهل الإِفك في مقالتهم، وكان الذي يُجتمع إِليه فيه ويَسْتَوْشِيهِ[١] ويُشْعله عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول المنافق، وكان من أَهل قالته حسان بن ثابت، ومسْطَح بن أُثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش، هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإِتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أَكمل[٢].

وكان صفوان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة، قال لمَّا سمع ما قال الناسُ فيه: «سبحان الله، والله ما كشفت كَنف[٣] أُنثى قط، أَراد: بزنَى[٤]، ويدل على ذلك حديثه المروي مع امرأَته، وقول النبي ﷺ في ابنَيْه: «لَهُمَا أَشْبه به من الغراب بالغراب»[٥]، وقيل: كان حصوراً لا يأْتي النساءَ، ذكره

---

(١) يَسْتَوْشِيه: يستخرجه بالبحث والسؤال عنه ثم يُفشيه ويشيعه وينشره في الناس.

(٢) حديث الإفك مشهور، وهو حديث طويل، وقد رواه البخاري في غزوة بني المصطلق، ورواه مسلم في كتاب التوبة، وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن من رواته أحمد في مسنده، والترمذي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وهو عن عائشة رضي الله عنها. وقد نقل ابن كثير في تفسيره حديث الإفك عن الإمام أحمد وعن البخاري ومسلم، كذلك ذكر الحديث مطولاً الإمام الحافظ ابن حجر في كتاب «فتح الباري».

(٣) الكَنَف: جانب الشيء، وكنفا الإنسان: حِضْناه عن يمينه وشماله. «المعجم الوسيط»، وقد ورد في بعض الكتب «كتف» بالتاء.

(٤) جاء في حديث الإفك ما يأتي على لسان السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: «وبلغ الأمرُ ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفْتُ كَنَفَ أُنثى قط» وهذا يتفق مع ما قاله ابن إسحاق من أن صفوان كان حصوراً لا يأتي النساء، ولكن ذلك يتناقض مع ما رواه أبو داود من طريق أبي صالح عن أبي سعيد، قال: «جاءت امرأة صفوان إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن زوجي صفوان يضربني. . .» فكيف تكون له زوجة ويقول: ما كشفت كنف امرأة قط؟ يجيب ابن عطية عن هذا بقوله: «أراد بزنى» يعني: لم أكشف كنف امرأة في زنى، أما الحلال فلم ينفه، وقد أورد البخاري هذا الإشكال قديماً، ومال إلى تضعيف حديث أبي سعيد عن قصة امرأته وضربه لها، وأجاب صاحب «الإصابة» بقوله: إنه تزوج بعد قصة الإفك، أما عند قصة الإفك فلم يكن قد كشف كنف امرأة قط، وهو صادق في يمينه.

(٥) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري في كتاب اللباس، وهو عن رفاعة الذي طلَّق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي، وشكت المرأة أن زوجها الجديد ليس معه إلا مثل هدبة الثوب، وكذَّبها=



ابن إسحاق من طريق عائشة رضي الله عنها، وقُتل شهيداً رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمن عمر رضي الله عنه، وقيل: في بلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمن معاوية.

وقوله تعالى: ﴿عُصۡبَةٌ﴾ رفع على البدل من الضمير في ﴿جَآءُو﴾، وخبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾، والتقدير: إنَّ فِعْلَ الذين، وهذا أَنسق في المعنى وأكثر فائدة من أَن تكون ﴿عُصۡبَةٌ﴾ خبراً، و«العُصْبَةُ»: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، قاله يعقوب وغيره، ولا يقال عُصبة لأقل من عشرة، ولم يُسم من أَهل الإفك إلاَّ حسان، ومِسْطَح، وحَمْنَة، وعبد الله[1]، وجُهل الغير، قاله عروة بن الزبير وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إلاَّ أَنهم كانوا عصبةً كما قال الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ خطاب لكلِّ من ساءَه من المؤمنين، وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ يريد أَنه تَبْرئة في الدنيا، وترفيع من الله تبارك وتعالى في أَن نزل وحيه بالبراءَة من ذلك، وأَجر جزيل في الآخرة، وموعظة للمؤمنين في غابر الزمن، ونقمة من المفترين في الدنيا والآخرة ففي ذلك شفاءٌ وخير، وهذه خمسة وجوه. وقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ عائد على العصبة المذكورة، و«ٱكۡتَسَبَ» مستعملة في المآثم ونحوها لأَنها تدل على اعتمالٍ وقصد هو أَبلغ في الترتيب، و«كَسَبَ» مستعملٌ في الخير، وذلك أَن حصوله مُغْنٍ عن الدلالة على اعتمالٍ فيه، وقد تستعمل «كَسَبَ» في الوجهين، ومِثْلُهُ:

. . . . فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَٱحْتَمَلْتَ فَجَارِ[2].

= زوجها وقال إنها ناشز وتريد العودة إلى رفاعة، وكان معه ابنان له من غيرها، فقال لها النبي ﷺ: «هذا الذي تزعمين ما تزعمين، فوالله لهما أشبه به من الغراب بالغراب»، ولم نقف على مثل هذا النص من حديث عن صفوان إلاَّ هذه الفقرة التي ذكرها المؤلف، ونقلها عنه القرطبي فيما نقل، وهي أيضاً في كتاب الإصابة، والله أعلم بالصواب.

(١) وقد ضرب النبي ﷺ حسان، ومسْطحاً، وحَمْنَة بعد أن برأ القرآن الكريم عائشة رضي الله عنها، فقد أقام عليهم حدَّ القذف، واختلف هل أُقيم الحدُّ على عبد الله بن أُبي بن سلول أم لا، ومِسْطح لقَبٌ، واسمه عوف. وحَمْنة هي أُخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ.

(٢) هذا عجز بيت للنابغة الذبياني، والبيت بتمامه:

إِنَّــا اقْتَسَمْنَــا خُطْتَيْنَــا بَيْنَنَــا ... فَحَمَلْــتُ بَــرَّةَ وَاحْتَمَلْــتَ فَجَــارِ

وهو من قصيدة قالها النابغة في هجاءِ زرْعَة بن عمرو بن خويلد الكلابي، لأن زرْعة كان قد طلب إلى النابغة أن يشير على قومه بقتال بني أسد، فأبى النابغة فتوعده زرْعة، فقال النابغة قصيدته وفيها: =



والإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إلى عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، والعذابُ المتوعَّد به هو عذاب الآخرة، وهذا قول الجمهور، وهو ظاهر الحديث، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن حسَّان بن ثابت دخل عليها يوماً وقد عَمِيَ فأنشدها مدحه فيها:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُوم الغَوَافِلِ[1]

فقالت له عائشة رضي الله عنها: لكنك لستَ كذلك، تريد أنه وقع في الغوافل فأنشد:

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي[2]

فلما خرج قال لها مسروق: أيدخل هذا عليك وقد قال ما قال وتوعَّده الله بالعذاب على تولِّيه كِبْر الإفك؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: أيُّ عذاب أشد من العمى وضرب الحدِّ؟ وفي رواية: وضربة بالسيف؟

= نُبِّئْتَ زرعَةَ والسَّفَاهَةُ كَاسْمِها ... يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ

وقد استشهد صاحب اللسان بالنصف الثاني أيضاً من البيت، وقال: «عبَّر عن البَرَّةِ بالحَمْل، وعن الفُجْرة بالاحتمال؛ لأن حَمْل البَرَّة بالإضافة إلى احتمال الفجرة أمْرٌ يسير ومستصغر، ومثله قول الله عزَّ اسمه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. وبرَّة عَلَم لِلْبِرِّ، وفَجَار عَلَم على الفجور، وهو مبني على الكسر، وقد قيل: إن (احْتَمَل) بمعنى (حَمَل)، وأصله مطاوع (حَمَّلَهُ) فاحتمل، ولكن تُنوسي معنى المطاوعة بكثرة الاستعمال فصار بمعنى حَمَل، والنابغة يقول لزرعة: لقد ذهب كل منها بحظه ونَصيبه في الحياة، فذهبتُ أنا بالخَيْر والبرِّ، وذهبتَ أنت بالشرِّ والفجور.

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾. راجع صفحة (٣٤٠).

(٢) هذا بيت آخر من الأبيات التي قالها حسَّان بن ثابت في مدح أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو في هذه الآيات يعتذر عمَّا كان منه، وقد رواها ابن إسحاق وتجدها في السيرة النبوية لابن هشام، وهذه هي الأبيات كما رواها، وتختلف في عددها وترتيب الأبيات فيها عما في الديوان:

حَصَانٌ رَزانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحوم الغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بن غَالِبٍ ... كِرَامِ المَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ الله خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِن كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فإن كُنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمْتُمُوا ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوطِي إليَّ أَنَامِلِي
وكيفَ وَوُدِّي ما حَيِيتُ ونُصْرَتِي ... لآلِ رسول الله زَيْنِ المَحَافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عالٍ على الناس كُلِّهِمْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ
فإنَّ الذي قد قيل لَيْسَ بِلاَئِطٍ ... ولكنَّه قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأمَّا قوله عن الحدِّ فإن حسَّان ومِسْطحاً وحَمْنة حُدُّوا، ذكر ذلك ابن إسحاق، وذكره الترمذي، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن أُبيٍّ حُدَّ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه لم يُحْفَظ عن عبد الله الرَّمْيُ، قال عروة في البخاري: «أُخبرتُ أنه كان يُشاع ويُتحدَّث به عنده فيُقِرُّهُ ويَسْتمعه ويستوشيه»[1].

وأما ضربة السيف فإن صفوان بن المعطل لما بلغه قول حسَّان في الإفك جاءَ فضربه بالسيف ضربةً على رأسه، وقال:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّنِي غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ

فأخذ جماعةٌ صفوان ولَبَّبُوه وجاؤوا به رسول الله ﷺ، فأهدر رسول الله ﷺ جرح حسَّان واستوهبه إيَّاه، وهذا يقتضي أن حسَّان ممن تولَّى الكِبْرَ[2].

وقد قال قوم: الإشارة بـ﴿ٱلَّذِى﴾ إلى البادىء بهذه الفرية والذي اختلقها، فلكُلِّ أحد منهم ما اكتسب، وللبادىء المفتري عذابٌ عظيم، وهو ـ على هذا ـ غير معين، وهذا قول الضحاك، والحسن، وقال ابن زيد وغيره: هو عبد الله بن أُبيٍّ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كِبْرَهُ﴾ بكسر الكاف، وقرأ حميد الأعرج، ويعقوب الزهري، وأبو رجاءٍ، والأعمش، وابن أبي عبلة: [كُبْرَهُ] بضم الكاف، وهما

---

(١) أورد البخاري ذلك في حديث الإفك، وذكر بعده عن عُروة أيضاً قوله: «لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلاَّ حسَّان بن ثابت، ومِسْطح بن أُثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش في ناسٍ آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عُصبة كما قال الله تعالى». والكلام من أول قول ابن عطية: «وذكره الترمذي. . .» إلى آخر ما نقله عن عروة سقط من أكثر النسخ المخطوطة.

(٢) قصة ضرب صفوان لحسان بالسيف ذكرها ابن إسحق في السيرة، وفيها أن ثابت بن قيس بن الشَّماس وثب على صفوان بن المعطَّل حين ضرب حسَّان، فجمع يديه إلى عنقه بحبل، ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة، فقال: ما هذا؟ قال: ما أُعَجِّبُك، ضرب حسان بالسيف، والله ما أراه إلا وقد قتله، قال له عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيءٍ مما صنعت؟ قال: لا والله، قال: لقد اجترأت، أطْلق الرجل، فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فدعا حسَّان وصفوان، فقال ابن المعطَّل: يا رسول الله، آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ لحسان: أحْسِنْ يا حسَّان، أتَشَوَّهتَ على قومي أن هداهم الله للإسلام، أحسِنْ يا حسَّانُ في الذي أصابك، قال: هي لك يا رسول الله. قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً منها بيرحاءَ.

مصدران، من كبر الشيءِ وعظمه، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السِّن، تقول: هذا كُبْر القوم، أي كبيرهم سناً ومكانة، ومنه قول النبي ﷺ في قصة حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة: «الكُبْرَ»[1] ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الخطيم:

تنـامُ عَـنْ كُبْـرِ شَـأْنِهـا فـإذا قـامَـتْ رُوَيْـداً تَكـادُ تَنْغَـرِفُ[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولَّى الكِبْر، ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا عتاب للمؤمنين، أي: كان الإنكار واجباً عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاءُ المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه في صفوان وعائشة أبْعَدُ لفضلهما رضي الله عنهما، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في القسامة، والترمذي في الديات، والنسائي في القسامة، والدارمي في الفرائض، ولفظه كما في البخاري، عن رافع بن خديج وسهل بن أبي حَثْمة، أن عبد الله بن سهل، ومُحَيِّصَة بن مسود أتيا خيبر، فتفرقا في النخل، فقُتل عبد الله بن سهل فجاء عبد الرحمن بن سهل، وحُوَيِّصَة ومُحَيِّصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فتكلموا في أمر صاحبهم، فبدأ عبد الرحمن ـ وكان أصغر القوم ـ، فقال النبي ﷺ: كَبِّر الكُبْرَ، قال يحيى: لِيَلِي الكلامَ الأكبرُ، فتكلموا في أمر صاحبهم، فقال النبي ﷺ: أتَسْتَحِقُّونَ قتيلكم ـ أو قال صاحبكم ـ بأيمان خمسين منكم؟ قالوا: يا رسول الله، أمر لم نَرَهُ، قال: فَتُبَرِّئُكم يهود في أيمان خمسين منهم، قالوا: يا رسول الله، قوم كفار، فَوَدَاهم رسول الله ﷺ من قِبله.

(٢) قال ابن الخطيم هذا البيت من الشعر في حرب كانت بين قومه وبين بني خطمة، وهو في الديوان، وخبر هذه الحرب في الأغاني وفي الخِزانة، والبيت مع أبيات قبله في وصف امرأة نشأت في نعمة ورفاهية، فهي لا تعمل، وهي تنام عن معظم شأنها لأنها ليست في حاجة إلى العمل، إذ لها من الخدم من يُغنيها عن ذلك، حتى إذا قامت قامت في سكون وضعف. وتنغرف: تسقط، يقال: انْغرف الغصن من الشجرة إذا انقطع، ورويت: (تكاد تنعطف)، كما رويت: (تنقصف) أي: تنكسر لرقَّة خصرها وثقل ردفها. ورويداً معناه: برفق ودعة وتكاسل، وهو منصوب على الحال، أو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: قياماً رويداً. والبيت شرحه ابن السُّكيت في كتابه «إصلاح المنطق»، والبطليوسي في «الاقتضاب»، وروي «تمشي رويداً»، وفي الحماسة البصرية: «قامت تَمَشَّى»، وهو في «المحتسب» لابن جني كما رواه هاهنا.



له: يا أَبا أَيوب أَسمعت ما قيل؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أَكنت أَنت يا أُمَّ أَيوب تفعلين ذلك؟ فقالت: لا والله، قال: فعائشة والله أَفضل منك، قالت أُمَّ أَيوب: نعم[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فذلك الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين [عليه][(٢)] إِذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿جَآءُو﴾ لأُولئك الذين تولوا الكبر، وإِذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم، وعند هذا حُدُّوا، ولم يُرْوَ في شهير الدواوين أَن عبد الله بن أُبيٍّ حُدَّ، ويشبه أَن ذلك لم يكن لأَنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتستُّره، وإِنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأَل عن شهادته كما قال عروة في البخاري: «وأُخبرت أَنه كان يُقرُّه ويستوشيه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن النبي ﷺ استعذر منه على المنبر، ووقذه بالقول، ووقع في أَمره بين الأوس والخزرج ما هو مطوَّل في مسلم في حديث الإِفك[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن بعض الأنصار، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الدر المنثور»، وذكر أيضاً أنه أخرجه الواحدي، وابن عساكر، والحاكم، عن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري.

(٢) ما بين العلامتين غير موجود في الأصول، كذلك نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا بدون كلمة ابن عطية هذا بدون كلمة (عليه).

(٣) في حديث الإفك كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما قالت عائشة رضي الله عنها: «فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يَعْذِرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله ﷺ أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أُم حسان بنت عمِّه من فخذه ـ وهو سعدُ بنُ عُبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أُسيد بن حُضَيْر ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لِسَعد بن عُبادة: كذبت لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخَفِّضُهم حتى سكتوا وسكت»، وابن عطية يشير إلى ذلك على أنه السبب=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

هذا عتاب من الله تعالى بليغ، ذكر أَن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإِن لم يكن المُخْبِر ولا المُخْبَر مصدِّقين، ولكن نفس التعاطي والتَّلَقِّي من لسان إلى لسان والإِفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه.

وقرأَ محمد بن السَّميفَع: [إِذْ تُلْقُونَهُ] بضم التاءِ وسكون اللام وضم القاف، من الإِلقاء، وهذه قراءَة بيِّنَةٌ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب، وابن مسعود: [إِذْ تَتَلَقَّوْنَهُ] من التلقي بتاءَين، وقرأَ جمهور السبعة: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف التاءِ الواحدة وإِظهار الذال دون إدغام، وهو أيضاً من التلقِّي، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [إِذْ تَّلَقَّوْنَهُ] بإِدغام الذال في التاءِ، وقرأَ ابن كثير: [إِذْ تَّلَقَّوْنَهُ] بإِظهار الذال وإِدغام التاءِ في التاءِ، وهي قراءَة قلقة لأَنها تقتضي اجتماع ساكنين، وليست كالإِدغام في قراءَة من قرأَ: [فَلاَ تَّنَاجَوْا][1]. ﴿وَلَا تَّنَابَزُوا۟﴾[2] لأَن لدونة الأَلف الساكنة وكونها حرف ليِّن حسَّنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الذَّال، وقرأَ ابن يَعْمر وعائشة رضي الله عنها ـ وهي أَعلم الناس بهذا الأَمر ـ: [إِذْ تَلِقُونَهُ] بفتح التاءِ وكسر اللام وضم القاف، ومعنى هذه القراءَة من قول العرب: «وَلَقَ الرَّجلُ ولَقاً» إِذا كذب، قال ابن سيدة في «المحكم»: «قرىء: [إِذْ تَلِقُونَهُ]، وحكى أَهل اللغة أَنها من وَلَق إِذا كذب، فجاؤوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي، وعندي أَنه أَراد: إِذْ تَلِقُونَ فيه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير»[3]،

= في عدم إقامة الحدِّ على عبد الله بن أُبي لعنه الله.

(١) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المجادلة): ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

(٣) نقل القرطبي كلام ابن عطية من أول قوله: «وقرأ محمد بن السميفع...» إلى قوله: «ووصل الضمير» ولم ينسبه إلى ابن عطية إلا من أول قوله: «وعندي أنه أراد»، فقد قال: «وقال ابن عطية: وعندي... إلخ» مع أن هذا الكلام الأخير ليس من كلام ابن عطية بل هو من كلام ابن سيدَهْ، ويدل على ذلك أن اللسان نقل هذا الكلام عن ابن سيده وفيه هذه الجملة (راجع اللسان ـ ولق ـ)، وأيضاً اعتاد ابن عطية =

وحكى الطبريُّ وغيرَه أَن هذه اللفظة مأْخوذة من الْوَلَق الذي هو إِسراعك بالشيءِ بعد الشيءِ، كعَدْو في أَثر عَدْو، وكلام في أَثر كلام، يقال: ولق في سيره إِذا أَسرع، ومنه قول الشاعر:

جَاءَتْ بِهِ عَنْسٌ مِنَ الشَّأْمِ تَلِقْ[1]

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مبالغة وإِلْزامٌ وتأْكيد، والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ للحديث والخوض فيه والإِذاعة له، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ إِلى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين، أَي: كان ينبغي عليكم أَن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأَن تُنَزِّهُوا الله تعالى عن أَن يقع هذا من زوج نبيِّه ﷺ، وأَن تحكموا على هذه المقالة بأَنها بُهتان، وحقيقة البهتان أَن يقال في الإِنسان ما ليس فيه، والغِيبة أَن يقال في الإِنسان ما فيه. ثم وعظهم تعالى في العودة إِلى مثل هذه الحالة، و﴿أَنْ﴾ مفعول من أَجله بتقدير: «كراهيةَ أَن» ونحوه. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتأْكيد، كما تقول: ينبغي لك أَن تفعل كذا وكذا إِن كنت رجلاً. وسائر الآية بيِّن، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان تقتضيهما الآية.

= عندما يكون الكلام أو الرأي له أن يبين ذلك بقوله: «قال القاضي أبو محمد» أو نحو ذلك، ولم أجد مثل هذه الإشارة في الأصول».

(١) هذا بيت من عدَّة أبيات من مشطور الرجز، قالها القُلاحُ بن حَزْن المِنْقَرِيُّ، ذكرها صاحب اللسان (زلق)، وهي:

إِنَّ الْجُلَيْدَ زَلِقٌ وَزُمَّلِقْ
كَذَنَبِ الْعَقْرَبِ شَوَّالٌ غَلِقْ
جَاءَتْ بِهِ عَنْسٌ مِنَ الشَّأْمِ تَلِقْ
يُدْعَى الْجُلَيْدَ وَهُوَ فِينَا الزُّمَّلِقْ
لا آمِنٌ جَلِيسُهُ وَلاَ أَنِقْ
مُجَوَّعُ الْبَطْنِ كِلاَبِيُّ الْخُلُقْ

ويروى (الحُصَيْن) بدلاً من (الجُلَيْد)، قال صاحب اللسان: وهو خطأ لقوله بعد ذلك: يُدْعَى الْجُلَيْد، والزَّلِقُ: السريع الغضب، والزُّمَّلِقُ: الخفيف الطائش أو الذي يُنزل من مجرد الحديث مع المرأة قبل المباشرة، والغَلِقُ: السيء الخلق، والعَنْس: الناقة القوية، ومعنى (تَلِق): تُسْرِع، وهو الشاهد هنا، فالوَلَقُ بمعنى الإسراع، ومن العجيب أن صاحب اللسان أعاد الاستشهاد بهذه الأبيات في (وَلَق) بمعنى أسرع، لكنه نسبها للشَّماخ، ولم نجدها في ديوانه. وحَذْفُ حرف الجرِّ ووَصْل الضمير الذي نقله ابن عطية عن ابن سيدَهْ أَمر معروف في اللغة، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، أي: اختار من قومه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال مجاهد، وابن زيد: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، عبد الله بن أُبيٍ ومن أَشبهه، وهي خاصَّةٌ في أَمر عائشة رضي الله عنها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فحبُّهم شِياع[1] الفاحشة في المؤمنين متمكنٌ على وجهه لعدواتهم في أَهل الإِيمان، وعذابُهم الأَليم في الدنيا الحدودُ، وفي الآخرة النارُ.

وقالت فرقة ـ وقولُها هو الأَظهر ـ: الآية عامةٌ في كلِّ قاذف منافقاً كان أَو مؤمناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقاذف المؤمن مَنْ لا يتصف بِحُب شِياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقذوفه، وكذلك آخر لمقذوفه، وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم، فهم لها محبون بهذا الوجه من حيث أَحب كل واحد جزءاً من شياعها، والعذاب الأَليم في الدنيا الحُدُود، وفي الآخرة يحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون القاذفُ مُتوعَّداً من بين العُصاة بعذاب في الآخرة لا يزيله الحدُّ حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت[2]، ويكون أَمرُه كأَمر المحاربين إِذا صلبوا، خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب. والوجه الثاني أَن يحكم بأَن الحدَّ مُسْقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة، وأَن قوله: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

---

(١) الشِّياع: الظهور والانتشار، يقال: شاع الأمر شَيْعاً وشِياعاً وشيعاناً وشيوعاً وشَيْعُوعَة ومَشيعاً: ظهر وتفرق.

(٢) حديث عُبادة بن الصامت في أن الحدود كفارة لأهلها أخرجه البخاري في الإيمان ومناقب الأنصار والتفسير والحدود والأحكام والتوحيد، وأخرجه مسلم والترمذي في الحدود، والنسائي في البيعة، والدارمي في السير، وأحمد في مسنده (٥/ ٣١٤)، ولفظه كما في مسلم عن عبادة بن الصامت قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه).



لا يريد به عموم القذفة، بل يريد إمَّا المنافقين وإمَّا من لم يُحَدّ. وقال الطبري: معناه: إن مات مصراً غير تائب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ معناه: يعلم البريءَ من المُذْنب، وسائرَ الأمور، وَوَجْهَ الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذفيكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ الآية. جواب ﴿لَوۡلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: لفضحكم بذنوبكم ولم يستركم، ولعذَّبكم فيما أَفضتم فيه من قول الباطل والبهتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾.

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، و«خُطُوَاتُ» جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأَن المعنى: لا تمشوا في سُبُله وطرقه من الأَفعال الخبيثة. وقال منذر بن سعيد: يجوز أَن يكون «خُطُوات» جمع خَطَأ من الخطيئة وسُهِّلَت الهمزة فنطق بها خطوات. وقرأَ بضم الطاءِ من [خُطُوَات] الجمهورُ، وقرأَ بسكونها عاصم[1]، والأَعمش.

وقرأَ الجمهور: ﴿مَا زَكَىٰ﴾ بتخفيف الكاف، أَي: ما اهتدى ولا أَسلم ولا عرف رشداً، وقرأَ أَبو حيوة، والحسن، والأَعمش: [مَا زَكَّىٰ] بشد الكاف، أَي: تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأَعمالكم وتحرُّزكم من المعاصي. ثم ذكر تعالى أَنه يزكِّي من يشاءُ ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أَمارة على سبق السعادة له.

ثم أَخبر تعالى بأَنه سميع لجميع أَقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، عليم بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهْمٌ ولا غلط.

---

(١) في راوية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فهي بضم الطاءِ كما هي ثابتة في المصحف الشريف.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

المشهور من الروايات أَن هذه الآية نزلت في قصة أَبي بكر الصديق ابن أبي قحافة رضي الله عنه ومِسْطَح بن أُثَاثَةَ، وذلك أَنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدريِّين المساكين، وهو مِسْطَح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، بن عبد مناف، وقيل: اسمه عوف، ومِسْطح لقب، وكان أَبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته، فلما وقع أَمر الإِفك وقال مسْطَح ما قال حلف أَبو بكر رضي الله عنه أَلاَّ ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أَبداً، فجاءَ مِسْطَح فاعتذر وقال: إِنما كنت أَغشى مجلس حسَّان فأَسمع ولا أَقول، فقال له أَبو بكر رضي الله عنه: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومرَّ على يمينه فنزلت الآية.

وقال الضحاكُ وابن عباس رضي الله عنهما: إِن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإِفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأْن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأَول أَصحُّ، غير أَن الآية تتناول الأُمة إِلى يوم القيامة، بأَلاَّ يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف أَلا ينفع مَن هذه صفته غابر الدهر.

ورأَى الفقهاءُ أَن من حلف أَلاَّ يفعل سُنَّة من السنن أَو مندوباً وأَبَّد ذلك أَنها جرحة في شهادته، ذكره البلخي في المنتفي، ومنه قول النبي ﷺ: «أَيُّكم المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف»[1]؟

و﴿ يَأْتَلِ ﴾ معناه: يحلف، وزنها يفتعل، من الأَلية وهي اليمين[2]. وقالت فرقة: معناه: يقصِّر، من قولك: أَلَوْتُ في كذا إِذا قصَّرت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ

(١) أخرجه البخاري في الصلح، ومسلم في المساقاة، ولفظه كما في البخاري أن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن قالت: سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول: سمع رسول الله ﷺ صوتَ خصوم بالباب عاليةً أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضح الآخر ويسترفقه في شيءٍ وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليها رسول الله ﷺ فقال: أين المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال: أنا يا رسول الله، وله أيّ ذلك أحبَّ.

(٢) ومنه قول عاتكة بنت زيد العدوية ترثي زوجها عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم:

فَــآلَيْــتُ لاَ تَنفَــكُّ عَيْنِــي حَــزِينَــةً ... عَلَيْــكَ وَلاَ يَنفَــكُّ جِلْــدِي أَغْبَــراَ

خَبَالًا﴾[١]، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [وَلاَ يَتَأَلَّ]، وهذا وزنه يَتَفَعَّل من الأَلية بلا خلاف، وهي في المصحف «ياءٌ تاءٌ لام» فلذلك ساغ هذا الخلاف لأبي جعفر وزيد فروياه، وذكر الطبري أَن خط المصحف مع قراءة الجمهور، فظاهر قوله أَنَّ ثمَّ أَلفاً قبل التاءِ. و«الفَضْلُ والسَّعَةُ» هنا: المالُ، وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ الآية تمثيلٌ وحُجَّة، أَي: كما تحبون غفران الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وينظر إِلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من لا يَرْحَم لايُرْحَم»[٢]، فروي عن أَبي بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية أنه قال: «إِنِّي لأُحِبُّ أَن يغفر الله لي»، ورجع إِلى مِسْطح النفقة والإِحسان الذي كان يجري عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: «وكفَّر عن يمينه». وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه، وسفيان بن حسين: ﴿وَلْتَعْفُو وَلْتَصْفَحُوا﴾ بالتاءِ من فوق فيهما، ورويت عن النبي ﷺ.

وقال بعض الناس: هذه أَرجى آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ من حيث لطف الله تعالى فيها بالقذفة العصاة بهذه اللفظة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما تعطي الآية تفضلاً من الله عزَّ وجلَّ في الدنيا، وإِنما الرجاءُ في الآخرة، أَما إِن الرجاءَ في هذه الآية بقياس، أَي إِذا أَمر أُولي السعة بالعفو، فطرد هذا التَّفضُّل بسعة رحمته لا ربَّ سواه، وإِنما آيات الرجاءِ في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[٤]، وسمعت أَبي رحمه الله يقول:

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١١٨) من سورة (آل عمران): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، ومنه قول الشاعر:

وَإِنَّ كَنَائِنِي لَنِسَاءُ صِدْقٍ ... فَمَا آلَى بَنِيَّ وَلاَ أَسَاءُوا

أي: ما قصَّر أبنائي.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البرِّ، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٢٨، ٢٤١)، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دخل عُيَيْنَة بن حصن على رسول الله ﷺ فرآه يقبل حَسَناً أو حُسَيناً، فقال له: لا تقبله يا رسول الله، لقد وُلد لي عشرة ما قبَّلت أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مَنْ لا يَرحم لا يُرحم».

(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الزمر).

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الشورى).



أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[(١)]، وقد قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[(٢)] فشَرَح الفضل الكبير في هذه الآية وبشَّر به المؤمنين في تلك، وقال بعضهم، أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[(٣)]، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: إن هذه الآية التي تضمنت لعْن القاذف وتوعُّده الشديد إنما هي خاصة في رُماة عائشة رضي الله عنها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وغيرهما: بل هذه لجميع أزواج النبي ﷺ، غلَّظ الله أمر رَمْيهن لمكانهن من الدين، فلعن قاذفهن ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقاذف غيرهن له اسم الفسق وذُكرت له التوبة.

وقال جماعة من العلماءِ: بل هي في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها إلاَّ أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة، وقال بعض هذه الفرقة: إن هذه الآية نزلت أولاً في القاذفين، ثم نزلت بعد ذلك الآية في صدر السورة التي فيها التوبة، وقد تقدم القول في «الْمُحْصَنَاتِ» ما معناه.

و«اللَّعْنة» في هذه الآية: الإبعادُ، وضربُ الحدِّ، واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجرُهم لهم، وزوالُهم عن رُتبة العدالة، وعلى قول من قال إن هذه الآية خاصة

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الشورى).

(٣) من الآية (٥) من سورة (الضحى).



بعائشة رضي الله عنها ترتبت هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أُبيٍّ وأشباهه[١]. وفي ضمن رمي المحصنة رمي الرجل معها، وقد يكون مؤمناً.

والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ﴾ فعل مضمر يقتضيه العذاب، أي: يُعذَّبُونَ يومَ، أو نحوه[٢]، وأخبر الله تعالى أن جوارحهم تشهد عليهم، وذلك من أعظم الخزي والتنكيل، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به، وتشهد الأيدي والأرجل [وتتكلم][٣] كلاماً يقدرها الله تعالى عليه. وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَشْهَدُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: [يَشْهَدُ] بالياءِ.

و«الدِّينُ» في هذه الآية: الجزاءُ، ومنه قول الشاعر:

وَلَـمْ يَبْـقَ سِـوَى الْعُـدْوَا ... نِ دِنَّـاهُـمْ كَمَـا دَانُـوا[٤]

(١) قال الزمخشري: «ولو قلَّبْتَ القرآن كلَّه وفتَّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله عزَّ وجلَّ قد غلَّظ في شيءٍ تغليظه في الإفك، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم، وأنه يوفيهم جزاء الحق الذي هم أهله حتى يعلموا أن الله هو الحق، فأوجز وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكد وكرَّر، وجاءَ بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة».

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا عن معنى «اللعنة»، وفيه زيادة على ما هنا يقتضيها تمام الكلام ونعتقد أنها من كلام ابن عطية، وهي: «وعلى قول من قال: نزلت في مشركي مكة فلا كلام، فإنهم مُبعدون، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ومن أسلم فالإسلام يجب ما قبله».

(٣) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٤) هذا البيت لِلفِنْد الزِّمَّانِيِّ، واسمه شَهْل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان الحنفي، والفِنْد لقب له، وهو في الأصل: القطعة من الحبل، ولقِّب بذلك لشجاعته مع كبر سنه. والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس، وهو في الحماسة، والبيت في الأمالي للقالي، وفي شرح شواهد المغني، وفي العيني والهمع والأشموني والتصريح وخزانة الأدب، وقبله بقول الشاعر:

فَلَمَّـا صَـرَّحَ الشَّـرُّ ... فَـأَمْسَـى وَهُـوَ عُـرْيَـانُ

فقوله: «ولم يبق سوى العدوان» معطوف على «صرَّحَ»، وقوله: «دنَّاهُمْ»، جواب «لَمَّا»، والعدوان: الظلم الواضح، والدِّين: الجزاءُ، وأورد البيضاوي هذا البيت في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والمعنى: لما أصرُّوا على البغي وأبَوْا أن يبتعدوا عن ظلمنا، ولم يبق أمامنا إلا أن ندفع عنا عدوانهم، جازيناهم بفعلهم القبيح كما فعلوا معنا، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، وإطلاق اسم الدِّين على المجازاة هنا من باب المشاكلة، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾.



أَي جازيناهم كما فعلوا، ومنه المثل «كَمَا تُدِينُ تُدَان»[1]. وقرأ جمهور الناس: ﴿الحَقَّ﴾ بالنصب على الصفة للدِّين، وقرأ مجاهد: [ٱلْحَقُّ] بالرفع على الصفة لله تعالى، وفي مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ بن كعب رضي الله عنهما: [يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله ٱلْحَقُّ دَيْنهُم] بتقديم الصفة على الموصوف، ورويت عن النبي ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يقوِّي قول من ذهب إِلى أَن الآية في المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ وغيره، وذلك أَن كل مؤمن في الدنيا يعلم أَن الله هو الحق المبين، وإِلاَّ فليس بمؤمن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

اختلف المتأَولون في الموصوف في هذه الآية بالخبث والطيب ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وقتادة: هي الأَقوال والأَفعال، ثم اختلفت هذه الجماعة، فقال بعضهم: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا يقولها ويرضاها إِلا الخبيثون من الناس، فهي لهم وهم بها بهذا الوجه، وكذلك الطيبات للطيبين، وقال بعضها: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا تليق ولا تلصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إِلا بالخبيثين من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه.

وقال ابن زيد: الموصوف بالخبث والطيب النساءُ والرجال، وإِنما الآية على نحو التي تقدمت وهي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، فمعنى هذه: التفريق بين حكم عبد الله بن أُبيٍّ وأَشباهه وبين حكم النبي عليه الصلاة والسلام وفضلاءِ الصحابة رضوان الله عليهم وأُمته، أَي: إِن النبي ﷺ طيب فلم يجعل الله له إِلاَّ كل طيبة، وأُولئك خبيثون فهم أَهل النساءِ الخبيثات.

---

(١) معنى هذا المثل: كما تُجَازِي تُجَازَى، يعني: كما تعمل تُجَازَى، فإن عملتَ حسناً كان جزاؤك حسناً، وإن عملت سيئاً كان جزاؤك سيئاً، ومعنى «تُدِين»: تصنع، سُمِّي الابتداءُ جزاءً للموافقة والمطابقة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، ويجوز أن يجري كلا الفعلين على الجزاء، أي: كما تجازِي أنت الناس على صنيعهم كذلك تُجازَى على صنيعك، والكاف في «كما» في محل نصب نعتاً للمصدر، أي: تُدَان دَيْناً مثل دَيْنِكَ. «مجمع الأمثال للميداني».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذه الآية قيل لأزواج النبي ﷺ: الطيبات المبرآت.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «الطيِّبين في قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾. وقال النقاش: الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ إلى صفوان وعائشة رضي الله عنهما، وجمعهما في الضمير على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾[1] والمراد: أخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التمثيل بآية الإخوة نظر، وبحسب هذه المعاني يتقدر المراد بالضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾، فتأمله. ثم وعد الله تعالى الطيبين من المؤمنين بالمغفرة عند الحساب، وبالرزق الكريم في الجنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

سبب هذه الآية فيما ذكر الطبري عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أُحب أن يراني عليها والدٌ ولاولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال، فنزلت هذه الآية[2]، ثم هي عامة في الأُمة غابر الدهر من حيث هذه النازلة تختص بكل أحد في نفسه، وبيت الإنسان هو البيت الذي لا أحد معه فيه، أو البيت الذي فيه زوجه وأَمته، وما عدا هذا فهو غير بيته، قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ينبغي للإنسان ألاَّ يدخل البيت الذي فيه أُمُّه إلاَّ بعد الاستئناس. وروي في ذلك عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أَستأذن على أُمِّي؟ قال: نعم. قال: إنما هي أُمِّي ولا خادم لها غيري، قال: أَتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها[3]، وكذلك كل

---

(١) من الآية (١١) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه الفريابي، وابن جرير، من طريق عديِّ بن ثابت، عن رجل من الأنصار.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري، عن ابن جريج، عن ابن زياد، عن صفوان، عن عطاء بن يسار. وهو مرسل صحيح



ذات محرم منه لأنه لا ينبغي له أن يراهن عاريات، وقالت زينب امرأة ابن مسعود: كان ابن مسعود إذا جاءَ بيته تنحنح مخافة أَن يهجم على ما يكره.

و﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ معناه: تستعلموا، أَي: تستعلموا من في البيت وتستبصروا، تقول: آنَسْتُ إذا علمتَ عن حسٍّ وإذا أبصرت، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ﴾[1]، وقوله: ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾[2]، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

انْظُـرْ خَلِيلِـي بِبَـابِ جِلَّـقَ هَـلْ ... تُـؤْنِـسُ دُونَ الْبَلْقَـاءِ مِـنْ أَحَـدِ[3]

وقول الحارث:

آنَسَــتْ نَبْــأَةً... البيــت . . . .[4]

ووزن آنَسَ: أَفْعَل، واستأْنس وزنه: استفعل، فكأَن المعنى في ﴿تستأنسون﴾: تطلبون ما يُؤْنسكم ويؤنس أَهل البيت منكم، وإذا طلب الإنسان أَن يعلم أَمر البيت الذي يريد دخوله فذلك يكون بالاستئذان على من فيه، أَو بأَن يتنحنح ويُشعر بنفسه بأَيِّ وجه أَمكنه، ويتأَنَّى قدر ما يتحفظ، ويدخل إثر ذلك.

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (طه) وتكررت في الآية (٧) من سورة (النمل)، وفي الآية (٢٩) من سورة (القصص).

(٣) جلَّق بكسر الجيم وتشديد اللام: دِمَشق، وفيها أيضاً يقول حسان بن ثابت:

لِلهِ دَرُّ عِصَـابَـةٍ نَـادَمْتُهُـمْ ... يَـوْمـاً بِجِلَّـق فِـي الـزَّمَـانِ الأَوَّلِ

وآنَسَ الشيءَ: أحسَّه، وآنَس الشخصَ: رآه وأبصره، والبلقاءُ: أرضٌ بالشام، وقيل: مدينة. والبيت في اللسان شاهداً على أن البلقاءَ أرض بالشام، وهو أيضاً في تاريخ ابن عساكر مع اختلاف في الألفاظ. أما الشاهد هنا فهو «تُؤْنِسُ» لأنها بمعنى: ترى وتُحسّ أو تعلم وترى.

(٤) البيت للحارث بن حِلِزَة، وهو من معلقته التي بدأها بقوله: (آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسماءُ)، والبيت من أبيات يصف فيها ناقته وهو بتمامه:

آنَسَـتْ نَبْـأَةً وَأَفْـزَعَهَـا الْقَنَّـاصُ ... عَصْـراً وَقَـدْ دَنَـا الإِمْسَـاءُ

ومعنى (آنَسَت): أحسَّت، وهي موضع الشاهد هنا. والنَّبأَة: الصوتُ الخفيُّ لا يُدْرى من أين هو، والقَنَّاصُ: الصَّيَّادُ، والقنص: الصيد. وأفزعها القَنَّاصُ: أخافها، وعصراً هنا: عَشِيّاً، قال ابن الأنباري في شرح المعلقات: وإنما سميت العصرُ في الصلاة عصراً لأنها في آخر النهار، والعَصْر في غير هذا: الدهر، وفاعل «آنست» ضمير يعود على النعامة التي شبه بها ناقته في البيت السابق، وعصْراً منصوب على الوقف، والواو في (وقَدْ دَنَا) واو الحال، والإمْساءُ فاعل بالفعل (دنا)، وهو مصدر (أَمسى).

وذهب الطبريُّ في ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ إلى أنه بمعنى: حتى تُؤنسوا أهل البيت من أنفسكم بالتَّنحنح والاستئذان ونحوه، وتُؤنسوا أنفسكم بأن تعلموا أنْ قد شُعر بكم. وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا»، وهي قراءة أُبي بن كعب، وحكاها أبو حاتم «حَتَّى تُسَلِّمُوا وَتَسْتَأْذِنُوا»، قال ابن عباس: «تَسْتَأْنِسُوا» خطأٌ أو وهم من الكُتَّاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

مصاحف الإسلام كلُّها قد ثبت فيها ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾، وصحَّ الإجماعُ فيها من لدن مُدَّة عثمان رضي الله عنه، فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءَة «تَسْتَأْذِنُوا» ضعيفة، وإطلاق الخطأ والوهم على الكُتَّاب في لفظٍ أجمع الصحابة عليه قولٌ لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والأشبه أن يقع ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ على التفسير، وظاهر ما حكى الطبري أنها قراءَة، ولكن قد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ بمعنى: تَسْتَأْذِنُوا، ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن «تَسْتَأْنِسُوا» متمكنة في المنعى، بَيِّنَةُ الوجه في كلام العرب، وقد قال عمر رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام: أَسْتَأْنِسُ يا رسول الله؟ وعمر واقف على باب الغرفة.. الحديث المشهور[1]، وذلك يقتضي أنه طلب الأُنس به ﷺ، فكيف يخطِّىء ابن عباس رضي الله

(١) الحديث مشهور وطويل، وقد رواه البخاري في المظالم والنكاح، والترمذي في التفسير، وأحمد في مسند (١/ ٣٤). وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وقد قصَّ عمر عليه ما كان بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين زوجاته حين أُشيع أنه طلقهن، وذهب عمر رضي الله عنه ليعلم الخبر فوجد النبي ﷺ في مشْرُبة، فقال لغلام أسود: استأذن لعمر، ولكن الغلام دخل ثم خرج وقال: ذكرتك له فصمت، وهكذا ثلاث مرات، وبعد الثالثة دعاه الغلام، قال عمر: (فدخلتُ عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثَّرَ الرّمال بجنبه، مُتَّكِىءٌ على وسادة من أدَم حشوها ليف، فسلمتُ عليه ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءَك؟ فرفع بصره إليَّ فقال: لا، ثم قلتُ وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي ﷺ) إلى آخر الحديث. واللفظ فيما سقناه هنا من الحديث للبخاري.



عنهما أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا[١]؟

وحكى الطبريُّ أيضاً بسنده عن ابن جريج، عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن بن أبي الحسن أنهم قالوا: نُسخ واستثنى من هذه الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾، وهذا أيضاً لا يترتب فيه نسخٌ ولا استثناءٌ؛ لأن الآية الأولى في البيوت المسكونة والمقصورة، والآية الثانية في البيوت المباحة، وكأن من ذهب إلى الاستثناءِ رأى الأولى عامة.

وصورة الاستئذان أن يقول الرجل: السلام عليكم، أَدخل؟ فإن أُذن له دخل، وإن أُمر بالرجوع انصرف، وإن سُكت عنه استأذن ثلاثاً ثم ينصرف بعد الثلاث، فأما ثبوت ما ذكرته من صورة الاستئذان فروى الطبريُّ أَنَّ رجلاً جاءَ إلى بيت النبي ﷺ فقال: أَلِجُ؟ أو أَتَلِجُ؟ فقال رسول الله ﷺ لأَمَةٍ له يقال لها روضة: «قولي لهذا: يقول: السلام عليكم، أَدْخُل؟»، فسمعه الرجل فقالها، فقال له النبي ﷺ: ادْخُل[٢].

ورُوي أَن ابن عمر رضي الله عنهما آذته الرمضاءُ فأَتى فُسطاط امرأَة من قريش، فقال: السلام عليكم، أَدْخُلُ؟ فقالت المرأَة: ادْخُلْ بسلام، فأَعاد فأَعادتْ، فقال لها: قولي: ادْخُلْ، فقالت ذلك فدخل، فكأَنه توقف لما قالت: بسلام؛ لاحتمال اللفظ أَن تُريد: ادخل بسلامك لا بشخصك. ثم لكلِّ قوم في الاستئذان عُرْفهم في العبارة. وأَما ثبوت الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً فلحديث أَبي موسى الأَشعري الذي استعمله مع عمر رضي الله عنه، وشهد به لأَبي موسى أَبو سعيد الخدري، ثم أُبي بن كعب، الحديث المشهور[٣]، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: الاستئذان واجب على كل محتلم، وسيأْتي ذكر

---

(١) نقل القرطبي هذا الكلام عن ابن عطية وأيده في رأيه، ونقل أبو حيان خلاصته، ثم زاد عليه فقال: «ومن روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو طاعنٌ في الإسلام، ملحدٌ في الدين، وابن عباس بريءٌ من هذا القول».

(٢) أخرجه ابن جرير، عن عمرو بن سعد الثقفي. «الدر المنثور». وهو في تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعاً، فقلنا له: ما أفزعك؟ قال: أمرني عمر أن آتِيَهُ فأتيتهُ فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعتُ، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»، قال: لتأتيني على هذا بالبيِّنة، فقالوا: لا يقوم إلا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له، فقال عمر لأبي موسى رضي الله عنهما: إني لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد.

هذا. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رسول الرجل إذنُه»[1]، أي: إذا أُرسل في أحد فقد أُذن له في الدخول. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تم الكلام عنده، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: فعلنا ذلك بكم ونبَّهناكم لعلكم.

والضمير في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: معنى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: إنْ لم يكن لكم فيها متاع، وضعَّف الطبري هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكأن مجاهد رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تُدخل دون إذن إذا كان للداخل فيها متاع، ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت الذي هو البُسُط والثياب، وهذا كله ضعيف.

وأسند الطبري عن قتادة أنه قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن استأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعُّد لأهل التجسُّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى مالا يحلُّ، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

رُوي أن بعض الناس لمَّا نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر، فكان لا يأتي موضعاً خرباً ولا مَسْكُوناً إلاَّ سلَّم واستأذن، فنزلت هذه الآية، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد: لأن العلَّة إنما هي في الاستئذان خوف الكشفة على الحُرُمات، فإذا زالت العلَّة زال الحكم

ومثَّل أهل التأويل من هذه البيوت أمثلة، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق المسافرين، قال مجاهد: لا يسكنها أحد، بل هي

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويؤيده ما أخرجه أبو داود أيضاً عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن».



موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل، وفيها متاع لهم، أي استمتاع بمنفعتها، ومثَّل عطاءٌ في بيوت غير مسكونة بالخِرَب[1] التي يدخلها الإنسان للبول والغائط، ففي هذا أيضاً متاعٌ، وقال ابن زيد والشعبي: هي حوانيت القَيْسارِيَّات[2] والأسواق، قال الشعبي: لأنهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس: هلُمَّ، وهذا قول غلط قائله، وذلك أن بيوت القَيْسَاريَّة محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلاَّ من أُذن له بها، بل إن أربابها مُوَكَّلون بدفع الناس عنها. وقال محمد بن الحنفية أيضاً: أراد تعالى دور مكَّة، وهذا على القول بأنَّها غير مُتَملَّكة، وأن الناس شركاءُ فيها، وأن مكَّة أُخذت عنوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو في هذه المسألة القول الضعيف، يردُّه قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[3]، وقوله: «من دخل دار أبي سفيان، ومن دخل داره»[4]، وغير ذلك من وجوه النظر.

وباقي الآية بيِّن، وظاهره التوعُّد.

---

(١) جمع خِرْبَة، وهي موضع الخراب، وفي حديث بناء مسجد المدينة: «كان فيه نخل وقبور المشركين وخِرَبٌ، فأمر بالخِرَب فسُوِّيت».

(٢) جاء في معجم البلدان للحموي أن «قَيْسَارِية» بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راءٌ وياءٌ مشددة، ثم قال: «وهي بلد على ساحل بحر الشام في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكان قديماً من أعيان أُمهات المدن، وقيسارية أيضاً مدينة عظيمة كبيرة في بلاد الروم...». فالمراد إذاً: المدن الكبيرة العظيمة المتسعة، والحوانيت جمع حانوت وهو دكان الخمار ومحل التجارة، فالمراد بالجملة: محلات التجارة في المدن الكبيرة.

(٣) أخرجه البخاري، وأبو داود، ولفظه في البخاري في غزوة الفتح، عن أُسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين ننزل غداً؟ قال النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من منزل؟» ثم قال: «لا يرثُ المؤمن الكافرَ ولا الكافرُ المؤمنَ»، قيل للزهري ـ أحد رواة الحديث ـ: ومن ورث أبا طالب؟ قال: ورثه عقيلٌ وطالب.

(٤) جاء هذا في فتح مكة، ورواه البخاري، ومسلم، وابن إسحاق، وغيرهم، وهو حديث طويل، وفيه أن أبا سفيان جاءَ إلى النبي ﷺ يوم الفتح مع العباس فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن).. (واللفظ عن السيرة النبوية لابن هشام)



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمنزلة قوله: انهَهُمْ، فقول: ﴿يَغُضُّوا﴾ جواب الأَمر، وقال المازني: المعنى: قل لهم غُضُّو يغضُّوا، ويلحق هذين من الاعتراض أَن الجواب خبر من الله تعالى، وقد يوجد من لا يغض، وينفصل بأَن المراد: يكونون في حكم من يغض. وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، أَظهر ما في [مِنْ] أَن تكون للتبعيض، وذلك أَن أَول نظرة لا يملكها الإِنسان، وإِنما يغض فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعيض، ويؤيد هذا التأْويل ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لا تُتبع النظرة النظرة فإِن الأُولى لك، وليست لك الثانية» الحديث[1]. وقال جرير بن عبد الله: سأَلت النبي ﷺ عن نظرة الفجأَة فقال: «اصرف بصرك»[2]، ويصح أَن تكون [مِنْ] لبيان الجنس[3]، ويصح أَن تكون لابتداءِ الغاية، والبصر هو الباب الأَكبر للقلب وأَعمر طرق الحواسِّ إِليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه.

و«حِفْظ الفرج» يحتمل أَن يريد به: في الزنى، ويحتمل أَن يريد: بستر العورة، والأَظهر أَن الجميع مرادٌ واللفظ عام، وبهذه الآية حرَّم العلماءُ دخول الحمام بغير

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، والترمذي في الأدب، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٥١، ٣٥٣)، ولفظه في مسند أحمد، عن بريدة عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك والآخرة عليك». واللفظ في سنن الدارمي: (لا تُتبع النظرة النظرة؛ فإن الأولى لك والآخرة عليك).

(٢) أخرجه مسلم في الأدب، وأبو داود في النكاح، والترمذي في الأدب، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٥٨)، وهو عن أبي زرعة، عن عمرو بن جرير، عن أبيه عن جده قال: سألتُ النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك». وفي رواية الإمام أحمد: «فأمرني أن أصرف بصري». وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، والنسائي، وابن مردويه.

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «ولم يتقدم مبهم فتكون [مِنْ] لبيان الجنس، على أن الصحيح أن ﴿مِنْ﴾ ليس من موضوعاتها أن تكون لبيان الجنس».



مئزر، وقال أَبو العالية: كل فرج ذُكر في القرآن فهو من الزنى إِلاَّ في هاتين الآيتين فإِنه يعني التستُّر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص عندي.

وباقي الآية بيِّن، وظاهره التَّوعُّد.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، أَمَرَ الله تعالى النساءَ في هذه الآية بغض البصر عن كل ما يُكره من جهة الشرع النَّظرُ إِليه، وفي حديث أُم سلمة قالت: كنت أَنا وعائشة رضي الله عنهما عند النبي ﷺ، فدخل ابن أُم مكتوم، فقال النبي ﷺ: «احتجبن» فقلنا: إِنه أَعمى، فقال النبي ﷺ: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنتما؟»[1]، [مِنْ] يحتمل ما تقدم في الأُولى، و«حفظ الفروج» يعُمُّ الفواحش وستْرَ العورة وما دون ذلك مما فيه حفظ.

وأَمر الله تعالى بأَلاَّ يُبدين زينتهن للناظرين، إِلاَّ ما استثناه من الناظرين في باقي الآية، ثم استثنى ما يظهر من الزينة، فاختلف الناسُ في قدر ذلك ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ظاهر الزينة هو الثياب، وقال سعيد بن جبير: الوجه والثيابِ، وقال سعيد بن جبير أَيضاً، وعطاءٌ، والأَوزاعي: الوجه والكفان والثياب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والمِسْوَرُ بن مخرمة[2]: ظاهر الزينة هو الكحل والسِّواك والخضابُ إِلى نصف الذراع والقِرَطةُ والفَتَخُ[3]، ونحو هذا فمباح أَن تبديه المرأَة لكل من دخل عليها من الناس، وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ[4]، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، والترمذي في الأدب، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٩٦). ولكن في مسند أحمد عن الزهري أن نبهان حدَّثه أن أُم سلمة حدَّثته قالت: كنت عند رسول الله ﷺ أنا وميمونة. بدلاً من عائشة كما هو هنا.

(٢) هو المِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ بن نوفل بن أُهيب بن عبد مناف بن زُهرة، له ولأبيه صُحبة، مات سنة ٦٤ للهجرة.

(٣) الفَتَخُ بفتحتين: جمع الفَتْخَة وهي خواتيم كبار تلبس في الأيدي. وقيل: الفَتْخَة حلقة من ذهب او فضة لا فصَّ لها تُلبس في البنصر. والقِرَطَةُ: جمع قُرْط وهو ما يعلّق في الأذن.

(٤) ونصُّه: قال قتادة: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يحِلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى هاهنا، وقبض نصف الذراع». وهذا مرسل.

(٥) أخرجه ابن جرير عن ابن جريج عن عائشة رضي الله عنها، وهو: وقالت عائشة: القُلْب والفَتَخة، قالت=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألاَّ تُبدي، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ويقع الاستثناءُ في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفي عنه، فغالب الأمر أن الوجه والكفين يكثر منهما الظهور، وهو الظاهر في الصلاة، ويحسن[(١)] بالحسنة الوجه أن تستتر إلاَّ من ذي حرمة محرمة، ويحتمل لفظ الآية أن الظاهر من الزينة لها أن تبديه، ولكن يقوي ما قلناه الاحتياطُ ومراعاة فساد الناس، فلا يظن أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلاَّ ما كان بذلك الوجه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بسكون اللام التي هي للأمر، وقرأ أبو عمرو ـ في رواية عباس عنه ـ: [وَلِيَضْرِبْنَ] بكسر اللام على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر في «لِيَذْهب ولِيَضْرِب»، وإنما تسكينها كتسكين «عَضُد وفَخِذ»[(٢)].

وسبب هذه الآية أن النساءَ كن في ذلك الزمان إذا غطَّين رءوسهن بالخمرة سدَلْنها من وراءِ الظهر، قال النقاش: كما يصنع النبط، فيتبقى النحر والعنق والأُذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بِلَيِّ الخمار على الجيوب، وهيئة ذلك [أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها][(٣)] فيستر جميع ما ذكرناه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله المهاجرات الأُول، لما نزلت هذه الآية عَمَدْنَ إلى أكثف المروط فَشَقَقْنَها أخمرة، وضَرَبْن بها على الجيوب، ودخلت على عائشة حفصةُ بنت أخيها عبد الرحمن وقد اختمرت بشيءٍ يشِفُّ عن عنقها وما هنالك،

= عائشة: دخلت عليَّ ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مُزَيَّنة، فدخل النبي ﷺ فأعرض، فقالت عائشة: يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية، فقال: إذا عَرَكَت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا، وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أُخرى، وأشار به أبو علي. والحديث فيه انقطاع، ومعنى: عركت تَعْرُكُ: حاضَتْ. أما القُلْبُ فهو السِّوار يكون نظماً واحداً.

(١) في بعض النسخ: (ويُخَصِّصُ) بدلاً من (ويحسن).

(٢) إذ يقال فيهما: عَضْد وفَخْذ.

(٣) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي، فقد نقل كلام ابن عطية هنا من أول قوله: «وسبب هذه الآية... إلى هنا»، ووردت فيه هذه الزيادة، ونعتقد أنها سقطت من النساخ. والجيب هو فتحة الثوب على الصدر.



فَشَقَّته عليها وقالت: إنما يُضرب بالكثيف الذي يستر.

ومشهور القراءة ضم الجيم من ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾، وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياءِ كقراءَتهم ذلك في بُيوت وشُيوخ، ذكره الزهراوي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

المعنى في هذه الآية: ولا يقصدن بذلك الإخفاء للزينة الباطنة كالخلخال والأقراط ونحوه، ويطرحن مؤونة التحفظ إلاَّ مع من سمَّى. وبدأ بالبعولة وهم الأزواج لأن اطلاعهم يقع على أكثر من هذا، ثم ثَّنى بذوي المحارم وسوَّى بينهم في إبداءِ الزينة، ولكنهم تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أن كشف الأَب والأَخ على المرأة أَحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبدَى لهم، فيُبدَى للأَب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني جميع المؤمنات، فكأَنه قال: أَو صنفهن، ويدخل في هذا الإماءُ المؤمنات، ويخرج منه نساءُ المشركين من أَهل الذمة وغيرهم، وكتب عمر رضي الله عنه إلى أَبي عبيدة رضي الله عنه: إنه بلغني أَن نساءَ أَهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساءِ المسلمين، فامنع من ذلك وحُلْ دونه، فإنه لا يجوز أَن ترى الذمية عِرْيَة المسلمة[1]، قال: فعند ذلك قام أَبو عبيدة وابتهل وقال: أَيما امرأَة تدخل الحمام من غير عذر، لا تريد إلاَّ أَن تُبَيِّض وجهها فسَوَّد الله وجهها يوم تَبْيَضُّ الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يدخل فيه الإماءُ الكتابيات[2]، ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أَهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأُمِّ سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة العلماءِ: لا يدخل العبد على سيدته فيرى شعرها ونحو ذلك إلاَّ أَن يكون وغداً، فمنعت هذه الفرقة الكشف بمِلْك اليمين،

(١) يعني: ما يُعرى منها ويُكشف.

(٢) الكتابيات؛ أي اليهوديات والنصرانيات من الإماء.



وأَباحته بأَن يكون من التابعين غير أُولي الإِرْبة، وفي بعض المصاحف [أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُم] فيدخل فيه عبْد الغير.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ يريد الأَتباع [الذين يدخلون] ليطعموا الفضول، وهم من الرجال الذين لا إِرْبة لهم في الوطءِ، فهي شرطان، ويدخل في هذه الصيغة المجبوب(١) والمعتوه والمُخَنَّث والشيخ الفاني والزَّمِنُ الموقوذ بزمانته(٢)، ونحو هذا هو الغالب في هذه الأَصناف، ورُبَّ مُخَنَّث لا ينبغي أَن يكشف، أَلا ترى إِلى حديث «هِيت» ونَهْي رسول الله ﷺ عن كشفه على النساءِ لمَّا وصف بَادِيَةَ بنة غيلان بن معتب(٣)؟ وتأَمل ما روي في أَخبار الدَّلاَّل المُخَنَّث، وكذلك الحمقى والمعتوهون فيه ممن لا ينبغي أَن يكشف، والذي لا إِربة له من الرجال قليل.

و«الإِرْبَةُ»: الحاجة إِلى الوطءِ(٤)، وعبَّر عن هذا بعض المفسرين فقال: هو الذي يتبعك لا يريد إِلاَّ الطعام وما يأكله، وقرأَ عاصم(٥)، وابن عامر: [غَيْرَ] بالنصب، وهو على الحال من الذِّكر الذي في ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، أَو على الاستثناءِ من ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وقرأَ الباقون: ﴿غَيْرِ﴾ بالخفض على النعت لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، والقول

(١) المجبوب: المقطوع الذكر، وفي بعض النسخ: «المجنون» بدلاً من المحبوب.

(٢) الزَّمِنُ: المريض مرضاً يدوم طويلاً، والموقوذ: الشديد المرض المشرف على الموت.

(٣) حديث هَيْت أخرجه مسلم، وأبو داود، ومالك في الموطأ، وعبد بن حميد، وعبد الرزاق، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رجلٌ يدخل على أزواج النبي ﷺ مُخَنَّث، فكانوا يعُدُّونه من غير أُولي الإِرْبة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة، قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ، فقال النبي ﷺ: «لا أرى هذا يَعرف ما هاهنا، لا يدخُلَنَّ عليكم»، فحجبوه، وفي رواية لابن مردويه أن اسمه هيت، وقد ذكر الواقدي والكلبي أن هِيتاً هذا قال لعبد الله بن أُمية المخزومي وهو أخو أُمِّ سلمة رضي الله عنها، قال له في بيت أُخته: إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادية بنت غيلان الثقفي فإنها تقبل بأربع وتُدبر بثمانٍ، مع ثغر كالأقحوان، إن جَلَسَتْ تَبَنَّتْ، وإن تكلَّمت تَغَنَّت الخ، فسمعه رسول الله ﷺ، فقال: لقد غَلْغَلْتَ النظر إليها يا عدوَّ الله، ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمى، هذا وبادية بالياء، ويقال لها بادنة بالنون، والصواب بالياء، ومعنى (تقبل بأربع وتدبر بثمان): تقبل بأربع طيات من لحم جسمها وتدبر بثمانٍ منها. وتَبَنَّت: صارت كالمبنَّاة لِسِمَنِهَا.

(٤) أي في هذا الموضع، أما في غير ذلك فإن الإِرْبَةَ هي الحاجة، ومثلها الأَرَبُ والمأْرُبَةُ والإِربُ، والجمع مآرب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾.

(٥) أي في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص عنه فهي بالخفض كما هو ثابت في المصحف.



فيها كالقول في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع[(٢)]، ويقال «طِفْل» ما لم يراهق الحُلُم، و﴿يَظْهَرُوا۟﴾ معناه: يَطَّلِعُوا بالوطءِ[(٣)]، والجمهور على إسكان الواو من ﴿عَوْرَٰتِ﴾، وروي عن ابن عامر فتح الواو، وقال الزجاج: الأكثر سكون الواو كجَوْزَات وبيْضَات لثقل الحركة على الواو والياءِ، ومن قرأ بالفتح فعلى الأصل في فَعْلَة وفَعَلات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

أَسند الطبري عن المعتمر عن أَبيه قال: زعم حضرمي أَن امرأَةً اتَّخذت بُرَتَيْن[(٤)] من فضة، واتخذت جَزْعاً[(٥)]، فجعلت في ساقها فمرت على القوم فضربت برجلها الأرض، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت، فنزلت هذه الآية، وسماع هذه الزينة أَشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها، ذكره الزجاج.

قال مكي رحمه الله: ليس في كتاب الله تعالى آية أَكثر ضمائر من هذه، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع. وقرأَ عبد الله بن مسعود: «لِيُعْلَمَ ما سُرَّ مِنْ زينتهنَّ»[(٦)].

ثم أَمر عزَّ وجلَّ بالتوبة مطلقة، وقد قيَّد الكفار بالإخلاص وبالانتهاء في آية

(١) من الآية (٧) من سورة (الفاتحة).

(٢) بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾. فإن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت للطِّفْلِ، والضمير في ﴿يَظْهَرُوا۟﴾ ضمير جمع.

(٣) يعني لم يكشفوا عن عورات النساءِ لهذا الغرض بسبب صغر السِّن.

(٤) مُثَنَّى «بُرَة» بضم الباء وفتح الراء خفيفة: وهي الخلْخَالُ، وقيل: هي كلُّ حَلْقَة من سوار وقُرْطٍ وخَلْخال، قال الشاعر: (وَقَعْقَعْنَ الخَلاخِلَ والبُرِينَا). قال أبو عليٍّ: أَصْلُ البُرَة: بَرْوَة؛ لأنها جُمِعت على بُرىً مثل قَرْيَةٍ وقُرَى.

(٥) الجَزْعُ: ضربٌ من العقيق يعرف بخطوطٍ متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٦) في بعض النسخ: «لِيُعْلَمَ مَا يَسْتُرْنَ من زينتهن». أما كلمة «سُرَّ» فلعلها فيه بمعنى: أُخْفِي وسُتِر.

أُخرى[١]، وتوبة أَهل الذّمة بالتَّبيين، يريد لأَمر محمد ﷺ[٢]، وأَمر بهذه التوبة مطلقة عامة من كلِّ شيءٍ صغير وكبير.

وقرأَ ابن عامر: [أَيُّهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ] بضم الهاءِ من [أَيُّهُ]، ووجهه أَن يجعل الخاءَ كأَنها من نفس الكلمة، فيكون إِعراب المنادى فيها، وضعَّف أَبو عليٍّ ذلك جداً[٣]، وبعضهم يقف [أَيُّهْ]، وبعضهم يقف [أَيُّهَا] بالأَلف، وقوّى أَبو عليٍّ الوقف بالأَلف لأَن علَّة حذفها في الوصل إِنما هو سكونها وسكون اللام، فإِذا كان الوقف ذهبت العلَّة فرجعت الأَلف كما ترجع الياءُ إِذا وقفت على ﴿مُحِلِّي﴾ من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾[٤]، والاختلاف الذي ذكرناه في ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كذلك هو ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[٥]، و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾، هذه المخاطبة لكل من تصور أَن ينكح في نازلة ما، فهم المأْمورون بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له، وظاهر الآية أَن المرأَة لا تتزوج إِلاَّ بِوَلِيٍّ، و«الأَيِّمُ» يقال للرجل والمرأَة، ومنه قول الشاعر:

لله دَرُّ بَنِــــــــــــــي عَلِــــــــيٍّ أَيِّـم مِنْهُـم وَنَـاكِـح[٧]

---

(١) هي قوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة النساء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

(٢) جاء ذلك في الآية (١٦٠) من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

(٣) قال: لأن آخر الاسم هو الياءُ الثانية من «أَيٍّ»، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم، ولو جاز هنا أن نضم الهاءَ لاقترانها بالكلمة لجاز ضمُّ الميم من «اللَّهُمَّ» لاقترانها بالكلمة أيضاً، وعلَّق العلماءُ على ذلك فقالوا: إذا ثبتت القراءة عن النبي ﷺ فلا حجَّة لِلُغَوِيٍّ بعد ذلك، فإن القرآن هو الحجة، وبه تصبح اللغة صحيحة.

(٤) من الآية (١) من سورة (المائدة).

(٥) من الآية (٤٩) من سورة (الزخرف).

(٦) من الآية (٣١) من سورة الرحمن. . هذا وقد قال ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع»: «والحجة لمن حذف وأسكن الهاءَ أنه اتَّبع خط السواد، واحتج بأن النداء مبني على الحذف، وإنما فُتحت الهاء لمجيءِ ألف بعدها، فلما ذهبت الألف عادت الهاءُ إلى السكون، وإنما يوقف على مثل هذا اضطراراً لا اختياراً».

(٧) هذا البيت لأمية بن أبي الصلت، قال ذلك القرطبي واستشهد به، و«الدَّرُّ» في الأصل: اللَّبن، والمراد به هنا الخَيْر، يقال: لله درُّك من رجل، أي لله عَمَلُكَ، يقال هذا لمن يُمدح ويُتَعَجَّب من عمله. ، فإذا=



ولعموم هذه اللفظة قالت فرقة: إن هذه الآية ناسخةٌ لحُكم قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١)، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ يريد: للنكاح(٢). وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [مِنْ عَبِيدِكُمْ]، والجمهور على ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾، والمعنى واحد، إلاَّ أَن قرينة الترفيع بالنكاح تؤيد قراءة الجمهور.

وهذا الأَمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص، ففي نازلة يُتصور وجوبه، وفي نازلةِ الندبُ، وغير ذلك، وهذا بحسب ما قيل في النكاح.

ثم وعد الله تبارك وتعالى بإغناءِ الفقراءِ المتزوجين طلباً لرضى الله عنهم واعتصاماً من معاصيه، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «التمسوا الغنى في النكاح»، وقال عمر رضي الله عنه: «عجبي ممن لا يطلب الغنى بالنكاح»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾(٣). قال النقاش: هذه الآية حجةٌ على من قال إن القاضي يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيراً لا يقدر على النفقة، لأَن الله تعالى قال: ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: «يفرق بينهما».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاعٌ ضعيف، وليست هذه الآية حُكْماً فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعْدٌ بالإغناء، كما وعد به تعالى مع التفرق في قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾(٤)، ونفحات رحمة الله تعالى مأمولةٌ في كل حالٍ، موعودٌ بها.

= شتموا أو سبُّوا قالوا: لا دَرَّ دَرُّه، أي لا كثُر خيرُه، والأيِّم: من لازوج له رجلاً كان أو امرأة، والنَّاكحُ: المتزوج، فهو يثني على آل عليٍّ جميعاً المتزوجين منهم وغير المتزوجين. والشاهد استعمال الأيِّم هنا للرجل وللمرأة.

(١) من الآية (٣) من سورة (النور).

(٢) وقيل: (المراد بالصالحين المستقيمين المؤدين لواجباتهم، وخصهم الله بالذكر ليحصِّن لهم دينهم بالزواج ويحفظ عليهم صلاحهم، لأن الصالحين من العبيد يكونون موضع رعاية وإشفاق ممن ملكوهم، فهم يُنزلونهم منزلة الأولاد في المودة والرعاية، فهم مظنة الاهتمام بشأنهم وتقبُّل الوصية فيهم، بخلاف المفسدين فحالهم عند واليهم على عكس ذلك).

(٣) وأخرج ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة أَن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عونه، المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والمُكَاتَب يريد الأداء».

(٤) من الآية (١٣٠) من سورة (النساء).

وقوله تعالى: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان نحو المعنى الذي فيه القول، أي واسع الفضل، عليمٌ بِمُسْتَحِقِّ التوسعةِ والإغناءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾.

«استعفف» وزنه استَفْعَل، ومعناه: طلب أن يكون عفيفاً، فأمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذَّر أن يستعف، ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعَدَ بالإغناءِ من فضله، فعلى هذا التأويل يعمُّ الأمر بالاستعفاف كلَّ من تعذَّر عليه النكاح بأي وجه تعذَّر.

وقالت جماعة من المفسِّرين: النكاحُ في هذه الآية اسم ما يُمْهَر ويُنْفق في الزواج كاللِّحاف واللباس لما يُلْتَحف به ولما يلبس، وحملهم على هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فظنوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو من عدم المال الذي يتزوج به، وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف، وذلك ضعيف[١].

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن يكاتِب منهم كلُّ من له مملوك وطَلَب المملوك الكتابة وعَلم سيِّدُه منه خيراً، قال النقاش: سببها أن غلاماً لحويطب بن عبد العُزَّى سأل مولاه الكتابة فأبى عليه، وقال مكي: هو صُبَيْح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة، ولفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الآية مصدر كالقتال والجلاد ونحوه من مصادر فاعَلَ، و«الكتابة» فِعالة من حيث هذا يكتب على نفسه، وهذا على نفسه.

واختلف الناس، هل هذا الأمر بالكتابة على الوجوب أو على الندب، على قولين: فمذهب مالك رحمه الله أن ذلك على الندب، وقال عطاءٌ: ذلك واجب، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأنس بن مالك رضي الله عنه في سيرين، حين سأل سيرين الكتابة فتلكَّأ أنس، فقال له عمر: كاتبهُ أو لأضربنَّك بالدِّرَّة، وهو قول عمرو بن دينار والضحاك[٢].

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية في هذه الفِقرة، وزاد عليه قوله: «بل الأمر بالاستعفاف متوجه لكل من تعذَّر عليه النكاح بأي وجه».

(٢) وحجة القائلين بالندب وهم الجمهور أن الإجماع منعقد على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه لم يجبر=



واختلف الناس في المراد بالخير ـ فقالت فرقة: هو المال، ولم تَرَ على سيِّد عبد أَن يكاتب إِلاَّ إِذا علم أَن له مالاً يؤدي منه أَو من التَّجْر فيه[1]، وروي عن ابن عمر وسلمان أَنهما أَبيا من كتابة عبدين رغبا في الكتابة ووعدا باسْتِرْفَاق الناس، فقال كل واحد منهما لعبده: أَتريد أَن تطعمني أَوساخ الناس؟ وقال مالك: إِنه ليقال: يراد بالخير القوة والأَداءُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: الخير هو صدقُ الموعد، وقلَّة الكذب، والوفاءُ، وإِن لم يكن للعبد مالٌ، وقال عُبيدةُ السَّلْمَاني: الخيرُ هو الصلاح في الدين، وهذا في زمنه القول الذي قبله.

والْمُكَاتَبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم، وحرمة العتق إِنما يتلبَّس بها بعد الأَداء، هذا قول جمهور الأُمَّة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إِذا أَدَّى ثُلث الكتابة فهو عتيق غريم، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: العتاقة تجري فيه بأَول نَجْم يؤديه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾، قال المفسرون: هو أَمر لكل مكاتب أَن يضع للعبد من مال كتابته، واستحسن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن يكون ذلك ربع الكتابة، قال الزهراوي: ورُوي ذلك عن النبي ﷺ[3]، واستحسن الحسن بن أَبي الحسن، وابن مسعود ثُلُثها، وقال قتادة: عُشْرَها، ورأَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن يكون ذلك من أَول نجومه مبادرةً إِلى الخير وخوف أَلاَّ يُدرك آخرها، ورأَى مالك رحمه الله، وغيره أَن يكون الوضع في آخر نَجْم، وعلة ذلك أَنه إِذا وضع من أَول نجْم ربما عجز العبد فرجع هو ومالُه إِلى السيِّد، فعادت إِليه وضيعته، وهي شبه الصدقة، وهذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ورأَى مالك رحمه الله هذا الأَمر على الندب، ولم يَرَ لقدر الوضيعة حدّاً، ورأَى الشافعي رحمه الله وغيره الوضيعة

= على ذلك ولو ضوعف له الثمن، كذلك لو طلب العبد من سيده أن يعتقه أو يُدَبِّره أو يزوجه لم يلزمه ذلك بالإجماع، فكذلك المكاتبة، وهي مفاعلة لا تتم إلا عن تراض، وقالوا: إن الآية فيها أمر مطلق وهو يقتضي الوجوب إذا لم تكن هناك قرينة تمنع من ذلك، وهي هنا علم الخير من السَّيِّد في العبد، فلو قال العبد: كاتبني. قال السَّيِّد: لا أعلم فيك خيراً، أخذ بقول السَّيد، والله أعلم.

(١) التَّجْر: مصدر تَجَرَ، يقال: تَجَرَ في كذا بمعنى: مارس البيع والشراء

(٢) النَّجْم هو: ما يُؤَدَّى من دَيْن في وقت مُعَيَّن، والذي يعرف الآن بأنه «القِسْط».

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والديلمي، وابن المنذر، والبيهقي، وابن مردويه، من طريق عبد الله بن حبيب، عن عليٍّ، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ﴾، قال: يُترك للمُكَاتَب الربع. «الدر المنثور».

واجبة يحكم بها الحاكم على المكاتب وعلى ورثته، وقال الحسن، والنَّخعيُّ، وبُرَيْدَة: إنما الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتَبين، وأن يعينوهم في فكاك رقابهم، وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب لولاة الأمور بأن يعطوا للمكاتَبين من مال الصدقة حظَّهم، وهو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾.

روي أن سبب هذه الآية هو أن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول كانت له أَمَةٌ تسمى مُسيْكَة، وقيل: معاذة[2]، فكان يأمرها بالزنى والكسب به، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجع إلى «الفتيات»، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التَّحصُّن فحينئذ يمكن ويُتصور أن يكون السَّيِّد مكرِهاً، ويمكن أن يُنْهى عن الإكراه، وإذا كانت الفتاة لا تريد التَّحصُّن فلا يُتصوَّر أن يقال للسيِّد: لا تُكْرِهْها؛ لأن الإكراه لا يُتصور فيها وهي مريدةٌ للزنى، فهذا أَمر في [سادَةٍ وفتيات][3] حالهم هذه، وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين، فقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى [ٱلْأَيَامَى] في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ مُلغى، ونحو هذا مما ضُعِّف، والله الموفق للصواب برحمته.

و«عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا» في هذه الآية: الشيءُ الذي تكتسبه الأَمَةُ بفرجها، ومعنى

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة التوبة، وهي الآية التي بينت مصارف الزكاة.

(٢) وقيل: هما أمتان مُسَيكَة ومعاذة، وقيل: بل كان عنده عدد كبير منهن، مُعاذة ومُسَيكَة وأُمَيمة وعَمْرة وأَرْوى وقتيلة، والأخبار في ذلك كثيرة، وقد أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبي يقال لها مُسَيكة، وأُخرى يقال لها: أُميمة، فكان يريدهما على الزِّنى، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾.

(٣) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية في هذه الفقرة كاملاً.



باقي الآية: فإن الله بعد إكراههن غفورٌ رحيم بهن، وقد يُتصوَّر الغُفْران والرحمةُ بالمُكْرَهين بعد أن تقع التوبة من ذلك، فالمعنى: غفور لمن تاب، وقرأ ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير: «لَهُنَّ غفورٌ رحيمٌ» بزيادة «لَهُنَّ».

ثم عدَّد تعالى على المؤمنين نعمته فيما أَنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيما ضرب لهم من أَمثال الماضين من الأمم ليقع التحفُّظ مما وقع أُولئك فيه، وفيما ذكر لهم من المواعظ. وقرأ جمهور الناس: [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياءِ، أَي: بيَّنَها الله تعالى وأَوضحها، وقرأ الحسن، وطلحة، وعاصم، والأعمش: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياءِ، أَي: بيَّنت الحقَّ وأَوضحته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

النُّور في كلام العرب: الأَضواءُ المدركة بالبصر، ويستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح، فيقال: «كلام له نور»، ومنه «الكتابُ المنير» ومنه قول الشاعر:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نُوراً وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُوداً[1]

والله تعالى ليس كمثله شيءٌ، فبين أنه ليس كالأضواء المُدْركة، ولم يبق للآية معنى إلاَّ أنه أَراد: الله ذو نور السموات والأَرض، أَي بقدرته أَنارت أَضواؤُها، واستقامت

(١) البيت في القرطبي أيضاً غير منسوب، وهو من الأبيات المشهورة لأبي تمام، وقد استشهد به مع بيتين آخرين إبراهيم بن العباس الصولي على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه، ذكر ذلك الأصفهاني في كتاب الأغاني، والأبيات الثلاثة هي:

مَطَــرٌ أَبُــوكَ أَبُــو أَهِلَّــةِ وائِــلٍ ... مَــلأَ الْبَسِيطَــةَ عُــدَّةً وَعَــدِيــدا
نَسَـبٌ كَـأَنَّ عَلَيـهِ مِـن شَمس الضُّحـى ... نُـوراً ومِـن فَلَـقِ الصَّبَـاحِ عَمُـودا
وَرِثُــوا الأُبُــوَّةَ وَالْحُظُــوظَ فَــأَصْبَحُــوا ... جَمَعُــوا جُــدُوداً فِــي الْعُـلا وجُـدُودا

والنَّسب: القرابة، ويقال: إنه في الآباء خاصة، والفَلَقُ ـ بفتح الفاء واللام ـ: ما انشقَّ من عمود الصبح، وقيل: هو الصبح بعينه، وقيل: هو الفجر، وكلُّه راجع إلى معنى الشَّق، وفَلَق الصبح: ضوءُه وناره، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح، والشاهد أن النور هنا بمعنى الأضواء المدركة بالبصر.



أُمُورُها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقرير للذهن، كما تقول: المَلِك نور الأُمَّة، أَي به قوام أُمورها وصلاحُ جُملتها، والأَمر في المِلك مجازٌ، وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة؛ إِذ هو الذي أَبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً؛ لأَن ظهور الوجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المُبْصَرَاتِ، تبارك الله لا ربَّ سواه[1].

وقالت فرقة: التقدير: دينُ الله نور السموات والأَرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: هادي أَهل السموات والأَرض. والأَول أَعمُّ للمعاني وأَوضح مع التأَمل.

وقرأَ عبد الله بن عياش بن أَبي ربيعة، وأَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [الله نوَّرَ] بفتح النون والواو المشددة وفتح الراءِ على أَنه فِعْل[2].

وروي أَن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأْويلها، واعترضوا محمداً ﷺ بأَن قالوا: كيف هو نور الأَرض والسماء بيننا وبينه، فنزلت حينئذ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية، أَي: ليس الأَمر كما ظننتم، وإِنما هو نور بأَنه قوامُ كل شيءٍ وخالقُه ومُوجده، مثل نوره كذا وكذا.

واختلف المتأَولون في الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ على من يعود؟ فقال: كعب الأَحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ، أَي: مَثَل نور محمد ﷺ، وقال أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه، وابن جبير، والضحاك: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءة أُبي بن كعب: «مَثَل نُور المؤمنين»، ورُوي أَن في قراءَته «مَثَل نُور المؤمن»، وروي أَن فيها

---

(١) أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا تهجَّد في الليل يدعو: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك حق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

(٢) وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي، وزيد بن علي، وثابت ابن أبي حفصة، والقوصِي، ومسلمة بن عبد الملك، قال ذلك أبو حيَّان في «البحر المحيط».



«مَثَلُ نُور من آمَنَ بِهِ»، وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان، وقال مكي بن أَبي طالب: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه أَقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها قطع المعنى المراد بالآية.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد إِلى الله تعالى، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بالنور الذي أُضيف إِلى الله تعالى إِضافة خلق إِلى خالق، كما تقول: سماءُ اللهِ، وناقةُ اللهِ ـ فقال بعضها: هو محمد ﷺ[1]، وقال بعضها: هو المؤمن، وقال بعضها: هو الإِيمان والقرآن[2]، وهذه الأَقوال متَّجهة مُطَّرد معها المعنى، فكأَن اليهود لما تأَولوا ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ الآية بمعنى الضوء قيل لهم: ليس كذلك، وإِنما هو نور بأَنه قوام كل شيءٍ وهاديه، مثل نوره في محمد ﷺ، أَو في المؤمن، أَو في القرآن والإِيمان كمشكاة، وهي الكُوَّةُ غير النافذة فيها القنديل ونحوه.

وهذه الأَقوال الثلاثة تضطرد فيها مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل، فعلى قول من قال: «المُمَثَّل محمد ﷺ ـ وهو قول كعب الخير ـ فرسول الله ﷺ هو المشكاة، أَو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهديه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحيُ والملائكة رسل الله إِليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول من قال: «المُمَثَّل به المؤمن» ـ وهو قول أُبيِّ بن كعب ـ فالمشكاة صدره، والمصباح الإِيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتُها هو الحجج والحكمة التي تضمنها، قال أُبي: فهو على أَحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحيِّ يمشي في قبور الأَموات.

ومن قال: «إِنَّ المُمَثَّل به القرآن والإِيمان» فتقدير الكلام: مثل نوره ـ الذي هو الإِيمان في صدر المؤمن ـ في قلبه كمشكاة، أَي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأَولين، لأَن المشكاة ليست تقابل الإِيمان.

---

(١) فقد سماه الله تعالى نوراً في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

(٢) وقد سمَّاه الله تعالى نوراً في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].



وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، [وذلك أن يريد: مثل نور الله الذي هو هُداه وإتقانه صنعةَ كل مخلوق وبراهينُه الساطعة على الجملة][١] كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس، أي: فمَثَلُ نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيُّها البشر.

و«المِشْكَاةُ»: الكُوَّة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جُبير، وسعيد بن عياض، وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوءِ، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وقال مجاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه، وقال أبو موسى: المشكاة: الحديدة أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة، وقال مجاهد أيضاً: المشكاة: الحدائد التي يعلق بها القنديل. والأول أصحُّ هذه الأقوال.

وقوله تعالى: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ لأنه جسم شفاف، المصباح فيه أنورُ منه في غير الزجاج. و«المِصْبَاحُ»: الفتيل بناره. وأمال الكسائي ـ فيما روى عنه أبو عمرو الداني ـ الألف من [مشكاة] فكسر الكاف التي قبلها، وقرأ نصر بن عاصم: [فِي زَجَاجَة] بفتح الزاي و[الزَجاجة] كذلك، وهي لغة[٢].

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي في الإنارة والضوءِ، وذلك يحتمل معنيين: إمَّا أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإمَّا أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك، وهذا التأويل أبلغُ في التعاون على النور، قال الضحاك: الكوكب الدُّرِّيُّ هو الزُّهْرة، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدال وشد الياءِ، ولهذه القراءة وجهان: إمَّا أن يُنْسب الكوكبُ إلى الدُّرِّ لبياضه وصفائه، وإما أن يكون أصله «دُرِّيءٌ» مهموز من الدَّرأِ وهو الدفع، وخُفِّفَت الهمزة. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: [دُرِّيءٌ] بالهمز، وهو فُعِّيل من الدَّرأِ، بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً، أو بمعنى أن بها ما يدفع خفاءَها، وفُعِّيل بناءٌ لا يوجد في الأسماء إلاَّ في قولهم: مُرِّيق

---

(١) ما بين العلامتين [...] سقط من كل النسخ الأصلية إلا نسخة واحدة، واتفق معها كلام القرطبي الذي نقل هذه الفقرة كاملة عن ابن عطية دون أن يشير إليه.

(٢) قال أبو الفتح: «فيها ثلاث لغات: زَجَاجة، وزُجاجة، وزِجاجة ـ بالفتح والضم والكسر ـ وفي الجمع: زَجَاجٌ، وزُجَاجٌ، وزِجاجٌ ـ كنعامة ونَعَامٌ، ورُقاقة ورُقاق، وعِمامة وعِمامٌ ـ».



للْعُصْفُر[١] وفي السُّرِّية إذا اشتقت من السِّر[٢]، وَوَجَّه هذه القراءة أبو عليٍّ وضَعَّفَها غيره. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: [دِرِّيءٌ] على وزن فِعِّيل بكسر الفاءِ، من الدَّرْءِ، وهذه متوجهة. وقرأ قتادة: [دَرِّيءٌ] بفتح الدال والهمزة، قال أبو الفتح: وهذا عزيزٌ، وإنما حُفظ منه «السَّكِّينَة» بشد الكاف، وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو رجاءِ، ونصر بن عاصم: [دَرِّيٌ] بفتح الدال دون همز.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وطلحة، والأعمش، والحسن، وقتادة، وابن وثاب، وعيسى: [تُوقَدُ] بضم التاءِ، أي الزجاجة. وقرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة، والحسن، وابن محيصن: [تَوَقَّدُ] بفتح التاءِ والواو وشد القاف وضم الدال، أي الزجاجة. وقرأ أبو عمرو أيضاً، وابن كثير: [تَوَقَّدَ] بفتح التاءِ والدال، أي المصباحُ، وقرأ عاصم ـ فيما روى عنه إسماعيل[٣] ـ ﴿يُوقَدُ﴾ بالياءِ المرفوعة، على معنى: يُوقَدُ المصباح، قال أبو الفتح: وقرأ السُّلَمي، والحسن، وابن محيصن، وسَلاَّم، وقتادة: [يُوَقَّد] بفتح الياءِ والواو والقاف المشددة ورفع الدال، أصله: يَتَوَقَّدُ.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، و«المباركة»: المُنَمَّاة، والزيتون من أعظم الثمار نماءً واطِّرادَ أفنان وغضارةً لا سيما بالشام، والرُّمان كذلك، والعيان يقضي بذلك، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

لَيْتَ شِعْرِي مُسَافِرَ بنَ أَبي عَمْـ ـرٍو، ولَيْتٌ يَقُولُها الْمَحْزُون
بُورِكَ الْمَيِّتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُو رِكَ نَبْعُ الرُّمَّان والزَّيْتُونُ[٤]

---

(١) جاء في اللسان (درأ): «وكوكبٌ دُرِّيءٌ عَلَى فُعِّيل: مندفع في مضيِّه من المشرق إلى المغرب» ثم نقل عن ابن بَرِّي أن سيبويه حكى أنه يدخُل في الكلام فُعِّيلٌ وهو قولهم للعُصْفُر: مُرِّيق وكوكبٌ دُرِّيءٌ.، وجاء فيه في (مرق): «والمُرَّيْقُ: حَبُّ العُصْفُر، وفي التهذيب: شحم العُصْفُر» فضبطه بتشديد الرَّاء وفتحها كقُبَّيْط، وعلَّق محققه على ذلك بقوله: «ضبطه الصاغاني بضم فكسر الراء المشددة، وكذلك مجد الدين في (درأ)، وضَبْطُه هنا كقُبَّيْط مناقض لما تقدم في (درأ)، أفاده شارح القاموس».

(٢) قال أبو حيان في البحر: «إذا قيل إنها مشتقة من السرور وأبدل من أحد المضعفات الياءُ فأُدغمت فيها ياءُ فعيل، وسمع أيضاً (مُرِّيخ) للذي في داخل القرن اليابس».

(٣) وكذلك فيما رواه حفص كما هو ثابت في المصحف.

(٤) لَيْتَ شعري: ليت عِلْمي، ويقال: ليت شعري لفلان ما صنع، وليت شعري عن فلان ما صنع، وليت شعري فلاناً، وأنشدوا شاهداً على الأخيرة البيت الأول، وهو في اللسان (شعر)، والبيت الثاني في=

وقوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفاً على ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: [لا شَرْقيّةٌ ولا غَرْبيّةٌ] بالرفع[1]، واختلف المتأولون في معناه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى عنه الطبري ـ: معناه أنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا عن جهة الغرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن الوجود يقتضي أن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفذ جناها.

وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية.

وقال أبو زيد: أراد أنها من شجر الشام؛ لأن شجر الشام من أفضل الشجر، ومن الأرض المباركة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: المعنى في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها في منكشف من الأرض، تصيبها الشمس طول النهار، تستدير عليها، فليست خالصة للشرق فتُسمَّى شرقية، ولا للغرب فتُسمَّى غربية.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في صفة من صفاته وحُسنْ وجودته، وقرأ الجمهور: ﴿تَمْسَسْهُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ ابن عباس، والحسن بالياءِ من تحت. وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي هذه كلها معادن تكامل بها هذا النور المُمَثَّل به، وفي هذا الموضع تم المثال.

ثم ذكر تبارك وتعالى هداه لنوره من شاءَ وأسعد من عباده، وذكر تفضُّله في ضرب الأفعال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان.

= اللسان أيضاً (برك)، وليت: كلمة تَمَنٍّ، والنبع في الأصل: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي لصلابته، وكلُّ القِسيِّ إذا ضُمَّت إلى قوس النَّبع كرَمَتْها قوسُ النَّبع، ولا يكون العود كريماً حتى يكون ذلك، ولهذا يطلقون على كل شجر كريم اسم النبع، وشجر كل من الرمان والزيتون من أكرم الأشجار وأنفعها للناس.

(١) وتكون الجملة في موضع الصفة.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾.

الباءُ في ﴿بُيُوتٍ﴾ تُضم وتُكسر، واختُلف في الفاء من قوله: ﴿فِي﴾ فقيل: هي متعلقة بـ﴿مِصۡبَاحٌ﴾، قال أبو حاتم: وقيل: متعلقة بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ المتأخر، فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿عَلِيمٞ﴾، قال الرماني: هي متعلقة بـ﴿يُوقَدُ﴾.

واختلف الناس في البيوت التي أَرادها بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد: هي المساجد المخصوصة لله تعالى التي من عادتها أَن تُنَوَّر بذلك النوع من المصابيح، وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَراد بيت المقدس، وسمَّاه بيوتاً من حيث فيه مواضع يتحيز بعضها عن بعض، ويؤثر أَن عادة بني إِسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في التَّهمُّم به، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه، وقد صُنع صنعة وقُدِّس حتى لا يجري الوقيد بغيره، فكان أَضوأَ بيوت الأَرض. وقال عكرمة: أَراد بيوت الإِيمان على الإِطلاق، مساجد ومساكن، فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءَة العلم، وقال مجاهد: أَراد بيوت النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ يُقوِّي أَنها المساجد.

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ﴾ بمعنى أَمَرَ وقَضَى، وحقيقة الإِذن العلمُ والتمكن دون حظر، فإِن اقترن بذلك أَمْرٌ وإِنفاذ كان أَقوى، و﴿تُرۡفَعَ﴾ قيل: معناه تُبْنى وتُعَلَّى، قاله مجاهد وغيره، فذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة»[2]، وفي هذا المعنى

---

(١) من الآية (١٢٧) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد والمسافرين والزهد، والبخاري في الصلاة، وأبو داود في التطوع، والترمذي في الصلاة، والنسائي في المساجد وقيام الليل، وابن ماجه في المساجد والتجارات، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، وتختلف الألفاظ باختلاف الرواة.

أَحاديث. وقال الحسن بن أَبي الحسن: معناه تُعظَّم ويُرفع شأنها. و«ذِكْرَ اسْمه تعالى» هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم(١): [يُسَبَّحُ] بفتح الباءِ المشددة، وقرأَ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباءِ المشددة، فـ﴿رِجَالٌ﴾ ـ على القراءَة الأُولى ـ مرتفع بفعل مضمر يدل عليه [يسبَّح]، تقديره: يُسبِّحُه رجال، فهذا عند سيبويه نظير قول الشاعر:

لِيُبْـكَ يَـزِيـدُ ضَـارِعٌ لِخُصُـومَـةٍ . . . . (٢)

أَي: يبكيه ضارعٌ، و﴿رِجَالٌ﴾ ـ على القراءة الثانية ـ مرتفع بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ الظاهر، وروي عن يحيى، بن وثاب أَنه قرأَ: [تُسَبِّحُ] بالتاءِ من فوق. و«الغُدُو والآصال» قال الضحاك: أَراد الصبح والظهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد ركعتي الضحى والعصر، وإِن ركعتي الضحى لفي كتاب الله تعالى، وما يغوص عليهما إِلا غواص.

وقرأَ أَبو مجْلَز: [والإِيصَالِ].

ثم وصف الله تعالى المسبحين بأَنهم لمراقبتهم أَمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيءٌ من أُمور الدنيا. وقال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم: نزلت هذه الآية في أَهل الأَسواق الذين إذا سمعوا النداءَ بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إِليها، ورأَى سالم بن عبد الله بن عمر أَهل الأَسواق وهم مقبلون إِلى الصلاة فقال: هؤلاءِ الذي أَراد الله تعالى بقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وروى ذلك عن ابن مسعود.

---

(١) في رواية أبي بكر عنه.

(٢) هذا صدر بيت نسبه سيبويه في الكتاب للحارث بن نَهِيك، ونسبه في خزانة الأدب لِنَهْشَل بن حَرِيّ، وقد ذكر نسبته أيضاً إلى لبيد، وإلى مزرد، وإلى الحارث بن ضرار النهشلي، والبيت بتمامه:

لِيُبْـكَ يَـزِيـدُ ضَـارِعٌ لِخُصُـومَـةٍ ... وَمُخْتَبِـط مِمَّـا تُطِيـحُ الطَّـوَائِـحُ

والبيت من شواهد النحويين، واستشهدوا به على رفع (ضارع) بإضمار فعل دلَّ عليه ما قبله كما ذكر ابن عطية هنا، وهو موجود في العيني، وابن يعيش. و(يزيد) المذكور في البيت هو يزيد بن نهشل، والضارع: الذليل الخاضع، ولِخُصُومةٍ، أي: لأجل الخصومة، والمتخبط: طالب العُرْف، وتطيح: تَذهب وتُهلك، والطوائح أراد بها المطاوح لأنه جمع مطيحة، جمع على حذف الزيادة، كقوله تعالى: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع مُلقحة، والاستشهاد بالبيت عند سيبويه وغيره من النحويين تمَّ بناءً على رواية (لِيُبْكَ) بالبناء للمفعول، و(يزيد) نائب فاعل، وقد روي البيت ببناءِ الفعل (يَبْكِ) للفاعل، وعلى هذا فالفاعل هو ضارعٌ، و(يزيدَ) مفعوله، ولا حذف ولا شاهد. (راجع الخزانة والكتاب).



و﴿إقام﴾ مصدرٌ من أَقام يُقيم، أَصله إِقْوَام، نقلت حركة الواو إلى القاف فبقيت ساكنة والألف ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فجاءَ «إِقام»، فقال بعض النحويين: هو مصدر بنفسه قد لا يضاف، وقيل: لا يجوز أَقمته إِقاماً، وإنما يستعمل مضافاً، ذكره الرماني، وقال بعضهم من حيث رأوْهُ لا يستعمل إلا مضافاً: أُلْحقت به هاءٌ عِوَضاً من المحذوف فجاءَ «إِقامه»، فهم إذا أَضافوه حذفوا العِوَض لاستغنائهم عنه، فإن المضاف والمضاف إليه كاسم واحد. و«الزكاة» هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما: الطاعة لله، وقال الحسن: هي الزكاة المفروضة في المال. و«اليوم المخوف» الذي ذكره الله تبارك وتعالى هو يوم القيامة.

واختلف الناس في تقلُّب القلوب والأَبصار، كيف هو؟ فقالت فرقة: يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشَّاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إلى اعتقاد الحق على وجهه، وكذلك الأَبصار، وقالت فرقة: هو تقلب على جمر جهنم، ومقصد الآية هو وصف هول يوم القيامة. فأَما القول الأَول فليس يقتضي هَوْلاً، وأَما الثاني فليس التقلب في جمر جهنم في يوم القيامة، وإنما هو بعده، وإنما معنى الآية عندي أَن ذلك ـ لشدة هوله ومطلعه ـ القلوب والأَبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع، ومن حذر هلاك إلى حذر، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر. والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها، ومنه قول الشاعر:

بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ[1]

ومنه قول بشَّار:

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَزَّى . . . .[2]

وهذا كثير.

---

(١) جناح الطائر: ما يخفق به في الطيران، ويقال: «فلان في جناحي طائر» إذا كان قلقاً دهشاً، قال في اللسان: «وللعرب أمثال في الجناح، منها قولهم في الرجل إذا جدَّ في الأمر واحتفل: ركب فلان جناحيْ نعامة، ويقال: «ركب القوم جناحيْ الطائر» إذا فارقوا أوطانهم، ويقال: «فلانٌ في جناحيْ طائر» كان إذا قلقاً دهشاً.. والقلوب هي موضع القلق والاضطراب والتقلب، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) هذا صدر بيت قيل: هو من شعر نُصَيْب، وقيل: بل من شعر بشَّار، قال صاحب اللسان حين استشهد بأبيات على أن التَّنَزِّي هو التوثُّب والتَّسَرُّع، والأبيات هي: =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

اللام في قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: فعلوا ذلك، ويسَّروا لذلك، ونحو هذا، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُ ﴾. وقوله: ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: ثواب أَحسنَ ما عملوا، ثم وعدهم عزَّ وجلَّ بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أَعمالهم، فأَهل الجنة أَبداً في مزيد، ثم ذكر أَنه يرزق من يشاءُ، ويخصه بما يشاءُ من رحمته دون حساب ولا تعديد، وكل تفضُّل لله فهو بغير حساب، وكل جزاءٍ على عمل فهو بحساب.

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإِيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، عقَّب ذلك بذكر الكفرة وأَعمالهم، فمثَّل لها ولهما تمثيلين: الأَول منهما يقتضي حال أَعمالهم في الآخرة من أَنها غير نافعة ولا مجدية، وذلك يقتضي حالها في الدنيا من أَنها في الغاية من الضلال والغُمَّة التي مثالها ما ذكر من تناهي الظُّلمة في قوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ ﴾.

و«السَّرَابُ»: ما ترقرق من الهواءِ في الهجير في فيافي الأَرض المنبسطة، وأَوهم الناظر إِليه على بُعْد أَنه ماءٌ، سُمِّي بذلك لأَنه ينسرب كالماءِ، فكذلك أَعمالُ الكافر، يظن في دنياه أَنها نافعته، فإِذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً، فهي كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماءً، فإِذا قصده وأَتعب نفسه بالوصول إِليه لم يجد شيئاً، و«القِيعَة»: جمع قاعٍ، كجارٍ وجيرة، والقاعُ: المنخفض البساط من الأَرض، ومنه قول النبي ﷺ

= أَقُــولُ ولَيْلَتِــي تَــزْدادُ طُــولاً ... أَمَــا لِلَّيْــلِ بَعْــدَهُــمُ نَهَــارُ؟
جَفَــتْ عَيْنِــي عَــنِ التَّغْمِيضِ حَتَّــى ... كَــأَنَّ جُفُــونَهَــا عَنْهَــا قِصَارُ
كَــأَنَّ فُــؤَادَهُ كُــرَةٌ تَنَــزَّى ... حِــذَارَ البَيْــنِ لَــوْ نَفَــعَ الحِـذَارُ

يشبه فؤاده بالكرة التي تتوثَّب وتضطرب إشفاقاً من الفراق وخوفاً لو كان ينفع الفراق الخوفُ.

في مانع زكاة الأنعام: «فَيُبْطَحُ لها بقاع قَرْقَرٍ»[(١)]. وقيل: القيعان مفرد، وهو بمعنى القاع. وقرأ مسلمة بن محارب: [بِقِيعَاتٍ][(٢)]، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف ـ: [الظَّمَان] بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ يريد: شيئاً نافعاً في العطش، أو يريد: شيئاً موجوداً على العموم، ويريد بـ﴿جَآءَهُۥ﴾: جاءَ موضعه الذي تخيله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿جَآءَهُۥ﴾ على السراب، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره: «فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءَه لم يجده شيئاً»، ويحتمل الضمير أَن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ويكون تمام المثل في قوله: ﴿مَآءً﴾، ويستغنى الكلام عن متروكٍ على هذا التأْويل، لكن يكون في المثل إِيجازٌ واقتضاب لوضوح المعنى المراد به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أَي: بالمجازَات، والضمير في ﴿عِندَهُۥ﴾ عائد على العلم، وباقي الآية بيِّن، فيه توعدٌ وسُرعةُ الحساب من حيث هو بعلم لا تكلف فيه.

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه كلٌّ من مسلم، وأبو داود، والنسائي، والدارمي في الزكاة، وأخرجه أحمد في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في مسلم، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلاَّ كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبه وظهره، كلما بَرَدَت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدي منها حقَّها ـ ومنْ حقِّها حَلَبُها يوم وِردها ـ إلاَّ إذا كان يومُ القيامة بُطِحَ لها بقَاع قَرْقَرٍ أوْفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤُه بأخفافها، وتَعَضُّه بأفواهها، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه آخرها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»... إلخ الحديث الذي سأل فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعد ذلك عن البقر والغنم، ثم عن الخيل، ثم عن الحُمُر، والرسول ﷺ يجيب موضحاً عقوبة من لا يؤدي حق كل نوع. والحديث صريح في وجوب الزكاة في الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والخيل. ومعنى (بُطح): أُلقي على وجهه مبسوطاً على الأَرض، والقاع: المستوي الواسع من الأرض يعلوهُ ماءُ السماء فَيُمْسكه، وهو موضع الشاهد هنا، والقَرْقَر: المستوي أيضاً من الأرض مع اتساع. وهو بفتح القافين.

(٢) في الأصول: «مسلم بن محارب»، والتصويب عن البحر لأبي حيان والمحتسب لابن جني، قال ابن جني: «قد يجوز أن يكون قيعات بالتاء جمع قِيعَةٍ كقيمةٍ وقيمات وديمة ودِيمات، ويجوز أن يكون جمع قاع كجارٍ وجيرَة ونارٍ ونيرَة»، وذكر تعليلات أُخرى نقل بعضها القرطبي.



وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كَسَرَابٍۭ﴾، وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا، أي أنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأشياء، وذهب بعض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاءٌ تقابل أجزاءً من المُمَثَّل، فقال: الظلمات: الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة، والبَحْرُ اللُّجيُّ: صدر الكافر وقلبه، واللُّجِّيُّ معناه ذو اللُّجَّة وهي معظم الماءِ وغمره، واجتماع مائه أَشدُّ لظُلْمَته، والموجُ هو الضلال أَو الجهالة التي غمرت قلبه، والفِكَر المعوجة، والسَّحاب هو شهوته في الكفر وإِعراضه عن الإِيمان وما رِين به على قلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل سائغ، وأَلاَّ يُقَدَّر هذا التقابل سائغ.

وقرأَ سفيان بن حسين[1]: [أَوَ كَظُلُمَاتٍ] بفتح الواو، وقرأَ جمهور السبعة: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٌ﴾، وقرأَ ابن كثير ـ في رواية قنبل ـ: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرفع والتنوين [ظُلُمَاتٍ] بالخفض على البدل من [ظُلُمَاتٍ] الأَول، وقرأَ ابن أَبي بزة عن ابن كثير: [سَحَابُ] بغير تنوين على الإِضافة إِلى [ظُلُمَاتٍ].

وقوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظُّلْمَة، واختلف الناس في هذا اللفظ، هل يقتضي أَن هذا الرجل ـ المقدر في هذه الأَحوال وأَخرج يده ـ رأَى يده أَو لم يرها البَتَّة؟ فقالت فرقة: لم يرها جملة، وذلك أَن (كادَ) معناه قاربَ، فكأَنه قال: إِذا أَخرج يده لم يقارب رؤْيتها، وهذا يقتضي نفي الرؤْية جملة، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسْر وشدَّة، وكاد أَلاَّ يراها، ووجه ذلك أَن (كادَ) إِذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها، وإِذا لم يصحبها انتفى الفعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد (كادَ) داخلاً على الفعل الذي بعدها، تقول: «كاد زيد يقوم» فالقيام منفي، فإِذا قلت: «كاد زيد أَلاَّ يقوم» فالقيام واجبٌ واقع، وتقول: «كاد النعام يطير»، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه، فإِذا قلت: «كاد النعام أَلاَّ

---

(١) سُفيان بن حسين بن حسن، أبو محمد، أو أبو الحسن الواسطي، ثقة ـ في غير الزهري ـ باتفاقهم، من السابعة، مات بالريِّ مع المهدي، وقيل: مات في أول خلافة الرشيد. «تقريب التهذيب».



يطير» وجب الطيران له، فإذا كان حرف النفي مع (كادَ) فالأمر محتمل، مرة يوجب الفعل، ومرة ينفيه، تقول: «المفلوج لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون، وتقول: «رجل متكلم[1] لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[2] نفيٌ مع (كادَ) تضمن وجوب الذبح، وقوله في هذه الآية: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ نفيٌ مع (كادَ) يتضمن في أحد التأويلين نفي الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله: «إن أفعال المقاربة لها نحو آخر» بمعنى أنها دقيقة التصرف[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، قالت فرقة: يريد: في الدنيا، أي: من لم يهده الله لم يهتد، وقالت فرقة: أراد: في الآخرة، أي: من لم يرحمه الله ويُنَوِّر حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له، والأول أبين وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازمٌ، نور الآخرة إنما هو لمن نُوِّر قلبه في الدنيا وهُدِي، وقد قررت الشريعة أن من مَرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ، و«الرُّؤْيَةُ» رؤية الفكر، قال سيبويه: كأنه قال: انتَبِهْ، الله يُسَبِّح له من في السموات، و«التسبيح» هنا التعظيم والتنبيه، فهو من العقلاءِ بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين، واختُلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه ـ فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي، وقال الحسن وغيره: هو لفظ تجوُّز، وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه، فهو ـ لذلك ـ يدعو إلى التسبيح.

وقال المفسرون: قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامةٌ لكل شيءٍ، من له عقلٌ وسائر الجمادات، لكنه لمَّا اجتمع ذلك عبَّر عنه بـ﴿مَن﴾ تغليباً لحكم من

---

(١) في بعض النسخ: «رجل متصرف...».
(٢) من الآية (٧١) من سورة (البقرة).
(٣) قال النحاس: «وأصحُّ الأقوال في هذا المعنى: لم يقارب رُؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فهو لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة».



يعقل. و﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ معناه: مصطفة في الهواءِ، وقرأَ الأَعرج: [وَٱلطَّيْرَ] بنصب الراءِ، وقرأَ الحسن: [وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٌ] مرفوعتان.

وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾، قال الحسن: المعنى: كلٌّ قد عَلِم صلاةَ نفسه وتسبيح نفسه، فهو يثابر عليهما ويؤديهما. وقال مجاهد: الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم، وقالت فرقة: المعنى: كلٌّ قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللَّذَيْن أَمر بهما وهَدَى إِليهما، فهذه إِضافة خلق إِلى خالق، وقال الزجاج وغيره: المعنى: كلٌّ قد علم الله صلاتَهُ وتسبيحَهُ، فالضميران للكُلِّ. وقرأَت فرقة: [عُلِمَ صَلاتُه وتَسبيحُه] بالرفع وبناءِ الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، ذكرها أَبو حاتم، وقرأَ الجمهور: ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ بالياءِ، على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه، وقرأَ عيسى، والحسن: [تَفْعَلُون] بالتاءِ من فوق، ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى، وإِعلامٌ بَعْدُ بكون المُلْك على الإِطلاق له، وتذكيرُه بأَمر المصير إِليه والحَشْر يُقَوِّي معنى التخويف من الله تبارك وتعالى. وفي مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: «وَاللهُ بَصيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

«الرُّؤْيَةُ» في هذه الآية رؤْية عيْن، والتقدير: أَن أَمْر الله وقدرته. و﴿يُزۡجِي﴾ معناه: يسوق، والإِزْجاءُ إِنما يستعمل في سوق كل ثقيل ومدافعته كالسحاب والإِبل المزاحيف، كما قال الفرزدق:

. . . . عَلَى مَزَاحِفَ تُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ[1]

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك، ويهجو يزيد بن المهلَّب، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا ... عَلَى مَزَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

والبيتان في اللسان، والرواية فيه وفي الديوان: «عَلَى زَوَاحِفَ»، والحاصب: الريح الشديدة تحمل=



والبضاعةُ المُزْجَاةُ: التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقيل، ومنه قول حبيب في الشيب: «وَنَحْنُ نُزْجِيهِ» ـ وسيبويه أبداً يقول في كلامه: «فأنت تزجيه إلى كذا»، أي تسوقه ثقيلاً متباطئاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي بين مفترق السحاب نفسه؛ لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجاً، وهذا كما تقول: جلست بين الدور، ولو أُضيفت «بين» إلى مفرد لم يصح إلاَّ أن تريد آخر، لا تقول: «جلست بين الدار» إلا أن تريد: «وبين كذا»[1].

وورش عن نافع لا يهمز [يُوَلِّف]، وقالون عن نافع، والباقون يهمزون ﴿يُؤَلِّفُ﴾، وهو الأصل.

و«الرُّكَامُ»: الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً بالريح عصر بعضُه بعضاً فخرج الودق منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾[2]، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطِنِي ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمَفْصِلِ[3]

= الحصباءَ، والزَّواحِفُ: النياق التي أصابها التعب والإعياءُ، يقال: ناقة زحوف من إبل زُحُف، وناقة مزحاف من إبل مزاحيف ومزاحف، وتُزْجي: تَسُوق وتدفع دفعاً رفيقاً، وهو موضع الشاهد هنا، وفي الحديث الشريف «كان يتخلف في السَّيْر فيُزْجي الضعيف»، أي يسوقه ليلحق بالرفاق، والفرزدق يصور هنا رحيله مع صحبه إلى يزيد بن عبد الملك في شمال الشام، والريح ترميهم بالثلج المتساقط كأنه نديف القطن، وهو يتناثر على عمائمهم وأرحلهم، وهم يقومون بهذه الرحلة على إبل تزحف من شدة الإعياء والتعب فيسوقونها سوقاً رفيقاً رحمة بها.

(١) وقيل: إن ﴿بَيْنَهُۥ﴾ في الآية لجماعة السحاب، كما تقول: هذا الشجر قد جلستُ بينه؛ لأنه جمع، وتذكير الكناية يأتي تبعاً للَّفظ، قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «هو واحد في اللفظ ومعناه جمع؛ ألا ترى قوله: ﴿ينشىء السحاب الثقال﴾؟ ألا ترى أنَّ واحدتَهُ سحابة، فإذا أُلقيت الهاءُ كان بمنزلة نَخْلَة ونَخْل وشجرة وشجر، وأنت قائل: فلان بين الشجر وبين النخل».

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النبأ).

(٣) هذا البيت من قصيدة حسَّان التي يقول في مطلعها: «أسألْتَ رسْمَ الدارِ أمْ لَمْ تَسْأَل»، وقبل هذا البيت يقول في وصف الخمر:

إِنَّ التي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا ... قُتِلَتْ، قُتِلْتَ، فهاتَهَا لَمْ تُقْتَلِ

وقد ورد بيت الشاهد هنا في لسان العرب بروايتين، إحداهما كما هنا، والثانية تقول: (كِلْتَاهُمَا=



ويُروى «لِلمفْصَل» بكسر الميم وفتح الصاد، فالمِفْصَلُ: واحد الْمَفَاصِل، والمَفْصِل: اللِّسَان[1]، ويروى بالقاف، أَراد حسَّان الخمر والماءَ الذي مزجت به، أَي: هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب، فسَّر هذا التفسير قاضي البصرة عبد الله بن الحسن للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أَن يسأَل القاضي عن تفسير بيت حسان.

و«الوَدْقُ»: المطر، ومنه قول الشاعر:

فَـــلاَ مُـــزْنَـــةٌ وَدَقَـــتْ وَدْقَهَـــا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْقَـــلَ إِبْقَـــالُهَـــا[2]

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وهو جمع خَلَ، كَجَبَل وجبال، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك: [مِنْ خَلَله]. وقرأَ عاصم، والأَعرج: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ على المبالغة، والجمهور على التخفيف.

وقوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيل: تلك حقيقة، وقد جعل الله تعالى في السماءِ جبالاً من بَرد، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإنما أَراد وصف كثرته، وهذا كما تقول: عند فلان جبالٌ من المال، أَو جبالٌ من العلم، أَي في الكثرة مثل الجبال، وحُكي عن الأخفش تقديره زيادة ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، وهو قول ضعيف، و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي لابتداءِ الغاية، وفي قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ هي للتبعيض، وفي قوله: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ هي لبيان الجنس.

= عَرَقُ الزُّجَاجَةِ فَاسْقِنِي)، والضمير في (كلتاهما) راجع إلى النوعين اللَّذين ذكرهما في البيت السابق، التي قُتِلَتْ ـ أي مُزِجَتْ بالماءِ فخفت حدتها ـ والتي لم تُقْتَل، والعَصِيرُ: ما تعصَّر من الشيء أو تحلَّب منه عند عصره. والحَلَبُ: المحلوب، وحَلَبُ العصير: الخَمْرُ، يطلب منه أن يقدم له خمراً خالصة غير ممزوجة لأنها هي التي تؤثر فيه.

(١) ذكر ذلك صاحب اللسان واستشهد عليه ببيت حسان هذا، ثم ذكر أَن في الصحاح: المِفصل ـ بكسر الميم ـ هو اللسان، وأنشد ابن بَرّي هذا البيت شاهداً على ذلك، ومعنى هذا أنه ضبطه بالكسر للميم.

(٢) هذا البيت لعامر بن جُوَيْن الطَّائي، وهو في اللسان (ودق)، وقد استشهد به على أن الودق: المطر كلُّه شديده وهيِّنه، وأنه يقال: وَدَقَ يَدِق وَدقاً، والمُزْنُ: السحاب عامة، وقيل: السحابة البيضاء، وقيل: السحاب الممطر، وأَبْقَل إِبْقَالُها: أَنبتت البقل، ولم يقل أبْقَلَت لأن تأنيث الأرض ليس بتأنيث حقيقي، وقيل: إن هذا إذا أُسند الفعل للظاهر نحو طلعت الشمس وطلع الشمس، أما إذا أُسند للضمير فيستوي فيه الحقيقي والمجازي ويتعين التأنيث نحو: الشمس طلعت، ولا يجوز: الشمس طلع، وهذا البيت شاذٌ أو مُؤَوَّل، نص على ذلك النحويون.

و«السَّنا» (مقصوراً): الضوءُ، و«السَّناءُ» (ممدوداً): المجد والارتفاع في المنزلة، وقرأ الجمهور: ﴿سَنَا﴾ بالقصر، وقرأ طلحة بن مصرف: [سَنَاءُ] بالمدِّ والهمز، وقرأ طلحة أيضاً: [بُرَقِهِ] بضم الباءِ وفتح الراءِ، وهي جمع بُرْقة ـ بضم الباءِ وسكون الراءِ ـ فُعْلة، وهي القدر من البرق، كلُقْمَة ولُقَم وغُرْفَة وغُرَف، وقرأ الجمهور: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياءِ، وقرأ أبو جعفر: [يُذْهِبُ] بضمها، من أذهب، كأن التقدير: يُذهب النفوس بالأبصار، نحو قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[1]، ويحتمل أن يكون كقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فالباءُ زائدة دالة على فعل يناسبها.

ثم اقتضت ألفاظ الآية الإخبار عن تقليب الليل والنهار، والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة، وهذا هو الذي تعجز عنه الفصحاءُ حتى يقع منهم التخليط في الألفاظ والتوطئة بالكلام، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

هذه آية اعتبار، وقرأ حمزة، والكسائي: [وَٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ] على الإضافة، وقرأ الجمهور: ﴿ٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾، و«الدَّابةُ»: كلُّ ما يدبُّ من الحيوان، أي يتحرك متنقلاً أمامهُ قُدُماً، ويدخل فيه الطير إذ قد يدبُّ، ومنه قول الشاعر:

. . . . دَبِيب قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنْهَلِ[2]

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون)، وقد قيل فيه إن الباءَ زائدة على قراءة ﴿تُنْبِتُ﴾ بضم الباءِ، فيكون التقدير: تُنبت الدُّهن، وقيل: إن التقدير: تُنبت جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف، راجع تفسير هذه الآية.

(٢) الدَّبيب: المَشْيُ، والقَطَا: نوعٌ من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أفحوصه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مُرَقَّط، والبَطحاءُ: المكان المُتَّسع يمرُّ به السيل فيترك=

ويدخل فيه الحوت، وفي الحديث «دابّةٌ من البحر مثل الظَّرب»[(١)]، وقوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾ قال النقاش: أَراد أَمْنِيَة الذكور، وقال جمهور النَّظَرة: أَراد أَن خلقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماءِ والطين، وعلى هذا يتخرج قول النبي ﷺ للشيخ الذي سأَله في غزاة بدر: ممن أَنتما؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء»[(٢)]، الحديث.

والمشي على البطن للحيَّات والحوت ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرِّجْلَيْن للإِنسان والطير إِذا مشى، والأَربع لسائر الحيوان، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: «ومنهم من يمشي على أَكثر»، فعمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان، ولكنه قرآن لم يثبته الإِجماع، لكن قال النقاش: إِنما اكتفى القول بذكر ما يمشي على أَربع عن ذكر ما يمشي على أَكثر لأَن جميع الحيوان إِنما اعتماده على أَربع، وهي قوام مشيه، وكثرة الأَرجل في بعضه زيادة في الخِلْقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إِلى جميعها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن تلك الأَرجل الكثيرة ليست باطلاً، بل هي محتاج إِليهافي تنقل الحيوان، وهي كلها تتحرك في تصرفه.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ﴾ يعم كلَّ ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة، وكل ما نص في كتابه من آية تنبيه وتذكير، وأَخبر تعالى أَنه أَنزل الآيات ثم قيَّد الهداية إِليها لأَنه من قِبَله لبعض دون بعض.

= فيه الرمل والحصى الصغار، والمَنْهل: المورد، أي الموضع الذي فيه المشرب، وهذا الشطرشاهد على أن الدبيب يكون للطير أيضاً كما هو للحيوان.

(١) أخرج النسائي والدارمي في الصَّيد حديثاً عن جابر رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في ثلاثمائة، فأصابنا جوع حتى أتينا البحر وقد قذف دابة، فأكلنا منها حتى ثابت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فوضعه، ثم حمل أطول رجل في الجيش على أعظم بعير في الجيش فمرَّ تحته، هذا معناه»، وليس فيه لفظ الظرب، وقد جاء التشبيه بالظَّرب في راوية البخاري، والموطأ، وأحمد في مسنده، وفيه: «ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانية عشرة ليلة»، ولكن ليس في هذه الرواية لفظ الدابة، والحديث واحد، رواه جابر عن بعث للنبي ﷺ قِبَل الساحل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجرَّاح.

(٢) من ذلك قوله ﷺ لعبد الله بن سلام حين سأله عن ثلاث خصال، الثالثة منها هي: ومن أين يشبه الولد أباه وأُمَّه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماءُ المراة ماءَ الرجل نزع إليها». أخرجه البخاري في الأنبياء، وأحمد في مسنده (٣/ ١٠٨).



وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية، نزلت في المنافقين، وسببهافيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهود إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى من ذلك ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية فيه(١)، وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم. و﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ أي مظهرين للانقياد والطاعة، وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالنُّجح، وأما إذا طُلبوا بحق فهم عنه معرضون. ثم وَقَفَهم تعالى على أسباب فعلهم توقيف توبيخ، أي لِيُقِرُّوا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم، وهذا التوقيف يستعمل في الأُمور الظاهرة مما يُوبَّخ به أَو مما يُمدح به، فهو بليغ جداً، ومنه قول جرير:

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَـا البيت. . . . .(٢)

ثم حكم عليهم بأنهم هم الظالمون، وقال: ﴿ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ من حيث إن

---

(١) أخرجه الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر ذلك النيسابوري في أسباب النزول، وذكر أن هذه القصة هي أيضاً سبب نزول قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾، وأخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس، كما أخرجه الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. «الدر المنثور»، و«أسباب النزول».

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله: (أَتَصْحُو أَمْ فؤادُكَ غيرُ صاح)، والبيت بتمامه كما في الديوان:

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَـا وَأَنْـدَى الْعَـالَمِيـنَ بُطُـونَ رَاحِ؟

قالوا: هذا أمدح بيت قالته العرب، وقال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت: من أراد أن يمدح فبمثل هذا البيت أو ليسكت، والاستفهام في البيت للتقرير، وهو ما يريده ابن عطية بقوله: توقيف، وأراد بقوله: «ألستم»: أنتم. والمطايا: جمع مطيَّة، وهي البعير أو الناقة يمتطى ظهرها، وأندى، أكرم وأكثر عطاءً، والراح: جمع راحة وهي كف الإنسان، يمدحهم بالفروسية والكرم كعادة العرب. وأسلوب الاستفهام التقريري في العربية كثير، ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾، ومنه حديثاً قول شوقي:

أَرَأَيْـتَ أَفْضَـلَ أَوْ أَجَـلَّ مِـنَ الَّـذِي يَبْنِـي وَيُنْشِـىءُ أَنْفُسـاً وَعُقُـولا؟

ومن المبالغة في الذَّمِّ قول الشاعر:

أَلَسْتُـمْ مِـنَ الْقَـوْمِ الَّـذِيـنَ تَعَـاهَـدُوا على اللُّؤْمِ وَالْفَحْشَاءِ في سَالِفِ الدَّهْرِ؟



الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحكم بأمر الله وشرعه. والحَيْف: المَيْلُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾.

قرأ الجمهور: ﴿قَوْلَ﴾ بالنصب، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وابن أبي إسحاق: [قَوْلُ] بالرفع، واختلف عن الأخيرين. قال أبو الفتح: شرط «كان» أن يكون اسمها أعرف من خبرها، فقراءَة الجمهور أقوى: والمعنى: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فـ﴿كَانَ﴾ هذه ليست إخباراً عن الماضي، وإنما هي كقول الصِّدِّيق رضي الله عنه «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ»[1]، وجُعل الدعاءُ إلى الله من حيث هو إلى شرعه ودينه. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس، والحسن: [لِيُحْكَمَ] على بناءِ الفعل للمفعول، و«الْمُفْلِحُونَ»: البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم.

و«جَهْدُ الْيَمِينِ» بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولَّوا حين دُعوا إلى الله ورسوله. وقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ يحتمل معاني: أحدها النهي عن القَسَم الكاذب؛ إذ عرف أن طاعتهم دغْلَةٌ رديَّةٌ، فكأنه يقول: لا تُغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه، والثاني أن يكون المعنى: لا تتكلفوا القسم، طاعة عرف متوسطة على قدر الاستطاعة أَمْثل وأَجْدى عليكم، وفي

---

(١) ومثل هذه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾، واسم ﴿كَانَ﴾ في آيتنا هنا هو ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهو أعرف من قول المؤمنين الذي جعلناه خبراً لكان، قال أبو الفتح: وهو أعرف لأن «أنْ» وصلتها تشبه المضمر من حيث لا يجوز وصفُها كالمضمر، والمُضمر أعرف من قول المؤمنين، وقال أبو حيان: هو أعرف لأنه لا سبيل عليه للتنكير.



هذا الوجه إبقاءٌ عليهم، والثالث أن يكون المعنى: لا تقنعوا بالقسم، طاعة تُعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم، والرابع أن يكون المعنى: لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم، طاعة الله معروفة، وشرعه وجهاد عدوه مهيع لائح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ و﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ اعتراضٌ بليغ.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية مخاطبةٌ لأُولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يستعلي عن أمر محمد ﷺ، وقوله: ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ معناه: تَتَوَلَّوْا، محذوف التاءِ الواحدة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، ولو جعلنا ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعلاً ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقتضى الكلامُ أَن يكون بعد ذلك: «وعليهم ما حُمِّلُوا». والذي حُمِّل رسول الله ﷺ هو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإِعْماله الجهد في إنذارهم، والذي حُمِّل الناسُ هو السمع والطاعة واتِّباع الحق. وباقي الآية بيِّنٌ.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ رواية ورش ـ: [وَيَتَّقِهِي] بياءٍ بعد الهاءِ، قال أَبو عليٍّ: وهو الوجه، وقرأ قالون عن نافع: [وَيَتَّقِهِ] بكسر الهاءِ لا يبلغ بها الياءِ، وقرأ أَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكرـ: [وَيَتَّقِهْ] جزماً للهاءِ، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بسكون القاف وكسر الهاءِ[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٥٧﴾.

قرأ الجمهور: [ٱسۡتُخۡلِفَ] على بناءِ الفعل للمفعول، وروي أن سبب هذه الآية أن بعض أَصحاب النبي ﷺ شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على

---

(١) وهذا على نيّة الجزم، أما الباقون فقد كسروها لأن جزم الفعل بحذف آخره، قال ذلك القرطبي.



أَنفسهم، وأَنهم لا يضعون أَسلحتهم، فنزلت هذه الآية عامة لأُمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: في البلاد التي تجاورهم والأَصقاع التي قضى بامتدادهم إِليها، واستخلافُهم هو أَن يُمَلِّكهم البلاد ويجعلهم أَهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب، وقال الضحاك في كتاب النقاش: هذه الآية تتضمن خلافة أَبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأَنهم أَهل الإِيمان وعمل الصالحات، وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح في الآية أَنها في استخلاف الجمهور.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ لام القَسَم. وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بفتح الباءِ وشدّ الدال، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ والحسن، وابن محيصن بسكون الباءِ وتخفيف الدال[٢]، وجاءَ في معنى تبديل خوفهم بالأَمن أَن رسول الله ﷺ لمَّا قال أَصحابه: أَما يأْتي علينا يوم نأْمن فيه ونضع السلاح،؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تغبرون إِلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملإِ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة»[٣]، وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ فعل مستأْنف، أَي هم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٢٠، ٢٢١) عن سُفَيْنة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك المُلْك»، قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشر سنة، وخلافة عليٍّ رضي الله عنه ست سنين، رضي الله عنهم. «هذا وسُفينة هو مولى رسول الله ﷺ». وأخرجه بلفظ «خلافة النبوة ثلاثون سنة» كلٌّ من أبي داود، والترمذي، وأحمد أيضاً، عن النعمان بن بشير.

(٢) قراءة تشديد الدال من بَدَّل، وقراءة التخفيف من أَبْدَل، واختار أبو عبيدة قراءة التشديد لأنها أكثر ما في القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾. واختار أبو حاتم قراء التخفيف، وقال بعض العلماءِ: هما لغتان.

(٣) أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أُمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا إلى المدينة فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تغبروا إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة، فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية. و(غَبَرَ) معناها: مكث. =



يعبدونني، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يريد: كفر هذه النعم إذا وقعت، ويكون الفسق ـ على هذا ـ غير المُخرج عن المِلَّة، قال بعض الناس في كتاب الطبري: ظهر ذلك في قَتَلة عثمان رضي الله عنه، ويحتمل أَن يريد الكفر والفسق المُخْرجَيْن عن المِلَّة، وهو ظاهر قول حذيفة بن اليمان، فإنه قال: كان على عهد النبي ﷺ نفاق وقد ذهب ولم يبق إلاَّ كفر بعد إيمان.

ولمَّا قدم تعالى عَمَل الصالحات بيَّنها في هذه الآية، فَنَص على عُظْمها وهي إقامة الصلاة وإِيتاءُ الزكاة، وعَمَّ بطاعة الرسول لأَنها عامة لجميع الطاعات. و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ معناه: في حقكم ومعتقدكم.

ثم أَنحى القول على الكفرة بأَن نبَّه على أَنهم ليسوا بِمُفْلِتِين من عذاب الله تعالى. وقرأَ جمهور السبعة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ على المخاطبة للنبي ﷺ، وقرأَها الحسن بن أَبي الحسن بفتح السين، وقرأَ حمزة، وابن عامر: [لاَ يَحْسَبَنَّ] بالياءِ، قال أَبو علي: وذلك يحتمل وجْهَين: أَحدهما أَن يكون التقدير: لا يحسبن محمد، والآخر أَن يسند الفعل إِلى الذين كفروا والمفعول أَنفسهم، وأَعْجَزَ الرجل إذا ذهب في الأَرض فلم يُقْدَر عليه، ثم أَخبر بأَن مأْواهم النار، وأَنها بئس الخاتمة والمصير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يُراد به الرجال خاصةً، وقال أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: يرادُ به النساء خاصةً، وسبيل الرجال أَن يستأْذنوا في كل وقت[1]، وحكى الزهراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه، وقيل: الرجال والنساءُ

= وأخرج مثله ابن المنذر، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وابن مردويه، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه.

(١) ضعَّف العلماءُ قول السُّلَمي هذا لأن «الَّذِينَ» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون لهن «اللاتي، واللائي، واللواتي».

كلُّهم مرادٌ، ورجَّحه الطبري. وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ بضم اللام، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [ٱلْحُلْمَ] بسكون اللام، وكان أَبو عمرو يستحسنها.

وهذه الآية مُحْكَمَةٌ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تركها الناس، وكذلك تَرَكَ الناسُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، فأَبى الناس إلاَّ أَن الأَكرم هو الأَنسب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه العبارة بترك [الناس](٢) إِغْلاظٌ وزجرٌ، إذ لم تُلْتَزَم حق الالتزام، وإلاَّ فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماءِ المكتوب في تواليفهم، أَعني أَن الكرم التقوى، وأَما أَمر الاستئذان فإِن تغيير المباني والحُجُب أَغنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حدٍّ آخر، وأَين أَبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أَبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها.

ومعنى الآية عند جماعة من العلماءِ أَن الله تعالى أَدَّب عباده بأَن يكون العبيدُ ـ إذْ لا بالَ لهم ـ والأَطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم إلاَّ أَنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها، يستأْذنون على أَهليهم في هذه الأَوقات الثلاثة، وهي الأَوقات التي تقتضي عادةُ الناس الانكشاف فيها وملازمة التَّعري في المضاجع، وهي: عند الصباح لأَن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم، وقد ينكشف النائم فمن مشى ودخل وخرج فحكمه أن يستأذن لئلا يطلع على ما يجب ستره، وكذلك في وقت القائلة ـ وهي الظهيرة ـ لأَن النهار يظهر فيها إذا عَلاَ واشتد حرُّه، وبعد العشاءِ لأَنه وقت التعري للنوم والتبذُّل للفراش(٣)، وأَما في غير هذه الأَوقات التي هي عورة، أَي ذات انكشاف، فالعرف من

---

(١) من الآية (١٣) من سورة (الحجرات).

(٢) في الأصول: «وهذه العبارة بترك إغلاظ وزجر»، وواضح أن المقصود هو ما ذكرناه وأن كلمة الناس سقطت من النُّسَّاخ. وما بين العلامتين [. . .] زيادة للإيضاح.

(٣) يقال: «تَبَذَّلَ الرجل» أَي: ترك التَّصَوُّنَ والتَّحرُّزَ.



الناس التَّحفُّظ والتَّحرُّز، فلا حرج في دخول هذه الصنيفة[1] بغير إذن؛ إذ هم طوَّافون يمضون ويجيئون ولا يجد الناس بُدّاً من ذلك. وقرأ ابن أَبي عبلة: [طَوَّافِينَ] بالياءِ، وقال الحسن: إذا أَبات الرجل خادمه معه فلا استئذان عليه حتى في هذه الأَوقات الثلاثة. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿طَوَّافُونَ﴾، و﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ نصب على الظرف لأَنهم لم يُؤمَروا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أُمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، فالظرفين في ﴿ثلاثَ﴾ بيّنةٌ.

وقرأَ جمهور السبعة: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ برفع ﴿ثلاثُ﴾، وكذا على الابتداء، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ] بنصب [ثَلَاثَ]، وهذه على البدل من الظرف في قوله: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، وهذا البدل إنما يصح معناه بتقدير: أَوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف وأَقيم المضاف إليه مقامه. و«عَوْرَات» جمع عورة، وبابه في الصحيح أَن يجيءَ على «فَعَلاتٍ» بفتح العين، كَجَفْنَة وَجَفَنَاتٍ ونحو ذلك، وسكَّنوا العين في المعتل كَبَيْضَةٍ وَبَيْضَاتٍ وجَوْبَةٍ وَجَوْبَاتٍ ونحوه، لأَن فتحه داعٍ إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

المعنى أَن الأَطفال أُمروا بالاستئذان في الأَوقات الثلاثة المذكورة، وأُبيح لهم الأَمر في غير ذلك من الأَوقات، ثم أَمر الله تعالى في هذه الآية أَن يكونوا ـ إذا بلغوا الحلم ـ على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت، وهذا بيان من الله عزَّ وجلَّ.

و«القواعد» يريد النساءَ اللاتي قد أَسْنَنَّ وقعدن عن الولد، واحِدَتُهَم قاعد، وقال ربيعة: هي هنا التي تُستقذر من كبرها، قال غيره: وقد تقعد المرأَة عن الولد وفيها مَسْتَمتع، فلما كان الغالب من النساء أَن ذوات هذا السن لا مذهب للرجال فيهن أُبيح

(١) هكذا في الأصول، والمألوف أن يقال: «هذه الأصناف».



لهنَّ ما لم يُبح لغيرهن، وأُزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب؛ إذ علَّة التحفظ مرتفعة فيهن. وقرأ ابن مسعود: [أَنْ يَضَعْنَ مِن ثِيَابِهِنَّ]، وهي قراءَة أُبيّ، وروي عن ابن مسعود أَيضاً: «مِن جَلاَبِيبِهِنَّ»، والعرب تقول: «امرأَة واضع» للتي كبرت فوضعت خمارها، ثم استثنى عليهن في وضع الثياب أَلا يقصدن به التبرج وإبداءَ الزينة، فرُبَّ عجوز يبدو منها الحرص على أن يظهر لها جمال ونحو هذا مما هو أَقبح الأَشياءِ وأَبعده عن الحق.

والتَّبَرُّج طلب البُدُوّ والظهور، ومنه: «بروج مشيدة»، وأَصل ذلك بروج السماءِ والأَسوار، والذي أُبيح وضعه لهذه الصنيفة الجلبابُ الذي فوق الخمار والرداءِ، قاله ابن مسعود، وابن جبير، وغيرهما.

ثم ذكر تعالى أَن تحفُّظ الجميع منهن واستعفافهن عن وضع الثياب والتزامهن ما يلتزمه الشباب من الستر، أَفضل لهن وخيرٌ، وقرأَ ابن مسعود: [وَأَنْ يَتَعَفَّفْنَ] بغير سين، ثم ذكر تعالى أَنه سميع لما يقول كل قائل وقائلة، عليم بمقصد كل أَحد في قوله، وفي هاتين الصفتين توعُّد وتحذير، والله الموفق للصواب برحمته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

اختلف الناسُ في المعنى الذي رفع الله فيه الحرج عن الأَصناف الثلاثة ـ فظاهر الآية وأَمر الشريعة أَن الحرج مرفوع عنهم في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم الإِتيان فيه بالأَكمل، ويقتضي العذر أَن يقع منهم الأَنقص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا. فأَما ما قال الناس في الحرج هنا، فقال ابن زيد: هو الحرج في الغزو، أَي: لا حرج عليهم في تأَخرهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية معنى مقطوع من الأَول وقالت فرقة: الآية كلها في معنى المطاعم، قالت: وكانت العرب ومَنْ بالمدينة



قبل المبعث تتجنب الأَكل مع أَهل الأعذار، فبعضهم كان يفعل ذلك تقذراً لِجَوَلان اليد من الأَعمى، ولانْبساط الجلسة من الأعرج، ولرائحة المريض وعِلاَّته، وهي أَخلاق جاهلية وَكِبْر، فنزلت الآية مؤدبة، وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجاً من غير أَهل الأعذار إذ هم مقصورون في الأكل عن درجة الأَصحاء، لعدم الرؤية في الأعمى، وللعجز عن المزاحمة في الأَعرج، ولضعف المريض، فنزلت الآية في إباحة الأكل معهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الزهراوي: إن أَهل هذه الأَعذار تحرجوا في الأَكل مع الناس لأَجل عذرهم فنزلت الآية مبيحة لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الآية من أَولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أَن الناس لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1] قالوا: لا مال أَعز من الطعام، وتحرَّجوا من أَن يأكل أَحد مع هؤلاءِ فيغبنهم في الأكل فيقع في أَكل المال بالباطل، وكذلك تحرجوا عن أَكل طعام القرابات لذلك، فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم، ومُبَيِّنَةً أَن تلك إنما هي في التعدِّي والقمار وكل ما يأكله المرءُ من مال الغير والغيرُ كاره، أَو بصفة فاسدة ونحوه.

وقال عُبَيْد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: قوله في الأَصناف الثلاثة إنما نزل بسبب أَن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو وخلَّفوا أَهل العذر في منازلهم وأَموالهم، فكان أَهل العذر يتجنبون أَكل مال الغائب، فنزلت الآية مبيحة لهم أَكل الحاجة من طعام الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أَهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته، فتحرَّج أَهل الأَعذار من ذلك فنزلت الآية.

وذكر الله تعالى بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأَبناءِ، فقال المفسرون: ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأَن بيت ابن الرجل بيته. وقرأَ طلحة بن مصرف [إِمَّهَاتِكُمْ] بكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني ما حُزْتُم وصار في قبضتكم، فعُظْمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأْويل الضحاك ومجاهد، وعند

(١) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).



جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاءُ والعبيد والأُجراءُ بالمعروف، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ مَلَكْتُم ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأَ سعيد بن جُبير: [مُلِّكْتُمْ] بضم الميم وكسر اللام وشدها، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ مَفَاتِحَهُۥٓ ﴾، وقرأَ سعيد بن جبير: [مَفَاتِيحَهُ] بياءٍ بين التاءِ والحاءِ، الأُولى على جمع مَفْتح، والثانية على جمع مِفْتَاح[١]، وقرأَ قتادة: [مَلَكْتُمْ مِفْتَاحَهُ]. وقَرَن تعالى في هذه الآية الصَّديق بالقرابة المحضة الوَكيدَة؛ لأَن قرب المودة لصيق، قال معمر: قلتُ لقتادة: أَلا أَشربُ من هذا الحُبِّ[٢]؟ فقال: أَنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب النقاش: الصديق أَوكد من القرابة، أَلا ترى في استغاثة الجهنَّميِّين: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ ردٌّ لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأْكل أَفراداً البَتَّةَ، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إذا مَا صَنَعْتُ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ ... أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِي[٤]

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأْكل إلاَّ أَن يأْكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مُبَيِّنَةً سُنَّة الأَكل، ومُذْهِبَةً كل ما خالفها من سنَّة العرب، ومبيحة من أَكل المنفرد ما كان

---

(١) جاء في اللسان: «جمع المِفْتَاح الذي يُفْتح به المِغْلاق: مَفَاتِيح، وجمع المَفْتَح الخزانة: الْمَفَاتح»، فالمَفْتَح هو الكنز أو الخزانة التي توضع فيها الكنوز، قال تعالى: ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾، فالمراد: ما في خزائنه من مال، أو الخزائن نفسها.

(٢) الحُبُّ: وِعَاءُ الماءِ كالزِّير والجَرَّة، جمعه: أَحْبَابٌ وحِبَبَةٌ وحِبَابٌ. «المعجم الوسيط».

(٣) الآيتان (١٠٠، ١٠١) من سورة (الشعراء). والأكل من بيت الصديق من غير استئذان أمر لا بأس به، وقد كان النبي ﷺ يدخل حائط أبي طلحة المسمَّى بَيْرحَا ويشرب من ماءٍ فيها طيب بغير إذنه، قال العلماءُ: والماءُ مُتَمَلَّك لأهله، وإذا جاز الشرب من ماءِ الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به.

(٤) الزَّاد: الطعام في السفر والحضر جميعاً، والجمع أزواد، ومعنى «صَنَعْتِ الزَّادَ»: أعددت الطعام، والأكيل هو الذي يأكل معك، تقول: فلان أكيلي، وهي من المؤاكلة، يقال: آكَلْتُه مُؤَاكلة: أكلتُ معه، ومثله في ذلك الشَّريب: فالأكيل والشَّريب هو الذي يصاحبك في الأكل والشرب، يقول لزوجه: إذا ما أعددت الطعام فابحثي عمن يأكل معي فإني لا آكل وحدي، وهذه عادة لبعض العرب كما قال ابن عطية.

عند العرب محرماً، نَحَتْ به نحو كرم الخُلُق فأَفرطت في إِلزامه، وإِن إِحضار الأَكيل لحسنٌ ولكن بألاَّ يحرم الإِنفراد.

وقال بعض أَهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله ﷺ: «إِنَّ دِماءَكم وأَموالكم عليكم حرام»[١]، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾[٢] الآية، وبقوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «لا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشية أَحد إِلاَّ بإِذنه» الحديث[٣].

ثم ختم الله تعالى الآية بِتَبْيِينِهِ سُنَّة السلام في البيوت، واختلف الناس في أَي البيوت أَراد ـ فقال إِبراهيم النَّخعي: أَراد المساجد، والمعنى: سلِّموا على من فيها من صنفكم، فهذا كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٤]، فإِن لم يكن في المساجد أَحد فالسلام أَن يقول المرءُ: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر[٥]، ووصفها بالبركة لأَن فيها الدعاءَ واستجلاب مودة المسلم عليه، والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كاف تشبيه، و«ذلك» إِشارة إِلى هذه السُّنَن، أَي: هذا الذي وصف يطَّرد تَبيين الايات لعلكم تعقلونها وتعملون لها.

وقال بعض الناس في هذه الآية: إِنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أُمر به الناسُ، وهي المتقدمة في السُّورة، فإِذا كان الإِذن محجوراً فالطعام أَحرى، وكذلك فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[٦].

---

(١) هذا جزء من خطبة الوداع، وهي طويلة ومعروفة، وقد أخرجها البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (النور).

(٣) أخرجه كل من البخاري ومسلم في اللُّقطة، وأبو داود في الجهاد، ولفظه كما جاء في البخاري، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحْلِبَنَّ أَحد ماشية امرىء بغير إذنه، أيحبُّ أحدكم أن تؤتَى مَشْرُبَتُه فتكسر خِزانته فيُنْتقل طعامه؟ فإنما تَخزُن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، فلا يَحْلُبَنَّ أحد ماشية أحد إلا بإذنه».

(٤) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة).

(٥) وذلك لأن قوله تعالى قبلها: ﴿فَسَلِّمُوا﴾ معناه: فَحَيُّوا، وقد وصفها الله بالبركة لما فيها من الدعاء واكتساب مودة المسلمين كما قال ابن عطية، ووصفها بالطيب لأن سامعها يجد لها وقعاً طيباً في نفسه.

(٦) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ لا يتصور في شيءٍ من هذه الآيات، بل هي كلها محكمة، أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ففي التعدي والخدع والغرر واللهو والقمار ونحوه، وأما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يَسُرُّها استباحة طعامها على هذه الصفة، وأما آية الإذن فعِلَّةُ إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن الرجل خوف الكشفة ودخل المنزل بالوجه المباح صحَّ له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآيات نسخٌ، فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية للحصر، اقتضى ذلك المعنى؛ لأنه لا يتم إيمانٌ إلاَّ بأن يؤمن المرءُ بالله ورسوله، وبأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول ﷺ يريد أمراً فيريد هو إفساده بزاوله في وقت الجمع ونحو ذلك.

و«الأمر الجامع» يُراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، فأدب الإسلام اللازم في ذلك ـ إذا كان الأمر حاضراً ـ ألاَّ يذهب أحد لعذر إلاَّ بإذنه، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيءُ، والإمامُ الذي يُرتقب إذنه في هذه الآية هو إمامُ الإمرة، وقال مكحول، والزهراوي: الجمعة من الأمر الجامع، وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأذن إذا قدمه إمامُ الإمرة إذا كان يرى المستأذن، ومشى بعض الناس دهراً على استئذان إمام الصلاة، وروي أن هرم بن حبان كان يخطب، فقام رجل فوضع يده على أنفه، وأشار إلى هرم بالاستئذان فأذن له، فلما قُضيت الصلاة كشف عن أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة، فقال هرم: اللهم أخر رجال السوء لزمان السوء.

وظاهر الآية إنّما يقتضي أن يُستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة؛ فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أُمور الدين، فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزءٍ من أجزاءِ الدين للذي هو في مقعد النبوة.



ثم أَمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أَن يأْذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء.

وروي أَن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله ﷺ خندق المدينة، وذلك أَن بعض المؤمنين كان يستأْذن لضرورة، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان، فأَخرج الله تعالى الذين لا يستأْذنون عن صنيفة المؤمنين، وأَمر النبيَّ ﷺ أَن يأْذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إِلى حبسه، وهو الذي يشاء، ثم أَمره بالاستغفار لصنفي المؤمنين من أُذن له ومن لم يُؤذن له، وفي ذلك تأْنيس للمؤمنين ورأْفة بهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله ﷺ، وأَمرهم الله تعالى أَلاَّ يجعلوا مخاطبة رسول الله ﷺ في النداءِ كمخاطبة بعضهم لبعض، فإِن سيرتهم كانت التداعي بالأَسماءِ، وعلى غاية البدواة وقلة الاهتمام، فأَمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها[1] أَن يدعوا رسول الله ﷺ بأَشرف أَسمائِه، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير[2]، فالمبتغى في الدعاء أَن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر، وأَلا يجري ذلك على عادتهم بعضهم لبعض، قاله مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى في هذه الآية إِنما هو: لا تحسبوا دعاءَ الرسول عليكم كدعاءِ بعضكم على بعض، أَي: دعاؤه عليكم مجاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يدفع هذا المعنى، والأَول أَصح.

---

(١) كقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

(٢) من معاني عَزَّره: فَخَّمه وعظَّمه، قال في اللسان: «وعزَّره: فَخَّمه وعظَّمه، والعَزْرُ: النصر بالسيف، وعَزَرَه عَزْراً وعَزَّرَهُ: أعانه وقوَّاه ونصره».

ثم أَخبرهم الله تعالى أَن المتسلِّلين منهم لواذاً قد علمهم، واللِّواذ: الرَّوَغان والمخالفة، وهو مصدر «لاوَذَ» وليس بمصدر «لاذَ»؛ لأَنه كان يقال له: «لِيَاذاً»[١]، ذكره الزجاج وغيره.

ثم أَمرهم بالحذر من عذاب الله تعالى ونقمته إذا خالفوا عن أَمره، وقوله تعالى: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يقع خلافِهم بعد أَمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، و«عَنْ» هي لِمَا عَدَا الشيء[٢]، و«الفتنة» في هذا الموضع: الاختبار والرزايا في الدنيا، أَو بالعذاب الأَليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أَحد هذين.

وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ﴾ استفتح الكلام وأَخبر أَن الله تعالى له ما في السموات والأَرض مِلْكاً وخَلْقاً، ثم أَخبرهم أَنه قد علم ما أَهل السماءِ والأَرض عليه، وخصَّ بالذكر منهم المخاطبين لأَن ذلك موضع الحجة عليهم، وهم به أَعني، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾ يجوز أَن يكون معمولاً لقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾، ويجوز أَن يكون التقدير: والعلم الظاهر لكم ـ أَو نحو هذا ـ يَوْم، فيكون النصب على الظرف. وقرأَ الجمهور: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياءِ وفتح الجيم، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي إِسحاق، وأَبو عمرو: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم.

وقال عقبة بن عامر الجهني: رأَيت النبي ﷺ يقرأُ هذه الآية خاتمة النُّور فقال: [وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ][٣]، وباقي الآية بيِّنٌ.

كمل تفسير سورة النور والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين.

* * *

---

(١) في اللغة: «لاذَ به إذا التجأ إليه وانضم واستغاث، ولاوَذَه لواذاً: راوغه» راجع اللسان. وانتصب قوله تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ على المصدر في موضع الحال، أي: مُتلاوذين.

(٢) الفعل «خالف» يتعدى بنفسه، تقول: خالفت أمر فلان، ويتعدى بإلى، تقول: خالفت إلى كذا، وهنا ضُمِّن الفعل «خالف» معنى «صَدَّ» فعُدِّي بِعَنْ، وقال أبو عبيدة والأخفش: (عَنْ) زائدة، أي: يخالفون عن أمره.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائله، والطبراني بسند حسن، عن عقبة بن عامر، وفيه كما ذكره في «الدر المنثور» زيادة على ما هنا قوله: «يعني خاتمة سورة النور، وهو جاعلٌ إصبعيه تحت عينيه».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية، قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآيات[1].

قال عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

(تَبَارَكَ) وزنه تفاعل، وهو فعل مضارع. (بارَكَ)، من البركة، و(بَارَكَ) فاعل من واحد، ومعناه: زادَ، و[تَبَارَكَ] فعل مختصٌّ بالله تعالىٰ، لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرَّف منه مستقبل، ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل[2]، أي: كثُرت بركاته، ومن جُمْلتها إنزال كتابه الذي هو الفُرقان بين الحق والباطل. وصدر هذه الآية إنما هو ردٌّ على مقالات كانت لقريش، فمن جُمْلتها قولهم: «إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله»، فهو ردٌّ على هذه المقالات.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، وقرأ عبد الله بن الزُّبير: [عَلَى عِبَادِهِ]، والضمير في قوله: (لِيَكُونَ) يحتمل أن يكون لمحمد ﷺ، وهو عبده المذكور، وهذا تأويل ابن

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٢) هو صفة فعل على التأويل الذي ذكره ابن عطية، وقد يكون صفة ذات ولكن على التأويلات الأخرى التي ذكرها المفسرون، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبارك: لم يزل ولا يزول، وقال الخليل: تمجَّد، وقال الضحاك: تعظَّم.

زيد، ويحتمل أَن يكون للقرآن، وأَما على قراءَة ابن الزبير فهو للقرآن، لا يحتمل غير ذلك إلاَّ بِكُرْه. وقوله تعالىٰ: (لِلْعَالَمِينَ) عامٌّ في كل إنسي وجني، عاصَرَه أَو جاءَ بعده، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات. و«النذير»: المُحَذِّر من الشَّرِّ، والرسول من عند الله نذير، وقد يكون النذير ليس برسول، كما روي في ذي القرنين، وكما ورد في رُسُل رسول الله ﷺ إلى الجن، فإنهم نذر وليسوا برسل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، هي من الرَّدِّ على قريش في قولهم: «إن لله شريكاً»، وفي قولهم: «اتَّخذ البنات»، وفي قولهم في التلْبية: «إلاَّ شريك هو لك». وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ عامٌّ في كل مخلوق، وتقديرُ الأَشياءِ هو حدُّها بالأَمكنة والأَزمان والمقادير والمصلحة والإتقان.

ثم عقَّب ذكر هذه الصفات التي هي للأُلوهية بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات، فالعقل يعطي أنهم ليسوا بآلهة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتمل أَن يريد: يخلقهم البشر بالنحت، وهذا التأْويل أَشد إبداءً لخساسة الأَصنام، وخلق البشر يجوز، ولكن العرب تستعمله[1]، ومنه قول زهير:

وَلأَنْـتَ تَفْـرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لا يَفْـرِي[2]

وهذا من: خلَقْتُ الجلد، إذا عملتَ فيه رسوماً يقطع عليها، فالفَرْيُ هو أَن يُقطَّع على تلك الرسوم. وقوله تعالىٰ: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ يريد: إماتة ولا إحياءً، و«النُّشور»: بعث الناس من القبور.

---

(١) هكذا في الأصول، ونعتقد أن الصواب: «وخَلْق البشر لا يجوز، ولكن العرب تستعمله» حتى لا يكون هناك تناقض في الكلام، ومع ذلك ففي اللسان أن الخَلْق في كلام العرب: ابتداع الشيءِ على مثال لم يُسبق إليه، وفيه أيضاً: الخلق بمعنى التقدير، يقال: خلق الأديم يخلقه خلقاً: قدَّره قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قِربةً أو خُفّاً ـ فقد يُنْسب الخلق إلى البشر بهذا المعنى، وعليه جاء قول زهير.

(٢) خلَق هنا بمعنى: قَدَّر الأمر، من قولهم: خلَق الأديم يخلُقُه، بمعنى: قَدَّره وقاسه قبل القَطْع ليقطع منه ما يريد من مصنوعات كالقربة أو الخف أو المزادة، وأما الفريُ فهو التقطيع نفسه، يقال: فَرَيْتُ الشيءَ أَفْرِيهِ فرياً: شققته وقطَّعته ـ على جهة الإصلاح ـ وأفرَيْتُه: قطَّعته على جهة الإفساد، والمراد هنا الإصلاح، ومعنى البيت: أنت تُنفِّذ ما تعزم عليه وتُقَدِّرُهُ. قال في (اللسان ـ فرا): وهو مثلٌ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾.

المرادُ بـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ قريش، وذلك أن بعضهم قالوا: هذا كذبٌ افتراه محمد، واختلف الناس في المُعِينين لمحمد ﷺ ـ على زَعْم قريش ـ فقال مجاهد: أشاروا إلى قوم من اليهود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشاروا إلى عَبيد كانوا للعرب من الفرس، أحدهم أبو فُكَيْهة مولى الحضرميِّين، وجبر، ويسار، وعدَّاس، وغيرهم. ثم أخبر الله تعالىٰ أنَّهم ما جاؤوا إلاَّ إثماً وزوراً، أي: ما قالوا إلاَّ بهتاناً وزوراً. و«الزُّور»: تحسين الباطل، هذا عرفه، وأصله التحسين مطلقاً، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فأردت أن أُقدم بين يدي أبي بكر مقدمةً كنتُ زَوَّرْتُها».

قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، قال ابن عباس: يعني بذلك قول النضر بن الحارث، وذلك أنَّهم قالوا: كلُّ ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك. ثم رمَوْا محمداً ﷺ بأنه اكْتَتبها. وقرأ طلحة بن مصرف: [اكتُتِبها] بضم التاءِ الأُولى وكسر الثانية، على معنى: اكْتُتِبَتْ له، ذكرها أبو الفتح[1]. وقرأ طلحة: «تُتْلَى» بتاءٍ بدل الميم. ثم أمره الله تعالىٰ أن يقول: الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياءِ التي في السموات والأرض، ثم أعلم أنه غفور رحيم لِيُرَجِّي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة، والمعنى أن الله غفور رحيم في إبقائه على أهل هذه المقالات والكفر لعلهم أن يؤمنوا.

---

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب»: «إن قراءة العامة: (اكْتَتَبَهَا)، معناه: اسْتكتبها، ولا يكون معناه: كَتَبها أي: كَتَبها بيده؛ لأنه ﷺ كان أُمِّيّاً لا يكتب، وهو من تمام إعجازه... وإذا كان كذلك فمعنى: [اكْتُتِبَها] إنما هو: استُكْتِبَهَا، وهو على القَلْب، أي: استُكْتِبتْ له، ومثله في القَلْب قراءة من قرأ: [قُدِّروها تقديرا]، أي: قُدِّرت لهم». وبعد أن ساق شواهد شعرية على القلب في العربية قال: «وليس ممتنعاً أن يكون قوله: (اكْتَتَبَهَا): كتَبَهَا، وإنْ لَم يَكُ ذلك بيده، إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمره؛ نُسب ذلك إليه، وفي الحديث: «مَن اكْتَتَبَ ضَمِناً كان له كذا»، أي: زَمِناً، يعني كتب اسمه في الفرض، فعلى هذا يكونُ [اكْتُتِبَهَا] أي: اكْتُتِبَتْ له». هذا هو كلام ابن جني كاملاً ذكرناه لأن ابن عطية اختصره.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهود، ذكره ابن إسحاق في السير، وغيرُه، مضمنه أن سادتهم ـ عتبة وغيره ـ اجتمعوا معه، فقالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرياسة وَلَّيْنَاكَ علينا، وإن كنت تُحب المال جمعنا لك من أَموالنا[١]. . . فلما أَبَى رسول الله ﷺ رجعوا في باب الاحتجاج عليه، وقالوا له: ما بالك ـ وأَنت رسول من الله ـ تأكل الطعام، وتقف بالأَسواق تريد التماس الرزق؟ أَي: من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك، ثم قالوا له: سلْ ربَّك أَن يُنزل معك مَلَكاً يُنْذر معك، أَو يُلقى إِليك كنزٌ تُنفق منه، أَو يردُّ لك جبال مكة ذهباً، أَو تُزالُ الجبال ويكون مكانها جنات تطَّرد فيها المياه، وأَشاعوا هذه المحاجَّة، فنزلت هذه الآية.

وكُتبت اللام مفردة من قولهم: ﴿مال هذا﴾ إِمَّا لأَن مُمْلي المصحف قطع لفظه فاتَّبعه الكاتب؛ وإِمَّا لأَنهم رأَوْا أَن حرف الجرّ بإِنهاءِ الاتصال، نحو مِنْ، وفي، وعَنْ، وعَلَىٰ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَأْكُلُ مِنْهَا] بالياءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي [نَأْكُلُ] بالنون، وهي قراءَة ابن وثاب، وابن مُصرِّف، وسليمان بن مهران[٢]. ثُمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم ـ وهُمُ الظالمون الذين أُشير إِليهم ـ أَنهم

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والخبر طويل تجده في السيرة، وفي الدر المنثور، وفيه من أسماء المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وغيرهم.

(٢) لُقِّب بالأعمش، واعتاد ابن عطية رحمه الله قبل ذلك أن يذكره بلقبه، واسمه سليمان بن مهران، أبو محمد، أسدي بالولاء، تابعي مشهور، أصله من بلاد الريِّ، نشأ وتوفي بالكوفة، وكان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، وروى نحو ١٣٠٠ حديث، قال عنه الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح، وقال السخاوي: لم يُرَ السلاطين والملوك والأغنياءُ في مجلس أحقر منهم في مجلس. =

قالوا ـ حين يَئِسوا من محمد ﷺ ـ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، يجوز أن يكون من السَّحْر وهي الرئة[1]، فكأنهم ذهبوا إلى تحقيره، أي: رجل منكم في الخلقة، ذكره مكي وغيره. ثم نبَّهه الله تعالىٰ مسلِّياً عن مقالتهم فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ﴾، أي: أخطؤوا الطريق فلا يجدون سبيلاً لهداية، ولا يطيقونه لالتباسهم بضدِّه من الضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ الآية، رجوع بأمور محمد ﷺ إلى الله، أي: هذه جهتك، لا هؤلاءِ الضَّالُّون في أمرك، والإشارة بـ (ذَٰلِكَ) ـ قال مجاهد: هي إلى ما ذكروه في النِّقاشِ من الكنز والجنة في الدنيا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق، قال الطبري: والأول أظهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن التأويل الثاني يوهم أن الجنات والقصور التي في هذه الآية ـ وهو تأويل الثعلبي وغيره ـ يَرُدُّه قوله بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾[2]، والكل محتمل.

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وحفصٍ ـ ونافعٌ، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: (وَيَجْعَلْ) بالجزم، على العطف على موضع الجواب في قوله: (جَعَلَ)؛ لأن التقدير: إن يشأ يجعل. وقرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً، وابنُ كثير، وابن عامر: [وَيَجْعَلُ] بالرفع والاستئناف، وهي قراءَة مجاهد، ووجهُه العطفُ على المعنى في قوله: (جَعَلَ)؛ لأن جواب الشرط هو موضع استئناف، ألا ترى أن الجمل من الابتداءِ والخبر قد تقع موقع جواب الشرط؟ وقرأ عبد الله بن موسى، وطلحةُ بن سليمان: [وَيَجْعَلَ] بالنصب،

= الأعمش مع شدة حاجته وفقره: (ابن سعد، وتذكرة الحفاظ، وتاريخ بغداد، والوفيات).

(١) قال في (اللسان ـ سحر): والسَّحْر أيضاً: الرئة، والجمع أسْحار، وسُحْر، وسُحُور، وقد يحرك فيقال: سَحَرٌ، مثل نَهْر ونَهَر، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «مات رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري»، أي: مات رسول الله ﷺ وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سَحْرها منه.

ويظهر أن في الكلام نقصاً، وأن بعضه قد سقط من النساخ قبل قوله: يجوز أن يكون من السَّحْر، ومما رُوي عن العلماء في ذلك أن يكون المعنى: غَلَب على عقله السِّحْر، أو يُسْحَر بالطعام وبالشراب، أي: يُغذَّى بهما، أو أُصيب سحره، كما تقول: رأسْته، أي: أصبْت رأسَهُ.

(٢) قيل: لا يردُّه؛ لأن المعنى به متمكن، وهو عطف على ما حُكي عنهم، يقول: بل أُتي بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة. وقد قال ابن عطية: والكلُّ محتمل.

وهي على تقدير (أن) في صدر الكلام، قال أبو الفتح: هي على جواب الجزاءِ، قالوا: وهي قراءَةٌ ضعيفة، وأَدغم الأَعرج [جَعَلْ لَّكَ] و﴿ وَيَجْعَل لَّكَ ﴾، وروي ذلك عن ابن محيصن.

و«القصور»: البيوت المبنية الجدران، قاله مجاهد وغيره، فكانت العرب تُسمِّي ما كان من الشَّعر والصوف والقصب[1] بيتاً، وتُسمِّي ما كان بالجدران قصراً؛ لأَنه قُصر على الداخلين[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

المعنى: ليس يهم في تكذيبك مشْيُك في الأَسواق، بل إِنهم كفرة لا يفهمون الحق، فقوله: (بَلْ) تَرْكٌ لنفس اللَّفظ المتقدم لا لمعناه، على ما تقتضيه «بَلْ» في مشهور معناها، (وَأَعْتَدْنَا): جَعَلْنَا مُعَدًّا، والعَتَادُ: مَا يُعَدُّ من الأَشياءِ، و«السَّعيرُ»: طبَقٌ من أَطباق جهنم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ يريد: جهنم؛ إذ اقتضاها لفظ «السعير». ولفظ (رأَتْهُمْ) يحتمل الحقيقة، ويحتمل المجاز على معنى: صارت منهم قدْر ما يرى الرائي من البعد. إلاَّ أَنه ورد حديث يقتضي الحقيقة في هذا، ذَكره الطبري، وهو أَن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار بين عيني جهنم»، فقيل: يا رسول الله، أَوَ لجهنم عينان؟ فقال: «اقرؤوا إِن شئتم: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾[3]، وروي في بعض الآثار أَن البعد الذي تراهم منه مسيرة سنة، وروي أَنه مسيرة خمسمئة سنة.

---

(١) القَصَب: كل نبات كانت ساقُه أنابيب وكعوباً، ونبات مائي من الفصيلة النجيلية له سوق طوال (الغاب البلدي).

(٢) في القرطبي: «لأن مَن فيه مقصور عن أن يوصل إليه».

(٣) وأخرجه الطبراني، وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أُمامة، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝﴾ لفظ فيه تجوُّز، وذلك أَن التَّغيُّظ لا يُسمع، وإنما المسموع أَصوات دالة على التَّغيُّظ، وهي ولا شكَّ احتداماتٌ في النَّار كالذي يسمع في نار الدُّنيا، فَنِسْبَةُ هذا المسموع الذي في الدنيا من ذلك نِسْبَةُ الإِحراق من الإِحراق، وهي سبعون درجة كما ورد في الصحيح. و«الزَّفير»: صوتٌ ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه، قال النَّقاش: الزَّفير: صوت الحمار عند نهيقه، وقال عبيد بن عمير: إِن جهنم لتَزْفِر زَفْرة لا يبقَى ملَك ولا نبيٌّ إِلاَّ خَرَّ، ترعد فرائصه.

و«المكان الضَّيِّق» فيها هو مقصد إِلى التضييق عليهم من المكان في النار، وذلك نوع من التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهم ليُكرهون في النَّار كما يُكره الوتد في الحائط»[١]، أَي: يدخلون كرهاً وعنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُضيَّق عليهم كما يُضيَّق الزُّج على الرمح، وقرأ ابن كثير، وعبيد عن أَبي عمرو: [ضَيْقاً] بتخفيف الياءِ، والباقون يُشدِّدون.

ومعنى (مُقَرَّنِينَ) مربوطٌ بعضهم إِلى بعض، ورُوي أَن ذلك بسلاسل من نارٍ، والقرينان من الثيران: ما قُرِنا بحبل للحرث، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَـمْ يـزَلْ حَبْـلُ الْقَـرِينَيْـنِ يلتـوي ... فَلاَ بُدَّ يَوْماً مِنْ قوىً أن تجذمَّا[٢]

وقرأَ أَبو شيبة المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه: [مُقَرَّنُون] بالواو، وهي قراءَة شاذة، والوجه قراءَة الناس، وقوله: (ثُبُوراً) مصدر، وليس بالمدعُوِّ، ومفعول (دَعَوْا) محذوف، تقديره: دعَوْا من لا يُجيبهم، ونحو هذا من التقديرات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يكون الثُّبور هو المدعُوّ، كما يدعى الحسرة والويل، و(الثُّبُورُ) قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الويل، وقال الضحاك: هو الهلاك، ومنه قول ابن الزِّبعرى:

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أُسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾، قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليُسْتَكرَهون في النار كما يُسْتَكرَه الوتد في الحائط».

(٢) الشاهد فيه هو كلمة «الْقَرينَين» في الشطر الأول، وهما الثوران اللذان قرنا بحبل واحد عند الحرث، أو كل اثنين قرنا بحبل لأي غرض من الأغراض. والبيت من قصيدة للمتلمس الضبعي.

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَـ ـيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ(١)

وقوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم على معنى التَّوبيخ والإعلام بأنهم مخلدون: لا تقتصروا على حُزْن واحد، بل احزنوا كثيراً؛ لأنكم أهلٌ لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأَحوال من النار: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير؛ لأَن المُوقِف جائز له أَن يُوقِف مُحاوره على ما يشاءُ ليرى هل يجيبه بالصواب أَو بالخطأ، وإنما يمنع سيبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً؛ لأَن فيه مخالفة، وأَما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ(٢).

وقيل: الإشارة بقوله: (ذَٰلِكَ) إلى الجنَّات التي تجري من تحتها الأَنهارُ، وإلى

---

(١) عبد الله بن الزِّبَعْرى كان شاعر قريش، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ثم أسلم بعد فتح مكة، وحين أسلم قال أبياتاً من الشعر، روى منها ابن إسحاق أربعة أبيات في السيرة، وهذا البيت واحد منها. وأُجاري: أُباري وأُعارض، والسَّنَنُ (بفتح السين المشدَّدة والنُّون الأولى): الطريق، ومثبور: هالك. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى الثبور هو: الهلاك.

(٢) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقَّب عليه بقوله: «وما ذكره يخالفه قوله: (فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ)، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ فإن هذا خبر، وكذلك قولهم: «العَسَل أَحْلى مِن الخَلِّ»، إلا أن تقييد الخبر بأنه إذا كان واضحاً الحُكْمُ فيه للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يَتَرَدَّدُ أَيُّهما أفضل، فإنه يجوز».

وقال بعض المفسرين: إن (خَيْر) هنا لا تدل على الأفضلية، بل هي على ما جرت عليه عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيَّته بالفضل دون مقابلة، وحسَّان بن ثابت حين قال مخاطباً أبا سفيان: (فشرُّكُمَا لِخَيْركما الفداءُ) كان يريد بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يُرد أبداً أن ينسب شيئاً من الخير لأبي سفيان. ويوسف عليه السلام لم يكن يرى في الفاحشة ما يجعله محباً لها، وإنما أراد أن يُبَين مقدار حبه للسجن في هذه الأحوال التي يرى نفسه فيها. وكلام ابن عطية على جانب كبير من الصواب، ووجهة نظره تستحق الاعتبار، والخبر واضح في ذهن السامع لا يتردد فيه، وهو الشرط الذي ذكره أبو حيان.



القصور التي في قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾، هذا على أن يكون الجَعْلُ في الدنيا، وقيل: الإشارة بقوله: (ذَٰلِكَ) إلى الكنز والجَنَّة اللَّتين ذكر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأصحُّ أن الإشارة بقوله: (ذَٰلِكَ) إلى النار، كما شرحنا آنفاً.

و(ٱلْمُتَّقُونَ) في هذه الآية: مَن اتَّقى الشِّرك، فإنه داخل في الوعد، ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تقوى المعاصي[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وعداً مسؤولاً﴾ يحتمل معنيين: أحدهما ـ وهو قول ابن عباس، وابن زيد ـ أنه مسؤولٌ لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه، ورُوي أن الملائكة سألت الله تعالىٰ تنعيم المتقين فوعدهم بذلك، قال محمد بن كعب: هو قول الملائكة، وتَلا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[(٢)]، والمعنى الثاني ذكره الطبريُّ عن بعض أهل العربية: أن يريد وعداً واجباً قد حتمه، فهو لذلك مُعَدٌّ أن يُسأل ويُقْتضى[(٣)]، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

المعنى: واذكر يومَ، والضمير في (يَحْشُرُهُم) للكفار، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يريد به كلَّ شيءٍ عُبد من دون الله، فغلَّب العبارة عما لا يعقلُ من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

---

(١) أي: يبقى المتقون في درجات مختلفة داخل الوعد، ودرجاتُهم تختلف بحسب درجاتهم في التقوى والبعد عن المعاصي.

(٢) من الآية (٨) من سورة (غافر). وقيل: هو وعد الله للمؤمنين بالجنة، سألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾.

(٣) لأنه كالدَّين يطلبه صاحبه، وهو واجب بدون سؤال أو طلب، فقد أصبح حقّاً لصاحبه.

وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -، والأعرج، وأبو جعفر: (يَحْشُرُهُمْ)... (فَيَقُولُ) بالياءِ فيهما، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما، وهي قراءَة الحسن، وطلحة، وعاصم أَيضاً، وقرأ نافع [نَحْشُرُهُمْ] بالنون [فَيَقُولُ] بالياءِ، وفي قراءَة عبد الله: [وَمَا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِنَا]، وقرأَ الأَعرج [نَحْشِرُهُم] بكسر الشِّين، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس؛ لأَن (يَفْعِلُ) بكسر العين في المتعدي أَقيس من (يفعُل) بضم العين[١].

وهذه الآية تتضمن الخبر على أَن الله تعالىٰ يوبِّخ الكفار في القيامة بأَن موقف المعبودين على هذا المعنى؛ ليقع الجواب بالتَّبَرِّي من الذنب فيقع الخزي على الكافرين.

واختلف الناس في المُوقَفِ المُجيبِ في هذه الآية ـ فقال جمهور المفسِّرين: هو كل من ظُلم بأَن عُبد ممن يعقل، كالملائكة وعُزَير وعيسى وغيرهم، وقال الضحاك، وعكرمة: المُوقَفُ المجيبُ: الأَصنام التي لا تعقل، يقدرها الله تعالىٰ يومئذ على هذه المقالة، ويجيءُ خزْي الكفرة لذلك أَبلغ.

وقرأَ جمهور الناس: (نَتَّخِذَ) بفتح النون، وذهبوا بالمعنى إلى أَنه من قول من يَعْقل، وأَن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[٢] وكقول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾[٣]، و﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ـ على هذه القراءَة ـ في موضع المفعول به. وقرأَ أَبو جعفر، والحسن، وأَبو الدرداءِ، وزيد بن ثابت، وأَبو رجاءٍ، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد[٤]: [نُتَّخَذَ] بضم النون، وتذهب

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا ليس كما ذكر، بل (فَعَلَ) المتعدي الصحيح جميع حروفه، إذ لم يكن للمبالغة، ولا حلقيَّ عين ولا لام، فإنه جاء على يفعُل ويفعِل كثيراً، فإن شهر أحد الاستعمالين اتُّبع، وإلا فالخيار، حتى أن بعض أصحابنا خيَّر فيهما، سُمِعَا للكلمة أو لم يُسْمَعا».

(٢) الآية (٤٠) ومن الآية (٤١) من سورة (سبأ).

(٣) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة).

(٤) هو حفص بن حميد القمي (بالقاف)، أبو عبد الله، روى عن عكرمة، وروى عنه أشعث بن إسحاق وغيره، وثَّقه النسائي.



هذه مذهب من يرى أن المُوقَف المُجيبَ الأَوثان، ويضعف هذه القراءَة دخول (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، اعترض بذلك سعيد بن جبير وغيره، وقال أبو الفتح: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ في موضع الحال[1]، ودخلت (مِنْ) زيادة لمكان النفي المتقدم، كما تقول: ما اتخذت زيداً من وكيل، وقرأ علقمة: [ما ينبغي] بسقوط (كَانَ). وثبوتُها أَمكنُ في المعنى؛ لأَنهم أَخبروا عن حالٍ كانت في الدنيا، ووقت الإِخبار لا عمل فيه.

وفسَّر هذا المُجيبُ ـ بحسب الخلاف فيه ـ الوجهَ في ضلال الكفار، كيف وقع؟ وأَنه لما متَّعهم الله تعالىٰ بالنعم الدنيوية وأَدَرَّها لهم ولأَسلافهم الأَحقاب الطويلة نسوا الذكر، أَيْ: ما ذُكِّر بِهِ النَّاسُ على أَلسنة الأَنبياءِ.

و(بُوراً) معناه: هَلْكى، والبوار: الهلاكُ، واختلف في لفظه ـ فقالت فرقة: هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ومنه قول ابن الزِّبعرى:

يَـا رَسُـولَ المَلِيـكِ إِنَّ لِسَـانِـي ... رَاتِـقٌ مـا فَتَقْـتُ إِذْ أَنَـا بُـورُ[2]

وقالت فرقة: هي جمع باير، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك، باشره الهلاك بعْدُ أَو لم يباشر، قال الحسن: البايرُ: الذي لا خير فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ الآية، خطاب من الله تبارك وتعالىٰ بلا خلاف، فمن قال: «إِنَّ المُجيب الأَصنامُ» كان معنى هذه إِخباره الكفار أَن أَصنامهم قد كذبوهم، وفي هذا الإِخبار خِزْيٌ وتوبيخ، والفرقة التي قالت: «إِن المُجيبَ هو الملائكة، وعُزير، وعيسى، ونحوهم» اختلفت في المخاطب بهذه الآية، فقالت طائفة: المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع، وقالت طائفة: المخاطب هؤلاءِ

(١) أي: على قراءة [نُتَّخَذُ] بضم النون، أما على قراءة الجمهور [نَتَّخذ] بفتح النون فإنها عنده في موضع المفعول به أيضاً، قال: فهي كقولك: ضربت رجلاً، فإن نفيت قلت: ما ضربت من رجل (المحتسَب).

(٢) هذا البيت من الأبيات التي قالها ابن الزِّبعرى بعد إسلامه، وهو فيها يخاطب الرسول ﷺ فيقول:

يـا رَسُـولَ الْمَلِيـكِ إِنَّ لِسَـانـي ... راتِـقٌ مـا فَتَقْـتُ إِذ أَنـا بُـورُ
إِذ أُجَـاري الشَّيْطَـانَ فـي سَنَـن الغـ ... ـيِّ، ومَـنْ مـالَ مَيْلَـهُ مَثْبُـورُ

و«راتقٌ ما فتقْتُ»: مُصْلحٌ ما أفسَدْتُ حين كنتُ أُباري الشيطان في طريق الضلال. وأصْل الرَّتْق: سدُّ ما في الثوب الممزق من خروق وإصلاحها، والشاهد هنا أن (بور) معناها: هالك.



المعبودون، أَعلمهم الله تعالىٰ أَن الكفار بأَفعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة، وزعموا أَن هؤلاءِ هم الأَولياءُ من دون الله تعالىٰ، وقالت فرقة: خاطب الله تعالىٰ المؤمنين من أُمة محمد ﷺ، أَي: قد كذبكم أَيها المؤمنون الكفارُ فيما تقولون من التوحيد والشرع.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو بكر عن عاصم، والناس: (تَقُولُونَ) بالتاءِ من فوق [يَسْتَطِيعُونَ] بالياءِ من تحت، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأَ أَبو حيوة: [يَقُولُونَ] بالياءِ من تحت، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقال مجاهد: الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] هو للمشركين، قال الطبري: وفي مصحف ابن مسعود: [فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفاً]، وفي قراءَة أُبيٍّ بن كعب: [لَقَدْ كَذَّبُوكَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَكَ]، قال أَبو حاتم: في حرف عبد الله: [لَكُمْ صَرْفاً] على جمع الضمير.

و(صَرْفاً) معناه: ردُّ التكذيب أَو العذاب أَو ما اقتضاه المعنى، بحسب الخلاف المتقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قيل: هو خطاب للكفار، وقيل: هو للمؤمنين. والظُّلْم هو الشِّرك، قاله الحسن وابن جريج، وقد يحتمل أَن يعم غيره من المعاصي. وفي حرف أُبيٍّ: [وَمَنْ يَكْذِبْ مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً أَلِيماً].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

هذه الآية الأُولى ردٌّ على كفار قريش في استبعادهم أَن يكون من البَشَر رسولٌ، وقولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وأَخبر الله تعالىٰ محمداً ﷺ وأُمَّته بأَنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبيًّا إِلا بهذه الصفة.

والمفعول بـ (أَرْسَلْنَا) محذوف يدل عليه الكلام، تقديره: رجالاً أَو رُسُلاً، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدَّر يعود الضمير في قوله: ﴿أَلَّآ إِنَّهُمْ﴾، وذهبت فرقة إِلى أَن قوله: ﴿يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

وقرأَ جمهور الناس: [وَيُمْشُونَ] بضم الياءِ وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأَ علي، وعبد الرحمن، وابن مسعود رضي الله عنهم: [وَيُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الشِّين المفتوحة، بمعنى: يُدْعون إِلى المشي ويُحملون عليه. وقرأَ أَبو عبد الرحمن[١] بضم الياءِ وفتح الميم وضم الشِّين المشددة، وهي بمعنى يَمْشُون، ومنه قول الشاعر:

أُمَشِّي بِأَعْطَانِ المياهِ وأَبْتَغِي ... قَلائِصَ مِنْهَا صَعْبَةٌ وَرَكُوبُ[٢]

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَن السبب في ذلك أَنه سبحانه أَراد أَن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، مؤمنٍ وكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغنيِّ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأَشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماءُ وحكام العدل، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأَى أَشهب[٣]. والتوقيف بـ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ خاص للمؤمنين الْمُحِقِّين، فهو لأُمة محمد ﷺ، كأَنه جعل إِمهال الكفار فتنة للمؤمنين، أَي اختباراً لهم، ثم وَقَفَهم: هل تصبرون أَم لا[٤]؟ ثم أَعرب قوله ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين.

ثم أَخبر عن مقالة الكفار: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿يَرْجُونَ﴾، قال أَبو عبيدة وقوم: معناه: يخافون، والشاهد لذلك قول الهذلي:

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي، قاله في القرطبي.

(٢) يروى البيت: «ومَشَّى بأعطان المياهِ وابْتَغَى» بضمير الغائب، وفي روح المعاني: (ذلولٌ) بدلاً من (ركوب). والعَطَن للإبل كالوطن للإنسان، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والجمع أعطَان. والقلائص جمع قلوص، وهي من الإبل: الفَتِيَّةُ المُجْتمعة الخَلْقِ، وذلك من حين تُركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي الناقة. والرَّكوب: يريد بها التي ذُلِّلَتْ واعتادت الركوب عليها، وهي ضد الصَّعبة التي لم تُسْتَأنس، أو التي تنفر من الراكب ولا تقبل الجلوس فوقها. والشاهد في البيت أن مَشَّى بالتشديد تكون بمعنى مَشَى بالتخفيف.

(٣) ابن القاسم: صاحبُ مالك رحمه الله، وقد رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، فتلا الآية، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصْبر.

(٤) الفتنةُ: أن يحسُد المُبْتَلى المُعافى، ويحقِر المُعَافى المُبْتلى، والصبرُ أن يحبس كل منهما نفسه، المُعافى عن البَطر، والمُبتَلى عن الضجر. وقوله سبحانه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ محذوف الجواب، يعني: أم لا؟ ومن أجل هذا أجاب ابن القاسم نفسه حين رأى أشهب في مُلكه فقال: سنصبر.

إذَا لَسَعَتْـهُ النَّحْـلُ لَـمْ يَـرْجُ لَسْعَهَـا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[(١)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي أن الرجاءَ في الآية والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاءِ الله تعالىٰ مقترن أبداً برجائه، فإذا نَفَى الرجاءَ عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مُكَذِّب بالبعث لنفي الخوف والرجاءِ، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاءِ تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاءِ الله تعالىٰ. وأما بيت الشعر المذكور فمعناه عندي: لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها، فهو لذلك يوفي على الصبر ويجِدُّ في شغله.

ولما تمنت كفار قريش رؤْية ربِّهم أخبر تعالىٰ عنهم أنهم عظموا أنفسهم، وسألوا ما ليسوا له بأهل. و﴿عَتَوْا﴾ معناه: صعبوا على الحق واشتدوا، ويقال: عِتِيٌّ وعُتُوٌّ، عُتُوٌّ على الأصل، وعِتِيٌّ لاستثقال الضم على الواو فقُلبت ياءً ثم كُسِر ما قبلها طلباً للتناسب[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إنما هو يوم

---

(١) لم يَرْجُ: لم يخف ولم يُبَالِ، وخالَفَها (بالخاء): جاء إلى عسلها وهي غائبة ترعى وقد سرحت، خَالَفَها إلى العسل، ويروى: حالَفَهَا (بالحاء المهملة)، والمعنى: لازمها، ونوب: تنتاب المرعى فتأكل ثم ترجع فتُعَسِّل، وقال أبو عبيدة: إنما سُمِّيت نوباً لسوادٍ فيها، ونوب: لا واحد له من لفظه، وقيل: بل هو نائب ونوب، مثل: عائذ وعوذ، والبيت من قصيدة له مطلعها:

أَسَـاءَلْـتَ رَسْـمَ الـدَّار أمْ لَـمْ تُسَـائِـل عَـنِ السَّكْـنِ أَوْ عَـنْ عَهْـدِهِ بـالأَوائِـلِ؟

(٢) جاءت الآية هنا عُتُوّاً: ﴿وعتو عتواً كبيراً﴾ بالواو، وهذا على الأصل، وفي سورة مريم بالياء في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ على استثقال اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل. هذا ما ذكره أبو حيان وابن عطية، وقال الفراءُ: وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضاً لأن المصدر والأسماء تتفق في هذا المعنى، ألا ترى أنهم يقولون: قاعد وقوم قعود، وقعدت قعوداً، فلما استويا هاهنا في القعود لم يبالوا أن يستويا في العُتُوِّ والعِتِيِّ.



القيامة، وقد كان أَول الآية يحتمل أَن يريد يوم تُقبض أَرواحهم، لكن آخرها يقتضي أَن الإشارة إلى يوم القيامة، وأَمر العوامل في هذه الظُّروف بيِّن إذا تُؤمل، فاختصرناه لذلك. ومعنى الآية: إن هؤلاءِ الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدَّر الله تعالىٰ في ذلك؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرٌّ لهم، ولا بُشْرى لهم، بل لهم الخسار ولُقيا المكروه، ويومئذ لا خير ولا بشرى؛ لأَن الظروف تكون إخباراً عن المصادر. والضمير في قوله: (وَيَقُولُونَ)، قال الحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: هو للملائكة، المعنى: ويقول الملائكة للمجرمين: حِجْراً مَحْجُوراً عليكم البشرى، أَي: حراماً مُحَرَّماً، ومنه قول جرير بن عبد المسيح:

حَنَّتْ إِلى النَّخْلَةِ الْقُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا حِجْرٌ حَرامٌ أَلا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ[1]

وقال مجاهد أَيضاً، وابن جريج: إن الضمير في قوله: (وَيَقُولُونَ) هو للكفار المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا: حجراً، قال مجاهد: حجراً: عوذاً، يستعيذون بالملائكة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المعنى: ويقولون: حرام محرم علينا العفو، وقد ذكر أَبو عبيدة أَن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب، يقولها من خاف آخَرَ في الحرم، أَو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما تِرَةٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدم، أَي: هذا الذي حنَّت إليه ممنوع.

---

(١) جرير بن عبد المسيح عُرف باسم المتلمس، والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، وهو في (اللسان ـ دَهْرَس)، والرواية فيه: (حَجَّتْ) بدلاً من (حَنَّتْ)، وحنَّت: اشتاقت، والنَّخْلة القُصوى: موضع على ليلة من مكة، وحِجْر (بالحاء المثَلَّثة): حرامٌ، والدَّهاريس: الدَّواهي واحدها دِهرس (بكسر الدال وضمها). والضمير في (حَنَّت) يعود على ناقته، يقول لها بعد أن حنَّت إلى تلك النخلة: ممنوع عليك تلك الأماكن. وفي معجم البكري رُوي البيت: (بَسْلٌ عَلَيْكِ) بدلاً من (حِجْرٌ حرامٌ)، والمعنى واحد.

(٢) قال الليث: «ظنُّوا أن ذلك ينفعهم كفعلهم في الدنيا».



وقرأ الحسن، وأبو رجاء: [حُجْراً] بضم الحاءِ، والناس على كسرها.

ثم أخبر تعالىٰ عما يأتي قضاؤه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة: (وَقَدِمْنَا)، أي: قَصَد حكمنا وإنفاذنا، ونحو هذا من الألفاظ اللائقة، وقيل: هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره، وحسنت لفظة (قَدِمْنَا) لأن القادم على شيءٍ مكروه لم يُقرِّره ولا أمر به مُغيِّر له ومُذهب، وأما قول الراجز:

وَقَـــدِمَ الْخَـــوَارِجُ الضُّـــلاَّلُ إِلَـــى عِبَـــادِ رَبِّنَـــا فَقَـــالُـــوا
إِنَّ دِمَـــاءَكُـــمْ لَنَـــا حَـــلاَلُ[١]

فالقُدوم على بابه.

ومعنى الآية: وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً؛ إذ لا نِيَّةَ مَعَهَا، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً، وصيَّرناها هباءً منثوراً، أي: شيئاً لا تحصيل له، والهباءُ: هي الأجرام المستَدَقَّة الشائعة في الهواءِ التي لا يدركها حِسٌّ إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيِّق يحيط به الظِّل كالكُوَّة ونحوها، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر، فذلك هو الهباءُ، ووصفه في هذه الآية بـ «منثُور»، ووصفه في غيرها بـ «مُنبَثٌّ»[٢]، فقالت فرقة: هما سواءٌ، وقالت فرقة: المُنبَثُّ أرَقُّ وأدَقُّ من المَنثُور؛ لأن المنثور يقتضي أن غيره نثره، كسنابك الخيل أو الرياح أو هدم حائط ونحو ذلك، والمُنبَثُّ كأنه انبَثَّ من رقَّته، وقال غيرهما[٣]، الهباءُ المنثور هو ما تسفي به الرياح وتبثُّه، وروي عنه أيضاً أنه قال: الهباءُ الماءُ المهراق، والأول أصح، والعرب تقول: هبات الغبار ونحوه إذا بثَّته، قال الشاعر:

فَتَـرَى خَلْفَهَـا مِـنَ الـرَّجْـعِ والْـوَقْـ ـــعِ مَنِينـــاً كَـــأَنَّـــهُ أَهْبَـــاءُ[٤]

---

(١) استشهد أبو عبيدة بهذا الرجز في (مجاز القرآن). وابن عطية يرى أن القدوم في الرجز على بابه، أما في الآية فإن القدوم يقصد معه التَّغيير لشيءٍ مكروه.

(٢) وذلك في الآية رقم (٦) من سورة (الواقعة)، حيث يقول تبارك وتعالىٰ عن الجبال: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا﴾.

(٣) هو ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البيت للحارث بن حِلِّزَة، وهو من معلقته التي ألقاها في مجلس عمرو بن هند، وبدأها بقوله:

آذَنَتْنَـــا بِبَيْنِهَـــا أَسْمَـــاءُ رُبَّ ثَـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنْـــهُ الثَّـــوَاءُ

والبيت في وصف ناقته التي آنست صوتاً وأفزعها القنَّاص وقد دنا الإمْساءُ كما يقول في البيت =

ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَن مُسْتَقَرَّ أَهل الجنة خير من مُستقر أَهل النار، وجاءَت (خَيْر) ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما، قال الزجاج وغيره: إنه لما اشتركا في أَن هذا مُسْتَقَر وهذا مُسْتَقَر فضَّل الاستقرار الواحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن هذه الأَلفاظ التي فيها عموم ما، ويتوجَّه حكمها من جهات شتَّى، نحو قولك: أَحبُّ، وأَحْسَنُ، وخير، وشرٌّ، يسوغ أَن يُجَاءَ بها بين شيئين لا شركة بينهما، فتقول: السَّعد في الدنيا أَحب إلينا من الشقاءِ، أَي: قد يوجد بوجه ما من يستحب الشقاءَ كالمتَعَبِّد والمغتاظ، وكذلك في غيرها، فإذا كانت (أَفْعل) في معنى بيِّنٌ أَن الواحد من الشيئين لا حظَّ له فيه بوجه فسد الإخبار بوجه التفضيل به، كقولك: الماءُ أَبرد من النار، ومن هذا أَنك تقول في ياقوتة ومَدَرَة[1] ـ وتُشير إلى المَدَرة ـ: هذه خير وأَحسن وأَحب وأَفضل من هذه، ولو قلتَ: هذه أَلمع وأَشدُّ شراقة من هذه، لكان فاسداً.

وقوله: (مَقِيلاً)، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما، والنَّخعي، وابن جريج إلى أَن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومَقيل أَهل الجنة في الجنة، وأَهل النار في النار، فالمقيل من القائلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن اللفظة إنما تضمنت تفضيل الجنة جملة وحُسْنَ هوائها، والعربُ تفضل البلاد بحُسْنِ المقيل؛ لأَن وقت القيلولة يبدو فيه فساد هواءِ البلاد، فإذا كان بلدٌ في وقت فساد الهواءِ حَسَناً جاز الفضل، ومن ذلك قول الأَسود بن يَعْفُر الإيادي:

= السابق. والرَّجْع: رجع قوائمها، والوَقْع: وقْع خِفافها، والمَنِينُ: الغبارُ الدقيق، والأهباءُ: الغبار المتفرق، يقول: لقد هربت، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق.

هذا ـ وكلمة (هباء) ليست من ذوات الهمز، وإنما همزت لالتقاء الساكنين، ولهذا يقال في التصغير: هُبَيٌّ في موضع الرفع، والواحد هباة، والجمع أهباءٌ، ويؤيد هذا بيتُ الحارث المذكور.

(١) المَدَرَةُ: واحدة المَدَرِ، وهو قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العلك الذي لا رمل فيه.

أَرْضٌ تَخَيَّـرَهَـا لِطِيـبِ مَقِيلِهَـا ... كَعْبُ بْنُ مَـامَـةَ وابـن أُمِّ دُؤَادِ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، يريد يوم القيامة عند انفطار السماءِ ونزول الملائكة ووقوع الجزاءِ بحقيقة الحساب. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [تَشَّقَّقُ] بشد الشِّين والقاف، وقرأَ الباقون بتخفيف الشِّين، وقوله: (بِالْغَمَام)، أَي: تشقَّق عنه، والغمام: سحاب رقيق أَبيض جميل لم يره البشر بعد إِلاَّ ما جاءَ في تظليل بني إِسرائيل. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع (ٱلْمَلَائِكَة) على مفعول لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ أَبو عمرو في رواية عبد الوهاب: [وَنُزِلَ] بتخفيف الزاي المكسورة، قال أَبو الفتح: وهذا غير معروف؛ لأَن (نزَل) لا يتعدى إِلى مفعول فيبنى هنا للملائكة، ووجهه أَن يكون مثل: «زُكِمَ الرجل وجُنَّ»، فإِنه لا يقال إِلاَّ أَزْكَمه الله وأَجَنَّه، وهذا باب سماع لا قياس[2]. وقرأَ أَبو رجاءٍ: [وَنزَّل] بفتح النون وشدِّ الزاي، وقرأَ الأَعمش: (وأَنْزل الملائكة)، وكذلك قرأَ ابن مسعود، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: (ونزَلت الملائكة)، وقرأَ ابن كثير وحده[3]: (ونُنَزِّل الملائكة) بنونين، فهي

---

(١) الأسود بن يَعْفُر شاعر جاهلي فصيح، كان ينادم النعمان، ولما أَسَنَّ، كُفَّ بصره. وبيتُه من المفضَّلية ٤٤، وهي من مختار الشعر، وفيه يصف بلاد إياد بأنها طيبة المقيل، ولهذا اختارها كعب بن مامة، وابن أُمِّ دُؤَاد ـ وكعب مشهور بالجود عند العرب، فقد آثر بنصيبه من الماء رفيقه النَّمَري فمات عطشاً، وضرب به المثل في الجود، (راجع الشعر والشعراء)، وابن أُمِّ دُؤَاد هو أبو دُؤَاد الإيادي جاريةُ بنُ الحجاج، وكان في عصر كعب بن مامة، ويقال: إن كعب بن مامة أجار أبا دُؤَاد حين أخافه بعض الملوك فضُرب المثل بجار أبي دُؤَاد، قال طرفة:

إِنِّـي كَفَـانِـي مِـنْ هَـمٍّ هَمَمْـتُ بِـهِ ... جـارٌ كجـارِ الحُـذَاقِـيِّ الـذي انْتَصَفَـا

والحُذَاقِيُّ هو أبو دُؤَاد، وحُذَاقُ قبيلة من إياد.

(٢) ويقول أبو الفتح أيضاً بعد ذلك: «إمَّا أن يكون ذلك لغة لم تقع إلينا، وإما أن يكون على حذف المضاف، يريد: ونُزِلَ نُزُولُ الملائكة، ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، فأقام (الملائكة) مقام المصدر الذي كان مضافاً إليها، كما فعل الأعشى في قوله:

أَلَـمْ تَغْتَمِـضْ عَيْنَـاكَ لَيْلَـةَ أَرْمَـدَا ... وَبِـتَّ كمـا بـاتَ السَّلِيـمُ مُسَهَّـدَا ؟

فهو يريد: اغتماض ليلة أرمد، فنصب (ليلة) إذاً إنما هو على المصدر لا على الظرف؛ لأنه لم يرد: ألم تغتمض عيناك في ليلة أرمد، وإنما أراد: ألم تغتمض عيناك من الشوق والأسف اغتماضاً مثل اغتماض ليلة رمد العين».

(٣) يعني وحده من السبعة.



قراءَة أَهل مكة، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَ هارون عن أَبي عمرو: (وَنَزَّل الملائكةُ) بإِسناد الفعل إِليها، وقرأَت فرقة: (وينزل الملائكة)، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب أَيضاً: (وتَنَزَّلت الملائكة).

وقرَّر أَن المُلْك الحق المبين هو يومئذ للرحمن؛ إِذ قد بطل في ذلك اليوم كل ملك. وعسيرُهُ على الكافرين يُوَجَّه بدخول النار عليهم فيه، وما في خلال ذلك من المخاوف. وقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ دليل على أَن ذلك اليوم سهلٌ على المؤمنين، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «إِن الله تعالىٰ لَيهوّنُ يومَ القيامة على المؤمن حتى يكونَ أَخفَّ من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا»[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(يَوْمَ) ظرفٌ، العاملُ فيه مضمر، و«عضُّ اليدين» هوفعل النادم الملهوف المتفجع، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: (الظَّالِمُ) في هذه الآية عُقبة بن أَبي معيط؛ وذلك أَنه أَسلم أَو جنح للإِسلام، وكان أُبي بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أُحد خليلاً لِعقْبة، فنهاه عن الإِسلام، فقبل نهيه، فنزلت الآية فيهما، فالظالم عُقبة، وفلانٌ أُبيّ. وفي بعض الروايات عن ابن عباس أَن الظالم أُبيّ، فإِنه كان يحضر إِلى النبي ﷺ، فنهاه عُقبة، فأَطاعه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن أَدخل في هذه الآية أُمَيَّة بن خلف فقد وهم، إِلاَّ على قول من يرى (الظَّالم) اسم جنس.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣ـ٧٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «قال: قيل لرسول الله ﷺ: يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا».

وقال مجاهد، وأَبو رجاءٍ: الظالم: اسمُ جنس، وفلان: الشَّيطان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن (الظَّالم) عامٌّ، وأَن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرَّأُ فيه الظالمون من خلانهم الذين أَمروهم بالظلم، فلما كان خليلُ كل ظالم غيرَ خليل الآخر، وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبَّر عن ذلك بـ «فُلان» الذي فيه الشياع التَّام، ومعناه واحد عن الناس، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليلٌ يعينه ويحرِّضه، هذا في الأَغلب، ويشبه أَن سبب الآية وترتُّب هذه المعاني كان عُقبة وأُبيًا، وقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ يُقَوِّي ذلك بأَن نجعل تعريف (الرَّسُول) للعهد، والإشارة إلى محمد ﷺ، وعلى التأْويل الأَول التَّعريفُ للجنس.

وكلُّهم قرأَ (لَيْتَنِي) ساكنة الياءِ غير أَبي عمرو فإنه حرَّكَ الياءَ[ليتنيَ اتخذت]، ورواها أَبو حامد عن نافع مثل أَبي عمرو، و(السَّبِيلُ) المتمنَّاة هي طريق الآخرة. وفي هذه الآية لكل ذي نُهْية[1] تنبيه على تجنُّب قرين السوءِ، والأَحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ الياءُ فيه[3] عِوَض عن الياءِ في: يا وَيْلَتِي، والأَلف هي التي في قولهم: يا غلاما، وهي لغة، وقرأَت فرقة بإمالة: [يا ويلتي]، قال أَبو علي:

---

(١) النُّهْيَة: العَقْل.

(٢) من ذلك ما روي في الصحيح من حديث أبي موسى (واللفظ لمسلم) عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المِسْك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»، وذكر أبو بكر البزَّار عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «من ذكَّركم بالله رؤيتهُ، وزاد في علمكم منطقهُ، وذكركم بالآخرة عملهُ». ولقد أحسن من قال:

تَجَنَّبْ قرينَ السُّوءِ واصْرِمْ حبالَهُ ... فإنْ لمْ تَجِدْ عنْهُ مَحيصاً فَدَارِهِ
وأَحْبِبْ حَبيبَ الصِّدْقِ واحْذَرْ مِراءَهُ ... تَنَلْ منْهُ صَفْوَ الوُدِّ ما لم تُمَارِهِ

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حيثُ لَقِيتَهم ... خيرُ الصَّحَابةِ مَن يكونُ عَفِيفَا

(٣) الصواب أن يقال: الفتحة فيه عوض عن الياء، لأن الياء ذهبت، وجاءت بدلاً منها الفتحة لتناسب الألف، ويؤيد هذا كلامُ أبي عليٍّ بعد ذلك.

وترك الإمالة أَحسن؛ لأَن أَصل هذه اللفظة الياءُ [يا وَيْلَتِي]، فبدلت الكسرة فتحة والياءُ أَلفاً فِراراً من الياءِ، فمن أَمال رجع إِلى الذي فرَّ عنه أَولاً.

و(ٱلذِّكْرِ) هو ما ذكر به الإِنسان أَمر آخرته من قرآن أَو موعظة ونحوه. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يحتمل أَن يكون من قول الظالم، ويحتمل أَن يكون ابتداءَ إِخبار من الله تعالىٰ على جهة الدلالة على وجه ضلالهم، والتحذيرِ من الشيطان الذي بلغ ثَمَّ ذلك المبلغ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ حكاية عن قول الرسول ﷺ في الدنيا، وتَشَكِّيه ما يلقاه من قومه، هذا قول الجمهور، وهو الظاهر. وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة. وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [قَوْمِيَ] بتحريك الياءِ، والباقون بسكونها. و(مَهْجُوراً) يحتمل أَن يريد: مُبعداً مَقْصِيًا، [ويحتمل أَن يكون] من الهُجْر (بضم الهاءِ)[1] إِشارة إِلى قولهم: شعر وكهانة وسِحْر، هذا قول مجاهد، والنَّخعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقول ابن زيد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف، وأَلاَّ تكون الغَبَرة تعلوه في البيوت وتشتغل بغيره، وروى أَنس عن النبي ﷺ أَنه قال: «من علَّق مصحفاً ولم يتعاهده أَتى يوم القيامة معلقاً به، يقول: هذا اتخذني مهجوراً، اقْض يا ربّ بيني وبينه»[2].

ثمَّ آنسه عن فعل قومه بأَن أَعلمه أَن غيره من الرسل كذلك امتُحن بأَعداء في زمنه، أَي: فاصبر كما صبروا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، و(عَدُوًّا) يريد به الجمع،

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لا بدَّ منها لسلامة المعنى، فإن قوله: «بضم الهاءِ» لا يستقيم مع المعنى الذي ذكره سابقاً، وهو أنه يريد من [مَهْجُوراً] مُبعداً ومَقْصياً، لأن ذلك يكون مع الهَجْر بفتح الهاءِ، وهو ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط، أما الهُجْر (بضم الهاءِ) فيترتب على معنى آخر هو ما ذكره مجاهد في تفسيره «يَهْجُرُون فيه بالقول، يقولون: سحر»، وهذا يتفق مع قول ابن عطية بعد ذلك: «إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة وسِحْر». ويستقيم المعنى بما زدناه بين العَقْفَتين.

(٢) في «روح المعاني، والبيضاوي» جاء النَّص: «مَن تعلَّم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاءَ يوم القيامة متعلقاً به، يقول: يا ربَّ العالمين، إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً، فاقض بيني وبينه»، على أن العلماءَ قد تكلموا في صحة هذا الحديث؛ لأن في سنده أبو هُدْبة، وهو كذاب. فالحديث موضوع لا أصل له في كتب الحديث.

تقول: «هؤلاءِ عدوٌّ لي»، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث، ثم وعده تعالىٰ بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والباءُ في (بِرَبِّكَ) للتأكيد، دالة على المعنى، إذ هو: اكتف بربك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله تعالىٰ لنزلَ جملةً واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وقوله: (كَذَٰلِكَ) يحتمل أن يكون من قول الكفار، [ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلام الله تبارك وتعالىٰ لا من كلامهم][1]، وهو أَوْلى، ومعناه: كما نزل أَردناه، فالإشارة إلى نزوله متفرقاً، وجعل الله تعالىٰ السبب في نزوله متفرقاً في الزمان تثبيت فؤاد محمد ﷺ، وليحفظه. وقال مكيٌّ، والرُّمَّانيّ: من حيث كان أُمِّيًا لا يكتب، وليطابق الأسباب المؤقتة، فنزل في نيّف وعشرين سنة، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل جملة واحدة، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [لِيُثَبِّتَ] بالياءِ. و(التَّرْتيلُ): التفريق بين الشيءِ المتتابع، ومنه قولهم: بقر رَتَلٌ، ومنه ترتيل القراءَة[2]. وأراد الله تبارك وتعالىٰ أَن يُنزل القرآن في النوازل والحوادث التي قدَّرها وقدَّر نزوله فيها.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن هؤلاءِ الكفرة لا يجيئون بِمَثَلٍ ـ يضربونه على جهة المعارضة ـ مُبْهَمٍ ـ كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل ـ إلاَّ جاءَ القرآن بالحق في ذلك، أَي بالذي هو حقٌّ، ثم هو أَحسن تفسيراً، أَو أَفصح بياناً وتفصيلاً. ثم أَوعد الله تعالىٰ الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار. وذهب الجمهور إلى أَن هذا المشي على الوجوه حقيقة، ورُوي في ذلك ـ من طريق أَنس بن مالك رضي الله عنه ـ

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لا بُدَّ منها حتَّى يستقيم المعنى.

(٢) جاءَ في (اللسان ـ رتل): «رَتَّل الكلام: أَحْسن تأليفه وأبانَه وتمهَّل فيه، والترتيل في القراءة: التَّرسُّل فيها والتَّبْيين من غير بغي، وفي صفة قراءة النبي ﷺ: كان يُرَتِّل آيةً آيةً». والعلماءُ على أن ترتيب القرآن هو تنزيله مفرقاً بعضه إثر بعض، وأما قولهم: «بَقَر رَتَل» فهو من الرَّتَل، وهو حُسْن تناسق الشيءِ.

حديث أَن النبي ﷺ قال له رجل: يا رسول الله، كيف يقدرون على المشي على وجوههم ؟ قال: «إِن الذي أَقدرهم على المشي على أَرجلهم قادر أَن يمشيهم على وجوههم»[1] وقالت فرقة: المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي، وقوله تعالىٰ: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ القول فيه كالقول في قوله تعالىٰ: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

هذه الآيات التي ذكر فيها الأُمم هي تمثيلٌ لهم وتوعُّدٌ بأَن يحل بهم ما حلَّ بهؤلاءِ المعذَّبين، و(ٱلْكِتَاب): التوراة، و«ٱلْوَزِير»: المُعين، وهو من تحمُّل الوزْر، أَي ثقل الحال، ومن الوَزَر الذي هو الملجأ[2]، و﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ هم فرعون ومَلؤُهِ من القبط، ثم حذف من الكلام كثيراً دلَّ عليه ما بقي، وتقدير المحذوف: فَذَهبا فَأَدَّيا الرسالة فكذبوهما فدمَّرْناهم. وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومسلمة بن محارب: [فَدَمِّرَانِّهِمْ]، أَي: كونا سبب ذلك، قال أَبو الفتح: أَلْحَقَ نون التوكيد أَلف التَّثنية، كما تقول لرجل: اضربانٍّ زيداً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورُوي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [فَدَمِّرَاهم]، وحكى عنه أَبو عمرو الدَّاني: [فَدَمِرْناهُمْ] بكسر الميم خفيفة، قال: وروي عنهم: [فَدَمِّروا بِهِم] على الأَمر لجماعة وبزيادة باءٍ، والذي فسَّر أَبو الفتح وهم، وإِنما القراءَة: [فَدَمِّروا بِهِمِ] بالباءِ، وكذا ذكرها المهدوي.

---

(١) الحديث متفق عليه: البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) قال في (اللسان ـ وزر): «الوَزَرُ: الملجأُ، وأَصل الوزر الجبل المنيع، وكلُّ معقل وَزَر، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾.

ونُصِب قوله: (قَوْمَ) بفعل مضمر يدلُّ عليه [أَغْرَقْنَاهُمْ][(١)]، وقوله تعالىٰ: (ٱلرُّسُلَ) وهم إنما كذبوا نوحاً فقط، معناه أن الأُمة التي تكذب نبيّاً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياءِ، فجاءَت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم، وقوله تعالىٰ: (آيَةً) أي علامةً على سطوة الله تبارك وتعالىٰ بكل كافر بأنبيائه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ يُصرف ولا يصرف، وجاءَ ها هنا مصروفاً، وقرأَ ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن، وعيسى: (وَعَاداً) مصروفاً. (وَثَمُودَ) غير مصروف.

واختلف الناس في ﴿أصحاب الرس﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم من ثمود، وقال قتادة: أَهل قرية من اليمامة يقال لها: الرَّسُّ، وقال كعب، ومقاتل، والسُّدي: الرَّس: بئر بأَنطاكية الشام، قُتل بها صاحب ياسين[(٢)]، وقال الكلبي: أَصحاب الرَّسِّ قوم بُعث إِليهم نبيٌّ فقتلوه، وقال قتادة: أَصحاب الرَّسِّ وأَصحاب الأيْكة قومان أُرسل إِليهم شعيب عليه السلام، وقاله وهب بن مُنَبِّه، وقال عليٌّ ـ في كتاب الثعلبي ـ: أَصحاب الرَّسِّ قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها: «شاه درخت» رسُّوا نبيهم في بئر أَو قبر أَو معدن، ومنه قول الشاعر:

سبقْـــتَ إِلـــى فَـــرَطٍ بَـــاهِـــلٍ ... تَنَـــابِلَـــةٍ يَحْفُـــرُونَ الـــرِّسَـــاسَـــا[(٣)]

---

(١) في نصب (قَوْمَ) أربعة أقوال: العطف على الهاءِ والميم من (فَدَمَّرْنَاهُمْ)، أو بإضمار: اذْكُر، أو بإضمار فعل يفسِّرُه ما بَعْدَه، والتقدير: وأغْرَقْنَا قوم نوح أغرقناهم، والرابع أنه منصوب بـ (أغْرَقْناهُمْ)، قاله الفراءُ، وردَّه النحاس؛ لأن «أغْرَقْنا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر، وفي قوم نوح، واعترض أبو حيان على الإعراب الثالث هنا، وقال: الظَّاهر أنَّ (أغْرَقْنَاهُمْ) جواب (لمَّا) فلا يُفَسِّر ناصباً لِقَوْم. أما إن كانت (لمَّا) ظرفاً فإنه يجوز.

(٢) قال في البحر المحيط: وهو حبيب النجار.

(٣) استشهد بالبيت صاحب (اللسان ـ رسس) مرتين: الأولى على أن الرَّسَّ: البئر القديمة، وأن جمعها: رساسٌ، وسُمِّيت بذلك لأن أهلها رسُّوا صاحبهم فيها، أي دسُّوه، والثانية على أن كل بئر تُسمَّى عند العرب رَسًّا. والفَرَط بالتحريك: المتقدم إلى الماء، يتقدم الواردة فَيُهَيِىءُ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ الحياض ويستسقي لهم. والباهل: (بالباء): المتردِّد بلا عمل، ويروى بالنون بدلاً من الباء، والناهل ـ على هذا ـ هو العطشان، أو هو الذي شرب حتى ارتوى، فهو من الأضداد، والتَّنابلة: ـ جمع تِنْبَالٍ وتِنْبَل بكسر التاء، وقيل: على وزن جعفر ـ والتِّنبل: الرجل القصير، وهو رباعي على مذهب سيبويه. والمذكور في اللسان هو الشطر الثاني فقط، والبيت من قصيدة مشهورة للنابغة الجعدي يقول فيها:

لبِسْـــتُ أُنَـــاســـاً فَـــأَفْنَيْتُهُـــمْ ... وَأَفْنَيْـــتُ بَعْـــدَ أُنَـــاسٍ أُنَـــاسَـــا



وروى عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ أن أَهل الرَّسِّ المشار إليهم في هذه الآية: قومٌ أَخذوا نَبيَّهم فرموه في بئر وأَطبقوا عليه صخرة، فكان عبْدٌ أَسود قد آمن به، يجيءُ بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها، وهو مؤمن بذلك النبي، فيعطيه ما يغذيه، ثم يردّ تلك الصخرة، إلى أن ضرب الله على أُذن ذلك الأَسود نوماً أَربع عشرة سنة، وأَخرج أَهل القرية نبيهم فآمنوا به... في حديث طويل[١]. قال الطبري: فيمكن أَنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالىٰ في هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ إيهامٌ لا يعلم حقيقته إلا الله تعالىٰ، وقد تقدم شرح «القرن»، وكم هو، ومن هذا اللفظ قال رسول الله ﷺ فيما يروى - ويروى أَن ابن عباس رضي الله عنهما قاله ـ: «كذب النَّسَّابون من فوق عدنان»[٢]، لأَن الله تبارك وتعالىٰ أَخبر عن كثير من الأُمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم.

ثم قال الله تعالىٰ: إن كلَّ هؤلاءِ ضُرب له الأَمثال ليهتدي فلم يهتد، فَتَبَّرَهُ اللهُ، أَي أَهلكه، والتَّبارُ: الهلاكُ، والتِّبْرُ: الذَّهب، أَي: المُكسَّر المُفتَّت، ولذلك يقال لِفُتات الرُّخام والزُّجاج: تِبْر، وقال ابن جرير: إن أَصل الكلمة نبطي، ولكن العرب قد استعملته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾.

قال ابن عباس، وابن جريج، والجماعة: الإشارة إلى مدينة قوم لوط، وهي

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، وفي ابن جرير زيادات عما ذكره ابن عطية هنا.

(٢) أخرج الحاكم في الكُنَى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معدِّ بن عدنان أَمسك، ثم يقول: كذب النسابون»، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾. (الدر المنثور).

(سَدُوم) بالشام. و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ حجارة السِّجِّيل، وقرأَ أَبو السَّمال: [ٱلسُّوءِ] بضم السِّين المشددة. ثم وقفهم على إِعراضهم وتعرضهم لسخط الله تباركَ وتعالىٰ بعد رؤْيتهم العبرة من تلك القرية، ثم حكم عليهم بأَن كفرهم إنما أَوجبه فساد معتقدهم في أَمر الآخرة، وأَنهم لا يرجون البعث، وكذلك لا يخافونه.

ثم حكى الله تعالىٰ عنهم أَنهم إذا رأَوا محمداً ﷺ استهزؤوا به واحتقروه، واستبعدوا أَن يبعثه الله تعالىٰ رسولاً، فقالوا ـ على جهة الاستهزاءِ ـ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، وفي (بَعَثَ) ضمير يعود على (الَّذِي) حذفت اختصاراً، وحسن ذلك في الصفة.

ثم آيَسَ[1] النبيَّ ﷺ عن كفرهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية، والمعنى: لا تتأَسف عليهم ودَعهم لرأْيهم، ولا تحسب أَنهم على ما تحب من التحصيل، بل هم كالأَنعام في الجهل بالمنافع، وقلَّة التَّحَسُّس للعواقب، ثم حكم بأَنهم أَضلُّ سبيلاً من حيث لهم الفَهْم وتركوه، والأَنعام لا سبيل لها إِلى فهم المصالح، ومن حيث جهالة هؤلاءِ وضلالتهم، وهي في أَمر أَخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأَنعام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أَي: جعل هواهُ مطاعاً فصار كالإِلٰه، والهوى قائد إِلى كل فساد، والنفس أَمارة بالسوءِ، وإِنما الصلاح إِذا ائتمرت العقل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الهوى إِلٰه يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ، وذكره الثعلبي، وقيل: الإِشارة بقوله: ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إِلى ما كانوا عليه من أَنهم كانوا يعبدون حجراً، فإِذا وجدوا أَحسن منه طرحوا الأَول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه. قال أَبو حاتم: وروي عن رجل من أَهل المدينة ـ قال ابن جني: هو الأَعرج ـ [إِلاهَةَ هواهُ]، والمعنى: اتخذ شمساً يستضيءُ بها، إِذ الشمس يقال لها: أُلاهة، ويصرف ولا يصرف[2]، و«الوكيل»: القائم على الأَمر الناهض به.

---

(١) قال في (اللسان ـ أيس): «أَيِسْتُ منه آيَسُ يأساً: لغة في يَئِسْتُ منه أَيْأَسُ يَأساً، وآيَسَني منه فلان مثل: أَيْأَسَني».

(٢) قال صاحب البحر المحيط نقلاً عن أبي الفتح: الإلاهةُ: الشمس، ويقال أُلاهة بالضَّمِّ، وهي غير مصروفة، للعلمية والتأنيث، لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناه: انتبه، والرؤية هنا رؤية القلب، وأدغم عيسى بن عمر: [رَبَّك كَّيفَ]، قال أَبو حاتم: والبيان أَحسن، و(مَدُّ الظِّلِّ) بإطلاق، هو ما بين أَول الإسفار إِلى بزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها مدة يسيرة، فإِن في هذين الوقتين ظلٌّ ممدود على الأَرض مع أَنه نهار، وفي سائر أَوقات النهار ظلال متقطعة، و«المَدُّ» و«القَبْضُ» مطرد فيها، وهو عندي المراد في الآية، والله أَعلم.

ومن الظل الممدود ما ذكر الله تبارك وتعالىٰ في هواءِ الجنة؛ لأَنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدوداً أَبداً.

وتظاهرت أَقوال المفسرين على أَن هذا الظل هو من الفجر إِلى طلوع الشمس، وذلك معترض بأَن ذلك في غير نهار، بل في بقايا الليل، فلا يقال له ظل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أَي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ، ولكنه جعل الشمس ونسخها إِياه وطردها له من موضع إِلى موضع دليلاً عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري أَنه لولا الشمس لم يعلم أَن الظل شيءٌ؛ إِذ الأَشياءُ إِنما تعرف بأَضدادها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يحتمل أَن يريد: لطيفاً، أَي: شيئاً بعد شيءٍ في مرة واحدة لا بعنف، قال مجاهد: ويحتمل أَن يريد: معجلاً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أَن يريد: سهلاً قريب التناول.

= ما كان فيه اللام ثم نزعت، فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت، وروى أبو الفتح شاهداً على صرفها عن أبي عليٍّ: قول مَيَّةَ بنت عُتْبَة ترثي أخاها:

تَـــرَوَّحْنَـــا مِـــن اللَّعْبَـــاءِ عَصْـــراً ... فَـــأَعْجَلْنَـــا الإلاهَـــةَ أن تَـــؤُوبَـــا

وقال: «فتكون [إلاهَةَ] هذه المقروءة منزوعاً منها حرف التعريف الذي في الإلاهة، فتنكرت فصرفت». واللَّعباءُ: سبخة معروفة بناحية البحرين بحذاء القطيف وسيف البحر، ويروى (قصراً) بدلاً من (عصراً)، ومعناها الدخول في العشي، وهو اختلاط الظلام أيضاً.



قال الطبري: ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأَشياءَ وتغشاها. و«السُّبات» ضرب من الإغماءِ يعتري اليقظان مرض فيشبه النائم به، والسبت: الإقامة بالمكان، فكأَن السبات سكونٌ مّا وثبوت عليه. و«النُّشورُ» في هذا الموضع الإحياءُ، شبَّه اليقظة به ليتطابق الإحياءُ مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات، ويحتمل أَن يريد بالنشور وقت انتشارٍ وتفرقٍ لطلب المعاش وابتغاءَ فضل الله، و﴿ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ وَمَا قبله من باب: ليلٌ نائم ونهار صائم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

قرأَت فرقة: (ٱلرِّيَاح)، وقرأَت فرقة: [ٱلرِّيحَ] على الجنس، فهي بمعنى الرياح، وقد نسبنا القراءَة في سورة الأَعراف، وقراءَة الجمع أَوجه[1]؛ لأَن عرف «الريح» متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح؛ لأَن ريح المطر تتشعب (وتتداءَب)[2] وتتفرق وتأْتي ليِّنة من ها هنا وها هنا، وشيئاً إِثْر شيءٍ، وريح العذاب حرجف[3] لا تتداءَب، وإنما تأْتي جسداً واحداً، أَلا ترى أَنها تُحَطِّم ما تجد وتهدمه؟ قال الرُّماني: جُمعت رياح الرحمة لأَنها ثلاثة لواقح: الجنوب والصَّبا والشمال، وأُفردت ريح العذاب لأَنها واحدة، ولا تلقح، وهي الدَّبور.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

[وَيَرُدُّ][4] على هذا قولُ النبي ﷺ إذا هبَّت الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «ولا يسوغ أن يقال: هذه القراءة أوجه؛ لأن كُلاً من القراءتَيْن متواتر».

(٢) هكذا في الأصول، ونقلها أبو حيان في البحر أيضاً بهذا اللفظ، ولا نجد لها هنا معنى، فلعلها تحريف عن كلمة أُخرى، أو لعل معناها: تَستمر وتدوم وتُلازم.

(٣) الحَرْجَفُ من الرياح: الباردة الشديدة الهبوب مع جفاف، ولَيْلَةٌ حرجف: باردةُ الريح. (المعجم الوسيط).

(٤) غير موجودة في الأصول، ولكنها في البحر نقلاً عن ابن عطية، والمعنى هنا يقتضيها. وقد قال في البحر=

ريحاً»[١]. واختلف القراءُ في (بُشْراً) في النون والباءِ[٢] وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف[٣]، و[نَشْراً] معناه: منتشرة متفرقة.

و«الطَّهُور» بناءُ مبالغة في (طاهر)، وهذه المبالغة اقتضت في ماءِ السماءِ وفي كل ما هو منه وبسبيله أَن يكون طاهراً ومُطَهِّراً. فإِذا أَفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماءُ طاهراً ولا مطهراً، ووصف البلدة بالميت لأَنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكَّر والمؤنث، وجاز ذلك من حيث «الْبَلْدَة» بمعنى «الْبَلَد»، وقرأَ طلحة بن مصرف: [لننشىء[٤] به بلْدةً ميتاً ونُسْقِيَهُ] بضم النون، وهي قراءَة الجمهور، ومعناه: نجعله لهم سقياً، هذا قول بعض اللغويِّين في (أَسْقَى)، قالوا: و(سَقَى) معناه للشَّفَةِ[٥]، وقال الجمهور: سَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد، وينشد على ذلك بيت لبيد:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ[٦]

وقرأَ أَبو عمرو: [نَسْقِيَهُ] بفتح النون، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن أَبي عبلة، وأَبي حيوة، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه. و(أَنَاسِيَّ) قيل: هو جمع إِنسان، والياءُ المشددة بدل من النون في الواحد، قاله سيبويه، وقال المبرد: هو جمع إِنْسيٍّ، فكان القياس أَن يكون (أَنَاسِيَة)[٧]، كما قالوا في مهلبي: مهالبة[٨]، وحكى

= بعد أن نقل كلام ابن عطية عن التعارض بين الحديث وكلام الرماني: «لا يظهر؛ لأنه يجوز أن يريد بقوله عليه الصلاة والسلام: (رياحاً) الثلاثةَ اللواقح، وبقوله: (ريحاً) الدَّبورَ، فيكون ما قاله الرُّماني مطابقاً للحديث على هذا المفهوم».

(١) راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٨٥ وما بعدها.

(٢) لأن بعض القراء قرأها بالنون، وبعضهم قرأها بالباء، فمن قال بالنون مع ضم الشين جعله جمعاً لريح نَشُور كصبور، ومن قرأ بالنون مع سكون الشين جعله من النَّشْر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾، ومن قرأ بالباء مع ضم الشين جعله جمع ريح بشورٍ، أي تبشِّر بالمطر والخير، ومن سكَّن الشين مع الباء فقد خفَّف كراهةً لتوالي ضمتين.

(٣) راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٨٤ وما بعدها.

(٤) هكذا في جميع الأصول.

(٥) في (اللسان ـ سَقَى): «يقال: سقيته لشَفَتِهِ، وأسْقيته لماشيته وأرضه».

(٦) سَقَى وأسْقَى هنا بمعنى واحد، وقد استشهد اللسان بهذا البيت على ذلك، ومَجْد: ابنة تيم بن غالب، وهي أمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس؛ لأنها قرشية.

(٧) في الأصول: «إنسانية».

(٨) المثال الذي ذكر في كتب اللغة، وعنها أخذ المفسرون، وقاله الفراءُ في أحد قولين له هو: «جَمْع =



الطبريُّ عن بعض اللغويين في جمع إنسان: (أَنَاسِينَ) بالنون، كسرحان وبستان، وقرأ يحيى بن الحارث [أَنَاسِي] بتخفيف الياءِ.

والضمير في ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: هو عائد على الماءِ المنزل من السماءِ، والمعنى أَن الله تبارك وتعالىٰ جعل لهم إنزال الماءِ تذكرة بأَن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض، وهو كله في كل عام بمقدار واحد، وقاله ابن مسعود، وقوله ـ عَلَى هذا التأْويل ـ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَيْ في قولهم: بالأَنواءِ والكواكب، قاله عكرمة، وقيل: ﴿كُفُوراً﴾ على الإطلاق لما تركوا التذكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ للقرآن، وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأَمر، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، وعلى التأْويل الأَول الضمير في (بِهِ) يُراد به القرآن على نحو ما ذكرناه. وقال ابن زيد: يرادُ به الإسلام. وقرأَ عكرمة: [صَرَفْنَاهُ] بتخفيف الراءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، والكوفيُّون: [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال، وقرأَ الباقون: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ بشد الذَّال والكاف.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه، تقديره: ولكنا أَفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد: بحر السماءِ والبحر الذي في الأَرض، ورُتِّبت أَلفاظ الآية على ذلك، وقال مجاهد: البحر العذب هو مياه الأَنهار الواقعة في البحر الأُجاج، ووقوعها فيه هو مَرْجُهَا، قال: والبرزخ والحجر هما[1] حاجز في علم الله تعالىٰ لا يراه البشر، وقاله الزَّجاج، وقالت

= القُرْقُور على قَرَاقِرَ وقَرَاقِير»، والقُرْقُور: ضرب من السفن، وقيل: هو السفينة الكبيرة الطويلة.

(١) في الأصل (هو).

فرقة: معنى [مَرَج]: أَدام أَحدهما في الآخر، وقال ابن عباس: عَلَّى أَحدهما على الآخر، ونحو هذا من الأَقاويل التي تتداعى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول في الآية: إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالىٰ، وإتقان خلقه للأَشياءِ، في أَن بث في الأَرض مياهاً عذبة كثيرة من أَنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأُجاج، وجعل الأُجاج خلالها، فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتَلْقى الماءَ في البحر ـ في الجزائر ونحوها ـ قد اكتنفه الماءُ الأُجاج، فَبَثَّها هكذا في الأَرض، وهو خلطها، ومنه قوله: (مَرَجَ)، ومنه ﴿فِىٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾[(١)].

و«الْبَحْرَان» يراد بهما جميع الماءِ العذب وجميع الماءِ الأُجاج، كأَنه قال: مَرَجَ نَوْعَي الماءِ، فالبَرْزخ والحِجْر هما[(٢)] ما بين البحرين من الأَرض واليبس، قاله الحسن، ومنه القدرة التي تمسكهما مع قُرب ما بينهما في بعض المواضع. وبكسر الحاءِ قرأَ الناسُ كلهم هنا، والحسن بضم الحاءِ في سائر القرآن. و«البرزخ»: الحاجز بين الشيئين.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ﴾، وقرأَ طلحة بن مصرّف: [وهذاَ مَلِحٌ] بفتح الميم وكسر اللام، قال أَبو حاتم: هذا منكر[(٣)] في القراءَة، وقال ابن جني: أَراد: مالحاً، وحذف الأَلف، كعَرِدٍ وبَرِدٍ[(٤)]. و«الأُجاجُ»: أَبلغ ما يكون من الملوحة.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (قٓ). ومن هذا المعنى ـ وهو الاختلاط والاضطراب ـ قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إذا رأيت الناس مَرِجَتْ عهودهم، وخَفَّت أماناتهم، وكانوا هكذا وهكذا» ـ وشبَّك بين أصابعه ـ فقلت له: كيف أصنع عند ذلك ؟ جعلني الله فداك، قال: «الزم بيتك، وامْلِكْ عليك لسانك، وخُذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصَّة أمر نفسك، ودع عنك أمر العامة». خرَّجه النسائي، وأبو داود، وغيرهما.

(٢) في الأصل (هو).

(٣) في الأصل: «وهذا المنكر في القراءَة»، والتصويب عن المحتَسَب لابن جني، فقد نقل كلام أبي حاتم.

(٤) يريد: كَعَرِدٍ وبَرِدٍ في قول الراجز:

أصْبَـــحَ قَلْبِـــي صَـــرِدَا ... لا يَشْتَهِـــي أنْ يَـــرِدَا
إلا عَـــراداً عَـــرِدَا ... وَصِلِّيَـــانـــاً بَـــرِدَا
وَعَنْكَثـــاً مُلْتَبِـــدَا

=



وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ الآية. هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك، وتعديد النعمة في التواشج الذي بينهم من النسب والصهر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حيٍّ مخلوق من الماءِ، وإما أن يريد نُطَف الرجال، وكلٌّ من ذلك قالته فرقة، والأول أفصح وأَبين. و«النَّسَب والصِّهر» معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميَّيْن، فالنَّسب هو أَنْ يجتمع إنسانٌ مع آخر في أَب أو في أُمٍّ، قَرُبَ ذلك أو بعد ذلك، والصِّهر هو تواشج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأَخْتان[1]، وقرابة الزوج هم الأَحْماءُ[2]، والأَصهار يقع عامًّا لذلك كله، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: النَّسب ما لا يحل نكاحه، والصِّهر ما يحل نكاحه، وقال الضَّحاك: الصِّهر قرابة الرضاع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي وَهْم أَوجبه أَن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حُرِّم من النَّسب سبع، ومن الصِّهر خمس»، وفي رواية أُخرى: «ومن الصِّهر سبع»، يريد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ فهذا هو النَّسَب، ثم يريد بالصِّهر قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[3]، ثم ذكر المحصنات، ويحتمل هذا أَنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أَراد:

= فإنه يريد: عارداً وبارداً، فحذف الألف تخفيفاً، وكذلك هنا حذف الألف من (مَالِحاً) تخفيفاً فصارت (مَلِحاً)، قال: على أن (مالِحاً) ليست فصيحة صريحة؛ لأن الأقوى في ذلك: ماءٌ مِلْحٌ، ومثله من الأوصاف على فِعْل: نِضْوٌ، وهِرْط ـ وهو اللحم المهزول ـ.

(١) قال ابن الأعرابي: الأَخْتَانُ: أبو المرأة وأخوها وعَمُّها، كما قال الأصمعي، والصِّهر: زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه، وقال محمد بن الحسن: أَخْتَانُ الرَّجُلِ: أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته وكل ذات محرم منه، وأصهارُهُ: كلُّ ذي رحم محرم من زوجته.

(٢) في المعجم الوسيط: حما المرأة: أبو زوجها ومن كان من قِبَلِهِ من الرجال، وحما الرجل: أبو امرأته ومن كان مِن قِبَلِهِ من الرجال، والجمع: أحماء.

(٣) الآية (٢٣) من سورة (النساء).

حرم من الصهر ما ذُكر معه، فقصد بـ (ما ذُكِرَ) إلى عُظْمه وهو الصِّهر[(١)]؛ لا أن الرضاع صِهْرٌ، وإنما الرضاع عديل النَّسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه، ومن روى: «وحُرِّم من الصِّهر خمس» أَسقط من الآيتين الجمع بين الأُختين، والمحصنات، وهن ذوات الأَزواج[(٢)].

وحكى الزهراوي قولاً: أَن النَّسب من جهة البنين، والصِّهر من جهة البنات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن وفي دَرْجِ ما قَدَّمته، وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه؛ لأَنه جمعه به نسب وصهر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فاجتماعهما وِكادُ حرمة إِلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد، لا أَنَّها تعطي مضيًّا فقط.

ثم ذكر تعالىٰ خطأَهم في عبادتهم أَصناماً لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ فيه تأْويلان: أَحدهما أَن «الظهير» المعينُ، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك، من أَن الكفار يعينون على ربِّهم غيرَهم من الكفرة، ويعينون الشيطان بأَن يطيعوه ويظاهروه، وهذا هو تأْويل مجاهد، والحسن، وابن زيد. والثاني ذكره الطبري في أَن يكون «الظهير» فعيلاً من قولك: «ظهرتُ الشيءَ» إِذا طرحته وراءَ ظهرك واتخذته ظهريًّا، فيكون معنى الآية على هذا التأْويل احتقار الكفرة[(٣)]، و«الكافر» في هذه الآية اسم جنس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل هو مُعيَّن أَراد به أَبا جهل ابن هشام.

---

(١) في الأصل: «وهو القصد»، والتصويب عن القرطبي، فقد نقل العبارة كلها عن ابن عطية.

(٢) قال القرطبي بعد أن نقل كلام ابن عطية: «فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً، وهو قول الزجاج».

(٣) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، أي: هَيِّناً لا قيمة له، وعليه جاء قول الفرزدق:

تَمِيمَ بنَ قَيْسٍ لا تَكُونَنَّ حَاجَتي ... بِظَهْرٍ فلا يَعْيَا عَلَيَّ جَوابُهَا

وقيل في معنى «ظهير»: وكان الكافر على ربِّه الذي يعبده ـ وهو الصنم ـ قوياً غالباً يعمل به ما يشاءُ، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر أو جلب نفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أن أبا جهل سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الآية، تسلية لمحمد ﷺ، أي: لا تَهْتَم بهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم، فإنما أنت رسول تُبشر المؤمنين بالجنة، وتنذر الكافرين بالنار، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً.

ثم أمره تعالىٰ بأن يحتجَّ عليهم مُزيلاً لوجوه التُّهم بقوله: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾، الظاهر فيه أنه استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوبي من شاءَ أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة فليفعل. وقال الطبري: المعنى: لا أسألكم أجراً إلا إنفاق المال في سبيل الله، فهذا هو المسؤول، وهو السبيل إلى الربِّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالاستثناءُ ـ على هذا ـ كالمتَّصل، وكأنه قال: إلاَّ أجر من شاءَ[1]، والتأويل الأول أظهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

المعنى: قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظَنَّ ينصرف إليك معها، ولا تُتَّهم معها، وبشِّر وأنذر وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموت، فهو المتكفِّل بنصرك في كل أمرك.

ثم وصف تعالىٰ نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛

---

(١) أي: الأجر الحاصل لي من الله على دعوته إلى الإيمان وقبوله هذه الدعوة؛ لأن الله يأجرني على ذلك، وقيل: التقدير: إلا أجر من شاءَ أن يتخذ إلى ربه سبيلاً باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة. وقيل: المعنى: إلا أجرَ مَنْ آمَن، ويريد بالأجر الإنفاق في سبيل الله، أي: لا أسألكم أجراً إلا الإنفاق في سبيل الله، فجعل الإنفاق أجراً. قاله في البحر والقرطبي.

إِذ هذا المعنى يختص بالله تبارك وتعالىٰ دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسمُ حيّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: قل سبحان الله وبحمده، أي: تنزيهُه واجب، وبحمده أقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال رسول الله ﷺ: «من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»[1]، فهذا معنى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، وهي إِحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان، الثقيلتين في الميزان. وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ﴾ توعُّد، وإِزالةٌ عن كاهل محمد ﷺ في همِّه بهم[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع جمعه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فقيل: سائغ من حيث عادل لفظ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم:

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ ... وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعا[3]

من حيث عادَلَ حبل حبالا، ومنه قول الآخر:

إِنَّ المَنِيَّةَ والْحُتُوفَ كِلاَهُمَا ... يُوفي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادي[4]

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

(٢) (كَفَى) في كلام العرب يراد بها المبالغة، تقول: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً، وفي بعض الأخبار: كفى بك ظفراً أن يكون عدوك عاصياً.

(٣) الشاعر هو القطامي، عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي، وبيته هذا من قصيدته التي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي، الذي أسره ثم حماه من القتل، ومَنّ عليه، ووهب له مائة ناقة، وردَّه إلى قومه، فقال فيه:

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي ... وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرِّتَاعا؟

والشاهد في البيت هنا أن الشاعر قال (تَبَايَنَتَا) بالتثنية مع أن كلمة (حبال) جمع، وذلك لأنه جعل حبال قيس جماعة، وحبال تغلب جماعة أُخرى فأعاد الضمير باعتبارهما صنفين أو مجموعتين، وهذا هو مراد المؤلف بقوله: «حيث عادل حبل حبالاً»، فقد قدَّر لتغلب حبلاً، وقدَّر الكلامَ: «أن حبال قيس وحبل تغلب»، ثم جاءت المعادلة بين النوعين والشيئين.

(٤) البيت للأسود بن يَعْفُر، وهو من المفضلية (٤٤)، والشاهد موجود في الشطر الأول، وهو أن الشاعر عادل لفظ الموت بلفظ الحتوف، فأعاد الضمير عليهما باعتبارهما صنفين أو شيئين فقال: كلاهما، مع أن الأول مفرد والثاني جمع، كما جاء التعادل في الآية الكريمة بين لفظ (الأرض) وهو مفرد، ولفظ (السّموات) وهو جمع. وسوادي: شخصي.



وقوله تعالىٰ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتدأ الله تعالىٰ فيه الخلق ـ فأكثر الروايات على يوم الأحد، وفي مسلم وكتاب الدلائل: يوم السبت. ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاءَ، لا إلـٰه إلا هو، وقد تقدم القول في الاستواءِ.

وقوله: (ٱلرَّحْمَـٰنُ) يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمـٰن، ويحتمل أن يكون بدلاً من الضمير في قوله: (ٱسْتَوَىٰ)، وقرأ زيد بن علي بن الحسين: [ٱلرَّحْمَـٰنِ] بالخفض[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاسأل عنه، و(خَبِيراً) ـ على هذا ـ منصوب بوقوع السؤال عليه، والمعنى: اسأل جبريل والعلماءَ وأهل الكتب المنزلة. والثاني أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيتَ فلاناً لَلَقيتَ به البحر كرماً، أي: لقيتَ منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، و(خَبيراً) ـ على هذا ـ منصوب إمَّا بوقوع السؤال، وإمَّا على الحال المؤكدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[٢]، وليست هذه بحال مُتَنَقِّلة؛ إذ الصِّفة العَلِيَّة لا تتغير[٣].

ولما ذكر (ٱلرَّحْمَـٰن) في هذه الآية كانت قريش لا تعرف هذا في أسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، وكان مسيلمةُ كذَّابُ اليمامةِ تَسمَّى بالرحمن، فتغالطت قريش بذلك، وقالت: إن محمداً يأمر بعبادة رحمنِ اليمامة، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾؟ استفهامٌ عن مجهول عندهم، فـ [مَا] على بابها المشهور. وقرأ جمهور القراءِ: (تَأْمُرُنا) بالتاءِ، أي أنت يا محمد. وقرأ حمزة، والكسائي، والأسود بن يزيد، وابن مسعود: [يَأْمُرُنَا] بالياءِ من تحت، إمَّا على إرادة

(١) في قراءَة الرفع يجوز على مذهب الأخفش أن يكون (الرَّحْمنُ) مبتدأ و(فاسْأَلْ) خبره، على حدِّ قول الشاعر: «وقائلة خَوْلان فانكح فتاتهم».

(٢) قال في البحر: «كونه منصوباً على الحال المؤكدة على هذا التقدير لا يصح، إنما يصح أن يكون مفعولاً به». وهو من الآية رقم (٩١) من سورة (البقرة).

(٣) هذا رأي المهدوي، قال: لا يصح أن تكون حالاً، لا من الفاعل ولا من المفعول، والحال في أغلب أمرها تتغير وتنتقل، لكن إذا حملناها على أنها حال مؤكدة جاز، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾.

محمد ﷺ، والكناية عنه بالغيبة، وإمّا على إرادة رحمان اليمامة، وقوله تعالىٰ: (وَزَادَهُمْ) أي: أَضَلَّهُمْ هذا اللفظ ضلالاً يختص به، حاشى ما تقدم منهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالىٰ وعن اسمه الذي هو الرحمٰن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرَّف به، وتُوجب الإقرار بأُلوهيته.

و«البروج» هي التي علمتها العرب بالتجربة وكلُّ أُمة مُصْحرة[1]، وهي الشهور عند اللغويِّين وأهل تعديل الأوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالىٰ في قوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[2]، والعرب تُسمي البناءَ المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببرج السماءِ، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[3]، وقال الأخطل:

كَـأَنَّـهَـا بُـرْجُ رُومِـيٍّ يُشَيِّـدُهُ ... بَـانٍ بِجِـصٍّ وآجُـرٍّ وأَحْجَـارِ[4]

وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها: البروج: القصور في الجنة، وقال الأعمش: كان أَصحاب عبد الله يقرؤونها: «في السماءِ قصوراً»، وقيل: البروج: الكواكب العظام، حكاه الثعلبي عن أَبي صالح، وهذا غير ما بيَّنّاه إلاَّ أَنه غير مخلّص، والقول بأَنها قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أَشياءَ مدركات تقوم بها الحجة على كل منكِر للهِ أَو جاهل به.

---

(١) البروج المعروفة هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (يسٓ).

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).

(٤) البيت في وصف الناقة، يُشَبِّهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع، وهذا كثير في كلام العرب. وشيَّد البناء: رفعه وعلاه، أو طَلاهُ بالشِّيد، وهو كل ما طُلِيَ به البناءُ. والشاهد في البيت أن البرج هو البناءُ المرتفع المستغني بنفسه.

وقرأَ الجمهور: (سِرَاجاً)، وهي الشمس، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعبد الله بن مسعود، وعلقمة، والأَعمش: [سُرُجاً]، وهو اسم جميع الأَنوار، وقد خصَّ القمر بالذكر تشريفاً، وقرأَ النَّخَعي، وابن وثاب، والأَعمش أَيضاً: [سُرْجاً] بسكون الراءِ، قال أَبو حاتم، وروى عصمة عن الحسن: [وَقُمْراً] بضم القاف ساكنة الميم، ولا أَدري ما أَراد إِلا أَن يكون جمعاً كثَمَر وثُمُر، قال أَبو عمرو: وهي قراءَة الأَعمش، والنَّخعي[1].

وقوله: [خِلْفَةً] أَي: هذا يخلف هذا، ومن المعنى قول زهير:

بِهَا الْعِينُ والآرامُ يمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ[2]

ومنه قول الآخر يصف امرأَة تنتقل من منزل في الشتاءِ لمنزل في الصيف دأْباً:

ولها بالْمَاطِرُونِ إِذَا ... أَكَلَ النَّمْلُ الذي جَمَعَا

خِلْفَةً حتَّى إِذا ارتَبَعَتْ ... سَكَنَتْ من جِلَّقٍ بِيَعَا

فـي بُيُوتٍ وَسْطَ دَسْكَرَةٍ ... حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا[3]

---

(١) في البحر أن عِصْمة قرأها عن عاصم لا عن الحسن، وفي القرطبي ـ عصمة عن الأعمش، وقال في البحر: «والظاهر أنه لغة في القمر كالرَّشَد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب»، وقيل: جمع قمراء، أي ليلة قمراء، كأنه قال: «وذا قمر منير»؛ لأن الليلة تكون قمراء بالقمر، فأضافه إليها، ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه، وقيام المضاف إليه مقامه قول حسَّان: (بَرَدَى يُصَفق بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ)، يريد: ماء بَرَدَى، لأنه لو لم يراع المضاف لقال: تُصَفّق (بالتاءِ).

(٢) العِينُ: البقر، واحدها أعْين وعيناء، سُمِّيت عيناء لِسَعَة عينها. والآرام: الظباءُ البيض الخوالص البياض، والواحد ريم. وخِلْفَةً معناه: إذا مَضى فوج جاء فوج آخر خَلَفه في مكانه، وحَكَى يعقوب عن بعض اللغويين أن المعنى: مُخْتَلِفَة، يريد أنها تَتَردَّد في كل وجْهٍ، وهذا علامة الأمن والخصب. والطَّلا: ولد البقرة والظبي والشاة. والمَجْثَم: الموضع الذي يجثم فيه الحيوان، ويروى المجْثَم بفتح الثاء على أنه اسم من جَثَم يَجْثُم، ويروى بكسر الثاء فهو الاسم من جَثَمَ يَجْثِم.

(٣) الأبيات ليزيد بن معاوية، وهي من مقطوعة قالها يتغزل في امرأة نصرانية، كانت قد ترهبت في دير عند بستان بظاهر دمشق يسمَّى الماطرون. وخِلْفة باللام: ما يطلع من الثمر بعد الثمر، وهي رواية البغدادي في الخزانة، والعيني عن ابن القوطية، والطبري والقرطبي في تفسيريهما، ورواها المبرد في الكامل: (خُرْفة) بالخاء المضمومة والراء، وهو ما يُخترف ويُجْتنى. وارتبعت: دخلت في الربيع، ويروى ذكرت بدلاً من سكنت، وجلَّق: مدينة بالشام، يقال إنها دمشق، والبِيَع: جمع بِيعَة بكسر الباء، وهي مكان التعبد عند اليهود، ولكن هذا لا يتفق مع ما قاله البغدادي من أن المرأة كانت نصرانية، والدَّسْكرة: القرية العظيمة، وجمعها دساكر، ويَنَعَ الثَّمر: أَدْرك وطاب وحان قطافه. يقول الشاعر: إن=

وقال مجاهد: (خِلْفَةً) من الخلاف، هذا أبيض وهذا أسود، نحو ما قدمناه، وقال مجاهد وغيره: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالىٰ على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، وابن عباس: معناه: لمن أراد أن يذكر ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه، وقرأ حمزة وحده[1]: [يَذْكُرَ] بسكون الذال وضم الكاف، وهي قراءَة ابن وثاب، وطلحة، والنَّخَعي، وقرأ الباقون: (يَذَّكَّرَ) بشد الذال، وفي مصحف أُبي بن كعب: [يَتَذَكَّر] بزيادة تاءٍ.

ثم لمَّا قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جاءَ بصفة عباده الذين هم أَهْلُ التذكُّر والشكور، و«العباد» و«العبيد» بمعنى، إلا أن العبادَ تستعمل في مواضع التنويه، وسُمي قومٌ من عبد القيس العبادَ لأَن كسرى ملكهم دون العرب، وقيل: لأَنهم تألَّهوا مع نصارى الحيرة وصاروا عباداً للهِ، وإليهم ينسب عديُّ بن زيد العِبَادي، وقرأَ الحسن: [وعُبُد الرحمـٰن]، ذكره الثعلبي.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر ابتداءٍ، والمعنى: وعباده حق عباده هم الذين يمشون، وقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك المعظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأَرض معاشرةُ الناس وخلطتهم. ثم قال: (هَوْناً) بمعنى أَمْرُه كله هون، أَي ليِّنٌ حسن، قال مجاهد: بالحلم والوقار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالطاعة والعفاف والتواضع، وقال الحسن: حلماً، إن جُهل عليهم لم يجهلوا، وذهبت فرقة إلى أنَّ (هَوْناً) مرتبط بقوله تعالىٰ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أَن المشي هو الهون، ويشبه أن يُتأَول هذا على أَن تكون أَخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه، فيرجع القول إلى نحو ما بيَّنَّاه، وأَما أَن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رُوَيْداً وهو ذئب أَطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفَّأُ في مشيه كأَنما يمشي في صبب، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر

= هذه المرأة تتردَّد بين الماطرون حيث تفد إليه في الشتاء حين يأكل النمل ما جمعه في الصيف، وبين بيع العبادة في دمشق إذ جاءَ الربيع حيث تقيم في بيوت تقع وسط قرية كبيرة قد أينعت حولها ثمار أشجار الزيتون وحان قطافها.

(١) يعني من السبعة المعروفين في القراءات.

في هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن مشى منكم في طمع فليمش رويداً» إنما أَراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده، أَلا ترى أَن المبطلين المتَحَلِّين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم:

كُلُّهُـــــمْ يَمْشـــــي رُوَيْـــــد كُلُّهُـــــمْ يَطْلُـــــبُ صَيْـــــد[١]

وقال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاءَ الوجه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد الإِسراع الحثيث؛ لأَنه يخل بالوقار، والخير في التوسط، وقال زيد بن أَسلم: كنت أَسأَل عن تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً، فرأَيت في النوم من جاءَني فقال لي: هم الذين لا يريدون أَن يفسدوا في الأرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا للتفسير في الخلق. و(هَوْناً) معناه: رفقاً وقصداً، ومنه قول النبي ﷺ: «أَحْبِبْ حبيبك هوناً ما» الحديث[٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، اختلفوا في تأويل ذلك، فقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أَن يقول للجاهل: «سلاماً» بهذا اللفظ، أَي: سلمنا سلاماً أَو تسليماً أَو نحو هذا، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين. والذي أَقول: إِن قوله: (قَالُوا) هو العامل في (سَلاَماً)؛ لأَن المعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد: معنى (سَلاَماً): قولاً سداداً، أَي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين، فقالوا في هذا التأْويل: العامل في قوله [سَلاَماً] على طريقة النحويين، وذلك أَنه بمعنى: قولاً، وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يخُصُّ الكفرة، وبقي أَدبها في المسلمين إِلى يوم القيامة، وذكر سيبويه النسخ في

---

(١) قال ذلك أبو جعفر المنصور (الخليفة) في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور، وتمامه:

غَيْر عَمْرو بن عُبَيْد

(٢) أخرجه الترمذي في البر، وفيه: «أَحْبب حبيبك هوناً مَّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا». وفي «الأدب المفرد» للبخاري: هو من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونصّه: (أحبب حبيبك هوناً مَّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا، وأبغض بغيضك هوناً مَّا عسى أن يكون حبيبك يوماً مَّا)، ولم يثبت في المرفوع.

هذه الآية في كتابه، وما تكلم على نَسْخ سواه، رجَّح به أَن المراد السلامة لا التسليم؛ لأَن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على غير المسلمين، والآية مكِّيَّة نسختها آية السيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورأَيت في بعض [مصاحف][1] التواريخ أَن إِبراهيم بن المهدي ـ وكان من المائلين على عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ قال يوماً بمحضر المأْمون ـ وعنده جماعة ـ: كنت أَرى عليَّ بن أَبي طالب في النوم، فكنت أَقول له: من أَنت؟ فيقول: أَنا علي بن أَبي طالب، فكنت أَجيءُ معه إِلى قنطرة، فيذهب يتقدمني في عبورها، فكنت أَقول له: إِنما تدَّعي هذا الأَمر بامرأَةٍ، ونحن أَحق به منك، فما رأَيت له في الجواب بلاغة كما يُذكر عنه، قال المأْمون: وبماذا جاوبك؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً، قال الراوي: فكأَن إِبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية، أَو ذهبت عنه في ذلك الوقت، فنبهه المأْمون على الآية أَمام من حضره، وقال: هو والله يا عم عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقد جاوبك أَبلغ جواب، فخزي إِبراهيم واستحيا، وكانت رؤْياه لا محالة صحيحة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما فرغ من وصف نهارهم وَصفَ في هذه ليلهم، وقال بعض الناس: من صلى العشاءَ الآخرة، وشفع وأَوتر، فهو داخل في هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِلاَّ أَنه دخول غير مستوفى، وقرأَ أَبو البرهسم: [سجوداً].

ومدحهم تبارك وتعالىٰ بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإِيمانهم، ومن حيث أَعمالهم بحسبه، و(غَرَاماً) معناه: ملازماً ثقيلاً

---

(١) هكذا في الأصل، ولم يذكرها أحد من المفسرين الذين ذكروا القصة، وأظنها من زيادات النساخ.

مجحفاً، ومنه غرام الحب، ومنه قول الأعشى:

إِنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وإِنْ يُعْـ ــطِ جَزِيلاً فإِنَّهُ لا يُبَالي (١)

وقول بشر بن أبي خازم:

ويَوْمَ النِّسَارِ ويَوْمَ الْجِفَارِ كانَ عقاباً وكانَ غَراماً (٢)

وقرأ جمهور الناس: (مُقَاماً) بضم الميم، من الإقامة، ومنه قول الشاعر:

حَيُّوا المُقامَ وحَيُّوا ساكِنَ الدَّارِ (٣)

وقرأت فرقة: [مَقَاماً] بفتح الميم، وأنه من قام يقوم، فجهنم موضع قيام لهم، والأول أفصح وأشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أفرط، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قلَّ إنفاقه، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال عون بن عبد الله ابن عتبة: الإسرافُ: أن تنفق مال غيرك. وغير هذا من الأقوال التي

---

(١) البيت من قصيدته التي مدح بها الأسود بن المنذر اللخمي، والتي يقول في مطلعها:

مَا بُكَاءُ الكَبِيرِ بالأَطْلالِ وَسُؤالي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤَالي؟

والشاهد في البيت أن (غراماً) بمعنى: شديداً ثقيلاً دائماً.

(٢) قال بِشْر هذا البيت في قصيدة يفخر فيها بقومه، وبما سجلوه من أيام، ويومُ النِّسار ويومُ الجفار من أيام العرب، الأول نسبة إلى جبل، والثاني نسبة إلى ماءٍ لبني تميم، ويوم النِّسار كان لبني أسد وأحلافها على بني عامر، ويوم الجفار كان لهم على بني تميم حين أرادت أن تثأر لبني عامر بعد هزيمتها يوم النِّسار، ولكن دارت الدائرة على بني تميم وانتصر بنو أسد في المعركتين، ولهذا قال: إنه كان عقاباً وكان عذاباً شديداً دائماً، وقد نسبه في اللسان للطِّرِمَّاح.

(٣) المُقام: مكان الإقامة، فالتحية لكل من الدار وساكنها.



هي غير مرتبطة بلفظ الآية. وخلْط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر، والوَجْه أَن يُقال: إِن النفقة في معصية أَمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاءِ الموصوفون منزهون عن ذلك، وإِنما التأْديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأَدب الشرع فيها أَلاَّ يفرط الإِنسان حتى يضيع حقاً آخر أَو عيالاً ونحو هذا، وأَلاَّ يضيق أَيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشُّح، والحسن في ذلك هو القَوَام، أَي: العدل، والقَوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفَّة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أَو ضد هذه من الخصال، وخير الأُمور أَوساطُها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أَبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه يتصدق بجميع ماله؛ لأَن ذلك وسط بنسبة جَلَدِه وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك، ونِعْمَ ما قال إِبراهيم النَّخَعي: هو الذي لا يجيع ولا يعري، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أَسرف. وقال يزيد بن أَبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال، ولا يأْكلون الطعام للَّذة. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين زوّجه ابنته فاطمة: ما نَفَقَتُك؟ فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال يزيد بن حبيب أَيضاً في هذه الآية: أُولئك أَصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأْكلون طعاماً للتَّنَعُّم واللَّذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع، ويقوِّيهم على عبادة ربِّهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويكنُّهم من الحرِّ والبرد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرءِ سرفاً أَلاَّ يشتهي شيئاً إِلا اشتراه وأَكله. وفي سنن ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ من السَّرف أَن تأْكل ما اشتهيتَه»، وقال الشاعر:

وَلاَ تَغْلُ في شَيْءٍ من الأَمْرِ واقْتَصِدْ ... كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمُ[1]

وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو بكر، ومجاهد، وحفص عن عاصم[2]: [يَقْتِرُوا] بفتح

---

(١) الغُلُوُّ: الإفراط في الشيءِ ومجاوزة الحدِّ فيه. قال في اللسان: «وخير الأمور أوساطها، و. . . كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذميمُ» فاستشهد بالنصف الثاني، على أن المراد الاعتدال في الأمور، وعدم مجاوزة الحدِّ في الطرفين بالإفراط أو التفريط، وعلى هذا فالاقتصاد هو الاعتدال، أو هو ما بين الإسراف والتقتير. قال تعالى: ﴿ومنهم مقتصد﴾ أي بين الظالم والسابق، وقال: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾، وفي الحديث الشريف: «ما عال مقتصد ولا يَعيل»، أي: ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يُقتِّر.

(٢) الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم (يَقْتُرُوا) بفتح الياءِ وضم التاءِ، لا بكسرها، ونظن أن الخطأ من الناسخ.

الياءِ وكسر التاءِ. وقرأَ حمزة، والكسائي بفتح الياءِ وضم التاءِ، وهي قراءَة الحسن، وطلحة، والأَعمش، وعاصمٌ ـ بخلاف ـ. وقرأَ أَبو عبد الرحمن بضم الياءِ وفتح التاءِ[1].

وقرأَ أَبو عمرو والناس: (قَوَاماً) بفتح القاف، أَي: معتدلاً[2]، وقرأَ حسَّان بن عبد الرحمن بكسر القاف، أَي: مبلغاً وسداداً وملاك حال. و(قَوَاماً) خبر [كَانَ]، واسمُها مُقَدَّرٌ، أَي: الإِنفاق، وجوَّز الفراءُ أَن يكون اسمها قوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية، إِخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في: عبادتهم الأَوثان، وقتلهم النفس بوأْد البنات، وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات، وبالزنى الذي كان عندهم مباحاً، وفي نحو هذه الآية قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: قلت يوماً لرسول الله ﷺ: أَيُّ الذنب أَعظم؟ قال: أَن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك، قلت: ثم أَي؟ قال: أَن تقتل ولدك خشية أَن يطعم معك، قلت: ثم أَي؟ قال: أَن تُزاني حليلة جارك، ثم قرأَ رسول الله ﷺ هذه الآية[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين، ولهم من الوعيد بقدر ذلك، والحق الذي تُقتل به النفس هو قَتْلُ النفس، والكفرُ بعد الإِيمان، والزنى بعد الإِحصان، والكفر الذي لم يتقدمه إِيمان في الحربيِّين.

و«الأَثامُ» في كلام العرب: العقاب، وبه فسَّر ابن زيد هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

---

(١) إذا راجعنا ذلك على ما في كتب القراءات نجد اختلافات متعددة، وحتى نأمن العثار والخطأ ننقل لك هنا ما أثبته الحافظ ابن الجزري في كتابه (النَّشر في القراءات العشر)، قال: «قرأ المدنيان وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ ابن كثير والبصريان بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء». هذا والحجة لمن فتح الياءَ وكسر التاءَ أنه أخذه من قَتَرَ يَقْتِرُ، مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ، ومن ضمَّ التاءَ أخذه من قَتَرَ يَقْتُرُ، مثل: خَرَجَ يَخْرُجُ، والحجة لمن ضمَّ الياءَ وكسر التاءَ أنه أخذه من أَقْتَرَ يُقْتِرُ، وهما لغتان معناهما: قِلَّة الإنفاق، قاله ابن خالويه في كتاب: «الحجة».

(٢) في بعض النسخ: اعتدالاً.

(٣) أخرجه الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه. (الدر المنثور).



جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى عُقُوقاً والْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ[(١)]

أي: جزاءً وعقوبة. وقال عكرمة، وعبد الله بن عمرو، ومجاهد: إن «أثاما» واد في جهنم، هذا اسمه، وقد جعله الله تعالىٰ عقاباً للكفرة.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (يُضَاعَفْ)، (وَيَخْلُدْ) جزماً. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر، والحسن، وابن عامر: [يُضَعَّفْ] بشد العين وطرح الألف، وبالجزم في [يُضَعَّفْ]، (وَيَخْلُدْ). وقرأ طلحة بن سليمان: [نُضَعِّفْ] بضم النون وكسر العين المشددة [الْعَذَابَ] بالنصب، و(يَخْلُدْ) بالجزم، وهي قراءَة أبي جعفر. وقرأ طلحة بن سليمان: [وَتَخْلدْ] بالتاءِ، على معنى مخاطبة الكافر بذلك، ورُوي عن أبي عمرو: [وَيُخْلَد] بضم الياءِ من تحت، وفتح اللام، قال أبو عليٍّ: «وهي غلط من جهة الرواية»، و(يُضَاعَفْ) بالجزم بدلٌ من (يَلْقَ)، قال سيبويه: مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأَثام، قال الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[(٢)]

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، لا خلاف بين العلماءِ أَن الاستثناءَ عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين، فقال جمهور العلماءِ: «لَهُ التوبة»،

---

(١) البيت لِبَلْعَاءَ بن قَيْس بن ربيعة بن عبد الله بن يعمر، اسمه حميضة، وهو من كنانة بن خزيمة، ،كان بلعاء رأس بني كنانة وقائدهم في الحروب والغزوات، وله أخبار كثيرة بسبب إكثاره من الغارات على العرب، وقد أكثر من القول في فنون الشعر المختلفة، وشعره حسن، وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت، ونسبه إلى شافع الليثي، قال: «قال أبو إسحاق: تأويل الأثام: المجازاة، وقال أبو عمرو الشيباني: لقي فلانٌ أثام ذلك، أي جزاء ذلك، فإن الخليل وسيبويه يذهبان إلى أن معناه: يَلْقى جزاء الأثام، وقول شافع الليثي في ذلك: جزى الله... البيت، أي: عقوبة مجازاة العقوق، وهي قطيعة الرحم». أما أبو عبيدة فقد نسبه إلى بلعاء في مجاز القرآن.

(٢) البيت لعُبَيْد الله بن الحُرِّ الجُعْفِيِّ، كان مع معاوية عَلى علي، ثم حدثت بينهما مناقشة خرج بعدها وانضم إلى عليٍّ رضي الله عنه. اقرأ خبر ذلك في (خزانة الأدب) للبغدادي. والجزْل: الغليظ، وهذا يجعل النار قوية فينظر إليها الضيوف عن بُعد، وتأَجَّجا بضمير الاثنين، للحطب والنار، أو أن الألف في (تأجَّجا) للإطلاق مع تذكير النار، أو عاد الضمير على النار مذكراً لأن النار مؤنث مجازي. والشاهد في البيت جزم (تُلْمِمْ) لأنه بدلٌ من قوله: (تَأْتِنَا)، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز، قال سيبويه: سألت الخليل عن البيت فقال: (تُلْمِمْ) بدل من الفعل الأول، أراد أن يفسر الإتيان بالإلمام، كما تقول: مررت برجلٍ عبدِ الله، فتفسِّر الأول وهو رجل بالثاني وهو عبد الله.

وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(١)]، فحصل القاتل في المشيئة كسائر التّائبين من ذنوب، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء[(٢)] بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه، وروى أبو هريرة لمن قَتَل: حديثاً عن النبي ﷺ[(٣)]. وقيل: إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، وقاله سعيد بن جبير. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: لا توبة للقاتل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهذه الآية إنما أُريد بالتوبة فيها المشركون، وذلك أَنها لما نزلت قالت طوائف من المشركين: كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا؟ فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، ونزلت ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية[(٤)]، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيءٍ فرحه بها وبسورة الفتح[(٥)]. وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأَنْ لا توبةَ للقاتل: إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساءِ، قاله زيد بن ثابت، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أَبو الجوزاءِ: صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأَيت شيئاً من القرآن إلاّ سأَلتُه عنه، فما سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالىٰ يقول لذنب: لا أَغفره.

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (النساء)، وتكررت في الآية (١١٦) من السورة نفسها.

(٢) وهي قوله تعالىٰ في الآية (٩٣): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

(٣) الحديث الذي يشير إليه أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلَّيت مع رسول الله ﷺ العتمة ثم انصرفت، فإذا امرأةٌ عند بابي، فقالت: جئتك أسألك عن عمل عملتُه هل ترى لي منه توبة؟ قلت: وما هو؟ قالت: زنَيْتُ وَوُلِد لي وقتلتُه. قلت: لا ولا كرامة، فقامت وهي تقول: واحسرتاه، أيخلق هذا الجسد للنار؟ فلما صلَّيت مع النبي ﷺ الصبح من تلك الليلة قصصْتُ عليه أمر المرأة، قال: وما قلت لها؟ قلت: لا ولا كرامة، قال: بئس ما قلت، أما كنت تقرأُ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾... إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، قال أبو هريرة: فخرجت فما بقيت دار بالمدينة ولا خطة إلا وقفتُ عليها فقلتُ: إن كانت فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتَأتِ ولْتُبْشِر، فلما انصرفتُ من العشيِّ إذا هي عند بابي، فقلت: أبشري، إني ذكرت للنبي ﷺ ما قُلتِ وما قلتُ لك فقال: بئس ما قلت، أما كنت تقرأُ هذه الآية؟ وقرأتها عليها، فخرت ساجدة وقالت: أحمد الله الذي جعل لي توبة ومخرجاً، أشهد أن هذه الجارية (لجارية معها وابنٍ لها) حُرَّان لوجه الله، وإني تبت مما عملت.

(٤) من الآية (٥٣) من سورة (الزُّمَر).

(٥) أخرجه بلفظ آخر في أوله ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.



وقوله تعالىٰ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۢ﴾ معناه: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عزَّ وجلَّ إياهم، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، والحسن، وردُّوا على من قال: «هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين، يبدل السيئات حسنات»، وهذا تأويل ابن المسيب في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو معنى كرم العفو.

وقرأ ابن أبي عبلة: [يُبْدِل] بسكون الباءِ وتخفيف الدال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

أكَّد هذا اللفظ أمر التوبة، والمعنى: ومن تاب فإنه قد تمسَّك بأمر وثيق، وهذا كما تقول لمن يُستَحْسن قوله في أمْر: لقد قلتَ يا فلان قولاً. وكذلك الآية معناها مدح المتاب، كأنه قال: فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً. ثم استمرت الآية في صفة عباد الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزُّور.

و(يَشهَدُونَ) في هذه الآية ظاهرُ معناها: يشاهِدونَ ويحضُرون. و(الزُّورُ): كل باطلٍ زُوِّرَ وزُخرِفَ، فأَعْظَمُه الشِّركُ، وبه فسَّر الضحاك، وابن زيد، ومنه الغناءُ، وبه فسَّر مجاهد، ومنه الكذب، وبه فَسَّر ابن جريج، وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، ومحمد بن علي: المعنى: لا يشهدون الزُّور، فهي من الشهادة لا من المشاهدة، و«الزُّور»: الكذب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والشاهد بالزُّور ـ حاضره ومُؤدِّيه ـ فجرةٌ، فالمعنى الأول أعَمُّ، لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى.

و«اللَّغْوُ»: كل سقط من فعل أو قول، ويدخل فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل في ذلك سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساءِ وغير ذلك من

المنكر، و(كِرَاماً) معناه: معرضين مُسْتَخِفِّينَ يتجافَوْن عن ذلك، ويصبرون على الإِيذاءِ منه، ورُوي أَن عبد الله بن مسعود سمع غناءً فأَسرع في مشيه وذهب، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لقد أَصبح ابن أُم عبد كريماً»، وقرأَ الآية[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما إذا مرَّ المسلم بمنكر فكَرَمُه أَنْ يُغَيِّره، وحدود التغيير معروفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، يريد: ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم، وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتمل تأْويلين: أَحدهما أَن المعنى: لم يكن خروجهم بهذه الصفة بل يكون خروجهم سجداً وبُكيًّا، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إِلى الحرب جزعاً، أَي: إِنما خرج جريئاً مقدماً، أَو كأَن الذي يَخِرُّ أَصمَّ أَعمى هو المنافق أَو الشاك، وهو التأْويل الثاني، وإِليه ذهب الطبري، وهو أَنَّ ﴿يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إِعراضهم وجهدهم في ذلك، وقرن ذلك بقولك: «قعد فلان يشتمني، وقام فلان يبكي»، وأَنت لم تقصد الإِخبار بقعود ولا قيام، وإِنما هي توطئات في الكلام والعبارة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكأَن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأَمر، فإِذا أَعرض وضلَّ كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب، وإِن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً، لكن أَصله أَن يكون على غير ترتيب.

ثم مدح المؤمنين حال الدعاءِ إِليه بأَن يُقِرَّ العيون بالأَهل والذرية. و«قُرَّة العين» يحتمل أَن تكون من القرار، ويحتمل أَن تكون من القَرِّ، وهو الأَشهر؛ لأَن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أَقَرَّ الله عينك وأَسْخَنَ الله عين العدو[2]، وقُرَّة العين في الأَزواج والذرية أَن يراهم الإِنسان مطيعين لله تبارك وتعالىٰ، قاله ابن عباس،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن إبراهيم بن ميسرة رضي الله عنه، وفيه أن الذي قرأ الآية هو إبراهيم بن ميسرة، وجاء بلفظ: «ثم تلا إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾». (الدر المنثور).

(٢) أخذه الشاعر فقال:

فَكَمْ سَخِنَتْ بالأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرَةٌ ... وقَرَّتْ عُيونٌ دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبُ

والحسن، وحضرمي، وبيَّن المقداد بن الأَسود الوجه في ذلك بأَنهم كانوا في أَول الإِسلام يهتدي الابن، والأَب كافر، والزَّوجُ، والزوجة كافرة، فكانت قرة عيونهم في إِيمان أَحبابهم. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن: (وَذُرِّيَّاتِنَا)، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى: [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإِفراد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قيل: هو جمع (آمٍّ)، مثل قائم وقيام، وقيل: هو مفرد اسم جنس، أَي: اجعلنا يأْتم بنا المتقون، وهذا لا يكون إِلاَّ أَن يكون الداعي مُتَّقياً قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وقال إِبراهيم النَّخَعي: لم يطلبوا الرياسة، بل أَن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حسن أَن يُطلب ويُسعى إِليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾.

قرأَ أُبيُّ بن كعب: [يُجَازَوْنَ] بأَلف، و(ٱلْغُرْفَة) من منازل الجنة، وهي الغُرف فوق الغُرف، وهي اسم جنس، كما قال:

وَلَــوْلاَ ٱلْحَبَّــةُ السَّمْــرَا ءُ لَــمْ أَحْلُــلْ بِــوَادِيكُــمْ[(١)]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: (وَيُلَقَّوْنَ) بضم الياءِ وفتح اللام وشدّ القاف، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وطلحة، ومحمد اليماني، ورُويت عن النبي ﷺ: [وَيَلْقَوْنَ] بفتح الياءِ وسكون اللام وتخفيف القاف، واختلف عن عاصم[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى﴾ الآية. أَمرٌ لمحمد ﷺ أَن يخاطب بذلك، و[ما] تحتمل النفي، وتحتمل التقرير، والكلام في نفسه يحتمل تأْويلات: أَحدها أَن تكون الآية إِلى قوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ خطاباً لجميع الناس، فكأَنه قال لقريش منهم:

---

(١) الحَبَّة: واحدة الحَبّ، وهو ما يكون في السنبل والأكمام كالقمح والشعير، وجمع الحَبّ: حبوب، والحُلُول: النزول، والشاهد أن الحَبَّة: اسم جنس كالغرفة.

(٢) لأن القراءة الثابتة في المصحف عن عاصم من طريق حفص جاءت بضم الياءِ وتشديد القاف.



ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت، وذلك الذي يُعبأُ بالبَشَر من أجْله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، وقال النقاش: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، ونحو ذلك، فهو عرف الناس المرعي[2] فيهم. وقرأ ابن الزُّبير وغيره: «فقد كذَّب الكافِرونَ»، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُرْ﴾ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب ـ أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب ـ لزاماً.

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة، أي: ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم الأصنام دونه، فإن ذلك يوجب تعذيبكم.

الثالث وهو قول مجاهد: ما يعبأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم إلى شرعه، فوقع منكم الكفر والإعراض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل، و[يَعْبَأُ] مشتق من العبءِ وهو من الثقل الذي يعبأُ ويرتَّب كما يُعَبَّأُ الجيش[3]. قال ابن جني: قرأ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما: «فقد كذب الكافرون»، قال الزهراوي: وهي قراءَة ابن مسعود، قال: وهي على التفسير.

وأكثر الناس على أن اللِّزام المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر، وهو قول أُبيّ بن كعب، وابن مسعود، والمعنى: فسوف يكون جزاءُ التكذيب. وقالت فرقة: هو توعُّد بعذاب الآخرة. وقال ابن مسعود: اللِّزام هو التكذيب نفسه، أي: لا يُعْطَوْن توبة، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: اللِّزام الموتُ، وهذا نحو القول ببدر، وإن أراد به متأول الموت المعتاد في الناس عرفاً فهو ضعيف، وقرأ جمهور الناس: (لِزَاماً) بكسر اللام، من لوزم، وأنشد أبو عبيدة لِصَخْرِ الغَيِّ[4]:

---

(١) الآية (٥٦) من سورة (الذاريات).

(٢) في بعض النسخ: المدَّعى فيهم.

(٣) في (اللسان ـ عبأ): «عبأ الأمر عَبْئاً وعَبَاءُ يُعَبِّئُهُ: هَيَّأه، وعبَّأتُ المتاع: جعلت بعضه على بعض، وقيل: عَبأ المتاعَ وعَبَّأه: كلاهما هيَّأه، وكذلك الخيل والجيش، وكان يونس لا يهمز تعبية الجيش».

(٤) هو صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي، وفي الأغاني أنه لُقِّب بصخر الغَيِّ لخلاعته وشدة بأسه وكثرة=



فَـإِمَّـا يَنْجُـوَا مِـنْ حَتْـفِ أَرْضٍ فَقَـدْ لَقِيَـا حُتُـوفَهُمَـا لِـزَامـاً

وقرأ أبو السمال: [لَزَاماً] بفتح اللام، من لَزِم[1]، والله أعلم.

كمل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

= شرُّه، وله ترجمة في الإصابة، وفي الأغاني. والبيت في (اللسان ـ لزم) وفيه «قال أبو عبيدة: وجاء في التفسير عن الجماعة أنه يوم بدر، وما نزل بهم فيه، فإنه لوزم بين القتلى لزاماً، أي: فُصِل. وأنشد أبو عبيدة لصخر الغيّ: فإمَّا ينجُوَا... البيت، وتأويل هذا أن الحتف إذا كان مقدراً فهو لازم، إن نجا من حتف مكانٍ، لَقِيَهُ الحتف في مكان آخر لِزاماً».

(١) قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِم، والكسر أولى، وقال غيره: اللِّزام بالكسر مصدر لازَم لِزاماً، مثل خاصم خِصاماً، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم، مثل سَلِم سلاماً، أي سلامة، فاللَّزام بالفتح اللُّزوم، واللِّزام: الملازمة، والمصدر في القراءَتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللِّزام في موقع: مُلازِم، واللَّزام في موقع: لازَم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشُّعَراءِ

هذه السورة مكية كلُّها، قاله جمهور الناس، وقال مقاتل: منها مدني الآية التي يذكر فيها الشعراءَ، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

تقدم القول في الحروف في أَوائل السُّوَر مستوعَباً.

و(تِلْكَ) مرتفع بالابتداءِ، وهو وخبره سادٌّ مَسدَّ الخبر عن (طٰسٓمٓ) في بعض التأويلات. والإشارة بـ (تِلْكَ) هي بحسب الخلاف في (طٰسٓمٓ)، وفي بعض الأقوال أن تكون (تِلْكَ) إشارة إلى حاضر، و«ذلك» إلى موجود، كما أَن «هذه» قد تكون الإشارة بها إلى غائب معهود كأَنه حاضر.

و﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآن.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [طِسٓمٓ] بكسر الطاءِ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر بفتحها وبإِدغام النون من (سِين) في الميم. وقرأَ حمزة

---

(١) وقال ابن عباس، وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة: من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها.

وعدد آيات السورة مائتان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: ست وعشرون، وعن البراءِ بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزَّبور، وفضلني بالحواميم والمُفَصَّل، ما قرأهن نبيٌّ قبلي».

وحده بإظهارها، وهي قراءة أبي جعفر، ورويت عن نافع، وروى يعقوب عن أبي جعفر ونافع قَطْع كل حرف منها على حِدَة، قال أبو حاتم: الاختيار فتح الطاءِ وإدغام آخر (سين) في أول (ميم) فتصير الميم متصلة[١].

وقوله تعالىٰ: (لَعَلَّكَ) الآية، تسلية لمحمد ﷺ عما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم، فكان في شغل البال في حيِّز الخوف من نفسه. و«الْبَاخِعُ» القاتل نفسه والمهلك لها بالهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناسُ، ومن ذلك قول ذي الرمة:

أَلاَ أَيُّهَـذَا البَـاخِـعُ الْـوَجْـدُ نَفْسَـهُ ... لِشَـيْءٍ نَحَتْـهُ عَـنْ يَـدَيْـهِ المقَـادِرُ[٢]

وخوطب بـ «لَعَلَّ» على ما في نفس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال. ومعنى الآية: أَلاَّ تَهْتَم يا محمد بهم، وبلِّغ رسالتك، وما عليك من إيمانهم، فإن ذلك بيد الله تعالىٰ لو شاءَ لآمنوا. وقوله: (أَلاَّ) مفعول من أجله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ شرطٌ، وما في الشرط من الإيهام هو ـ في هذه الآية ـ في حيِّزنا، وأَما الله تعالىٰ فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية اضطرار، وإنما جعل الله تعالىٰ آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداه، ويضل من سبق ضلالُه، وليكون للنظرة تكسب به يتعلَّق الثواب والعقاب، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت.

وقرأَ: (نُنَزِّل) بفتح النون وشدِّ الزاي أَبو جعفر، وشيبة، ونافع، والأَعرج، وعاصم، والحسن. وقرَأَ أَبو عمرو وأَهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي. وروى هارون عن أَبي عمرو [يشأ يُنزِّل] بالياءِ فيهما. والخضوع للدلالة في الآية المَنزَّلة كان يترتب بأَحد وجهين: إما بخوف هلاك في مخالفة الأَمر المقترن بها كنَتْق الجبل على بني إسرائيل، وإمَّا أَن تكون من الوضوح بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس، وكلٌّ

---

(١) قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يُبَيَّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراءِ واللام والميم والواو والياءِ، ويقلبان ميماً عند الباءِ، ويكونان من الخياشيم، أي لا يُبَيَّنان فيما عدا ذلك، وعلى ذلك لا تجوز قراءة إظهار النُّون من (سين)؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق.

(٢) البيت في الديوان، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، وذكره في (اللسان ـ بَخَع)، قال: بَخَع نفسه يَبْخعها بَخْعاً وبُخُوعاً: قَتَلَهَا غيظاً أو غمّاً. ونَحَتْه: عَدلَته وصرفته وأَبعدته عن يديه، يريد: نَحَّته فخفف.



هذين لم يأت به نبيٌّ، ووجه ذلك ما ذكرناه، وهو توجيهٌ منصوص للعلماءِ. وقرأ طلحة: [فَتَظَل أَعْنَاقُهُم]، وهو المراد في قراءَة الجمهور، وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل[١]. وقوله تعالىٰ: (أَعْنَاقُهُم) يحتمل تأويلين: أَحدهما ـ وهو قول مجاهد، وابن زيد، والأَخفش ـ أَن يريد: جماعاتهم، يقال: «جاءَ في عُنُق من الناس» أَي جماعة، ومنه قول الشاعر:

أَنَّ الْعِـــــرَاقَ وَأَهْلَـــــهُ عُنُـــقٌ إِلَيْـــكَ فَهَيْـــتَ هَيْتَـــا[٢]

وعليه حُمل قول أَبي مِحْجن:

. . . . وأَكْتُـمُ السِّـرَّ فيـهِ ضَـرْبَـةُ الْعُنُـقِ[٣]

ولهذا قيل: «عُنُق رقبة»، ولم يُقَل: «عُنُق عُنُق» فراراً من الاشتراك، قاله الزهراوي.

والتأْويل الآخر أَن يريد بـ «الأَعْنَاقِ» الجارحة المعلومة، وذلك أَن خضوع العُنُق

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «صواب أن تعطف على مجزوم الجزاءِ بـ (فَعَل)؛ لأن الجزاءَ يصلح في موضع فَعَل يَفْعَل، وفي موضع يَفْعَل فَعَل، ألا ترى أنك تقول: إن زُرْتَني زُرْتك وإن تزرني أَزرك، والمعنى واحد؟ قال تبارك وتعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، فرَدَّ يَفْعَل عَلَى فعَلَ، وقال الشاعر ـ وهو قعنب بن أُم صاحب:

إِنْ يَسْمَعُــوا سُبَّـةً طَـارُوا بِهَـا فَـرَحـاً مِنِّي ومَـا يَسْمَعُـوا مِـنْ صَالِـحٍ دَفَنُـوا

فرَدَّ الجواب بفعَل وقبله يَفْعَل».

(٢) جاء في (اللسان ـ عنق): «جاء القوم عُنُقا عُنُقا، أي طوائف، وقال الأزهري: إذا جاءوا فرقاً كل جماعة منهم عُنُق، قال الشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلِـــغْ أميـــرَ الْمُـــؤمِنِيـ ـــنَ أخَـــا الْعِـــراقِ إذَا أتَيْتَـــا
أنَّ العِـــــرَاقَ وأهْلَـــــه عُنُـــقٌ إلَيْـــكَ فَهَيْـــتَ هَيْتَـــا

أراد أنهم أقبلوا إليك بجماعتهم، وقيل: هم مائلون إليك ومنتظروك».

(٣) هذا عجز بيت، وهو واحد من أبيات افتخر بها عبيد بن أبي محجن عند معاوية، وهي:

لا تَسْـأَلِ النَّـاسَ مـا مَـالـي وكَثْـرَتُـهُ وسائِلِ القَوْمَ: ما حَزْمي وما خُلُقي
القَـوْمُ أعْلَـمُ أنِّـي مِـنْ سَـرَاتِهِـمُ إذا تَطِيـشُ يَـدُ الـرِّعْـدِيـدَةِ الْفَـرَق
قَـدْ أرْكَـبُ الهَـوْلَ مَسْـدولاً عَسَـاكِـرُهُ وأكْتُـمُ السِّـرَّ فيـهِ ضَـرْبَـةُ العُنُـقِ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن العُنُق هنا من نفس المعنى الموجود في الشاهد السابق، والذي يبدو لي أن العُنُق هنا بمعنى الجارحة المعروفة.

والرقبة هو علامة الذِّلة والانقياد، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا الـرِّجَـالُ رَأَوْا يَـزِيـدَ رَأَيْتَهُـمْ   خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ[(١)]

فمعنى هذا التأويل أَنْ نتكلم على قوله: (خَاضِعِينَ)، كيف جُمع جَمْع من يعقل؟ وذلك متخرج على نحويْن من كلام العرب: أَحدهما أَن الإِضافة إِلى من يعقل أَفادت حُكْمَه لمن لا يعقل، كما تفيد الإِضافة إِلى المؤنث تأْنيث علامة المذكر، ومنه قول الأَعشى:

. . . .   كما شَرِقَتْ صدْرُ الْقَنَاةِ منَ الدَّمِ[(٢)]

وهذا كثير.

والنحو الآخر أَن تكون «الأَعناقُ» لمَّا وُصفت بفعل لا يكون إِلاَّ مقصود البَشَر ـ وهو

---

(١) البيت للفرزدق، وهو من قصيدة له يمدح فيها آل المهلب، واستشهد به في (اللسان ـ خَضَع) قال: «وقوم خُضُع الرِّقَاب: جمع خَضُوع بمعنى خاضع، قال الفرزدق: وإذا الرجال... البيت». ومعنى «خُضُع الرقاب»: مطأطئوا الرؤوس ذلاً. و«نواكس الأبصار» كناية عن الإجلال والتَّهيُّب، وهو مخالف للفصاحة عند البيانيين لأنه جمع ناكسة لا ناكس. قال في (اللسان ـ نَكَس): «نكَس رأسه إذا طأطأه من ذُلٍّ، وجُمع في الشِّعر على نواكس وهو شاذ، وأنشد الفرزدق: وإذا الرجال... البيت. قال سيبويه: إذا كان الفعل لغير الآدميين جُمع على فواعل؛ لأنه لا يجوز فيه ما يجوز في الآدميين من الواو والنون في الاسم والفعل فضارع المؤنث». وقد ذكر ابن عطية تخريجين لهذا.

(٢) هذا عجز البيت، وهو بتمامه:

وَتَشْـرَقُ بـالقَـوْلِ الَّـذي قَـدْ أذَعْتَـهُ   كَمَا شَـرِقَتْ صدْرُ الْقَنَـاةِ مِنَ الـدَّمِ

وقد استشهد به صاحب (اللسان ـ شرق)، وهو في الديوان من قصيدة يهجو بها عمير بن عبد الله بن المنذر بن عَبدان حين جمع بينه وبين جهنام الشاعر ليهاجيه، يقول: وحتَّى تشرق بما أذعت من القول، كما يشرق مقدم القناة بالدم، وصدر القناة هو أعلاها، والشاهد فيه أنه أنث الفعل (شرق) بالتاءِ مع أن الفاعل وهو (صدْر) مذكَّر، ولكنه لما أُضيف إلى القناة وهي مؤنثة لحقته تاءُ التأنيث بالفعل، فكأنه جعل الفعل للقناة لا لصدرها، وابن عطية يقيس على ذلك أنه يجوز أن تخلع على غير العاقل صفة العاقل وحكمه فتقول: «أعناقهم خاضعين» بدلاً من «خاضعة» وذلك لأن الأعناق أُضيفت إلى ضمير العاقل. ومثل البيت قول الراجز:

لمَّا رأَى مَتْنَ السَّمَاءِ أبْعَدَتْ

فقد أنَّث الفعل (أبعدت) بالتاءِ مع أن الضمير يعود على مذكر وهو (مَتْن)، ولكن لما أُضيف المَتْن إلى مؤنث وهو السماءُ جاز أن ينظر الشاعر إلى المضاف إليه وأن يتناسى المضاف، وكأنه قال: لما رأى السماءَ أبعدت.



الخضوع ـ؛ إذ هو فعل يتبع أمراً في النفس جمعت فيه جمع من يعقل، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[١]، وقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[٢]، وقرأ ابن أبي عبلة: [لَهَا خَاضِعَةً].

ثم عنَّف الكفار، ونبَّه على سوءِ فعلهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ الآية. وقوله تعالىٰ: (مُحْدَثٍ) يريد: مُحْدَث الإتيان، أي: مجيءُ القرآن للبشر كان مجيءَ شيءٍ بعد شيءٍ، وقالت فرقة: يحتمل أن يريد بـ «الذِّكْر» محمداً ﷺ، كما قال في آية أُخرى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا﴾[٣]، فيكون الوصف بالمُحْدَثِ متمكناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أفصح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ الآية وعيد بعذاب الدنيا، والآخرة، ويُقَوِّي أنه وعيد بعذاب الدنيا؛ أن ذلك قد نزل بهم، كبدر وغيرها.

ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإلٰه أعظم كفرهم، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة، ويعرضون عن الذكر في ذلك؛ نبَّه على قدرة الله تعالىٰ، وأنه الخالق المنشىءُ الذي يستحق العبادة بقوله: ﴿أو لم يروا إلى الأرض﴾ الآية. و«الزَّوْجُ»: النوع والصنف، و«الكريم»: الحسن المُتْقن، قاله مجاهد وقتادة، ويراد الأشياءُ التي بها قوام الأُمور والأغذيةُ والنباتاتُ، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن إنبات، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[٤]. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن صار إلى الجنة فهو كريم، ومن صار بضد ذلك فهو لئيم. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر. ثم توعَّد بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يريد: عزَّ في نقمته من الكفار وَرَحِمَ مُؤمني كل أُمَّة، وقال نحو هذا ابن جريج، وفي لفظة (ٱلرَّحِيم) وعْدٌ.

---

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت).

(٢) من الآية (٤) من سورة (يوسف).

(٣) من الآيتين (١٠، ١١) من سورة (الطَّلاق).

(٤) الآية (١٧) من سورة (نوح).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

التقدير: واذكر إذ نادى ربك موسى. وسوقُ هذه القصة تمثيلٌ لكفار قريش لتكذيبهم محمداً ﷺ، و(أَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب، بمنزلة (أي)، ويجوز أن تكون غيرها، وهي في موضع نصب[1]، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، أي: قل لهم، فجمع في هذه العبارة من المعاني نَفْيَ التقوى عنهم وأَمْرَهُم بالتقوى، وقرأ الجمهور: (يَتَّقُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأ عبد الله بن مسلم، وحماد بن سلمة، وأبو قُلابة: (تَتَّقُونَ) بالتاءِ من فوق، وعلى معنى: فقل لهم.

ولِعِظَم قُوَّة فرعون وتألُّهه وطول مُدَّته وما أُشربت القلوب من مهابته، قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقرأ جمهور الناس: (وَيَضِيقُ) بالرفع، و(يَنْطَلِقُ) كذلك. وقرأ الأعرج، وطلحة، وعيسى ذلك بالنصب فيهما، فقراءَة الرفع هي إخبارٌ من موسى عليه السلام بوقوع ضيق صدره، وعدم انطلاق لسانه، ولهذا رجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة، وقراءَة النصب تقتضي أَن ذلك داخل تحت خوفه، وهو عطف على (يُكَذِّبُونِ). وكان في خلق موسى عليه السلام حِدَّة، وكانت في لسانه حبْسة بسبب الجمرة في طفولته، وحكى أَبو عمرو عن الأَعرج أنه قرأ بنصب [وَيَضِيقَ] وبرفع [يَنطَلِقُ]، وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب ألفاظاً محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدره لم ينطلق اللسان، وقد قال عليه السلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾[2]، فالراجح قراءَة الرفع. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

---

(١) على أنها مصدرية، كما قال أبو حيان في البحر.

(٢) الآية (٢٧) من سورة (طه).



معناه: يُعينني ويُؤازرني، وكان هارون عليه السلام وزيراً فصيحاً واسع الصدر، فحذف بعض المراد من القول، إذ باقيه دالٌّ عليه.

ثم ذكر موسى عليه السلام خوفَ القبط من أَجل ذَنْبِهِ، وهو قتله الرجل الذي وكزه، قال قتادة ومجاهد والناس: فخشي أَن يستقاد منه، فقال الله عزَّ وجلَّ له: (كَلاَّ) ردًّا لقوله: (إِنِّي أَخَافُ)، أَي: لا تخف ردًّا لذلك فإِني لم أُحَمِّلك ما حُمِّلت إلا وقد قضيتُ بظهورك ونصرك. وأَمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط، لأَن هارون ليس بمكلَّم بإِجماعٍ، ولكن قال لموسى: (ٱذْهَبَا) أَي أَنت وأَخوك، و«الآيات» تعم جميع ما بعثهما الله تعالىٰ به، وأَعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز، [وَٱلْيَد ٱلْبَيْضَاءُ][1]، وبالآيتين تحدَّى موسى عليه السلام فرعون، ولا خلاف في أَن موسى عليه السلام هو الذي حمله الله تبارك وتعالىٰ أَمر النبوة كلها، وأَن هارون عليه السلام كان نبيًّا رسولاً معيناً وزيراً. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إما أَن يجعل الاثنين جمعاً، وإِما أَن يريدهما والمبعوث إِليهم وبني إِسرائيل، وقوله: (مُسْتَمِعُونَ) على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالىٰ، وصيغة (مُسْتَمِعُونَ) تُعْطي أهتبالاً بالأَمر ليس في صيغة «سامعون»، وإِلاَّ فليس يوصف الله تبارك وتعالىٰ بطلب الاستماع، وإِنما المقصد إِظهار التَّهَمُّم ليعظم أُنس موسى عليه السلام، أَو تكون الملائكة ـ بأَمر الله إِيَّاها ـ تستمع.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو أَن العرب أَجرت «الرسول» مجرى المصدر في أَن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث، ومن ذلك قول الهذلي:

أَلِكْنــي إِلَيْهَـــا وَخَيْــرُ ٱلــرَّسُــو ... لِ أَعْلَمَهُــمْ بنَــوَاحِــي الْخَبَــرْ[2]

---

(١) زيادة يقتضيها المقام وسلامة العبارة حيث قال ابن عطية بعدها: «وبالآيتين تحدى. .» والآيات التي بعث الله بها موسى هي: (العصا، واليد والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، والنقص من الثمرات) مع وجود اختلاف بين العلماء في بعضها.

(٢) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة قالها حين بيَّت ناسٌ من بني سُلَيْم ناساً من هذيل فقتلوهم، قال شارح أشعار الهُذَلِيِّين: «أَلِكْني: أبلغ عنِّي ٱلْوكي، و«الألوك» الرسالة، كما تقول: أعْكِمْني، أي أعني على عِكْمي واعكُم معي، وخير الرسول: يريد الرُّسل، والرسول في موضع جمع، كقولك: «كثير الدينار والدرهم»، وقوله: بنواحي الخبر، أي: حروف الكلام وجوانبه وما أشكل منه». وقال القرطبي: أَلِكْني إليها: أرسلني إليها.



وقول الشاعر وإن كان مُوَلَّدا:

إنَّ الَّتـــي أَبْصَـــرْتُهَـــا سَحَـــراً تُكَلِّمنـــي رسُـــولُ[1]

وقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: سرِّح، فهو بمعنى الإرسال الذي هو بمعنى الإِطلاق، كما تقول: أرسلت الحجر من يدي.

وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: أَحدهما أن يرسل بني إسرئيل ويزيل عنهم ذُلَّ العبودية والغلبة. والثاني أن يؤمن ويهتدي. وأَمر بمكافحته ومقاومته في الأَول، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره، وبُعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط، هذا قول بعض العلماءِ.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ هذا على جهة المنِّ عليه والاحتقار، أَي: ربَّيْنَاكَ صغيراً، أَوْ لم نقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ وقرأ جمهور القراءِ: ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ بضم الميم، وقرأَ أَبو عمرو: [عُمْرِكَ] بسكونها.

ثم قرَّره على قتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعلة ـ بفتح الفاءِ ـ المرَّة من الفعل، وقرأَ الشَّعبي: [فِعْلَتَكَ] بكسر الفاءِ، وهي هيئة الفعل، وقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل ثلاثة أَوجه: أَحدهما أن يريد: وقتلتَ القبطي وأَنت في قتلك إياه من الكافرين؛ إذْ هو نفس ولا يحل قتله، قاله الضحاك. أَو يريد: وأَنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه، قال ابن زيد: وهذان بمعنى واحد في حق اللفظ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر. والثاني أَن يكون بمعنى الهزؤ، أَي: وأَنت على هذا الدين وأَنتَ من الكافرين بزعمك. قاله السدي. والثالث ـ وهو قول الحسن ـ أَن يريد: وأَنتَ

---

(١) الشاهد أن (رسول) هنا جاء في صفة المؤنث ولم تلحقه علامات التأنيث. ومثل هذين الشاهدين قول كُثَيِّر عزَّة:

لقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ، ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِـــرٍّ وَلا أرْسَلْتُهُـــمْ بِـــرَسُـــول

لأن الرسول هنا بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر كما قال في اللسان، ومن الشواهد أيضاً في هذا المقام قول العباس بن مرداس:

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي خُفَـــافـــاً رَسُـــولاً، بَيْـــتُ أهْلِـــكَ مُنْتَهَـــاهَـــا؟

فإنه يعني بقوله: «رسولاً»: رسالةً، ولذلك أنَّث الهاء في قوله: منتهاها.

من الكافرين الآن، يعني فرعون: بالعقيدة التي يكون بيَّنها، فيكون الكلام مقطوعاً من قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾، وإنما هو إخبارٌ مبتدأٌ أنه كان من الكافرين، وهذا التأويل أَيضاً يحتمل أَن يريد به كُفْرَ النعمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إِلى فرعون نبيًّا، أَحد عشر عاماً غير أَشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

القائل هو موسى عليه السلام، والضمير في قوله: (فَعَلْتُهَا) لقتله القبطي، وقوله: (إِذاً) صلة في الكلام، وكأَنها بمعنى: حينئذ[1]، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأَنَّ وَكْزتي إِيَّاه تأْتي على نفْسه، وقال أَبو عبيدة: معناه: من النَّاسِين لذلك، ونزع لقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[2]، وفي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: [وأَنا من الجاهلين]، ويشبه أَن تكون هذه القراءَة على جهة التفسير[3].

وقوله: [حُكْماً] يريد النبوة وحكمتها، وقرأَ عيسى: [حُكُماً] بضم الحاءِ والكاف، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ درجة ثانية للنبوة، فرُبَّ نَبِيٍّ ليس برسول.

---

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وليس بصلة، بل هي حرف معنى، وقوله: «وكأنها بمعنى حينئذ» ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى، إذ لا يذهب أحدٌ إلى أنَّ (إذاً) ترادف من حيث الإعراب (حينئذ)».

(٢) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة)، وذلك أن المتأولين قالوا: إنَّ [تَضِلَّ] بمعنى «تَنْسَى» بدليل قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، والتَّذكير يكون للناسي.

(٣) وقال الزمخشري: «من الفاعلين فعل أُولي الجهل، كما قال يوسف لإخوته: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾».



ثم حاجَّه عليه السلام في منِّه عليه بالتربية وترْك القتل بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، واختلف الناس في تأْويل الكلام، فقال قتادة: هذا منه على جهة الإِنكار أَن تكون نعمة، كأَنه قال: أَو يَصحُّ لك أَن تعد علي نعمة ترك قتلي من أَجل أَنك ظلمتَ بني إِسرائيل وقتلتهم؟ أَي: ليست بنعمة؛ لأَن الواجب كان أَلاَّ تقتلني وأَلاَّ تقْتلهم، وأَلاَّ تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك. وقرأَ الضحاك: [وتلك نعمة مالَك أَن تَمُنَّها]، وهذه قراءَة تؤيد هذا التأْويل، وقال الأَخفش: قيل: الواو، أَلف الاستفهام محذوفة، والمعنى: أَوَ تلك؟ وهذا لا يجوز إِلا إِذا عادَلَتْها «أَمْ» كما قال:

تَــرُوحُ مِــنَ الْحَــيِّ أَمْ تَبْتَكِــرْ؟ ....[1]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تكلُّف[2]، وقولُ موسى عليه السلام تقريرٌ بغير أَلف، وهو صحيح كما قال قتادة، والله المعين.

---

(١) القائل هو امرؤ القيس، وهذا صدر بيت من قصيدة قالها يصف فرسه وخروجه إلى الصيد، والبيت بتمامه:

تَــرُوحُ مِــنَ الْحَــيِّ أَمْ تَبْتَكِــرْ ... ومــاذَا عَلَيْــكَ بِــأَنْ تَنْتَظِــرْ؟

والرواح: السَّير في العشي، والابتكار: الخروج مبكِّراً، يقول: أتروح في آخر النهار أم تخرج مبكراً؟ ولماذا تتعجل الذهاب؟ وماذا عليك لو انتظرت، فالانتظار خير لك؟ والشاهد حذف ألف الاستفهام في (تروح)، إذ أصْلها: أتَرُوحُ؟ والدليل هو وجود (أم) في الكلام.

(٢) قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام (أمْ)، ولكن الفراءَ قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكى: تُرى زيد منطلقاً؟ بمعنى: أتُرَى، وعلَّق عليُّ بن سليمان على كلام الفراءِ بقوله: إنما أخذه من ألفاظ العامة، وقال الثعلبي حكاية عن الفراءِ: إن الآية إنكار من موسى عليه السلام على طريق الاستفهام الذي حذفت ألفه، كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وقوله: ﴿فَهُمُ الْخَٰلِدُونَ﴾، وكقول الشاعر:

رَفَـوْنِـي وقـالـوا يـا خُـوَيْلِدُ لا تُـرَعْ ... فقُلْتُ وأَنْكَرْتُ الـوجـوهَ: هُمُ هُمُ؟

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لَــمْ أَنْــسَ يَــوْمَ الــرَّحِيــلِ وَقْفَتَهَــا ... وَجَفْنَهَــا مــن دُمُــوعهــا شَــرِقُ

وقَــوْلَهَــا والــرِّكَــابُ وَاقِفَــةٌ ... تَــرَكْتَنِــي هكــذا وَتَنْطَلِــقُ؟

قال القرطبي: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم (أم)، خلاف قول النحاس.



وقال السدي، والطبري: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة، كأَنه يقول: «نعم، وتربيتك نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدت غيري وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي»[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكلٍّ وَجْه ناحيةٌ من الاحتجاج، فالأَول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقْض كلامه، والثاني مُبْد مِنْ موسى عليه السلام أَنه منتصف من نفسه معترف بالحق، ومتى حصل أَحد المتجادليْن في هذه الرتبة، وكان حجيجه في ضدها غلب المنتصف بذلك، وكان قوله أَوقع في النفوس.

ولمَّا لم يُجْدِ فرعون ـ لعنه الله ـ هذا الطريق من تقريره على التربية وغير ذلك، رجع إِلى معارضة موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأَشياءِ، قال مكي: كما يستفهم عن الأَجناس، فلذلك استفهم بـ «ما»، وقد ورد له استفهام بـ «من» في موضع آخر[٢]، ويشبه أَنها مواطن، فأَجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبيَّن السامع منها أَنه لا مشاركة لفرعون فيها، وأَنها ربوبية السمٰوات والأَرض، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أَن موسى عليه السلام دعاه إِلى التوحيد، فقال فرعون عند ذلك: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإِغراءِ أَو التعجب من شنعة المقالة؛ إِذ كانت عقيدة القوم أَن فرعونَ ربُّهم ومعبودهم، والفراعنة قبله كذلك، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إِلى اليوم بقية، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فقال فرعون حينئذ ـ على جهة الاستخفاف ـ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وقرأَ جمهور الناس: [أَرْسَل] على بناءِ الفعل للفاعل، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تُظهر نقص فرعون، وتُبيِّن أَنه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إِلاَّ

---

(١) وهناك رأي ثالث قاله الضحاك، وهو أن الكلام خرج مخرج التبكيت، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي، فأيُّ نعمة لك عليَّ ؟ فأنت تَمُنُّ علي بما لا يجب أن تَمُنَّ به ؟

(٢) هو قوله تعالىٰ: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ ؟

مُلْك مصر من البحر إلى أَسوان وأَرض الإسكندرية، وفي قراءَة ابن مسعود وأَصحابه: [رَبُّ المَشارِقِ والمَغارِبِ وما بَيْنَهُمَا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

لما انقطع فرعون ـ لعنه الله ـ في باب الحجة رجع إلى الاستعلاءِ والتَغلب، وهذا أَبين علامات الانقطاع، فتوعَّد موسى عليه السلام حين أَعياه خطابه، وفي توعُّده بالسجن ضعف؛ لأَنه حارب طباعه مَعَه[1]، وكان ـ فيما روي ـ يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان لا يُمسك بوله. ورُوي أَن سجنه كان أَشد من القتل، إذ كان في مطبق من الأَرض لا ينطلق منه أَبداً، وكان مخوفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة دار [. . .] إلى اليوم[2].

وكان عند موسى عليه السلام من أَمر الله تبارك وتعالىٰ ما لا يروعه معه توعُّد فرعون، فقال موسى له على جهة التَلطُّف والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يتَّضح لك معه صدقي؟ أَفكنتَ تسجنني؟[3] فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أَثناءَه موضع معارضة، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ مِنْ يده، وكانت من عصي الجنة، وكانت عصا آدم عليه السلام، ورُوي أَنها كانت من ورق الريحان، وكانت عند شعيب عليه السلام في جملة عصي الأَنبياءِ عليهم السلام فأَعطاها لموسى عليه السلام عند رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دلَّت

---

(١) يريد أن فرعون خالف طبيعته في العنف والقتل مع موسى، ولهذا توعده بالسجن ولم يأمر بقتله مباشرة.

(٢) بين العلامتين [. . . .] كلمة غير واضحة.

(٣) قال الزمخشري: ﴿أو لو جئتك﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام، ومعناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيءٍ مبين؟ وقال الحوفي: هي واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير، والمعنى: أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أُسْجَن وأنا متلبِّس بها؟



على نُبوَّة موسى، وكان لها في رأسها شعبتان، فثمَّ كان فمُ الحيَّة.

والثعبانُ أَعظم ما يكون من الحيَّات، وقد ذكرنا فيما تقدم ما روي في عظم الحيَّات وغير ذلك من قصص هذه الآية.

ونزع موسى عليه السلام يده من جيبه فإذا هي تتلألأُ كأَنها قطعة من الشمس، فلما رأَى فرعون ذلك هالَه، ولم يكن له فيه مدفع، غير أَنه فزع إِلى رميه بالسِّحر، وطمِع ـ لِعُلُوِّ علم السِّحر في ذلك الوقت وكثرته ـ أَن يكون فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام، فأَوهم قومه وأَتباعه أَن موسى عليه السلام ساحر، وانتصب (حَوْلَه) على الظرف وهو في موضع الحال، أَي: كائنين حوله، فالعامل فيه محذوف، والعامل فيه هو الحال حقيقة، والناصب له (قَالَ) لأَنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجرِّ، نحو مررت بهند ضاحكة.

ثم استشارهم في أَمره وأَغراهم به في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾[1]، فأَشاروا عليه بتأْخير أَمره وأَمر أَخيه وجمْع السحرة لمقاومته، ورُوي أَنهم أَشاروا بسجنه، وهو كان الإِرجاءَ عندهم، «والإِرجاءُ»: التَّأْخير، ولم يشيروا بقتله لأَن حجَّته نيِّرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبينة، فخشوا الفتنة، وطمعوا أَن يُغلب بحجَّة تقنع العوام. و«الحاشر»: الجامع. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، وهو بناءٌ للمبالغة، وقرأَ عاصم أَيضاً والأَعمش: [بكل ساحر].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

اليوم هو يوم الزينة، ويقال: يوم كسر خليج النيل، فهو يوم الزينة على وجه الدهر

---

(١) قال المفسرون: أوهم قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ليقوِّي تنفيرهم عنه؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نبتوا فيه. وقد استأمرهم فرعون واستشارهم فيما يفعل مع موسى وذلك لما حلَّ به من الحيرة والدهشة، وانحط عن مرتبة أُلوهيته إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم في أمره فيأمرونه، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً.

بمصر، وقال ابن زيد: إن هذا الجمع كان بالإسكندرية.

وقوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس معناه نتبعهم في السِّحْرِ، إنما أراد ما معناه: نتَّبعهم في نصرة ديننا وملَّتنا، والإبطال على معارضها.

وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿أَئِنَّ لَنَا﴾ بألف الاستفهام، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة: [إن لنا] على الإيجاب، وقرأ عيسى: [نَعِم] بكسر العين.

والتقريب الذي وعدهم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاءِ الذي طلبوه، والقرب من الملك الذي كان عندهم إلـٰهَهُم. واختلف الناس في عدد السحرة، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل، وهي كانت بلاد السِّحر كالفرما وغير ذلك، ومعظمهم كان من الفرما والجبال، والعصي كانت أَوقار الإبل[1].

وقوله: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أَحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما تقول: بالله لا أفعل كذا وكذا، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون ـ إذ كانوا يعبدونه ـ والتبرُّك باسمه، كما تقول ـ إذا ابتدأت بعمل شغل ـ: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحو هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحيَّة حين أَلقى موسى عليه السلام عصاه، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر، وقد ذُكر في مواضع أُخر، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخييلهم في حبالهم وعصيهم أنها تسعى بقصد. ثم إن الحيَّة التي خلق الله من العصا التقمت تلك الحبال والعصي عن آخرها، وأَعدمها الله تعالىٰ في جوفها، وعادت العصا إلى حالها حين أَخذ

---

(١) الأوقار: جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل ـ يقول: إن العصيَّ كانت من الكثرة بحيث لا تحملها إلا الإبل الكثيرة.

موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بإذن الله تبارك وتعالىٰ.

وقرأ جمهور القراء: [تَلَقَّف] بفتح التاءِ خفيفة واللام وشد القاف، وقرأ حفص عن عاصم: (تَلْقَف) بسكون اللام وتخفيف القاف، وروى البزِّي وابن فليح[1] عن ابن كثير بشد التّاءِ وفتح اللاَّم وشدِّ القاف، ويلزم على هذه القراءَة إذا ابتدأ أَن يجلبَ همزة الوصل، وهمزةُ الوصل لا تدخل على الأَفعال المضارعة، كما لا تدخل على أَسماء الفاعلين[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يكذبون معه وبسببه في قولهم: إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله، والإفك: الكذب.

ثم إن السحرة لما رأَوا العصا خالية من صنعة السِّحر، ورأَوا فيها بَعْدُ من أَمر الله تعالىٰ ما أَيقنوا أَنه ليس في قوة البشر أَذعنوا، ورأَوا أَن الغنيمة هي الإِيمان والتمسك بأَمر الله عزَّ وجلَّ، فسجدوا كلهم لله تعالىٰ مُقِرِّين بوحدانيته وقدرته، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام، وصرحوا بأَن ذلك على أَيديهما؛ لأَن قولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يعني ذلك، فلم يكرروا البيان في قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ إلاَّ لما ذكرناه.

فلما رأَى فرعون والملأُ إيمان السحرة، وقامت الحجَّة بإيمان أَهل علمهم ومظنَّة نصرتهم، وقع فرعون ـ لعنه الله ـ في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة بهذه الحجة الأُخرى، فوقفهم مُوَبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة؛ لأَن أَحد احتمالاتها أَنهم لو طلبوا إذنه في ذلك أَذِنَ. ثم توعدهم بقطع الأَيدي والأَرجل من خلاف، وبالصلب في جذوع النخل، فقالوا له: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أَي: لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالىٰ ورضوانه[3]، ورُوي أَنه أَنفذ فيهم ذلك

---

(١) في الأصول: «البزِّي وفليح»، والتصويب عن كتب القراءات وتفسير البحر المحيط الذي نقل عبارة ابن عطية بنصها ليعقب عليها بالتعقيب التالي.

(٢) قال في البحر المحيط تعقيباً على ذلك: «كأنه تخيل أنه لا يمكن الابتداءُ بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل، وليس ذلك بلازم، وكثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف والوقف مخالفاً للوصل، ومن له تمرُّن في القراءات عرف ذلك».

(٣) يقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارورة، بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة لخداش بن زهير: =



الوعيد وصلبهم على النيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَصبحوا سحرة وأَمسوا شهداءَ»، وقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: من القبط وصنيعتهم، وإلاَّ فقد كانت بنو إسرائيل آمنت. وقرأَ الناس: [أَنَّا] بفتح الأَلف، وقرأَ أَبان بن تغلب: [إِنَّا] بكسر الأَلف بمعنى أَن طمعهم إِنما هو بهذا الشرط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم إِن الله عزَّ وجلَّ لما أَراد إظهار أَمره في نجاة بني إِسرائيل وغرق فرعون وقومه، أَمر موسى عليه السلام أَن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأَخبره أَنهم سيُتَّبعون، وأَمره بالسير تجاه البحر، وأَمره بأَن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأَموالهم، وأَن يكثروا من أَخذ أَموالهم كيفما استطاعوا، هذا ما رواه بعض المفسرين، وأَمره باتخاذ جراءِ الزاد، فأَمره أَن اتخِذْه فطيراً لأَنه أَبقى وأَثبت، وروي أَن الحركة أَعجلتهم عن اتخاذ جراءِ الزاد، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فترك الطريق إِلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إِسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام: كذا أُمرت، فلما أَصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إِسرائيل خرج في أَثرهم، وبعث إِلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أَنه لحقه ومعه ستمائة أَلف أَدهم من الخيل حاشى سائر الأَلوان، وروي أَن بني إِسرائيل كانوا ستمائة أَلف وسبعين أَلفاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والله أَعلم بصحته، وإِنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أَن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إِسرائيل، وأَن فرعون تبعه بأَضعاف ذلك العدد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مع فرعون أَلف جبَّار، كلهم عليه تاج، وكلهم أَمير خيل.

= أَظَبْيٌ كـانَ أُمُّـكَ أمْ حمَـارُ ... فَـإنَّـكَ لا يَضُـورُكَ بعْـدَ حَـوْلٍ

=



و«الشِّرذمة»: الجمع القليل المحتقر، وشرذمة كل شيءٍ بقيته الخسيسة، وأَنشد أَبو عبيدة:

* مجدِّين في شراذِمِ النِّعَالِ *

وقال الآخر:

جَـاءَ الشِّتَـاءُ وقَمِيصِـي أَخْـلاقْ   شَـرَاذِمٌ يَضْحَـكُ مِنْهَـا التَّـوَّاقْ[1]

وقوله: (لَغَائِظُونَ) يريد: بخلافهم الأمر وبأَخذهم المال عارية وهروبهم منهم تلك الليلة على ما روي، وقال أَبو حاتم: وقرأَ من لا يؤخذ عنه: [لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ]، وليست هذه موقوفة[2].

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [حَذِرُونَ]، وهو جمع (حَذِر)، وهو المطبوع على الْحَذَرِ وهو هنا غير عامل، وكذلك هو في قول ابن أَحمر:

هَـلْ أُنْسَـأَنْ يَـوْمـاً إِلـى غَيْـرِهِ   إِنِّـي حَـوَالِـيٌّ وإِنِّـي حَـذِرْ[3]

واختُلف في عمل (فَعِل)؛ فقال سيبويه: إنه عامل، وأَنشد:

---

(١) البيت في (اللسان ـ خَلَق وشَرْذَم) ـ عن ابن بري، وفي (تَوَقَ) عن الأصمعي، والثوب الأخلاق يصفون به الواحد إذا صار خَلَقاً كلُّه، كأن كل قطعة فيه خَلَقٌ، فجمعه باعتبار أجزائه، ومثل ذلك قولهم: «أرضٌ سَباسِب، وبُرْمة أعشار، وحَبْلٌ أَرْمام»، والشراذم جمع شرذمة، وهي الجماعة القليلة من الناس، وثياب شراذم: أخلاق متقطعة، وثوب شراذم: قطع. ويقال: نَفْسٌ تواقة: مشتاقة، وقيل: التَّوَّاق اسم ابن الشاعر، ويروى البيت بالنون، ويكون المعنى حينئذ: الرجل الذي يروض الأمور ويصلحها، قاله في الصحاح، هذا وقد سبق الاستشهاد به.

وقال تعالىٰ: (قَلِيلُونَ) لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة، فلما جمع قيل: (قَلِيلُونَ)، ومثل ذلك: حيٌّ واحدٌ، وحيٌّ واحدون، قال الكميت:

فَـرَدَّ قَـوَاصِـيَ الأَحْيَـاءِ مِنْهُـمْ   فَقَـدْ صَـارُوا كَحَـيٍّ وَاحِـدِينَـا

(٢) يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله ﷺ، قال ذلك أبو حيان الأندلسي، وفي بعض الأصول: «وليست هذه موثوقة».

(٣) البيت في (اللسان ـ حَوَل)، استشهد به على أن الحواليَّ هو الجَيِّد الرأي ذو الحيلة، ونسبه لابن أحمر أيضاً، لكنه قال: (ويقال إنه للمَرَّار بن مُنْقذ العدوي)، والرواية فيه «أَوْ تَنْسأَنْ يَوْمِي»، وابن أحمر هو عمرو بن أحمر بن الغمرَّد بن فَرَّاص، كان أعور، وعُمِّر تسعين سنة ثم سقي بطنه فمات. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (حَذِر) غير عامل على خلاف ما يراه سيبويه، والحَذِرُ ـ كما في اللسان ـ هو المتيقظ المتحرر الشديد الحذر والفزع.



حَــذِرٌ أُمُــوراً لا تَضِيــرُ وآمِــنٌ ... مــا لَيْسَ مُنْجِيَــهُ مِنَ الأَقْــدَارِ(١)

وادَّعى اللاحقيُّ تدليس هذا البيت على سيبويه. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (حَاذِرُونَ) وهو الذي أَخذ يحذر(٢)، وقال عباس بن مرداس:

وإِنِّــي حــاذِرٌ أَنْمــي سِــلاحِـي ... إِلــى أَوْصــالِ ذيَّــالٍ صنيــع(٣)

وقرأ ابن أَبي عمَّار(٤)، وسُميط بن عجلان: [حَادِرُونَ] بالدال غير منقوطة، من قولهم: «عيْن حَدِرة» أَي: ممتلئة، فالمعنى: ممتلئون غيظاً وأَنفة(٥).

والضمير في قوله تعالىٰ: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ) عائد على القبط. و«الجنَّات والعيون» بحافتي النيل من أَسوان إِلى رشيد، قاله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وغيره. و«الكُنُوز»

---

(١) استشهد سيبويه بهذا البيت على أن (حَذِر) تعمل مثل (حاذر)، وقد ذكر ذلك في اللسان، والبيت في خزانة الأدب، وفي العَيْني حيث قال: «قائله أبو يحيى اللاحقي»، وساق خبر أنه مصنوع، وأنشده ابن الشجري دون أن ينسبه، وروايته هو والعيني كما هنا: «لا تَضير»، أي: لا تَضُرُّ، ورواية الكتاب لسيبويه، واللسان: «لا تُخَافُ»، وقد رُوي عن اللاحقي أنه قال: سألني سيبويه عن شاهد في تعدِّي (فَعَل) فعملت له هذا البيتَ. وإعمالُ فَعِل وفعيل مذهب لسيبويه؛ لأنهما عنده محولان من (فاعل) المتعدي لإرادة المبالغة، فيعملان عمله قياساً على (فَعُول وفَعَّال)، وعورض سيبويه في هذا لأنهما بناءان لما لا يتعدى مثل كريم ولئيم وبَطِرٍ وأَشِرٍ. ومعنى البيت أن هذا الإنسان جاهل قليل المعرفة وأنه يحذر ما لا ينبغي أن يُحذر أو يُخاف منه، ويأمن ما لا يصح أن تُؤمن.

(٢) يريد أن يقول: إن معنى (حَذِر) متيقظ، وفي خِلْقته وطبيعته الحذر. ومعنى (حاذر) مُسْتَعِدٌّ أخذ يحذر، أي: بدأ يتعلم الحذر في المستقبل لا في قصته، وحكى النحاس عن أبي عبيدة أنهما بمعنى واحد، وهو قول سيبويه الذي استشهد عليه ببيت ابن أحمر.

(٣) العباس بن مرداس شاعر وفارس، أسلم قبل فتح مكة، وحضر مع النبي ﷺ يوم الفتح في تسعمائة ونيِّف من قومه بني سُلَيْم، وكان يرجع إلى بلاده ولا يقيم في مكة ولا المدينة. والبيت في (اللسان ـ ذَيَلَ)، ذكره شاهداً على أن (ذَيَّال) معناها: طويل الذَّيْل، ومعنى «أنمي سلاحي»: أزيده وأمُده، يقال: أنْميت الشيءَ ونَمَّيْته: جعلته نامياً. والأوصال: المفاصل. والذَّيَّال قد يقال للمختال المتبختر في مشيه من الخيل، وقد يقال للرجل إذا تبختر فَجَرَّ ذيله وراءه. والشاهد أن (حاذر) هنا هو الذي يأخذ في الحذر.

(٤) في الأصول: «ابن أبي عمارة»، والتصويب عن «البحر المحيط» و«القرطبي»، قال القرطبي: «حكاها المهدوي عن ابن أبي عمَّار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان».

(٥) وقال ابن خالويه: الحادر: السمين القويُّ الشديد، يقال: غُلامٌ حدِرٌ بدِرٌ، وقال صاحب اللوامح: حَدِر الرَّجل: قوي بأسه، يقال: رجل حَدِرٌ بَدِرٌ إذا كان شديد البأس في الحرب، وقال الشاعر:

أُحِــبُّ الصَّبِــيَّ السُّــوءَ مِــنْ أجْــلِ أُمِّــهِ ... وأبغضــهُ مِــنْ بُغْضِهَــا وهــو حَــادِرُ



قيل: هو إِشارة إِلى الأَموال التي خربوها، قال مجاهد: لأَنهم لم ينفقوها قط في طاعة، وقيل: هي إِشارة إِلى كنوز المقطَّم ومطالبه، وهي باقية إِلى اليوم. و«المقام الكريم» قال ابن لَهيعَة: هو الفيُّوم، وقيل: يعني به المنابر، وقيل: مجالس الأُمراءِ والحكام، وقال الحسن: المجالس الحسان، وقرأَ الأَعرج وقتادة بضم الميم، من: أَقام[1].

وتوريث بني إِسرائيل يحتمل مقصدين: أَحدهما أَن الله قد ورَّثهم هذه الضفة من أَرض الشام، والآخر أَنه ورَّثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر، قاله الحسن، على أَن التواريخ لم تتضمن ملك بني إِسرائيل في مصر، و[مُشْرِقين] معناه: عند شروق الشمس، أَي: حين دخلوا فيه، وقيل: معناه: نحو الشرق، وقرأَ الحسن: [فاتَّبَعُوهُم] بصلة الأَلف وشدِّ التاءِ[2].

فلما لحق فرعونُ بِجَمْعه جمْعَ موسى عليه السلام وقُرب منهم، ورأَت بنو إِسرائيل العدوَّ القويَّ وراءَهم والبحر أَمامهم ـ ساءَت ظنونهم، وقالوا لموسى عليه السلام ـ على جهة التَّوبيخ والجفاءِ ـ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أَي: هذا دأْبك، فردَّ عليهم قولهم وزَجرهم، وذَكَر وعْد الله تبارك وتعالىٰ له بالهداية والظَّفر. وقرأَ الجمهور: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وقرأَ الأَعرج وعبيد بن عمير: [إِناَ لمُدَّرَكُون] بتشديد الدال وفتح الرَّاءِ[3]، ومعناه: يُتَتَابع علينا حتى نفنى. وقرأَ حمزة والكسائي: [ترىءِ الجمعان] بكسر الراءِ وبمدٍّ ثُمَّ بِهَمْزٍ، ورُوي مثله عن عاصم، ورُوي أَيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً. والجمهور يقرؤُونه مثل

---

(١) المَقام ـ بالفتح ـ يكون الموضع، ويكون مصدراً وهو من: قام يقوم. والمُقام ـ بالضم ـ يكون أيضاً الموضع والمصدر، وهو من: أَقام يُقيم.

(٢) في الأصول: «بصلة الألف وسكون التاء»، والتصويب عن البحر المحيط، وهي أيضاً قراءَة الذماري.

(٣) الذي في الأصول أن هذه القراءة بفتح الدال وشد الراء، أي: [لَمُدَرَّكُون]، والتصويب عن القرطبي، والبحر المحيط، والمحتسَب، وكتب القراءات، وهي أيضاً قراءة الزهري، وهي من ادَّركَ، ووزنها (مُفْتَعلون)، وقال الفراءُ في معاني القرآن: «كما تقول: حَفَرت واحْتفرت بمعنى واحد، فكذلك [لَمُدَّركون] و[لَمُدركون] معناهما واحد، والله أعلم». وعلَّق النحاس على كلامه فقال: وليس كذلك يقول النحويون الحذَّاق، إنما يقولون: مُدْركون: مُلْحقون، ومُدَّركون: مجتهد في لحاقهم. والذي يعيننا هو الضبط الصحيح للقراءة، ونعتقد أن النساخ قد كثر منهم الخطأ في ضبط القراءات وفي كثير من الكلمات في هذا الجزء بالذات، ونحن نحاول التصويب عن كتب القراءات وكتب التفسير ودواوين الشعر، والله الموفق والمعين.

(تَراعَى)، وهذا هو الصواب؛ لأنه تفاعل، قال أَبو حاتم: «وقراءَة حمزة في هذا الحرف محال»، وحَمَل عليه وقال: «وما رُوي عن ابن وثاب والأَعمش خطأٌ»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

لما عظم البلاءُ على بني إسرائيل، أَمر الله تبارك وتعالىٰ موسى عليه السلام أَن يضرب بعصاه البحر؛ وذلك أَنه عزَّ وجلَّ أَراد أَن تكون الآية متَّصلة بموسى عليه السلام، ومتعلقة بفعلٍ فَعَله، وإلاَّ فَضَرْبُ العصا ليس بفالق البحر ولا مُعين على ذلك بذاته، إلاَّ بما اقترن به من قدرة الله تعالىٰ واختراعه، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أَسباط بني إسرائيل، ووقف الماءُ بينها كالجبل العظيم. و«الطَّوْدُ»: الجبل[(٢)]، ورُوي عن ابن جريج والسّدي وغيرهما أَن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم

---

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات السبع): «الخُلف في الوقف عليه، فوقف حمزة [ترِي] بكسر الراءِ ومدٌّ قليل؛ لأن من شرطه حذف الهمزة في الوقف، فكان المد إشارة إليها ودلالة عليها، ووقف الكسائي بالإمالة والتمام، ووقف الباقون بالتفخيم والتمام على الأصل، فإن كانت الهمزة للتأنيث أُشير إليها في موضع الرفع وحذفت في موضع النصب». وقال الدانيُّ: «حمزة قرأ بإمالة فتحة الراءِ في الوصل، وإذا وقف أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بَيْن بَيْن على أصله، فتصير بين أَلفَيْن مُمَالَتَين: الأولى أُميلت لإمالة فتحة الراء، والثانية أُميلت لإمالة فتحة الهمزة». وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد بن الأستاذ أبي الحسن بن الباذش في كتابه (الإقناع): «إذا وقف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل، وحمزة يُميل ألف تفاعل وصلاً ووقفاً لإمالة الألف المنقلبة، ففي قراءته إمالة الإمالة، وفي هذا الفعل، وفي (رَاءَى) إذا استقبله ألف وَصْل لمن أمال للإمالة حَذْف السبب وإبقاءُ المسبب».

وبهذا يتضح لنا حقيقة قراءة حمزة التي حمل عليها أبو حاتم، وأفاد كلام ابن عطية أنها خطأ.

(٢) ومنه قول امرىء القيس:

فَبَيْنَـا المَـرْءُ فـي الأَحْيَـاءِ طَـوْدٌ ... رَمـاه النَّـاسُ عَـنْ كَثَـبٍ فَمَـالا

وقول الأسود بن يعفُر:

حَلُّـوا بـأنْقِـرَةٍ يَسِيـلُ عَلَيْهِـمُ ... مَـاءُ الفُـراتِ يَجِـيءُ مِـن أَطْـوَادِ



أَن الثاني قد غرق، فأَمر الله تعالىٰ الماءَ فصار كالطِّيقان، فرأَى بعضهم بعضاً فتأَسوا[١].

(وَأَزْلَفْنَا) معناه: قربنا، وقرىء بالقاف، ونسبها أَبو الفتح إِلى عبد الله بن الحارث[٢]، وقرأَ الحسن وأَبو حيوة: [وَزَلَفْنَا] بغير أَلف، وذلك أَن فرعون ـ لعنه الله تعالىٰ ـ لما وصل إِلى البحر وقد دخله بنو إِسرائيل، قيل: صمَّم وقال لقومه: إِنما انفلق بأَمري، فدخل على ذلك. وقيل: بل كعَّ[٣] وهمَّ بالانصراف، فعرض جبريل عليه السلام على فرسٍ ودَيقٍ[٤]، فمضى وراءَهَا حصان فرعون، فدخل على نحو هذا واتَّبعه الناسُ، ورُوي أَن الله تعالىٰ جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر. ثم إِن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إِلى البر من تلك الطرق، ولما أَحَسُّوا باتباع فرعون وقومه فزعوا من أَن يخرج وراءَهم، فهَمَّ موسى عليه السلام بخلط البحر، فحينئذ قيل له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾[٥]، ولما تكامل جند فرعون، وهَمَّ مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا. ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة، وكان ذلك في يوم عاشوراءِ. وقال النقاش: البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود إن شاءَ الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ تنبيه على موضع العبرة. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَي: عزَّ في نقمته من الكفار، ورحم المؤمنين من الأُمة، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة موسى عليه السلام.

---

(١) يريد: تأَسَّى كل فريق منهم بالآخر، أي: اتَّخذه أُسوة واقتدى به في عبور البحر.

(٢) قال أبو الفتح في كتابه «المحتسب» بعد أن نسب القراءة إلى عبد الله: «مَنْ قرأ: (وَأَزْلَفْنَا) بالفاءِ، فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه، أي: أهلكنا ثمَّ الآخرين، أي: فرعون وأصحابه».

(٣) كعَّ: جَبُنَ وضعف، يقال: كعَّ كعّاً وكُعُوعاً فهو كعٌّ وكاعٌّ. (المعجم الوسيط).

(٤) يعني أنها فرسٌ استسلمت لحصان فرعون، بأن قربت منه، وأمكنته منها، واستأنست. له، وفي المَثَل: «وَدَقَ العَيْر إلى الماءِ» أي: دنا منه، يضرب لمن خضع للشيءِ. (راجع الصحاح والمعجم الوسيط).

(٥) من الآية (٢٤) من سورة (الدخان).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

هذه القصة تضمنت الإِعلام بغيب، والإِتيان بما يقطع أَن محمداً ﷺ لم يكن يعرفه، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في الكتب المتقدمة. وليست هذه الآية مثالاً لقريش في أَمر الأَصنام فقط، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب. وقول إِبراهيم عليه السلام: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، والصَّنم ما كان من الأَوثان على صورة بني آدم، كان من حجر أَو عود أَو غير ذلك. و«ظَلَّ» عرفها في فعل الشيء نهاراً، و«بات» عرفها في فعله ليلاً، و«طفق» عامة للوجهين، ولكن قد يجيءُ «ظَلَّ» بمعنى العموم، وهذا الموضع من ذلك. و«العُكوفُ»: اللُّزوم، ومنه المعتكف، ومنه قول الراجز:

. . . . عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَنْزَجَا[1]

ثم أَخذ إِبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياءَ يشهد العقل أَنها بعيدة عن صفة الإِلـه. وقرأَ الجمهور بفتح الياءِ من ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾، وقرأَ قتادة بِضَمِّها وكسر الميم، من أَسمع، والمفعول ـ على هذه القراءَة ـ محذوف[2]. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ بإِدغام الدال في التاءِ بعد القلب، ويجوز فيه قياس (مُذَّكر)، ولم يقرأَ به أَحد، والقياس أَن يكون اللفظ به «إِذْ دَّعون»، والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال

---

(١) هذا شطر بيت قاله العجاج الراجز، وهو في (اللسان ـ عَكَفَ)، قال: «عَكَفَ على الشيء يعكُف ويعكِف عكْفاً وعُكُوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه، وقيل: أقام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي: مُقيماً، يقال: فلانٌ عاكف على فرْج حرام. قال العَجَّاج يصف ثوراً:

فَهُــنَّ يَعْكُفْــنَ بِــهِ إذَا حَجَـا عَكْـفَ النَّبِيـطِ يَلْعَبُـونَ الْفَنْـزَجَـا

أي: يقبلن عليه». وحَجَا: وَقَفَ. والنَّبِيط: جيلٌ ينزلون السَّواد من العراق، وهم الأنباط. والفَنْزَجَةُ والفَنْزَج: النَّزوان، وقيل: هو اللعب الذي يقال له: الدَّسْتَبَنْد، وهو رقص المجوس إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون.

(٢) تقديره: هل يُسمِعونكم الجوابَ أو الكلامَ؟



الأَصلية في الفعل فكثرت التماثلات[١].

وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أَقبح وجوه التقليد؛ لأَنه على ضلالة، وفي أَمْر بيِّنٍ خلافُه، وعظيمٍ قدرُه، فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عظم ذلك وعدم نظرهم، وأَنه لا حجة لهم، خاطبهم ببراءَته من جميع ما عُبد من دون الله عزَّ وجلَّ وعداوته له، وعبَّر عن بغضته واطِّراحه لكل معبود سوى الله تعالىٰ بالعداوة؛ إذ هي تقتضي التفسير، وقيل: في الكلام قلْبٌ؛ لأَن الأَصنام لا تُعَادِي وإنما هو عاداها[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالت فرقة: هو استثناءٌ متصل؛ لأَن في الآباءِ الأَقدمين مَنْ قَدْ عبد من دون الله تبارك وتعالىٰ، وقالت فرقة: هو استثناءٌ منقطع؛ لأَنه إنما أَراد عبادة الأَوثان من كل قرن منهم، ولفظة (عَدُوّ) تقتضي الجمع والمفرد والمؤنث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أَثنى إبراهيم عليه السلام على الله تعالىٰ بهذه الأَوصاف التي وصف اللهَ تعالىٰ بها، والمتصف بها يستحق الأَوصاف الفعلية التي تخصّ البشر. و﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ بقدرته

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله: «وهذا الذي ذكرَ أنه يجوز فيه قياس (مذَّكر) لا يجوز؛ لأن ذلك الإبدال ـ وهو إبدال التاء دالاً ـ لا يكون إلا في (افْتَعل) مما فاؤه ذالٌ أو زايٌ أو دالٌ، نحو: إذْ ذكر، وازْدَجر، وادَّهن، أصله: اذْتَكَر، وازْتَجر، وادْتَهَن، أو جيم شذوذاً، قالوا: إجْدَمَع في اجتمع. ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال، ومثلوا بتاءِ الضمير للمتكلم، فقالوا في فُزْت: فُزْدُ، وفي جَلَدْتُ: جَلَدُّ. ومن تاء تُولج شذوذاً، قالوا: دولج. وتاءُ المضارعة ليست شيئاً مما ذكرناه فلا تبدل تاؤه. وقول ابن عطية: (والذي منع من هذا اللفظ . . . إلخ) يدل على أنه لولا ذلك لجاز إبدال تاء المضارعة دالاً وإدغام الذال فيها، فكنت تقول في اذتخرج: ادَّخرج، وذلك لا يقوله أحد، بل إذا أُدغم مثلُ هذا أُبدل من الذال تاءً وأُدغم في التاء فتقول: اتّخرج». (البحر المحيط ٧ـ٢٣).

(٢) قال بعض العلماء: «لا ضرورة تدعو إلى ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ فهذا معنى العداوة، ولأن المغري على عداوتها عدوُّ الإنسان وهو الشيطان».



﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى طاعته، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ تجديد للنعمة في الرزق، وقال أبو بكر الورّاق في كتاب الثعلبي: «المعنى: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب، كما قال النبي ﷺ: «إنِّي أَبِيت عند ربِّي يطعمني ويسقيني»[(١)]. وأَسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه، والشفاءَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا من حسن الأدب في العبارة، والكل من عند الله، وهذا كقول الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[(٢)]. وقال جعفر الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب، شفاني بالتوبة. وقرأ الجمهور هذه الأفعال: [يَهْدِينِ ـ يَسْقِينِ ـ يَشْفِينِ ـ يُحْيِينِ] بغير ياءٍ، وقرأ نافع وابن إسحاق: [يَهْدِينِي] بالياءِ، وكذلك ما بعده.

وأَوقف إبراهيم عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلَّته. وقوله: (خَطِيئَتِي) ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث: قوله: «هي أُخْتي» في شأْن سارة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[(٣)] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[(٤)]، وقالت فرقة: أَراد بالخطيئة اسم الجنس، قدرها في كل أَمره من غير تعْيين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَظهر عندي؛ لأَن تلك الثلاث قد خرَّجها كثير من العلماءِ على المعاريض، وهي ـ وإن كانت كذبات بحكم قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلاّ ثلاث كذبات»[(٥)]، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأْن إبراهيم عليه

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والدارمي، والإمام أحمد، ولفظه كما في سنن الدارمي عن أبي هريرة: «قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فقال له رجل من المسلمين: فإنك تُواصل، قال رسول الله ﷺ: إنِّي لستُ مثلكم، إنِّي أبيت يطعمني ربِّي ويسقيني، فلما أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخَّر لزدتكم، كالمنكِّل لهم حين أبوْا أن ينتهوا».

(٢) نسب العيبَ إلى نفسه في هذه الآية، ونسب الخير إلى الله في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، الآيتان (٧٩)، (٨٢) من سورة (الكهف).

(٣) من الآية (٨٩) من سورة (الصافَّات).

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء).

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد ٢ـ٤٠٣، ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله=

السلام: نفسي نفسي، وذَكر كذباته[١] ـ فهي في مصالح وعون شرع وحق. وقرأ الجمهور: (خَطِيئَتِي) بالإفراد، وقرأ الحسن: [خَطَايَايَ] بالجمع.

و«الحُكْمُ» الذي دَعَا به إبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة، ودعاءُ إبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام. و«إلحاقه بالصالحين»: توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة، وقد أجابه تبارك وتعالىٰ حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]. و«لِسَانُ الصِّدْق» هو الثناءُ وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، فكلُّ ملَّة تتمسَّك به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاءَ بها محمد ﷺ. قال مكِّيٌّ: وقيل: معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأُجيبت الدعوة في محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى حسن، إلاَّ أن لفظ الآية لا يعطيه إلاَّ بتحكُّم في اللفظ.

= لسارة: إنها أُختي، قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملِك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أُختي، قال أرسل بها، فأرسل بها إليه وقال لها: لا تكذِّبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أُختي، إنْ على الأرض مؤمن غيري وغيرك، قال: فلما دخلت إليه قام إليها، قال: فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر، قال: فغطَّ حتى ركض برجله...» إلخ الحديث.

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، وأحمد، وهو حديث طويل رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الشفاعة، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مِمَّ ذلك؟ يُجْمع الله عز وجل الناس الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعي وَيَنْفُذُهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناسَ من الغمِّ والكَرْب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناسُ: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربِّكم؟»... فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم... «فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان في الحديث ـ نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى»... وهكذا حتى ينتهي بهم الموقف إلى رسول الله ﷺ، قال: «فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ... إلخ الحديث»... فَيَشْفَع وَيُشَفَّع، ﷺ.

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة)، وتكررت في الآية (١٢٢) من سورة (النحل)، وفي الآية (٢٧) من سورة (العنكبوت).



ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنَّة النَّعيم، وشبهها بما يورث، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾[1]، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبيَّن له بموته على الكفر أنَّه عدوٌّ له، أي محتوم عليه، وهو عن الموعدة المذكورة[2]. وقرأ أُبيُّ بن كعب: [واغفِرْ لأبويَّ إنهما كانا من الضالِّين].

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ إما من الخِزْي وهو الهوان، وإما من الخزاية وهي الحياءُ، والضمير في (يُبْعَثُونَ) ضمير العباد لأنه معلوم، أو ضمير الضَّالين، ويكون من جملة الاستغفار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(يَوْمَ) بدل من الأول في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، والمعنى: يوم لا تنفع أعلاق الدنيا ومحاسنها[3]، فقصد من ذلك الذكرِ العظيمَ والأكْثَرَ؛ لأن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا، والظاهر أن الاستثناءَ منقطع، أي: لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه، وقوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ معناه: خالص من الشِّرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين، قال سفيان: هو الذي يلقى ربَّه وليس في قلبه شيءٌ غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكن السليم من الشِّرك هو الأهم، وقال جنيد: بقلب لديغ من خشية الله، و«السليم»: اللديغ.

(وَأُزْلِفَتْ) معناه: قربت، و«الغاوون الذين بُرِّزت لهم الجحيم» هم المشركون، بدلالة أنهم خوطبوا في أمر الأصنام، والقول لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(١) الآية (٦٣) من سورة (مريم).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١١٤) من سورة (التوبة): ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

(٣) العِلْق: النَّفيس من كل شيءٍ يتعلق به القلب، والجمع: أعلاق.



هو على وجه التقريع والتوبيخ والتوقيف على عدم نظرتهم نحوه. وقرأ الأَعمش: [فَبُرِّزَت] بالفاءِ، والجمهور بالواو[1]. وقرأ مالك بن دينار: [وَبَرَزَت] بفتح الباءِ والتخفيف ورفع (ٱلْجَحِيم).

ثم أَخبر عن حال يوم القيامة من أَن الأَصنام تُكَبْكَب في النَّار، أَي تُلْقى كَبَّةً واحدة، ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت بالعبادة، وكادت تسند إِليها أَفعال من يعقل. والضمير في قوله: (هُمْ) يعود على الكفار، و(ٱلْغَاوُونَ): الشياطين. و«كُبْكِبَ» مضاعف من «كَبَّ»، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح؛ لأَن معناهما واحد، والتضعيف بيِّن، مثل: صرَّ وصرصر، وغير ذلك. و(ٱلْغَاوُونَ): الكفرة الذين شملتهم الغواية. و﴿جنود إبليس﴾: نَسْلُه وكلُّ من تبعه لأَنهم جنْدٌ له وأَعوان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ثم وصف تعالىٰ أَن أَهل النار يختصمون فيها ويتلاومون، ويأْخذون في شأْنهم بجدال. ومن جهلهم قولهم لأَصنامهم ـ على جهة الإِقرار وقول الحقِّ ـ: قسماً بالله إِن كنَّا لفي ضلال مبين في أَن نعبدكم ونجعلكم سواءً مع الله تعالىٰ الذي هو ربُّ العالمين وخالقهم ومالكهم، ثم عطفوا يردُّون الملامة على غيرهم، أَي: ما أَضلَّنا إِلا كبراؤُنا وأَهل الحزم والجرأَة والمكانة، ثم قالوا ـ على جهة التلهف والتأَسف ـ حين رأَوا شفاعة الملائكة والعلماءِ والأَنبياءِ نافعة في أَهل الإِيمان عموماً، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾، وفي هذه اللفظة تنبيه على محلِّ الصديق من المرءِ. قال ابن جريج: (شَافِعِينَ) من الملائكة، و(صَدِيقٍ) من الناس.

---

(١) قراءة الأعمش بالفاء تجعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة مباشرة، وذلك لأن الفاءَ للترتيب والتعقيب، أما الواو فلمطلق الجمع فيمكن أن يكون كل واحد منهما قد ظهر قبل الآخر، وقراءة الفاء تدل على تقديم الرحمة على العذاب، وهو حسن لولا أن جمهور القراء قرأ بالواو، وهو رسم المصحف. (قاله في البحر المحيط).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة «الشفيع» تقتضي رِفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو (فعيل) من صدق الودِّ من أَبنية المبالغة(١).

و«الحميم»: الوَلِيُّ والقريب الذي يخصك أَمره ويخصه أَمرك، وجامعة الرجل خاصته، وباقي الآية بيِّن قد مضى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآياتُ من قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه أَلاّ يخزى(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

---

(١) نقل ابن عطية هذا الكلام عن ابن جريج، وللكلام بقية منها: «ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفياً لوجودهم إذ ذاك، وهم موجودون للمؤمنين، إذ تشفع الملائكة، ويتصادق المؤمنون، كما قال تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وأن لهم أَصْدِقَاء من الإنس والشياطين، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع؛ لأن ما لا ينفع، حكمه حكم المعدوم، فصار المعنى: فما لنا مِنْ نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء».

(٢) ناقض أبو حيان، ابن عطية، في كلامه هذا فقال: «كان ابن عطية قد أعرب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره؛ لأنه يفكك الكلام ويجعل بعضه من كلام إبراهيم وبعضه من كلام الله تعالىٰ. لأن العامل في البدل ـ على مذهب الجمهور ـ فعل آخر من لفظ الأول، أو الأول، وعلى كلا التقديرين لا يصح أن يكون من كلام الله تعالىٰ؛ إذ يصير التقدير: «ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا بنون»...».



﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

أَسند (كَذَّبَتْ) إلى «القوم» وفيه عدم التأنيث، من حيث «القوم» في معنى الأُمة والجماعة[١]. وقوله: (ٱلْمُرْسَلِينَ) من حيث إنَّ من كذَّب نبيًّا واحداً فقد كذَّب جميع الأنبياءِ؛ إذ قولهم واحد، ودعوتهم سواءٌ، وقوله تعالىٰ: (أَخُوهُمْ) يريد: في النسب والمنشأ، لا في الدين، و(أَمِينٌ) معناه: على وحي الله تعالىٰ ورسالته، يريد: في المنشأ.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم[٢]: [أَجْرِي] ساكنة الياءِ، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وشيبة بفتح الياءِ في كل القرآن، ثم ردَّد عليهم الأَمرَ بالتقوى والدعاءِ إِلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم، فذهب أَشرافهم إِلى استنقاص أَتباعه بسبب صغر الناس الذين اتبعوه وضعفائهم، وهذا كقول قريش في عمَّار بن ياسر، وصهيب، وغيرهما. وقال بعض الناس: (ٱلْأَرْذَلُونَ): الحاكة والحجّامون والأَساكفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي على جهة المثال، أَي: أَهل الصنائع الخسيسة، لا أَن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا. و(ٱلْأَرْذَلُونَ): جمع الأَرذل، ولا يستعمل إِلاَّ مُعرفاً أَو مضافاً، أَو بمن، ويظهر من الآية أَن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إِلى المؤمنين تهجين أَفعالهم، لا النظر في صنائعهم، ويدل على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عِلْمِى﴾ الآية؛ لأَن معنى كلامه: ليس في نظري وعلمي بأَعمالهم ومعتقداتهم فائدة، فإِنما أَقنع بظاهرهم واجتزىء به، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالىٰ، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أَن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إِلـٰه إِلا الله... الحديث بجملته»[٣].

---

(١) وقيل: (قوم) مؤنث مجازي، ويصغر قُوَيمة، فلذلك جاء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاءَ عاد الضمير عليه كما يعود على الجمع المذكَّر العاقل.

(٢) لعلَّ هذه القراءة عن عاصم برواية أبي بكر، وإلا فإن قراءة عاصم برواية حفص هي (أَجْرِيَ) بفتح الياء، كما هي ثابتة في المصحف.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد في مسنده، ولفظه كما في البخاري في كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أُقاتل النَّاس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

وقرأ جمهور الناس: (وَٱتَّبَعَكَ) على الفعل الماضي، وقرأ ابن السميفع اليماني، وسعيد بن أَبي سعيد الأنصاري: [وَأَتْبَاعُكَ] على الجمع، ونسبها أَبو الفتح إِلى ابن مسعود، والضحاك، وطلحة، قال أَبو عمرو: وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما، والأَعمش، وأَبي حيوة[1]. وقرأَ عيسى بن عمر الهمذاني: [لو يَشْعُرون] بالياءِ من تحت، وقرأَ الجمهور: (تَشْعُرُونَ) بتاءِ الخطاب. وإِعراب قوله: [وَأَتْبَاعُكَ] إِما جعله في موضع الحال، وإِما عطف على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾، وحسَّن ذلك الفصلُ بقوله: (لَكَ)[2].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ يحتمل أَن يريد: بالحجارة، ويحتمل أَن يريد: بالقرآن والشتم ونحوه وهو شبيه برجم الحجارة، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك. وقوله: [ٱفْتَحْ] معناه: احكم، والفَتَّاح: القاضي بلغة يمنية، و(ٱلْفُلْكُ): السفينة، وجمعها فُلْكٌ أَيضاً، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأَعراف. و(ٱلْمَشْحُون) معناه: المملوءُ بما ينبغي له من قدر ما يحمل، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

(عَادٌ): قبيلة، وانصرف للخفة، وقيل: هو اسم أَبيهم. وخاطبهم هود عليه السلام

---

(١) قال أبو الفتح في المحتسَب: «تحتمل هذه القراءة ضربين من القول مختلفي الطريق إلا أنهما متفقا المعنى: أحدهما أن يكون أراد: أنؤمن لك وإنما أَتبَاعُك الأرذلون ؟ فـ [أَتبَاعُك] مرفوع بالابتداءِ، و[الأَرْذَلُونَ] خبر، والآخر أن يكون [أَتبَاعُكَ] معطوفاً على الضمير في [أَنُؤْمِنُ]، أي: أنؤمن لك نحن و[أَتبَاعُكَ] الأرذلون، فـ [الأرذلون] وصفٌ للأتباع». وقد نقل ابن عطية خلاصة لهذا.

(٢) فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله: نحن، وذلك أن العِوَض ينبغي أن يكون في شِقِّ المعوَّض منه، وأن يكون قبل حرف العطف، وهذه هي صورة قوله: [لَكَ].



بمثل مخاطبة سائر الرُسل، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم، فقال: (أَتَبْنُونَ) على جهة التوبيخ، و«الرِّيعُ»: المرتفع من الأرض، ومنه قول المسيَّب ابن علس يصف طريقاً:

فِي الآلِ يخْفِضُهَا ويَرْفَعُهَا ... رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ[1]

والسَّحْل: الثوب الأبيض،

ومنه قول ذي الرُّمَّة:

طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرِقٌ فَوْقَ رِيعَةٍ ... نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ[2]

ومنه قول الأعشى:

ويَهْمَاءُ قَفْرٍ تَجَاوَزْتُهَا ... إِذَا خَبَّ فِي رِيعِهَا آلُهَا[3]

ويقال: (رِيعٌ) بكسر الراءِ، ويقال: [رَيْعٌ] بفتحها، وبها قرأ ابن أبي عبلة، وعبَّر بعض المفسرين عن «الرِّيع» بالطريق، وبعضهم بالفَجِّ، وبعضهم بالثَّنِيَّة الصغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجملة ذلك أنَّه المكان المشرق، وهو الذي يتنافس الناس في هيآته. و«الآية»:

---

(١) المسيَّب (بفتح الياءِ المشدَّدة)، و(عَلَس) بفتحتين، اسمه: زهير بن عَلَس بن مالك، والمسيَّب لَقَب لُقِّب به ببيت قاله. وهو من شعراء بكر بن وائل المعدودين، وخال الأعشى، والبيت في (اللسان رَيَع)، قال: الرِّيع والرَّيْعُ: الطريق المنفرج عن الجبل (عن الزجاج)، وفي الصحاح: الطريق، ولم يقيد، ومنه قول المسيَّب، شبَّه الطريق بالسَّحْل، وهو الثوب الأبيض.

(٢) البيت في (اللسان ـ رَيَع) وفي (طَرَقَ) أيضاً، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن. وطائر طِراقُ الريش: إذا ركب بعضُه بعضاً، والخوافي: ما تحت القوادم في الطائر من الريش. والقوادم: جمع قادمة وهي أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر، قال: (فَإِنَّ الخَوَافي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ). والرِّيع: المرتفع من الأرض، وقيل: الجبل، واختلفوا في الجمع والمفرد. ويترقرق: يلمع. يصف الطائر بأن ريش الخوافي فيه كثيف يركب بعضه على بعضه، وندى الليل يلمع في ريشه حين وقف فوق المكان المرتفع.

(٣) البيت منسوب للأعشى هنا، وفي الطبري، ولم نجده في الديوان على الرغم من وجود قصيدة على نفس الوزن والقافية. واليهماءُ: الفَلاةُ لا يُهْتَدى فيها، وليس فيها ماءٌ ولا أنيس. وتجاوزتها: قطعتها، وخَبَّ: تحركَ واضطَرب في سرعة. والآل: السراب، نسب سرعة الحركة والاضطراب إلى السراب في هذه الصحراء. والبيت شاهد على أن الريعَ هو المكان المرتفع.

البنيان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عَلَم، وقال مجاهد: أبراج الحمام، وقال النقاش وغيره: القُصور الطوال، و«المصانع»: جمع مصنع، وهو ما أُصنع وأُتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه، وقال قتادة: هي مآخذ للماءِ، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، إما أَن يريد: على أَمِلكم ورجائكم، وإما أَن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزءِ بهم، وقرأَ الجمهور: (تَخْلُدُونَ) بفتح التاءِ وضم اللام، وقرأَ قتادة: [تُخْلَدُونَ] بضم التاءِ وفتح اللام، يقال: خَلَد الشيءُ، وأَخْلَدَهُ غيره، وقرأَ أُبيٌّ وعلقمة: [لعلكم تُخَلَّدون] بضم التاءِ وفتح الخاءِ وفتح اللام وشدها، وروي عن أُبي: [كأَنكم تخلدون]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [كأَنكم خالدون].

و«البَطْشُ»: الأَخذ بقوة وسرعة، و«الجَبَّارُ»: المتكبر، ومنه قولهم: «نخلة جبارة» إذا كانت لا تُدرَك علوًّا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأَة التي أَبت أَن تنحى عن طريقه: «إنها جبارة»(١)، ومنه الجبروت، فالمعنى: إنكم كفار الغضب، لكم السطوات المفرطة، والبوادر من غير تثبت.

ثم ذكَّرهم عليه السلام بأَيادي الله تعالىٰ قِبَلهم فيما منحهم من الأَنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها، ثم خوفهم عذاب الله تعالىٰ في الدنيا، وكانت مراجعتهم أَن سوَّوا بين وعظه وتركه الوعظ. وقرأَ ابن محيصن: [وَعَظتَّ] بإدغام الظَّاءِ في التَّاءِ. ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، واختلف القراءُ في ذلك ـ فقرأَ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: (خُلُق) بضم اللام، فالإشارة بـ (هَذَا) إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع، أَي: هذا الذي نحن عليه خُلُق الناس وعادتهم، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أَنت. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأَبو قلابة (خُلْق) بضم الخاءِ وسكون اللام، ورواه الأَصمعي عن نافع، وقرأَ أَبو جعفر، وأَبو عمرو: [خَلْقُ الأولين] بفتح الخاءِ وسكون اللام، وهي

---

(١) رواه النسائي في الكبرى عن أبي موسى، ورواه أبو يعلى والطبراني عن أنس، وكلاهما ضعيف، ويقوي كل منهما الآخر، وأشار ابن الأثير في كتابه (النهاية) لهذا الحديث عند شرحه لكلمة جَبَّارة. وذكر صاحب اللسان الحديث في جَبَر، ولفظه فيه أن النبي ﷺ حَضَرَتْهُ امرأة، فأمرها بأمر فتأبت، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها جَبَّارة»، أي: عاتية متكبرة، وقيل: الجبَّار: المتسلِّط، قال الشاعر:

سَلَبْنَا مِنَ الجبَّارِ بالسَّيْفِ مُلْكَهُ ... عشِيّاً وأطْرافُ الرِّماحِ شوارِعُ

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.



قراءَة ابن مسعود، وعلقمة، والحسن، وهذا يحتمل وجهين: أَحدهما: وما هذا الذي تزعمه إلاَّ اختلاق الأَولين من الكَذَبَة قبلك، فأَنت على منهاجهم. والثاني أَن يريدوا: ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأَولون، حياة وموت، وما ثَمَّ بعثٌ ولا تعذيب، وكل معنى مِمَّا ذكرته تحتمله قراءَة [خُلْق]. وروى علقمة عن ابن مسعود: [إلاَّ اخْتِلاَقُ الأَوَّلين]، وباقي الآية قد مضى تفسيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

[ثَمُود]: قبيلة عربية. وتصرف ولا تصرف، على مقصد الحيِّ أَو القبيلة، وقرىء بالوجهين: الجمهور بغير صرف، وابن وثاب وغيره بالصرف. و(صَالح) أَخوهم في النَّسب، والأَنبياءُ من العرب أَربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أَجمعين، وإِسماعيل عليه السلام عربيُّ اللسان سرياني النَّسب، وهو أَب العرب الموجودين اليوم.

وقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ تخويف لهم، بمعنى: أَتطمعون أَن تقروا في النعم على معاصيكم؟ و«الْهَضِيم» معناه: اللَّيِّن الرَّطْب. و«الطَّلْع»: الكفري، وهو عنقود النخل قبل أَن يخرج من الكم في أَول نباته، فكأَن الإِشارة إِلى أَن طلعها يثمر ويرطب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَينَع وبلغ وهو يُهضم، وقال الزهري: الهضيم: الرَّخْصُ اللطيف أَول ما يخرج، وقال الزجاج: هو ـ فيما قيل ـ الذي رطبه بغير نوى، وقال الضحاك: الهضيم: المنضَّد بعضه على بعض.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: (تَنْحِتُونَ) بكسر الحاءِ، وقرأ الكسائي بفتحها، وذكر أنها لغة، قال أَبو عمرو: وهي قراءَة الحسن، وأَبو حيوة. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: (فَارِهِينَ)، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وقرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [فَرِهين]، وقرأ مجاهد: [مُتَفَرِّهين] بميم، على وزن: مُتَفَعِّلين، واللفظة مأْخوذة من الفراهة، وهي جودة منظر الشيءِ وقوة كماله في نوعه، فمعنى الآية: كَيِّسين مُهْتَمِّينَ، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: شرهين، وقال ابن زيد: أَقوياءَ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: أَشِرين بَطِرين، وذهب عبد الله بن شداد إِلى أَنه بمعنى: مستفرهين، أَي: مبالغين في استحازة[1] الفاره من كل شيءٍ مما يصنعونه ويشتهونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خاطب به جمهور قومه، وعنى بالمسرفين كبراءَهم وأَعلام الكفر والإِضلال فيهم. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ فيه تأْويلان: أَحدهما مأْخوذ من السِّحر (بكسر السِّين)، أَي: قد سُحِرْتَ فأَنت لذلك مخبولٌ لا تنطق بقويم، والثاني أَنه مأْخوذ من السَّحر (بفتح السِّين) وهي الرئة، وقيل: السَّحر: قصبة الرئة وما يتعلق بها من كبد وغيره، أَي: أَنت ابن آدم مثلنا لا يصح أَن تكون رسولاً عن الله تعالىٰ، وما بعده في الآية يُقَوِّي هذا التأْويل[2]، ومن اللفظة قول لبيد:

فَـإِنْ تَسْـأَلِينـا فيـمَ نَحْـن فَـإِنَّنَـا ... عَصافيرُ مِن هَذا الأَنام المُسَحَّر[3]

ويقال للاغتذاءِ: التَّسْحير، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) استَحَازَ الشيءَ واحْتَازَه بمعنى: ضمه وامتلكه. (المعجم الوسيط).

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ومن الغريب أن أبا حيَّان قال بعد ذكره هذا التأويل: «ويُضْعِفُ هذا القوْلَ قولُهم بعْدُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ إذ تكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها، والأصل التأسيس».

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من مات من قومه، ويتأمل سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه، ومطلعها:

أعَـاذلُ قُـومِـي فـاعْـذُلـي الآنَ أوْ ذَري ... فَلَسْـت وإنْ أقصَـرْتِ عَنِّـي بمُقصِـرِ

وهو من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، قال: وكلُّ من أكل من إنس أو دابة فهو مُسَحَّر، وذلك أن له سحراً يقري فيه ما أكل. وعصافير معناها: ضعاف.

. . . . ونُسْحَـر بـالطَّعَـام وبـالشَّـرابِ[1]

ثم اقترحوا عليه آية، ورُوي أَنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم. وقصتها في هذه الآية وجيزة وقد مضت مستوعَبة، فلما خرجت الناقة قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، أَي: حظٌ من الماءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لها شُرب ولكم شُرب] بضم الشين فيهما، وقد تقدم قصص ورود الناقة. و«السُّوءُ»: عَقْرها، وتوعدهم عليه بعذاب، وظاهر أَمره أنه أَراد: في الدنيا، ونسب عقرها إِلى جميعهم مع اختصاص قدار الأَحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً. وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾، لما ظهر لهم تغير أَلوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أَخبرهم ندموا، ورأَوا أَن الأَمر على ما أَخبر به حتى نزل بهم العذاب، وكانت صيحة جمدت لها أَبدانهم، وانشقت قلوبهم، وماتوا عن آخرهم، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾.

قال النقاش: إِن في مصحف ابن مسعود، وأُبي، وحفصة رضي الله تعالىٰ عنهم:

---

(١) هذا عجز بيت، وهو مطلع قصيدة له، البيت بتمامه:

أرانـا مُـوضِعيـنَ لأمـر غَيْـبٍ ونُسْحَـرُ بـالطَّعـام وبـالشَّـرابِ

وقد ذكره صاحب اللسان في مادة (سَحَر) شاهداً على أن السَّحَر هو الغذاء. وموضعين: مُسْرعين. ولأمْر غيب: لِلْمَوْت، ونُسْحر: نُغَذَّى، أو نُلْهَى عن الموت بالطعام وبالشراب، ومن اللطيف أنه في البيت التالي يصف الناس بأنهم عصافير فيلتقي في ذلك بلبيد، قال:

عَصَـافِيـرٌ وذِبَّـانٌ وَدُودٌ وَأجْـرأُ مِـنْ مُجَلِّحَـةِ الـذِّئـاب

والمجَلِّحة: هي المقدمة على الأمر إقداماً شديداً، والهاجمة على الناس، فهم مع ضعفهم كأنهم العصافير أو الديدان يفعلون فعل الذئاب المجَلِّحَة.

[إِذْ قَالَ لهم لُوط] وسقط «أَخوهم». واختُصرت الياءُ في الخط واللفظ من قوله: (وأَطِيعونِ) مراعاةً لرؤُوس الآي أَن تتناسب.

ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في «إِتيان الذكران» وترك فروج الأَزواج، والمعنى: ويذر ذلك العاصي في حال المعصية، لا أَنَّ معناه: تركوا النساءَ جملة، وفي قراءَة ابن مسعود: [ما أَصْلح لكُمْ ربُّكم]، و(عَادُونَ) معناه: ظالمون مرتكبون للحظر، فتوعَّدوه بالإِخراج من أَرضه فلا يُتَّهم عند ذلك، واقتصر على الإِخبار بأَنه قال: (لِعَمَلِهِمْ). و«ٱلْقِلَى»: بُغْض الشيءِ وتركه، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالىٰ بأَن أَمره بالرحلة ليلاً، وكانت امرأَته تعين عليه قومَه فأَصابها حجر فهلكت فيمن هلك.

وقوله: ﴿فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ معناه: في الباقين، فإِما أَن يريد: في الباقين من لِدَاتها وأَهل سُنِّها، وهو تأْويل أَبي عبيدة، وإِما أَن يريد: في الباقين في العذاب النازل بهم، وهو تأْويل قتادة، والمشهور أَنها بمعنى: بَقِي. وغابر الزمان: مستقبله، ولكن الأَعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور[1]، وقال الزهراوي: يقال للذاهب غابر، وللباقي غابر. و«التدمير»: الإِهلاك بإِمطار الحجارة، وبذلك جرت السِّير في رجم اللوطي، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

---

(١) جاء ذلك في قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت الذي استعمل فيه (غابر) بمعنى الماضي هو:

عَضَّ بِمَا أبقَى المَوَاسِي لَـهُ ... مِنْ أُمِّهِ فـي الـزَّمَـنِ الغَـابِـرِ

يريد: ما تركه الموسى بعد إجراء عملية الختان لأمه وهي صغيرة.



قال النقاش: في مصحف ابن مسعود، وأُبيٍّ، وحفصة: [إذ قال لهم أخوهم شعيب]، وقالوا: لا وجه لمراعاة النسب، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وآدميٌّ مثلهم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: [لَيْكَة] على وزن فَعْلَة هنا وفي (صَ)[1]، وقرأ الباقون: (الأَيْكَة) وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق، وقيل: من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقماري ونحوه، وقال قتادة: كان شجرهم هذا دوْماً. و«لَيْكَة» اسم البلد في قراءَة من قرأ ذلك، قاله بعض المفسرين، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلةٌ من الأيكة، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (صَ) بغير ألف، وقال أبو علي: سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا؛ لأن خط المصحف اتُّبع فيه تسهيل اللفظ، كلَّما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط، نحو سقوط الواو من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[2] لمَّا سقط من اللفظ، وأما ترجيح القراءَة في [لَيْكَة] بفتح الياءِ في موضع الجرِّ فلا يقتضيه ما في المصحف، وهي قراءَة ضعيفة، ويدل على ضعفها أن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمع فيه على [الأَيْكَة] بالهمز والألف والخفض.

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي، فلم يكن شعيب منهم، فلذلك لم يذكر هنا بأنه أَخٌ لهم، وإنما كان من بني مدين، ولذلك ذُكِر بِأَخُوهم، وجاءَت الأَلفاظ في دعاءِ كل واحد من هؤلاءِ الأنبياءِ واحدة بعينها إذْ كان الإيمانُ المدعُوُّ إليه معنىً واحداً بعينه، وفي قولهم عليهم السلام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عرض رقيق وتلطف، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[3]،

وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم؛ بخس الموازين وتنقص أَموال الناس بذلك. و«الْقِسْطَاسُ»: المعتدل من الموازين، وهو بناءُ مبالغة من القسط، وذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن قوله: [وزنوا بالقسطاس] بضم القاف [من القسطاس][4]، وقرأ

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (١٣): ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.

(٢) الآية (١٨) من سورة (العَلَق).

(٣) الآية (١٨) من سورة (النازعات).

(٤) هكذا في نسخ الأصول، ونعتقد أن ما بين العقفتين. من زيادة النساخ.

عيسى وأهل الكوفة بكسرها، و[تَعْثَوْا] معناه: تفسدون، يقال: «عَثَا» إذا أفسد.

(وَٱلْجِبِلَّة): القرون والخليقة الماضية، قال الشاعر:

والْمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ فيما يَمُرُّ عَلَى الجِبِلَّةِ[(١)]

وقرأ جمهور الناس: (وَٱلْجِبِلَّة) بكسر الجيم والباءِ، وقرأ أبو حصين والحسن: [وَالْجُبلَّة] بضمها، و«الكِسَفُ»: القطع، واحدها: كِسْفَة، كتَمْرَة وتَمر[(٢)]. و﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ يوم عذابهم، وصورته ـ فيما رُوي ـ أن الله تعالىٰ امتحنهم بِحَرٍّ شديد، فلما كان ذلك اليوم غشى بعض قطرهم سحابة، فاجتمعوا تحتها، فاضطرمت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم عن آخرهم. وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أنه عذاب جعله الله تبارك وتعالىٰ ظُلَّة، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظُّلَّة فقد كذب، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

الضمير في (إِنَّهُ) للقرآن، أي: إنه ليس بكهانة ولا سحر، إنما هو من عند الله تبارك وتعالىٰ، و﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾: جبريل عليه السلام بإجماع، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدر والمصاحف، والضمير على ذلك كله عائد في (بِهِ). و«اللسان» عبارة عن اللغة، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: (نَزَلَ) خفيفة الزاي (ٱلرُّوحُ) بالرفع. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ـ وحمزة، والكسائي بشدّ الزاي [الروحَ] نصْباً، ورجحها أبو حاتم بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[(٣)]،

---

(١) هو شاهد على أن الجبلَّة هي: الخليقة، قال في (اللسان ـ جَبَلَ): «الجِبلَّة: الخِلْقَة، وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقرأها الحسن بالضَّمِّ، قال الكسائي: الجِبِلَّة والجُبُلَّة تكسر وترفع مشدَّدة كُسرت أو رفعت».

(٢) ورد هذا التنظير في الطبري، وعنه أخذ ابن عطية، قال محقق الطبري: «وقياس الجمع غير واضح».

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٩٧) من سورة (البقرة): ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.



وبقوله: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقوله: (بِهِ) في موضع الحال، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾[١]. وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه، وعلَّل النزول على قلبه بكونه من المنذرين؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به إلا بعد حفظه. وقوله: (بِلِسَانٍ) يمكن أَن يتعلق بلفظ الباءِ بـ ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، وهذا على أَن النبي ﷺ إنما كان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية، وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه، ويمكن أَن يتعلق بقوله: (لِتَكُونَ)، وتمَسَّك بهذا من رأَى أَن النبي ﷺ كان يسمع أَحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف يقتضي أَن بعض أَلفاظ القرآن هي من لدن النبي ﷺ، وهو مردود.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي في كتبهم، يريد أَنَّ القُرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة مُنَبَّه عليه مشارٌ إِليه[٢]، وقرأَ الجمهور: (زُبُر) بضم الباءِ، وقرأَ الأَعمش بسكونها[٣].

ثم احتج عليهم بأَنهم كان ينبغي أَن يُصَحَّح عندهم أَمره، كان علماءُ بني إِسرائيل يعلمونه، كعبد الله بن سلام ونحوه، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما حكى عنه الثعلبي ـ: إِن أَهل مكة بعثوا إِلى أَحبار يثرب يسأَلونهم عن النبي ﷺ، فقالوا: هذا زمانه، ووصفوا بعثه، ثم خلطوا في أَمر محمد ﷺ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا كون الآية مكية، وقال مقاتل: هذه الآية مدنية، فمن قال: إِنها مكية، ذهب إِلى أَن علماءَ بني إِسرائيل ذكروا أَن في التوراة صفة النبي ﷺ، وهذه الإِشارة إِلى

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (المائدة).

(٢) وقيل: إِن معانيه فيها، وبهذا يُحْتَج لأبي حنيفة في جواز القراءَةِ بالفارسية في الصلاة، على أن القرآن قرآن إذا تُرجم لِغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ لكون معانيه فيها.

(٣) السكون للتخفيف، والأصل الضم.



ذلك. وكلهم قرأَ: (يَكُنْ) بالياءِ (آيَةً) نصباً، غير ابن عامر فإنه قرأَ: [تَكُن] بالتاءِ من فوق: [آيَةٌ] رفعاً، وهي قراءَة عاصم والجحدري[1]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأَ الجحدري: [أن تعلمه] بالتاءِ من فوق.

ثم سلَّى محمداً ﷺ عن صدود قومه عن الشرع بأَن أَخبر أَن هذا القرآن العربي لو سمعوه مِن أَعْجَم، أَي: من حيوان غير ناطق، أَو جماد، ـ والأَعجم: كل ما لا يُفصح ـ ما كانوا يؤمنون، أَي: قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إِلى إِيمانهم، و«الأَعْجَمون» جمع أَعجم، وهو الذي لا يفصح، وإِن كان عربيَّ اللسان[2] يقال له: أَعجم، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه قول النبي ﷺ: «جُرْحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»[3]، وأَسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أَنه قال حين قرأَ هذه الآية وهو واقف بعرفة: «جملي هذا أَعجم، فلو أُنزل عليه، ما كانوا يؤمنون»، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإِن كان فصيح اللسان. وقرأَ الحسن: [الأَعْجَمِيِّنَ]، قال أَبو حاتم: أَراد جمع «الأَعْجَمِيِّ» المنسوب، وقال بعض النحويين: الأَعجمون جمع أَعْجَم، وهو أَعجم، أُضيف فقويت بالإِضافة رتبته في الأَسماءِ فجمع، وليس بأَعجمي النسبة إِلى العجم[4]. وقرأَ جمهور

---

(١) الصحيح أن الواو في قوله (والجحدري) زائدة من النساخ، وأن الذي قرأ هو عاصم الجحدري، والتصحيح عن كتب التفسير والقراءة.

(٢) في بعض النسخ: «عربيَّ النسب»، وهو الأشبه، ويوافق ما في «البحر المحيط» حين نقل كلام ابن عطية.

(٣) أخرجه البخاري في الديات والزكاة والمساقاة، ومسلم في الحدود، وأبو داود في الديات، والترمذي في الزكاة والأحكام، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الديات، والدارمي في الزكاة والديات، والموطأ في العقول، وأحمد في أماكن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «جرح العجماءِ جُبار، والبير جُبار، والمعدن جُبار، وفي الرِّكاز الخمس». قال ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»: «العجماءُ: الدَّابَّة، والجُبارُ: الهَدَرُ».

(٤) قال الطبري: «وإنما قيل: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾، ولم يقُل: «على بعض الأعجميِّين» لأن العرب تقول إذا نَعَتَت الرجل بالعجمة وأنه لا يُفصح بالعربية: هذا رجل أعجم، وللمرأة: هذه امرأةٌ عجماء، وللجماعة: هؤلاء قومٌ عُجْمٌ وأعْجَمون، وإذا أُريد هذا المعنى وصف به العربي والأعجمي؛ لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان، وقد يكون كذلك وهو من العرب». وقال أبو الفتح بن جني في المحتسَب تعليقاً على قراءة الحسن: [الأعْجَميِّين]: «هذه القراءة عُذْر في القراءة المجتمع عليها، وتفسير للغرض منها، وهي قوله: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾، وذلك أن ما كان من الصفات على أفعَل، وأُنثاهُ فعلاء ـ لا يجمع بالواو والنون، ولا مؤنثه بالألف والتاءِ، ألا تراك لا تقول في أحمر: أحمرون، ولا في حمراءَ: حمراوات، فكأن قياسه ألا يجوز فيه «الأعجمون»، لأن مؤنثه عجماء، ولكن سببه أنه يريد: =

الناس: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالياءِ ﴿لَّهُمْ ءَايَةً﴾ بالنصب، وقرأ: [أَوَ لَيْس لكم آية] ابن مسعود والأَعمش، وفي مصحف أُبيٍّ [أَلَيْسَ] بغير واوٍ أَو فاءٍ، وقرأَت فرقة: [تَكُنْ] بالتاءِ من فوق (آيةٌ) رفعاً، وقرأَ بعض من قرأَ بالتاءِ [آيَةً] بالنصب، وسائرهم بالرفع، وقد مضى ذكر ما في السبع، وذكر الطبريُّ أَن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عائد على «الذِّكْرِ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾[(1)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

الإِشارة بـ «ذَٰلِكَ» إِلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم عليهم بأَنهم لا يؤمنون، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الآية. و(سَلَكْنَاهُ) معناه: أَدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، قاله الحسن. قال الرُّمَّاني: لا وجه لهذا إِلاَّ أَنه لم يجر ذكره، وإِنما الضمير للقرآن وإِخطاره بالبال، وحكى الزهراوي أَن الضمير للتكذيب المفهوم، وحكاه الثعلبي، وقرأَ ابن مسعود: [كذلك جعلناه في قلوب]، ورُوي عنه: [نَجْعَلُه]. و«المجرمون» أَراد به مجرمي كل أُمة، أَي أَن هذه عادة الله تبارك وتعالىٰ فيهم أَنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، ولا ينفعهم الإِيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أَي: هؤلاءِ كذلك. وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر.

وقرأَ الجمهور: (فَيَأْتِيَهُمْ) بالياءِ، أَي العذاب، وقرأَ الحسن: [فَتَأْتِيَهُمْ] بالتاءِ من فوق، يعني الساعة، وفي قراءَة ابن كعب: [فَيَرَوْهُ بَغْتَةً]، ومن قول كل أُمَّة مُعَذَّبة: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أَي مُؤَخَّرون، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة.

= «الأَعْجَميُّون» ثم حذفت ياءُ النسب، وجُعل جمعه بالواو والنون دليلاً عليها وأَمارة لإِرادتها». وأَجاز الفراءُ أَن يقال: رجلٌ عَجمي، بمعنى: أَعجميّ، ومذهب سيبويه هو ما ذكره ابن جني.

(1) من الآية (٥) من هذه السورة (الشعراء).



ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالىٰ في طلبهم سقوط السماءِ كسفاً وغير ذلك، وقولهم لمحمد ﷺ: أين ما تَعِدُنا ؟ أي أنه لا ينبغي لهم ذلك لأن عذابنا بالمرصاد إذا حان حينه. ثم خاطب محمداً ﷺ بإقامة الحجة عليهم في أن مُدَّةَ الإرجاءِ والإمهال والإملاءِ لا يعني منع نزول العذاب بعدها، ووقوع النقمة، وذلك في قوله: (أَفَرَأَيْتَ) الآية، قال عكرمة: (سِنِينَ) يريد: عُمْر الدنيا، ولأبي جعفر المنصور قصة في هذه الآية.

ثم أخبر تبارك وتعالىٰ أنه لم يُهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله تعالىٰ ذِكْرى لهم وتبصرةً وإقامة حجة؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(١)] و(ذِكْرى) عند الكسائي نصب على الحال، ويصح أن يكون نصب على المصدر، وهو قول الزجاج، ويصح أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ، تقديره: «ذلك ذكرى»[(٢)]، ثم نفى عن جهته عزَّ وجلَّ الظلم؛ إذ هو مما لا يليق به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

لما كان في هذا الموضع ما قال الكفار ـ لأنهم قالوا: إن هذا القرآن كهانة ـ نزلت هذه الآية مكذبة لذلك، أي: ما تنزلت به الشياطين؛ لأنها عُزلت عن السمع الذي كانت تأخذ له مقاعدها، وقوله: ﴿وماينبغي لهم﴾ أي: ما يمكنهم، وقد تجيءُ هذه اللفظة عبارة عمَّا لا يكون، وعبارة عمَّا لا يليق وإن كان ممكناً، ولما جاءَ الله تعالىٰ بالإسلام

---

(١) من الآية (١٦٥) من سورة (النساء).

(٢) وأجاز الزمخشري في (ذِكْرَى) أن تكون مفعولاً له، على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة، وأن تكون مرفوعة صفةً بمعنى: «مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرى»، أو «جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها»، وأجاز أيضاً أن تكون متعلقة بـ (أَهْلَكْنَا) مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم لتكون تذكرةً وعبْرةً لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم، وما كنا ظالمين فنهلك قوماً غير ظالمين، وهذا الوجه عليه المعول». ا. هـ. ـ ومع ذلك ناقشه فيه أبو حيان ليثبت أنه لا معول عليه.

حرسَ السماءَ بالشهب الجارية إِثر الشياطين، فلم يخْلص شيطان بشيءٍ يُلَقّنه كما كان يتفق لهم في الجاهلية.

وقرأ الجمهور: (ٱلشَّيَاطِين)، وروي عن الحسن أنه قرأ: [الشياطون]، وهي قراءَة مردودة، قال أَبو حاتم: هي غلط منه أَو عليه، وحكاه الثعلبي أَيضاً عن ابن السميفع، وذكر عن يونس بن حبيب أَنه قال: سمعت أَعرابيًا يقول: دخلت بساتين من ورائها بساتون، قال يونس: ما أَشبه هذا بقراءَة الحسن.

ثم وصَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ بالثبوت على أَمر الله تبارك وتعالىٰ، وأَمَرَ بنذارة عشيرته تخصيصاً لهم، إِذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية، وإِذ يمكنه معهم من الإِغلاظ عليهم ما لا يحتمله غيرهم، فإِن البِرَّ بهم في مثل هذا الحمل عليهم، والإِنسان غير متَّهم على عشيرته، وكان هذا التخصيص مع الأَمر العام بنذارة العالم. وروي عن ابن جريج أَن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم همٌّ من هذا التخصيص وخروجهم منه، فنزلت: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولماأُمر رسول الله ﷺ بهذه النذارة عظم موضع الأَمر عليه وصعُب، لكنه تلقَّاه بالجَلَد، وصنع أَشياءَ مختلفة كلها بحسب الأَمر، من ذلك «أَنه أَمر عليًا رضي الله عنه بأَن يصنع طعاماً، وجمع عليه بني جَدِّه عبد المطلب، وأَراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع، فظهر منه عليه الصلاة والسلام بركة في الطعام، قال علي: وهم يومئذ أَربعون رجلاً، ينقصون رجلاً أَو يزيدونه، فرماه أَبو لهب بالسحر، فوجم رسول الله ﷺ، وافترق جمعهم من غير شيءٍ، ثم جمعهم مرة ثانية كذلك وأَنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا»[(١)]، ومن ذلك أَنه نادى عمَّه العباس، وصفيَّة عمته، وفاطمة ابنته رضي الله عنهم، وقال: «لا أُغْني عنكم من الله شيئاً، إِني لكم نذير بين يدي عذاب شديد» في حديث مشهور[(٢)]، ومن ذلك أَنه صعد على الصَّفا، أَو أَبي قُبَيْس، ونادى: يا بني عبد مناف،

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب، وأخرج مثله ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل ـ من طرق ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهو حديث طويل تجده في سيرة ابن هشام، وفي الدر المنثور.

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، ـ وليس فيه عمُّه العباس ـ إذ قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنة محمد، يا صفية بنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني =



واصباحاه، فاجتمع إليه الناس من أَهل مكة، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، حتى أَتى على بطون قريش جميعاً، فلما تكامل خلق كثير من كل بَطْن قال لهم: «أَرَأَيتم لو أَخبرتكم أَن خيلاً بسفح الجبل تريد الغارة عليكم، أَكنتم مُصَدِّقي»؟ قالوا: نعم، فإِنا لم نجرب عليك كذباً، فقال لهم: «فإِنِّي نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد»، فقال له أَبو لهب لعنه الله: أَلهذا جمعتنا؟ تبًّا لك سائر اليوم، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ السورة[1].

و«الْعَشِيرَة»: قرابة الرجل، وهي في الرتبة تحت الفخذ وفوق العصبة. و«خفض الجناح» استعارة، ومعناه: لِينُ الكلمة وبَسْط الوجه والبرُّ، والضمير في (عَصَوْكَ) عائد على عشيرته من حيث جمعت رجالاً، فأَمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي منْهم[2]، وفي هذه الآية موادعةٌ نسختها آية السيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦﴾.

قرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة: [فَتَوَكَّلْ] بالفاءِ، وكذلك في مصاحف

= من مالي ما شئتم»، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن عروة مرسلاً مثْلَه. (الدر المنثور). وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت، ما أُغني عنك من الله شيئاً».

(١) أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، وابن مردويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج مثله عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من النظرات العميقة ما رواه في البحر عن بعض العلماءِ، قال: «قيل: الضمير يعود على من اتَّبعه من المؤمنين، والمعنى: فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإيمان بعد التصديق والإيمان فقل: إني بريءٌ مما تعملون لا منكم، أي: أظهر عدم رضاك بأعمالهم، وإنكارك عليهم، ولو أمره بالبراءة منهم ما بقي بعد هذا شفيعاً للعصاة».

أَهل المدينة والشام، والجمهور بالواو، وكذلك في سائر المصاحف، وأَمره تعالىٰ بالتوكل عليه في كل أَمره، ثم جاءَ بالصفات التي تؤنس المتوكِّل، وهي العزَّة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأُمم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة، والتَّهمُّم بأَمره والنظر إِليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عبارة عن إِدراك، وظاهر الآية أَنه أَراد قيام الصلاة، ويحتمل أَنه يريد سائر التصرفات، وهو تأْويل مجاهد وقتادة، وقوله: ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أَي: في أَهل الصلاة، أَي صلاتك مع المصلين، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وقال أَيضاً مجاهد: تقليب أَعينك وأَبصارك في الساجدين حين تراهم من وراءِ ظهرك(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى أَجنبي هنا.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً وقتادة: أَراد: تقلُّبك في المؤمنين، فعبَّر عنهم بالساجدين. وقال ابن جبير: أَراد الأَنبياءَ، أَي: تقلبك كما تقلب غيرك من الأَنبياءِ(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، هنا استفهام وتوقيف تقرير، و«الأَفَّاكُ»: الكذاب، و«الأَثيم»: الآثم، ويريد الكهنة لأَنهم كانوا يتلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماءِ فيخلطون معها مئة كذبة، فإِذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالةٍ لمن سمعها. وقوله: (يُلْقُونَ) يعني الشياطين، ومُقْتَضى ذلك أَن الشيطان المسترق أَيضاً كان يكذب إِلى ما سمع، هذا في الأَكثر، ويحتمل الضمير في (يُلْقُونَ) ـ أَي يكذبون ـ الكهنة.

ولما ذكر الكهنة بإِفكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالىٰ عقَّب

---

(١) يؤيد ذلك قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من خلفي».

(٢) وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: «تقلبك في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء حتى خرجت إلى الوجود»، وقال الزمخشري: «ذكر ما كان يفعله ﷺ في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم».

ذلك بذكر الشعراءِ وحالهم لينبِّه على بُعْد كلامهم من كلام الله تعالىٰ في القرآن، إذ قال في القرآن بعض الكفرة: إنَّه شعر، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية، حكى النقاش عن السدِّي أنها في ابن الزِّبعرى، وأَبي سفيان بن الحرث، وهبيرة بن أَبي وهب، ومسافع الجمحي، وأَبي عزة[(١)]، وأُميَّة بن أَبي الصلت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الأَولان ممن تاب وآمن رضي الله عنهما، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أَو يمدح شهوة، ويقذف المحصنات، ويقول الزُّور.

وقرأَ نافع: [يَتْبَعُهُمُ] بسكون التاءِ وفتح الباءِ، وهي قراءَة أَبي عبد الله، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، وقرأَ الباقون بشدِّ التاءِ وكسر الباءِ.

واختلف الناس في قوله: (ٱلْغَاوُونَ) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرُّواة، وقال أَيضاً: هم المستحسنون لأَشعارهم، المصاحبون لهم، وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر، وهذا أَرجح الأَقوال. وقال مجاهد وقتادة: (ٱلْغَاوُونَ): الشياطين. وقوله تعالىٰ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غثِّ الكلام وباطله، وتحسينهم القبيح وتقبيحهم الحسن، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعمُّقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب، ولكن في هذا اللفظ عذرٌ لبعضهم أَحياناً، فإنه يُرْوى أَن النعمان بن عدي لما ولأَه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميسان، وقال لزوجته الشعر المشهور عَزَلَهُ عمر رضي الله عنه، فاحْتَجَّ عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فدرأَ عنه عمر رضي الله عنه الحدَّ في الخمر[(٢)]. وروى جابر بن عبد الله عن

---

(١) هو أبو عزَّة الجمحيُّ.

(٢) النعمان بن عديّ بن نضلة، ولأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاية ميسان، فقال شعراً جاء فيه:

مَـــن مُبْلـــغ الحسْنــاءَ أنَّ حَليلَهَــا ... بمَيْسَـانَ يُسْقَـى فـي زُجـاج وَحَنْتَـم
إذا شئْـتُ غَنَّتْنـي دَهَـاقِيـنُ قَـرْيَـةٍ ... وَرَقَّـاصَـةٌ تَجْـذُو عَلَـى كُـلِّ مَنْسَـمِ
فَـإنْ كُنْـتَ نَـدْمَـانِي فبـالأَكْبَـرِ اسْقِنـي ... ولا تَسْقِنـي بـالأَصْغَـرِ المُتَثَلِّـم
لعَـلَّ أمِيـرَ المـؤمنيـن يَسُـوؤهُ ... تَنَـادُمُنَـا بـالجَـوْسَـقِ المُتَهَـدِّمِ =

النبي ﷺ أنه قال: «مَن مشى سبع خطوات في شعر كُتب من الغاوين»، ذكره أسد بن موسى، وذكره النقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

هذا الاستثناءُ هو في شعراءِ الإسلام، كحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكل من اتصف بهذه الصفة، وروي عن عطاءِ بن يسار أَن هؤلاءِ شقَّ عليهم ما ذكر قَبْلُ في الشعر، وذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية للاستثناءِ في الشعر[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يحتمل أَن يريد: في أَشعارهم، وهو تأْويل ابن زيد، ويحتمل أَن يريد: ذلك خُلُق لهم وعادة وعبادة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعر: «إِن الله أَبدلني بالشعر القرآنَ خيراً منه»، وكلُّ شاعر في الإِسلام يهجو أَو يمدح عن غير حقٍّ، ويقذف ولا يرتدع عن قول دنيءٍ، فهو داخل في هذه الآية، وكل تقيٍّ منهم يكثر من الذكر، ويُمسك عن كل ما يعاب فهو

= فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه بالقدوم عليه، فلما قدم قال له: أي والله إنه ليسوؤني ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، ما فعلت شيئاً ممَّا قلتُ، وإنما كان من فضلة القول، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾، فقال له عمر رضي الله عنه: أما عذرك فقد درأ عنك الحدَّ، ولكن لا تعمل لي أبداً وقد قلتَ ما قلتَ.

وقد رُوي أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فَبِتْـنَ بِجَـانِبَـيَّ مُصَـرَّعَـاتٍ ... وبِـتُّ أُفُـضُّ أغْـلاقَ الْخِتَـام

فقال له: قد وجب عليك الحدُّ، قال الفرزدق: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدَّ بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

(١) أخرج مثله عن أبي هريرة ابنُ مردويه، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشِّعر حكمة»، قال: «وأتاه قرظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسَّان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: اقرؤوا، فقرؤوا: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال: أنتم هم، ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، قال: أنتم هم، ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾، قال: أنتم هم».



داخل في الاستثناءِ. وقولُه: (وَٱنتَصَرُوا) إشارة إلى ما قالوه من الشعر وغيره في قريش، قال قتادة: وانتصروا بمثل ما ظلموا.

وباقي الآية وعيدٌ للظَّلَمة كفارِ مكة، وتهديدٌ لهم. وعَمِل (يَنْقَلِبُونَ) في (أَيَّ) لتأَخره[1]، والحول والقوة لله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالىٰ أعلم.

تمَّ بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشُّعراءِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

(١) ومعنى ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصير يصيرون، وأيَّ مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العذاب وهو شرُّ مرجع.

وقال الماوردي: الفرق بين المُنْقَلب والمرجع أن المُنْقَلب هو الانتقال إلى ضدِّ ما هو فيه، والمرجع هو العودُ إلى حالٍ كان عليها من حالٍ هو فيها، فصار كل مرجع مُنقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن يَجُرْ وَيُبَدِّلْ فلا أعلم الغيب، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النمل[(١)]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل السُّور، وكل ما قيل مترتب هنا، وعلى القول بأَنها حروف من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ فالأَسماءُ هنا: لطيف وسميع، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أَبين الأَقوال. وعطف (كِتَاب) على (الْقُرْآن) وهما لِمُسَمًّى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن لأَنه اجتمع، والكتاب لأَنه كُتب، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وكتابٌ مبينٌ] بالرفع[(٢)]. وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع نصب على المصدر، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: ذلك هدى وبشرى.

ثم وصف تعالىٰ المؤمنين بالأَوصاف الخليقة بهم. وإقامة الصلاة: إدامتها على وجهها. و(ٱلزَّكَاة) هنا يحتمل أَن تكون غير المفروضة لأَن السورة مكية قديمة، ويحتمل أَن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: (ٱلزَّكَاةُ) هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأَخلاق. وتكرار الضمير في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للتأكيد.

ثم ذكر تعالىٰ الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث، والإشارة إلى قريش. وقوله تعالىٰ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يحتمل أَنه تعالىٰ حتم عليهم الكفر، وحبَّب إليهم الشِّرك، وزيَّنه بأَن

(١) هذه السورة مكية في قول الجميع، وآياتها ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون آية.

(٢) والتقدير: «وآياتُ كتابٍ»، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه فأُعرب بإعرابه. قاله في البحر.

خلقه واخترعه في نفوسهم، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم، وهذا على أَن تكون الأَعمال المُزَيَّنة كفرهم وطغيانهم، ويحتمل أَن الأَعمال المُزيَّنة هي الشريعة التي كان الواجب أَن تكون أَعمالهم، فأَخبر الله تبارك وتعالىٰ على جهة الذكر أَنه بفضله ورحمته زيَّن الدِّين وبيَّنه، ورسم الأَعمال والتوحيد، لكن هؤلاءِ (يَعْمَهُونَ)، أَي: يُعرضون، و«العَمَه»: الحيرة والتردُّد في الضلالة. ثم توعدهم تعالىٰ بسوءِ العذاب، فمن ناله شيءٌ منه في الدنيا بقي عليه عذاب الآخرة، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوءُ عذابه في موته وفيما بعده، و(ٱلْأَخْسَرُون): جمع أَخْسَر؛ لأَن (أَفعل) صفة، لا يجمع إِلا أَن يضاف فتقوى رتبته في الأَسماءِ، وفي هذا نظر(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾.

«تُلَقَّى» تُفَعَّل، مضاعف، ومعناه: تعطى، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(٢)، قال الحسن: المعنى: إِنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنه يفيض عليه فضل الله تعالىٰ فيقبله ﷺ، وهذه الآية ردٌّ على كفار قريش في قولهم: إِن القرآن من تلقاءِ محمد بن عبد الله. و﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ معناه: من عنده ومن جهته. و«الْحَكِيمُ»: ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته، وفي غير ذلك، لا إِلـه إِلاَّ هو.

ثم قصَّ تعالىٰ خبر موسى، والتقدير: اذكر إِذ قال موسى، وكان من أَمر موسى عليه

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله: «ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير إذا كان بأَلْ، ولا يجوز فيه إلا ذلك إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية، فيقال: الزيدون هم الأفضلون والأفاضل، والهندات هن الفُضليات والفُضَل، وأما قوله: (لا يجمع إلا أَنْ يضاف) فلا يتعين إذْ ذاك جمعه، بل إذا أُضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه، وإن أُضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما تقرر في كتب النحو».

(٢) من الآية (٣٥) من سورة (فُصِّلَت).



السلام أنه حين خرج بزوجته بنت شعيب عليهما السلام يريد مصر ـ وقد قرب وقت نبوته ـ مشوا[١] في ليلة ظلماءَ ذات برد ومطر، ففقدوا النار ومسَّهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق، وأَصْلَدَ[٢] زناد موسى عليه السلام، فبينا هو في هذه الحال إذْ رأى ناراً على بُعد. و(آنَسْتُ) معناه: رأَيتُ، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

انظُـرْ خَليلـي بِبَـابِ جِلَّـقَ هَـلْ تُـؤْنِـسُ دونَ الْبَلْقـاءِ مِـنْ أَحَـدِ ؟[٣]

فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية، ومشى نحوها، فلما دنا منها بعدت هي منه، وكان ذلك نوراً من نور الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن ناراً في نفسه، لكن ظنه موسى ناراً، فناداه الله تبارك وتعالىٰ عند ذلك، وسمع موسى عليه السلام النداءَ من جهة الشجرة، وأَسمعه الله تعالىٰ كلامه. و«الْخَبَر» الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق. وقوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، شبه النار التي توجد في طرف عود أَو غيره بالشهاب، ثم خصَّصه بأَنه مما اقتبس؛ إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتبس في عود أَو غيره، كما أَن القبض اسم ما يُقْبض، ومنه قول أَبي زيد:

فــي كَفِّــهِ صَعْــدَةٌ مُثَقَّفَــةٌ فيهـا سِنَـانٌ كَشُعْلَـةِ الْقَبَـسِ[٤]

---

(١) جاءَ الضمير في كلام ابن عطية للجمع؛ لأن الظاهر أن قول الله تعالىٰ: (لأَهْلِهِ) يدل على الجمع، لقوله سبحانه بعد ذلك: (سَآتِيكُمْ)، و(تَصْطَلُونَ)، هذا وقد قيل: لم يكن معه غير زوجته، وهذا واضح من كلام ابن عطية حين بدأ يقص قصة موسى عليه السلام، وقيل: كانت امرأته قد ولدت له ولداً وهو عند شعيب عليه السلام فكان هذا الولد مع أُمه، ويمكن أن يكون الكلام من باب التعظيم والإكرام باستعمال ضمير الجمع.

(٢) يقال: أَصْلَدَ الزَّنْد: صوَّتَ ولَمْ يُور.

(٣) البيت في الديوان، وفي اللسان، وقد وردت الرواية: (ببطن جِلَّق)، ويُروى: (انظر نهاراً)، ويروى: (انظُر حبيبي)، وهي رواية ابن دريد، وجاءت في تاريخ ابن عساكر: (٤ـ١٣٣). وجلَّق بفتح اللام المشددة وبكسرها: دمشق، والبلقاءُ: من أعمال دمشق، والشاهد فيه هنا أن (تؤنس) بمعنى: تَرَى.

(٤) البيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، قال: «﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أي: بشعلة نار». والصَّعْدَةُ: القناةُ، وقيل: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى التثقيف، والمثقَّفة: التي أُقيم وأُصلح ما فيها من اعوجاج. والشاهد في البيت إضافة (الشعلة) إلى (القبس)، أي: شعلة مقتبسة من نار، فهي كقوله تعالىٰ: [بشهابِ قبس] في قراءة من قرأ بالإضافة.



وقول الآخر:

مَنْ شَاءَ مِنْ نارِ الْجَحِيمِ اسْتَقْبَسَا[١]

وأَصل الشهاب الكوكب المنقض في أَثر مُسْتَرِق السمع، وكل ما يقال له شهاب من النيران فعلى التشبيه، وقال الزجاج: كل أَبيض ذي نور فهو شهاب، وكلامه مُعترَض، والقبس يحتمل أَن يكون اسماً غير صفة أَضاف إِليه، بمعنى: بشهاب أَقتبسه أَو اقتبسته، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإِضافة الدار إِلى الآخرة[٢]، والصلاة إِلى الأُولى، وغير ذلك. وقرأَ الجمهور بإِضافة [شِهَابِ] إِلى [قَبَسٍ]، وهي قراءَة الحسن وأَهل المدينة ومكة والشام. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوين [شِهَابٍ]، وهذا على الصفة، ويجوز أَن تكون الصفة مصدر: قَبَسَ يَقْبِسُ، كما أَن الحَلْب مصدر: حَلَب يَحْلب، وقال أَبو الحسن: الإِضافة أَجود وأَكثر في القراءَة، كما تقول: دارُ آجُرٍّ وسوارُ ذهبٍ، حكاه أَبو علي. و(تَصْطَلُونَ) معناه: تستدفئون من البرد.

والضمير في (جَاءَهَا) للنار التي رآها موسى عليه السلام، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ يحتمل أَن تكون (أَنْ) مُفسِّرة، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب على تقدير: بأَن بُورك، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على تقدير: «نُودِيَ أَنَّهُ»، قاله الزَّجاج. وقوله: (بُورِكَ) معناه: قُدِّس وضوعف خيره ونُمِّي، والبركة مختصة بالخير، ومن هذا قول أَبي طالب بن عبد المطلب:

بُـورِكَ الميِّـتُ الْغَـرِيـبُ كمـا بُـو ... رِكَ نَبْـعُ الـرُّمَّـانِ والـزَّيْتُـونِ[٣]

و«بَارَكَ» مُتعد بغير حرف، تقول العرب: بَارَكَكَ اللهُ[٤].

---

(١) الجحيم: النَّار الشديدة التَّأَجُّج، وكلُّ نار تُوقد على نار فهي جحيم، والاقْتِباسُ: الأَخْذ من النار، واسْتَقْبَسَا: طلب الاقتباس من النار، والقَابِسُ: طالب النَّار، ويقال: قَبَسْتُ منه ناراً أَقْبِسُ قَبْساً فَأَقْبَسَني، وكذلك اقْتَبَسْتُ منه.

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١٠٩) من سورة (يوسف): ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾.

(٣) البيت في (اللسان ـ بَرَك) ـ والرواية فيه: «نَضْحُ الرُّمَّان» بدلاً من «نَبْع الرُّمَّانِ»، قال: «قال الأزهري: معنى بركةِ الله عُلُوُّه على كل شيءٍ، قال أبو طالب: بورك... البيت».

(٤) قال في (اللسان ـ برك): «بارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه». وقال الفراءُ: «والعرب تقول: «باركَكَ الله وبارك فيك»، وقال الثعلبي: «العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات»، ثم أنشد قول الشاعر:
=



وقوله تعالىٰ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ اضطرب المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، وغيرهم، أراد عزَّ وجلَّ نفسه، وعبَّر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد النورَ. وقال الحسن، وابن عباس: أراد بـ ﴿من حولها﴾ الملائكة وموسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف، بمعنى: بُورِكَ مَنْ قدرتُه وسلطانه في النار، والمعنى: في النَّار على ظنِّك وما حسبتَ، وأما القول بأن ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ النورُ، فهذا على أن يُعبَّر عن النور من حيث كان أنه من نور الله تعالىٰ، ويحتمل أن يكون من الملائكة؛ لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخْلُ من ملائكة. و﴿من حولها﴾ يكون موسى والملائكة المطيفين به. وقرأ أُبيُّ بن كعب [بُورِكَت النَّارُ]. و﴿من حولها﴾ يكون موسى والملائكة، كذا حكى أبو حاتم، وحكى ابن مكي أنه قرأ: [تباركت النَّارُ ومَنْ حولها]، وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ: [ومَنْ حَوْلَهَا مِنَ الملائكة]، قال: وكذلك قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداءِ لموسى

= فبُـورِكْـتَ مَـوْلُـوداً وبُـورِكْـتَ نـاشِئـاً وبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إذْ أَنْتَ أَشْيَبُ

وقال عبد الله بن الزبير:

فبُـورِكَ فـي بَنِيـكَ وفـي بَنِيهِـمْ إذَا ذُكِـرُوا ونَحْـنُ لَـكَ الْفِـدَاءُ

ومعنى هذا أن (بَارَكَ) تتعدَّى بالحرف وبغير الحرف.

(١) قال النحاس عمَّا رواه الداني ومكي من قراءة أُبي وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صحَّ لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النَّار ومن حولها الملائكة وموسى».

وقال أبو الفتح في قراءة أُبي: [تباركت] ـ ورواها: [تباركت الأرضُ] ـ: «هو تفاعل من البركة، وهو تأكيد لمعنى البركة، كقولك: (تعالىٰ الله)، فهو أبلغ من (علا)، وأصل هذا من فَعَّل في الفعل، فَقَطَّعْتُ وكسَّرْتُ أقوى معنى مِنْ قَطَعْتُ وكَسَرْتُ، وعليه جاء قوله تعالىٰ: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فهو أبلغ من قادر، ولهذا أيضاً جاءَ قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، فقد عبَّر عن لفظ الحسنة بـ (كَسَبَ) وذلك لافتقار الحسنة إلى ثوابها، لقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وجاء (اكْتَسَبَ) في السيئة تنفيراً منها، وتهويلاً وتشنيعاً بارتكابها».

عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ اعتراضاً بين الكلامين، والمقصد به ـ على كلا الوجهين ـ تنزيه الله عزَّ وجلَّ ممَّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداءِ في الشجرة، وكون قدرته وسلطانه في النَّار. وعَوْد (مَنْ) عليه، أي: هو مُنَزَّه ـ في جميع هذه الحالات ـ عن التشبيه والتَّكْييف، قال الثعلبي: وإنما الأمر ـ كما رُوي في التوراة ـ: «جاءَ الله من سيناءَ، وأشرق من ساعير، واستَعلن من فاران»، المعنى: ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات[1]. والضمير في (إِنَّهُ) للأمر والشأنِ، قال الطبري: ويُسميها أهل الكوفة المجهولة، آنَسه الله تعالىٰ بصفاته من العزَّة التي لا خوف معها، والحكمة، أي: لا نقْص في أفعاله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أَمره الله تعالىٰ بهذين الأَمرين تدريباً له في استعمالهما، وفي الكلام حذف تقديره: «فألقى مُوسى العصا»، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾. وأَمال (رآها) بعض القراءِ، و«الجانُّ»: الحيَّات؛ لأَنها تخفي أَنفسها، أَي تسترها، وقالت فرقة: «الجان»: صغار الحيَّات، وعصا موسى عليه السلام صارت حيَّة ثعباناً وهو العظيم، وإِنما شبهت بالجانِّ في سرعة الاضطراب؛ لأَن الصغار أَكثر حركة من الكبار، وعلى كل قول فإِن الله تبارك وتعالىٰ خلق في العصا وغيَّر أَوصافها وأَعراضها فصارت حيَّة. وقرأَ الزهري، وعمرو بن عُبَيْد: [جَأَن] بالهمز.

فلما أَبصر موسى عليه السلام هول ذلك المنظر ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، قال مجاهد: لم يرجع، وقال قتادة: ولم يلتفت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعقَّب الرجل: إِذا ولَّى عن أَمر ثم صرف بدنه أَو وجهه إِليه كأَنه انصرف على

---

(١) قال القرطبي: «فمجيئه من سيناءَ بعثُه موسى عليه السلام منها، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح عليه السلام منها، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً ﷺ منها، وفاران: مكة».



عقبيه، وناداه الله مؤنساً ومُقَوِّياً على الأمر: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ فإن رسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون عندي ومعي، فأخذ موسى عليه السلام الحيَّة فرجعت عصاه، ثم صارت له عادة.

واختلف الناس في الاستثناءِ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ـ فقال مقاتل وغيره: الاستثناءُ متَّصل[1]، وهو من الأنبياءِ، وروى الحسن أن الله تعالىٰ قال لموسى: أَخفتك لِقَتْلك النفس، وقال الحسن أيضاً: «كانت الأنبياءُ تذنب فتُعَاقَب، ثم تذنب ـ والله ـ فتعاقب، فكيف بنا؟»، وقال ابن جريج: لا يخيف الله تعالىٰ الأنبياءَ إلا بذنب يصيبه أَحدهم، فإن أَصابه أَخافه حتى يأخذه منه، قال كثير من العلماءِ: لم يعرف أَحد من البشر لهم من ذنب إلا ما رُوي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَجمع العلماءُ أَن الأَنبياءَ عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، واختلف فيما عدا هذا، فعسى أَن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك.

وفي الآية ـ على هذا التأويل ـ حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نَصِّه، تقديره: «فمن ظلم ثم بدَّل حسناً بعد سوءٍ». وقال الفراءُ وجماعة: الاستثناءُ منقطع، وهو إخبارٌ عن غير الأَنبياءِ، كأَنه قال: من ظلم من الناس ثم تاب فإني غفور رحيم، وقالت فرقة: (إلاَّ) بمعنى الواو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا وجه له[3]. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وزيد بن أَسلم: [أَلاَ مَنْ

(١) قال أبو حيان: «الأظهر أن قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن مَن ظلم من غيرهم، قاله الفراءُ وجماعة؛ إذ الأنبياءُ معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم».

(٢) وأشار الزمخشري إلى أن الصغائر التي فرطت منهم قد تسمى ظلماً، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزه القبطي، وسمَّاه الله ظُلْماً كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، لكن بعض العلماء قالوا: إن ذلك يكون قبل النبوَّة، فالأنبياءُ معصومون من الكبائر والصغائر.

(٣) لأن التقدير يكون: «وَلا مَنْ ظَلَمَ»، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأن معنى (إلا) مُبَاين لمعنى الواو مباينة كبيرة؛ إذْ الواو للإدخال وإلا للإخراج، فلا يمكن وقوع أَحدهما موقع الآخر.

ظَلَمَ] على الاستفتاح. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ معناه: عملاً صالحاً مقترناً بتوبة، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك، وأهل السُّنة في التائب من المعاصي، على أنه في المشيئة كالمصرّ، لكن يغلب الرجاءُ على التائب والخوف على المُصِرّ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] عمَّت الجميع من التائب والمُصِرّ، ولا فرق بين المشرك وغيره؛ لأنه يذهب فائدته، إذْ الشِّرك يُغفر للتائب، وما دونه كذلك على تأويلهم، فما فائدة التفصيل في الآية، وهذا الاحتجاج لازم فتأمله. ورُوي عن أبي عمرو أنه قرأ: [حسناً بعد سوء] بفتح الحاءِ والسين، وهي قراءَة مجاهد، وابن أبي ليلى، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني[2]: [حُسْنَى] مثل فُعْلَى.

ثم أمر الله تعالىٰ موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جبته لأنها لم يكن لها كُمٌّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مجاهد: مِدْرَعة صوف إلى بعض يده، و«الجيب»: الفتح في الثوب لرأس الإنسان، ورُوي أن يد موسى عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة نور يتلألأُ، ومعنى إدخال اليد في الجيب ضم الآية إلى موسى، وإظهار تلبسها به؛ لأن المعجزات من شروطها أن يكون لها اتصال بالرائي. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير برص ولا علَّة، وإنما هي آية تجيءُ وتذهب، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي﴾ متصل بقوله: (أَلْقِ) و(أَدْخِلْ)، وفيه اقتضاب وحذف، تقديره: تمهد وتيسر لك ذلك في جملة تسع آياتٍ، وهي: العصا، واليد البيضاءُ، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والحجر، وفي هذين الأخيرين اختلاف، والمعنى: يجيءُ بهن إلى فرعون وقومه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: (جَاءَتْهُمْ) لفرعون وقومه، و(مُبْصِرَةً) معناه: معها الإبصار

---

(١) تكررت في الآيتين (٤٨) و(١١٦) من سورة (النساء).

(٢) في البحر المحيط: «محمد بن عيسى الأصبهاني».

والوضوح، وعلى هذا نحو قولهم: نهارٌ صائم، وليل قائمٌ ونائمٌ. وقرأ قتادة والحسن: [مَبْصَرَة] بفتح الميم والصاد[1].

وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ حصول الكفر عناداً، وهي مسألة فيها قولان: هل يجوز أن يقع أمْ لا؟ فجوَّزت ذلك فرقة وقالت: يجوز أن يكون الرجل عارفاً إلاَّ أنَّه يجحد عناداً ويموت على معرفته وجحوده، فهو بذلك في حكم الكافر المخلد، قالوا: وهذا حكم إبليس، وحكم حيي بن أَخطب وأَخيه حسب ما رُوي عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإن عورض هذا المثال فُرض إنسان يجوز ذلك فيه. وقالت فرقة: لا يصح لوجهين: أَحدهما أَن هذا لا يجوز وقوعه من عاقل، والوجه الآخر أَن المعرفة تقتضي أَن يحل في القلب، وذلك إيمانٌ، وحكم الكافر لا يلحقه إلاَّ بأَن يحلَّ في القلب كفر، ولا يصح اجتماع الضدين في محل، قالوا: ويشبه في هذا العارف الجاحد أَن يسلب عند الموافاة تلك المعرفة ويحل بدلها الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر عندي في هذه الآية وما جرى مجراها أَن هؤلاءِ الكفرة إذا نظروا في آيات موسى أَعطتهم قولهم: «إن هذا ليس تحت قدرة بشر»، وحصل لهم اليقين أَنها من عند الله تعالىٰ، فيغلبهم أَثناءَ ذلك الحسدُ، ويتمسكون بالظنون في أَنها سحر وغير ذلك حتى يُسلب ذلك اليقين أَو يدفع، وحكمه حكم المستلب في وجوب عذابهم.

و[ظُلْماً] معناه: على غير استحقاق للجحد، و«العُلُوُّ» في الأَرض أَعظم آفة على طالبه، قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[2].

---

(١) في البحر المحيط: «وقرأ قتادة وعلي بن الحسين»، وعلى هذه القراءة تكون الكلمة مصدراً، كما تقول: الولد مَجْبَنَةٌ، وأُقيم المصدر مكان الاسم، وانتصب أيضاً على الحال، وهذا الوزن كثير في صفات الأماكن، قيل: أرض مَسْبَعة، ومكان مَضَبَّة، ومَثْعَلَة، بمعنى: كثيرة السباع، أو الضباب، أو الثعالي، وهذا في الجواهر أو الأعيان، وأما في الأحداث فمنه: الحقُّ مَجْدَرَةٌ بك ومخلقة ومَعْسَاةٌ ومَقْمَنَةٌ.

(٢) من الآية (٨٣) من سورة (القصص).



ثم عجَّبه تعالىٰ من عاقبة المفسدين قوم فرعون، وسوءِ مُنقلبهم حين كذَّبوا موسى، وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذْ كانوا مفسدين مستعْلِينَ. وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [وَعُلِيًّا]، وحكى أبو عمرو الداني عنهم وعن أبان بن ثعلب أنهم كسروا العين من [عِلِيًّا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا ابتداءُ قصص فيه غيوب وعبر، وليس بمثال لقريش، وداود عليه السلام من بني إسرائيل وكان ملكاً، وورث سليمانُ عليه السلام مُلْكه ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار ذلك إليه بعد موت أبيه، ويُسمى ميراثاً تجوزاً، وهذا نحو قولهم: «العلماءُ ورثة الأنبياءِ»، وحقيقة الميراث في المال، والأنبياءُ لا تورث أموالهم؛ لأن النبي ﷺ قال: «إنَّا معشر الأنبياءِ لا نورث»(١)، يريد به أن ذلك من فعل الأنبياءِ عليهم السلام وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أشهر الأقوال فيه، وهذا كما تقول: «إنَّا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة»، فالمراد أن ذلك فعل الأكثر، ومنه ما حكى سيبويه: «إنَّا معشر العرب أقْرى الناس للضيف».

وقوله تعالىٰ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ إخبارٌ بنعمة الله تبارك وتعالىٰ عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها، فهذا نحو ما كان نبينا محمد ﷺ يسمع أصوات الحجارة بالسلام، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أنه قال: «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ»، إلى كثير من هذا النوع، وقال قتادة والشعبي وغيرهما: إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة، والنملة طائر إذ قد يوجد لها الأجنحة، قال الشعبي: وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين، وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس، ويحتاجه في البعث في الأمور، فخُصَّ لكثرة مداخلته، ولأن أمر سائر

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٦٣) ـ عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة».



الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير. والنمل حيوان فطن قوي شمام جدًّا، يدَّخر ويتَّخذ القِرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأَربع قطع لأَنها تنبت إِذا قسمت نصفين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره مدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ معناه: يصلح لنا ونتمنَّاه، وليست على العموم. ثم رَدَّد شُكر الله تبارك وتعالىٰ.

ثم قصَّ تعالىٰ حال سليمان فقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾ أَي: جُمِع، واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أُرِدْ ذكره لعدم صحته، غير أَن الصحيح أَن مُلْكه كان عظيماً، ملأَ الأَرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيه يحمله أَجناده من الجن والإِنس، وكانت الطير تظلله من الشمس، ويبعثها في الأُمور، فكان له في الكرسي الأَعظم موضع يخصه. و(يُوزَعُونَ) معناه: يُرَدُّ أَوَّلهم على آخِرهم ويُكفُّون، قال قتادة: فكان لكل صنف وزعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأَرض إِذا مشوا فيها، ـ فرُبَّ وقت كان يسير فيه في الأَرض ـ، ومنه قول الحسن البصري حين وَلي قضاءَ البصرة: «لا بُدَّ للحاكم من وَزَعة»، ومنه قول أَبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أَنها ترى سواداً أَمامه فارس قد تقدم من الصَّف، فقال لها: ذاكَ الوازع[1]، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟[2]

أَي: كافٌّ.

---

(١) روى محمد بن إسحاق عن أسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهم قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوَى ـ تعني يوم الفتح ـ قال أبو قحافة ـ وقد كُفَّ بصره يومئذ ـ لابنته: اظهري بي على أبي قُبَيْس، قالت: فأشرفت به عليه فقال: ما تَرَيْن؟ قالت: أرى سواداً مُجْتَمِعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبلاً ومُدبراً، قال: ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر... إلخ الخبر.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع بن عوف من تميم. و(عَلَى) في البيت بمعنى (في)، كقوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾. وأَصْحُ: أُفِيق، والوازع: الزَّاجر الكافُّ، والصِّبا: الصَّبوة وما فيها من أَعمال الشباب ولهوهم، والبيت مرتبط بما قبله وهو قوله:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا ... عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ

يقول: كَفْكَفْتُ دَمْعِي في الوقت الذي عاتبت فيه نفسي في حال مَشِيبها على أفعال التَّصَابي، وقلت=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾.

ظاهر هذه الآية أَن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاةً في الأَرض، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل](١)، ويحتمل أَنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح، وأَحَسَّت النمل بنزولهم في وادي النمل [ووادي النمل قيل: بالشام، وقيل بأَقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أَشعارها](٢).

وأَمال أبو عمرو الواو من [وَادي]، والجميع فخَّم، والإمالة قراءَة ابن أَبي إِسحاق. وقرأَ المعتمر بن سليمان عن أَبيه: [ٱلنَّمُلِ] بضم الميم كالشَّمُس، و[قالتْ نَمُلة] أَيضاً بالضَّم كسَمُرة، ورُوي عنه أَيضاً ضم النون والميم من [النُّمُل]. قال نَوْف البِكَالي(٣): كان ذلك النمل على قدر الذباب، وقالت فرقة: بل كانت صغاراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يقال في هذا أَن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل منَّا، فيحتمل أَن كان الخلق كله أَكمل. وهذه النملة قالت هذا المعنى ـ الذي لا يصلح له إِلاَّ هذه العبارة ـ قولاً فهمه عنها النمل، فسمعه سليمان عليه السلام على بُعْده، وجاءَت المخاطبة كمن يعقل، لأَنها أَمرتهم بما يؤمر به من يعقل، وروي أَنه كان على ثلاثة

= لنفسي: أَلَم أُفق بعدُ من طيشي وجهالتي، والشيب وازع يزجرني ويكُفّني؟ والشاهد في البيت أن (وازع) بمعنى كافّ، ومثله في ذلك قول الآخر:

ولمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا ... دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بالأَصَابِعِ

وقول الآخر:

وَلاَ يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى ... مِنَ النَّاسِ إلا وَافِرُ العَقْلِ كَامِلُهْ

(١) ما بين العلامتين [.....] غير موجود في الأصول، ولكنا نقلناه عن البحر المحيط حيث نقل نصَّ كلام ابن عطية.

(٢) ما بين العلامتين [.....] غير موجود في الأصول، ولكنا نقلناه عن البحر المحيط حيث نقل نصَّ كلام ابن عطية.

(٣) هو نوْفُ بن فَضَالة البِكاليّ، شامي مستور، من الثانية، مات بعد التسعين. (تقريب التهذيب).



أَميال فَتَبَسَّم من قولها. والتَّبَسم ضحك الأنبياءِ في غالب أَمرهم، لا يليق بهم سواه[(١)].

وكان ضحكه سروراً، واخْتُلِفَ بِمَ؟ فقالت فرقة: بنعمة الله تبارك وتعالىٰ في إسماعه وتَفْهيمه ونحو ذلك، وقالت فرقة: بنَبَأِ النملة عليه وعلى جنوده في أَن نَفت عنهم تعمُّد القبيح من الفعل، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون.

وقرأَ شهر بن حوشب: [مَسْكَنَكُمْ] بسكون السِّين على الإِفراد، وفي مصحف أُبيٍّ رضي الله عنه [مَسَاكِنَكُنَّ]. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بشد النون وسكون الحاءِ، وقرأَ أَبو عمرو في رواية عبيدة: [لا يَحْطِمَنْكُمْ] بسكون النون، وهي قراءَة ابن أَبي إِسحاق، وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ: [لا يَحْطِمَنَّكُمْ] بضم الياءِ وفتح الحاءِ وكسر الطاءِ وشدِّها وشدِّ النون، وعنه أَيضاً [لا يَحْطِمَنَّكُمُ] بفتح الياءِ وكسر الحاءِ والطَّاءِ وشدِّها[(٢)]، وقرأَ الأَعمش وطلحة: [لا يَحْطِمَنَّكُمْ] مخففة بغير نون، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب [لا يَحْطِمَنَّكُمْ] مخففة النون التي قبل الكاف.

و(ضَاحِكاً) نصب على الحال، وقرأَ محمد بن السمَيْفَع: [ضَحِكاً]، وهو نصب على المصدر [بفعل محذوف يدلُّ عليه [تَبَسَّم]، كأَنه قال: «ضَحِكَ ضَحِكاً»، وهذا مذهب صاحب الكتاب، أَو يكون منصوباً بنفس [تَبَسَّمَ] لأَنه في معنى (ضَحك)][(٣)]

ثم دعا سليمان ـ عليه السلام ـ ربَّه في أَن يُعينه الله تعالىٰ ويفرغه لشكر نعمته، وهذا هو معنى إِيزاع الشكر. وباقي الآية بيِّن.

---

(١) في الصحيح عن جابر بن سمُرة وقيل له: أكنت تجالس النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مُصَلاه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغداة ـ حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّم. وفيه أيضاً عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ـ أي أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار ـ فقال له النبي ﷺ: ـ أي قال لسعد ـ ارْم فداكَ أَبي وأُمِّي، قال: فنزعت له بِسَهْم ليس فيه نصل فأَصبتُ جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحكَ رسول الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذه. ومن هذا نعرف أن الرسول ﷺ كان في أكثر أحواله يتبسَّم، ولكنه كان يضحك في بعض الأحيان ضحكاً أعلى من التَّبسُّم.

(٢) في المحتسب لابن جني أن القراءة بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء والنون، وأَنه روي عن الحسن أيضاً بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون، أما ضمُّ الياء مع فتح الحاء وتشديد الطاء والنون فقد ذكرها القرطبي عن الحسن.

(٣) اضطربت الأصول في الجزء الذي أثبتناه هنا بين العلامتين [. . . .]. حتى صار الكلام تخليطاً، ولما كان ابن عطية قد أخذ هذا الكلام عن ابن جني فقد آثرنا أن ننقل نفس العبارة التي أثبتها ابن جني في المحتسب حتى نضمن صحة التعبير وسلامته من التحريف والتصحيف.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

اختلف الناس في معنى «تفقُّده الطيرَ» ـ فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأُمور المُلْك والتَّهمُّم بكل جزءٍ منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الآَية أَنه تفقَّد جميع الطير، وقالت فرقة: بل تفقَّد الطير لأَن الشمس دخلت على المَلِك من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد الطير ليتبيَّن من أَين دخلت الشمس، وقال عبد الله بن سلام: إنما طلب الهدهد لأَنه احتاج إلى معرفة الماءِ على كم هو من وجه الأرض؛ لأَنه كان نزل في مفازة حُرم فيها الماءَ، ولأَن الهدهد كان يرى بطن الأَرض وظاهرها، كانت تشف له، فكان يخبر سليمان عليه السلام بموضع الماءِ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة، تسلخ عنه وجه الأَرض كما تسلخ الشاة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن سلام وغيره، وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً، ورُوي أَن نافع بن الأَزرق سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا، فقال له: قف يا وقاف، كيف يرى الهدهدُ بطن الأَرض وهو لا يرى الفخَّ حين يقع فيه؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءَ القضاءُ عمي البصر، وقال وهب بن منبه: كانت الطير تنتاب[1] سليمان عليه السلام كل يوم، من كل نوع واحد نوبة معهودة، فتفقد الهدهد.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى﴾ إنما المقصد أَن الهدهد غاب، لكنه أَخذ اللازم عن غيابه وهو أَلاَّ يراه، فاستفهم ـ على جهة التوقيف ـ عن اللازم، وهذا ضرب من الإِيجاز والاستفهامُ الذي في قوله ﴿مَالِيَ﴾ ناب مناب الأَلف التي تحتاجها (أَمْ)[2]. ثم توعَّده

(١) أي: تقصده مره بعد أُخرى، يقال: انتاب صديقَه: قصده مرة بعد أُخرى، وفلان يَنْتَابُنَا، والسباعُ تنتاب المنهل، (المعجم الوسيط).

(٢) معنى هذا أنَّ (أَمْ) متصلة، وأَن الاستفهام الذي في (مَالِيَ) ناب مناب أَلف الاستفهام، ويكون المعنى =

عليه السلام بالعذاب، ورروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأَن ينتف ريشه أَجمع، وقال يزيد بن رومان[1]: جناحه، ورُوي عن وهب أنه بأَن ينتف بعضه ويبقي بعضه. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة حيث وقع في القرآن، قاله عكرمة عن ابن عباس، وقرأَ عكرمة وحده: [ليأتينني] بنونين، وفعل سليمان عليه السلام هذا بالهدهد وحده غلاظاً على العاصين، وعلى إخلاله بِنَوْبه ورتبته.

وقرأَ جمهور القراءِ: [فَمَكُثَ] بضم الكاف، وقرأَ عاصم وحده: (فَمَكَثَ) بفتحها، ومعناه ـ في القراءَتين ـ: أَقامَ، والفتح في الكاف أَحسن؛ لأَنها لغة القرآن في قوله: (مَاكِثِينَ)[2]؛ إِذ هو من (مَكَثَ) بفتح الكاف، ولو كان من (مَكُثَ) بضم الكاف لكان جُمِع (مَكِيثٌ)[3]، والضمير في (مكث) يحتمل أَن يكون لسليمان عليه السلام أَو الهدهد، وفي قراءَة ابن مسعود: [فَتَمَكَّثَ ثم جاءَ فقال]، وفي قراءَة أُبي: [فَتَمَكَّثَ ثم قال أَحطتُ]. وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة، وقوله: (أَحَطْتُ) أَي: علمتُ علماً تامًّا ليس في علمك.

واختلف القراءُ في (سَبَإٍ) ـ فقرأَ الجمهور: ﴿سَبَإٍ﴾ بالصرف، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [سَبَأَ] بفتح الهمزة وترك الصرف، وقرأَ الأَعمش: [من سبأ] بالكسر وترك الصرف، وروى ابن حبيب عن اليزيدي [سَبَا] بالأَلف ساكنة، وقرأَ قنبل ـ عن النبال ـ بسكون الهمزة، فالأُولى على أَنه اسم رجل، وعليه قول الشاعر:

الْــوَارِدُونَ وتَيْــمٌ فــي ذُرَى سَبَــإٍ ... قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ[4]

= عند ابن عطية: «أغابَ عنّي الآن فلم أَره حالة التفقد أَم كان مِمَّن غاب من قَبْلُ ولم أَشعر بغيبته ؟».

(١) هو يزيد بن رومان المدني، مولى آل الزبير، ثقة، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وروايته عن أبي هريرة مرسلة. (تقريب التهذيب). ومعنى كلام ابن رومان أنه ينتف ريش جناحه.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣) من سورة (الكهف): ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

(٣) يقال: مَكَثَ يَمْكُث فهو ماكِثٌ مثل قَعَد يَقْعُد فهو قَاعِدٌ، ومَكُث يَمْكُث مثل عظُم يَعْظُم فهو مَكيثٌ مثل عظيم. هذا مذهب سيبويه، وقال غيره: بل يجوز في مكُث بالضم أن يقال: مكُث يَمْكُث فهو ماكِثٌ، مثل حمُض يَحْمُضُ فهو حامضٌ. (راجع كتب اللغة).

(٤) هذا البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن، ويُرْوى: ذُرَى، وذَرَا، ومعنى (عَضَّ أَعناقَهُم جلْدُ الجواميسِ) أن القيود المصنوعة من جلد الجواميس قد أثرت في أعناقهم. والشاهد هنا أن (سَبَأً) اسم رجل هو أبو القبيلة، ولهذا صرف، والبيت لجرير قاله في هجاء عمرو بن لجأ التيمي، وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الخامس صفحة ٣٦٣.

وقال آخر:

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ... . . . . (١)

وهذا على أنها قبيلة، والثانية(٢) على أنها اسم بلدة، قاله الحسن وقتادة، وكلا القولين قد قيل، ولكن رُوي عن رسول الله ﷺ من حديث فروة بن مُسَيْك وغيره أنَّهُ وُلد له عشرة من الولد، تيامن منهم ستة وتشامَّ أربعة(٣)، وحُكي(٤) هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواءَ. والثالثة على البناءِ. والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقيل في توالي الحركات، وهذه القراءَة لا تبنى على الأُولى، بل هي إما على الثانية أَو الثالثة. وقرأَت فرقة دون تنوين على الإِضافة، وقرأَت فرقة [بِنَبَى] بالألف مقصورة(٥).

---

(١) هذا جزء من بيت للنابغة الجعدي، والبيت بتمامه:

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ ... يَبْنُونَ مِنْ دونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا

والشاهد فيه أن (سَبَأَ) اسم قبيلة. ولهذا منع من الصرف.

(٢) يريد القراءة الثانية في القراءات التي ذكرها في كلمة (سَبَأ)، وكذلك يقصد القراءات في قوله بعد ذلك، والثالثة، والرابعة، والخامسة.

(٣) الحديث رواه الترمذي في سُنَنه (٢ـ١٥٤) عن فروة بن مُسَيْك المرادي، قال: «قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أَرْض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب... إلخ الحديث»، قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن، ورواه الطبري، وقال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) عن هذا الحديث ـ عند ترجمة فروة بن مُسَيْك ـ: أخرجه ابن سعد، وأَبو داود، والترمذي، وابن السكن مطوَّلاً ومختصراً.

(٤) في بعض النسخ: (وخَفِي) وهي أشبه وأقرب.

(٥) هذا الأسلوب في قوله تعالىٰ: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ يُسمى في علم البديع تجنيس التصريف، قيل: وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، وما ورد في قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير»، وقول الشاعر:

للهِ مَا صَنَعَتْ بِنَا ... تِلْكَ الْمَعَاجِرُ وَالْمَحَاجِرِ

وقيل: إن هذا النوع من الأسلوب يسمى التَّرْديد، وقال الزمخشري: «إنه من جنس الكلام الذي سمَّاه المحدثون البديع، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنىً، ألا ترى لو وضع (بِخَبَرٍ) مكان [بِنَبَإٍ] لكان المعنى صحيحاً؟ وهو كما جاءَ أَصحُّ لما في (النَّبَأ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال»، والزيادة التي يقصدها الزمخشري هنا أن (النبأ) لا يكون إلا الخبر الذي له شأنٌ، أما لفظ (الخبر) فمطلق، يطلق على ما له شأنٌ وما ليس له شأن.



وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أَي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا، ووصف عرشها بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان، وروي عن نافع الوقف على [عَرْشٍ]، فـ (عَظِيم) ـ على هذا ـ متعلق بما بعده، وهذه المرأَة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم، وقيل: بنت القَشْرح، وقيل: كانت أُمُّها جِنِّيَّة، وأَكثر بعض الناس في قصصها بما رأَيتُ اختصاره لعدم صحته، وإِنما اللازم من الآية أَنها مختصة بامرأَة ملكت على مدائن اليمن، وكانت ذات مُلْك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾.

كانت هذه الأُمة أُمة تعبد الشمس؛ لأَنهم كانوا زنادقة فيما روي، وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأَنوار. وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ظاهر أَنه من قول الهدهد، وهو قول ابن زيد وابن إِسحاق، ويعترض بأَنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع؟! [ويحتمل أَن يكون من قول سليمان لما أَخبره الهدهد عن القوم](١)، ويحتمل أَن يكون من قول الله تعالىٰ، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت مع التأَمل، وقراءَة التشديد في (أَلَّا) تعطي أَن الكلام للهدهد، وقراءَة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع، ويتأَمل إِن شاءَ الله تعالىٰ.

وقرأَ جمهور القراءِ (أَلَّا)، أَي: «لاَ يَسْجدوا»، فـ [أَنْ] في موضع نصب على البدل من (أَعْمَالَهُم)، أَو في موضع خفض على البدل من (السَّبِيلِ)، أَو يكون الكلام بتقدير: «لِئَلاَّ يَسْجُدوا»، فـ [أَنْ] متعلقة إِمَّا بـ (زَيَّنَ)، وإِمَّا بـ (فَصَدَّهُمْ)، واللام الداخلة على [أَنْ] داخلة على مفعول له(٢).

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة نقلناها عن القرطبي، لأنه نقل كلام ابن عطية وفيه هذه العبارة، أما الأصول التي بين أيدينا فقد خلت منها. وإن كان قول ابن عطية بعد ذلك: «وتُقَوِّي الآخر» يدل على أنه ذكر احتمالين فقط.

(٢) وقيل: العامل فيها ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: لا يهتدون أنْ يسجدوا، وعلى هذا القول تكون (لا) زائدة، =



وقرأ ابن عباس، وأَبو جعفر، والزهري، وأَبو عبد الرحمن، والحسن، والكسائي، والحسين: [أَلاَ يسجدوا] بتخفيف اللام، فعلى هذا له أَن يقف عَلَى [فهم لا يهتدون] ويبتدىءُ بـ [أَلاَ يسجدوا]، وإِن شاءَ وقف عَلَى [أَلاَ يَا] ثم يبتدىء: [ٱسْجُدُوا][1]، واحتج الكسائي لقراءَته هذه بأَنه روي عن النبي ﷺ أَنه موضع سجدة وإِن جعلناه من كلام الهدهد، بمعنى: أَلا يا قوم ونحو هذا، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ عَلَى البِلَى ... وَلا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ[2]

ونحو قول الأَخطل:

أَلاَ يا اسْلَمِي يا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ ... وَإِنْ كانَ حَيَّانَا عِداً آخِرَ الدَّهْرِ[3]

ومنه قول الآخر:

أَلاَ يَـــا اسْمَـــعْ أَعِظْـــكَ بِخِطْبَـــةٍ ... فَقُلْـتُ سَمِعْنَـا فـانْطِقـي وَأَصِيبـي[4]

= كقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي: ما مَنَعَك أن تَسْجُد، وعلى هذه القراءة فليست هذه الآية بموضع سجدة؛ لأنها خبر عنهم بترك السجود، إمَّا بالتزيين أوْ بالصدِّ أو بمنع الاهتداء.

(١) وتكون [أَلا] للاستفتاح، و[يا] حرف نداءٍ، والمنادى محذوف، والتقدير: أَلا يا قوم: اسجدوا، أوْ: أَلا يا هؤلاءِ اسجدوا، و[اسْجُدُوا] فعل أَمْر وسقطت أَلف الوصل في [اسْجُدوا]، وكتبت الياءُ من [يا] متصلة بالسين بعد أن سقطت الألف منها، والسبب في سقوط الألفين ـ ألف الوصل وألف النداء ـ في الخطِّ هو سقوطهما لفظاً، (راجع الألوسي والبحر).

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، والجرعاءُ: الأرض الرملة السهلة المستوية الطيِّبة المنبت التي لا وُعُوثَةَ فيها، يدعو لها بالري والسقيا الدائمة بعد السلامة من الفناءِ، والشاهد هنا أن حرف النداء دخل على منادى محذوف، والتقدير: ألا يا هذه اسلمي، و(اسلمي) فعل أمْر، تماماً كما حذف المنادى في الآية الكريمة في قراءة [أَلاَ] بالتخفيف، وجيءَ بفعل الأمر: [اسْجُدُوا].

(٣) البيت في (اللسان ـ عدا) منسوباً أيضاً إلى الأخطل التغلبي الشاعر الأموي، واللسان يستشهد به على أن العِدَى بمعنى الأعداءِ، ونقل عن ابن الأعرابي قوله: العِدَى: التباعد، وقومٌ عِدًى: إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف، وقومٌ عِدًى: إذا كانوا في حرب وأكثر من الكلام في ضبط العين من عِدًى. والشاعر يدعو لهند بالسلامة على الرغم مما بين الحيَّيْن من عداوة دائمة إلى آخر الزمن. والشاهد الذي قصده ابن عطية هنا هو حذف المنادى تماماً كما في بيت ذي الرُّمَّة.

(٤) الوَعْظ: النُّصح والتذكير بالعواقب، وفي الحديث: «لأجعلنَّك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك، والشاهد فيه هنا هو حذف المنادى، كما حذف في البيتين السابقين وفي الآية الكريمة، والتقدير: يا هذا، ثم يجيء بعده بفعل الأمر (اسْمَعْ). وهذا التركيب كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

ألا يا اسْلَمِي ذات الدَّمالِجِ والعقد =



وتحتمل قراءَة من شَدَّد [أَلاَّ] أن نجعلها بمعنى التَّحْضيض، ويقدر هذا النداءُ بعدها، ويجيءُ في الكلام إِضمار كبير ولكنه متوجه، وسقطت الألف كما كتبت في: يا عيسى، ويا قوم. وقرأ الأعمش: [هَلاَّ يَسْجُدونَ]، وفي حرف عبد الله: «أَلاَ هَلْ تَسْجُدُونَ» بالتَّاءِ، وفي قراءَة أُبيٍّ: [أَلاَّ تَسْجُدُوا] بالتاءِ أيضاً.

و(ٱلْخَبْءُ): الخفيُّ من الأمور، وهو من: «خبأْتُ الشيءَ»، وخبْءُ السماءِ: مطرها، وخبْءُ الأَرض: كنوزُها ونباتُها، واللفظة ـ بعد هذا ـ تعُمُّ كل خفي من الأُمور، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأَ جمهور الناس: (ٱلْخَبْءَ) بسكون الباءِ، وبالهمز[1]، وقرأَ أُبيُّ بن كعب: [ٱلْخَبَ] بفتح الباءِ وترك الهمز، وقرأَ عكرمة: [ٱلْخَبَا] بالأَلف مقصورة، وحكى سيبويه أَن بعض العرب [يقلب الهمزة أَلفاً إِذا كانت مفتوحة وقبلها ساكن] ويقلبها واواً إِذا كانت مضمومة وقبلها ساكن، ويقلبها ياءً إِذا كانت مكسورة وقبلها ساكن، ومثَّل سيبويه في ذلك بالوَثْي، تقول: رأَيتُ الْوَثا، وهذا الوَثْوُ، وعجبت من الوَثْيِ[2]، وكذلك يجيءُ (الْخَبا) في حال النَّصب، وتقول: اطلعت

= وقول الآخر:

ألا يا اسْقِيانِي قَبْلَ غارَةِ سَنْجَالِ

قال الفراءُ: وسمعت بعض العرب يقول: «أَلَا يا ارْحَمَانا، ألا يا تَصَدَّقا»، وفي كل هذه الأمثلة يكون المنادى محذوفاً وما بعده فعل أمر، وأنشد سيبويه:

يـــا لَعْنَـــةُ اللهِ والأَقْـــوَامِ كُلِّهِـــم وَالصَّـالِحِيـنَ عَلَـى سَمْعَـانَ مِـنْ جـارِ

والشاهد فيه حذف المنادى لدلالة حرف النداءِ عليه، والمعنى: يا قوم أو يا هؤلاءِ، لعنةُ اللهِ على سمعان، ولهذا رفع «لعنة» بالابتداءِ، ولو أوقع الشاعر النداءَ عليها لنصبها.

ونقل الكسائي عن عيسى الهمذاني قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها ـ يريد الآية الكريمة ـ إلا بالتخفيف على نيَّة الأمر، وقراءَة عبد الله [هلا تسجدون] بالتاء حُجَّة لمن خفف.

ومع ذلك فإن أبا حيان الأندلسي ينفي أن تكون الياءُ في كل هذه الأمثلة للنداء مع حذف المنادى، إذ لا يجوز حذف المنادى هنا بعد أن حذف الفعل العامل في النداءِ وانحذف فاعله لحذفه، ولو حذفنا بعد ذلك المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء ومتعلقه، وفي هذا إخلال كبير، ولهذا كله فإنه يرى أن (يا) في هذه الأمثلة حرف تنبيه أُكِّد به (ألا) التي للتنبيه أيضاً، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين.

(١) العبارة في الأصول: «بسكون الباء والهمز»، ولما كان من الممكن أن يفهم منها أن الكلمة بسكون الباء وسكون الهمز آثرنا زيادة الباء على كلمة (الهمز) حتى يتضح المعنى المقصود مباشرة، وهو أن الكلمة بالهمز لا بغير همز.

(٢) في (اللسان): الوَثْي: الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير كسر. وما بين =



على الخَبِي، وراقني الخَبُو. وقرأ جمهور القراءِ: (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) بياءِ الغائب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه القراءَة تعطي أَن الآية من كلام الهدهد. وقرأَ الكسائي، وعاصم ـ في رواية حفْص ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاءِ المخاطبة، وهذه القراءَة تعطي أَن الآية من خطاب الله عزَّ وجلَّ لأُمة محمد ﷺ، وفي مصحف ابن كعب: (أَلاَّ تَسْجُدوا للهِ الذي يخرج الخَبَا من السموات والأَرض ويعلم سِرَّكم وما تُعلنون). وخصَّ العرش بالذكر في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لأَنه أَعظم المخلوقات، وما عداه في ضمنه وفي قبضته.

ثم إِن سليمان عليه السلام أَخَّر أَمر الهدهد إِلى أَن يتبيَّن له حقه من باطله، فسوَّفه بالنظر في ذلك[1]، وأَمر بكتاب فكُتب، وحمَّله إِياه، وأَمره بإِلقائه إِلى القوم والتَّوَلِّي بعد ذلك، وقال وهب بن منبه: أَمره بالتَّولِّي حُسْن أَدب ليَتَنَحَّى حسب ما يتأَدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتَّى ترى مراجعاتهم، قال: وقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واتِّساق رتبة الكلام أَظهر، أَي: أَلْقه ثمَّ تَوَلَّ، وفي خلال ذلك فانظر، وإِنما أَراد أَن يكل الأَمر إِلى حكم ما في الكتاب دون أَن يكون الرسول ملازمه وبلا إِلحاح. وقرأَ نافع: [فَأَلْقِهِ] بكسر الهاءِ، وفرقة: [فَأَلْقِهُ] بضمها، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بإِشباع بعد الكسرة في الهاءِ، وروى عنه ورش بعد الهاءِ في الوصل بياءٍ، وقرأَ قوم بإِشباع واوٍ بعد الضمة، وقرأَ اليزيدي عن أَبي عمرو، وعاصم، وحمزة: (فَأَلْقِهْ) بسكون الهاءِ[2]. وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أَن الهدهد وصل

= العلامتين [.....] زدناه ليستقيم كلام سيبويه؛ حيث إن الأمثلة التي أوردها تقتضي وجود هذه الزيادة، ولأن القاعدة تطرد مع الحروف الثلاثة: الألف والواو والياء.

(١) المراد بالنظر التَّأمل والتفكر في الموضوع.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

فألقى دون هذه الملكة حجب جدران، فعمد إلى كُوَّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلما انتبهت وجدته، فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته، فنظرت إلى الكُوَّة تَهَمُّماً بأَمر الشمس فرأَت الهدهد فعلمت أَمره، ثم جمعت أَهل مملكتها وعِلْيتهم فخاطبتهم بما يأتي بعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه، تقديره: «فأَلْقى الكتاب وقرأَته وجمعت له أَهل ملكها»، و(الْمَلأ): أَشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع، ووصفت الكتاب بالكرم، إمَّا لأَنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان، وهذا قول ابن زيد، وإمَّا أَنها إشاراتٌ إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كرم الكتاب ختمه»[١]، وإمَّا أَنها أَرادت أنه بدأَ ببسم الله تعالىٰ، وقد قال ﷺ: «كل كلام لم يبدأْ باسم الله تعالىٰ فهو أَجذم»[٢]. ثم أَخذت تصف لهم ما في الكتاب، فيحتمل اللفظ أَنه نصُّ الكتاب موجزاً بليغاً، وكذلك كتب الأَنبياءِ عليهم السلام، قدم فيه العنوان ـ وهي عادة الناس على وجه الدهر ـ ثم سمَّى الله تعالىٰ، ثم أَمرهم أَلاَّ يعلوا عليه طغياناً وكفراً، وأَن يأتوه مسلمين، ويحتمل أَنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون ترتيبه، فأَعلمتهم أَنه من سليمان، وأَن معناه كذا وكذا. وقرأَ أُبيٌّ: [وأن باسم الله] بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [أَنه من]

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، ولفظه فيه: «كرامة الكتاب ختمه»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف.

(٢) أخرج أبو داود عن أبي هريرة حديثين، الأول بلفظ: «كلُّ خطبة ليس فيها تَشَهُّد فهي كاليد الجذماءِ»، والثاني بلفظ: «كل كلام لا يبدأُ فيه بحمد الله فهو أجذم»، ذكرهما الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز لهما بالصحة.

[وأنه بسم الله] بفتح الهمزة فيهما، وفي قراءَة عبد الله: [وإنه من سليمان] بزيادة واو، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى مُعبَّر عنه بكل لغة، وفي كل شرع.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ يحتمل أَن تكون رفعاً على البدل من (كِتاب)، أَو نصباً على معنى: بأَنْ لا تعلوا، أَو مفسِّرة بمنزلة أَيْ، قال سيبويه: وقرأَ وهب بن منبه: [أَلاَّ تَغْلوا][1] بالغين منقوطة، قال أَبو الفتح: رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي قراءَة أَشهب العقيلي، ذكرها الثعلبي.

ثم أَخذت في حُسْن الأَدب مع رجالها، ومشاورتهم في أَمرها، وأَعلمتهم أَن ذلك مطرد عندها في كل أَمْر، فكيف في هذه النازلة الكبرى؟ فراجعها الملأُ بما يقرُّ عينها من إعلامهم إِياها بالقوة والبأس، أَي: وذلك مبذول لك، فقاتلي إِن شئت، ثم سلَّموا الأَمر إِلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع. وفي قراءَة عبد الله: [مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أَمْراً] بالضاد من القضاءِ.

وذكر مجاهد في عدد أَحشادها أَنها كان لها اثنا عشر أَلف قَيْل، تحت يد كل واحد مائة أَلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، وذكر غيرهُ نحوه فاختصرته لعدم صحته.

ثم أَخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها، وفي الكلام خوف على قومها، وحيطة لهم، واستعظام لأَمر سليمان عليه السلام، وقالت فرقة: إِن ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هو من قول بلقيس تأْكيداً منها للمعنى الذي أَرادته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو من قول الله تبارك وتعالىٰ معرفاً لمحمد ﷺ وأُمَّته، ومخبراً به.

---

(١) قال أبو الفتح بن جني في المحتسب: «غَلا في قوله غُلُوّاً، وغَلا السعر يغلو غلاءً، فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي» وقال: إن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر تجري مجرى المثل الواحد، فإذا خولف فيها بين المصادر قام ذلك الخلاف مقام ما كان يجب من اختلاف الأمثلة لاختلاف ما تحتها من المعاني المقصودة، ومن ذلك قولهم: وجَدْتُ الشيءَ وجوداً، ووَجَدْتُ في الحزن وَجْداً، ووجدت في الغنى وُجْداً وَوِجْداً وجِدَةً.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

رُوي أن بلقيس قالت لقومها: إني أجرب هذا الرجل بهدية أُعطيه فيها نفائس الأموال، وأُغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان مَلِكاً دنياويًّا أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يرضه المال، ولاَزَمَنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثرَ بعضُ الناس في تفصيلها، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته. واختَبَرَتْ علمه ـ فيما رُوي ـ بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له: املأه لي مِمَّا ليس من الأرض ولا من السماء، وبعثت إليه دُرَّة فيها ثقب مخلوق وقالت: تدخل سلكها دون أن يقربها إنسٌ ولا جان، وبعثت إليه أُخرى غير مثقوبة وقالت: يثقب هذه غير الإنس والجن، فمَلأَ سليمان عليه السلام القدح من عرق الجبل، وأدخلت السلك دودةٌ وثقبت الدرَّة أَرَضةٌ، وراجع سليمان عليه السلام في رَدِّ الهدية بما في الآية، وعبَّر عن «المرسلين» بـ (جَاءَ) وبقوله: (ارْجِعْ) لَمَّا أراد به «الرَّسولَ» الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير. وقرأ ابن مسعود: [فَلَمَّا جاؤُوا سُلَيْمَانَ]، وقرأ: [ٱرْجِعُوا]، ووعيد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلمان وجواري، وجعلت زِيَّهم واحداً، وجربته في التفريق بينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أَتُمِدُّونَنِي] بنونين وياءٍ في الوصل، وقرأ ابن عامر، وعاصم، والكسائي: (أَتُمِدُّونَنِ) بغير ياءٍ في وقف ووصل، وقرأ حمزة: [أَتُمِدُّونِّي] بشد النون وإثبات الياءِ، وقرأ عاصم[1]: [فما آتان الله] بكسر النون دون ياءٍ، وقرأت

(١) في رواية أبي بكر عنه.

فرقة: [آتانيْ] بياءٍ ساكنة، وقرأ أبو عمرو، ونافع: (آتانيَ) بياءٍ مفتوحة[(١)].

ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج، والمعنى: إذا لم يُسْلموا. وقرأ عبد الله: [لاَ قِبَلَ لهم بهم] على جمع ضمير الجنود، و﴿لَّا قِبَلَ﴾ معناه: لا طاقة ولا مقاومة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

القائل سليمان عليه السلام، والمَلأُ المنادى جمعه من الجن والإنس، واختلف المتأَولون في غرضه في استدعاءِ عرشها: فقال قتادة: ذُكر له بِعِظَمٍ وجَوْدة، فأَراد أَخذه قبل أَن يعصمها وقومَها الإسلامُ ويحمي أَموالهم، والإسلام ـ على هذا ـ الدِّينُ، وهو قول ابن جريج. وقال ابن زيد: استدعاه لِيُرِيَها القدرة التي هي من عند الله عزَّ وجلَّ، وليُغْرب عليها، و(مُسْلِمِينَ) ـ في هذا التأْويل ـ هو بمعنى: مُسْتسلمين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]، وذُكر صلةً في العبارة، ولا تأْثير لاستسلامهم في عرض سليمان عليه السلام، ويحتمل أَن يكون بمعنى: الإِسلام، وأَما في التأْويل الأَول فيلزم أَن يكون بمعنى الإِسلام.

وظاهر الآيات أَن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيءِ هديتها وردِّه إِياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المفسرين، وحكى الطبري أَنه قال ذلك في اختباره صدق الهدهد من كذبه لمَّا قال له: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، فقال سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؟ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأْخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقول الأَول أَصح[(٣)].

---

(١) وكذلك هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه.

(٢) في الأصول: «وهو قول ابن عبد الله»، والتصويب عن القرطبي والبحر.

(٣) استدل الطبري على رأيه بأدلة، قال: «قالوا: إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد=



ورُوي أَن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجوهر والياقوت، وأَنه كان في جوف سبعة أَبيات عليه سبعة أَغلاق.

وقرأَ الجمهور: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ﴾، وقرأَ أَبو رجاءٍ، وعيسى الثقفي: [قال عِفْرِيَةٌ][1]، ورُويت عن أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقرأَت فرقة: [قال عِفرة] بكسر العين[2]، وكل ذلك لغات فيه، وهو من الشياطين: الماردُ القويُّ، والتاءُ في (عفريت) زائدة، وقد قالوا: «تَعَفْرَتَ الرجل» إذا تخلق بخلق الإِذاية، قال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت (كوري)، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه صخر الجني، ومن هذا الاسم؛ قول ذي الرُّمَّة:

كَـأَنَّـهُ كَـوْكَـبٌ فـي إِثْـرِ عِفْـرِيَـةٍ مُصَوَّبٌ في سوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ[3]

وقوله: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، قال مجاهد، وقتادة، وابن منبه: معناه: قبل أَن تستوي من جلوسك قائماً، و﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، قال ابن جبير، وقتادة: معناه: قبل أَن يصل إِليك من يقع طرفك عليه من أَبعد ما ترى، وقال مجاهد: معناه: قبل أَن تحتاج إِلى التَّغْمِيضِ، أَي: مُدَّة ما يمكنك أَن تَمُدَّ بصرك دون تغميض، وذلك ارتدادُه.

= ما صحَّ عنده صدق الهدهد بمجيءِ العالِم بعرشها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أن يكتب معه كتاباً إلى من لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا، وقالوا: وأُخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صِدْقَ الهدهد بذلك، لم يكن لقوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ معنى؛ لأنه لا يُلِمُّ بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأول حين قال له: ﴿جئتك من سبأ بنبأ يقين﴾، وإن لم يكن في الكتاب امتحان صدقة من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبي الله قولاً لا معنى له، وقد قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وعلم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه، على ما أخبر به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها». وابن عطية يردُّ هذا الكلام دون أن يذكر دليلاً، أو يفند أدلة الطبري.

(١) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياءٌ مفتوحة بعدها تاءُ التأنيث.

(٢) بكسر العين وبدون ياءٍ ولا تاءٍ.

(٣) البيت في وصف ثور وحشي، ورواية الديوان: (مُسَوَّمٌ) بدلاً من (مُصَوَّب)، ومُنْقَضب: مُنْقطع، يقال: انقضب الكوكب من مكانه انقطع وانقض فهو مُنْقَضِبٌ، يقول: كأن الثور كوكب مُصَوَّب مُنْقَضٌ في إثر عفريَةٍ في سواد الليل. والبيت في اللسان بلفظ (مُسَوَّم) أيضاً.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان يقابلان قول من قال: إن القيام هو من مجلس الحكم، ومن قال: إن القيام هو من الجلوس، فيقول في ارتداد الطَّرْف: هو أَن يطرف، أَي: قبل أَن تُغْمِضَ عينيك وتفتحهما[1]، وذلك أَن الثاني[2] يعاطي الأَقصر في المدة ولا بُدَّ. وقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ معناه: لَقَوِيٌّ على حملِه، أَمينٌ على ما فيه.

ويُروى أَن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إِلى سليمان عليه السلام، تركت العرش تحت سقف حصين، فلما علم سليمان بانفصالها أَراد أَن يُغْرب عليها بأَن تجد عرشها عنده لتعلم أَن مُلْكه لا يُضَاهى، فاستدعى سَوْقَه، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة ـ وهو الكتاب المشار إِليه ـ باسم الله الأَعظم الذي كانت العادة في كل الزمان أَلاَّ يدعو به أَحد إِلاَّ أُجيب، فشُقت الأَرض بذلك العرش حتى نبع بين يديْ سليمان عليه السلام، وقيل: بل جيءَ به في الهواءِ، قال مجاهد: وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة، وحكى الرماني أَن العرش حُمل من مأْرب إِلى الشام في قدر رجع البصر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ، وقول مجاهد أَشهر.

ورُوي أَن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها، فلما قربت قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؟ واختلف المفسرون في الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، من هو؟ فجمهور الناس على أَنه رجل صالح من بني إِسرائيل اسمه آصِف بن برخيا، رُوي أَنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان عليه السلام: يا نبي الله امدُد بصرك، فمَدَّ بصره فإِذا بالعرش نحو اليمن، فما ردَّ سليمان بصره إِلاَّ والعرش عنده، وقال قتادة: اسمه مليخا، وقال إِبراهيم النَّخَعي: هو جبريل عليه السلام، وقال ابن لهيعة: هو الخضر، وحكى النقاش عن جماعة أَنهم سمعوا أَنه ضبَّة بن أُدٍّ جَدُّ بني ضبة من العرب، قالوا: وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله.

---

(١) في الأصول: قبل أن (تُصْلح) عينيك وتفتحهما، والمعنى يستقيم بالفعل تُغْمِض، وهو ما نقله البحر عن ابن عطية.

(٢) يريد به الثاني في اللَّذين تقدما للإتيان بالعرش.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقالت فرقة: بل هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة ـ في هذا التأويل ـ للعفريت، لما قال هو: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ قيل: كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، واستدلَّ أيضاً بهذا اللَّفظ مناقضه؛ إذْ في كلا الأمرين علم سليمان فضل الله تعالىٰ، وعلى الأقوال الأُوَل المخاطبةُ لسليمان عليه السلام[1]، ولفظ (آتِيكَ) يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، وفي الكلام حذف تقديره: فدعا باسم الله تعالىٰ فجاءَ العرش بقدرة الله تعالىٰ، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربّه بعبارة فيها تعليم للناس، وهي عرضة للاقتداءِ بها والاقتباس منها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أأشْكر على السرير وسوقه أَمْ أكفر إذ رأَيت من هو دوني في الدنيا أَعلم منِّي؟[2] وظهر العامل في الظرف من قوله: (مُسْتَقِرًّا)، وهذا هو المقدَّر أَبداً في كل ظرف جاءَ هنا مُظْهَراً، وليس في كتاب الله تعالىٰ مثله. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أَراد سليمان في هذا «التَّنْكير» تجربة ميزها ونظرها، وليزيد في الإغراب عليها، وروت فرقة: أَن الجن أَحسَّت من سليمان أَو ظنَّت به أنه ربما تزوج بلقيس، فكرهوا ذلك، ورَمَوْها عنده بأَنها غير عاقلة ولا مميزة، وبأَن رجلها كحافر دابّة، فجرَّب عقلها

(١) الرأي الذي ذكره ابن عطية من أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام عارضه أبو حيان في البحر قائلاً: «إنه من أغرب الأقوال»، وقال القرطبي: «ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له، وهو قول حسن إن شاء الله تعالىٰ».

(٢) وقيل: المعنى: أأشكر ذلك من فضل الله عليَّ أم أكفر نعمته بترك الشكر له؟ قاله ابن جرير.



وميزها بتنكير عرشها، وجرَّب أَمر رجلها بأَمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده. وقرأَ أَبو حيوة: [نَنْظُرُ] بضم الراءِ.

وتنكير العرش تغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا، وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: تنكيره بأَن زيد فيه ونقص منه، وهذا يعترض بأَن من حقِّها ـ على هذا ـ أَن تقول: ليس به وتكون صادقة. وقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ تحرُّز فصيح، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]، وقال الحسن بن الفضل: شبَّهوا عليها فشبهت عليهم، ولو قالوا: هذا عرشك؟ لقالت: نعم، وفي الكلام حذف تقديره: فنكَّروا عرشها، ونظروا ما جوابها إِذا سُئِلت عنه، فلما جاءَت قيل: أَهكذا عرشك؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ الآية، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالىٰ عليه وعلى آبائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام، ويحتمل أَن يكون من قول الله تبارك وتعالىٰ إِخباراً لمحمد ﷺ، و«الصَّادُّ»: ما كانت تعبد، أَي عن الإِيمان ونحوه، قال الرماني: عن التَّفَطُّن للعرش؛ لأَن المؤمن فطن يقظ والكافر خبيث، أَو يكون الصادُّ سليمان عليه السلام، قاله الطبري، أَو يكون الصَّادُّ الله عزَّ وجلَّ. ولما كان (صَدَّهَا) بمعنى (مَنَعَهَا) تجاوز ـ على هذا التأْويل ـ بغير حرف جرٍّ، وإِلاَّ فإِنه لا يتعدى إِلاَّ بـ (عَنْ). وقرأَ جمهور الناس: (إِنَّهَا) بكسر الهمزة، وقرأَ سعيد بن جُبير، وابن أَبي عبلة: [أَنَّهَا] بفتح الهمزة، وهو على تقدير: ذلك أَنَّهَا، أَو على البدل من (مَا)، قاله محمد ابن كعب القرظي.

ولما وصلت بلقيس: أَمَرَ سليمان عليه السلام الجِنَّ فصنعت له صرحاً، وهو السطح في الصحن من غير سقف، وجعلته متيناً كالصهريج، ومُلِيءَ ماءً، وبث فيه السمك والضفادع، وطُبِّق بالزجاج الشَّفَّاف، وبهذا جاءَ صرحاً، والصَّرْح أَيضاً كل بناءٍ عالٍ، وكل هذا من التصريح، وهو الإِعلان البالغ، وجُعل لسليمان في وسطه كرسيٌّ، فلما وصلته بلقيس قيل لها: ادخلي إِلى النبي ﷺ، فرأَت اللجة وفزعت وظنت أَنه قصد بها الغرق، وعجبت من كون كرسيه على الماءِ، ورأَت ما هالَهَا، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأَمر فكشفت عن ساقيها، فرأَى سليمان ساقيها سليمتين غير أَنَّها كثيرة الشَّعر،

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (فُصِّلَت).



فلمَّا بلغت هذا الحدّ قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، والمُمَرَّد: المكحول الأملس، ومنه: الأَمْرَدُ، والشجرةُ المَرْدَاءُ: التي لا ورق عليها، والمُمَرَّدُ أيضاً: المُطَوَّل ومنه قيل للحصن: ماردٌ[١]، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت، وأقرت على نفسها بالظلم، فيروى أن سليمان عليه السلام تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام، قاله الضحاك، وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوجها وردَّها إلى مُلْكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة، فولدت له ولداً أسماه داود، مات في حياته، و(مَعَ) ظرف، وقيل: حرف بُني على الفتح، وأَمَّا إذا سُكِّنت العَيْن فلا خلاف أنه حرفٌ جاءَ لمعنى[٢].

وقرأ ابن كثير وحده ـ في رواية الإخريط ـ: [عن سأقيها] بالهمز، قال أَبو عليٍّ: وهي ضعيفة، وكذلك يضعف الهمز في قراءَة قنبل: [يكشف عن سأق][٣]، وأما همز [بِالسُّؤْقِ][٤]، و[على سؤقه][٥] فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة، حكى أَبو عليٍّ أن أَبا حيَّةَ النُّمَيْرِيَّ كان يهمز كلَّ واو قبلها ضمَّة، وأنشد:

أَحَـبُّ المـؤْقـدان إِلَيْـكَ مُـؤْسَـى . . . .[٦]

---

(١) وقال أبو صالح: هو الطويل على هيئة النخلة، وقال ابن شجرة: مُمَرَّدٌ: واسعٌ في طوله وعرضه، قال الشاعر:

غَـدَوْتُ صباحـاً بـاكـراً فَـوَجَـدْتُهُـم ... قُبَيْـلَ الضُّحَـى فـي السَّابِـرِيِّ المُمَـرَّدِ

أي: الدروع الواسعة.

(٢) قال أبو حيان في البحر: «والصحيح أنها ظرف فُتحت العين أو سُكِّنَت، وليس التسكين مخصوصاً بالشعر كما زعم بعضهم، بل ذلك لغة لبعض العرب، والظرفية فيها مجاز، وإنما هو اسمٌ يدل على معنى الصحبة».

(٣) في الآية (٤٢) من سورة (القلم)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة ﷺ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

(٥) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٩) من سورة (الفتح): ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

(٦) هذا صدر بيت نسبه في اللسان لجرير، والبيت بتمامه:

أَحَـبُّ الْمُـؤْقِـدَانِ إِلَيْـكَ مُـؤْسَـى ... وَجَعْـدَةَ إِذْ أَضَـاءَهُمَـا الْـوَقُـودُ

ولم يذكر اللسان إلا الشطر الأول، قال: «وساقُ الشجرة: جذعُهَا، وجمع ذلك أَسْوُقٌ وأَسْؤُقٌ. . . توهموا ضمة السِّين على الواو، وقد غلب ذلك على لغة أَبي حيَّةَ النُّمَيْرِيِّ، وهمزها جريرٌ في قوله: أَحَبُّ المؤقِدَان إليك مُؤْسَى. ورُوي: أحبُّ المؤقدين، وعليه وجَّه أبو علي قراءَة من قرأ: [عاداً الأُؤلى]. اهـ.



وَوَجْهُهَا أَن الضمة تقدر على الواو إذ لا حائل بينهما. وقرأ ابن مسعود: [عَنْ رِجْلِهَا]. ورُوي أَن سليمان عليه السلام لما أَراد زوال شَعْر ساقيها أَشفق من حمل الموسى عليها، وقيل: إنها قالت: ما مَسَّنِي حديد قط، فأَمر الجن بالتَّلَطُّف في زواله فصنعوا النُّورَةَ[1] ولم تكن قبل في الأُمم.

وهذه الأُمور التي فعلها سليمان عليه السلام: من سَوْق العرش، وعمل الصَّرْح، وغير ذلك، قصد بها الإغرابَ عليها، كما سلكتْ هي قبْلُ سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأَن أَرسلت الجواري والغلمان، واقترحت في أَمر القَدَح والدُّرَّتَيْن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش، و(أَنْ) في قوله سبحانه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أَن تكون مُفَسِّرَة، وأَن تكون في موضع نصب، والتقدير: بأَن اعبدوا الله. و(فَرِيقَانِ) يريد به: من آمن بصالح ومن كفر به. و«اخْتِصَامُهُم» تنازُعهم وحدهم، فذكر اللهُ تبارك وتعالىٰ ذلك في سورة الأَعراف.

ثم إن صالحاً عليه السلام تلطَّف بقومه، وترفَّق بهم في الخطاب، فوقفهم على خطئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم، ثم حضهم على ما هو أَسرُّ من ذلك وأَعْود بالخير، وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاءُ الرحمة، فأَجابوا ـ عند ذلك ـ بقول سَفْسَاف[2]، معناه: تَشَاءَمْنا بك، قال المفسرون: وكانوا في قحط فجعلوه لذات

= واستشهد أبو عثمان بن جني بهذا الشطر أيضاً، والرواية فيه: لحَبُّ المؤقدانِ إليَّ مُؤْسَى. وقال محقق الكتاب في الهامش: وعجزه: وجعدة... إلخ. ويُعَلِّل ابن جني الهمز في (مؤسى) تعليلاً طويلاً خلاصته أن العرب تقدِّر أن حركة المتحرك إذا جاور الساكن كأنها في الساكن، فكأن ضمة (مُوسَى) في الواو، والواوُ إذا انضمت ضمّاً لازماً فهمْزُهَا جائز، تقول في (وُجُوه): أُجُوه، وعلى هذا جاءَ همزُ (مُؤْسَى)، ثم ذكر الشاهدَ عن شيخه أَبي عليّ.

(١) النُّورة: أَخلاط من أملاح الكلسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر (المعجم الوسيط ـ عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(٢) السَّفْساف: الرديءُ من كلِّ شيءٍ، والأمر الحقير، وكل عمل دون الإحكام.

صالح عليه السلام. وأَصل الطِّيَرَةَ ما تعارفه أَهل الجهل من زَجْر الطَّيْر، وشبَّهت العرب ما عنَّ بما طار حتى حصل، سُمي ما حصل للإنسان في فزعه ونحوه طائراً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1]، وخاطبهم صالح ببيان الحق، أَي: طائركم على زعمكم وتسميتكم ـ وهو حَظُّكم في الحقيقة ـ من تعذيب أَو إِعفاءٍ هو عند الله تعالىٰ، وبقضائه وقدره، وإِنما هُو أَنهم قوم يختبرون، وهذا أَحد وجوه الفتنة، وقد يمكن أَن يريد: بل أَنتم قوم تولعون بشهواتكم، وهذا معنى قد تعارف الناسُ استعمال لفظ الفتنة منه، ومنه قولك: «فُتِن فلانٌ بفلان»، وشاهد ذلك كثير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أَوجه القوم وأَقناهم وأَغناهم، وكانوا أَهل كفر ومعاص جَمَّة، جملة أَمرهم أَنهم يفسدون في الأَرض ولا يُصلحون، قال عطاءُ بن أَبي رباح: بلغني أَنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الأَثر المروي: (قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأَرض)، و(ٱلْمَدِينَةِ): مجتمع ثمود وقريتهم، و«الرَّهْطُ»: من أَسماءِ الجمع القليل، العشرة فما دونها، و(تِسْعَةُ رَهْطٍ) كما تقول: تسعة رجال، وهؤلاءِ المذكورون كانوا أَصحاب قدار بن سالف: عاقر الناقة، وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذُكر في أَسمائهم.

وقوله تعالىٰ: (تَقَاسَمُوا)، حكى الطبري أَنه يجوز أَن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأَنه قال: متقاسمين، أَو متحالفين بالله، وكأَن قولهم: (لَنُبَيِّتَنَّهُ) حَلِفٌ، ويؤيد هذا التأْويل أَن في قراءَة عبد الله: [وَلاَ يُصْلِحُونَ، تَقَاسَمُوا] بسقوط [قَالُوا]، ويحتمل ـ وهو تأْويل الجمهور ـ أَن يكون (تَقَاسَمُوا) فعل أَمر، أَشار بعضهم على بعض بأَن

---

(١) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء).



يتحالفوا على هذا الفعل بصالح، فـ(تَقَاسَمُوا) هو قولهم على هذا التأويل. وهذه الأَلفاظ الدالة على قسم أَو جواب تجاب باللام وإِن لم يتقدم قَسَم ظاهر، فاللاَّم في (لَنُبَيِّتَنَّهُ) جوابُ ذلك. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنون فيهما، وقرأَ الحسن، وحمزة، والكسائي بالتاءِ فيهما، وبِضَمِّ التَّاءِ واللام على الخطاب، أَي: تخاطبوا بذلك، وقرأَ مجاهد، وحميد بن قيس بالياءِ فيهما على الخبر، فهذا ذَكَرَ اللهُ فيه المعنى الذي أَرادوه لا بحسب لفظهم.

وروي في هذه الآية أَن هؤلاءِ التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأَيام بعد عقر الناقة وقد أَخبرهم صالح عليه السلام بمجيءِ العذاب، اتفق هؤلاءِ التسعة فتحالفوا على أَن يأْتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأَهله المختصين به، قالوا: فإِن كان كاذباً في وعيده أَوقعنا به ما يستحق، وإِن كان صادقاً كنا قد أَعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا. قال الراوي: فجاؤُوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فروي أَنه انحدرت عليهم صخرة سدحتهم[١] جميعاً، ورُوي أَنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وكانوا قد بنوا على جحود الأَمر من قرابة صالح الذين يمكن أَن يغضبوا له، فهذا مكرهم. والمكر نحو الخديعة، وسمَّى الله تبارك وتعالىٰ عقوبتهم باسم ذنبهم، وهذا مهيع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٢]، وغير ذلك.

وقرأَ الجمهور: [مُهْلَكَ] بضم الميم وفتح اللام، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر بفتحهما، ورُوي عنه بفتح الميم وكسر اللام[٣].

و«العَاقِبَةُ» حالٌ تقتضيها البدأَة وتؤدي إِليها، ويعني بالأَهل كل من آمن معه، قاله الحسن. وقرأَ جمهور القراءِ [إِنا دمرناهم] بكسر الأَلف، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وهي قراءَة الحسن وابن أَبي إِسحاق، فـ[كَانَ] ـ على قراءَة الكسر في الأَلف ـ تامَّة، وإِن قُدِّرت ناقصة فخبرها محذوف، أَو يكون الخبر [كَيْفَ] مقدماً؛ لأَن صدر الكلام لها، ولا يعمل ـ على هذا ـ (أَنْظُرْ) في (كَيْفَ)، لكن

(١) أي صرعتهم وبطحتهم على وجوههم.

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٣) وهي رواية حفص عن عاصم، أما قراءة الجمهور فتحتمل المصدر والزمان والمكان، وأما الثانية وهي رواية أبي بكر عن عاصم فالقياس يقتضي الزمان والمكان، أي: ما شهدنا زمان هلاكه ولا مَكانه، وأَما قراءة حفص عن عاصم فإن القياس يقتضي أن تكون مصدراً، أي: ما شهدنا هلاكه.

يعمل في موضع الجملة كلها، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة، وخبرها [أَنَّا]، ويجوز أن يكون الخبر (كَيْفَ)، ويكون (أَنَّا) بدلاً من «العاقبة»، ويجوز أن تكون (كَانَ) تامة و[أَنا] بدلاً من «العاقبة»، ووقع تقدير السؤال بـ(كَيْفَ) عن جملة قوله: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، وقرأ أُبي بن كعب: [أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ]، وهذه تؤيد قراءة الفتح في [أَنَّا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أَمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالىٰ، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة، وفي التوراة: «ابن آدم، لا تظلم، يخرب بيتك»، و(خَاوِيَةً) نصب على الحال التي فيها الفائدة، ومعناها: الخالية قفراً[1]، قال الزَّجاج: وقرئت [خَاوِيَةٌ] بالرفع، وذلك على الابتداءِ المضمر، والتقدير: هي خاوية، أَو عن الخبر عن (تِلْكَ) و(بُيُوتُهُمْ) بدلٌ، أَو على خبر ثان، وهذه البيوت المشار إِليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاءِ المعذبين إِلاَّ أَن تكونوا باكين. . . الحديث»[2].

ثم قال تبارك وتعالىٰ: (وَلُوطاً)، تقديره: واذكر لوطاً. و(ٱلْفَٰحِشَةَ): إِتيان الرجال في الأَدبار (تُبْصِرُونَ) معناه: بقلوبكم أَنها خطيئة وفاحشة. وقالت فرقة: تبصرون بأَبصاركم؛ لأَنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضكم من بعض.

---

(١) هذا رأي الفراء والنحاس، والمعنى أنها صارت خراباً ليس بها ساكن، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نصبت (خَاوِيَةً) على القطع، مجازُهُ: فتلك بيوتُهم الخاوية، فلما قطع منها الألف واللام نصبت على الحال.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة والمغازي، ومسلم في الزهد، وأحمد (٢ـ٥٨، ٧٢، ٧٤، ٩١، ١١٣، ١٣٧)، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين أَصحاب الحِجر إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم».



واختلف القراءُ في قوله: (أَئِنَّكُمْ)، وقد تقدم. وقرأَ جمهور القراءِ: (جَوَابَ) نصباً، وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: [جَوَابُ] بالرفع، ونسب ابن جني قراءَة الرَّفع إلى الحسن، وفسَّرها في الشَّاذِّ[1].

وأَخبر الله تعالىٰ عن قوم لوط أَنهم كانوا تركوا في جوابهم طريق الحجة، وأَخذوا بالمغالبة، فتآمروا بإِخراجه وإِخراج من آمن معه، ثم ذمُّوهم بمدحة وهي التَّطهُّر من هذه الدناءَة التي هم أَصفقوا عليها. قال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيب. وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [قَدَرْنَاهَا] بتخفيف الدال، وقرأَ جمهور القراءِ بشد الدَّال، والأُولى بمعنى: جعلناها وحصلناها، والثانية بمعنى: قدَّرنا عليها، من القدر والقضاءِ.

و«الغابرون»: الباقون في العذاب، وغَبَرَ بمعنى بَقِيَ، وقد يجيءُ أَحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أَنه بمعنى مَضَى، وإِذا تُؤمل توجه حمله على معنى البقاءِ، والمطر الذي أُمطر عليهم هو حجارة السِّجِّين أَهلكت جميعهم، وهذه الآية أَصل لمن جعل من الفقهاءِ الرَّجم في اللوطية، وبها تأَنَّس لأَن الله تعالىٰ عذَّبهم على كفرهم به، وأَرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم، ولم يقس هذا القول على الزِّنى فيعتبر الإِحصان، بل قال مالك وغيره: يرجمان في اللُّوطية أُحصنا أَو لم يُحْصنا، وإِنما وَرَدَ عن النبي ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»[2]، فذهب من ذهب إِلى رجمهما بهذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قرأَ أَبو السمال: [قل الحمد لله] بفتح اللام، وكذلك في آخر السورة[3]، وهذه

---

(١) قال ابن جني في المحتسب: «أقوى من هذا (جوابَ) بالنصب، ويجعل اسم (كان) قوله: ﴿أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ لِشبَه (أَنْ) بالمضمر من حيث كانت لا توصف كما لا يوصف» (٢ـ١٤١).

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، وكذلك الترمذي وابن ماجه، والإمام أحمد (١ـ٢٦٩)، واللفظ عند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة».

(٣) في قوله سبحانه في الآية (٩٣): ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

ابتداءُ تقرير وتثبيت لقريش، وهو أَيضاً يعم كلَّ مكلف من الناس جميعاً، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والإِيمان، وهذا اللفظ عام لجميعهم من ولد آدم، وكأَن هذا صدر خطبة للتقرير المذكور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العبادُ المُسَلَّم عليهم هم أَصحاب النبي ﷺ، واصطفاهم لنبيِّه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار.

وقال الفراءُ: الأَمر بالقول في هذه الآية هو لِلُوطٍ عليه السلام. قال المفسرون: وهذه عجمة من الفَرَّاءِ.

ثم وقف قريشاً والعربَ ـ على جهة التوبيخ ـ على موضع التَّبايُن بين الله عزَّ وجلَّ وبين الأَوثان والأَنصاب. وقرأَ جمهور الناس: (تُشرِكُونَ) بالتاءِ من فوق، وحكى المهدوي عن أَبي عمرو، وعاصم: [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت.

وفي هذا التفضيل بلفظة (خَيْر) أَقوال: أَحدها أَن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين؛ إِذْ كانوا يعتقدون أَن في آلهتهم خيراً بوجه مَّا، وقالت فرقة: في الكلام حذف مضاف في الموضعين، التقدير: أَتوحيد الله خير أَم عبادة ما تشركون؟ فـ (ما) في هذا التأْويل بمعنى الذي، وقالت فرقة: (مَا) مصدرية، وحذف المضاف إِنما هو أَولاً، وتقديره: أَتوحيد الله خير أَمْ شِرْكِكُم؟ وقيل: (خَيْرٌ) هنا ليست بأَفعل، وإِنما هي بفعل، كما تقول: «الصلاة خيْرٌ» دون تفضيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم أَن هذه الأَلفاظ التي تعم معاني كثيرة كخَيْر وشَرّ وأَحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بيْن أَشياءَ متباينة؛ لأَن المتباينات رُبَّما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد، وأَيضاً فهذا تقرير، والمجادل يقرر خصمه لتنبيهه على خطئه وإِلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر، وقد استوعبنا هذا فيما مضى. وقالت فرقة: تقدير هذه الآية: آللهُ ذو خير أَمَّا تُشركون؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا النوع من الحذف بعيد.



وقرأ الحسن، وقتادة، وعاصم: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالتّاءِ من فوق.

وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخٌ لهم، وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به، وقرأ الجمهور: (أَمَّنْ) بشدِّ الميم، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، وقرأ الأعمش: [أَمَنْ] بفتح الميم مسهَّلة، ويحتمل ـ على هذه القراءَة ـ أن تكون الألف للاستفهام و(مَنْ) ابتداءً، وتقدير الخبر: يُكْفَر بنعمته ويُشْرَك به ؟ ونحو هذا من المعنى[1]. و«الحدائق» مُجْتَمع الأشجار من العنب والنخيل وغير ذلك، وقال قوم: لا يقال: «حديقة» إلاّ لما عليه جدار قد أحدق به، وقال قوم: تقول ذلك إذا كان جدار أَوْ لم يكن لأن البياض محدق بالأشجار. و«البَهْجَة»: الجمال والنُّضرة، وقرأ ابن أبي عبلة: [ذَوَاتِ بَهْجَةٍ]. ثم أخبر سبحانه ـ على جهة التوقيف ـ أنه ما كان للبشر، أي: ما يتهيَّأ لهم، ولا يقع تحت قدرتهم أنْ ينبتوا شجرها؛ لأن ذلك يكون بإخراج شيءٍ من العدم إلى الوجود. وقد تقدم ترتيب القراءَة في الهمزتين من قوله: [أَئِنَّ][2] و﴿أئنك لأنت يوسف﴾[3]. وقوله: (أَإِلَـٰهٌ)[4]، قال أبو حاتم: القراءَة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارىء عتيق. و(يَعْدِلُونَ) يجوز أن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، أي: يجورون في فعلهم، ويجوز أن يراد به: يعدلون بالله غَيْرَه، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

و(خِلاَلَهَا) معناه: بَيْنَها وأثناءَها، و«الرَّوَاسي»: الجبال، رَسَا الشيءُ يرسو إذا ثبت وتأَصَّل، و«البَحْرَانِ»: الماءُ العذب بجملته، والماءُ الأُجاج بجملته، و«الحاجِزُ»:

---

(١) وقدر الزمخشري الخبر: (خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكون) ؟ قال أبو حيان تعليقاً على رأي الزمخشري: «قدَّر ما أثبت في الاستفهام الأول، بدأ أوّلاً في الاستفهام باسم الذات، ثم انتقل فيه إلى الصفات».

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١١٣) من سورة (الأعراف): ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فقد قرىء بتحقيق الهمزتين، وبتحقيق الأولى وتَلْيين الثانية، وبطرح الأولى وتحقيق الثانية.

(٣) من الآية (٩٠) من سورة (يوسف) فإنه يقرأُ بهمزتين محقَّقَتَيْن، وبهمزة ومدَّة وياءٍ بعدها، وبالإخبار من غير استفهام، وسيأتي مثل ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٦٧) من هذه السورة: ﴿أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾. كما أنه مضى أيضاً في قوله تعالىٰ في الآية (٥٥) من هذه السورة: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾.

(٤) في هذه الآية، وفيها من القراءات ما في مثيلاتها.



ما جعل الله بينهما من حواجز الأَرْض وموانعها على رِقَّتها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة الله تبارك وتعالىٰ لغلب المِلْحُ العذبَ، وكلُّ ما مضى من القول في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الآية[1] فهو مترتب هنا فتأمله. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقفهم في هذه الآيات على المعاني التي يتبيَّن لكل عاقل أنه لا مدخل لِصَنم ولا لِوَثن فيها، فهي عِبَرٌ ونِعَمٌ، فالحجة قائمة بها من الوجهين.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ معناه: بشرط أَنْ يشاءَ على المعتقد في الإِجابة، لكن المضطر لا يُجيبه متى أُجيب إلاَّ الله عزَّ وجلَّ، و(ٱلسُّوءَ) عامٌّ في كل ضر يكشفه الله تعالىٰ عن عباده. وقرأَ الحسن: [وَيَجْعَلَكُمْ] بياءٍ على صيغة المستقبل، ورويت عنه بنون. وكل قرْنٍ خلف لِلَّذي قبله[2]، وقرأَ الجمهور: (تَذَكَّرُونَ) بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو عمرو وحده[3]، والحسن، والأَعمش بالياءِ على الغيبة. و«الظُّلُمَات» عام لظُلْمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة، ولِظُلَم الجهل والضَّلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات، وهذا كقول الشاعر:

* تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا *[4]

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الفرقان).

(٢) أَي: يُهْلِكُ قوماً ويُنْشِىء آخرين يخلفونهم، وفي كتاب النقاش: أي ويجعل أَولادكم خَلَفاً منكم، وقال الكلبي: خَلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وقيل: خلفاءُ النبي ﷺ بعد موته، وقيل: الخلافة في الأرض هي المُلْك والتسلط.

(٣) أي: من السبعة، وإلا فقد قرأ بها الحسن والأعمش على ما ذكره المؤلف.

(٤) الموجود في الأصول: (تَجلَّت عماياتُ الرِّجال) فقط، وأكملنا عن (اللسان ـ عمي)، قال: «والعَمَاية: الجهالة بالشيء، ومنه قوله: * تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا *، وعَمَايَةُ الجاهلية: جهالَتُها»، =

وكما تقول: أَظْلَم الأَمر وأَنار، وقد تقدم اختلاف القراءِ في قوله: (بُشْراً)، وقرأَ الحسن وغيره: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ على الغيبة، وقرأَ الجمهور: [تُشْرِكُونَ] على المخاطب.

و«بَدْءُ الْخَلْق» اختراعُه وإِيجادُه، و(الخلْق): هنا المخلوق من جميع الأَشياءِ، لكن المقصود بنو آدم من حيث ذكر الإِعادة والبعث من القبور، ويحتمل أَن يريد بـ (ٱلْخَلْق) مصدر: خَلَق يخلُق، ويكون (يَبْدَأُ) و(يُعيدُ) استعارة للإِتقان والإِحسان، كما تقول: فلان يبدىء ويعيد في أَمر كذا وكذا، أَي يُتقنه. و«الرِّزْق» من السماءِ بالمطر، ومن الأَرض بالنبات، هذا مشهور ما يحسُّه البشر، وكم لله تبارك وتعالىٰ من لطف خفي.

ثم أَمر عزَّ وجلَّ نبيَّه أَن يوقفهم على أَن الغيب ممَّا انفرد به الله عزَّ وجلَّ، ولذلك سُمِّي غيباً لغيبته عن المخلوقين، ورُوي أَن هذه الآية من قوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ﴾ إنما أُنزلت لأَن الكفار سأَلوا وأَلَحُّوا عن وقت القيامة التي يعدهم، فنزلت هذه الآية بالتسليم لأَمر الله تعالىٰ وترك التحديد، وأَعلم عزَّ وجلَّ أَنه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاءَ بلفظ يعُمُّ السامع وغيره، وأَخبر عن البشر أَنهم لا يشعرون أَيَّان يُبعثون، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها على قولها: «ومَنْ زَعم أَن محمداً يعلم الغيب فقد أَعظم على الله الفرية»[1]. والمكتوبة في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل مِنْ (مَنْ)[2]. وقرأَ

= والمعنى: ذهَبت جهالات الصِّبا وزالت. والشاهد أن الظلمات تطلق مجازاً على جهالات الصِّبا.

(١) أخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مسروق قال: كنت مُتَّكِئاً عند عائشة، فقالت عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: وما هُنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت مُتَّكِئاً فجلست، فقلت: يا أُم المؤمنين أَنْظِريني ولا تعجلي عليَّ، أَلم يقل الله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن هذا رسولَ الله ﷺ، فقال: جبريل، لم أَره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرَّتَين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عُظْمَ خلقه ما بين السماءِ إلى الأرض، قالت: أَو لم تسمع الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، أَو لم تسمع الله يقول: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾؟ ومن زعم أنَّ محمداً كتَم شيئاً من كتاب اللهِ فقد أَعظم على الله الفرية، واللهُ جلَّ ذكره يقول: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، قالت: ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) المكتوبةُ هي لفظ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، يقول ابن عطية إنَّها بدلٌ من (مَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿

جمهور الناس: [أَيَّانَ] بفتح الهمزة، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [إِيَّانَ] بكسرها، وهما لغتان(١).

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾، أَصله: تَدَارَك، أُدغمت التاءُ في الدال بعد أَن أُبدلت، ثم احتيج إلى ألف الوصل، وقرأَ أُبيُّ بن كعب: [تَدَارَكَ] فيما رُوي عنه(٢)، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [بل ادرك] على وزن افتَعَل(٣)، وهي بمعنى تفاعل، وقرأَ سليمان بن يسار(٤)، وعطاءُ بن يسار(٥): [بل ادرك] بفتح اللامَّ ولا همزٍ، وبتشديد الدال دون أَلف(٦)، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وجعفر، وأَهل مكة: [بَلْ

= ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾، ومعنى هذا أنه يرى أن الاستثناءَ مُتَّصل، والرفع على البدل أَفصح من النصب على الاستثناءِ؛ لأَنه استثناءٌ من نفي متقدم، ويصح أن يكون الرفع على الصفة. لكن أبا حيَّان الأندلسي يرى أنه لايصح أن يكون ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مندرجاً في مدلول (مَنْ) فيكون قوله: ﴿في السموات والأرض﴾ ظرفاً حقيقياً للمخلوقين فيهما، وظرفاً مجازيّاً بالنسبة إليه تعالىٰ، بمعنى أنه فيهما بعِلْمِه؛ لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز، ثم قال أبو حيّان: «وأكثر العلماءِ ينكر ذلك، وإنكاره هو الصحيح».

(١) يقول العلماءُ: إن الله تعالىٰ لما نفى عنهم علم الغيب على العموم عاد ونفى عنهم هذا الغيب المخصوص وهو وقت الساعة والبعث، فصار منتفياً مرَّتين؛ إذ هو مندرج في عموم الغيب ومنصوص عليه بخصوصه.

(٢) وهي قراءَة على الأصل؛ لأن (ادَّارك) أصلها (تَدارَك) ثم حصل الإبدال والإدغام والاحتياج إلى ألف الوصل.

(٣) قال أبو الفتح عنها: لا سؤال فيها، مع كسر اللام لسكون اللام وسكون الدال بعدها.

(٤) هو سليمان بن يسار الهلالي، المدني، مولى ميمونة، وقيل: أُم سَلَمَة، ثقة فاضل، أَحد الفقهاء السبعة: من كبار الثالثة، مات بعد المئة، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب).

(٥) هو عطاءُ بن يسار الهلالي، شقيق سليمان بن يسار، وهو أيضاً مولى ميمونة، ثقة فاضل، صاحب مواعظ وعبادة، من الثالثة، مات سنة أَربع وتسعين، وقيل: بعد ذلك. (تقريب التهذيب)، وقد أجمعت كل كتب التفسير على نِسْبة هذه القراءَة إلى سليمان وأخيه، إلا أن كتاب المحتسب لابن جني قال في الجزء الثاني صفحة ١٤٢: (ومن ذلك قراءة سليمان بن يسار وعطاءِ بن السائب)، وأعتقد أن الصواب: «عطاءِ بن يسار»، والله أعلم.

(٦) أكثر كتب التفسير والقراءات على هذا الضبط، وفيه تشديد الدال، إلا في المحتسب لابن جني، فقد ضبطها المحققون بسكون الدال مع فتح اللام في (بَل)، قال أبو حيان الأندلسي: «وذلك بناءً على أن وزنه افْتَعَل، فأدغم الدال ـ وهي فاءُ الكلمة ـ في التاءِ بعد قلبها دالاً، فصار قَلْبُ الثاني للأول؛ لقولهم: اثَّرَدَ، وأصله: اثْتَرَدَ من الثَّرْد، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أُدخلت على ألف الوصل فانحذفت أَلف الوصل، ثم انحذفت هي وأُلقيت حركتها على لام (بَلْ). وهذا يؤكد أن=

أَدْرَكَ][1] وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [أم تَدَارَكَ عِلْمُهُم][2]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [بَلَ أَدْرَكَ][3]، وقرأ ابن عباس أيضاً: [بَلْ آدَّارَكَ] بهمزة ومدَّة على جهة الاستفهام[4]، وقرأ ابن محيصن: [بل آدرك] على الاستفهام، ونسبها أَبو عمرو الداني إِلى ابن عباس والحسن[5].

فأَمَّا قراءَة الاستفهام فهي على معنى الهُزْءِ بالكفرة، والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم، أَيْ: أَعَلِمُوا أَمْر الآخرة وأَدركها علمهم؟ وأَما القراءَة الأُولى[6] فتحتمل معنيَيْن: أَحدهما: بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهم، أَيْ: تناهَى، كما تقول: أَدْرك النباتُ وغيره، وكما تقول: هذا ما أَدرك علمي من كذا وكذا، فهذا قد تتابع وتناهَى علمُهم بالآخرة إِلى أَن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإِنما لهم ظنون كاذبةٌ، أَو أَلاَّ يعرفوا لها وقتاً، وكذلك ادَّارَكَ وتَدَارَكَ وسواها، وإِن حملت هذه القراءَة معنى التوقيف والاستفهامِ ساغَ، وجاءَ

= الدال مشددة لا ساكنة.

(١) وهي من الإِدْراك، قاله القرطبي، وقال في البحر المحيط: ورويَتْ عن أَبي بكر عن عاصم.

(٢) قال الثعلبي: «إِن العرب تضع (بَلْ) موضع (أَمْ) و(أَمْ) موضع (بَلْ) إذا كان في أول الكلام استفهامٌ، ومن ذلك قول الشاعر:

فَــوَالله لا أَدْري أَسَلْمَـى تَقَـوَّلَـتْ ... أَم القَـوْلُ أَمْ كُـلٌّ إِلـيَّ حَبِيـبُ؟

أي: بَلْ كُلٌّ إِليَّ حبيب. ويروى: (تَلَوَّنَت) بدلاً من (تَقَوَّلَتْ)، ويروى: (أَمِ النَّوْمُ) بدلاً من (أَمِ القَوْلُ).

(٣) قال ذلك في المحتسب؛ لكنه جعل (بَلَى) بالياءِ مع الفعل (آدْرَكَ) ممدوداً، ووضحها بقوله: «أَمَّا (بَلَى) فكأَنَّهُ جوابٌ، وذلك أنه لما قال: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ فكأَنَّ قائلاً قال: ما الأمر كذلك، فقيل له: (بَلَى)، ثم استؤنف الكلام».

(٤) قال أبو حيان: «أَيْ بهمزة داخلة على (ادَّارَكَ)، فيسقط همزة الوصل المجتلبة لأَجل الإدغام والنطق بالسكن».

(٥) أَصله: (أَأَدْرَكَ) فقلبت الثانية أَلفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين، وأنكر أَبو عمرو بن العلاءِ هذه الرواية وَوَجَّهَهَا. قال ذلك في البحر المحيط، والقراءات المروية في هذه الجملة اثنتا عشرة قراءة، منها اثنتان فقط للقراءِ السبعة.

هذا وقد أحسن الإمام ابن خالويه حين قال ملخصاً هذه القراءات: «يُقْرَأُ بفتح الألف وسكون الدال ـ وبوصل الألف وتشديد الدال وزيادة ألف بين الدال والراءِ، فالحجة لمن قرأ بقطع الألف أنه جعله ماضياً من الأفعال الرباعية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، والحجة لمن وصلَ وشدَّد وزاد ألفاً أن الأصل عنده (تدارك) فحصل الإبدال والإدغام والإتيان بألف الوصل».

(٦) هي قراءة الخبر لا الاستفهام، وهي قراءة ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾، وقد عَمَّم الكلام على ادَّارَكَ وتَدَارَكَ بعد ذلك.

إنكاراً لأنْ أدركوا شيئاً نافعاً، والمعنى الثاني: بَلْ أَدْرَكَ بمعنى يُدْرِك، أَيْ أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة، ويرَوْا العذاب والحقائق التي كذبوا بها، وأما في الدنيا فلا، وهذا تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ونَحَا إليه الزَّجاج، فقوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ظرف، وعلى التأويل الأول في معنى الباءِ، والعِلْم قد يتعدى بحرف الجرِّ، تقول: علمي بزيد كذا، ومنه قول الشاعر:

وَعِلْمِي بأَسوامِ المياه. . . . . البيت[1]

ثم وصفهم عزَّ وجلَّ بأنهم في شكٍّ منها، ثم أردفهم بصفة أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة، و(عَمُونَ) أصله (عَمِيُون) فَعِلون كحَذِرون وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٤﴾.

استبعد الكفار أَن تُبعث الأَجساد والرِّمَمُ من القبور، فذكر ذلك عنهم على جهة الردِّ عليهم. وقرأَ أبو عمرو، وابن كثير: [أَيِذَا] و[أَيِنَّا] غير أن أَبا عمرو يمُدُّ وابن كثير لاَ يَمُدُّ[2]، وقرأَ عاصم وحمزة: (أَئِذَا) و(أَئِنَّا) بهمزة فيهما، وقرأَ نافع: [إِذَا] مكسورة الألف [آيِنَّا] ممدودة الأَلف، وقرأَ الباقون: [آئِذَا] ممدودة [إِنَّا] بنونين وكسر الأَلف.

ثم ذكر الكفارُ أَن هذه المقالة ممَّا وعدوا بها قبْلُ، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأَنبياءِ، وجزموا أَن ذلك من أَساطير الأَولين، ثم وعظهم تبارك وتعالىٰ بحال من عُذِّب وبالحذَر أَن يُصيبهم ما أَصاب أُولئك، وهذا التحذير يقتضيه المعنى. ثم سلَّى الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عنهم، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأَمرهم. وقرأَ ابن كثير: [في ضِيق] بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وقرأَ الباقون

(١) الشاهد فيه أن (عِلْم) تعدت بحرف الجرِّ وهو الباءُ، كما تعدت في قولنا: علمي بزيد كذا.

(٢) جَمَعَا بَيْنَ الاستفهامين وقَلَبَا الثانية ياءً، لكن أبا عمرو يفصل بينهما بألف.



بفتحها، والضِّيقُ والضَّيْق مصدران بمعنى واحد، وكره أبو عليٍّ أن يكون (ضَيْق) كهَيْن ولَيْن مسهلة من ضَيِّق[١]، قال: لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف[٢]. ثم ذكر استعجال قريش لأمر الساعة والعذاب.

و (رَدِفَ) معناه: قَرُب وأَزِفَ، قاله ابن عباس وغيره، ولكنها عبارة عما يجيءُ بعد الشيءِ قريباً منه، ولكونه بمعنى هذه الأفعال تعدَّى بحرف وإلاَّ فبابه أن يتجاوز بنفسه[٣]. وقرأ الجمهور بكسر الدال، وقرأ الأعرج: [رَدَفَ] بفتح الدال. وقرأ الجمهور من الناس: [يُكِنُّ] من أَكَنَّ، وقرأ ابن محيصن وابن السميفع من كَنَّ: [تَكُنُّ]، وهما بمعنى واحد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

الهاءُ في (غَائِبَةٍ) للمبالغة، أَي: ما من شيء في غاية الغيب والخفاءِ إلاَّ في كتاب

---

(١) لأن (هَيْن) مسهَّلة من (هَيِّن)، و(لَيْن) مُسَهَّلة من (لَيِّن).

(٢) أي بعْد حذفه، وهي ليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد، ولكن الزمخشري أجاز ذلك، قال: «ويجوز أن يُراد في أَمْر ضيِّق».

(٣) الأصل كما جاء في كتب اللغة أن يقال: رَدِفه إذا تَبِعه أو اقترب منه وجاءَ في أَثَره، ولكن لما ضُمِّن معنى أَزِفَ أو اقترب عدِّي بالحرف فجاءت الآية: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، وقيل: إن اللام متعلقة بالمصدر، والمعنى: الرادفة لكم، وقد عُدِّي بـ (من) على سبيل التضمين أيضاً، ذكر ذلك الزمخشري، وعليه قول الشاعر:

فلمَّا رَدِفْنَا مِن عُمَيْرٍ وصَحْبِهِ ... تَولَّوْا سِرَاعاً والمَنِيَّةُ تَعْنَقُ

وقال الجوهري: وأَرْدفه أَمْرٌ؛ لغةٌ في رَدِف، قال خُزيمةُ بنُ مالك بن نَهْد:

إذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ... ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

يعني: فاطمةَ بنت يَذْكُر بن عنزة أَحَدِ الْقَارِظِين.

عند الله في مكنون علمه، ثم نبَّه تعالىٰ على أن هذا القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياءِ التي كان بينهم اختلاف في صفتها، فجاءَت في القرآن على وَجْهها، ثم وصفه تعالىٰ بأنه هدىً ورحمةٌ للمؤمنين، كما أنه عمًى على الكافرين المحتوم عليهم، ومعنى ذلك أن كفرهم اسَتَتبَّ مع قيام الحجة ووضوح الطريق، فكثر عماهم بهذه الحجة، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاءٍ من الله تعالىٰ وحكم قضاه فيهم وبينهم، ثم أمرهم بالتوكل عليه، وبالثقة بالله، وبأنه على الحق، أي: إنك الجدير بالنُّصرة والظهور، ثم سَلاه عنهم، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاءِ وهؤلاءِ معدومة، فشبههم مرَّة بالموتى ومرَّة بالصُّمِّ، قال العلماءُ: الميت من الأحياءِ هو الذي يلقى الله تعالىٰ بكفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي، ووقفت مع هذه الآية، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنتم بأسمع منهم»[1]، فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة للنبي ﷺ في أنْ ردَّ الله تعالىٰ إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءَه إياهم على معنى التوبيخ على مَنْ بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاءِ صدور المسلمين منهم، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور، وبما روي في ذلك أن الأرواح تكون في شفير القبور في أوقات، قالوا: فلو لم يَسْمع الميتُ لم يُسَلَّم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير معارض للآية؛ لأن السلام على القبور إنما هو عبادة، وعند الله

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، وأحمد، ولفظه كما في البخاري عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواءِ بدر خبيثٍ مُخْبث، وكان إذا ظَهَر على قوم أقام بالعَرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشى وتبعه أصحابه، قالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكِي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم: يا فُلان بن فُلان، ويا فُلان بن فُلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تُكَلِّم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نَفْسُ محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحَسْرةً وندماً.

الثواب عليها، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم، وإن جوَّزنا مع هذا أَن الأَرواح في وقت على القبور، فإِن سَمِع فليس الروح بميت، وإنما المراد بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الأَشخاص الموجودة مفارقة لأَرواحها، وفيها نقول: خرقت العادة لمحمد ﷺ في أَهل القليب، وذلك كنحو قوله عليه الصلاة والسلام في الموتى إِذا دخل عليهم المكان: «إِنهم يسمعون خفق النِّعال»[١].

وقرأَ ابن كثير: [ولا يُسْمِعُ] بالياءِ من تحت [ٱلصُّمُّ] رفعاً، ومثله في الرُّوم[٢]، وقرأَ الباقون: (تُسْمِعُ) بالتَّاءِ (ٱلصُّمَّ) نصباً. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ ﴾ بالإِضافة، وقرأَ يحيى بن الحارث، وأَبو حيوة: ﴿بهادٍ العمىَ﴾ بتنوين الدال ونصب [ٱلْعُمْيَ]، وقرأَ حمزة وحده: ﴿وما أنتَ تَهْدِي العمْيَ﴾ بفعل مستقبل، وهي قراءَة طلحة بن وثَّاب، وابن يَعْمر، وفي مصحف عبد الله: ﴿وما أن تهدي العمي﴾[٣].

ومعنى قوله: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ إِذا انْتُجِزَ وعْدُ عذابهم الذي تضمنه القولُ الآن من الله تعالىٰ في ذلك ـ أَي حتمه الله عليهم ـ وقَضاؤُه[٤]، وهذا بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾[٥]، فمعنى الآية: وإِذا أَراد الله تعالىٰ أَن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أَخرج لهم دابة من الأَرض، ورُوي أَن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يُؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى مُنيب ولا تائب، كما أَوحى الله تعالىٰ إِلى نوح: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾[٦]، و(وَقَعَ) عبارة عن الثُّبوت واللزوم[٧]، وفي الحديث: «إِن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، ومسلم في الجنة، وأبو داود في الجنائز، والنسائي في الجنائز كذلك، وأحمد (٢ـ٣٤٧ـ٤٤٥)، ولفظه كما في المسند عن أبي هريرة ـ قال سفيان: يرفعه ـ قال: «إنَّ الميِّت ليسمع خَفْق نعالهم إذا ولَّوْا مدبرين».

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٥٢): ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾.

(٣) بزيادة (أن) بعد (مَا).

(٤) (قضاؤُه) معطوفة على (وَعْدُ).

(٥) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر).

(٦) من الآية (٣٦) من سورة (هود).

(٧) وقال قتادة: معناه: وجب الغضب عليهم، وقال مجاهد: حقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقال ابن عمر، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم. وكل هذا فيه معنى الثبوت واللزوم كما قال ابن عطية رحمه الله.

الأَشراط ـ ولم يُعيِّن الأُولى ـ وكذلك الدَّجَّال»[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الأَحاديث والروايات أَن الشمس آخرها؛ لأَن التوبة تنقطع معها، ويُعطي الحال أَن الإِيمان لا يبقى إِلاَّ في أَفرادٍ، وعليهم تهب الريح التي لا تُبقي إِيماناً، وحينئذ يَنْفَد ويُنفخ في الصُّور، ونحن نروي أَن الدابة تَسِمُ قوماً بالإِيمان[(٢)]، ونجد أَن عيسى بن مريم عليه السلام يعدل بعد الدَّجَّال، ويؤمنُ الناسُ به، وهذه الدابة رُوي أَنها تخرج من جبل الصفا بمكة، قاله عبد الله بن عمر، وقال عبد الله بن عمرٍو ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نحوه، وقال: لو شئت أَن أَضع قدمي على موضع خروجها لفعلت، ورُوي عن قتادة أَنها تخرج من تِهامة، ورُوي أَنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنُّور نوح عليه السلام، ورَوى بعضهم عن حذيفة بن اليمان أَنها تخرج ثلاث خرجات[(٣)]، ورُوي أَنها دابّة مزغبة شعراءُ، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنها

---

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفعُ نفْساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

(٢) يريد أنها تضع علامة على الناس، فهذا تُسِمُه بِسِمَة الإيمان، وهذا تَسِمه بِسِمَة الكفر كما وضح ابن عطية بعد ذلك، وهو مذكور في بعض الآثار، ومنها الحديث الذي نرويه في الهامش التالي.

(٣) أخرجه الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر: فتخرج خَرْجة بأقصى اليمن، فينشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أُخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية» ـ يعني مكة ـ قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حُرْمة وأكرمها المسجد الحرام لم يَرُعْهُم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب، فارْفَضَّ الناسُ عنها شتَّى، وبقيت عصابة من المؤمنين، ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فَجَلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدُّرِّي، وولَّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوَّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: الآن تصلي؟ فيقبل عليها فَتَسِمه في وجهه ثم تَنْطلق، ويشترك الناس في الأموال، ويصطلحون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن يقول: يا كافر اقضِني حقِّي، وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضني حقي، (الدر المنثور)، ولنا على هذا الحديث تعليقان:

(أ) ـ أن رواية الدر المنثور (عن حذيفة بن أُسيد الغفاري)، أَما ابن عطية فذكر حذيفة بن اليمان، ونقله القرطبي عن حذيفة فقط دون تعيين لاسم أبيه، والثابت في تفسير ابن كثير وغيره أنه حذيفة بن=

على خِلْقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض، ورُوي أنها جمعت من خَلْق كل حيوان، ورَوى الثعلبي عن ابن الزبير نحوه، ورُوي أنها دابة مبثوث نوعها في الأَرض، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم، فقوله ـ على هذا التأويل ـ: (دَابَّة) إنما هو اسم جنس، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أَرادت قريش بناءَ الكعبة.

وقرأَ جمهور الناس: (تُكَلِّمُهُمْ) من الكلام، وفي مصحف أُبَيٍّ: [تُنْبِيهم]، وفسَّرها عكرمة بـ (تَسِمُهُم)، قال قتادة: وفي بعض القراءَة: [تُحَدِّثُهم]، وقرأَ أَبو زُرْعة بن عمرو بن جرير[1]: [تَكْلِمُهُم][2] بكسر اللام من الكَلْمِ وهو الجرح، قال أَبو الفتح: هي قراءَة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ذلك والله تفعل تُكَلِّمُهُمْ وَتَكْلِمُهُمْ»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رُوِي في هذا أَنها تمر على الناس فَتَسِم الكافر في جبهته وتُرمِّده وتشتمه وربما خَطَمَته[4]، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه، ويُعرف ـ بعد ذلك ـ الإِيمان والكفر من قِبَلِهَا.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [إن الناس] بكسر [إِنَّ]، وقرأَ حمزة، والكسائي،

= أُسيد الغفاري، ولعلَّ الخطأ هنا في ابن عطية من النساخ، وهو ما نُرجِّحه؛ لأن الذي رُوي عن حذيفة بن اليمان هو ما رواه ابن جرير عنه أنه قال: (بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون تضطرب الأرض من تحته، وتخرج الدابة من الصفا... إلخ) وقال عنه ابن كثير «وإسناده لا يصح»، والله أعلم.

(ب) ـ أن الشواهد في الحديث أُمور كثيرة، منها خروج الدابة، والسِّمة التي تَسِم الناس بها، وأنها الفصيل الذي تركته ناقة صالح، حيث جاء فيه النصُّ بقوله: «وهي ترْغُو بين الركن والمقام»، والرُّغاءُ هو للإبل، وفي ذلك تحديد لنوع الدابة.

(١) أبو زُرْعة بن عمرو بن جرير بن عبد الله البَجَلَي الكوفي ـ بضم الزَّاي وسكون الراءِ من زُرْعة ـ قيل: اسمه هرم، وقيل: عمرو، وقيل: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل جرير ـ وهو ثقة، من الثالثة ـ تقريب التهذيب (٢ـ٤٢٤).

(٢) قال ابن جِنِّي في المحتسَب: وهذا شاهد لمن ذهب في قوله: (تُكَلِّمُهُمْ) إلى أنه بمعنى تجرحهم بأكلها إياهم، ومعنى هذا أن (تُكَلِّمُهُم) من التَّكليم الذي هو تكثير في الكَلْم بمعنى الجرح.

(٣) قال ذلك حين سُئِل عن القراءتين: (تُكَلِّمُهُم) من الكلام، و[تَكْلِمُهُمْ] من الكَلْم وهو الجرح.

(٤) يُرَمِّدُ الشيءَ: يجعله في الرَّماد، أو يُهْلِكه، وخَطَمَه يَخْطِمه: جعل على أنفه خطاماً.



وعاصم بفتح الألف، وفي قراءة عبد الله: [تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ]، وهذا تصديق بالفتح، وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

المعنى: واذكُر يومَ، وهذا تذكير بيوم القيامة، و﴿نَحْشُرُ﴾: نَجْمع، و﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد: من كل قَرْن من الناس متقدم؛ لأن كل عصر لم يَخل من كَفَرَة بالله من لدُن تَفرُّق بني آدم، و«الفَوْجُ»: الجماعة الكبيرة من الناس، والمعنى: مِمَّن حاله أنه مكذب بآياتنا، و﴿يُوزَعُونَ﴾ معناه: يُكَفُّونَ في السَّوْق، أَي: يُحْبس أَوَّلهم على آخرهم، قاله قتادة وغيره، ومنه وازع الحبْس، ومنه يقول عبد الشارف بن عبد العزَّى:

فَجَـاؤوا عَـارِضـاً بَـرِداً وجِينـاً ... كمِثْـلِ السَّيْـلِ تـركـب وَازِعِينَـا[1]

ثم أَخبر تعالىٰ عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ الآية، ثم قال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على معنى استيفاءِ الْحُجَج، أَي: إن كان لكم عمل أَو حُجَّة فهاتوها. وقرأَ أَبو حيوة: [أَمَاذا كُنْتُمْ تعملون] بتخفيف الميم[2].

ثم أَخبر عن وقوع القول عليهم، أَي نفوذ العذاب وحتم القضاءِ، وأَنهم لا ينطقون بحُجَّة، لأَنها ليست لهم، وهذا في موطن من مواطن القيامة، وفي فريق من الناس؛ لأَن القرآن يقتضي أَنهم يتكلَّمون بِحُجَجَ في غير هذا الموطن.

ثم ذكر تعالىٰ الآية في اللَّيل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع الحيوان، والمهم في

---

(١) العارضُ البَرِدُ: السحاب الذي تصحبه نسمات باردة خفيفة، والبَرِدُ هو ذو البرودة، كما قال: «وَصِلِّيَاناً بَرِداً»، قال في اللسان: أي: ذو بُرُودة. والشاهد هنا في قوله: وازِعينَا، ومعناها: يُكَفُّون، على معنى يُحْبَس أولهم على آخرهم تخفيفاً من حدة اندفاعهم التي شبهها بالسَّيْل الجارف.

(٢) أدخل أداة الاستفهام على أداة الاستفهام توكيداً، قاله صاحب البحر المحيط.



ذلك بنو آدم، وكون النهار مبصراً، أَي: ذا إِبصار، وهذا كما تقول: ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ، ومعنى ذلك: يُنام فيه، فكذلك هذا معناه: يُبصر فيه، فهو لذلك: ذا إِبصار، ثم تجوز بأَن قيل: (مُبْصِراً)، فهو على النسب كعيشة راضية[(١)]، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين، هي آية لجميعهم في نفسها، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إِنما هو للمؤمنين فلذلك خُصُّوا بالذكر.

ثم ذكر تبارك وتعالىٰ يوم النَّفخ في الصُّور، وهو القَرْنُ في قول جمهور الأُمة، وهو مقتضى الأَحاديث، وقال مجاهد: هو كهيئة البوق، وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، كتَمْرَةٍ وتَمْر وجَمْرَةٍ وجَمْر، والأَول أَشهر، وفي الأَحاديث المتداولة أَن إِسرافيل عليه السلام هو صاحب الصُّور، وأَنه قد جثا على ركبته الواحدة وأَقام الأُخرى وأَمال خده والْتَقم القرن ينتظر متى يُؤمر ويُؤذن له بالنَّفخ، وهذه النَّفخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن المَلَك له ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهو فزع حياة الدُّنيا وليس بالفزع الأَكبر، ونفخة الصَّعق، ونفخة القيام من القبور[(٢)]. وقالت فرقة: إِنما هما نفختان، كأَنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[(٣)]، وقالوا: أُخْرى لاتقال إِلاَّ في الثانية.

---

(١) قال بعض العلماءِ: «الظاهر أن هذا من باب ما حُذف من أوَّله ما أُثبت في مُقَابِله، وحُذِف من آخره ما أُثبت في أوله، فالتقدير: جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه، فالإظلام ينشأ عن السكون، والإبصار ينشأ عن التصرف في المصالح، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ﴾، فالسكون عِلَّة لجعل الليل مظلماً، والتَّصرف عِلَّة لجعل النهار مبصراً»، وقد ذكروا هذا إجابة عن سؤال يرد هنا وهو: لماذا لم يقع التَّقابل في جعل النهار بالنَّص على علَّته فيكون التركيب: «والنَّهار لِتُبْصروا فيه» بل جاء بقوله تعالىٰ: (مُبْصِراً) قيداً في جعل النهار لا علَّة للجعل؟

(٢) رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ»، قلت: يا رسول الله ما الصُّور ؟ «قال: قَرْنٌ والله عظيم، والذي بعثني بالحق إن عظم دارةٍ فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث والقيام لِرَبِّ العالمين». ذكره عليُّ بن معبد، والطبري، والثعلبي وغيرهم، وصححه ابن العربي.

(٣) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصح، وأخرى تقال في الثالثة، ومنه قول ربيعة بن مقروم:

* ولَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بآخَرَ ثَالِثِ *(١)

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾(٢)، وأما قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ(٣)

فهو يحتمل أن يريد ثانياً أو ثالثاً فلاَ حُجَّة فيه.

وقوله تعالىٰ: (فَفَزِعَ) ـ وهو أَمْرٌ لم يقع ـ يُعَدُّ إشعاراً بصحة وقوعه، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ فيمن قضى الله تعالىٰ من ملائكته وأنبيائه وشهداءِ عبيده ألاَّ ينالهم فزع النَّفخ في الصُّور، وقال أبو هريرة: هي في الشهداءِ، وذكر الرُّمَّاني أنه النبي ﷺ، وقال مقاتل: هي في جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت، وإذا كان الأكبر لا ينالهم فهم حَرِيُّون ألاَّ ينالهم هذا(٤).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

على أن هذا في وقت ترقُّب وذلك في وقت أَمْن؛ إذ هو إطباق جهنم على أهلها.

وقرأ جمهور القُرَّاءِ: [وكلٌ آتُوْهُ داخرين] على وزن فاعلوه، وقرأ حمزة، وحفص

---

(١) ربيعة بن مقروم أحد شعراء مُضر المعدودين في الجاهلية والإسلام، أسلم فحسن إسلامه وشهد القادسية وغيرها من الفتوح، وله ترجمة في الإصابة وفي الخزانة. وشفعَ الشيءَ شَفْعاً: ضمَّ مثْله إليه ويقال: كان وتراً فَشَفَعْتُه بآخر، والشاهد هنا أن أُخرى تقال في المرة الثالثة ولايلزم أن تكون هي الثانية كما يقول بعض اللغويِّين.

(٢) الآية (٢٠) من سورة (النجم).

(٣) النَّشَمُ (بالتحريك): شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ، وهو من عُتُق العيدان، واحدته نَشَمَة، وهو مثل النَّبع في الصلابة. والثُّمَامُ: شجر، واحدتُه ثمامة، وبها سُمِّي الرجل ثُمامة، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسُدَّ به خصاص البيوت، وهو قصير لا يطول. والشاهد وضحه المؤلف.

(٤) وقيل: هم المؤمنون؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، وقال بعض العلماء: لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، وقال القرطبي تعليقاً على ذلك: «وخفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه لأنه نصٌّ في التعيين وغيره اجتهاد، والله أعلم».



عن عاصم: (أَتَوْهُ) على صيغة الفعل الماضي، وهي قراءَة ابن مسعود وأَهل الكوفة، وقرأَ قتادة: [أَتَاهُ] على الإِفراد إِتباعاً للفظ [كُل]، وإِلى هذه القراءَة أَشار الزَّجَّاج ولم يذكرها.

و«الدَّاخِرُ»: المتذلِّل الخاضع، قال ابن عباس، وابن زيد: الدَّاخر: الصاغر، وقرأَ الحسن: [دَخِرِينَ] بغير أَلف، وتظاهرت الروايات بأَن الاستثناءَ في هذه الآية إِنما أُريد به الشهداءُ؛ لأَنهم أَحياءٌ عند ربهم يرزقون، وهم أَهل للفزع لأَنهم بشر لكنهم فُضِّلوا بالأَمن في ذلك اليوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذا وصف حال الأَشياءِ يوم القيامة عقب النَّفخ في الصُّور، والرؤْية هي بالعين[1]، وهذه الحال للجبال في أَول الأَمر تسير وتموج، وأَمر الله تبارك وتعالىٰ بنسفها ونفشها خلال ذلك فتصير كالعهن، ثم تصير في آخر الأَمر هباءً منثوراً. و«الجمود»: التَّصامُّ في الجوهر، قال ابن عباس: (جَامِدَةً): قائمة، ونظيره قول الشاعر:

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ ... وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهَمْلِجُ[2]

---

(١) ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين.

(٢) البيت للنابغة الجعدي، وهو في وصف جيش، والأزعن: المضطرب لكثرته مع حركته، وقيل: شبهه بالجبل الضخم ذي الرِّعان، وهي الفضول والنتوءات البارزة بعنف من الجبل، والأنف العظيم المتقدم من الجبل يُسَمَّى رعن. والطَّوْدُ: الجبل العظيم، وتَحْسَب: من القياس، والحاجُ: جمع حاجةٍ، وتُهَمْلجُ: تمشي الهَمْلَجَةَ، وهي سيرٌ سريع حسن، والشاهد أنَّكَ ترى الشيءَ الضخم العظيم ساكناً وهو يتحرك، يخيل إليك أن السفينة الكبيرة في البحر واقفة مع أنها تتحرك، وكذلك الجيش الضخم بعدَدِه وسلاحه. والضمير في «أنَّهم» للجنود في الجيش.

و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر معرف، والعامل فيه فعلٌ مضمر من لفظه، وقيل: هو نصبٌ على الإغراءِ، بمعنى: انظروا صُنْعَ اللهِ[1]، و«الإتْقَانُ»: الإحسان في المعمولات، وأن تكون حساناً وثيقة القوة. وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: [يَفْعَلُونَ] بالياءِ، وقرأ الباقون: (تَفْعَلُونَ) بالتاءِ على الخطاب.

و(ٱلْحَسَنَةَ): الإيمان، وقال الحسن، وابن عباس، والنَّخعي، وقتادة: هي لاَ إِلـٰهَ إلاَّ الله، ورُوي عن علي بن الحسين أنه قال: كنت في بعض خلواتي، فرفعت صوتي بـ (لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ ٱلله)، فسمعت قائلاً يقول: إنها الكلمة التي قال الله فيها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يحتمل أن يكون للتفضيل، ويكون في قوله: (مِنْهَا) حذف مضاف تقديره: خيرٌ من قدْرها أو استحقاقها، بمعنى أن الله تعالىٰ تفضَّل عليه بفوق ما تَسْتَحق حسنتُه، وقال ابن زيد: يعطى بالواحدة عشرة، والداعيةُ إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يُتصور بينها وبين الثواب تفضيل، ويحتمل أن يكون (خَيْرٌ) ليس للتفضيل، بل اسمٌ للثواب والنعمة، ويكون قوله: (مِنْهَا) لابتداءِ الغاية، أي: هذا الجزاءُ الذي يكون له هو من حَسَنَتِه وبِسَبَبِهَا، هذا قول الحسن، وابن جريج، وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لاَ إِلـٰهَ إلاَّ ٱلله، وإنما له الخير منها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [من فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بالإضافة، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من (يَوْمَئِذٍ)، فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناءِ الظرف لما أُضيف إلى غير ممكن، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر الميم على إعمال الإضافة؛ وذلك أن الظروف إذا أُضيفت إلى غير ممكن جاز بناؤُها وإعمال الإضافة فيها، ومن ذلك قول الشاعر:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ[2]

---

(١) القول الأول هو قول الخليل وسيبويه، وذلك لأن الله تعالىٰ لما قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه سبحانه قد صنع ذلك صنعاً، وعلى هذا الرأي لا يوقف على (السَّحَابِ)، وعلى الرأي الثاني وهو النصب على الإغراء يجوز أن تقف على [السَّحَابِ]. ويجوز الرفع على تقدير: ذلك صُنْعُ الله، ذكر ذلك القرطبي، وأكد الزمخشري رأي سيبويه فقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ من المصادر المؤكدة، كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ و﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ إلا أنَّ المؤكَّد محذوف.

(٢) الشاعر هو النابغة الذبياني، والبيت من قصيدة له قالها يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشَىٰ به بنو قُرَيْع بن عوف من تميم، وهو في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والمنصف، وشرح شواهد=

فإنه يُروى: «على حينَ» بفتح النون، و«عَلَى حِينِ» بكسرها، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين وترك الإضافة، ولا يجوز ـ مع هذه القراءَة ـ إلاَّ فتح الميم من (يَوْمَئِذٍ).

و(ٱلسَّيِّئَةُ) التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي مِمَّن حتم الله تبارك وتعالىٰ عليه من أَهل المشيئة بدخول النَّار، و(كُبَّتْ) معناه: تُلَّتْ في النَّار، وجاءَ هذا كبًّا من حيث خَلْقُها في الدنيا يعطي ارتفاعها، وإِذا كُبَّت الوجوه فسائر البدن أُدخل النار؛ إِذ الوجه موضع الشرف والحواسِّ. وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بمعنى: فقال لهم ذلك، وهذا على جهة التوبيخ.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ بمعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أُمِرْتُ، و«الْبَلْدَةُ» المشار إِليها مكَّةُ. وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، وقرأَ ابن عباس، وابن مسعود: [التي حَرَّمَها]، وأَضافَ ـ في هذه الآية ـ التحريم إِلى الله تعالىٰ من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه، وأَضاف النبي ﷺ ذلك إِلى إِبراهيم في قوله: «إِن إِبراهيم حَرَّم مكَّة وإِنِّي حرَّمت المدينة»[1] من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمته، فليس بين الآية والحديث تعارض. وفي قوله: (حَرَّمَهَا) تعديد للنعمة على قريش في رفع الله تعالىٰ عن

= المغني، والهمع، والعيني. و(عَلَى) في البيت بمعنى (في)، والمعنى: كفكفت دمعي في وقت عتابي لنفسي في حالة مشيبها، وكان عتابه لنفسه على ما فعلت في صباه من طرب، والوازع: الناهي الزاجر، وإسناد الوزع إلى الشيب مجاز، أما الشاهد هنا فقد وضحه ابن عطية.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والمدينة والبيوع والأنبياء والمغازي والأطعمة والدعوات والاعتصام، ومسلم في الحج، وأبو داود في المناسك، والترمذي في المناقب، والنسائي في الحج، وابن ماجه في المناسك، والموطأ في المدينة، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة، ولفظه كما في المسند (١ـ١١٩) عن أبي حسان أن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيؤتى فيقال: قد فعلنا كذا وكذا، فيقول: صدق الله ورسوله، قال: فقال له الأشتر: إن هذا الذي تقوله قد تَفَشَّغ في الناس (انتشر)، أَفَشَيءٌ عهده إليك رسول الله ﷺ؟ قال علي رضي الله عنه: ما عهد إلي رسول الله ﷺ شيئاً خاصة دون الناس، إلا شيئاً سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي، قال: فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة، قال: فإذا فيها: «من أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل»، قال: وإذا فيها: «إن إبراهيم حرَّم مكَّةَ، وإني أُحرِّم المدينة، حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله، لا يختلى خَلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لِمَنْ أَشار بها. ولا تُقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»، قال: وإذا فيها: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بِذِمَّتهم أَدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم، أَلَا لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهْدٍ في عهده».

بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ معناه: بالملك والعبودية. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ﴾ عطفاً على قوله: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾، وقرأ ابن مسعود: [وأَنِ اتلُ القرآنَ][1] بمعنى: وأن قيل لي: اتلُ القرآن، و«اتْلُ» معناه: تابع بقراءَتك بين آياته واسْرُدْ. وتلاوة القرآن سبب الاهتداءِ إلى كل خير.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ معناه: من تكسَّب الهُدى والإيمان ونظر نظراً ينجيه فلنفسه سعيُه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فنِسْبَة الهدى والضلال إلى البشر من هذه الأُمة إنما هي بالتَّكَسُّب والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب، والكلُّ أيضاً من الله تعالىٰ بالاختراع.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ توعُّد بعذاب الدنيا كبدر والفتح ونحوه، وبعذاب الآخرة. وقرأ جمهور القراءِ: [عما يَعمَلُون] بالياءِ، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ من فوق على مخاطبتهم.

كَمُلَ تفسير سورة النَّمل والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال في البحر توضيحاً لها: وهي أمرٌ من (تَلا)، وجاز أن تكون (أَن) مصدرية وُصِلَتْ بالأمر، وجاز أن تكون مفسِّرَة على إضمار: وأُمرت أَنِ أتلُ. وقال الفراءُ في معاني القرآن: «وفي إحدى القراءَتين [وأَنِ اتلُ] بغير واو مجزومةً على جهة الأمر، وقد أُسقطت منها الواو للجزْم على جهة الأمر»، ونقل القرطبي عن النحاس قوله: «ولا نعرف أَحداً قرأ هذه القراءَة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة القصص

هذه السُّورة مكِّيَّة إلاَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(١)، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، قاله ابن سلام وغيره، وقال مقاتل: فيها من المدنيِّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾(٢) إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

تقدم القول في الحروف التي في أَوائل السُّور بما أَغنى عن الإِعادة، فمن قال: «إن هذه الحروف من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ» قال: إن الطَّاءَ من الطَّوْل الذي لله سبحانه، والسِّين من السلام، والميم من المنعم، أَو من الرحيم، ونحو هذا. وقوله: (تِلْكَ) يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأَقوال في الحروف، فمن جعل (طسم) مثالاً لحروف المعجم جاءَت الإِشارة بـ (تِلْكَ) إلى حروف المعجم، ومن قطعها قال: (تِلْكَ) في مواضع هذه، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيدة(٤)، بل هي أَقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً، فسائغٌ أَن يقال في الإِشارة إِليها: (تِلْكَ).

---

(١) الآية (٨٥) من السورة.

(٢) الآية (٥٢) من السورة.

(٣) الآية (٥٥) من السورة. وقد قال الحسن، وعطاء، وعكرمة: السورة مكِّيَّة كلُّها.

(٤) العتيد: المُهَيَّأ والحاضر، وفي التنزيل الكريم: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَصل أَن (تلك) إِشارة إِلى ما غاب، و(هذه) إِشارة إِلى ما حضر، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصولٌ وثقةٌ به يقوم مقام الحضور، ومتى كان في الحضور بُعْدٌ مَا يقوم مقام الغيبة، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[1] لما كان موسى لا يرى ربَّه تعالىٰ، فهو وعصاه في منزل غيب، فساغ ذلك. ومن النقيض قول المؤلف لكتاب: «هذا كتاب»، وما جرى هذا المجرى فنتبعه، ويشبه في آيتنا هذه أَن تكون ﴿تِلْكَ﴾ بمنزلة: هذه آيات الكتاب المبين، ويشبه أَن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيدة. و﴿نَتْلُو﴾ معناه: نَقُصُّ ونتابع القصص[2]، وخصّ المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث إنهم هم المنتفعون بذلك دون غيرهم[3].

و﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن عُلُوِّ الطُّغْيان والتغلب. وقوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أَرضَ مصر وموضع مُلْكه، ومتى جاءَت الأَرْض هكذا عامةً فإِنَّما يُراد بها الأَرض التي تشبه قصة المسوق؛ لأَن الأَنباءَ التي تعم الأَرض كلَّها قليلة، والأَكثر ما ذكرناه، و«الشِّيَعُ»: الفِرَقُ، وكان هذا القول من فرعون بأَن جعل القبط ملوكاً، وبني إِسرائيل مستخدمين، وهم كانوا الطائفة المُسْتَضعَفَة. و﴿يُذَبِّحُ﴾ مضعف للمبالغة والعبارةِ عن تكرار الفعل، قال قتادة: كان هذا الفعل من فرعون لأَنه قال له كهنته وعلماؤُه: إِن غلاماً لبني إِسرائيل يفسد مُلْكك، وقال السدي: رأَى في ذلك رؤْيا فأَخذ بني إِسرائيل بِذَبْح الأَطفال سنين، فرأَى أَنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلد هارون عليه السلام في عام الاستحياءِ، وولد موسى عليه السلام في عام الذَّبح، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿يُذَبِّحُ﴾ بضم الياءِ وكسر الباءِ على التكثير، وقرأَ أَبو حيوة، وابن محيصين بفتح الياءِ والباءِ وسكون الذال. قال وهب بن منبه: بلغني أَن فرعون ذبح في هذه المحاولة سبعين أَلفاً من الأَطفال، وقال النقاش: جميع ما قتل ستة عشر طفلاً.

---

(١) الآية (١٧) من سورة (طه).

(٢) ومفعول (نَتْلُو) هو ﴿مِن نَّبَإِ﴾، أي: بعض نَبَأ، فـ (مِنْ) للتَّبعيض، و(بِالْحَقِّ) متعلق بـ (نَتْلو)، أي: نَتْلُو مُحِقِّين، أو في موضع الحال من (نبَأ)، أي: مُتَلَبِّساً بالحق.

(٣) ذلك لأنهم يصدقون بالقرآن، ويعلمون أنه من عند الله تعالىٰ فينتفعون بذلك، أَما من لم يؤمن فلا يصدق أَنه حق، وبالتَّالي لا ينتفع به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

طمع بجهله أن يردَّ القدر[١]، وأين هذا المنزع من قول النبي ﷺ لعمر: «إن يَكُنْه فلن تقدر عليه» يعني ابن صياد. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

المعنى: يستضعف فرعونُ، ونحن نريد أن نُنْعم ونُعظم المنَّة على المستضعفين. و«الأئمة»: ولاة الأُمور. قال قتادة: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يريد: أَرض مصر والشام، وقرأ الأعمش: [وَلِنُمَكِّنَ] بلام، وقرأ الجمهور: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ بضم النون وكسر الراءِ وفتح الياءِ ونصب (فِرْعَوْنَ)، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن مسعود: [وَيَرَي] بالياءِ وفتح الرَّاءِ وسكون الياءِ على الفعل الماضي وإِسناد الفعل إِلى فرعون ومَنْ بعده، والمعنى: ويقع فرعون وقومه وجنده فيما خافوه وحَذِروه من جهة بني إِسرائيل وظهورهم. وهامانُ هو وزير فرعون وأَكبر رجاله، وذُكر لِمَحَلِّه من الكفر ولنباهته في قومه، فله في هذا الموضع صغار ولعنة لا شرف.

وهذا الوحيُ إِلى أُمِّ موسى، قالت فرقة: كان قولاً في منامها، وقال قتادة: كان إِلهاماً، وقالت فرقة: كان بِمَلَك تَمَثل لها، وأَجمع الكل على أَنها لم تكن نبيَّة، وإِنما إِرسال المَلَك لها على نحو تكليم المَلَك للأَبرص والأَقرع في الحديث المشهور[٢]

---

(١) قال الزَّجاج: العجب أنه من حمقه لم يدر أَن الكاهن إِنْ صَدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإِن كذب فلا معنى للقتل.

(٢) الحديث في البخاري ومسلم، وهو عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل، أَبرص وأَقرع وأعمى، فأَراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملَكاً، فأَتى الأبرص فقال: أي شيءٍ أَحَبُّ إِليك؟ فقال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس...» إلى آخر الحديث حيث حقق الله لكل واحد ما يريد امتحاناً وابتلاءً، ولم يوفق إلى فعل الخير منهم إلا الأعمى فحفظ الله عليه نعمته، وردَّ كلاً من الأبرص والأقرع إلى ما كان عليه.

وغير ذلك مما رُوي من تكليم الملائكة للناس من غير نُبُوَّة.

وجملة أَمْر أُمِّ موسى أنها علمت أَن الذي وقع في نفسها هو من عند الله ووعْد منه؛ يقتضي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1]، وهذا معنى قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالوعْد. وقال السدي وغيره: أُمرت أَن ترضعه عقب الولادة، وأَن تصنع به ما في الآية؛ لأَن الخوف كان عقب الولادة، وقال ابن جريج؛ أُمِرَت برضاعه أَربعة أَشهر في بستان، فإذا خافت أَن يصيح لأَن لبنها لا يكفيه صنعت به هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر، إلاَّ أَنَّ الآخر يعضده أَمران: أَحدهما قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و(إِذَا) ظرف لما يُستقبل من الزمان، والآخر لأَنه لم يقبل المراضع، والطفلُ إثر ولادته لا يفعل ذلك، اللهم إِلاَّ أَن يكون هذا منه بأَن الله تبارك وتعالىٰ حرَّمَها عليه وجعله يأباها بخلاف سائر الأَطفال، وقرأَ عمرو بن عبد الواحد[2]: [أَنِ ارْضِعِيه] بكسر النون اعتباطاً لا تخفيفاً، والتخفيف الفاشي فتح النون، قاله ابن جِنِّي[3]، ونسب المهدوي هذه القراءَة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، و(ٱلْيَمّ): جمهور الماءِ ومعظمه، والمراد نِيل مصر.

ورُوي في قصص هذه الآية أَن أُمَّ موسى عليه السلام ـ واسمها يوحانة[4] ـ أَخذته ولفَّته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً صغيراً، وشدته عليه بقفل وعلَّقت عليه مفتاحه وأَسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده، فلما غاب عنها عاودها خوفها، وانشغلت عليه، وأَقنطها الشيطان، فاهتمت به وكادت تفتضح، وجعلت الأُخت تقصُّه، أَي: تطلب أَثره.

---

(١) الآية (١٣) من هذه السورة.

(٢) نَسَبَهَا في القرطبي إلى عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ فقط، وذكر صاحب البحر أنها للاثنين: عمرو بن عبد الواحد، وعمر بن عبد العزيز.

(٣) قال ابن جني: كما قرأَ ابن محيصن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾، وكما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾، ولو كان على التخفيف القياسي لقال: ﴿أَنَ أَرْضِعِيهِ﴾، بفتح النون بحركة الهمزة من (أَرْضِعِيهِ).

(٤) وقيل: اسمُها «لُوحا بنْت هاند بن لاوي بن يعقوب»، وقيل: يوخاند، وقيل: يوخابيل.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

الالْتِقَاطُ: اللقاءُ عن غير قصد، ومنه قول الشاعر:

وَمَنْهَـــلٍ وَرَدْتُـــهُ الْتِقَـــاطـــا

لَـــمْ أَلْـــقَ إِذْ وَرَدْتُـــهُ فُـــرَّاطـــا[1]

و﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾: أَهْلُه، ويروى أَن آسية امرأَة فرعون رأَت التَّابوت يعوم في اليَمِّ فأَمرت بِسَوقه وفَتْحِهِ، فرأَت فيه صبيًّا صغيراً فرحمته وأَحبته، وقال السدي: إِن جواريها كان لهن فُرْضة[2] في القصر على النيل، يدخل الماءُ فيها إِلى القصر حتى يَنَلْنَه في المرافق والمنافع، فبينا هُنَّ يغسلن في تلك الفُرْضة إِذ جاءَ التابوت فحملنه إِلى مولاتهن، وقال ابن إِسحاق: رآه فرعون يعوم فأَمر بسوقه، وآسيةُ جالسةٌ معه، فكان ما تقدم.

وقوله: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ هي لام العاقبة، لا أَن القصد بالالتقاط كان لأَن يكون عدوًّا، وقرأَ الجمهور: (وَحَزَناً) بفتح الحاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [وَحُزْناً] بضم الحاءِ وسكون الزَّاي، و«الخَاطِىءُ»: مُتَعَمِّدُ الخطأِ، والمُخْطِىءُ: الذي لا يَتَعَمَّدُهُ.

---

(١) البيتان من مشطور الرجز، وقد ذكرهما في (اللسان ـ لقط)، ونسبهما لِنِقادة الأَسَدِيِّ، قال: «لقيتُه التقاطاً: إِذا لقيتَه من غير أَن ترجوه أَو تحتسبه، قال نقادة الأَسديُّ: وذكر البيتين وبعدهما الثالث وهو:

إِلا الْحَمَامَ الْوُرْقَ والغَطَاطَا

وقال سيبويه: التقاطاً: أَي فجأَةً وهو من المصادر التي وقعت أَحوالاً، نحو جاءَ رَكْضاً... وحكى ابن الأَعرابي: لقيتُه لقاطاً: مُوَاجَهَةً»، والبيت الأَول مذكور في الصحاح، والمقاييس، والكتاب لسيبويه بدون نسبة. والمَنْهَلُ: الموردُ: وفُرَّاط القطا: متقدماتها إِلى الوادي والماءِ، والغَطاط (بفتح الغين): القَطَا، وقيل: ضربٌ منه، والواحدة غَطَاطَة، والشاعر يتحدث عن مورد ماءٍ وَرَدَهُ فجأَة دون أَن يحتسب ذلك، ولم يجد عنده فُرَّاط القَطَا اللهم إِلا الحمام الوُرْق وبعض الغَطاط.

(٢) الفُرْضة من النهر: مشرب الماءِ منه، ومن البحر: محط السفن.



واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأةُ فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاط التابوت لمَّا أشعرت فرعون به؛ إذ سبق إلى وَهْمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخلُّص من الذَّبح، فقال: عليَّ بالذَّبَّاحين، فقالت امرأته ما ذُكر، فقال فرعون: أمَّا لي فلاَ، قال النبي ﷺ: «لو قال: نعم لآمن بموسَى ولكان قُرَّة عين له»[1]، وقال السدي: بل ربَّتْهُ حتى درج، فرأى فرعون فيه شهامة، وظنَّه من بني إسرائيل، وأخذه في يده، فمدَّ موسى عليه الصلاة والسلام يده ونتف لحية فرعون، فهَمَّ حينئذ بذبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، واختبرته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بأنه الذي يَفْسُد المُلْكُ على يديه، قاله قتادة وغيره. وقرأ ابن مسعود: [لا تقتلوه قُرَّة عَيْن لي وَلَكَ]، قدَّم وأخَّر.

وقوله: (وَأَصْبَحَ) عبارة عن دوام الحال واستقرارها، وهي كظَلَّ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح: «لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيماً»، يريد: اسْتَقرَّ به حاله عظيماً، وقرأ جمهور الناس: (فَارِغاً) من الفراغ، واخْتُلف في معنى ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فارغاً من كل شيءٍ إلاَّ من ذِكر موسى عليه السلام، وقال مالك: هو ذهاب العقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[2]. وقالت فرقة: فارغاً من الصبر، وقال ابن زيد: فارغاً من وعْد الله تبارك وتعالىٰ ووحْيه إليها، أي: تناسَتْه بالهَمِّ، وفَتَر أثَرُه في نفسها، وقال لها إبليس: فررت به من قتْلٍ لك فيه أجْر، وقَتَلْته بيدك، وقال أبو عُبَيْدَة: فارغاً من الحزن؛ إذْ لم يغرق، وقرأ فَضَالة بن عُبَيْد ـ ويقال: ابن عُبَيْدَة[3] ـ، والحسن:

---

(١) في خبر طويل أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي، وذَكَرَهُ في الدُّرِّ المنثور أن الذي قال ذلك هو ابن عباس رضي الله عنهما. (راجع تفسير الطبري ٢١ـ٣٤ـ والدرّ المنثور ٥ـ١١٨)، ولم يشر أحدهما إلى أنه رفعه للنبي ﷺ.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٤٣) من سورة (إبراهيم): ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

(٣) هو في المحتسَب ٢ـ١٤٧: فَضَالة بن عبد الله، وقال محقق المحتسَب: «هو فضالة الليثي، وقيل: هو ابن عبد الله، وقيل: ابن وهب. . . ويعرف بالزهراني»، وقد اعتمد في ذلك على الإصابة ٣ـ٢٠٢. وفي تقريب التهذيب ذكر ابن حَجَر العسقلاني فَضَالة الليثي الزهراني هذا، وذَكَر قبله فَضَالةَ بنُ عُبَيْد ـ هكذا بدون التَّاءِ ـ قال: «هو فَضَالة بن عُبَيْد بن نافذ بن قيس الأنصاري، أول ما شهد أُحُد، ثم نزل=

[فَزِعاً] من الفزع ـ بالفاءِ والزاي ـ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [قَرِعاً] بالقاف والرَّاءِ، من القارعة، وهي الهَمُّ العظيم[1]، وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم: [فِرْغاً] بالفاءِ المكسورة والراءِ الساكنة والغين المنقوطة، ومعناها: ذاهباً هدراً تالفاً من الهمِّ والحزن، ومنه قول طلحة الأَسديِّ:

فَإِنْ يَكُ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمْ   فَلَنْ يَذْهَبُوا فِرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ[2]

أَي: هدراً تالفاً لا ينفع. وقرأ الخليل بن أَحمد: [فُرُغاً] بضم الفاءِ والرَّاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أَي أَمْر ابنها، ورُوي أَن رسول الله ﷺ قال: «كادت أُمُّ موسى أَن تقول: وا ابناه، وتخرج صائحة على وجهها»[3]. «والرَّبْط على القلب» تأْنيسُه وتقويته، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق: رابط الجْأش، قال قتادة: ربط على قلبها بالإِيمان. وقوله تعالىٰ: و﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي المصدقين بوعد الله تبارك وتعالىٰ، وبما أُوحي إِلَيْها بِهِ.

ثم قالت لأُخت موسى طمعاً منها وطَلَباً له: [قُصِّيهِ]، والقَصُّ: طلب الأَثر، فيُروى أَن أُخته خَرجت في سِكَك المدينة تبحث متخفية، فرأَته عند قوم من حاشية آل فرعون

= دمشق وولي قضاءها، ومات سنة ثمان وخمسين، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب ٢ـ١٠٩).
هذا وقراءة فَضَالة هذه هي أيضاً قراءة أَبي هذَيْل، ويزيد بن قُطَيْب السَّكُوني الشامي. ذكر ذلك ابن جني.

(١) قيل: إنها ترجع إلى نفس معنى قراءة الجماعة (فارغاً): لأن الرأس الخالي من الشَّعر يقال له: أَقرع لفراغه من الشَّعر.

(٢) هو طلحة بن خويلد الأسدي، وقد كثر الاختلاف في رواية البيت، فرواية ابن عطية تتفق مع رواية أَبي حيان في البحر إلا في كلمة (فِرْغاً) ـ وهي موضع الشاهد، فقد رواها أبو حيان (فِزْغاً) بالفاء المكسورة والزاي المنقوطة، والمعنى واحد، ورواية اللسان (فَرَغَ) تتفق مع ما في المحتسَب، وهي:

فَإِنْ تَكُ أَذْوادٌ أُصِبْنَ ونِسْوةٌ   فَلَنْ تَذْهَبُوا فِرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ

إلا أن اللسان قال: (أُخِذْنَ) بدلاً من (أُصِبْنَ). والأَذْواد: جمع ذَوْد، وهي من الإبل من الثلاثة إلى العشرة، مؤنثة، ولا واحد لها من لفظها، وحِبَالُ بكسر الحاء هو أخوه، وقيل ابنه. والمعنى على جميع الروايات أن الشاعر يتوعَّد الأعداء، ويقول: إنهم لن يفلتوا من العقاب لقتلهم حبال.

(٣) أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق، أخرجوا جميعاً هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما غير مرفوع. (راجع الدر المنثور)، وليس في هذا الخبر قوله: (وتخرج صائحة على وجهها).

يطلبون له امرأة تُرضعه حين لم يقبل المراضع، و﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: ناحية من غير قصْد ولا قُرْب يشعرها به، ويقال: «عن جنابة» و«عن جَنَاب»، ومنها قول الشاعر:

لَقَدْ ذَكَّرَتْني عَنْ جَنَابٍ حمَامَةٌ بِعُسْفَانَ أَهْلِي والفُؤَادُ حزِينُ[1]

ومن الجنابة قول الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْثاً زائراً عَنْ جَنَابَةٍ وكان حُرَيْثٌ عَنْ عَطَائِي جَامِدَا[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذه الألفاظ: عن مكان جُنُب، أَو عن بُعْد، ومعنى الآية: عن بُعْد، لم تَدْنُ منه فيشعر بها، وأَنشد أبو عبيدة لعلقمة:

فَلاَ تَحْرِمَنِّي نائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ فَإِنِّي امرؤٌ وسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ[3]

وقرأَ قتادة: [عن جَنْب] بفتح الجيم وسكون النون، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وقرأَ [عن جانِب] النعمانُ بن سالم، وقرأَ الجمهور: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بضم الجيم والنون.

---

(١) البيت لأعرابي لم يُذكر اسمُه، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرها شهاب الدين الحموي في «معجم البلدان»، وعُسْفان بضم العين منهلة من مناهل الطريق بين مكة والجحفة، وقيل: هي على مرحلتين من مكة، وسُمِّيت عُسْفان من: عسفت المفازة وهو يعسفها، وهو قطعها بلا هداية أو قصد، وكذلك كل أمر يُركب بغير رواية، وقد غزا النبي ﷺ بني لحيان بعُسفان، والأَبيات الثلاثة هي:

لَقَدْ ذكَّرتني عَنْ حُبَابٍ حَمَامَةٌ بعُسْفَانَ أَهْلي فالفُؤَادُ حَزِينُ
فَوَيْحَكِ كَمْ ذَكَّرتِني اليَوْمَ أَرْضَنَا لَعلَّ حِمَامِي بالحِجَازِ يَكُونُ
فَوَاللهِ لا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ومَا اخْضَرَّ مِن عُودِ الأَرَاكِ فُنُونُ

هكذا رُويت (حُبَاب) بدلاً من (جَنَاب)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٢) البيت من قصيدة له يمدح هوذة بن علي الحنفي، ويذم الحارث بن وعلة الرقاشي، وحُرَيْث تصغير الحارث، صغَّره تحقيراً له، وجَنَابة: بُعْد ومن غير قصد، وهو الشاهد، وجامِد: لا يلين ولا يعطي، وتروى: جاحداً، والشاهد قوله: عَنْ جَنَابةٍ.

(٣) البيت من قصيدة علقمة الفحْل التي قالها في مدح الحارث ملِك الغساسنة في الشام بعد الواقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، وقد أُسر فيها عدد من بني تميم، وفيهم شاس أخو الشاعر، فذهب علقمة إلى الحارث مادحاً طالباً إطلاق سراح أخيه، وفعلاً نجح في مسعاه، وأَطلق الملك سراح أخيه ومن معه من الأسرى.

والنَّائل: العطاءُ، ويريد به هنا إطلاق سراح أَخيه، والجنابة: البُعْد والغُربة، يقول: لا تحرمني وتمنع عني العفو عن الذنب الذي جئتك راجياً مستشفعاً فيه، فإنني امرؤٌ غريب في هذه الديار.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: لا يشعرون أنها أُخته، وهذا من جملة لطائف الله تبارك وتعالىٰ له ولأُمِّه حسب الوعد الذي أُوحي إليها. ويقال: بصرتُ بالشيءِ وأَبْصرتُ بمعنى واحد متقارب، قال المهدوي: وقيل: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ معناه: عن شوق، وهي لغة لِجذام، يقولون: جنبت إلى لقائك، أي اشتقت إليه، وقال قتادة: معنى ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أنها تنظر إليه كأنها تريده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ يقتضي أن الله تعالىٰ خَصَّه من الامتناع من ثدي النساءِ بما يشذُّ به عن عرف الأَطفال، وهو تحريم تبغيض، و﴿المراضع﴾ جمع مُرْضع، واستعمل دون هاءِ التأْنيث لأَنه لا يلتبس بالرجال. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي من أَول أَمره، و﴿قَبْلُ﴾ مبني، والضمير في ﴿فَقَالَتْ﴾ لأُخت موسى، قال النقاش: اسمها مريم، و(يَكْفُلُونَهُ) معناه: يُحسنون تربيته وإِرضاعه. وعلم القوم أَن مُكَلِّمتهم من بني إسرائيل، وكان ذلك عرف بني إِسرائيل، أَن يكونوا مراضع وخدمة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ يحتمل أَن الضمير يعود على الطفل، فقالوا لها: إِنك قد عرفتِهِ فأَخبرينا من هو؟ فقالت: ما أردت إِلاَّ أَنهم ناصحون للملِك، فتخلصت منهم بهذا التأْويل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يعود الضمير على الطفل ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على التَزلُّف إِليه والقُرب منه، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر، وهو أَنها حملتهم إِلى أُمّ موسى وكلموها في ذلك، فَدَرَّت عليه وَقَبِلَها، وحظيت بذلك، وأُحسن إِليها وإِلى أَهل بيتها، وقرَّت عينها، أَي سُرَّت بذلك، وروي أَن فرعون لعنه الله تعالىٰ قال

لها: ما سبب قبول هذا الطفل؟ قالت له: «إنِّي طيبة الرائحة طيبة اللبن، ودمع الفرح بارد، وعين المهموم حرى سخنة»، فمن هذا المعنى قيل: قَرَّت العين وسخنت[1]، وقرأ يعقوب: [نُقِرَّ] بنون مضمومة وكسر القاف. و«وَعْدُ اللهِ» تعالىٰ المشار إليه هو الذي أَوحاه إِليها أَوَّلاً، إِمَّا بِمَلَك أَو تمثُّله، وإِمَّا بإلهام حسب اختلاف المفسرين في ذلك، والقول بالإلهام يضعف أَن يقال فيه: «وعْد». وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد القبط. و«الأَشُدّ» جمع شدة، من السِّنين، فقالت فرقة: بلوغ الحُلُم، وهي مدة خمسة عشر عاماً، وقالت فرقة: ثمانية عشر عاماً، وقال السدي: عشرون، وقالت فرقة: خمسة وعشرون، وقالت فرقة: ثلاثون، وقال مجاهد وابن عباس: ثلاثة وثلاثون، وقالت فرقة عظيمة: ستة وثلاثون، وقال مجاهد وقتادة: الاستواءُ: أَربعون سنة، وقال مكي: وقيل هو ستون سنة، وهذا ضعيف. والأَشُدّ: شِدَّة الْبَدَن واستحكام أَسْره وقوته (وَٱسْتَوَىٰ) معناه: تكامل عقله وحزمه، وذلك ـ عند الجمهور ـ مع الأَربعين. و«الحُكْمُ»: الحِكْمَة، و«العِلْمُ»: المعرفةُ بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ـ فقال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون، وكان يركب مواكبه حتى أَنه كان يدعى موسى بن فرعون، قالوا: فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة، وهو حين الغفلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أَيضاً: هو بين العشاءِ والعَتَمة، وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد بَدَت منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون، فكان مختفياً بنفسه مخوفاً منهم، فدخل متنكراً مغتفلاً للناس، وقال ابن زيد: بل كان فرعون قد نابذه وأَخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أَمره، وجاءَ والناس على غفلة بنسيانهم لأَمره وبُعْد عَهْدهم به، وقيل: كان يوم عيد. وقوله تعالىٰ: (يقْتَتِلاَنِ) في موضع الحال، أَي: مُقْتَتَلين. و«شِيعَتُه»: بنو إسرائيل، و«عَدُوّه»: القبط. وذكر

---

(١) ومن ذلك قول أبي تمام:

فَـأَمَّـا عُيُـونُ الْعَـاشِقِيـنَ فَـأُسْخِنَـتْ وَأَمَّـا عُيُـونُ الشَّـامِتِيـنَ فَقَـرَّت

الأَخفش سعيد بن مسعدة(١) أنها [فاسْتَعَانَه] بالعين غير معجمة(٢)، وهي تصحيف لا قراءَة(٣). وذكر الثعلبي أَن «الذي من شيعته» هو السَّامِرِي، وأَن الآخر طباخ فرعون.

وقوله تعالىٰ: (هَذَا)، (وهذا) حكاية حال قد كانت حاضرة، ولذلك عبَّر بـ (هَذَا) عن غائب ماض. و«الوَكْزُ»: الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين. وقرأَ ابن مسعود: [فلَكَزَه]، والمعنى واحد إِلاَّ أَن «اللَّكز» في اللَّحى، و«الوَكْز» على القلب، وحكى الثعلبي أَن في مصحف ابن مسعود: [فَنَكَزَه]، والمعنى واحد. و﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ معناه: قَتَلَه، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يُرد قتل القبطي لكن وافقت وكزتُه الأَجل وكان عنها موته، فندم موسى عليه السلام، ورأَى أَن ذلك من نزغ الشيطان في يده، وأَن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن هَمْزه، وهو نصٌّ على ذلك، وبهذا الوجه جعله من عمله(٤)، وكان فضل قوته عليه السلام بما أَفرط في وقت غضبه بأَكثر مما يقصد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾.

ثم إِن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالىٰ، والاستغفار عن

---

(١) هو المعروف بالأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، نحويٌّ، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، وسكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنَّف كُتباً منها: «تفسير معاني القرآن»، و«شرح أبيات المعاني»، وهما مخطوطان، وزاد في العروض بحر الخَبَب، وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر بحراً فأصبحت بذلك ستة عشر بحراً. (وفيات الأعيان ـ الفهرست لابن النديم ـ معجم الأدباء).

(٢) هي قراءة سيبويه، وابن مقسم، والزعفراني، وهي بالعين المهملة بدلاً من الغين، وبالنون بدلاً من الثاء، ومعناها: طلب منه أن يُعينه على خصمه، قال أبو القاسم يوسف بن جبارة: الاختيار قراءة ابن مقسم؛ لأن الإعانة أولى في هذا الباب. (راجع البحر المحيط).

(٣) قال أبو حيان الأندلسي: «وليست تَصْحيفاً؛ فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه، وابن جبارة عن ابن مقسم والزَّعفراني».

(٤) كأن ابن عطية يرُدُّ بهذا التحليل على قول من قال: إن الضمير في قوله تبارك وتعالىٰ: (فَقَضَى) يرجع إلى الله، والمعنى: فقضى اللهُ عليه، وعلى قول من قال: إنه يعود على المصدر المفهوم من الكلام، والمعنى: فقضى الوكزُ عليه.

ذنبه، فغفر له خطأَه ذلك، قال قتادة: عرف ـ والله ـ المخرج فاستغفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأَنه قد غُفِر له، حتى أَنه في القيامة يقول: «وقتلتُ نفساً ولم أُؤْمر بقتله» حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة.

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عزَّ وجلَّ: «رَبِّ بنعمتك عليَّ وبسبب إِحسانك وغفرانك فأَنا ملتزم أَلاَّ أَكون مُعيناً للمجرمين»، هذا أَحسن ما تُؤُوِّل، وقال الطبري: «إِنه قَسَم، أَقْسَم بنعمة الله تبارك وتعالىٰ»، ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإِنه غير متمكن في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾؛ لأَن القسم لا يتلقى بـ(لَنْ)، والفاءُ تمنع أَن تُنَزَّل (لَنْ) منزلة (لا) أَو (ما) فتأَمَّله، واحتج الطبري بأَن في قراءَة عبد الله: «فَلا تَجْعَلني ظَهِيراً».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واحتجَّ أَهل الفضل والعلم بهذه الآية في [مَنْع][1] خدمة أَهل الجوْر ومعونتهم في شيءٍ من أَمرهم، ورأَوا أَنها تتناول ذلك، نصَّ عليه عطاءُ بن أَبي رباح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أَوقاته، كما تقول: أَصبح زيد عالماً. و(يَتَرَقَّبُ) معناه: عليه رقيب من فعله في القتل فهو يتحسَّس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فَمَرَّ وهو بحالة الترقُّب وإِذا ذلك الإِسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأَمس يقاتل آخر من القبط، وكان قتلُ القبطي قد خفي عن الناس واكتُتم، فلما رأَى موسى الإِسرائيليَّ استصرخه الإِسرائيليُّ، بمعنى صاح به مستغيثاً، ومنه قول الشاعر:

كُنَّـا إِذا مَـا أَتَـانَـا صـارِخٌ فَـزِعٌ ... كـان الصّراخُ لَـهُ قَرْعَ الظَّنَـابيـب[2]

---

(١) هذه الكلمة سقطت من الأصل، والمعنى بدونها قد يفهم بما يمكن أن يكون ضِدّاً للمقصود، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط، فقد نقل القرطبي نصَّ كلام عطاء بن أبي رباح وهو: «لا يَحِلُّ لأحد أن يعين ظالماً، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين»، وفي الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الظَّلَمة وأشباه الظَّلَمة وأعْوَان الظَّلَمة، حتى من لاق لهم دواة، أو بَرَى لهم قلماً، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم». ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من مَشَى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزل فيه الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظُلْمِه أزَلَّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»، وفي الحديث: «من مَشى مع ظالم فقد أجرم».

(٢) البيت لسَلامة بن جَنْدل، والصَّارخ: المستغيث، وفي المَثَل: «عَبْدٌ صريخُه أَمَةٌ»، أي: ناصره أذلُّ منه، =



فلما رأى موسى عليه السلام قتاله لذلك الآخر؛ أعظم ذلك، وقال له معاتباً ومؤنباً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾، وكانت إرادة موسى ـ مع ذلك ـ أن ينصر الإسرائيلي، فلما دنا منهما وجس الإسرائيلي وفزع منه، وظنَّ أنه ربما ضربه، وفزع من قوته التي رأى بالأمس، وشهد أمر القتيل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: (يَبْطِشَ) بكسر الطاءِ، وقرأ الحسن، وأبو جعفر: [يَبْطُشَ] بضم التاءِ، وهما لغتان. فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهر أمر القتيل. والجبابرة شأنهم قتل الناس بغير حق؛ فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح. قال الشعبي: من قتل رجلين فهو جبار، قال الشعبي: ولما اشتهر أنَّ موسى قتل القتيل، وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى عليه السلام من المقدمات أنه المشار إليه بفساد المملكة، فأنفذ فرعون إليه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل، فخرج على الطريق الأعظم، وأخذ رجل ـ يقال: إنه مؤمن آل فرعون، ويقال: إنه غيره ـ في بُنَيَّات الطريق[1] قصداً إلى موضع موسى فبلغه وقال له: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ الآية.

= والصُّراخ: الإغاثة والنجدة، وفي التنزيل العزيز: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾، والظَّنابيب جمع ظنبوب، وهو حرف العظم اليابس من السَّاق، والبيت في (اللسان ـ ظَنَبَ)، قال بعد أن ذكر البيت: «عَنَى بذلك سُرْعَة الإجابة، وجعل قَرْعَ السَّوْط على ساق الخُفِّ في زجر الفرس قرعاً للظنبوب»، ثم قال: «قَرْع الظُّنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب راحلته بعصاه إذا أناخها ليركبها ركوب المُسارع إلى الشيء». هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت المجلد الخامس، ص ٢٤٠ هامش ٢.

(١) بُنَيَّات الطريق: تصغير بنات، والمراد بها السكك أو الطرق الصغيرة تتشعب من الطرق الكبيرة، وقد سلكها هذا الرجل ليصل بسرعة إلى موسى عليه السلام، وليخفي أمره حتى لا يعرف أحد أنه يريد إبلاغ موسى بالخبر.



و(يَسْعَى) معناه: يُسرع في مشيه، قاله الزجاج وغيره، وهو دون الجري، وقال الزجاج: معناه: يعجل وليس بالشَّدِّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة مالك رحمه الله في سَعي الجمعة، والأَول عندي أَظهر في هذه الآية.

و(يَأْتَمِرُونَ) وزنه يفتَعِلُونَ، ويَفْتَعِلُونَ يأتي كثيراً بمعنى يَتَفَاعَلُون، ومنه ازْدَوج بمعنى تَزَاوج، وذهب ابن قتيبة إلى أَنه بمعنى: يأمر بعضُهم بعضاً، قال: لو كان ذلك لكان «يتآمرون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهب عنه أَنَّ يَفْتَعل بمعنى يَتفاعَل، وفي القرآن: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾[١]، وقد قال النَّمِر بن تَوْلَب:

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شِيمَةً ... وفي كُلِّ حادِثَةٍ يُؤْتَمَرْ[٢]

وأَنشد الطبري:

ما تَأْتَمِرْ فِينَا فَأَمْـ ... ـرُكَ في يَمِينِكَ أَوْ شَمَالِكْ[٣]

ومنه قول ربيعة بن جشم:

أَحَارِ بْنَ كَعْبٍ كَأَنِّي خَمِرْ ... ويَعْدُو على الْمَرْءِ ما يَأْتَمِرْ[٤]

---

(١) من الآية (٦) من سورة (الطلاق).

(٢) استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن»، والنَّمر بن تولب شاعر مخضرم، شاهد تغيُّراً في القيم الاجتماعية، ورأى أن الناس قد أحدثوا أُموراً جديدة لم يرها من قبل، فقد نزعوا إلى الجدل في أُمور العقائد كالقضاء والقدر، وشؤون السياسة والحكم كالخلافة، وإلى ذلك كله يشير بقوله: (أَحْدثوا شِيمَةً)، وهي الأخلاق التي لم تعرف من قبل في حياة الرسول ﷺ وفي حياة الخلفاء الراشدين، والائتمار هو التشاور والجدل وعرض الآراء المختلفة، وكل هذه كانت شواهد على الفرقة والتشيع.

(٣) البيت في الطبريِّ غير منسوب، يقول: «يا موسى إن أشراف قوم فرعون ورؤساءَهم يتآمرون بقتلك، ويتشاورون ويرتؤون فيك، ومنه قول الشاعر: (ما تأتمر فينا... البيت)»، فهو يراه من التآمر وهو التشاور وتبادل الرأي، والمعنى على ما رآه وسار عليه ابن عطية: إن ما يتشاور فيه أهل الرأي فهو أمر نافذ لا يعترض عليه. وإن كان الطبريُّ قد قال بعد أن ذكر البيت: «يعني: ما ترتئي وتهُمُّ به»، وعلى هذا فهو من الرأي القائم على الاستبداد، ولا تشاور فيه، ويمكن أن يفهم المعنى على أن ما تتشاور معنا فيه نحترمه، وأنت إنسان لك قدرك ووزنك، ورأيك ينبع من نفسك فلا يفرضه عليك أحد.

(٤) البيت في (اللسان ـ أَمَرَ)، وقد نقل عن أبي عبيدة أنه من قول النَّمر بن تولب ـ وأن لفظه: (أَحَارِ بن=

فخرج موسى عليه السلام وأَفلت من القوم فلم يجدوه، وخرج بحكم فزعه إِلى الطريق إِلى مدين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى عليه السلام لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أَحداً، فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالىٰ ومتوكلاً عليه. قال السدي ومقاتل: فَرُوي أَن الله تعالىٰ بعث إِليه جبريل عليه السلام ـ وقيل: مَلَكاً غيره ـ فسَدَّده إِلى الطريق وأَعطاه عصاً يقال هي كانت عصاه، ورُوي أَن عصاه إِنما أَخذها لرعية الغنم في مدين، وهو أَصحُّ وأَكثر. وبين مدين ومصر ثمانية أَيام، قاله ابن جُبَيْر والناس، وكان مُلْك مدين لغير فرعون، وحكى الطبري عن ابن جُرَيْج، أَو ابن أَبي نُجَيْح ـ شكَّ الطبريُّ[1] ـ أَنه قال: إِن الذي أَراد أَن يبطش هو الإِسرائيليُّ، فنهَاهُ موسى عن ذلك بعد أَن قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ففزع الإِسرائيليُّ عند ذلك من موسى عليه السلام وخاطبه بالفصيح، وكان موسى من الندامة والتَّوبة في حين لا يُتَصور معه أَن يريد البطش بهذا الفرعوني الآخر. وروى ابن جريج أَن اسم الرجل الساعي من أَقصى المدينة شمعون، وقال ابن إِسحاق: سمعان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتَّثَبُّت في هذا ونحوه بعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى

= عَمْرو فُؤَادي خَمِرْ) ـ ثم ذكر أن غير أبي عبيدة ينْسبه لامرىءِ القيس، وأن روايته: (أَحار بن عَمْرٍو كأَنِّي خَمِرْ)، والبيت في ديوان امرىء القيس، وهو مطلع قصيدة له يصف فرسه وخروجه للصيد، ومنها بيته المشهور:

وأَرْكَــبُ فــي الــرَّوْعِ خَيْفَــانَــةً ... كَسَــا وجْهَهَــا سَعَــفٌ مُنْتَشِــرْ

والخَمِرُ: الذي خالطه الداءُ أو السُّكر أو الحُبُّ، ويَعْدو: يَعُود ويرجع متعدياً، وما يَأْتَمِرْ: ما يُدَبِّر من سوءٍ ويتآمر به على غيره ليوقعه فيه، قال أبو عبيدة: معناه: الرجل يعمل الشَّرَّ بغير رويَّةٍ ولا تثبُّت ولا نظر في العاقبة فيندم عليه، وقال الجوهري: ما تأمره به نفسُهُ فيرى أنه رَشَدٌ وربما كان هلاكه في ذلك، والشاهد أن الائتمار بمعنى التآمر.

(١) قال الطبريُّ بعد ذلك: «وهو في الكتاب ابن أبي نُجَيْح».



حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ولمَّا خرج عليه السلام فارًّا بنفسه منفرداً حافياً لا شيءَ معه؛ رأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخُلُوَّه من زادٍ وغيره فاستند إلى الله تبارك وتعالىٰ وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالىٰ، عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالىٰ. و(تَوَجَّهَ): ردَّ وجهه إليها، و(تِلْقَاءَ) معناه: إلى ناحية، أي إلى الجهة التي يلقى فيها الشيءَ المذكور، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه: وسطه، وفي هذا الوقت بعث الله الملَك المُسَدِّد حسب ما ذكرناه قَبْلُ، وقال مجاهد: أراد بـ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريقَ مدين، وقال الحسن: أراد سبيل الهدى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَبرع، ونظيره قول الصِّديق رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي ﷺ: «هذا الذي يهدي السبيل» الحديث[(١)]. فمشى عليه السلام حتى ورد مدين، أَيْ: بَلَغَهَا، وَوُرُودُه الماءَ معناه: بلوغه؛ لأنه دخل فيه، ولفظة الوُرود قد تكون بمعنى الدخول في الشيءِ، وقد تكون بمعنى الإطلال عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه، فوُرود موسى هذا الماءَ كان بالوصول إليه، وهذه الوجوه في اللفظة تتناول قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[(٢)]. و(مَدْيَن) لا تُصْرف؛ إذ هي بلدة معروفة. و«الأُمَّةُ»: الجمع الكثير، و(يَسْقُونَ) معناه: ماشِيَتَهُمْ، و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: من ناحية إلى الجهة التي جاءَ منها، فوصل إلى الامْرأتين قبل وصوله إلى الأمة، وهكذا هما من دونهم بالإضافة إليه، و(تَذُودَانِ) معناه: تَمْنَعان وتَحْبِسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، وأحمد في مسنده (٣ـ١٢٢، ٢١١، ٢٨٧)، ولفظه كما في المسند عن أنس قال: لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ يركب وأبو بكر رديفه، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، وكان يمرُّ بالقوم فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هادٍ يهديني، فلما دنَوا من المدينة بعث إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار، إلى أبي أُمامة وأصحابه، فخرجوا إليهما فقالوا: ادْخُلا آمنَيْن مُطاعَيْن، فدخلا، قال أنس: فما رأيت يوماً قَطُّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدتُ وفاته فما رأيت يوماً قطُّ أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه.

(٢) من الآية (٧١) من سورة (مريم).



«أَلاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي» الحديث[1]، وشاهد الشعر في ذلك كثير، وفي بعض المصاحف [امْرَأَتَيْنِ حابِسَتَيْنِ تَذُودان]، واختُلف في الذَّوْد ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: تذودان غنمهما عن الماءِ خوفاً من السُّقَاةِ الأَقوياءِ، وقال قتادة: تذودان الناس عن غنمهما، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ أَي: ما أَمركما وشأْنكما ؟ وكأَن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أَو مضطهد أَو من يشفق عليه أَو يأْتي بمنكر من الأمر، فكأَنه بالجملة في شرٍّ، فأَخبرتاه بخبرهما، وأَن أَباهما شيخ كبير، فالمعنى أَنه لا يستطيع لضعفه أَن يباشر أَمْر غنمهما، وأَنهما لضعفهما وقلَّة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأَقوياءِ، وأَن عادتهما التأَنِّي حتى يُصدر الرعاءُ ـ أَي الناسُ ـ عن الماءِ ويخلو، وحينئذ تَردان. وقالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ[2] الناس يمنعهما، فلما أَن أَراد موسى أَن يسقي لهما؛ زَحَمَ الناسَ وغلبهم على الماءِ حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه، وصَفَتْهُ إِحداهما بالقوة. وقالت فرقة: بل كانت آبارهم على أَفواهها حجارة كبار، وكان ورد المرأَتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة، وأَن موسى عليه السلام عمد إِلى بئر كانت مُغطَّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إِلا سبعة، قاله ابن زيد. وقال ابن جريج: عشرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثون، وقال الزَّجَّاج: أَربعون، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأَتين، فعن رفع الصخرة، وصَفَته بالقوة. وقيل: إِن بئرهم كانت واحدة، وأَنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة؛ إِذ كانت عادة المرأَتين شرب الفضلات.

وقرأَ الجمهور: (نَسْقِي) بفتح النون، وقرأَ طلحة: [نُسقي] بضمها، وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر: [حتى يَصْدُر] بفتح الياء وضم الدال، وهي قراءَة الحسن، وأَبي

---

(١) أخرجه مسلم ومالك في الطهارة، وابن ماجه في الزهد، ولفظه كما في مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاءَ الله بكم لاحقون، ودِدْتُ أَنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أَوَ لسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال: أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعد، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعْدُ من أُمتك يا رسول الله ؟ فقال: أَرَأَيْتَ لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ مُحَجَّلَة بين ظهري خيل دُهْم بُهْم ألا يعرف خيله ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطُهُم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يذادُ البعير الضال، أُناديهم ألا هلمَّ، فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً.

(٢) زَحْمُ الناسِ: دَفْعُهُم، يقال: زَحَمَه زحْماً وزحمة: دفعه في مضيق.



جعفر، وقتادة، وقرأ الباقون: (يُصْدِرَ) بضم الياءِ وكسر الدال على حذف المفعول، تقديره: مواشيهم، وحذف المفعول كثير في القرآن والكلام، وهي قراءَة الأَعرج، وطلحة، والأَعمش، وابن أَبي إسحاق، وعيسى. و(ٱلرِّعَاءُ) جمع راعٍ.

وتولَّى موسى عليه السلام إلى ظِلِّ سَمُرة، قاله ابن مسعود، وتعرض لسؤال ما يَطْعَمُه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ولم يصرح بسؤال، هكذا رَوَى سائر المفسرين أَنه طلب في هذا الكلام ما يأكله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان قد بلغ به الجوع، واخْضَرَّ لونه من أَكل البقل، وضعف حتى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه، وإنه لأَكرم الخلق يومئذ على الله عزَّ وجلَّ، ويُروى أَنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه، وفي هذا معتبر وحاكم بِهَوَان الدُّنيا على الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذا الموضع اختصارٌ يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحاق: فذهبَتَا إلى أَبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإِبطاءَ في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأَمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل الصغرى ـ أَن تدعوه له، فجاءَت على ما في هذه الآية، وروي أَن اسم إحداهما (ليا) والأُخرى (شرفا)، وروي أَن اسم زوجة نبي الله موسى عليه السلام (صفورة)، وقيل: اسمها (صوريا)، وقال وهب بن منبه: زوَّجه الكبرى، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه زوَّجه الصغرى، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أَبي ذر رضي الله عنه[1]، وقال النقاش: كانتا توأمين وَوُلدت الأُولى قبل الأُخرى بنصف نهار.

---

(١) روى الطبراني في الأوسط (٥٤٣٠): عن أبي ذرٍّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن سُئِلْت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأوفاهما، وإن سُئِلْت أي المرأتين تزوج فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٨٨.

وقوله: (تَمْشِي) حال من (إحداهُمَا)، وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أيْ خَفِرة قد سترت وجهها بكم درعها، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه، وقال عمرو بن ميمون: لم تكن سَلْفَعاً[1] من النساءِ خرَّاجَةً ولاَّجَةً.

واختلف الناسُ في الرجل الداعي لموسى، من هو؟ ـ فقال الجمهور: هو شعيب عليهما السلام، وهما ابنتاه، وقال الحسن: هو ابن أَخي شعيب واسمه ثروان، وقال ابن أَبي عبيدة: يثرون، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب، وقيل: إن المرأَتين إنما كان مرسلهما عمهما، وهو كان صاحب الغنم، وهو المزَوِّج، لكن عبّر عن العم بالأَب في جميع الأَمر إذ هو بمثابته. وروي أَن موسى عليه السلام لمَّا جاءَته بالرسالة أَجاب، فقام يتبعها إلى أَبيها، فهبت ريح ضمَّت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها، فتحرَّج موسى عليه السلام من النظر إليها، فقال لها: ارجعي خلفي وأَرشديني الطريق، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأَمانة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

فوصل موسى عليه السلام إلى داعيه، فقصَّ عليه أَمْره من أَوله إلى آخره، فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكانت مَدْيَن خارجة عن مملكة فرعون، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ الآية، فلما وصفته بالقوة والأَمانة قال لها أَبوها: ومن أَين عرفت هذا منه؟ فقالت: أَما قُوَّته ففي رفع الصخرة، وأَما أَمانته ففي تحرُّجه عَنِ النَّظر إِلَيَّ وقت هبوب الرياح، قاله ابن عباس، وقاله ابن زيد وغيرهم.

قال له الأَب عند ذلك: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: فزوَّجه التي دعته. و«تَأْجُر» معناه: تثيب، وقال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أَنه لم يُعَيِّن الزوجة، ولا حدَّ أَول الأَمد، وجعل المهر إِجارة، ودخل ولم يَنْقُدْ شَيئاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَمَّا التعيين فيشبه أَنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأَمر مجملاً، وعيَّن بعد ذلك، وأَمَّا ذِكْرُ أَول المدة فليس في الآية ما يقتضي إِسقاطه، بل هو مسكوت عنه؛ فإِما رسماه وإِلاَّ فهو من وقت العقد، وأَما النكاح بالإِجارة فظاهر من الآية، وهو أَمر قد

(١) أي: لم تكن جريئة على الرجال.



قرَّره شرعنا، وجرى به في حديث الذي لم يكن عنده إلاَّ شيءٌ من القرآن(١)، وذهب بعض العلماءِ إلى أن ذلك خاصٌّ، وبعضهم إلى أنه منسوخ، ولم يجوِّز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة، وجوَّزها ابن حبيب وغيره، إذا كانت الأُجرة تصل إلى الزوجة(٢).

قيل: ومن لفظ شعيب عليه السلام حَسُن في لفظ العقود في النكاح: «أَنْكَحه إيَّاها» أكثر من «أَنْكَحَهَا إيَّاهُ»، وهذا مُعْترض. وجعل شعيب عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى المروءَة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

لمَّا فرغ كلام شعيب كرَّره موسى عليهما السلام، وكرَّره على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج. و(أَيَّمَا) استفهامُ نصب بـ (قَضَيْتُ)، و[مَا] صلة للتأكيد. وقرأ الجمهور: [فلا عِدوان] بضم العين، وقرأ أبو حيوة: ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ ﴾ بكسر العين، والمعنى: لا تَبِعة عليَّ من قولٍ ولا فعلٍ. و«الوَكيلُ»: الشاهد القائم بالأُمور.

---

(١) في هذا الحديث قال رسول الله ﷺ للرجل الذي رغب في تزوج هذه المرأة: «ما تحفظ من القرآن»؟ فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: «فَعَلِّمْها عشرين آية وهي امرأتُك»، والعلماءُ في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: المنع، وهو قول ابن القاسم، والكراهة، وهو قول مالك، والجواز، وهو قول ابن حبيب والشافعي وأصحابه، وأما أبو حنيفة فقال: لا يصح، ولكنه جوَّز أن يتزوجها بأن يُخدمَها عَبْدَه سنة، أو يُسْكنها داره سنة؛ لأن العبد والدار مالٌ، أما خدمتها بنفسه فليست مالاً، والله أعلم بالصواب.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا في الردِّ الذي أجاب به عن تساؤلات مكي دون أن ينسبه إليه، واكتفى بأن قال: قال علماؤنا ـ ولكن ابن عطية لم يوضح الحديث عن النقطة الرابعة، وهي أن موسى دخل ولم يَنْقُد شيئاً من المهر، وخلاصة ما ذكره القرطبي أن بعض العلماء يقولون: إنه دخل بزوجته حين سافر، ولم يدخل بها حين عَقَد العَقْد، وعلى القول بأنه دخل بها حين تم العقد فقد نقد الشروع في الخدمة وهي رعي الغنم.



قال ابن زيد: ولمَّا كمل هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى عليهما السلام أن يسير إلى بيت له فيه عِصِيٌّ، وفيه هذه العَصَا، فرُوي أن العَصَا وثبت إلى موسى فأخذها، وكانت عَصَا آدم عليه السلام، وكانت من غير ورقة الريحان، فروي أن شعيباً أمره بردِّها ففعل وذهب يأخذ غيرها فوثبت إليه، وفعل ذلك ثالثة، فلما رأى شعيب ذلك علم أنه مرشح للنبوة فتركها له، وقيل: إنما تركها لأنه أمر موسى بتركها فأبَى موسى عليه السلام ذلك، فقال له شعيب: نمدُّ إليها جميعاً فمن طاوعت له فهي له، فمدَّ إليها شعيب فثقلت، ومدَّ موسى فخفَّت ووثبت إليه، فعلما أن هذا من الترشيح، وقال عكرمة: إن عصا موسى إنما رفعها إليه جبريل عليه السلام ليلاً عند توجُّهه إلى مدين.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، قال سعيد بن جبير: سألني رجل من النصارى: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب، أعني ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فقدمتُ عليه فسألته، فقال: قضى أكملهما وأوفاهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال وفَّى، فعدت فأعلمتُ النصراني، فقال: صدق والله هذا العالِمُ، وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سأل في ذلك جبريل عليه السلام، فأخبره أنه قضى عشر سنين، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأجل أراد أن يسير بأهله إلى مصر وقومه، وقد كان لا محالة أحسَّ بالترشيح للنبوة، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرِّفاق، فكان في بعض طريقه ليلة مظلمة، قال النقاش: كانت ليلة جمعة، ففقدوا النار، وأصْلدَ الزِّناد[1]، وضلُّوا الطريق، واشتد عليهم الخَصَر[2]، فبينا هو كذلك إذ رأى ناراً، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالىٰ قد التبس بشجرة، قال وهب: كانت علّيقاً، وقال قتادة: كانت عَوْسَجاً، وقيل: زعروراً، وقيل: سمُرة، قاله ابن مسعود. و(آنَسَ) معناه: أحسَّ، والإحساس ها هنا بالبصر، ومن هذه اللفظة قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم

(١) أصْلد الزِّنادُ: صوَّتَ ولَمْ يُور.
(٢) الخَصَر: شدة البَرْد، أو ألم البَرْد في الأطراف.

﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[١]، ومنها قول حسَّان:

انظُرْ خَلِيلِي ببابِ جِلَّقَ هَلْ ... تُؤْنِسُ دونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ[٢]

وكان هذا الأَمر كله في جانب الطور، وهو جبل معروف بالشام، والطُّور: كلُّ جبل، وخصَّصه قوم بأَنه الذي لا ينبت، فلما رأَى موسى النار سُرَّ، فقال لأَهله: أَقيموا فقد رأَيت ناراً ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ عن الطريق، أَين هو، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أَيْ: قطعة من النار في قطعة عُودٍ كبيرة لا لهب لَهَا، إنما هي جمرة، ومن ذلك قول الشاعر:

باتَتْ حواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلاَ دَعِرِ[٣]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَحسب أَن أصل الجذوة أُصول الشجر، وأَهل البوادي يوقدونها أَبداً، فهي الجذوة في الحقيقة، ومنه قول السُّلَمي يصف الصَّلَى[٤]:

حما حُبُّ هذا النَّار حُب خَليلي ... وحُبّ الْغَوَاني فَهو دُونَ الحَبائِبِ
وبُدِّلْتُ بعد المِسْكِ والْبَان شِقْوَةً ... دُخانَ الْجِذَا في رأْسِ أَشْمَطَ شاحِبِ[٥]

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).

(٢) جلَّق: دمشق، وهي بفتح اللام المشددة أو بكسرها، والبلقاءُ: من أعمال دمشق، والبيت في اللسان، وفي الديوان، وفي تاريخ ابن عساكر، ويروى: بِبَطْن جِلَّق، ويروى: انظُر نهاراً، وهي رواية ابن عساكر، وفي تاريخ ابن عساكر من رواية ابن دريد: انظر حبيبي، والشاهد فيه أن (تؤنس) بمعنى: ترَى، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير سورة النمل عند قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (ص٥١٧ هامش ٣).

(٣) البيت لتميم بن مقبل، وهو في «اللسان ـ جذا»، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، وفي «الطبري» و«التاج»، و«مجمع البيان»، و«القرطبي». والحواطب: جمع حاطبة، وهي الأَمَة تجمع الحطب، والجَزْلُ: ما عَظُم من الحطب ويبس، وفي الحديث: «اجمعوا له حطباً جزلاً»، والجذَا: أُصول الشجرة، قال الأصمعي: جِذْمُ كلِّ شيءٍ وجِذْيُه: أَصلُه، والجِذاءُ: أُصول الشجرة العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، والخَوَّارُ: الضعيف الذي يسهل كسره، والدَّعِرُ: العود الذي يكثر دخانه ولا تتَّقد ناره، وقيل: الدَّعِرُ من الحطب: البالي.

(٤) الصَّلَى: النَّار، والوقود.

(٥) السُّلَمِي هو أَشجع بن عمرو السُّلَمي، أبو الوليد، له ترجمة في الأغاني، والشعر والشعراء، والخزانة، والتبريزي على الحماسة، وتهذيب ابن عساكر، والشاهد في البيت الثاني حيث استعمل الجذا في الجمرة التي تكون في طرف أُصول الشجرة، والمِسْكُ: ضربٌ من الطيب يتخذ من دم الغزلان، والبَانُ: شجر يسمو ويطول في استواءٍ مثل نبات الأَثْل، وله ثمرة تشبه قرون اللُّوبياء إلا أن خضرتها شديدة، =

وقرأ الجمهور: [جِذْوَةٍ] بكسر الجيم، وقرأ حمزة، والأعمش: [جُذْوَةٍ] بضمها، وقرأ عاصم: ﴿جَذْوَةٍ﴾ بفتحها، وهي لغات، والصَّلَى: حرُّ النار، و﴿تَصْطَلُونَ﴾ تَفْتَعِلُونَ، أُبدلت التَّاءُ طاءً.

فلما أَتى موسى ذلك الضوءَ الذي رآه وهو في تلك الليلة ابن أَربعين سنة؛ نُبِّىءَ ﷺ، فرُوي أَنه كان يمشي إِلى ذلك النور فكان يبعد منه، تمشي به الشجرة وهي غَضَّةٌ خضراءُ حتَّى نودي. والشَّاطىءُ والشَّطُّ: ضفة الوادي، وقوله: ﴿الأَيْمَنِ﴾ يحتمل أَن يكون من اليُمْن صفةً للوادي أَو الشاطىء، ويحتمل أَن يكون معادلاً[1] لليسار، فذلك لا يوصف به الشاطىء إِلاَّ بالإِضافة إِلى موسى في استقباله مهبط الوادي، أَو بعكس ذلك، وكل ذلك قد قيل. وبَرَكَةُ البُقْعة هي ما خُصَّتْ به من آيات الله تعالىٰ وأَنواره وتكليمه لموسى عليه السلام، والناسُ على ضمِّ الباءِ من «بُقْعَة»، وقرأَ بفتحها الأَشهب العقيلي[2]، قال أَبو زيد: سمعت من العرب: «هذه بَقعة طيبة» بفتح الباءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يقتضي أَن موسى عليه السلام سمع ما سمع من جهة الشجرة، وسمع وأَدرك غير مكيف ولا محدود[3]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن يا موسى﴾ يحتمل أَن تكون (أَنْ) مفسِّرة، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ. وقرأَت فرقة: [أَني أنا الله] بفتح الهمزة من [إِنِّي].

ثم أَمره تعالىٰ بإِلقاء العصا فأَلقاها فانقلبت حيَّةً عظيمة، ولها اضطراب الجانِّ، وهي صغير الحيَّات، فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانِّ. وقالت فرقة: بل الجانُّ يعُمُّ الصغير والكبير، وإِنما شبه بالجان جملة العصا لاضطرابها فقط، وولَّى موسى عليه السلام مدبراً فزِعاً منها. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه: لم يرجع على عقبه من تولِّيه، فقال الله تبارك وتعالىٰ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، وهذا من تأْمين الله تعالىٰ

= ولها حَبٌّ يُسْتَخرج منه دهن البان، والأَشْمَط: الذي اختلط فيه البياض بالسواد، ولعله يريد الجبل الذي اختلط فيه لون االصخور البيضاء بالصخور السوداء، والشاعر يندب سوءَ حظه، فقد أصبح يستخدم جذوة النار التي ينبعث دخانها في هذا المكان القفر بعد أن كان يمزج خشب البان بأنواع الطيب.

(١) في الأصول: «ويحتمل أن يكون معادلٌ لليسار».

(٢) في الأصول: «أبو الأشهب»، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط وكتب القراءات.

(٣) قال الأستاذ أبو إسحاق: «اتفق أهلُ الحق على أن الله تعالىٰ خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أَدرك به كلامه كان اختصاصُه في سماعه، وأَنه قادر على مثله في جميع خلقه».

إِيَّاه، ثمَّ أَمره بأَن يدخل يده في جيبه، وهو فتح الجبَّة من حيث يخرج رأس الإِنسان، ورُوي أَن كمَّ الجبَّة كان في غاية الضِّيق فلم يكن له جيب يدخل يده فيه إِلاَّ في جيبه. و(ٱسْلُكْ) معناه: أَدْخِل، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى منْهُنَّ في مَسَك ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْدَاجِ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: مِن غير مرض ولا مثله، ورُوي أَن يده كانت تُضِيءُ كأَنها قطعة شمس.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، ذهب مجاهد، وابن زيد إِلى أَن ذلك على المجاز والاستعارة، وأَنه أَمره بالعزم على ما أُمِرَ به، وأَنه كما تقول العرب: «اشدد حيازيمك، واربط جأْشك»، أَي: شمِّر في أَمرك، ودع الرهب، وذلك لمَّا كثُر تخوفه وفزعه في غير ما موطن، قاله أَبو علي. وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ﴾ قال مجاهد، والسدي: هي إِشارة إِلى العصا واليد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والناس: [ٱلرَّهَب] بفتح الراءِ والهاءِ، وقرأَ عاصم، وقتادة: ﴿ٱلرَّهْبِ﴾ بسكون الهاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم أَيضاً: [ٱلرُّهُب] بضم الراءِ والهاءِ. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [فَذَانِّكَ] بشد النون،

---

(١) البيت لأبي وجْزَةَ السَّعْدِيِّ، وهو في (اللسان ـ مَسَك، وهَدَج)، مع بيت قبله، قالهما أبو وجزة في وصف حُمُر الوحش:

مَـا زِلْـنَ يَنْسُبْـنَ وهْنـاً كُـلَّ صَـادِقَـةٍ ... بَـاتَـتْ تُبَـاشِـرُ عُـرْمـاً غَيْـرَ أَزْواجِ
حَتـى سَلَكْـنَ الشَّـوى منْهُـنَّ فـي مَسَـكٍ ... مِـن نَسْـلِ جَـوَّابَـةِ الآفَـاقِ مِهْـدَاجِ

يصف الحُمُر حين أَتت الماءَ لَيْلاً فأَثَارتْ القطَا، فصاحت: قَطَا قَطَا، جعلها صادقةً لأنها خبرت باسمها، كما يقال: أَصدق من القطَا، وقوله: تباشِرُ عُرْماً، عَنَى بِهِ بَيْضَهَا، والأَعْرَم: الذي فيه نُقَط بياض ونُقَط سواد، وكذلك بيض القَطا، وقوله: غير أَزواج: يريد أَنَّ بيض القَطا يكون أفراداً ولا يكون أَزواجاً، والشَّوَى: قوائم الحُمُر الوحشية، والمَسَك هنا: الماءُ الذي سارت فيه الأُتُنُ ووضعت قوائمها فيه فصار حولها كالمَسَك وهو السِّوار، قال صاحب اللسان: استعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأُتُنُ قوائمها من الماء مَسَكاً، وقوله: جوابة الآفاق: يريد الرِّيح، ويقول: إن الماء من نَسْلها؛ لأن الرِّيح تستدرُّ السحابَ وتُلْقِحه فيمطر، فالماء من نَسْلها، والمهداج: التي لها صوت وحنين، فهي ريح سريعة الحركة في الآفاق، وهي ريح لها صوت وحنين، والشاهد هنا أن (سَلَكْنَ) في البيت بمعنى: أَدْخَلْنَ، يعني أن الأُتُن أَدْخَلْن قوائمهن في الماء الذي صار حولها كالسِّوار.



وقرأ الباقون: [فَذَانِكَ] بالتخفيف بالنون، وقرأ شبل عن ابن كثير: [فَذَانِيكَ] بياءٍ بعد النون المخففة، أَبدل إِحدى النونين ياءً كراهة التضعيف، وقرأ ابن مسعود: [فَذَانِّيكَ] بالياءِ أَيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل، وحكى المهدوي أَن لغتهم تخفي النون، و(بُرْهَانَانِ): حُجَّتان ومُعْجِزتَانِ. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

كان موسى عليه السلام قد امتُحن بمخاوف فطلب شدَّ العضد بأَخيه هارون؛ لأَنه كان فصيح اللسان سمح الخُلُق. وقرأ الجمهور: (رِدْءًا) بالهمز، وقرأ نافع وحده: [رِدًا] بتنوين النون دون همز، وهي قراءَة أَبي جعفر، وذلك على التخفيف من «رِدْءٍ»، والرِّدْءُ: الوزير المعين والذي يستند إِليه في الأَمر، وذهبت فرقة إِلى أَنها من معنى الزِّيادة، كما قال الشاعر:

وأَسْمَـــرَ خَطِّيًّـــا كـــأَنَّ كُعُـــوبَـــهُ ... نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعاً عَلَى العَشْرِ[1]

---

(١) البيت في اللسان (قَسَب)، وفي القرطبي، وذكر صاحب اللسان أَنَّ ابن برِّي قال: هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائي، ثم قال تعقيباً على ذلك: ولم أجده في شعره. ورواية اللسان: «أَرْمَى» بدلاً من «أَرْدى»، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وفي القرطبي: «ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أَرْدَى على المائة، أي: زاد عليها، وكأن المعنى: أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي، قاله مسلم بن جندب، وأنشد قول الشاعر: وأَسْمَر خطِّياً... البيت، كذا أنشده الماوردي، وأنشده الغزنوي والجوهري في الصحاح: أرمى». والبيت في وصف الرمح، والخَطِّيُّ: الرُّمح المنسوب إلى الخَطِّ، وهو موضع باليمامة، وهو خَطُّ هجر تُنْسَب إليه الرِّماح الخطية؛ لأنها تُحمل من بلاد الهند فتُقَوَّمُ به. ونَوَى القَسْب: أَصْلب النَّوى، والقسب: الصُّلْب الشديد، والقَسْب: تمر يابسٌ يتَفَتَّتُ في الفم صلب النواة، وعلى=

وهذا على ترك الهمز، وأن يكون وزنه فِعْلاً.

وقرأ جمهور القراءِ: [يُصَدِّقْني] بالجزم، وذلك على جواب [أَرْسِلْهُ]، وقرأ عاصمٌ وحده: ﴿يُصَدِّقُني﴾، أي: مصدقاً، فهو صفة للرِّدْءِ، أو حالٌ.

و«شَدُّ العَضُد» استعارةٌ في المعونة والإنهاض، وقرأ الحسن بضم العين من ﴿عَضُدَكَ﴾، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّةُ. وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن تتعلق الباءُ بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا﴾، أو بـ ﴿يَصِلُونَ﴾ وتكون باءَ السَّبَب، ويحتمل أن تتعلّق بقوله: ﴿ٱلْغَالِبُونَ﴾، أي: تَغْلبون بآياتنا[1]، و«الآياتُ» ها هنا معجزاته عليه السلام.

ولمَّا كذبوه ورموه بالسِّحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه، وراعه تكذيبهم، فردَّ الأمر إلى الله، وعوَّل على ما يظهره الله تعالىٰ في شأنهم، وتوعدهم بنقمة من الله تعالىٰ منهم. وقرأ ابن كثير: [قال موسى] بغير واو، وقرأ غيرُه وجميع السبعة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بواو، وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَهُ﴾ بالتَّاءِ، وقرأ حمزة والكسائي: [يَكُونُ] بالياءِ على التذكير؛ إذ هي بمنزلة العاقب.

واستمر فرعون على طريق مَخْرَقَته على قومه، وأمر هامان أن يطبخ له الآجُرَّ، وأن يبني له صرحاً، أي سَطْحاً في أعلى الهواءِ، وليس الصَّرْح إلاَّ ما له سطْحٌ، ويحتمل أن يكون الإيقاد على الطِّين كَالْبَراني[2]، وتَرَجِّي بزعمه أنه يطلع في السماءِ، فروي عن السدي أنه بناه أعلى ما يمكن، ثم صعد فيه، ورمى بالنبل فردَّها الله تعالىٰ إليه مخضوبة بالدَّم ليزيدهم عمًى وفتنة، فقال فرعون حنيئذ: إنِّي قتلت إلـٰه موسى. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ يريد في أن موسى راسله، فالظن على بابه، وهو في معنى إيجاب الكفر له بمنزلة المصمم على التكذيب.

وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع: [لا يَرْجِعون]، وقرأ الباقون والحسن: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياءِ وفتح الجيم.

= رواية «أرمى» فإنها لغة في «أربَى» أي: زاد أيضاً.

(١) قال ذلك الأخفش والطبري، وقال المهدوي: «وفي هذا تقديم الصلة على الموصول» إلا أن يقدر: أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون.

(٢) البَرَانِيُّ: جمع بَرْنِيَة، وهي إناءٌ واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين. (المعجم الوسيط).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[نَبَذْنَاهُم] معناه: طرحناهم، ومنه نبذ النواة، ومنه قول الشاعر:

نَظَـرْتُ إِلَـى عُنْـوانِـهِ فَنَبَـذْتُـهُ ... كَنَبْـذِكَ نَعْـلاً مِـنْ نِعَـالِـكَ بَـالِيـاً[1]

وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإنَّ ما ضمَّهم من القدر السابق [وإغراقهم في البحر][2] هو نبذ الله تعالىٰ إيَّاهم فيه. و«اليَمّ» هو بحر القُلْزم في قول أكثر الناس، وقالت فرقة: كان غرقهم في نيل مصر. والأول أشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهم أئمة من حيث اشتهروا وبقوا قدوة لكل كافر وعاتٍ إلى يوم القيامة. و﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: الذين يَقْبُح كلُّ أمرهم، قولاً لهم وفِعْلاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون. و[يَوْمَ] ظرفٌ مقدم. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إخبارٌ عن أنه أَنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه، وبعد هذه الأُمم التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأُمم، وقالت فرقة: الآية متضمنة أَن إنزال التوراة على موسى هو بعد أَن رفع الله تعالىٰ عذاب الأُمم؛ فلم يعذب أُمة بعد نزول التوراة، إلاَّ القرية التي مسخت قردة فيما رُوي. وقوله: (بَصَائِرَ) نصب على الحال، أَي: طرائق هادية وقوله تعالىٰ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: على ترج، وما تعطيه من تأْميل، ورُوي عن أَبي

---

(١) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في الطبري، والبحر المحيط، ومجاز القرآن لأبي عبيدة. والنَّبْذُ: طرحك الشيءَ من يدك أمامك أو خلفك، ويقال: نبذتُ الشيءَ إذا رميتَه وأبعدته، والنَّعل: الحذاءُ، والبالي: القديم المتقطع الذي فقد صلاحيته للاستعمال. ومن الواضح أن النَّبْذ تعبير يدل على الاستهانة بالشيء المنبوذ، أو احتقاره، ويؤيد هذا في الآية قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي البيت التشبيه بنبذ النعل البالي.

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة عن البحر الذي نقل عبارة ابن عطية كاملة دون أن يشير إليه.



سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «ما أهلَك الله تعالىٰ أُمة بعذاب بعد أَن أَنزل التوراة إِلى الأَرض غير القرية التي مُسخت قردة»[١] أَي: الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى؛ فكأَنه لا يُنقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأَرض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى: لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها، ولكنها صارت إِليك بوحينا، أَي: فكان الواجب أَنْ يُسارع إِلى الإِيمان بك، ولكن تطاول الأَمر على القرون التي أَنشأْناها زمناً زمناً، فعزبت حلومهم، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم.

و(قَضَيْنَا) معناه: أَنفذنا وصرفنا، و(ٱلْأَمْر) يعني التوراة. وقالت فرقة: يعني به ما أَعلمه الله تبارك وتعالىٰ من أَمر محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل حسن يلْتئم معه ما بعده من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾.

و«الثَّاوِي»: المقيم. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ يريد: وقْتَ إِنزال التوراة إِلى موسى، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، رُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه نودي يومئذ من السماءِ: «يا أُمَّة محمد، استجبت لكم قبل أَن تدعوني، وغفرت لكم قبل أَن تسأَلوني»[٢]، فحينئذ يسأَل موسى عليه السلام أَن يكون من أُمة محمد ﷺ، فالمعنى:

---

(١) أخرجه البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد موقوفاً، وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ من وجه آخر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أُمَّةً ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مُسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم=



إِذْ نادينا بأَمرك، وأَخبرناك بنبوتك. وقوله: (رَحْمَةً) نصب على المصدر، أَو على المفعول من أَجله، وقوله: (وَلَكِنْ) جعلناك وأَنفذنا أَمرك قديماً رحمةً من ربك، أَي: ويكون المعنى: ولكن أَعلمناك رحمةً منَّا لك وإِفضالاً، وقرأَ الناس: (رَحْمَةً) بالنصب، وقرأَ عيسى: [رَحْمَةٌ] بالرفع. ويريد بالقوم «الذين لم يأْتهم نذيرٌ» معاصريه من العرب، وباقي الآية بيِّن، وقال الطبريُّ: «معنى قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ بأَنْ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾[1] الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

«المُصِيبَةُ»: عذاب في الدنيا على كفرهم. وجواب (لَوْلاَ) محذوف، تقديره: لما أَرْسلنا الرسل. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يريد: القرآن ومحمداً ﷺ. والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ كانت من تعليم اليهود لهم، قالوا لهم: لِمَ لا يأْتي بآية باهرة كالعصا واليد ونتق الجبل وغير ذلك، فعكس قولُ الله تعالىٰ عليهم قولهم، ووقفهم على أَنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاءِ في هذه، فالضمير في قوله: (يَكْفُرُوا) لليهود.

= والبيهقي معاً في الدلائل ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً. (الدر المنثور).

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي ـ عن عمرو بن عبسة ـ قال: سألتُ النبي ﷺ عن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ما كان النداءُ؟ وما كانت الرحلة؟ قال: «كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أُمَّة محمد، سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة»، (الدر المنثور).

(١) من الآيتين (١٥٦، ١٥٧) من سورة الأعراف.

وقرأ الجمهور: [سَاحِرَانِ]، والمراد بهما موسى وهارون، قاله مجاهد، وقال الحسن: موسى وعيسى، وقال ابن عباس: موسى ومحمد ﷺ، وقال الحسن أيضاً: عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والأول أظهر. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿سِحْرَانِ﴾، والمراد بهما التوراة والإنجيل، قاله عكرمة، وقال ابن عباس: التوراة والفرقان، وقرأ ابن مسعود: [سحران اظاهرا][1]، وهي قراءة طلحة والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد بـ ﴿مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ أمْرَ محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ الذي هو في التوراة، كأنه يقول: وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أُوتي موسى وهم قد كفروا ـ في التكذيب بك ـ بما أُوتيه موسى عليه السلام من الإخبار بك، وقالوا: إنَّا بكلٍّ كافرون. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يؤيد هذا التأويل. و(تَظَاهَرَا) معناه: تعاونا.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ﴾ الآية، هذه حجةٌ أمَرَه الله تعالىٰ أن يصدع بها، أَي: أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق، ونهت عن الكفر والنقائص، ووعد الله تعالىٰ عليها الثواب الجزيل، إن كان تكذيبكم لمعنى فأْتوا بكتابٍ من عند الله عزَّ وجلَّ يهدي أكثر من هدى هذه أَتَّبِعه معكم. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ ـ وقد علم أنهم لا يستجيبون ـ على معنى الإيضاح لفساد حالهم، وسياق القياس: «لأنهم متبعون لأهوائهم». ثم عجب تعالىٰ من اتِّباع الْهَوَى بغير هداية ولغير مقصد بيِّن، وقرر ذلك على جهة البيان، أَي: لا أَحد أَضل منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

الذين وصّل إليهم القول قريشٌ، قاله مجاهد وغيره، وقال أبو رفاعة القرظي:

---

(١) أي: بهمزة الوصل وشدِّ الظاءِ، وأصلها: (تَظَاهرا) فأدغم التاءَ في الظاءِ فاجْتُلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة. وقد قرأ الأعمش أيضاً بهذه القراءة، قاله في «البحر» ولم ينسبها للضحاك.



«نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم»، ذكره الطبري.

وقال الجمهور: معناه واصلنا لهم في القرآن وتابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاءِ إلى الإسلام، قال الحسن: وفي ذكر الأُمم المُهلَكة، وصلت لهم قصة بقصة، حسب مرور الأيام. وذهب مجاهد إلى أن معنى (وَصَّلْنَا): فَصَّلْنا، أي: جعلناه أَوصالاً من حيث كان أَنواعاً من القول في معانٍ مختلفة، ومعنى اتصال بعضه ببعض حاصل من جهة أُخرى، لكن إنما عدد عليهم ها هنا تقسيمه في أَنواع من القول. وذهب الجمهور إلى أَن هذا التوصل الذي وصّل لهم القول معناه: وصل المعاني من الوعظ والزجر، وفي الأَجر وغير ذلك، وذهبت فرقة إلى أَن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الأَلفاظ، أَي الإعجاز، فالمعنى: ولقد وصَّلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نُبُوَّتك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى الأَول تقديره: ولقد وصَّلنا لهم قولاً تضمن معاني من اهتدى. وقرأَ الحسن: [ولقد وَصَلنا] بتخفيف الصاد. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: يتعظون بالقرآن عن عبادة الأَصنام، أَو يتذكرون محمداً فيؤمنوا به.

ثم ذكر تعالىٰ القوم الذين آمنوا من أَهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً، واخْتُلف، إلى من الإشارة؟ فقيل: إلى جماعة من اليهود أَسلمت وكانت تَلْقى من الكفار أَذى، وقيل: إلى بحيرى الرَّاهب، وقال الزهري: إلى النجاشي، وقيل: إلى سلمان، وابن سلام وأَسند الطبري عن علي بن أَبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أَهل الكتاب، فيهم أَبو رفاعة ـ يعني أَباه ـ فأَسلموا، فأُوذوا، فنزلت فيهم هذه الآية. والضمير في (قَبْلِهِ) يحتمل أَن يعود على النبي ﷺ، ويحتمل أَن يعود على القرآن، وما بعْدُ يؤيد هذا، وهو قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام[1]. وإِيتاءُ أَجرهم مرتين معناه: على ملَّتين، ولإيمانهم بشريعتين، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أَجرهم مرتين: رجل من أَهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي، والعبد الناصح في

(١) قيل في ذلك: إن الإسلام صفة كل موحِّد مصدِّق بالوحي.

عبادة ربِّه وخدمة سيِّده، ورجل كانت له أَمَةٌ فأَدبها وعلمها ثم أَعتقها وتزَوَّجها»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عام في صبرهم على ملَّتهم ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار في ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿ويدرؤون﴾ معناه: يدفعون، وهذا وصف لمكارم الأَخلاق، أَي: يتعاونون، ومن قال لهم سوءًا؛ لايَنُوهُ وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه، وهذه آية مهادنة، وهي في صدر الإِسلام، وهي مما نسخته آية السيف، وبقي حُكْمها فيما دون الكفر تتعاطاه أُمَّة محمد ﷺ إِلى يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مدحٌ لهم بالنفقة في الطاعات، وعلى رسم الشرع، وفي ذلك حضٌّ على الصدقات ونحوها.

و«اللَّغْو» لَغْوُ القول، واليمين لَغْوٌ، حسب الخلاف فيهما، وكلام مستمع الخطبة لَغْوٌ، والمراد من هذا ـ في هذه الآية ـ ما كان سَبًّا وأَذًى ونحوه، فأَدب أَهل الإِسلام الإِعراض عنه، والقول ـ على جهة التَّبَرِّي ـ ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾. وقال ابن زيد: اللَّغو ها هنا ما كان بنو إِسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله تبارك وتعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المهادنة هي لبني إِسرائيل، الكفار منهم، و﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية، لكنه لفظ التحية قُصد به المُتَارَكَة، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه؛ إِذْ هو في عرف استعماله تحية، قال الزجاج: وهذا قبل الأَمر بالقتال، و﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ معناه: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابَّة.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي، وذكره السيوطي في الدر المنثور، وقال الشعبي للخراساني: خذ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.

قال العلماءُ: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيِّه، ثم إنه خوطب من جهة نبيِّنا فأجابه واتبعه فله أجر المِلَّتين، والعبد مأمور من جهة الله تعالىٰ ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَة لما قام بما خوطب به من تربية أَمَتِه وأَدَّبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمر فيها، فأُجر كلٌّ واحد منهما أجرين، ولذلك قيل: إن العبد الذي يؤدي حق ربِّه وحق سيِّده أفضل من الحُرِّ، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبد المملوك المصلح أجران».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أَجمع جُلُّ المفسرين على أن قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ إنما نزلت في شأن أَبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ، قال أَبو هريرة، وابن المسيّب، وغيرهم: إن رسول الله ﷺ دخل عليه وهو يجود بنفسه، فقال له: أَيْ عَمِّ، قل: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله كلمةً أَشهد لك بها عند الله، وكان بحضرته عبد الله بن أُمية، وأَبو جهل لعنهما الله تعالىٰ، فقالا له: أَترغب عن ملَّة عبد المطلب يا أَبا طالب؟ فقال له: يا محمد، لولا أَني أَخاف أَنْ يُعَيَّر بها ولدي من بعدي لأَقررتُ بها عينك، ثم قال أَبو طالب: أَنا على مِلَّةِ عبد المطلب والأَشياخ، فتفجع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات أَبو طالب على كفره، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى أَبي طالب[1].

والضمير في قوله: (وَقَالُوا) لقريش، قال ابن مسعود: والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل، وقصد الإخبار بأَن العرب تنكر عليهم رفض الأَوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أَرضهم. وقوله: (ٱلْهُدَىٰ) معناه: على زعمك، وحكى الثعلبي عنه أَنه قال: إنا لنعلم أَن الذي تقول حق، ولكن إن اتبعناك يتخطفنا العرب، فقطعهم الله تعالىٰ بالحجة، أَي: أَليس كون الحرم لكم مما يَسَّرناه وكففنا عنكم الأَيدي فيه؟ فكيف بكم لو أَسلمتم واتبعتم شرعي وديني؟ وروي عن أَبي عمرو: [نُتَخَطَّفُ] بضم الفاءِ، وأَمْن الحرم هو أَلاَّ يُغْزى ولا يودى فيه أَحد. وقوله تعالىٰ: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

(١) هذا الحديث مروي عن أَبي هريرة، وعن ابن المسيب كما قال ابن عطية، أما عن أَبي هريرة فقد أخرجه عبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. وأما عن ابن المسيب فقد أخرجه ابن أَبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي. وقد تقدم ذلك في تفسير سورة براءة عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ وهي من الآية رقم (١١٣).



ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: يُجمع ويُجْلَب. وقرأ نافع وحده: [تُجْبَى] بالتاءِ من فوق، وقرأ الباقون: (يُجْبَى) أي: يجمع، بالياءِ من تحت، ورويت التاءُ عن أبي عمرو، وأبي جعفر، وشيبة بن نصاح. وقوله تعالىٰ: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد مما به صلاح حالهم وقوام أمرهم، وليس العموم فيه على الإطلاق. وقرأ أبان بن تغلب: [ثُمُرَاتِ] بضم الثاءِ والميم.

ثم توعَّد تعالىٰ قريشاً بضرب المثل بالقُرى المُهْلَكة، أي: فلا تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجبى؛ فإن الله تعالىٰ مهلك الكفرة على ما سلف في الأُمم. و(بَطِرَتْ) معناه: سفهت وأشرت وطغت، قاله ابن زيد وغيره، و(مَعِيشَتَهَا) نصبت على التفسير[1]، مثل قوله: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[2]، وقال الأخفش: هو على إسقاط حرف الجر، أَي: بَطِرت في معيشتها، ثم أحالهم على الاعتبار في خراب ديار الأُمم المُهْلَكة كحجر ثمود وغيره. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

إن كانت الإبادة للقرى بالإطلاق في كل زمن فأُمُّهَا في هذا الموضع عظيمها وأَفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد ﷺ، وإن كانت مكَّة أُم القرى كلها أَيضاً من حيث هي أَول ما خلق الله من الأَرض، ومن حيث فيها البيت، ومعنى الآية أَن الله تبارك وتعالىٰ يقيم الحجة على عباده بالرسل، فلا يعذب إلاَّ بعد إنذاره، وبعد أَن يتمادى أَهل القُرى في ظلم وطغيان. والظُّلْم ـ هنا ـ يجمع الكفر والمعاصي والتَّقصير في الجهاد، وبالجملة وضع الباطل موضع الحق.

---

(١) وقيل: هي مفعول به على تضمين (بَطِرَتْ) معنى فعل متعد، أي: خسرت معيشتها، وهذا على مذهب أكثر البصريين، وقيل: هي مشبه بالمفعول على مذهب بعض الكوفيين، ويجوز أن تكون منصوبة على الظرفية، على تقدير: أَيَّام معيشتها، كقولك: جئت خُفُوقَ النجم، وهذا على مذهب الزجاج.

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة).



ثم خاطب تعالىٰ قريشاً محقِّراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد ﷺ ولا عند من آمن به، فأخبر الله تعالىٰ قريشاً أن ذلك متاع الدنيا الفاني، وأن الآخرة وما فيها من النعيم الذي أعد الله لهؤلاءِ المؤمنين خيرٌ وأبقى. ثمَّ وبَّخهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ الجمهور: (يَعْقِلُونَ) بالياءِ، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة الأعرج، والحسن، وعيسى[1].

ثم زادهم توبيخاً بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ الآية. وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ آية يعم معناها جميع العالم، لكن اختلف الناسُ فيمن نزلت ـ فقال مجاهد: الذي وُعد الوعد الحسن هو محمد ﷺ، وضده أبو جهل لعنه الله، وقال مجاهد: نزلت في حمزة رضي الله تعالىٰ عنه وأبي جهل، وقال قتادة: نزلت في المؤمن والكافر، كما أنَّ معناها عام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزولها عامٌّ بيِّن الاتساق بما قبله من توبيخ قريش.

و﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معناه: في عذاب الله تعالىٰ، قاله مجاهد وقتادة، ولفظة (مُحْضَرِينَ) مشيرةٌ إلى سَوْق وجرٍّ. وقرأ طلحة: [أَمَنْ وَعَدْنَاهُ] بغير فاءٍ، وقرأ مسروق: [أَفمن وعدناه نعمة منا فهو لاقيه].

---

(١) أجمعت كتب القراءات، وكتب التفسير على أن قراءة الجمهور: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ على خلاف ما ذكر ابن عطية هنا، ولعلَّ الخطأ من النساخ، أما القراءة بالياء فهي قراءة أبي عمرو، ذكر ذلك القرطبي صراحة، أما البحر المحيط فقد ذكر أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق، ثم قال: «ونسب هذه القراءة أبو علي في الحجة إلى أبي عمرو وحده»، وبهذا نعرف المصدر الذي أخذ عنه ابن عطية نسبة القراءة بالتاء إلى أبي عمرو وحده، ثم رأيت في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري ما يوضح الحقيقة، قال: «روى الدوري عن أبي عمرو بالغيب ـ أي بالياء ـ واختلف عن السوسي عنه، فالذي قطع له به كثير من الأئمة أصحاب الكتب الغيبُ كذلك، وهو اختيار الداني وشيخه أبي الحسن بن غلبون، وابن شريح، ومكي، وغيرهم. وقطع له آخرون بالخطاب، كالأستاذ أبي طاهر بن سوار، والحافظ أبي العلاء، وقطع جماعة له وللدوري وغيرهما عن أبي عمرو بالتخيير بين الغيب والخطاب على السواء، كأبي العباس المهدوي، وأبي القاسم الهزلي ـ قلت: والوجهان صحيحان عن أبي عمرو من هذه الطرق ومن غيرها، إلا أن الأشهر عنه بالغيب، وبهما آخُذُ في رواية السوسي لثبوت ذلك عندي عنه نصاً وأداءً، وبالخطاب قرأ الباقون». ويتضح من هذا كله أمران: الأول: أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق، والثاني أن المنقول عن أبي عمرو موضع خلاف، فمن القراء من نقل القراءة بالتاء كابن عطية، ومنهم من نقل القراءة بالياء، ومنهم من نقل التخيير بين التاء والياء. والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤﴾.

التقدير: واذكر يومَ، وهذا النداءُ يحتمل أَن يكون بواسطة، ويحتمل أَن يكون بغير ذلك، والضمير بِـ [يُنَادِي] لِعُبَّاد الأَصنام، والإِشارة إِلى قريش، وقوله: (أَيْنَ) على جهة التوبيخ والتقريع، وقوله: (شُرَكَائِي) أَي: عَلَى قولكم وزعمكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما كان هذا السؤال مُسْكِتاً لهم مهيناً فكأَنه لا يتعلق بجمهور الكفرة، بل بالمُغْوين لهم، وبالأَعيان والرؤوس منهم، وبالشياطين المُغْوين، فكأَن هذه الفئة المُغْوية إِنما أَتت الكفرة على علم بأَن القول عليها متحقق، وبأَن كلمة العذاب ماضية، لكنهم طمعوا في التبرِّي من أُولئك الكفرة الأَتباع فقالوا: ربنا هؤلاءِ أَضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم، وأَرادوا هم اتباعنا، وأَحبُّوا الكفر كما أَحببناه، فنحن نتبرَّأُ إِليك منهم، وهم لم يعبدونا إِنما عبدوا غيرنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة، والمجيبون هم جميع المُغْوِين، كل داع إِلى كفر، من الشياطين الجن، ومن الإِنس العرفاءُ والرُّؤساءُ والسادة.

وقرأَ الجمهور: [غَوَيْنَا] بفتح الواو، ويقال: غَوَى الرجل يَغْوِي بكسر الواو، وروي عن ابن عامر، وعاصم [غَوِينَا] بكسر الواو.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَنه يقال للكفرة العابدين للأَصنام الذين اعتقدوهم آلهةً: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أَي الأَصنام التي كنتم تزعمون أَنهم شركاءُ لله، وأَضاف الشركاءَ إِليهم لمَّا كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم، فهذا القول أَصل من الاختصاص، أَضاف الشركاءَ إِليهم ثم أَخبر أَنهم دعَوْهم، فلم يكن في الجمادات ما يجيب، ورأَى الكفار العذاب. وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إِلى أَن جواب (لَوْ) محذوف تقديره: لما نالهم العذاب، أَو: لما كانوا في الدنيا عابدين

للأصنام، ففي الكلام ـ على هذا التأويل ـ تأسُّف عليهم، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب: «لما كانوا عابدين للأصنام»، وفي تقديرنا الجواب: «لما نالهم العذاب» نعمة منا. وقالت فرقة: (لَوْ) متعلقة بما قبلها، تقديره: فودُّوا لو أَنهم كانوا يهتدون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وهذا النداءُ أَيضاً كالأَول في احتماله الواسطة من الملائكة، وهذا النداءُ أَيضاً للكفار يوقفهم على ما أَجابوا به المرسلين الذين دعوهم إِلى الله تعالىٰ. ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ أَي: أَظلمت الأُمور، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحُقق وقوعه وأَنه تعيَّن، والماضي من الأَفعال مُتيَقَّن؛ فلذلك توضع صيغته بدل المستقبل المُتيَقَّن فيقوى وقوعه وصحته، ومعناه: أَظلمت جهاتُها، وقرأَ الأَعمش: [فَعُمِّيَت] بضم العين وشدِّ الميم، وروي في بعض الحديث: «كان الله في عماءٍ»[1] وذلك قبل أَن يخلق الأَنوار وسائر المخلوقات. و(ٱلْأَنۢبَآءُ) جمع نَبَإٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره: بالأَرحام والأَنساب الذي عُرْفه في الدنيا أَن يُتَسَاءَل به؛ لأَنهم قد أَيقنوا أَنهم كلُّهم لا حيلة لهم ولا مكانة، ويحتمل أَن يريد أَنهم لا يتساءَلون عن الأَنباءِ لتيقُّن جميعهم أَنه لا حُجة لهم.

ثم انتزع تعالىٰ من الكفرة من تاب من كفره، وآمن بالله ورسله، وعمل بالتقوى، ورَجَّى عزَّ وجلَّ أَنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم، وقال كثير من العلماءِ: «عَسَى» من الله واجبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ظن حسن بالله تعالىٰ يشبه فضله وكرمه، واللازم من «عَسَى» أَنها ترجية

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (٤ـ١١، ١٢)، ولفظه كما في المسند: عن أبي رُزَيْن قال: قلتُ: يا رسول الله، أين كان رَبُّنا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماءٍ، ما تحته هواءٌ، وما فوقه هواءٌ، ثم خلق عرشه على الماء».



لا واجبة، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية، قيل: سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ، وقول بعضهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع، ورد الله تعالىٰ عليهم، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاءُ، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه، هذا قول جماعة من المفسرين[٣]، قالوا: والظاهر أن (مَا) نافية، أي: ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالىٰ، فتجيءُ الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد: ويختار الله تعالىٰ الأديَانَ والشرائع، وليس لهم الخِيَرَةُ في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة، ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذهب الطبريُّ إلى أن (مَا) في قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة، قال: والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها، فأخبر الله تعالىٰ أن الاختيار إنما هو له وحده، يخلق ويختار من الرُّسل والشرائع ما كان خيراً للناس، لا كما يختارون هم ما ليس لهم، ويفعلون ما لم يُؤمروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واعتذر الطبريُّ عن الرفع الذي أجمع عليه القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بأقوالٍ لا تتحصل[٥]، وقد ردَّ الناسُ عليه في ذلك، وذكَر عن الفراءِ أن

---

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٢) من الآية (٣١) من سورة (الزُّخرف)، رُوي أن الذي قال ذلك هو الوليد بن المغيرة، وكان يعني نفسه، أو عُروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فآيتنا هنا ردٌّ عليه، أو جواب لقوله.

(٣) منهم الزجاج، وعلي بن سليمان، والنحاس، وهم يرون أن الوقف على قوله: (وَيَخْتَارُ).

(٤) من الآية (٣٦) من سورة (الأحزاب).

(٥) قال الطبريُّ: «فإن قال قائل: فإن كان الأمرُ كما وصفتَ من أن [ما] اسم منصوب بوقوع قوله: [يَخْتَارُ] عليها، فأين خبر (كَانَ)؟ فقد علمتَ أن ذلك إذا كان كما قلت إن في (كان) ذكراً من (ما)، ولا بدَّ لـ (كان) إذا كان كذلك من تمام، وأين التمام؟ قيل: إن العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبارُ=

القاسم بن معن أَنشده بيت عنترة:

أَمِـنْ سُمَيَّـةَ دَمْـعُ العَيْـنِ تَـذْرِيـفُ   لَوْ كَانَ ذَا مِنْكِ قَبْلَ الْيَوْم مَعْرُوفُ[(١)]

وقرن الآية بهذا البيت، والرواية في البيت: (لَوْ أَنَّ ذَا)، ولكن على ما رواه القاسم يَتَّجه في بيت عنترة أَن يكون في كان ضمير الأَمر والشأن، فأَما في الآية فلا يكون بجملة فيها محذوف، وفي هذا كله نظر.

والوقف على ما ذهب إِليه جمهور الناس في قوله تعالىٰ: [وَيَخْتَارُ]، وعلى ما ذهب إِليه الطبريُّ لا يوقف على ذلك.

ويتَّجه عندي أَن تكون (مَا) مفعولة إِذا قدرنا (كَانَ) تامة، أَي أَن الله تعالىٰ يختار كل كائن، ولا يكون شيءٌ إِلاَّ بإِذنه، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ جملة مستأْنفة معناها تعديد النِّعمة عليهم في اختيار الله تعالىٰ لهم لو قبلوا وفهموا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

= بعدها أحياناً أَخباراً كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها، وذلك كما في بيت عنترة حيث رفع (معروفاً) بحرف الصفة، وهو لا شك خبرٌ لـ (ذا)». وبيت عنترة هو الذي ذكره ابن عطية هنا بعد قليل.

(١) البيت في الديوان مطلع قصيدة قالها لحادثة وقعت له مع امرأة أبيه، وكان اسمها سُهَيَّة، وقيل: سُمَيَّة، إذ كانت قد حرشت عليه أباه قبل أن ينسبه إلى نفسه، وقالت لأبيه: إنه يراودني عن نفسي، فغضب أبوه من ذلك غضباً شديداً، وضربه ضرباً عنيفاً، ثم ضربه بالسيف، فلما رأت امرأة أبيه ذلك وقعت عليه وكفت أباه عنه، ولما رأت جراحه بكت، فقال عنترة هذه الأبيات، والقصة في الأغاني عن الأخفش الصغير. وتذريف: من ذرفت عليه عينه تذرف ذريفاً، وهو الدمع الذي يكاد يتصل في نزوله. وقوله: (لو كان ذا منك قبل اليوم معروف) يريد أنه ينكره منها اليوم، ولو كان معروفاً منها قبل ذلك لما أنكره. والشاهد أنه جعل قوله (معروفٌ) خبراً بعد الصفة التي في الجار والمجرور (مِنْكِ)، وهي خبر عن (ذا). كأنه يقول: إن حرف الصفة موضوع موضع ضمير مبتدإٍ، و(معروف) خبره، وفي هذا كثير من التعسف والتكلف، على أن رواية البيت في الديوان هي: (لوْ أَن ذَا مِنْكِ قبل اليوم معروف)، وعلى هذا فلا شاهد فيه كما قال ابن عطية، والشاهد يأتي على رواية القاسم بن معن القاضي التي ذكرها الفراءُ، والبيت غير مذكور في (معاني القرآن) للفراء، ولعله ذكره في كتاب آخر له.



سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ذكر تعالىٰ في هذه الآيات أموراً يشهد عقل كل مفطور بأن الأصنام لا شركة لها فيها، فمنها علم ما في النفس وما يهجس بالخواطر. و(تُكِنُّ) معناه: تستر، وقرأ ابن محيصن: [تَكُنُّ] بفتح التاءِ وضم الكاف، وعبَّر عن القلب بالصدر حيث كان محتوياً عليه، ومعنى الآية أن الله تعالىٰ يعلم السِّرَّ والإعلان.

ثم أفرد نفسه بالألوهية ونفاها عمَّا سواه، وأخبر أن الحمد له في الدُّنيا والآخرة؛ إذ له الصِّفات التي تقتضي ذلك، والحُكْم له. وهو ـ في هذا الموضع ـ الفصل والقضاءُ في الأمر، ثم أخبر تعالىٰ بالرَّجعة إليه والحشر.

ثم أخبر تعالىٰ نبيَّه أن يوقفهم على أمر الليل والنهار، وما منح الله تعالىٰ فيهما من المصالح والمرافق، وأن يوقفهم على إنعامه تعالىٰ بتوفيق الليل والنهار، وأنه لو مدَّ أحدهما سرمداً لما وجد من يأتي بالآخر. و«السَّرْمَد» من الأشياءِ: الدائم الذي لا ينقطع. وقرأت فرقة هي الجمهور: (بِضِياءٍ) بالياءِ، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل: [بِضِئَاءٍ] بهمزتين، وضعَّفه أبو عليٍّ. ثم ذكر عزَّ وجلَّ انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاءِ الفضل بالمشي والتصرف، وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار، فعدَّد النعمة بالأغلب، وإن وُجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل فشاذٌّ نادرٌ لا يُعْتَدُّ به. وقال بعض الناس: قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إنما عبَّر به عن الزمان، فكأنه لم يقصد لتقسيم، أي: في هذا الوقت الذي هو ليلٌ ونهارٌ يقع السكون وابتغاءُ الفضل.

وقوله: (وَلَعَلَّكُمْ) أي على نظر البشر، من يرى هذا التلطُّف والرفق يرى أن ذلك يستدعي الشكر ولا بُدَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

التقدير: واذكر يوم يناديهم، وكرر هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً، وهذا النداءُ عند ظهور كل ما وعد الرحمنُ على ألسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب

لآخرين، ومن خضوع كل جبار وذلّه لعزَّة ربِّ العالمين، فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار، فيقول الله تعالىٰ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على معنى التقريع.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أنه يُخرج في ذلك اليوم من كل أُمَّة شهيداً يُمَيِّز بينه وبين الناس، وهذا هو النَّزْعُ، أَي: يُمَيِّز بين شيئين فينزع أَحدهما من الآخر، وقال مجاهد: أَراد بـ «الشَّهيد» الذي يشهد على أُمَّته، وقال الرماني: وقيل: أَراد عُدولاً من الأُمم وأَخياراً[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهم حملة الحجة الذين لا يخلو منهم زمن، و«الشَّهِيدُ» ـ على هذا التأْويل ـ اسم الجنس، وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر، تقديره: يشهد الشهيد على الأُمة بخيرها وشرها، فيحق العذاب على من كفر، ويقال لهم ـ عَلَى جهة استبراءِ الحُجَّة والإِعذار في المحاولة ـ: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، أَي حجتكم على ما كنتم عليه في الدنيا إِن كان لكم، فيسقط حينئذ في أَيديهم، ويعلمون أَن الحق متوجه له سبحانه عليهم في تعذيبهم، وينكشف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأَصنام: هذه آلهة، وفي تكذيبهم الرُّسل، وغير ذلك. ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إِرادة الحكم: أَبقيت لك حجة؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾.

قارون: اسم أَعْجَمي، فلذلك لم ينصرف. واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام ـ فقال ابن إِسحاق: هو عمُّه، وقال ابن جريج، وإِبراهيم النَّخعيّ: هو ابن عمِّه، وهذا أَشهر، وقيل: ابن خالته، فهو بِإِجماع رجلٌ من بني إِسرائيل، كان ممن آمن

(١) أظهر الأقوال في المراد بالشهيد أنه نبيُّ كل أُمَّة، لأنه هو الذي يشهد على قومه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، قال العلماءُ: والشهيد: الحاضر، فيكون المعنى: أَحضرنا رسولهم المبعوث إِليهم.



بموسى، وحفظ التوراة، وكان من أَقْرأ الناس لها، وكان عند موسى عليه السلام من عُبَّاد المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب، فبغى على قومه بأَنواع من البغي، فمن ذلك كُفْره بموسى واستخفافه به، ومطالبته له بأَن يجعل له شيئاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عمد إلى إمرأَة مُومِسَة[1] ذات جمال، وقال لها: أَنا أُحْسِنُ إليك، وأحفظك في أَهلي على أَن تجيئي في مَلأٍ من بني إسرائيل عندي فتقولي: يا قارون اكفني أَمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي، فجاءَت المرأَة، فلما وقفت على المَلأِ أَحدث الله تعالىٰ لها توبة، فقالت: يا بني إسرائيل، إن قارون قال لي كذا وكذا، ففضحته في جميع القصة، وبرَّأَ الله بقدرته نبيَّه موسى عليه السلام من مطالبته، وقيل: بل قالت المرأَة ذلك عن موسى، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأَة بمحضر من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله، كذبتُ أَنا عليك، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة. وكان من بغيه أَنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس، قاله شهر بن حوشب، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده. وكان من أَعظم الناس مالاً، وسميت أَمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أَداءِ الزكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أَول عداوته.

والمفاتيح: ظاهرها أَنها التي يفتح بها، ويحتمل أَن يريد بها الخزائن والأَوعية الكبار، قاله الضحاك: لأَن المفتاح في كلام العرب الخزانة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَكثَرَ المفسرون في شأْن قارون، فروي عن خيثمة أَنه قال: نجد في الإنجيل مكتوباً: «إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل، وكان المفتاح نصف شبر، وكانت وِقْر ستِّين بغلاً أَو بعيراً، لكل مفتاح كنز».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي غير هذا مما يقرب منه، وذلك كله ضعيف، والنظر يشهد بفساد هذا، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض؟ وما الداعي لهذا؟ وفي الممكن أَن ترجع كلها إلى

---

(١) يقال: امرأَة مُومِسٌ ومُومِسَة: فاجرة جهاراً، (عن اللسان).

(٢) المفاتح: جمع مِفْتَح بالكسر، وهو ما يُفْتح به، وأما من قال: إن المفاتح هي الخزائن، فواحدها مَفْتح بالفتح، (راجع اللسان) قال: «المِفتَح والمِفتَاحُ: مفتاح الباب، وكل ما فتح به ـ والمَفْتَح: الخِزانة، وعن الجوهري: المَفْتح: الكنز».



ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة؟ وكان يلزم ـ على هذا ـ أَن تكون «مفاتيح» بياءٍ، وهي قراءَة الأَعمش، والذي يشبه هو: إما أَن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه، وعلى هذا تنوءُ بالعصبة؛ إِذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه، أَو تكون «المفاتحُ» الخزائن، قال أَبو صالح: كانت خزائنه تحمل على أَربعين بغلاً.

وأَما قوله: [تَنُوءُ] فمعناه: تنهض بتحامل، ومن ذلك قول الشاعر يصف رامياً:

حَتَّـى إِذَا مَـا الْتَـأَمَـتْ مَفَـاصِلُـهْ ... وَنَـاءَ فـي شِـقِّ الشِّمَـالِ كـاهِلُـهْ(١)

والوجه أَن يقال: إِن العُصْبَة تنوءُ بالمفاتيح المثقِلة لها، وكذلك قال كثير من المتأَوِّلين: إِن المراد هذا، لكنه قَلَب كما تفعل العرب كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

فَـدَيْـتُ بِنَفْسِـهِ نَفْسِـي وَمَـالِـي ... وَمَـا آلُـوكَ إِلاَّ مَـا أُطِيـقُ(٢)

---

(١) استشهد الفراءُ بهذين البيتين على رأيه في معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ﴾، قال: نوؤُها بالعصبة أن تُثْقلهم، أي: تُميلهم من ثِقلها، فإذا أدخلت الباء قلت: تَنُوءُ بهم وتُنيءُ بهم، كما قال: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، والمعنى: ائتوني بقِطْرٍ أُفْرِغْ عليه، فإذا حذفتَ الباءَ زدتَ في الفعل أَلفاً في أوله، ومثله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾، معناه: فجاءَ بها المخاضُ، وقد قال رجلٌ من أهل العربية: إن المعنى: ما إنَّ العصبة لتَنُوءُ بمفاتحه، فحول الفعل إلى المفاتح، كما قال الشاعر:

إنَّ سِـراجـاً لَكَـريـمٌ مَفْخَـرُهْ ... تَحْلَـى بِـهِ العَيْـنُ إذا مـا تَجْهَـرُهْ

وهو الذي يَحْلَى بالعين، فإن كان الرجل قد سمع أثراً بهذا فهو الوجه، وإلا فإن الرجل جهل المعنى، وأنشدني بعض العرب:

حَتَّـى إذَا مـا الْتَـأَمَـتْ مَـوَاصِلُـهْ ... ونَـاءَ فـي شِـقِّ الشِّمَـالِ كَـاهِلُـهْ

يعني الرامي لمَّا أَخذ القوسَ ونزع مالَ على شِقِّهِ، فذلك نَوْؤُه عليها، ونرى أن قول العرب: «ما ساءَكَ وناءَكَ» من ذلك، ومعناه: ما ساءَكَ وأَناءَكَ، إلا أنه ألقى الألف؛ لأنه مُتْبَع لـ «سَاءَكَ»، كما قالت العرب: أَكَلْتُ طعاماً فَهَنَأَنِي وَمَرَأَنِي، ومعناه ـ إذا أُفردت ـ: وأَمْرَأَنِي، فحذفت منه الألف لمَّا أن أُتْبع ما لا ألف فيه. وقد استشهد بهما أيضاً الطبريُّ، ونقل كلام الفراء بنصه، وكذلك نقل صاحب اللسان كلام الفراء كاملاً مع ما استشهد به، هذا والرواية كما في أُصول ابن عطية: «التأمتْ مَفَاصله»، وفي بعض النسخ: «اعتدلت مفاصله»، وفي معاني القرآن واللسان: «التأَمَتْ مَوَاصِلُهْ».

(٢) هذا البيت من شواهد أَبي عُبَيْدَة في «مجاز القرآن»، قال: «﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾»، أي: مفاتح خزائنه، ومجازه: ما إن العُصْبَةَ ذوي القوة لتنوءُ بمفاتح نعمه، يقال في الكلام: (إنها لتنوءُ بها عَجِيزَتُهَا)، وإنما هي تنوءُ بعجيزتها، كما ينوءُ البعير بحمله، والعرب قد تفعل هذا، قال: فَدَيْتُ بنفسه. . . البيت»، ومعنى البيت: فديت نَفْسَه بنفسي ومالي، لكن الشاعر قَلَب، أما قوله: (ما آلُوكَ) فمعناه: ما أَستطيع، يقال: جاءَني فلانٌ في حاجةٍ فما استطعتُ ردَّه، وأَتاني في حاجة فأَلَوْتُ فيها، أي: اجتهدت. وفي=



وقول الآخر:

وَتَـرْكَـبُ خَيْـلاً لاَ هَـوَادَةَ بَيْنَهَـا ... وتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ[(١)]

وهذا البيت لا حُجَّة فيه؛ إذْ يتَّجه على وجهه فتأمله، ومن ذلك قول الآخر:

ما كُنْتَ في الْحَرْبِ الْعَوَانِ مُغَمَّراً ... إذْ شَبَّ حَرُّ وَقُـودِهَـا أَجْـذَالَهَـا[(٢)]

وقال سيبويه والخليل: التقدير: لَتُنِيءُ العُصْبَةَ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجرِّ، كما تقول: ناءَ الحِمْلُ وأَنأْتُه ونؤْتُ به بمعنى: جعلته يَنُوءُ، والعرب تقول: ناءَ الحِمْلُ بالبعير إذا أثقَلَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يُسنَد [تَنُوءُ] إلى المفاتيح مجازاً، لأَنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها، وهذا مطَّرد في قولهم: ناءَ الحملُ بالبعير، ونحوه، فتأَمله.

= الشطر الثاني التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم، فقد تحدث أولاً عن حبيبه بضمير الغيبة، ثم التفت فتحدث بضمير الخطاب في قوله: آلُوكَ.

(١) قال هذا البيت خِدَاشُ بنُ زهير بن صعصعة، من شعراء قيس المجيدين في الجاهلية، أدرك الرسول ﷺ ولم يره، والبيت في (اللسان ـ ضَطَر)، والضياطرة: جمع ضَيْطر، وهم العظماءُ من الرجال، ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه: «من يَعْذرني مع هؤلاء الضياطرة»، والمعنى في البيت أنَّ الضياطرة الحُمْر يشقون بالرماح، يعني: يُقْتَلون بها، لكن الشاعر قلب وجعل الرِّماح هي التي تشقى بالضياطرة، وهذا هو الشاهد، على أن ابن عطية يقول: «هذا البيت لا حُجَّة فيه؛ إذ يتَّجه على وجهه»، يعني يصح أن يقال: إن الرماح تشقى بهم فعلاً؛ لأنهم لا يحسنون حملها ولا القتال بها، وعلى هذا المعنى لا حُجَّة في البيت ولا شاهد، وقول الشاعر: لا هوادة بينها، يعني لا موادعة ولا مصالحة. وقد وضَّح ابن سيدة الاحتمالين في البيت، ونقل ذلك صاحب اللسان.

(٢) البيت للأعشى، ميمون بن قيس بن ثعلبة، قاله من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب، وقبله يقول:

فَلَعَمْـرُ مَـنْ جَعَـلَ الشُّهـورَ عَـلامَـةً ... قَـدَراً، فَبَيَّـنَ نِصْفَهَـا وَهِـلالَهَـا

والحربُ العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة، كأنهم جعلوا المرة الأولى بكراً، والمُغَمَّر: الجاهل الذي لم يُجَرِّب الأمور، وشَبَّ النار: أَوْقَدَهَا، والأَجْذَال: جمع جِذْلٍ، وهو ما عظم من أُصول الشجر المقطوع يُجْعل حطباً ووقوداً للنار، يقول الشاعر: أُقسم بمن جعل الشهور علامةً للناس أنك ما كنت في الحرب الشديدة التي تتكرر مرة بعد مرة جاهلاً بأُمورها وإدارتها حتى تنتصر على الأعداءِ حين أَوقد حرُّها الأجذالَ، وهنا يكون الشاهد، إذ أن الحطب الجذل، أو أجذال الشجر هي التي تشب حرَّ النَّار، ولكن الشاعر قلب المعنى، وجعل حرَّ النار هو الذي يوقد الأجذال والحطب.



واختلف الناسُ في «العُصْبَة»، كم هي؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة، وقال قتادة: العُصْبة: من العشرة إلى الأربعين، وقال مجاهد: خمسة عشر، وقيل: أحد عشر حَمْلاً على إخوة يوسف، وقيل: أربعون.

وقرأ بُدَيْلُ بنُ مَيْسَرة: [لَيَنُوءُ] بالياءِ، ووجَّهها أبو الفتح على أنه يقرأ: (مَفَاتِحَهُ) جمعاً[١]، وذكر أبو عمرو الداني أن بُدَيْلَ بنَ مَيْسَرَة قرأ: [ما إنَّ مِفْتاحه] على الإفراد، فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ متعلق بقوله: (فَبَغَى)[٢]، ونَهَوْهُ عن الفرح المطغي الذي هو انْهماكٌ وانحلالُ نفسٍ وأَشَرٌ وإعجابٌ، و(لاَ يُحِبُّ) ـ في هذا الموضع ـ صفة فعل[٣]؛ لأنه أمْرٌ قد وقع فمحالٌ أَنْ يرجع إلى الإرادة، وإنما هو لا يُظهر عليهم بركته، ولا يهبهم رحمته. ثم وصّوه بأن يطلب بماله رضى الله وآخرته. وقولهم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختلف المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والجمهور: معناه: لا تضيع عمرك في ألاَّ تعمل عملاً صالحاً في دنياكَ؛ إذ الآخرة إنما يَعْمَل لها في الدنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي ألاَّ تهمله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالكلام كله ـ على هذا التأويل ـ شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه:

---

(١) قال أبو الفتح: كأنه ذهب إلى «ذلك القَدْر والمَبْلغ»، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه، ومثله قول الراجز:

* مِثْلُ الفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *

أي حواصل ذلك، أو حواصل ما ذكرنا، وأخبرنا شيخنا أبو علي قال: قال أبو عبيدة لرؤبة في قوله:

فيها خُطوطٌ مِنْ سَوَادٍ وبَلَقْ ... كأنَّهُ في الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن كنت أردت السواد والبَلَق فقل: كأنهما، فقال رؤبه: أردت: كأن ذاك، ويلك، هذا مجموع الحكاية.

(٢) قال أبو حيّان في البحر: «وهذا ضعيف لأن بغيه لم يكن مُقيَّداً بذلك الوقت»، وقال الزمخشري: «ومَحَل (إذْ) منصوب بـ [تَنُوءُ]». وعلّق عليه أبو حيّان أيضاً فقال: «وهذا ضعيف جداً لأن إثقال المفاتح العصبة ليس مُقيَّداً بوقت قول قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، وفي رأي الحوفي أن [إذْ] منصوب بمحذوف تقديره: اذكر».

(٣) أي: ليست صفة ذات بمعنى الإرادة؛ لأن الفرح أمر قد وقع.



ولا تُضيع حظَّك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلال بطلبك إياه، ونظرك إلى عاقبة دنياك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالكلام ـ على هذا التأويل ـ هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية النَّبْوة من الشدة. وقال الحسن: معناه: قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وحكى الثعلبي أنه قيل: أرادوا بنصيبه الكفن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا: لا تَنْس أنك تترك جميع مَالِكَ إلاَّ نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... رِدَاءَانِ تُلْوَى فيهما وَحَنُوط[1]

وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أمْر بصلة المساكين وذوي الحاجة. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

القائل قارون. لمَّا وعظه قومه وندبوه إلى اتقاءِ الله تعالىٰ في المال الذي أعطاه تفضُّلاً منه عليه، أخذته العزة بالإثم فأُعجب بنفسه، وقال لهم على جهة الرَّدِّ عليهم والروغان مما ألزموه فيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، ولكلامه هذا وجهان يحملهما، وبكل واحد منهما قالت فرقة من المفسرين:

---

(١) تُلْوَى: تُلَفُّ، وقد يكون في اللَّيِّ معنى السَّتْر. والحَنُوط والحِناطُ: كلُّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وصندل وكافور وعنبر، ومثل هذا البيت قول الشاعر:

وهِيَ القَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلا ... فيهَا النَّعِيمُ وَفيهَا رَاحَةُ البَدَنِ
انظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالكَفَنِ؟

فقال الجمهور منهم: إنه ادعى أَن عنده علماً استوجب به أَن يكون ذلك النعيم له وكذلك المال، ثم اختلفوا في العلم الذي أَشار إليه، ما هو ؟ فقال بعضهم: علم التوراة وحفظها، قالوا: وكانت هذه مغالطة منه ورياءً، وقال أَبو سليمان الداراني[١]: أَراد العلم بالتجارات ووجوه تمييز المال، فكأَنه قال: أُوتيته بإِدراكي وبِسَعْيي، وقال ابن المسيّب: أَراد علم الكيمياءِ.

وقال ابن زيد[٢] وغيره: إنما أَراد: أُوتيته على علم من الله تعالىٰ وتخصيص من لدنه قصدني به، فلا يلزمني فيه شيءٌ مما قلتم، ثم جعل قوله: (عِنْدِي) كما تقول: «في معتقدي وعَلَى ما أَراه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبَّه القرآن على خطئه في اغتراره، وعارض منزعه بأَن من معلومات الناس المتحققة عندهم أَن الله تعالىٰ قد أَهلك من الأُمم والقرون والملوك مَنْ هو أَشد من قارون قوة وأَكثر جمعاً، إمَّا للمال أَو للحاشية. وقوله تعالىٰ: ﴿أو لم يعلم﴾ يرجِّح أَن قارون تشبَّع بعلم نفسه على زعمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. قال محمد بن كعب: هو كلام متَّصل بمعنى ما قبله، والضمير في (ذُنُوبِهِمُ) عائدٌ عَلَى مَنْ أَهلك من القرون، أَي: أُهلكوا ولم يُسأَل غيرُهُم بعدهم عن ذنوبهم، أَي: كلُّ أَحد إِنما يُسأَل ويعاقب بحسب ما يخصه. وقالت فرقة: هو إِخبارٌ مستأْنف عن حالهم يوم القيامة، معناه أَن المجرمين لا يُسْأَلون عن ذنوبهم، أَي أَن الملائكة لا تَسْأَل عن ذنوبهم؛ لأَنهم يعرفونهم بسيماهم من السَّواد والتشويه ونحو ذلك، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي آيات الله ما يقتضي أَن الناسَ يوم القيامة يُسْأَلون، كقوله تبارك وتعالىٰ:

(١) في البحر المحيط: أبو سليمان الداني.

(٢) هذا هو الاحتمال الثاني، والاحتمال الأول هو الذي قال به الجمهور.

(٣) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن).



﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[١]، وغير ذلك، وفيه آيات تقتضي أنه لا يُسْأَلُ أحدٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[٢]، وغير ذلك، ويمكن أَن تكون الآيات التي توجب السؤال إِنما يريد بها أَسئلة التوبيخ والتقرير، والذي ينفيه يراد به أَسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إِلى علم ذلك من المسؤولين، أَي أَن ذلك لا يقع؛ لأَن العلم بهم محيط، وسؤال التوبيخ غير مُعْتَدٍّ به.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن قارون خرج على قومه وقد أَظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا، قال جابر ومجاهد: خرج في ثياب حمر، وقال ابن زيد: خرج هو وحَشَمه في ثياب مُعَصْفرة[٣]، وقيل: في ثياب الأُرجُوان[٤]، وقيل غير هذا، وأَكْثَر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها ـ مما لا صحة له ـ فاختصرته. وباقي الآية في اغترار الجهلة والأَغْمارِ[٥] من الناس بَيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أَخبر تعالىٰ عن الذين أُوتوا العلم والمعرفة بالله تعالىٰ وبحق طاعته والإِيمان به أَنَّهم زجروا الأَغمار الذين تَمَنَّوْا حالَ قارون، وحملوهم على الطريقة المُثْلَى من أَن النظر والتَّمَنِّي إِنما يكون في أُمور الآخرة، وأَن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خيرٌ من حال كلِّ ذي دنيا.

---

(١) الآية (٢٤) من سورة (الصَّافَّات).

(٢) الآية (٣٩) من سورة (الرَّحمن).

(٣) الثيابُ المعصفرة هي التي صُبغت بالعُصْفُر، وهو نباتٌ صيفي من الفصيلة المركبة أُنبوبية الزهر، ويستعمل زهره تابلا، ومنه يستخرج صبغ أحمر يُصبغ به الحرير ونحوه، (المجمع الوسيط عن المجمع اللغوي).

(٤) الأُرْجُوَان: الصبغ الأحمر، أو الثوب المصبوغ به، يقال: أحمر أُرْجواني: قانٍ (مع).

(٥) الأغمار: جمع غمْر، والرجل الغَمْر هو الذي لم يجرب الأمور، أو الذي أصابته الغَمْرةُ، وهي الضلالة التي تغمر صاحبها.



ثم أَخبر تعالىٰ عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الدِّين أنَّه لاَ يُلَقَّاهَا، أَي: لا يُمَكَّن منها ويُخَوَّلُها إِلاَّ الصَّابر على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماعُ الخير كله. والضمير في (يُلَقَّاهَا) عائد على ما لم يتقدم له ذكر من حيْثُ الكلامُ دالٌّ عليه، فلذلك يجري مجرى: ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[1]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2]. وقال الطبري: الضمير عائد على الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أَيْ: لا يُلَقَّى هذه الكلمة إِلاَّ الصابرون، وعنهم تصدر.

ورُوي في الخسف بقارون وداره أَن موسى عليه السلام لمَّا أَمَضَّه فعلُ قارون به، وتعدِّيه عليه، ورميه بأَمر المرأَة، وغير ذلك من فعله، استجار بالله تعالىٰ وبكى وطلب النُّصرة، فأَوحى الله تعالىٰ إِليه: لا تهتم فإِنِّي أَمرتُ الأَرض أَن تطيعك في قارون وأَهله وخاصته وأَتباعه، فقال موسى عليه السلام للأَرض: خُذيهم، فأَخذت منهم إِلى الرُّكب، فاستغاثوا بموسى، يا موسى، فقال: خُذيهم، فأَخذتهم شيئاً فشيئاً، وهم يستغيثونَ به كلَّ مرَّة، وهو يُلجُّ إِلى أَن تَمَّ الخسف بهم، فأَوحى الله تعالىٰ إِليه: يا موسى، استغاثوا بك فلم ترحمهم، لَوْ بِيَ استغاثوا وإِلَيَّ تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم. وقال قتادة، ومالك بن دينار: رُوي لنا أَنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إِلى يوم القيامة.

و«الْفِئَةُ»: الجماعة الناصرة التي يفيءُ إِليها الإِنسان الطالب للنُّصْرة.

وقصة قارون هي بَعْدَ جوازهم الْيَمَّ؛ لأَن الرُّواة ذكروا أَنه كان ممن حفظ التوراة، وكان يقرؤُها.

ثم أَخبر تعالىٰ عن حال الذين تمنَّوْا مكانه بالأَمس، وندمهم واستشعارهم أَن الحول والقوة لله تعالىٰ. وقوله: (وَيْكَأَنَّ) مذهب سيبويه والخليل أَن (وَيْ) حرف تنبيه، وهي منفصلة عن (كَأَنَّ)، لكن أُضيفت في الكتابة لكثرة الاستعمال، [والمعنى أَن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أَو نُبِّهُوا فقيل لهم: أَما يُشبه أَن يكون هذا عندكم هكذا][3]،

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة ﷺ، فمن الواضح المعروف أن الضمير يعود على الشمس.

(٢) الآية (٢٦) من سورة (الرَّحمن)، ومن المعروف أن الضمير يعود على الأرض.

(٣) الكلام ما بين العلامتين [.....] غير واضح في الأصل، وفيه تخليط، وقد نقلناه مصوباً عن الكتاب لسيبويه (٢ـ١٥٥).

فقالوا على جهة التَّعَجُّب والتَّندم: فإِنَّ الله يبسط الرزق.

وقال أَبو حاتم وجماعة من النحويين: (وَيْكَ) هي وَيْلَك، حذفت لامه[1] وجرت في الكلام كذلك، ومنه قول عنترة:

وَلَقَــدْ شَفَــى نَفْسِــي وَأَبْــرَأَ سُقْمَهَــا ... قِيلُ الْفَوَارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ[2]

فكأن المعنى: ويْلَكَ، اعلم أنَّ الله، ونحو هذا من الإِضمار للفعل[3].

وقالت فرقة من النحويِّين: (وَيْكَأَنَّ)بِجُملتها دون تقدير انفصالٍ ـ كلمةٌ بمنزلة قولك: أَلم تَرَ أَنَّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويَقْوَى الانفصالُ فيها على ما قاله سيبويه؛ لأَنها تجيءُ مع (أَنَّ) ومع (أَنْ)، وأَنشد سيبويه:

وَيْ كَــأَنْ مَــنْ يكُــنْ لَــهُ نَشَــبٌ يُحْـ ... ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ[4]

---

(١) سقطت كلمة (لامُه) من الأصل، والمعنى يقتضيها.

(٢) البيت من معلقته المعروفة، وشَفَى نفسِي: اشْتفيت حيث قالوا لي أَقْدِم فأَقدمْتُ، ويقال: سُقْم وسَقَم، مثل: عُدْمٌ وعَدَم، ونُجْل ونَجَل، و(وَيْكَ) معناه: وَيْلَك، فأسقط اللام، وهو الشاهد هنا. و(قِيلُ) فاعل بالفعل شَفَى، و(عَنْتَرُ) فيه فتحُ الراءِ على الترخيم، وضمُّها على أنه منادى مفرد، وموضع (أَقْدِمِ) مجزوم على الأمر، والياءُ فيه عند من أثبتها صلةٌ لكسر الميم، كقول امرىء القيس: (أَلا أَيُّها الليلُ الطويل أَلا انْجَلِي)، قاله الأنباري في شرح القصائد السبع. والذي قال له أَقْدِم أَبوه، قال له: ويْكَ عنتر أَقدم، فقال: العَبْد لا يُحسن الكرّ، إلا الحَلَبَ والصَّرّ»، فلما اشتدت المعركة وخاف أن يضيع كل شيء قال له: أيْ بُنَيَّ: أما تَرَى؟ قال عنترة: الآنَ نَعَم، وعندها قال: وأَبْرَأَ سُقْمَهَا.

(٣) أنكر النحاسُ وجماعة ذلك، وقالوا: إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له: ويلك، ولو كان كذلك لكان: إنَّه بكسر الهمزة، وأيضاً فإن حذف اللام من (وَيْلَكَ) لا يجوز. وقد نقل القرطبي ذلك.

(٤) البيت في اللسان، والكتاب، وابن يعيش، والهَمْع، والأشْموني، والخزانة، والخصائص، وشرح شواهد الشافية، وعيون الأخبار، والبُخَلاءِ، وشرح القصائد السبع الطوال للأنباري، وفيها أن الشاعر هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وقيل: إنه لنبيه بن الحجاج، وقبل البيت يقول الشاعر:

تِلْــكَ عِــرْسَــايَ تَنْطِقَــانِ عَلَــى العَهْـ ... ـدِ إلَــى اليَــوم قَــوْلَ زُورٍ وَهِتْــرِ
سَــالَتَــانــي الطَّــلاقَ أنْ رَأَتَــانِــي ... قَــلَّ مَــالــي، قَــدْ جِئْتُمَــانــي بِنُكْــرِ

الهِتْرُ: الباطل، والسقط من الكلام، والكذب، والأمر العجب. وكل هذا واردٌ هنا. وعلى هذا فالضمير في (سَالَتَاني) يعود على زوجتيه في البيت الأول، وسالَ مخفف من سأل بإبدال الهمزة ألفاً، =

وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نُفَيْل.

وقرأ الأعمش: [لولا مَنَّ الله] بحذف (أَنْ)، ورُوي عنه: [لولا مَنُّ] برفع النون، وبالإضافة إلى [ٱللهِ]. وقرأ الجمهور: [لَخُسِفَ] بضم الخاءِ وكسر السين، وقرأ عاصم بفتح الخاءِ والسين، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: [لانْخُسِفَ] كأَنه فعل مطاوع أَراد به أَن الأَرض كانت منفعلة، ورُوي عن الكسائي أَنه كان يقف على [وَيْ]، ويبتدىء [كَأَنَّ]، وروي عنه الوصل كالجماعة، وروي عن أَبي عمرو أَنه كان يقف على [وَيْكَ]، ويبتدىء [إن الله]، وعلى هذا المعنى قال الحسن: إن شئت: [وَيْكَ أَنَّ] أَوْ [وَيْكَ إِنَّ] بفتح الهمزة وبكسرها، فكذلك في [وَيْكَأَنَّهُ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

هذا إخبارٌ مستأْنف من الله تعالىٰ لنبيِّهِ محمد ﷺ، يُراد به إخبار جميع العالم وحَضِّهم على السَّيْر بحسب ما تضمَّنته الآية، وهذا الحضُّ يتضمَّن الإنحاءَ على قارون ونظرائه، والمعنى أَن الآخرة ليست في شيءٍ من أَمر قارون، إِنما هي لمن صفتُه كذا وكذا. و«العُلُوُّ» مذموم، وهو الظُّلْم والتَّجبُّر، قال النبي ﷺ: «وذلك أَن تُرِيد أَن يكون

= والنُّكْرُ بضم النون هو المنكر. والنَّشَب: المالُ، والشاهد فيه أن [وَيْكَأَنَّ] عند الخليل وسيبويه مركبة من (وَيْ) للتنبيه، و(كأَنْ) للتشبيه، وابن عطية يختار هذا الرأي لأن (كَأَنْ) هنا جاءت بالنون الساكنة الخفيفة، وقد استشهد بالبيت كل من الطبري والقرطبي والبحر، وهو في معاني القرآن للفراء، لكنه يرى أن قوله تعالىٰ: (وَيْكَأَنَّ) هو كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله ؟ ـ قال: وأخبرني شيخ من أَهل البصرة، قال سمعتُ أَعرابية تقول لزوجها: أين ابنُك ويْلَك ؟ فقال: ويْكَأَنَّه وراءَ البيت، معناه: أما تَرَيْنَه وراءَ البيت ؟ وقد يذهبُ بعض النحويِّين إلى أنهما كلمتان، يريد: وَيْكَ أنه، أَراد: وَيْلَك، فحذف اللام وجعل (أَنَّ) مفتوحةً بفعل مضمر، كأنه قال: ويلك، اعْلَم أنَّه وراء البيت، فأضمر (اعْلَم)، ولم نجد العرب تُعمل الظنَّ والعلم بإضمار مضمر في أَنَّ.



شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك»[١]، و«الفَسَادُ» يعم جميع الوجوه من الشَّرِّ، ومما قال العلماءُ: هو أَخْذ المال بغير حق. وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر منفصل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ معناه: إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة ولا بُدَّ، ففي وصف أمر جزاءِ الآخرة أنَّه من عمِلَ صالحاً فَلَهُ خَيْرٌ من القَدْر الذي يقتضي النظرُ أنه مُوَازٍ لذلك الفعل، هذا على أن تُجعل الحسنة في التَّفضيل، وفي القول حذفُ مضافٍ، أي: مِن ثوابها الموازي لها، ويحتمل أن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية؛ أي: له خير بحسب حسنته ومِن أجلها، وأخبر تبارك وتعالىٰ أن السيئة لا يضاعف جزاؤُها فَضْلاً منه ورحمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ معناه: أَنْزَلَهُ عليك وأثبته، والفَرْضُ أصله عَمَلٌ فَرَضَه في عَوْدٍ أو نحوه، فكأن الأشياءَ التي تثبت وتمكن وتبقى تشبه ذلك الفرض. وقال مجاهد: معناه: أعطاك القرآن، وقالت فرقة: في هذا القول حذف مضاف، والمعنى: فَرَضَ عليك أحكام القرآن.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ـ فقال جمهور المتأوِّلين: أراد: إلى الآخرة، أي: باعثُك بعد الموت، فالآية ـ على هذا ـ مقصدها إثباتُ الحشر، والإعلامُ بوقوعه. وقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم: وغيرهما: الْمَعَاد: الجنة، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة: المعادُ: الموتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن الآية ـ على هذا ـ واعظةٌ ومذكرة.

---

(١) أثبت الإمام السيوطي في الدر المنثور هذا القول للإمام عليٍّ رضي الله عنه، قال: أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن الرجل ليحبُّ أن يكون شِسْعُ نعله أفضل من شِسْع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.»، ولم نجده بهذا اللفظ مرفوعاً. أما الثابت عن النبي ﷺ فهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (١ـ٣٩٩) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقالُ حبَّة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كبر»، فقال رجل: يا رسول الله، إنِّي لَيُعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه ـ أفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: «لا، ذاك الْجَمَال، إن الله يحب الْجَمَال. ولكن الكِبْر من سفه الحق وازْدَرى الناس».



وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: المعادُ مكة، وهذه الآية نزلت بالجحفة، فتقدم رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ مُعْلِمة بغيب قد ظهر للأُمَّة، ومؤنسة بفتح، و«المعاد»: الموضع الذي يعاد إليه، وقد اشتهر به يوم القيامة لأنه مَعادٌ للكل.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ الآية، آية متاركة للكفار وتوبيخ. وأسند الطبريُّ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ قال: الجنة، وسمَّاها معاداً إمَّا من حيث قد دخلها النبي ﷺ في الإسراءِ والمعراج وغيره، وإمَّا من حيث قد كان فيها آدم عليه السلام؛ فهي معادٌ لذريته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما قال هذا من حيث تعطي لفظة «المعاد» أن المخاطب قد كان في حال يعود إليها، وهذا وإن كان مما يظهر في اللفظة فيتوجه أن يُسمى معاداً ما لم يكن المرءُ فيه مجوزاً؛ ولأنها أحوالٌ تابعة للمعاد الذي هو النشور من القبر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ الآية. قال بعض المفسرين: هذا ابتداءُ كلام مضمنه تقدير النعمة على محمد ﷺ، وأن الله تبارك وتعالىٰ رحِمَهُ رحْمَةً لم يحتسبها ولا بلغها أَمَلُه، وقال بعضهم: بل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ الآية كلام معلق بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: وأنت بحال من لا يرجو ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ عبارة عن إعلان النُّبُوَّة وتبليغ القرآن، كما تقول: أَلْقَى فُلانٌ إلى فلانٍ بالرياسة، ونحو هذا، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ نصب على استثناءِ منقطع، و«الظَّهيرُ»: المُعين، أي: اشتد يا محمد في تبليغك، ولا تَلِنْ، وَلاَ تفشل، فتكون معونتُه للكافرين بهذا الوجه، أي: بالفتور عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: بأقوالهم وكذبهم وأذاهم، فلا تلتفت نحوه



وأمْضِ لشأنك. وقرأ يعقوب: [ولاَ يَصُدُّنْك] بجزم النون[1]. وقوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وجميع الآية ـ يتضمن المهادنة والموادعة، وهذا كله منسوخ بآية السيف.

وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ إليه من تعظيم أَوثانهم، وعند ذلك أَلقى الشيطانُ في أُمنيته أَمْر الغرانيق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نَهْي عما هم بسبيله، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالت فرقة: هي عبارة عن الذات، والمعنى: هالك إلاَّ هُو، قاله الطبري وجماعة منهم أَبو المعالي رحمه الله، وقال الزَّجَّاج: إلاَّ إيَّاه، وقال سفيان الثوري: المراد: إلاَّ ما أُدِّي لوجهه، أَي: ما عُمل لذاته من طاعة، وتُوُجِّه به نحوه، ومن هذا قول الشاعر:

. . . . رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ[2]

ومنه قول القائل: «أَردتُ بفعلي وجْهَ اللهِ تعالىٰ». ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أَي فصْل القضاءِ وإنفاذه في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ بالحَشْرِ والعودة من القبور. وقرأَ الجمهور: (تُرْجَعُونَ) بالتاءِ وفتح الجيم، وقرأَ عيسى: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم، وقرأَ أَبو عمرو بالوجهين.

كمل تفسير سورة القصص والحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين

---

(١) قراءة الجمهور بشدِّ النون، وقراءة يعقوب بتسكين النون، والقراءتان على أن الفعل مضارع (صَدَّ)، وقرىء [يُصِدُّنَّكَ] من (أَصَدَّ) بمعنى (صَدَّ)، وهي لغة في كلب، قال ذو الرمة:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ ... صُدودَ السَّوَاقِي عَنْ أُنُوفِ الْحَوَامِ

(٢) هذا عجز بيت، وهو من الأبيات الخمسين التي استشهد بها سيبويه ولم يُعرف قائلها، وهو شاهد عند النحويين على أن أصله: (أستغفر الله مِنْ ذنب)، ثم أسقط الجار، فاتصل المجرور بالفعل، فنصب مفعولاً به، ولكن الشاهد هنا أن الوجه بمعنى: ما عُمِل لذات الله، والبيت بتمامه:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

(٣) من الآية (٥٢) من سورة (الأنعام)، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٢٨) من سورة (الكهف): ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العنكبوت

هذه السُّورة مكيَّة إلاَّ الصدر منها، العشر آيات، فإنها مدنية، نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة، وفي هذا اختلاف(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

تقدم القول في الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، وقرأ ورش: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ بفتح الميم من غير همز بعدها، وذلك على تخفيف الهمزة وإلْقاءِ حركتها على الميم(٢).

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يُؤذونهم ويُعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك(٣)، وربما اسْتُنْكِر أَن يُمَكِّن الله الكفرة من المؤمنين، قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مُسَلِّية ومعلِّمة أن هذه السيرة

---

(١) خلاصة هذا الاختلاف أن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد يقولون: كلُّها مكية. وابن عباس في واحد من قولين له ومعه قتادة يقولان: كلها مدنية، وفي قول آخر لابن عباس أنها مكية إلا عشر آيات في أولها؛ فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان بمكة من المسلمين، وهو قول يحيى بن سلاّم. وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة، وآياتها تسع وستون آية.

(٢) الأوضح في رسم الكلمات على قراءة ورش هذه أن تكتب هكذا: (ألفْ لامْ مِيمَ حَسِبَ)، وقد ضعَّف ابن جني هذه القراءة؛ لأن حروف التَّهَجِّي مبنية على الوقف في حال الوصل؛ فإذا كانت في الإدراج ساكنة لم يَلِقْ بها إلقاءُ الحركة عليها؛ لأن إلقاءَ الحركة إنما يكون لما من عادته أن يُحَرَّك في الوصل لالتقاء الساكنين، وأنت تقول [مِيمْ أَحَسِبَ] فتجمع بين الساكنين، الياء والميم، فإذا كان الساكنان يجتمعان في الوصل ضعف إلقاءُ حركة الهمزة عليها (راجع المحتسب ٢ـ١٥٨).

(٣) قال العلماءُ: من هؤلاءِ المؤمنين الذين كانوا بمكة سَلَمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأُمه سُمَيَّة، وغيرهم.



هي سيرة الله تبارك وتعالىٰ في عباده اختباراً للمؤمنين وقتئذ؛ ليعلم الصادق ويرى ثواب الله تعالىٰ له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة ـ فهي بمعناها باقية في أُمَّة محمد ﷺ، موجودٌ حُكْمها بقية الدهر، وذلك أَن الفتنة من الله تعالىٰ باقية في ثغور المسلمين بالأَسر ونِكاية العدوِّ وغير ذلك، وإِذا اعتبر أَيضاً كلُّ موضع ففيه ذلك بالأَمراض وأَنواع المحن، ولكن التي تُشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أَمر العدوِّ في كل ثغر[1].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر ـ؛ إذ كان يُعذب في الله ـ ونُظَرائه. وقال الشعبي: سبب الآية ما كُلِّفه المؤمنون، أَمَّا الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها؛ لا سيَّما وقد لحقهم بسببها أَن اتبعهم الكفَّار وردُّوهم وقاتلوهم، فقُتل من قُتل ونجا من نجا. وقال السدي: نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي ﷺ.

و[حَسِبَ] معناه: ظَنَّ، و[أَنْ] نصب بـ [حَسِبَ]، وهي والجملة التي بعدها تَسُدُّ مسدَّ مفعولَيْ [حَسِبَ]، و[أَنْ] الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض، وتقديره: «بأَنْ يقولوا»، ويحتمل أَن يقدر: «لأَنْ يقولوا»، والمعنى في الباءِ واللام مختلف، وذلك أَنه في الباءِ كما تقول: «تركت زيداً بحاله»، وهو في اللام بمعنى: «مِنْ أَجْل»، أَي: حسبوا أَن إِيمانهم علَّةٌ للترك.

و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يريد بهم المؤمنين مع الأَنبياءِ في سالف الدهر.

وقرأَ الجمهور: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾ بفتح الياءِ واللام الثانية، ومعنى ذلك: ليُظْهرنَّ علمه ويُوجد ما علمه أَزلاً، وذلك أَن علمه بهذا أَزلاً قديم، وإِنما هو عبارة عن الإِيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم، والصدق والكذب على بابهما، أَي: مَنْ صَدَق فعلُه

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، وعلَّق عليه بقوله: «ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه».



وقولُه ومَن كذَب. وقالت فرقة: إنما هي استعارة، وإنما أَراد بهما الصَّلابة في الدِّين، أو الاضطراب فيه وفي جهاد العدوِّ، ونحو هذا، ونظير هذا قول زهير:

لَيْـثٌ بِعَثَّـرَ يَصْطَـادُ الـرِّجَـالَ إذا   ما كذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا[1]

قال النقاش: وقيل: إن الإشارة بـ [صَدَقُوا] إلى مِهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه؛ لأنه أَوَّل قتيل قُتل من المؤمنين يوم بدر[2].

وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه[3]: [فَلَيُعْلِمَنَّ] بضم الياءِ وكسر اللام الثانية، وهذه القراءَة تحتمل ثلاثة معانٍ: أَحدها أَن يُعْلِم في الآخرة هؤلاءِ الصَّادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه، وبأَعمالهم في الدنيا، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم[4]. والثاني أَن يُعْلِمَ الناسَ والعالم هؤلاءِ الصادقين والكاذبين، أَي: يفضحهم وَيُشَهِّرهم، هؤلاءِ في الخير، وهؤلاءِ في الشّر، وذلك في الدنيا والآخرة[5]، والثالث أَن يكون ذلك من العلامة، أَيْ: يضع لكل طائفة عَلَماً تُشهر به[6]، فالآية ـ على هذا ينظر إليها قول النبي ﷺ: «من أَسرَّ سريرة أَلْبسه الله رداءَها». وعلى كلِّ معنىً مِنْها ففيها وَعْدٌ للمؤمنين الصادقين، ووعيدٌ للكافرين.

وقرأَ الزهري الأُولى كقراءَة الجماعة، والثانية كقراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) البيت من قصيدة لزهير يمدح بها هَرِم بن سنان. والليث هو الأسد، وأراد بكلمة (ليث) الأولى هرماً، وعَثَّر: موضع، والأقران: جمع قِرْن وهو الصاحب، أو المِثْل في الشجاعة والقتال. يقول: إن هرماً في الشجاعة والقتال مثل الأسد الذي يصطاد الرجال في عثَّر، ولكن إذا حمي القتال، وكذب الأسد وخانته شجاعته فإن هرماً يبقى على شجاعته لا يَجْبُن ولا يفر من المعركة.

(٢) رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ: «سيِّد الشهداء مِهْجع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة».

(٣) وقرأ بها أيضاً جعفر بن محمد.

(٤) فالفِعْل (يُعْلم) مضارع (عَلِمَ) المتعدية إلى مفعول واحد، والثاني محذوف، وتقديره كما قال ابن عطية: يعلمهم منازِلهم وأَعمالهم.

(٥) المحذوف هنا هو المفعول الأول، ويظهر في تقدير ابن عطية: يُعْلِمُ الناسَ والعالَم.

(٦) الفعل هنا متَعَدٍّ إلى مفعول واحد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[أَمْ] معادلة للألف في قوله: [أَحَسِب]، وكأنه عزَّ وجلَّ قرَّر الفريقين، قرَّر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله تعالىٰ ويُعجزونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ـ وإن كان الكفَّارُ المرادَ الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها ـ فإن لفظ الآية يعم كل عاصٍ وعامِل سيئةٍ من المسلمين وغيرهم. وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يجوز أن تكون [مَا] بمعنى الذي، فهي في موضع رفع، ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير: ساءَ حُكْماً يحكمونه[1]. وفي هذه الآية وعيدٌ للكفرة، وتأنيس للمؤمنين يظهر في وعده بالنصر في القيامة، وبأنه آتٍ؛ إذ قد أَجَّله الله تعالىٰ وأخبر به.

وفي قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ تثبيتٌ، أي: من كان على هذا الحق فليوقن بأنه آتٍ وليزدد بصيرة، وقال أبو عبيدة: [يَرْجُو] هنا بمعنى: يخاف[2]، والصحيح أن الرجاءَ هنا على بابه، وقال الزَّجَّاج: المعنى: يرجو لقاءَ ثواب الله، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ معناه: السميع لأقوال كلِّ فِرْقَة، العليم بالمعتقدات التي لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ إعلامٌ بأَن كل أَحد مجازى بفعله الحسن، فهو حظُّه الذي ينبغي أَلاَّ يفرط فيه، فإن الله غني عن جهاده وعن العالمين بأسرهم.

وهاتان الآيتان كأَنهما [. . . . .][3] على سواءٍ إلى الطائفة المرتابة المترددة في فتنة

---

(١) إذا كانت [ما] موصولة في موضع رفع فإن صلتها هو قوله: [يَحْكُمُونَ]، وإذا كانت في موضع فهي تمييز، و[يَحْكُمُونَ] صفة، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: حُكْمُهُم. وقال ابن كيسان: [مَا] مصدرية، والتقدير: بئس حكمهم، وعلى هذا يكون التمييز محذوفاً، أي: ساءَ حُكْماً حُكْمُهُم.

(٢) ورد ذلك في كلام العرب، وقد استشهد العلماء لهذا من كلام الشعراء بقول الهذلي في وصف عسَّال:

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ... وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

(٣) بين العلامتين [. . . . .] كلمة لم نستطع قراءتها.



الكفار، التي كانت تنكر أَن ينال الكفارُ المؤمنين بمكروه، وترتاب من أَجل ذلك، فكأَنهم قيل لهم: من كان يؤمن بالبعث فإِن الأَمر حق في نفسه، والله تعالىٰ بالمرصاد، أَي: هذه بصيرة لا ينبغي أَن يعتقدها لوجه أَحد. وكذلك من جاهد فثمرة جهاده له، فلا يَمُنُّ ذلك على أَحد، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته: من أَراد أَن ينظر إِلى الحق فإِن الأَمر كذا وكذا، ونحو هذا فتأَمله.

وقيل: معنى الآية: ومن جاهد عدوَّه لنفسه لا يريد وجه الله، فإِنما جهاده لنفسه لا للهِ تعالىٰ، وليس لله حاجة بجهاده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ذكره المفسرون، وهو قول ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، إخبارٌ عن المؤمنين المجاهدين الذين هم في أَعلى رتبة من البدار إِلى الله تبارك وتعالىٰ، أَشاد بهم عزَّ وجلَّ وبحالهم ليُقِيم بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة، وهم الذين فتنتهم الكفار ـ إِلى الحصول في هذه المرتبة، و«السَّيِّئَةُ»: الكفر وما اشتمل عليه، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأَعمال الصالحة واجتناب الكبائر، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ حذف مضاف تقديره: ثوابَ أَحْسن الذي كانوا يعملون[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ الآية. رُوي عن قتادة أَنها نزلت في سعد بن أَبي وقاص،

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «وهذا التقدير لا يسوغ؛ لأنه يقتضي أن أُولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم، وأما ثواب حَسَنها فمسكوت عنه، وهم يجزون ثواب الأحسن والحَسَن؛ إلا إذا أُخرجت [أحْسَن] عن بابها من التفضيل فإنه يسوغ ذلك».

وذلك أنَّه هاجر، فحلفت أُمُّه أَلاَّ تَسْتَظِل بِظِلٍّ حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد ﷺ، فَلَجَّ[١] هو في هجرته، ونزلت الآية[٢]. وقيل: بل نزلت في عياش بن أبي ربيعة، وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من هذا؛ إذ خدعه أبو جهل لعنة الله عليه وردَّه إلى أُمِّه... الحديث في كتاب السيرة[٣]. ولا مرية أَنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أَبويه في شأن الإسلام والهجرة، فكأَن القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأَبوين في مثل هذا الأَمر العظيم، ولما كان برُّ الوالدين وطاعتهما من الأُمور التي قررتها الشريعة وأكَّدتها، وكان من الأَمر القوي الملزم عندهم، قدم تعالىٰ على النهي عن طاعتهما في الشِّرك بالله قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، على معنى: إنا لا نحل عقوق الوالدين، لكنا لا نسلط ذلك على طاعة الله تعالىٰ، لا سيما في معنى الإيمان والكفر.

وقوله: ﴿حُسْناً﴾ يحتمل أَن ينتصب على المفعول، وفي ذلك تجوُّز، ويسهله كونه عامًّا لمعان، كما تقول: وصيتك خيراً، وأَوصيتك شرًّا، عبَّرتَ بذلك عن جملة ما قلتَ له، وَيُحَصِّن ذلك دون حرف الجرِّ كونُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ لأَن المعنى: ووصينا الإنسان بالحسن في فعله مع والديه، ونظير هذا قول الشاعر:

عَجِبْتُ مِـن دَهْمَـاءَ إِذْ تَشْكُـونَـا   وَمِـنْ أَبِـي دَهْمَـاءَ إِذْ يُـوصِينَـا
خَيْـراً بِهَـا كَـأَنَّنَـا جَـافُـونَـا[٤]

(١) لَجَّ في الأمر لجاجَةً: لازمه وأَبَى أن ينصرف عنه.

(٢) رُوي عن سعد رضي الله عنه أنه قال: «كُنتُ باراً بأُمِّي، فأَسْلَمْتُ، فقالت: لتدعنَّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى تموت فَتُعَيَّر بي، ويقال: يا قاتل أُمِّه، وبقيَتْ يوماً ويوماً، فقلْتُ: يا أُمَّاه، لو كانت لك مائةُ نفس، فخرجت نفساً نَفْساً ما تركت ديني هذا، فإن شِئْتِ فَكُلي، وإن شئْت فلا تأْكُلي، فلمَّا رأَت ذلك أَكَلَتْ، ونزلت: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآية. (أسباب النزول) للواحدي.

(٣) عيَّاش بن أَبي ربيعة هو أخو أَبي جهل لأمِّه، وقد أَسلم وهاجر مع عمر رضي الله عنه، وكانت أُمُّه شديدة الحُبِّ له، وحلفت على مثل ما حلفت عليه أُم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فتحيَّل عليه أبو جهل وأخوه الحارث، فشدَّا وثاقه حين خرج معهما من المدينة إلى أُمِّه قاصداً أن يراها، وجلده كل منهما مائة جلدة وردَّاه إلى أُمِّه... وذلك في خبر طويل في السيرة، ذكره الطبري، والواحدي.

(٤) استشهد الفراءُ بهذه الأبيات الثلاثة في معاني القرآن، قال: «والعرب تقول: أُوصيك به خيراً، وآمرك به خيراً، وكأن معناه: آمرك أن تفعل به... ثم تحذف (أَنْ) فتوصل الخير بالوصية وبالأمر، ثم ذكر الأبيات». ومثله قولُ الحطيئة يُوَصِّي ابنته بَرَّة:
=



ويحتمل أَن يكون المفعول الثاني في قوله: [بِوَالِدَيْهِ]، وينتصب [حُسْناً] بفعل مضمر تقديره: يحسن حسناً، وينتصب انتصاب المصدر، وقرأ عيسى والجحدري: [حَسَناً] بفتحتين، وقال الجحدري: في الإِمام مكتوب: «بِوَالِدَيْهِ إِحْساناً»، قال أَبو حاتم: يعني كالأَحقاف، وقال التغلبي: في مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [إِحْسَاناً] وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر.

ثم كرَّر تعالىٰ التمثيل بحالة المؤمنين ليحرِّكَ النفوسَ إِلى نيل مراتبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة، على معنى: الذين هم في نهاية الصلاح وأَبْعَدِ غاياتِه، وإِذا تحصَّل للمؤمنين هذا الحكم تحصل ثَمَرُه، وجزاؤُه هو الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الآية إِلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإِسلامهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما خرج كفار قريش إِلى بدر أَخرجوا مع أَنفسهم طائفة من هؤلاءِ، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أَصحابنا وأُكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾[1] الآية، قال: فكتب المسلمون لمن بقي بمكة هذه الآية، وأَلاَّ عُذْر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأَعطوهم الفتنة وردُّوهم إِلى مكة، فنزلت فيهم الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية[2]، فكتب المسلمون إِليهم بذلك فحزنوا ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[3]، فكتب المسلمون إِليهم بذلك، وأَن الله تعالىٰ قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا، فلحقهم المشركون

= وصَّيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْباً حُرّاً ... بالكَلْبِ خَيْراً وبالحَمَاةِ شَرّاً

وعلى هذا تكون الباءُ في قوله تبارك وتعالىٰ: [بِوَالِدَيْهِ]، وفي قول الشاعر الذي يعجب من دهماءَ ومن والدها: (بها)، وفي قول الحطيئة: (بالحماة وبالكلب) ظرفية بمعنى (في)، والتقدير في الآية الكريمة: «ووصينا الإنسان في أمر والديه بخير»، وقد وضح ابن عطية ذلك. وتأمل المفارقة في بيت الحطيئة حين يفضل الكلب على الحماة.

(١) من الآية(٩٧) من سورة (النساء).

(٢) هي آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها.

(٣) الآية (١١٠) من سورة (النَّحل).

فقاتلوهم، فنجا من نجا، وقُتل من قُتل(١).

وقال ابن زيد: نزل قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ في منافقين كفروا لمَّا أُوذوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: صعب عليه أذى الناس حين صدُّوه، وكان حقُّه ألاَّ يلتفت إليه، وأن يصبر عليه في جنب نجاته من عذاب الله تعالىٰ. ثم أزال تعالىٰ موضع تعلُّقهم ومغالطتهم إنْ جاءَ نَصر، ثم قرَّرهم على علم الله تعالىٰ بما في صدورهم، أيْ: لو كان يقيناً تامًّا وإسلاماً خالصاً لما توقفوا ساعة، ولركبوا كل هول إلى هجرتهم وراءَ نبيِّهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تفسيره على حدِّ ما تَقَدَّم في نظيره.

وهنا انتهى المدني من هذه السورة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

رُوي أَن قائل هذه المقالة الوليدُ بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش، قالوا لأَتباع النبي ﷺ: ادخلوا في أَمرنا، وأَقروا بآلهتنا واعبدوها، ونحن ليقيننا أَنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إِليه إِن كان في ذلك درك كما تزعمون أَنتم، وقولهم: [وَلْنَحْمِلْ] إِخبارٌ أَنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل، ولكنهم أَخرجوه في صيغة الأَمر لأَنها أَوجب وأَشدُّ تأَكداً في نفس السامع من المجازات، وهذا نحو قول الشاعر:

فقُلْـتُ ادْعِـي وأَدْعُ فَـإِنَّ أَنْـدَى … لِصَـوْتٍ أَنْ يُنَـادِيَ دَاعِيَـانِ(٢)

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سُنَنِه عن ابن عباس رضي الله عنهما، (الدر المنثور). هذا وقد سبق الاستشهاد به في سورة (النساء) عند تفسير الآية (٩٧).

(٢) البيت في (اللسان ـ ندى) ـ وهو لِدِثار بن شَيْبان النَّمَري، قال صاحب اللسان: «النَّدَى: بُعْد الصوت، =



ولكونه خبراً حسُن تكذيبهم فيه، فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن جميع ذلك باطلٌ، وأنهم لو فعلوه لم يُتحَمَّل عن أحد من هؤلاءِ المغترِّين بهم شيءٌ من خطاياه التي تختص به.

وقرأ الجمهور: (وَلْنَحْمِلْ) بجزم اللام، وقرأ عيسى ونوح القارىء: [وَلِنَحْمِلْ] بكسر اللام. وقرأ داود بن أبي هند: [مِنْ خَطَيِهِمْ] بكسر الياءِ وفتح الطَّاءِ[1]، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ: [مِنْ خَطِيئَاتِهِمْ] بكسر الطَّاءِ وهمزة وتاءٍ بعد الألف. وقال مجاهد: الحملُ هنا من الْحَمَالة لا من الْحَمْل على الظهر[2].

ثم أخبر تعالىٰ عن أُولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، أي: أثقالاً من كفرهم الذي يخترعونه ويتلبَّسون به، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد: ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم؛ فإنه يَلحق بكلِّ داعٍ إلى ضلالة كِفْلٌ منها حسب الحديث المشهور، «أيما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبع عليه فله مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً، وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة. . .» الحديث[3].

= وندَى الصوت: بُعْد مذهبه، وفُلانٌ أندى صوتاً من فُلان، أي: أبعَدَ مذهباً وأرفع صوتاً، وأنشد الأصمعي لِدِثار بن شَيْبَان النَّمَرِيِّ:

تَقُــولُ خَلِيلَتِــي لَمَّــا اشْتَكَيْنَــا ... سَيُــدْرِكُنَــا بَنِــي القَــوْمِ الْهِجَــانِ

فَقُلْــتُ ادْعِــي وأَدْعُ فَــإنَّ أَنْــدَى ... لِصَــوْتٍ أَنْ يُنَــادِيَ دَاعِيَــانِ»

وفي شرح الشواهد للعيني قال: تعليقاً على البيت: «قاله الأعشى أو الحطيئة فيما زَعَمَ ابن يعيش، أو ربيعة بن جُشَم فيما زعم الزمخشري، أو دِثار بن شيبان النَّمَرِيُّ فيما زعم ابن برِّي، وهو من الوافر، والشاهد في (وَأَدْعُوَ) حيث نصب الواوَ فيه بتقدير: وأَنْ أَدْعُوَ، ويروى: (وادْعُ) على الأمر بحذف اللام، إذ أصله: ولأدْعُ». اهـ.

وفي (معاني القرآن) للفراء: «[وَلْنَحْمِلْ] هو أَمْرٌ فيه تأويل جزاءٍ، وهو كثير في كلام العرب، قال الشاعر. . . فقلت ادْعِي وأَدْعُ. . . البيت ـ أراد: ولأدْعُ، كأنه قال: إنْ دعَوْتِ دعَوْتُ» اهـ.

(١) معنى كسر الياءِ في هذه القراءة هو تسهيل الهمزة، أي أن الأصل همزة سهلت فصارت شبيهة بالياءِ، وروي عن داود بن هند هذا فيما ذكر أبو الفضل الرازي أنه قرأ: ﴿من خطيئتهم﴾ بالإفراد.

(٢) يريد بالحَمَالة: تحمل المسؤولية والاضطلاع بها خيراً كانت أو شرّاً.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه، ولفظه: أن النبي ﷺ قال: «أَيُّما داعٍ دعا إلى هُدىً، فاتّبع عليه وعمل به، فله مثل أُجور الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، وأَيُّمَا داعٍ دعا إلى ضلالة فاتّبع عليها وعمل بها، فعليه مثل أوزاره الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً»، قال عون: وكان الحسن رضي الله عنه مما يقرأ عليها: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، (الدر المنثور).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنّما كانت مع أَثقالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه، فرّق بينها وبين أَثقالهم، ولم ينسبها إلى غيرهم، بل جعلها في رُتْبة أُخرى فقط، فهم فيها إنما يَزِرُون وِزر أَنفسهم، وقد يترتب حمل أَثقال الغير بما ورد عن النبي ﷺ: «فإن لم يبق للظالم أُخذ من سيئات المظلوم فاطرح فطُرح عليه»(١). وقوله تعالىٰ: [وَلَيُسْأَلُنَّ] على جهة التوبيخ والتَّقريع، لا على جهة الاستفهام والاستعلام، و[يَفْتَرُونَ] معناه: يختلقون من الكفر ودعْوى الصاحبة والولد وغير ذلك للهِ عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الآية. قصة فيها تسلية لمحمد ﷺ عمَّا تضمنته الآيات فيها من تعنُّت قومه، وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك، وفيها وعيدٌ لهم بتمثيل أَمرهم بأَمر قوم نوح، والواو في قوله: [وَلَقَدْ] عاطفةٌ جملةَ كلام على جملة كلام، والقَسَم فيها بعيد(٢). وقوله تعالىٰ: [أَرْسَلْنَا]، [فَلَبِثَ]، هذا العطف بالفاءِ يقتضي ظاهِرُه أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو، وقد يحتمل أَن تكون المدة المذكورة مدة إقامته، من لدن مولده إلى غرق قومه(٣)، وأَما على التأويل الأَول فاختُلف في سنِّه التي بُعث عندها ـ فقيل: أَربعون، وقيل: ثمانون، وقال عون ابن أَبي شدَّاد(٤): ثلاثمائة وخمسون، ولذلك يحتمل أَن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بِيَسير،

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم والظلم فإن الله يقول يوم القيامة: وعزَّتي لا يجيزني اليوم ظلم، ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيؤتى، فيتبعه من الحسنات مثل الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم، ثم يقوم بين يدي الرحمن، ثم يأمر المنادي ينادي: من كانت له تباعة أو ظُلامة عند فلان ابن فلان فهلم، فيقومون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا تبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول: خذوا من سيِّئاتهم فاحملوها عليه»، ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾.

(٢) يعني أن يكون المُقْسم به قد حذف، وبقي حرف القسم والجواب، وسبب البعد أن في ذلك حذفاً للمجرور وإبقاءً للجارّ، وحرف الجرّ لا يُعَلّق عن عمله، بل لا بد من ذكره.

(٣) قال أبو حيان: «ليس عندي محتملاً؛ لأن اللُّبْث متعقب بالفاءِ الدالة على التعقيب».

(٤) هو عون بن أبي شداد العَقِيلي ـ بفتح أوله ـ وقيل: العبدي: أبو مَعْمَر البصري، قال عنه في (تقريب التهذيب): «مقبول، من الخامسة».



وقد رُوي أنه عمّر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة[١]. وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط، وقد اختُلف في ذلك ـ فقالت فرقة: إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح، وقالت طائفة ـ هي الجمهور ـ: إنما غرقت المعمورة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو ظاهر الأمر؛ لاتخاذه السفينة، ولبعثه الطير ترتاد زوال الماءِ، ولغير ذلك من الدلائل، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال: كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض؟ فالوجه في ذلك أن يقال: إن اختصاص نَبيٍّ بأُمَّة ليس هو بألاَّ يهدي غيرها، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالىٰ، وإنما هو بألاَّ يأخذ بقتل غيرها، ولا يبث العبادة فيهم، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام، فلا محالة أنَّ دعاءَه إلى توحيد الله تعالىٰ قد كان بلغ الكل، فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم.

و[ٱلطُّوفَانُ]: العظيم الطَّامي، ويقال ذلك لكل طامٍ خرج عن العادة من ماءٍ أو نارٍ أو موت، ومنه قول الشاعر:

* أَفْنَاهُمُ طُوفَانُ مَوْت جارف *[٢]

وطوفان وزنه فُعلان بناءُ مبالغة من: طاف يطوف إذا عمَّ من كل جهة، ولكنه كثر استعماله في الماءِ خاصة، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ يريد: بالشِّرك.

---

(١) تساءَل بعض العلماء: ما فائدة الاستثناءِ في قوله: ﴿ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾، ولماذا لم يقل: «تسعمائة وخمسين»؟ وأجابوا عن ذلك بأمرين: الأول أن المراد تكثير العدد، وذكر الألف أفخم في اللفظ؛ لأنه رأس الأعداد. والثاني ـ وهو عن الزجاج ـ أن الاستثناءَ في كلام العرب يفيد التأكيد، فلو قلت: «جاء إخوتك إلا زيداً» فقد أكدت مجيءَ الجميع باستثنائك زيداً، ولم يأت الاستثناءُ في كلام العرب إلا قليل من كثير، ومن القبيح استثناءُ نصف الشيء، لا يجوز أن تقول: عندي دينارٌ إلا نصفه، ولكن تقول: عندي دينارٌ إلا دراهم.

(٢) هذا البيت من مشطور الرجز استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)؛ ويتفق مع هذا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾، قال: (الموت)، وفي اللسان «الطوفان: مصدر مثل الرُّجْحان والنُّقْصان، ولا حاجة به إلى أن يطلب له واحداً»، ونقل ابن سيدة عن الأخفش أن الطوفان جمع طوفانة، قال ابن سيدة: «والأخفش ثقة، وإذا حكى الثقة شيئاً لزم قبوله». و(جارف) من قولهم: جرف السيلُ الشيءَ: ذهب به كلِّه أو جُلِّه.



و﴿أصحاب السفينة﴾ تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم، وهم بَنُوه وقوم آمنوا، والضمير في قوله: [وَجَعَلْنَاهَا] يحتمل أن يعود على السفينة، و«الآيةُ» هنا العِبْرَةُ والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالىٰ في شدَّة بطشه، قال قتادة: أَبقاها آيةً على الجودي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يجوز أَن يكون [إِبْرَاهِيمَ] معطوفاً على [نُوحٍ]، ويجوز أَن يكون معطوفاً على الضمير في [أَنْجَيْنَاهُ]، ويجوز أَن ينصبه فعل تقديره: واذكر إِبراهيم. وهذه القصة أَيضاً تمثيل لقريش، وكان نمروذ وأَهل مدينته عَبَدَة أَصنام، فدعاهم إِبراهيم عليه السلام إِلى توحيد الله تعالىٰ وعبادته، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تخلقون إفكاً﴾، وقرأَ ابن الزُّبَيْر، وفُضَيْل[(١)]: [أَفِكاً] على وزن (فَعِل)، وهو مصدر كالكَذِب والضَّحِك ونحوه[(٢)]، واختلف في معنى [تَخْلُقُونَ] ـ فقيل: هو نحت الأَصنام وخلقها، سمَّاها إِفْكاً توسُّعاً من حيث يُفترى بها الإِفك في أَنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أَمر الأَوثان، وغير ذلك. وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي، وعَوْن الْعَقِيلي، وقتادة[(٣)]، وابن أَبي ليلى: [وتخلقون إفكاً] بفتح الخاءِ وشدِّ اللام وفتحها، و«الإِفْكُ» ـ على هذه القراءَة ـ الكذبُ.

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأَمر يفهمه عامَّتهم وخاصَّتهم، وهو أَمر الرِّزق، فقرَّر أَن الأَصنام لا ترزق، وأَمْر الخير عند الله تبارك وتعالىٰ، وخصَّص الرزق لمكانته من الخلق، فهو خير يدل على جنسه كلِّه. ويقال: شكرْتُ لك، وشكرتُك، بمعنى واحد. ثم أَخبرهم بالمعاد والحشْر إِليه.

---

(١) هو فُضيل بن زرقان.

(٢) قال الزمخشري: «ويحتمل أن يكون صفة على فَعِل، أي: خَلْقاً أَفِكاً، أي: ذا إفك وباطل».

(٣) في البحر المحيط: (عُبادة) بدلاً من قتادة، وهو أقرب إلى الصواب.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ الآية. . . وعيدٌ، أَي: قد كذب غيركم وعُذِّب، وإِنما على الرسول البلاغ، وكلُّ أَحد ـ مع ذلك ـ مأخوذ بعمله.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ: [أو لم تروا] بالتاءِ، وقرأَ الباقون: ﴿أو لم يروا﴾ بالياءِ، الأُولى على المخاطبة، والثانية على الحكاية عن الغائب، وقرأَ الجمهور: (يُبْدِيءُ)، وقرأَ الزُّبَير، وعيسى، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يَبْدَأُ][1].

وهذه الإِحالات على ما يظهر على الإِخبار من إِحياء الأَرض والنبات وإِعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر، ويحتمل أَن يريد: أَو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أَن يعيد الله تبارك وتعالىٰ الأَجسام بعد الموت، وهذا تأْويل قتادة. وقال الربيع ابن أَنس: المعنى: كيف يبدأُ خلقَ الإِنسان ثم يعيده إِلى أَحوالٍ أُخر حتَّى إِلى التراب. وقال مقاتل: الخلق في هذه الآية الليلُ والنَّهار.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ـ ويحتمل أَن يكون محمداً إِن كان في قصة إِبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين ـ بأَن يأْمرهم ـ على جهة الاحتجاج ـ بالسير في الأَرض، والنظر في كل قطر، وفي كل أُمَّة قديماً وحديثاً، فإِن ذلك يُوجد أَلاَّ خالق إِلاَّ الله تبارك وتعالىٰ، ولا مبتدئاً بالخلق سواه، ثم ساق ـ على جهة الخبر ـ أَن الله تعالىٰ هو المبتديءُ لنشأَة القيام من القبور[2].

---

(١) قراءة الجمهور [يُبْدِيء] من (أَبْدَأَ)، والقراءة الثانية مضارع (بَدَأَ). وقرأَ الزُّهري: (يَبْدَا) بغير همزة مُحَقَّقة، بل هي مُخَفَّفَةٌ كما قال ابن جني.

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿أو لم يروا. . .﴾ الآية صرَّح الله تعالىٰ باسمه في قوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، ثم أَضمر في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وفي الآية التي بعدها عكس، فأَضمر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، ثم أَبرزه في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه تبارك وتعالىٰ، ودلَّ إِبرازه في الآية الثانية على تفخيم النشأة الآخرة، وتعظيم أَمرها، وتقرير وجودها؛ إذ كان نزاع =

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [ٱلنَّشَاءَةَ] على وزن (ٱلْفَعَالَة)، وهي قراءة الأعرج، وهذا كما تقول: رأفةٌ ورآفةٌ، وقرأ الباقون: (ٱلنَّشْأَة) على وزن (الفَعْلَة)، وقرأ الزهري: [النَّشَّة] بشين مشددة في جميع القرآن. والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه، وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى: يُيَسِّر من يشاءُ لأعمالِ مَنْ حقَّ عليه العذابُ، ويُيَسِّر من يشاءُ لأعمالِ مَنْ سبقت له السعادة، فيتعلق الثوابُ والعقاب بالاكتساب المقترن بالاختراع الذي لله تبارك وتعالىٰ في أعمال العبيد. ثم أخبر تعالىٰ بأنه إليه المنقلب، وأن البَشَر ليس بمعجز ولا مُفْلت في الأرض ولا في السماءِ. ويحتمل أن يريد بالسماءِ الهواءَ عُلُوًّا، أي: ليس للإنسان حيلة صَعَدَ أَوْ نزَلَ، حكى نحوه الزهراوي. ويحتمل أن يريد السماءَ المعروفة، أي: لستم بمعجزين في الأرض ولو كنتم في السماءِ، وقال ابن زيد: معناه: ولا مَنْ في السماءِ مُعْجزٌ إن عَصَى، ونظَّروه ـ على هذا ـ بقول حسَّان بن ثابت:

فَمَــنْ يَهجُــو رَسُــولَ اللهِ مِنكُــمْ   وَيَمْــدَحُــهُ وَيَنْصُــرُهُ سَــوَاءُ ؟[1]

والتأويل الأوسط أحسنها، ونحوه قول الأعشى:

= الكفار فيها، فكأنه قيل: ثُمَّ ذلك الذي بَدَأَ الخَلْق هو الذي يُنْشِىءُ النشأة الآخرة: فكأن التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه. ذكر ذلك أبو حيان في البحر.

(١) البيت من قصيدته التي قالها يهجو بها أبا سفيان قبل فتح مكة، وقد رُوي: (فَمَنْ يَهْجو) في الديوان، ورُوي في ابن هشام، وأمالي المرتضى كما هنا: (أَمَنْ يَهْجُو). والبيت من شواهد الفراءِ في معاني القرآن، قال: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول القائل: وكيف وصفهم أنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء وليسوا من أهل السماء؟ فالمعنى والله أعلم: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا من في السماء بمعجز، وهو من غامض العربية، للضمير الذي لم يظهر في الثاني، ومثله قول حسَّان: فمن يهجو... البيت، أراد: ومن ينصره ويمدحه، فأضمر (مَنْ)، وقد يقع في وهم السَّامع أن المدح والنصر لـ (مَنْ) هذه الظَّاهرة، ومثله في الكلام: أكرم من أتاك وأتى أباك»، و«أكرم من أتاك ولم يأت زيداً»، تريد: «ومن لم يأت زيداً» اهـ.



وَلَوْ كُنْتَ فِي جُبٍّ ثمانِينَ قَامَةً ... وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ
لَيَسْتَدْرِجَنْكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهِرَّهُ ... وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْجَمِ[1]

والوَلِيُّ أَخَصُّ من النصير. وقرأ يحيى بن القعقاع، وابن الحرث[2]: [يَيِسُوا] بغير همز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذمَّ الله تعالىٰ قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قرأ الجمهور: [جَوَابَ] بالنصب، وقرأ الحسن: [جَوَابُ] بالرفع، وكذلك سالم

(١) البيتان من قصيدة له قالها يهجو عُمَيْر بن عبد الله بن المنذر بن عبدان حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه، والرواية في الديوان: (لئن كنتَ في جُبٍّ)، وهو جواب قسم في أبيات سابقة يحلف فيه بالراقصات من النِّياق في الطريق إلى منى، بأنه لو نزل في باطن الأرض إلى أشد الأعماق، ولو صعد في الفضاء، إلى أقصى ما يمكن فلن يفلت من هجائه. (واستدرجه القول) معناه: صيَّره إلى أن يدرج، يقال: استدْرَجَه بمعنى: أدناه منه على التدريج فتدرَّج هو، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والشاعر يريد هنا أنه سيأخذه قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسب. وفي رواية: (لَيَعْتَورَنْكَ القول) بمعنى: ليأخذنك من كل جانب ويتداولك، و(حَتَّى تَهِرَّه) أي: حتَّى تكرَهُه، ويمكن أن يكون (تَهُرَّه) بالضم من الهُرَارِ، يقال: هَرَّ يَهُرُّ هُرَاراً: أطلقه من بطنه حتَّى مات. و(لَسْتُ بِمُلْجَم) أي: ليس في فَمِي لِجَامٌ يمنعني من هجائك، بل أنا قادر على ذلك متمكن منه، والشاهد أن الشاعر استعمل السماءَ هنا بمعنى الهواءِ أو الفضاء العالي حين قال له: لئن اختفيت في الأرض أو صعدت في السماء فلن تفلت من هجائي.

(٢) في «البحر المحيط» أنها قراءة الذماري وأبي جعفر.



الأَفطس[(١)]. وأَخبر الله تعالىٰ عنهم أنهم لمَّا بيَّن إِبراهيم عليه السلام الحُجَجَ، وأَوضح أَمر الدين، رجعوا إِلى الغلبة، وعدلوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم به قِبَل، فتآمروا على قتله وتحريقه بالنَّار، وأَنفذوا أَمر تحريقه حسبما قد أُفيض في غير هذا الموضع، وأَنجاه الله تعالىٰ من نارهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً، قال كعب الأَحبار: لم يحرق بالنار إِلاَّ الحَبْل الذي أَوثقوه به، وجعل ذلك آية وعِبْرة، ودليلاً على وحدانيته لمن شرح صدره ويَسَّره للإِيمان، أَي: هذا الصنف ينتفع بالآية، والكفار هي عليهم عمًى وإِن كانت في نفسها آيةً للكل.

ثم ذكر تعالىٰ أَن إِبراهيم قَرَّرهم على أَن اتخاذهم الأَوثان والأَنصاب إِنما كان اتِّباعاً من بعضهم لبعض، وحِفْظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية، وأَنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون؛ لأَن توادّهم كان على غير تقوى، و﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(٢)].

وقرأ عاصم ـ في رواية الأَعمش عن أَبي بكر عنه ـ: [مَوَدَّةُ] بالرفع [بَيْنِكُمْ] بالخفض، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وأَبو عمرو ـ في رواية أَبي زيد ـ: [مودةً بينكم] بالتنوين والنَّصْبِ، ونصب (بَيْنَ)[(٣)]، أَما قراءَة رفع [مَوَدّة] فوجهُهَا أَن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي قوله: [أَتَّخَذْتُمْ] ضمير عائد على (الَّذي)، وهذا الضمير هو مفعول أَول لِـ [أَتَّخَذْتُمْ]، و[أَوْثاناً] مفعولٌ ثانٍ، و[مَوَدَّةُ] خبر [إِنَّ] في قراءَة من نَوَّنَهَا، وفي قراءَة من لم ينونها. ويجوز أَن تكون [مَا] كافَّة، ولا يكون في قوله: [أَتَّخَذْتُمْ] ضمير، ويكون قوله: [أَوْثاناً] مفعولاً بقوله: [أَتَّخَذْتُمْ]، ثُمَّ يقْتصر عليه، ويُقَدَّر الثاني: «آلِهَةً» أَو نحوه، كما يقدر في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾ أَي: «إِلـٰهاً» ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[(٤)]، ويكون قوله: [مَوَدَّةُ] خبر ابتداءٍ

---

(١) هو سالم بن عجلان الأفطس، الأموي، مولاهم، أبو محمد الحرَّاني، ثقة، رمي بالإرجاء، من السادسة، قتل صبراً سنة اثنتين وثلاثين للهجرة. (تقريب التهذيب).

(٢) الآية (٦٧) من سورة (الزُّخرف).

(٣) هناك قراءات أُخرى كثيرة لا تخرج عن رفع (مَوَدَّة) أو نصبها منونة وغير منونة، مع النصب في (بَيْنَ) أو الخفض.

(٤) من الآية (١٥٢) من سورة (الأعراف).

تقديره: «هِيَ مَوَدَّةٌ»، وفي هذه التأويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأَوثان مودة، أَو يكون ذلك على حذف مضاف.

وأَمَّا من نصب [مَوَدَّةَ] فعلى أَن [مَا] كافة، وعلى خُلُوِّ [ٱتَّخَذْتُمْ] من الضمير، والاقتصار على المفعول الواحد كما تقدم، ويكون نصب «المودَّة» على المفعول من أَجله.

ومن أَضاف «المودَّة» إلى «الْبَيْنِ» في القراءَتيْن بالنصب والرفع فقد تجوَّز في ذلك وأَجرى الظرف مجرى الأَسماءِ، ومن نصب [بَيْنَكُمْ] في القراءَتَيْن ـ النصب والرَّفع ـ في [مَوَدَّة] فكذلك يحتمل أَن ينتصب انتصاب الظروف، ويكون معلقاً بـ [مَوَدَّة]، وكذلك ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ ظرفٌ أَيضاً متعلق بـ [مَوَدَّة]، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من حيث افترق الزمان والمكان، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك، تقول: «رأَيت زيداً أَمس في السوق»، ولا تقول: «رأَيت زيداً أَمس البارحة»؛ إلاَّ أَن يكون أَحد الظرفين جزءًا للآخر، تقول: «رأَيت زيداً أَمْس عشية». ويجوز أَن ينتصب [بَيْنَكُمْ] على أَنه صفة «المودَّة»(١)، وهنا محذوف مقدَّر، تقديره: «مودَّة ثابتة بينكم»، وفي الظرف ضمير عائد على [مَوَدَّة]، لما حذفت «ثابتة» استقر الضمير في الظرف نفسه. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في [بَيْنِكُمْ] بعد حذف «ثابتة»، وهذه الحال متعلقة بـ [مَوَدَّة]، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأَن معنى الفعل فيها، وإِن وصفت فلا يمتنع أَن يعمل معنى الفعل إلاَّ في المفعول، فأَمَّا في الظرف وفي الحال فيعمل، قال مكيٌّ: ويجوز أَن يكون ﴿في الحياة﴾ صفة ثانية لـ [مَوَدَّة]، ويكون فيها مقدر «مستقرة»، وفيها ضمير ثانٍ عائد إِلى [مَوَدَّة]، فالتقدير ـ على هذا ـ مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يكون قوله: [مَوَدَّةَ] في قراءَة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله: [ٱتَّخَذْتُمْ]، ويكون في ذلك اتساعٌ، فتأَمله. وفي مصحف أُبيٍّ: [مَوَدَّة بَيْنَهُمْ] بالهاءِ، وفي مصحف ابن مسعود: [إِنَّما مَوَدَّة بَيْنِكُمْ].

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وهو لا يجوز؛ لأن المصدر إذا وُصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل»، وحجة ابن عطية ومن وافقه أنه يتوسع في الظرف ما لا يتوسع في غيره كالمفعول مثلاً.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[آمَنَ] معناه: صدَّق، وهو فعل يتعدى بالباءِ وباللام، والقائل ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام، قاله قتادة، والنَّخَعي. وقالت فرقة: هو لوط عليه السلام.

ومما صحَّ من القصص أَن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوثى» وهي في سواد الكوفة من أَرض بابل إلى بلاد الشام، وفلسطين وغيرها، قال ابن جريج: هاجرا إلى حرَّان، ثم أُمرا بعْدُ إلى الشام، وفي هذه الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم، واعتراها أَمر الملِك. و«المُهَاجر»: النازع عن الأَمر، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضى الله تعالىٰ، وقد ذهب بهذا الاسم أَصحاب محمد ﷺ قبل الفتح. وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مع الهجرة إِليه صفتان بليغتان تقتضي[1] استحقاق التوكُّل عليه. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ حذف مضاف، تقديره: إِلى رضى رَبِّي، أَو نحو هذا.

وإِسحاق بن إِبراهيم هو الذي بُشِّر به، وبُشِّر بيعقوب من ورائه، وهو ولد إِسحاق، و[ٱلْكِتَاب] هو اسم جنس، أَي: جعل الله تعالىٰ في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزَّلة: التوراة والإِنجيل والزبور والفرقان، وعيسى عليه السلام من ذريَّته، وقوله: ﴿أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يريد: في حياته بحيث أَدرك ذلك وسُرَّ به، والأَجر الذي آتاه الله تعالىٰ العافية من النار، ومن الملِك الجائر، والعمل الصالح، والثناءُ الحسن. قاله مجاهد. وأَنَّ كل أُمَّة تتولاَّه، قاله ابن جريج. والولد الذي قرَّت به العين بحسب طاعة الله تعالىٰ، قاله الحسن. ثمَّ أَخبر عنه أَنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله تبارك وتعالىٰ، وفازوا برحمته وكرامته العليا.

وقوله تعالىٰ: [وَلُوطاً] نصب بفعل مضمر، تقديره: واذكر لوطا[2]، و[ٱلْفَاحِشَةَ]:

---

(١) لعله أراد: تقتضي كل منهما...

(٢) قال الكسائي: «ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾: أَنجينا لوطاً، أو أرسلنا لوطاً». قال=



إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

تقدم ذكر القراءَات في [أَئِنَّكُمْ]، واختلف الناسُ في «قَطْع السبيل» المشار إِليه هنا ـ فقالت فرقة: كان قطْع الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة، فكانوا يحيفون. وقالت فرقة: بل أَرَادَ قَطْعَ سبيل النسل في ترك النساءِ وإِتيان الرجال. وقالت فرقة: أَراد أَنهم بفَتْح الأُحدوثة عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها. و«النَّادي»: المجلس الذي يجتمع الناسُ فيه، وهو اسم جنس؛ لأَن الأَندية في المدن كثيرة، كأَنه قال: وتأْتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم، واختلف الناسُ في [الْمُنْكَرَ] ـ فقالت فرقة: كانوا يخذفون[1] الناس بالحصى، ويستخفُّون بالغريب والخاطر عليهم، وروته أُم هانىء عن النبي ﷺ[2]، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءَة، وقال مجاهد، ومنصور: كانوا يأْتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً، وقال القاسم بن محمد: منكرهم أَنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد أَيضاً: كان من أَمرهم لعب الحمام، وتطريف الأَصابع

= القرطبي: وهذا الوجه أَحبُّ إِليَّ.

(١) (خَذَف): بالخاء والذال المعجمتين ـ هو الرَّمْيُ بالحصى أو النواة تأخذها بين إصبعيك وتَرْمي بها، أو تَتَّخذ مِخْذَفَةً من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة. وأما (حَذَف) بالحاء المهملة فهو يستعمل في الرمي والضرب بالعصا.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والطبريُّ وحسَّنه، والسيوطي في الدّر المنثور، وقال: أَخرجه ـ غير السابقين ـ الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن المنذر، والشاشي، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي وغيرهم، ولفظه كما أثبته القرطبي: قالت أُم هانىء: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، قال: «كانوا يخذفون من يمُرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». وقد زاد من رواته: النحاس، والثعلبي، والمهدوي، والماوردي، والطيالسي.

بالحناءِ، والصفير، والحذف، ونبذ الحياءِ في جميع أُمورهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد توجد هذه الأَشياءُ في بعض عُصاة أُمة محمد ﷺ، فالتناهي واجب.

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إِلى التكذيب واللَّجاج، أَي: ائتنا بالعذاب، فإِن ذلك لا يكون، ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إِلاَّ وهم مصممون على اعتقاد كذبه(١)، وليس يصح في الفطرة أَن يكون معاند يقول هذا، [ثم استنصر لوط عليه السلام ربَّه، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم](٢)، فجاءُوا إِبراهيم عليه السلام أَولاً مبشرين بإِسحاق، ومبشرين بنصرة لوط على قومه، وكان لقاؤُهم لإِبراهيم على الصورة التي بينت في غير هذا الموضع، فلفظة «الْبُشْرَى» ـ في هذا الموضع ـ تتضمن أَمر إِسحاق ونصرة لوط عليهما السلام، فلما أخبروه بإِهلاك القرية على ظلمهم أَشفق إِبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام، فعارضهم بحسب ما يأْتي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أَن إِبراهيم عليه السلام لمَّا علِم مِنْ قِبَل الملائكة أَن قوم لوط يُعذَّبون أَشفق على المؤمنين فجادل الملائكة، وقال: أَرأَيتم إِن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أَتتركونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك، فجعل ينحدر حتى انتهى إِلى عشرة أَبيات، فقالت له الملائكة: ليس فيها عشرة، ولا خمسة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، فحينئذ قال إِبراهيم عليه السلام: إِن فيها لوطاً، فراجعوه حينئذ بأَنا نحن أَعلم بمن

---

(١) في الأصل «اعتقاد كذبهم»، والمعنى لا يستقيم إلا بما أثبتناه.

(٢) ما بين العلامتين زيادة غير موجودة بالأصل ويقتضيها التعبير، وقد نقلناها عن القرطبي الذي نقل بدوره عن ابن عطية كل كلامه في هذا المقام.



فيها، أَي: لا تخف أَن يقع حيف على مؤمن.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: (لَنُنَجِّيَنَّه) بفتح النون الوسطى وشد الجيم، و(مُنَجُّوكَ) بفتح النون وشدِّ الجيم[1]، وقرأَ حمزة، والكسائي: [لَنُنْجيَنَّه] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأَ ابن كثير، وعاصم في رواية أَبي بكر: [لَنُنَجِّيَنَّهُ] بالتشديد، و[مُنْجُوكَ] بالتخفيف، وقرأَت فرقة: [لَنُنَجِّيَنْهُ] بسكون النون الأَخيرة من الكلمة، وهذا إنما يجيءُ على أَنه خفف النون المشددة وهو يريدها.

وامرأَة لوط هذه كانت كافرة، تنبه على أَضيافه، و«الْغَابر»: الباقي، ومعناه: من الغابرين في العذاب، وقالت فرقة: ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَي: ممَّن غَبَر وبَقِيَ من الناس وعَسَى في كفره[2]، والضمير في [بِهِمْ] في الموضعين عائد على الأَضياف الرُّسل، وذلك بخوفه من قومه عليهم، فلما أَخبروه بما هم فيه فُرِّج عنه. وقرأَ عامة القراءِ: (سِيءَ) بكسر السين، وقرأَ عيسى وطلحة بضمها، و«الرِّجْزُ»: العذاب، وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أَي: عذابهم بسبب فسقهم، وكذلك كل أُمَّةٍ عذَّبها الله فإنما عذَّبها على الفسق والمعصية، ولكن بأَن يقترن ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة. وقرأَ أَبو حيوة، والأَعمش: [يَفْسِقُونَ] بكسر السِّين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ﴾، أَي: من خبرها وما بقي من آثارها، فـ[مِنْ] لابتداءِ الغاية، ويصح أَن تكون للتبعيض، على أَن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها، والآية موقع العبرة، وعلامة القدرة، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالىٰ.

وقرأَ جمهور القراءِ: (مُنْزِلُونَ) بتخفيف الزاي، وقرأَ ابن عامر: [مُنَزِّلُونَ] بشد الزَّاي، وهي قراءَة الحسن وعاصم ـ بخلاف عنهما ـ، وقرأَ الأَعمش: الحسن وعاصم ـ بخلاف عنهما ـ، وقرأَ الأَعمش: [إِنَّا مُرْسِلُونَ] بدل [مُنْزِلُونَ]، وقرأَ ابن محيصن: [رُجْزاً] بضم الراءِ.

---

(١) وهي قراءة عاصم في رواية حفص عنه.
(٢) يقال: عَسَى في كفره: كبر فيه وأَسَنَّ. والمصدر: عَسْواً وعُسُوّاً وعَسَاءً وعُسِيّاً، (المعجم الوسيط).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

نصب [شُعَيْباً] بفعل مضمر يحسن مع التقدير: وبعثنا أو أرسلنا، فأمرَ شُعيبٌ عليه السلام بعبادة الله تعالىٰ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، ومع الإيمان به يصح رجاؤه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا. و[تَعْثَوا] معناه: تفسدون، يقال: عَثَا يَعْثُو، وعاثَ يَعيثُ، وعَثِيَ يَعْثَى إذا أفسد. وأَهْلُ مَدْيَن: قومُ شعيب، وهذا على أنها اسم البلدة، وقيل: مَدْيَنُ: اسم القبيلة. و«أَصحاب الأَيْكةِ» غيرُهم، وقيل: هم بعضهم ومنهم، وذلك لأن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة. و[ٱلرَّجْفَةُ]: ميد الأرض بهم، وزلزلتها عليهم، وتداعيها بهم، وهذا نحو من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و«الجُثُومُ» ـ في هذا الموضع ـ تشبيه، أي: كان همودُهُم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان، ومنه قول لبيد:

فَغَدَوْتُ في غَلَسِ الظَّلَامِ وطَيْرُهُ ... عُصَبٌ على خَضِلِ الْعِضَاهِ جُثُومُ[1]

وقوله: [وَعَاداً] منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر عاداً، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

وقرأ: [وَثَمُوداً] عاصم[3]، وأبو عمرو، وابن وثاب. وقرأ: (وَثَمُودَ) بغير تنوين

---

(١) البيت من قصيدة قالها لبيد بن ربيعة في أوائل حياته الشعرية، ولما سمعها النابغة قال له: أنت أشعر قيس، أو قال: هوازن كلها، وهي من الكامل، والرواية في الديوان:

قَدْ قُدْتُ في غَلَسِ الظَّلامِ وَطَيْرُهُ ... عُصَبٌ على فَنَنِ العِضَاهِ جُثُومُ

ويروى: على خُصَل، وغَلَسُ الظَّلام: أَوَّلُ الصبح، والفَنَنُ: الغُصْنُ، والخَضِلُ: المُبْتَلُّ بالنَّدى، والعِضاهُ: كلُّ شجر له شوك صَغُر أو كَبُر، والواحدة: عِضَاهَةٌ، وجُثُومٌ: واقعةٌ على الشجر في سُكون، وهو موضع الشاهد هنا.

(٢) من الآية رقم (٣) من هذه السورة.

(٣) الذي في البحر أن قراءة عاصم [ثَمُودَ] بغير تنوين، ولعل سبب الاختلاف أن قراءة عاصم رويت من طريقين: طريق حفص، وطريق أبي بكر.



أَبو جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ بالخفض فيهما والتنوين(١).

ثم دلَّ عزَّ وجلَّ على ما تعطيه العبرة من بقايا مساكنهم ورسوم منازلهم ودُنُوِّ آثارهم. وقرأ الأعمش: [وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ] دون [مِنْ]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ عطف جملة من الكلام على جملة، و[ٱلسَّبِيل] هي طريق الإِيمان بالله تعالىٰ ورسله، ومنهج النجاة من النَّار، وقوله: [مُسْتَبْصِرِينَ]، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: لهم بصيرة في كفرهم، وإِعجابٌ به، وإِصرارٌ عليه، فذمَّهُم بذلك. وقيل: لهم بصيرة في أَن الرسالة والآيات حق، ولكن كانوا ـ مع ذلك ـ يكفرون عناداً، ويردُّهم الضلال إِلى مجاهله ومتالفه، فيجري هذا مجرى قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٢). وتزيينُ الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتَزْيينُ الله تعالىٰ الشيءَ هو بالاختراع، وخَلْقِ محبته والتَّلبُّس به في نفس العبد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

نصب [قَارُونَ] إِمَّا بفعل مضمر تقديره: اذكر، وإِمَّا بالعطف على ما تقدم، وقارون من بني إِسرائيل، وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام، وفرعون مشهور، وهامان وزيره، وهو من القبط. و«البيِّنَات»: المعجزات والآيات الواضحة، و[سَابِقِينَ] معناه: مفلتين من أَخْذنا وعقابنا، وقيل: معناه: سابقين من أَوليائنا، وقيل: معناه: سابقين الأُمم إِلى الكفر، أَي: قد كانت تلك عادة الأُمم مع الرُّسل.

---

(١) هذه القراءة تراعي العطف على (مَدْينَ) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، والتقدير: وأرسلنا إِلى عادٍ وثمودٍ.

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل).



و«الَّذين أُرسل عليهم الحاصِبُ» ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يدخل قوم عادٍ في الحاصب؛ لأَن تلك الريح لا بد أَنَّها كانت تحصبهم بأُمور مؤذية. و«الْحَاصِبُ»: هو العارض من ريح أَو سحاب أَو رمي بشيءٍ، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شمالَ الشَّام تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كنديف القُطْنِ مَنْثُورِ[1]

ومنه قول الأَخطل:

ترْمِي الْعِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا ... حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جُفَالاَ[2]

و«الَّذين أَخذتهم الصَّيْحة» قومُ ثمود، قاله ابن عباس، وقال قتادة: هم قوم شعيب، و«الْخَسْفُ» كان بقارون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون أَصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب، و«الْغَرَقُ» كان في قوم نوح، وبه فسَّر ابن عباس، وفي فرعون وحزبه، وبه فسَّر قتادة.

وظُلْمهم أَنْفُسَهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها، وقدم المفعول على

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك، ويهجو يزيد بن المهلَّب، وقبله يقول:

إِلَيْكَ مِنْ نَفَقِ الدَّهْنا ومَعْقُلَةٍ ... خاضَتْ بِنَا اللَّيْلَ أَمْثَالُ الْقَرَاقِيرِ

والقراقير: جمع قرقور وهي السفينة الطويلة، يشبه بها النياق التي خاضت بهم الليل مستقبلين شمال الشام إلى الممدوح، والحاصب: الريح الشديدة تحمل الحصباءَ، ونديف القطن هو القطن المندوف أي الذي ضرب بالمندف وهو خشبة معينة بخيط متين يستعملها النداف في ضرب القطن لِيَرِقَّ. والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن على أن الحاصب هو العارض من ريح.

(٢) قال الأخطل هذا البيت من قصيدة يهجو بها جريراً، ويفتخر على قيس، وقبله يقول:

ولَقَدْ عَلِمْتُ إذا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ ... هَدَجَ الرِّئالِ تَكُبُّهُنَّ شَمَالا

والعِشار: جمع عشراءَ من الإبل، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر وهي حامل، وتروَّحت: عادت إلى حظائرها في الرواح وهو العودة من المرعى، والهَوْدَج: مَشْيٌ في ارتعاش، أو عَدْو متقارب، والرِّئال: جمع رأل وهو ولد النعامة، وتكبُّهن: تدفَعُهُنَّ، والعضاه: كل شجر له شوك صغيراً كان أو كبيراً، أو الشجرة واسعة الظلِّ، والمفرد: عضاهة. والجُفَالُ: ما تراكم من الثلج وتراكب، والشاهد في البيت مثله في البيت الذي قبله.



[يَظْلِمُونَ] للاهتمام، وهذا نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[١] وغيره، وحكى الطبري أن رجفة قوم شعيب كانت صيحة أرجفتهم في هذا مع ثمود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

شبه تبارك وتعالىٰ الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أُمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد، وأمرها كله ضعيف متى مسَّته أدنى هامة أو دهمته، وكذلك أمر أُولئك وسعيهم مضمحلٌّ لا قوة له ولا معتمد، ومن حديث ذكره النقاش: «العنكبوت شيطان مسخه الله تعالىٰ فاقتلوه»[٢]، ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: «طهِّروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر»، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أن هذا مثلهم، وأن حالهم ونسبتهم من الحقِّ هذه الحالة[٣].

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الفاتحة). والواضح أن التقديم في آية الفاتحة للتخصيص، فيكون المعنى: نخصك وحدك بالعبادة.

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد بلفظ «العنكبوت شيطان مسخها الله فمن وجدها فليقتلها»، (فتح القدير، والدرّ المنثور).

(٣) يرى الزمخشري أن الغرض من التشبيه هو تشبيه المتَّخَذ بالبيت، لا تشبيه المتَّخِذ بالعنكبوت، وعلَّق عليه أبو حيان بقوله: والذي يظهر هو تشبيه المتَّخِذ من دون اللهِ وَلِيّاً بالعنكبوت المُتَّخِذَة بيتاً، أي: فلا اعتماد للمتَّخِذ على وليِّه من دون الله، كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسُكنى، بل لو دخلت فيه خرقته، وقال الفراءُ: هو مثل ضربه الله لمن اتَّخَذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا برداً، وقال: ولا يحسن الوقف على [العنكبوت]؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيءٍ شُبِّهَت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به، وجوَّز الأخفش الوقوف على [العنكبوت]، وغلَّطه ابن الأنباري، قال: «لأن [اتَّخَذَتْ] صلة لـ [الْعَنكَبُوتِ]، كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول». والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وتُجمع على عناكب وعنكبوتات، وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسيجاً رقيقاً، وقد يقال لها عَنْكَبَات، ومنه قول الشاعر:

كَـأَنَّمَـا يَسْقُـطُ مِـن لُغَـامِهَـا ... بَيْـتُ عَنْكَبَـاتٍ عَلَـى زِمَـامِهَـا



قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قرأ أَبو عمرو، وسلام: [يعلم ما] بالإدغام، وقرأ عامة القراءِ بالفكِّ، وقرأ الجمهور: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأ أَبو عمرو، وعاصم ـ بخلاف ـ [يَدْعُونَ] بالياءِ من تحت على الغيبة. فأَمَّا موضع [ما] من الإعراب، فقيل: معناه أَن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأَشياءِ أَن حالهم هذه، وأَنَّهم أَمْرٌ لا قَدْر له، وقيل: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ إخبارٌ تامٌّ، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ متصل به، واعترض بين الكلامين ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾، وذلك على هذا النحو من النظر، ويحتمل معنيين: أَحدهما أَن تكون [ما] نافية، أَي: لستم تدعون شيئاً له بال ولا قَدْر، فيصلح أَن يُسَمَّى شيئاً، وفي هذا تعليق [يَعْلَمُ]، وفيه نظر، والثاني أَن تكون [ما] استفهاماً، كأَنه قرَّر ـ على جهة التوبيخ ـ على هذا المعبود من جميع الأَشياءِ ما هو إِذْ لم يكن الله تعالىٰ، أَي: ليس لهم ـ على هذا التقدير ـ مقنع إليه، فـ [مِنْ] على القول الأَول والثالث للتبعيض المجرد، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد، ومعناها التأكيد، وقال أَبو علي: [ما] استفهام نصب بـ [يَدْعُونَ]، ولا يجوز نصبها بـ [يَعْلَمُ]، والجملة التي هي منها في موضع نصب بـ [يَعْلَمُ]، والتقدير: إن الله تعالىٰ يعلم أَوثاناً تدعون من دونه أَو غيرها لا يخفى ذلك عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه، و[نَضْرِبُهَا] مأخوذ من الضَّرْب، أَي النوع، كما تقول: «هذان من ضَرْب واحد»، «وهذا ضرْبُ هذا» أَي قرينه وشبيهه، فكأَن «ضَرْب الْمَثَل» هو أَن تجعل الأَمر المُمَثَّل ضريب. وباقي الآية بيِّن.

وقال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾: «العاقِلُ من عَقَل عن الله تعالىٰ، وعمل بطاعته، وانتهى عن معصيته».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

نبَّه في ذِكْر خلْق السموات والأَرض على أَمر يُوقع الذِّهن على صِغَر قدر الأَوثانِ

وكُلِّ معبود من دون الله تعالىٰ، وقوله سبحانه: [بِالْحَقِّ] أي: بالواجب النَّيِّر، لا للعبث واللعب، بل ليدلَّ على سلطانه، ويثبت شرائعه، ويضع الدلائل لأهلها، ويعم المنافع، إلى غير ذلك مما لا يُحصى عدًّا.

ثم أَمر الله تبارك وتعالىٰ نبيَّه ﷺ بالخضوع لأمره، وتلاوة القرآن الذي أُوحي إِليه، وإِقامة الصلاة، أَيْ إِدامتها والقيام بحدودها. ثم أَخبر ـ حُكْماً مِنه ـ أَن الصلاة تنهى عن الفحشاءِ والمنكر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي بأَن المصلِّي إِذا كان على الواجب من الخشوع والإِخبات وذِكْر الله تعالىٰ وتوهُّم الوقوف بين يديه، وأَن قلبه وإِخلاصه مطَّلَع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتذلَّلت، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالىٰ، فاطَّردت لذلك في أَقواله وأَفعاله وانتهى عن الفحشاءِ والمنكر، ولا يكادُ يَفْتُر من ذلك حتى تُظَلِّلَهُ صلاة أُخرى يَرْجِع بها إِلى أَفضل حالة، وهذا معنى هذا الإِخبار؛ لأَن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أَن تكون. ورُوي عن بعض السَّلف أَنه كان إِذا قام إِلى الصلاة ارْتَعد واصْفَرَّ لونه، فكُلِّم في ذلك فقال: إِنِّي واقف بين يدي الله تبارك وتعالىٰ، وحق لي هذا مع ملوك الدُّنيا، فكيف مع مِلِك الملوك؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه صلاةٌ تَنْهى ـ ولا بُدَّ ـ عن الفحشاءِ والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإِجْزاءِ، لا خشوع فيها ولا تذكُّر ولا فضائل، فذلك يتركُ صاحبَها من منزلته حيث كان، فإِن كان على طريقةِ معاصٍ تبعده عن الله تعالىٰ تمادى على بُعده، وعلى هذا يُخَرَّج الحديث عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، والأَعمش، وهو قولهم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاءِ والمنكر لم يزْدَدْ من الله إِلاَّ بُعْداً»[1]، وقد روي أَن الحسن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ من طريق ليث بن أبي سُلَيْم ـ وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً عليه، ومن رواية ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً عليه، قال ابن كثير، «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وقتادة، والأعمش، وغيرهم»، ولكن الحديث ضعيف السند في المرفوع من أجل ليث بن أبي سُلَيْم، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تضعيف متن الحديث في فتاويه، وهو ما ذكره=

أَرسله عن النبي ﷺ، وذلك غير صحيح السَّند، سمعتُ أَبي رضي الله عنه يقول: فإِذا قدرناه، ونظرنا معناه فغير جائز أَن يقول: إِن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالىٰ حتَّى كأَنها معصية، وإِنما يتخرج ذلك على أَنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالىٰ، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاءِ والمنكرِ والبُعْدِ، فلم تزدهُ الصلاةُ إِلاَّ تقرير ذلك البُعْد الذي كان سبيله، فكأَنها بَعَّدَتْهُ حين لم تَكُفَّ بُعْدَهُ عن الله تعالىٰ. وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن فلاناً كثير الصلاة، فقال: إِنها لا تنفع إِلاَّ من أَطاعها. وقرأَ الربيع بن أَنس: [إِن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاءِ والمنكر]. وقال ابن عُمر رضي الله عنهما: الصلاة ـ هنا ـ القرآن، وقال حمَّاد ابن أَبي سليمان، وابن جريج، والكلبي: إِن الصلاة تنهى ما دمتَ فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عجمة، وأَين هذا مما رواه أَنس بن مالك؟ قال: كان فَتًى من الأَنصار يصلي مع النبي ﷺ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إِلاَّ ركبه، فقيل ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إِنَّ صلاته ستنهاهُ»، فلم يلبث أَن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «أَلم أَقُلْ لَكُمْ»؟

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال ابن عباس، وأَبو الدرداءِ، وسلمان، وابن مسعود، وأَبو قرة رضي الله عن الصحابة أَجمعين: معناه: ولذِكْرُ الله إِياكم أَكبر من ذكركم إِيَّاه[1]، وقيل: معناه: ولذكْرُ الله أَكبر مع المداومة على الصلاة في النهي عن الفحشاءِ والمنكر، وقال ابن زيد، وقتادة: لذِكْرُ الله أَكبر من كل شيءٍ، وقيل لسلمان: أَيُّ الأَعمال أَفضل؟ فقال: أَما تقرأُ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، كأَنه يحضُّ عليه في هذين التأْويلين الأَخيرين.

= ابن عطية هنا عن والده، وهو تحليل دقيق فاهم، وقد نقله عنه القرطبي. وانتهى العلماءُ إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتزيد الإنسان قرباً من الله إذا كانت على وجهها، والدليل على ذلك الحديث الذي رواه أنس بن مالك وذكره ابن عطية بعد ذلك.

(١) اختار الطبري هذا القول، وروى مرفوعاً من حديث موسى بن عُقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه»، وبهذا القول قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد. وذكر السيوطي الحديث في الدر المنثور من رواية ابن السُّنِّي، وابن مردويه، والديلمي، وقال ابن كثير: «رُوي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أن المعنى: ولذِكْرُ الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاءِ والمنكر، فالجزءُ الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاءَ لا يكون إلا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له، وثواب ذلك الذِّكر أن يذكره الله تعالىٰ، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم»[1]. والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نَهْي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلاَّ من الله تعالىٰ، وأمَّا ما لا يتجاوز اللِّسان ففي رتبة أُخرى، وذكْرُ الله تعالىٰ للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وباقي الآية ضربٌ من التَّوعُّد والحث على المراقبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قرأ الجمهور: (إلاَّ) على الاستثناءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [ألَا] بفتح الهمزة وتخفيف اللام، واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية.

فقال ابن زيد: معناها: لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب[3]، فكأنه قال: «أهلَ الكتاب المؤمنين»، ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلكم، وغير ذلك، وقوله تعالىٰ ـ على هذا التأويل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم، فالآية ـ على هذا ـ مُحكمة غير منسوخة.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكْر، والبخاري في التوحيد، والترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الأدب، وأحمد في مسنده في أماكن كثيرة، ولفظه كما في مسلم: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عِنْد ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة».

(٢) من الآية (١٥٢) من سورة (البقرة).

(٣) كعبد الله بن سلام ومن آمن معه.



وقال مجاهد: المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى والباقون على دينهم. أمر الله تعالىٰ المؤمنين ألاَّ يجادلوهم إلاَّ بالأحسن: من الدعاءِ إلى الله تعالىٰ، والتنبيه على آياته؛ رجاءَ إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة، وقوله ـ على هذا التأويل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ معناه: ظَلَموكم، وإلاَّ فكُلُّهم ظَلَمة على الإطلاق، فيُرَادُ به مَنْ لم يُؤَدِّ جِزْية، ونَصَب الحرب، ومَن قال وصرَّح بأَنَّ للهِ ولداً، أَو لَهُ شريك، أَوْ يَدُهُ مغلولة، فالآية ـ على هذا ـ منسوخة في مهادنة من لم يحارب، قال قتادة: هي منسوخة بقول الله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1] الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يتوجَّه في معنى الآية إنما يتَّضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أَن السُّورة مكِّيَّة من بعد الآيات العشر الأُول، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزْية ولا غير ذلك، وكانت اليهود بمكَّة وفيما جاورها، فربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أَمر الدين وتكذيب، فأَمر الله تعالىٰ المؤمنين ألاَّ يجادلوهم بالمحاجَّة إلاَّ بالحسنى دعاءً إلى الله تعالىٰ ومُلاينة، ثم استثنى مَن ظلم منهم المؤمنين، إمَّا بفعل وإمَّا بقول، وإمَّا بإذاية محمد ﷺ، وإمَّا بإعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عُزَيْر ابن الله، ونحو هذا، فإن هذه الصِّفة اسْتُثْنِيَ لأَهل الإسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أَحسن، ثم نُسخ هذا بعْدُ بآية القتال والجزية. وهذا قول قتادة.

قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية. قال أَبو هريرة: كان أَهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أَهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2]. وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لاَ تَسأَلوا أَهل

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (التّوبة).

(٢) أخرجه البخاري، ، النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، (الدر المنثور)، ، في تفسير ابن كثير بعد أن نقل رواية البخاري للحديث: «وهذا الحديث تفرد به البخاري».



الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحق وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۝٤٩﴾.

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمَّن نزول شرع وكتاب من الله تعالىٰ على أَنبيائه قبل محمد ﷺ، فحسُن لذلك عطف ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ على ما في الضمن، أَي: وكإنزالنا على من تقدَّمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب، و[الْكِتَاب]: القرآن.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة والإنجيل، أَيْ: فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأُوتوه حينئذ يؤمنون به، أَي: كانوا مصدقين بهذا الْكتاب الذي أنزلناه إليك، فالضمير في [بِهِ] عائد على القرآن. ثمَّ أَخبر عن معاصري محمد ﷺ أن منهم من يؤمن به. ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا الإخبارُ بِغَيْب بيَّنه الوجود بعد ذلك، ثمَّ أَنْحَى على الجاحدين مِن أُمَّة قد آمن سلفُها في القديم وبعضها في الحديث، وحصل الجاحدون منهم في أَحسن رُتبة من الضلال، ويُشبه أَن يُراد أَيضاً في هذا الإنحاءِ كفَّار قريش مع كفَّار بني إسرائيل.

ثمَّ بيَّن تعالىٰ الحُجَّة على المُبْطلين المرتابين، وأَوضح أَنَّ مِمَّا يُقوِّي نزول هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالىٰ أَنَّ محمداً ﷺ جاءَ به في غاية الإِعْجازِ والطول

---

(١) أخرجه ابن جرير عن عبد الله، قال ابن كثير: «وهو ابن مسعود» ـ وفي آخره زيادة على ما هنا: «فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال». وفي الدر المنثور: أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً، وزاد في آخره على ما هنا: «فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه». وأخرج البيهقي في سننه وفي الشعب، والديلمي، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديثاً بنفس اللفظ الذي ذكره ابن عطية هنا، ،زاد في آخره: «والله لو كان موسى حيّاً بين أَظْهُرِكُم ما حَلَّ له إلا أن يتبعني»، قال ذلك الإمام السيوطي في الدُّرّ المنثور.

والتضمُّن للغيوب وغير ذلك، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتب، ولا يتلو كتاباً، ولا يخُط حرفاً، ولا سبيل له إلى التَّعلُّم، فإنه لو كان ممَّن يقرأُ لارتاب المُبطلون، ولكان لهم في ارتيابهم تعلُّق، وأَما ارتيابهم مع وضوح هذه الحُجَّة فظاهرٌ فساده. قال مجاهد: كان أَهل الكتاب يجدون في كتبهم أَنَّ محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأُ كتاباً فنزلت هذه الآية، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: «ما مات النبيُّ ﷺ حتَّى كتَب»، وأَسند أَيضاً حديثاً لأَبي كَبْشَة السَّلُولي، مُضمَّنه أَنه عليه الصلاة والسلام قرأَ صحيفة لِعُيَيْنَة بن حصن، وأَخبر بمعناها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف. وقول الباجِيِّ رحمه الله منه[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ إِضرابٌ عن مُقَدَّر من الكلام يقتضي ما تقدَّم، كأَنه قال: «ليس الأَمر كما حسبوا، بل هو...»، وهذا الضمير يحتمل أَن يعود على القرآن، ويؤيده أَن في قراءَة ابن مسعود: [بَلْ هِيَ آيَاتٌ]، ويحتمل أَن يعود على محمد ﷺ، ويؤيده قراءَة من قرأَ: «بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ» على الإِفراد[2]، وقال: المراد النبي ﷺ، ويحتمل أَن يعود على أَمر محمد ﷺ أَنه لم يَتْلُ ولا خَطَّ، وبكلٍّ احتمال قالت فرقة، وكون هذا كله آيات ـ أَي علامات في صدور العلماءِ من المؤمنين في أَمر محمد ﷺ ـ يراد به مع النظر والاعتبار.

و[ٱلظَّٰلِمُونَ] و[ٱلْمُبْطِلُونَ] قيل: يعم لفظهما كلَّ مكذِّب بمحمد ﷺ، ولكن معظم

---

(١) قال القاضي أبو الوليد الباجي ما خلاصته أن النبيَّ ﷺ كتب يوم الحديبية، واستند في ذلك إلى ما وقع في صحيح مسلم من حديث البراءِ في صلح الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «اكتب الشرط بيننا، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: لو نعلم أَنَّك رسولُ الله بايعناك ـ وفي رواية تابعناك ـ ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فأمر علياً أن يمحوها، فقال عليٌّ: والله لا أَمْحَاهُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَرني مكانها»، فأراه فمحاها وكتب: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا، فقال: «فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب». فقال جماعة منهم الباجي، وأبو ذرٍّ (عبد الله بن أحمد الهروي)، والسمناني (أبو عمرو الفلسطيني)، قالوا بجواز هذا الظاهر، وأنه ﷺ كتب بيده، واشتد نكير الفقهاء في المشرق والمغرب على قول الباجي هذا، وإليه يشير ابن عطية.

(٢) قال العلماءُ: ويؤيده أيضاً قراءة ابن مسعود وابن السميفع: «بَلْ هَذا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»، وكان ﷺ آيات لا آية واحدة.



الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم، قاله مجاهد. وقال قتادة: [ٱلْمُبْطِلُونَ]: اليهود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

الضمير في [قَالُوا] لقريش ولبعض اليهود؛ لأنهم كانوا يُعَلِّمون قريشاً هذه الحُجَّة: لم يَأْتِكُم بمثل ما جاءَ به موسى من العصا وغيرها. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم، وعلي بن نصر عن أَبي عمرو: [آية من ربه]، وقرأ نافع، وابن عامر، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: (آيَاتٌ)، فأَمر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يعلِّمهم أَن هذا الأَمر بيد الله تبارك وتعالىٰ لا يستنزله الاقتراح والتمنِّي، وأَنه بُعث نذيراً، ولم يؤمر بغير ذلك. وفي مصحف أُبَي: [لو ما يأْتينا بآيات من ربه قل إِنما الآيات].

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأَمر القرآن الذي هو أَعظم الآيات، ومعجزٌ للجن والإِنس، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، ثم قرَّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين، فقوله: ﴿أو لم يكفهم﴾ جواب لمن قال: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ ﴾.

وحكى الطبري أَن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أَتَوْا النبي ﷺ بكُتُب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أَخبروهم بشيءٍ من التوراة، فأَنكر رسول الله ﷺ ذلك، قال: «كفى بهذا ضلالة، قوم رغبوا عمَّا أَتاهم به نبيُّهم إلى ما أَتى به غيره»، ونزلت الآية بسببه[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأْويل الأَول أَجرى مع نسق الآيات.

---

(١) رواه الطبري، من طريق يحيى بن جعدة، قال الحافظ ابن حجر في التقريب عن جَعْدة: «ثقة»، وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» من رواية الإسماعيلي في معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالاستناد إِلى أَمر الله تبارك وتعالىٰ، وأَن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أُمورهم، وقوله: [بِالْبَاطِلِ] يريد: بالأَصنام والأَوثان وما يتبع أَمرها من المعتقدات[١]، والباطل هو أَن يُفعل فعل يُراد به أَمر مَّا، وذلك الأَمر لا يكون عن ذلك الفعل، والأَصنام أُريد بأَمرها الأَكملُ والأَنجحُ في زعم عُبَّادها، وليس الأَكمل والأَرجح إِلاَّ رفضُهَا، فهي إِذاً باطلٌ، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يريد كُفَّار قريش في قولهم: ﴿فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[٢] وغير ذلك من استعجالهم ـ على جهة التعجيز والتكذيب ـ بعذاب الله تعالىٰ الذي توعدهم محمد ﷺ. ثمَّ أَخبر تعالىٰ أَنه يأْتيهم بغتة، أَي: فجأَة، وهذا هو عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بدر، وفي السنين السبع. ثمَّ ذكر تعالىٰ أَن تأَخُّره إِنما هو بحسب الأَجل المقدور السابق. وذكر المفسرون عن الضحاك أَن الأَجل المسمَّى بهذه الآيات الآجالُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف يردُّه النظر، والآجال لا محالة أَجلٌ مُسَمًّى، ولكن ليس هذا موضعها.

ثمَّ توعدهم تبارك وتعالىٰ بَعْدُ بعذاب الآخرة في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، كرَّر فِعْلَهم وقَبَّحه، وأَخبر أَن وراءَهم إِحاطة جهنم بهم. وقال عكرمة ـ فيما حكى الطبري ـ أَن جهنم ها هنا أَراد بها الْبَحْر.

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الباطل: غيرُ الله، وقال مقاتل: ﴿بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا﴾ أي: بعبادة الشيطان، وقال يحيى بن سلام: بإبليس. والمعروف في اللغة أن الباطل هو نقيض الحق، وأنه يجمع ـ على غير قياس ـ على أباطيل، وقال أبو حاتم: يُجْمع بَوَاطل.

(٢) تكررت في الآيات: (٧٠، ٧٧) من سورة (الأعراف)، (٣٢) من سورة (هود)، (٢٢) من سورة (الأحقاف)، ولكنها كانت من أقوام عاد وثمود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ﴾ ظرفٌ يعمل فيه قوله: [مُحِيطٌ]. و[يَغْشَاهُمُ] معناه: يغطِّيهم من كل جهة من جهاتهم. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (وَيَقُولُ)، أي: ويقول الله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [وَنَقُولُ] بالنون، فإمَّا أن تكون نون العظمة، أو نون الجماعة، جماعة الملائكة. وقرأ ابن مسعود: [وَيُقَالُ] بياءٍ وألِف، وهي قراءَةُ ابن أَبي عبلة.

وقوله تعالىٰ: [ذُوقُوا] توبيخٌ، ويُشَبَّه مسُّ العذاب بالذَّوق ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(1)، ومنه قول أبي سفيان: «ذُقْ عَقَق»، ونحو هذا كثير، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بما في أعمالكم من اكتسابكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

هذه الآياتُ نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم تعالىٰ بِسَعَةِ أَرضه، وأن البقاءَ في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُلْتمس عبادة الله تعالىٰ في أَرضه. وقال ابن جبير، وعطاء، ومجاهد: إن الأَرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حقٍّ، وقاله مالك، وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير(2): قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ عدةٌ بِسَعة الرزق في جميع الأَرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: [يَا عِبَادِيَ] بفتح الياءِ، وقرأ أَبو

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٢) مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير، العامري، الحَرَشِيُّ، أبو عبد الله البصري، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقةٌ عَابِدٌ فاضلٌ من الثانية، مات سنة خمس وسبعين.



عمرو، وحمزة، والكسائي بسكونها، وكذلك قرأ نافع وعاصم: (أَرْضِي) ساكنةً. وقوله تعالىٰ: [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: «فَإِيَّايَ اعبدوا فاعبدون»[1]، على الاهتمام أيضاً في التقدير.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية، تحقير لأَمر الدنيا ومخاوفها، كأَن بعض المؤمنين نظر في عاقبة ما يلحقه في خروجه من وطنه أَنه يموت أَو يجوع ونحو هذا، فحقَّر الله تعالىٰ شأْن الدنيا، أَي: أَنتم لا محالة ميتون ومحشورون إِلى الله تبارك وتعالىٰ، فالبدار إِلى طاعة الله تعالىٰ والهجرة إِليه أَوْلى ما يمتثل.

وقرأَ الجمهور: [تُرْجَعُونَ] بالتاءِ من فوق، ورويت عن عاصم بالياءِ من تحت، وذكرها أَبو حاتم عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو حيوة: [كل نفس ذائقةٌ] بالتنوين [ٱلْمَوْتَ] بالنصب.

ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنَّة تحريضاً منه تعالىٰ، وذكر الجزاءَ الذي ينالونه، وقرأَ جمهور القراءِ: (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) بالباءِ، أَي: لَنُنْزِلَنَّهُم ولَنُمَكِّنَنَّهُم ليدوموا فيها، و[غُرَفاً] مفعول ثان؛ لأَنه فعل يتعدى إِلى مفعولين. وقرأَ حمزة: [لَنُثْوِيَنَّهُمْ]، من أَثْوى يُثْوي، وهو مُعَدَّى ثَوَى بمعنى أَقام، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، والربيع بن خُثَيْم[2]، وابن وثاب، وطلحة، وقرأَها بعضهم بفتح الثاءِ وتشديد الواو مُعَدّى بالتضعيف لا بالهمزة. وقوله: [غُرَفاً] نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، والتقدير: في غُرف. وقرأَ يعقوب: [لَنُبَوِّيَنَّهُم] بالياءِ من تحت، وروي عن ابن عامر: [غُرُفاً] بضم الغين والراءِ.

ثم وصفهم تعالىٰ بالصبر والتوكُّل، وهاتان جماعُ الخير كلِّه، أَي: الصبر على الطاعات، وعن الشهوات.

---

(١) هو من باب الاشتغال، وعلى ذلك فالتقدير: فاعبدوا إِيَّايَ فاعبدون.

(٢) الرَّبيع بن خُثَيْم، قال في التقريب: «بضم المعجمة وفتح المثلثة، ابن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي، ثقة عابد مخضرم، من الثانية، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك، مات سنة إحدى وستين، وقيل: ثلاث وستين»، وفي الخلاصة ضبطه (خَيْثَم) بفتح الخاءِ والثاءِ، وسكون الياءِ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[كَأَيِّنْ] بمعنى (كَمْ)، وهذه الآية تحريض على الهجرة؛ لأَن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا: غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم، فمثَّل لهم بأَكثر الدواب التي تتقوت ولا تَدَّخر ولا تَرَوَّى في رزقها، والمعنى: فهو يرزقكم أَنتم، ففضِّلوا طاعة الله تعالىٰ على كل شيءٍ. وقوله تعالىٰ: [لَا تَحْمِلُ] يجوز أَن يريد: من الحَمْل، أَي: لا تنقل ولا تنظر في ادخاره، قاله أَبو مجلز، ومجاهد، وعلي بن الأَقمر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والادخار ليس من خلق الموقنين، وقد قال رسول الله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كيف بك إِذا بقيتَ في حُثالة من الناس يخبئون رزق سنة بضعف اليقين»(١)، ويجوز أَن يريد من الحمالة، أَي: لا تتكفَّل برزقها ولا تَرَوَّى فيه(٢).

ثمَّ خاطب تعالىٰ نبيَّه ﷺ في أَمر الكفَّار وإِقامة الحُجَّة عليهم بأَنهم إِن سأَلوا عن الأُمور العظام التي هي دلائل القدرة لم يكن لهم إِلاَّ التسليم بأَنها لله تعالىٰ، و[يُؤْفَكُونَ] معناه: يصرفون، ونبَّه تبارك وتعالىٰ على خلْق السموات والأَرض وتسخير الكواكب،

---

(١) أسند الواحدي عن عطاءٍ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من الثمار ويأكل، فقال: «يابن عمر، مالك لا تأكل» ؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، فقال: «لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين» ؟ قال: والله ما برحنا حتَّى نزلت: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وقد علَّق عليه الشوكاني بقوله: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءَه قوت العام كما ثبت في كتب الحديث المعتبرة وفي إسناده أبو العطوف الجوزي، وهو ضعيف».

(٢) لا تفكر في الأمر ولا تنظر فيه.



وذكر عظمها، ونبَّه تعالىٰ على بسط الرِّزق وقَدْره لقوم، وإنزال المطر من السماءِ، وهذه عِبَرٌ كثيرة لمن تأَمَّل بالنجاة والمعتقد الأَقوم، ثمَّ أَمر تعالىٰ نبيَّه محمداً ﷺ بحمده على جهة التوبيخ لعقولهم، وحَكَم عليهم بأَن أَكثرهم لا يعقلون ولا يبدو منهم نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وصف الله تعالىٰ الدُّنيا في هذه الآية بأَنها لهوٌ ولعب، أَي: ما كان منها لغير وجه الله تعالىٰ؛ فإِن ما كان لله تعالىٰ فهو من الآخرة، وأَمَّا أُمور الدُّنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإِنما هو لهوٌ ولعب، وتأَمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأَقوال وغير ذلك.

وانظر إِلى حاجة الغني والفقير في الأُمور الضرورية فإِنها واحدة، كالتَّنَفُّس في الهواءِ، وسدِّ الجوع، وستر العورة، وتوقِّي الحر والبرد، وهذه كلها عظم أَمر العيش.

و[ٱلْحَيَوَان] والحياةُ بمعنى، وهو عند سيبويه والخليل مصدر كالهيمان ونحوه(١)، والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد، وهو حسن. وأَصله: حَيَيَان، فأُبدلت إِحداهما واواً لاجتماع المثلين.

ثم وقفهم تعالىٰ على حالهم في البحر عند الخوف العظيم، فإِن كل بشرٍ يَنْسَى كل صنم وغيره، ويتمسَّك بالدعاءِ والرغبة إِلى الله تبارك وتعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أَي: يرجعون إِلى ذكر أَصنامهم وتعظيمها، وقوله: [لِيَكْفُرُوا] نصب بلام كيْ. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: (وَلِيَتَمَتَّعُوا) بكسر اللام، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [وَلْتَتَمَتَّعُوا] بسكون اللام على صيغة الأَمر التي هي للوعيد والتهديد، والواو ـ على هذا ـ عاطفةٌ جملةَ كلام لا عاطفةٌ فعلاً على فعل، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: [فتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ]، وفي قراءَة ابن مسعود: «فَلَسَوْفَ» باللاَّم.

---

(١) هو مصدر يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والجولان، وكل حَيٍّ كثير الحركة.



ثمَّ عدَّد تعالىٰ على كفرة قريش نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله لهم آمناً لا خوف فيه من أَحوال العرب وعاداتهم وسوءِ أَفعالهم، من القتل وأَخذ الأَموال ونحوه، وذلك هو «التَّخَطُّف» الذي كان الناس بسبيله، ثم قررهم ـ على جهة التوبيخ ـ على إِيمانهم بالباطل وكفرهم بالله ونعمته. وقرأَ جمهور القراءِ: [يُؤْمِنُونَ] بالياءِ من تحت، وكذلك [يَكْفُرُونَ]، وقرأَهما بالتاءِ من فوق الحسنُ، وأَبو عبد الرحمن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قررهم عزَّ وجلَّ على حال من افترى على الله كذباً أَو كذَّب بآياته، وهذه كانت حالهم، وأَعلمهم أَنه لا أَحد أَظلم منه، وهذا في ضمنه وعيدٌ شديد، ثم بيَّن الوعيد أَيضاً بالتقرير على أَمر جهنم، والمَثْوَى: موضع الإِقامة. وأَلفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإِيجاز وجَمْع المعاني.

ثم ذكر تعالىٰ حال أَوليائه والمجاهدين فيه، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة لِيُبَيِّن تباين الحالين، وقوله تعالىٰ: [فِينَا] معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا. قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهي قبل الجهاد العُرفي، وإِنما هو جهاد عام في دين الله تعالىٰ وطلبِ رضائه. وقال الحسن: الآية في العُبَّاد، وقال ابن عباس والحسن وإِبراهيم بن أَدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون، وقد قال النبي ﷺ: «من عَمِلَ بما عَلمَ عَلَّمه الله ما لم يَعْلَم»، ونزع بعض العلماءِ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، وقال بعض العلماءِ لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إِنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العمل بما علمنا»، وقال أَبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في هذه الآية قتالَ العدو فقط، بل هو نصرُ الدين، والرَّدُّ على المبطلين، وقَمْع الظالمين، وعُظْمُه الأَمْر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر»، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالىٰ، وهو

(١) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة).



الجهاد الأكبر، قاله الحسن وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقال سفيان بن عُيَيْنَة لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وقال الضحاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سبيل الثبوت على الإيمان»[1] و«السَّبيلُ» هنا يحتمل أن يكون طرق الجنَّة ومسالكها، ويحتمل أن يكون سبيل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النَّيِّرة. وقال يوسف بن أسباط: «هي إصلاح النيَّة في الأعمال، وحبُّ التزيُّد والتَّفهم، وهذا هو أن يُجازى العبد على حُسْنه بازدياد حُسنه، ويُعَلَّم بجديد من عِلْم مقدم، وهي حالُ من رضي الله عنه». وباقي الآية وعْدٌ.

و[مَعَ] يحتمل أن تكون هنا اسماً؛ ولذلك دخلت عليها اللام للتأكيد، ويحتمل أن تكون حرفاً، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار، كما دخلت في: إنَّ زيداً لفي الدار[2].

كمل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *

---

(١) ولكلامه بقية أوردها القرطبي، وهي: «مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقْبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، ومن لزم السُّنَّة في الدنيا سلم».

(٢) (مَعْ) إذا سكنت فهي حرف لا غير، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً وأن تكون حرفاً، والأكثر أن تكون حرفاً جاءَ لمعنى.





فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون



تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء



تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

* * *

المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدراية وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.
* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.
* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.
* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.
* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

